نجيب محفوظ

الأعمال الكاملة





دار الشروق

الغلاف والتصميم

للفنان حلمى التونى

طبعة دار الشروق الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

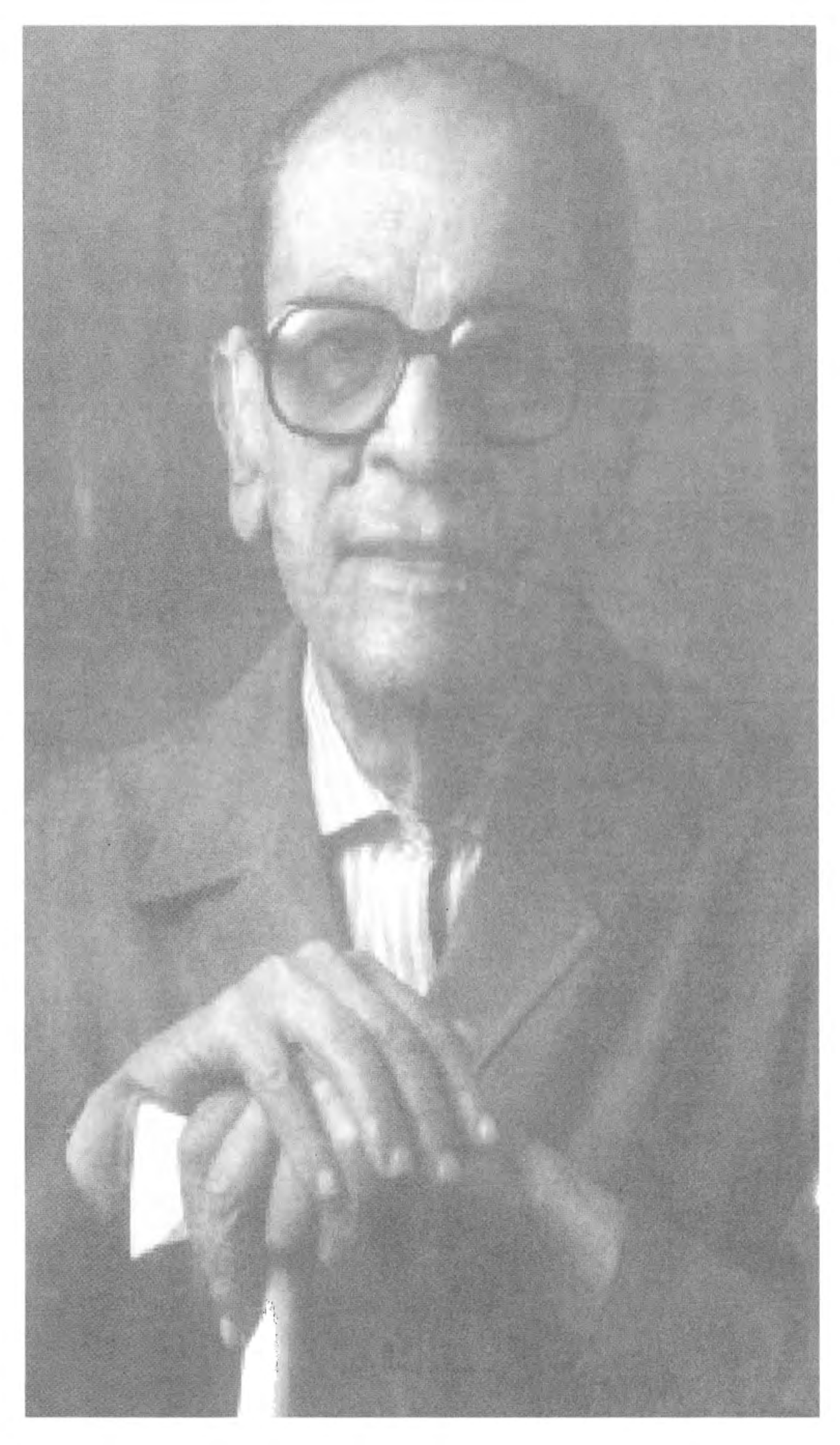
www.shorouk.com

الأعمال الكاملة

نجيب محفوظ

٦

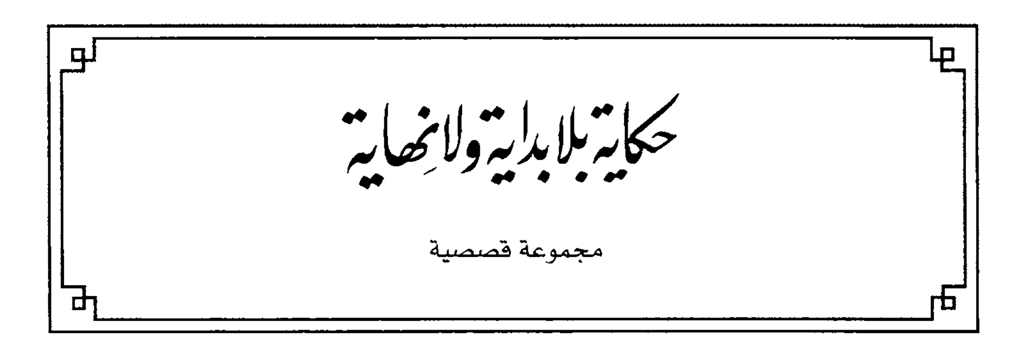
دار الشروق



الأعمال الكاملة



٦



المحتويـــات

حكاية بلا بداية ولا نهايـــــــــة

١

هتف المنشد فى نغمة بدائية :

«يا سيدى الأكرم على بابك»

فردد المريدون :

«الله . . الله . . الله . . »

تابعت عيناه المشهد من خصاص نافذة ببهو الاستقبال. تابعتا موكب أهل الطريقة وهم ينشدون ويصفقون. على أنغام الناى ودق الدفوف وتحت البيارق ينشدون، تزاحموا حول الضريح وأمام البيت الكبير حتى امتلأت بهم الحارة. وتسللت إليه فى موقفه وراء النافذة نسائم دافئة من الحديقة مترعة بأخلاط من روائح الفل والياسمين والحناء والقرنفل. لبث بمكانه فى بدلته السوداء الأنيقة مغطى الرأس بعمامة مقلوزة، ينظر ويصغى باهتمام.

« يا سيدى الأكرم على بابك»

«الله . . الله . . الله»

وارتفع صوت مكتسح النبرة يطالب الجميع بالسكوت فساد الصمت.

وراح يخطب قائلا :

«هنيئا لأهل مصر . هنيئا لمصر . اختارك الأكرم مأوى ومستقرا لشخصه ولذريته . هنيئا لك يوم قصدك قادما من المشارق . عَلى قدميه جاء . يستأنس وحوش البرارى . يخترق الَجبال ، يسير فوق الماء ، يفجر العيون فى الصخر . وهلّ على القاهرة السعيدة كالبدر ، وتجول فى أطراف متباعدة حتى استقر به المقام فى هذه البقعة الطاهرة حيث يقوم مسجده وضريحه . هنيئا يا مصر ، وهنيئا يا حارتنا ، حارة الأكرم وموطن ذريته ومريديه . منذ قرون خلت ، انبثق فى هذا المكان نور ما زال يجذب إليه فراشات من طالبى الهداية والغفران ، وترك لكم المسجد والبيت الكبير . البيت الكبير مركز الروح والنور والهدى تدور حوله كواكب الأكرمية ما بين سوريا والعراق وتركيا ولبنان وفلسطين والجزيرة والهند وفارس وتونس والجزائر ومراكش وطرابلس . بيت هو القلب الخفاق لعالم روحى شامل . يا سيدى الأكرم تحية وسلاما . يا من جبت الأقطار كلها واخترت لمقامك هذا القطر ، هذه العاصمة ، هذه الحارة ، هذا البيت . يا صانع الكرامات تحية وسلاما . ولآخر خلفائك وذريتك مولانا محمود الأكرم تحية وسلاما» .

تعالت الهتافات من الأركان ، ثم أنشد المنشد وردد المريدون :

«الله . . الله . . الله»

«يا سيدى الأكرم على بابك»

تحول عن النافذة . بوجه أسمر مستطيل ولحية سوداء قصيرة مدببة . تطلع إلى شيخ فى الستين يقف وسط البهو الكبير تحت نجفة برنزية على هيئة مئذنة . أنعم فيه النظر فتلقى نظرته بخشوع وقال :

ـ تحية وسلاما يا مولانا محمود الأكرم .

فتمتم الرجل باسما :

ـ طاب يومك يا شيخ عمار .

مضى ـ والآخر يتبعه ـ إلى كنبة تركية مفروشة بالسجاد الشيرازى على مقربة من باب السلاملك . جلس ودعا الشيخ إلى الجلوس . تتابعت نسائم الصيف العطرة متهاوية فى تضاعيف أصيل غابت شمسه وراء أشجار التوت المعششة بالعصافير . قال الشيخ محمود :

ـ من يرى موكبنا لا يتطرق إليه شك فى استقرارنا .

فقال الشيخ عمار بحماس :

ـ ما زالت الدنيا بخير .

هز الرجل رأسه فى أسى متسائلا :

ـ ماذا جرى لحارتنا؟

ـ لا شىء، سحابة صيف، عبث أطفال . .

ـ إنك لا تؤمن بما تقول يا شيخ عمار، هل سبق أن نال لسان من الطريقة؟

ـ إنه جيل جديد عجيب يمتطى مركبة الشيطان .

قطب محمود الأكرم قائلا :

ـ يسخرون من الطريقة، ومن المريدين، ومنى شخصيا، ويرسلون النكات فى مقاهى الحارة بكل وقاحة .

ـ وباء هذا الزمن، ماذا جرى لهذا الجيل؟ كيف هانت عليه مقدساته؟! ولكنه عبث أطفال ليس إلا .

ـ ألم يسمعهم المريدون؟

ـ بلى يا مولاى .

ـ ماذا فعلوا؟

ـ نصحوهم بالتى هى أحسن، وركبهم الغضب مرات، ولكن أحدا منهم لم ينس أن الحارة أسرة واحدة .

وقال محمود الأكرم بحدة :

ـ لولا الأكرمية ما كان للحارة شأن . .

ـ هو الحق يا مولاى، وقد هيجنى الغضب مرة كدت . .

ولكنه قاطعه قائلا :

ـ لا يليق العنف بأهل الطريق!

ـ ولكن للصبر حدوداً .

ـ أسأل الله ألا تدفعنا الأحداث إلى تجاوز القصد .

رفع بصره إلى الساعة الكبيرة فى الجدار الأوسط ثم تساءل :

ـ متى يجيئون؟

ـ لعلهم فى الطريق إلينا .

ـ ألا يوجد بينهم زعيم أو محرض أو ما شاكل ذلك؟

ـ ليس هناك تنظيم أو زعامة، ولكن ثمة شابا يتسم بوقاحة مركزة يدعى على عويس .

ضيق الشيخ عينيه متفكرا وقال :

ـ على عويس؟! . . إنى أعرف هذا الاسم أو على الأقل بعضه .

ـ إنه ابن المرحوم عويس سواق الكارو .

استقام ظهر الرجل بغتة وتساءل :

ـ شقيق المدرِّسة؟!

ـ شقيق زينب عويس المدرسة .

نظر الشيخ محمود إلى حذائه الأسود صامتا ، فقال الشيخ عمار :

ـ لعله ليس من الحكمة أن تفتح المدارس لكل من هب ودب .

فتمتم الشيخ محمود وكأنما يحدث نفسه :

ـ إذن فهو شقيق زينب عويس!

ـ يغادر كل صباح بيتا قديما أعد مدخله قديما موقفا للكارو ليذهب إلى الجامعة! . .

ـ يقال إن شقيقته شقت طريقها بإرادة من حديد .

ـ إنها عانس ، مدرسة أطفال ، ذات دخل ضئيل . وفى هذه الجحور يترسب الحقد يا مولاى ، ويتستر على نفسه السوداء بالسخرية والنكات الجارحة .

ـ ليتك دعوت شابا آخر .

ـ إنه أسلطهم لسانا!

ـ كان أبوه مريدا لأبى ، وكان محمود السيرة على رغم ضعته وفقره .

ـ قلت لهم اختاروا من بينكم نخبة لمقابلة مولانا فكان أجرأهم على القبول . رفض البعض ، وتردد البعض الآخر . ولكنى أعتقد أنه سيجىء منهم نفر لعلهم أصلبهم .

ـ طليعة الخاطئين . .

تنهد الشيخ عمار قائلا :

ـ لم تعرف حارتنا أمثالهم من قبل . .

ـ هو زمن الغرور والوقاحة .

ـ يخيل إلى أن جامعاتنا معاقل أجنبية!

حدجه الشيخ محمود بنظرة عابسة فتراجع الرجل فى استحياء قائلا :

ـ إلا من هداه الله وحفظه . .

ـ رحم الله أبى .

* * *

ـ لقد جئتك بالمعلمين ، ولكنك ترغب فى دخول مدارس الدنيا .

ـ لا بأس من ذلك يا أبى .

ـ كل علم فهو من عند الله .

ـ الحمد لله .

ـ ولكن العبرة بالجهاد وعليه يتوقف الطريق .

ـ سمعا وطاعة يا أبى .

ـ لكى تكون خليفة كما ينبغى لك .

ـ أجل يا أبى .

ـ إن علوم الدنيا لها نهاية أما جهاد الطريق فلا نهاية له .

* * *

ولما خرج من أعماق صمته قال الشيخ عمار :

ـ ليرحم الله أباك .

وطيلة الوقت لم ينقطع إنشاد المنشدين وترديد المريدين ، ولكنه انخفض درجات كأنما يجىء من بعيد . تابعه الشيخ محمود بشىء من الحزن ثم قال :

ـ ياللذكريات ! عرفنا ذات يوم أسماء جذابة كأرشميدس ونيوتن ، وحقائق غريبة كالجزىء والحركة ، ولم أتصور وقتذاك أنها ستطاردنا بعنف كالزمن .

دخل خادم يستأذن للقادمين . . أشار الشيخ محمود للشيخ عمار فقام ليغادر المكان فى أثر الخادم ولكنه أضاء النجفة قبل أن يغيبه الباب . دخلت مجموعة من الشبان ، عشرة بالتمام . دون العشرين سنا ، يرتدون البنطلونات والأقمصة نصف كم ولا تخفى على عين قدم ملابسهم . وقف الشيخ لاستقبالهم فتمت المصافحة بطريقة حديثة لم يتوقعها ولم يألفها . مد يده منتظرا تقبيلها ولكن شدت عليها الأيدى باحترام دون تقبيل . بدأ التعارف فقدم كل نفسه . الجميع طلبة بالجامعة ، بالآداب خاصة ، ما عدا واحدا بالهندسة ، وآخر بالعلوم هو على عويس . تفحصه بنظرة عميقة بقدر ما سمح الموقف الخاطف . لمح قسمات غير غريبة كنغمة قديمة عزفت بعد نسيان ، ونظرة حركت باطنه بقوة مذهلة ، فسرها بالحنق فاستعاذ بالله من الشيطان فى سره ولكنها كانت ألصق بالقلق والحيرة .

قال باسما :

ـ حللتم أهلا وسهلا . . .

فأجاب أكثر من صوت :

ـ شكرا ياصاحب الفضيلة .

قلب عينيه فى الوجوه الغالب عليها الشحوب وقال :

- لا تعجبوا لدعوتى إياكم، فهذا البيت مفتوح لجميع أبناء الحارة، وبمعنى آخر هو بيت الجميع . .

فقال أحدهم :

- فرصة طيبة وهبة سعيدة .

لاحظ أن الآخرين جالوا بأبصارهم فى المكان وصاحبهم يتكلم فشعر بحدة التناقض بين رثاثتهم وفخامة الجدران المحلاة بالأبسطة المزركشة والحصر الملونة وزينة الأرابيسك، والسقف الأبيض العالى تتدلى من وسطه النجفة البرنزية ومن أركانه الفوانيس الأندلسية . بدوا كحشرات حادة تغوص فى شباك البساط الكبير الدسم .

قال الشيخ :

- نحن قوم مهمتنا فى الحياة التواضع لله وحب الناس .

- ما أجمل أن نسمع ذلك!

- وإذا كان الحوار مفيدا بين الناس فى كل حين، فما أوجبه إذا نشب بينهم ما يدعو إلى سوء التفاهم .

صدقوا على قوله بإحناءات من رءوسهم العارية فقال :

- وطريقى أن أدخل الموضوع رأسا، بلا لف ولا دوران ثم أتركه يتفرع كيف شاء بعد ذلك .

استقرت فى أعينهم نظرات استطلاع وتوقع فقال :

- بلغنى يا سادة أنكم تخوضون فى كرامتنا وتهزءون بنا؟

فأجاب أحدهم :

- لا يخلو الخبر من مغالاة . .

- أتنكرون ذلك؟

فأجاب آخر :

- لعل مزاحنا علا أكثر مما ينبغى .

قال الشيخ محمود ممتعضا :

- لو جاء ذلك من خارج حارتنا ما اكترثنا له، بل حتى وهو من صميم حارتنا كان يمكن أن ألقاه بالصبر والحلم لولا أن بعض المريدين هموا مرة بالدفاع عن مقدساتهم فآلمنى ذلك جدا، إذ إننا قوم مهمتنا الأولى فى الحياة هى حب الناس لا الاعتداء عليهم، وبخاصة إذا كانوا من أبنائنا، لذلك قررت أن أدعوكم لتتضح لأعيننا المواقف والسبل، ولنتعاون على تحكيم الحكمة والرشاد فيما بيننا . .

قال صوت :

ـ سلوك حميد خليق بفضيلتكم .

قلب عينيه فى وجوههم مرة أخرى ثم تساءل :

ـ ألا تعرفون ماذا يعنى الأكرم وطريقته لحارتنا؟

ساد الصمت قليلا حتى خرج منه على عويس قائلا :

ـ الحق أن نوايانا حسنة وإن يكن مزاحنا عاليا ، ولكى تعرفنا على حقيقتنا فاعلم يا سيدى أننا طلاب علم ، نحب الحقيقة أكثر من أى شىء فى الوجود ، يؤسفنا أننا أزعجناك .

عاوده القلق لدى سماع صوته ، ولكنه كبح انفعالاته وقال :

ـ نحن لا يزعجنا شىء . حتى الموت نفسه لا يزعجنا . ونحن طلاب الحقيقة منذ الأزل وإلى الأبد .

فقال على عويس :

ـ لعله اختلاف فى وجهة النظر .

ـ لم يطالبكم أحد بالدخول فى طريقتنا .

ـ الآراء المتناقضة يا سيدى لا يمكن أن تعيش جنبا إلى جنب فى سلام .

فتساءل الشيخ بحرارة :

ـ ألا تعلمون أنه لولا الأكرم ، لولا الأكرمية ، لما كان لحارتكم ذكر ولا لأهلها شأن أو أمل .

فقال عويس بثبات :

ـ الدنيا تتغير بلا توقف ولا رحمة يا مولانا .

ـ ولكن الحقائق باقية خالدة .

ـ التغير هو الشىء الوحيد الخالد يا مولانا!

ـ التغير؟!

ـ التغير فى كل يوم ، فى كل ساعة ، فى كل لحظة . . .

ـ أراك تتعلق بظاهر كاذب خداع .

ـ معذرة يا سيدى فالظاهر الكاذب هو الجمود . . .

ابتسم الشيخ مداراة لضيقه وقال :

ـ لا وقت الآن لمناقشة الظاهر والباطن وإلا طال النقاش بنا دهرا . بيد أنه واضح أنكم لا تؤمنون بطريقتنا؟

لم ينبس أحد منهم بكلمة فقال الشيخ :

ـ الصمت جواب ، فهل تؤمنون بطريقة أخرى؟

فأجاب أحدهم :

ـ لنا فى الحياة سبيل آخر غير الطرق!

ـ إجابة مفجعة ، ترى ماذا تأخذون على طريقتنا؟

فسأله على عويس :

ـ هل يتسع يا سيدى صدرك لصراحتنا؟

ـ إنه أوسع مما تتصور .

فقال أحدهم .

ـ الحياة فى حارتنا معاناة أليمة . .

وقال آخر :

ـ إنها صحراء مخيفة مليئة بالأكاذيب .

وقال على عويس :

ـ صغار المريدين ، وهم الكثرة الغالبة ، حفاة خانعون . . .

فقال الشيخ بعجلة :

ـ إنهم راضون ، والرضا مطلب روحى مضنون به على غير أهله . .

ـ لا يملكون حيال قوتكم إلا الرضا وإلا ماتوا جوعا ، ولكن لا شك فى أنهم يمرون حيارى بهذا البيت الكبير الغارق فى الرفاهية . .

قال الشيخ بحدة لأول مرة :

ـ بيت آبائى وأجدادى مذ أقامه القطب الأول .

فقال الشاب بجرأة جنونية :

ـ أقيم بأموال المريدين كسائر العمارات الشاهقة فى وسط المدينة . .

قام الشيخ محافظا على هدوئه ما أمكن . تقدم خطوات مستقبلا باب البهو المفضى إلى الحديقة كأنما ليرطب انفعالاته . تمتم دون أن يلتفت إليهم :

ـ قاتل الله الحقد والحسد .

فقال الشاب ثملا باستهتاره :

ـ إنهما وقود الحق إذا اختل الميزان .

فقال الشيخ بازدراء :

ـ وقودنا الحب وحده .

ـ ذلك يا سيدى أنك لم تذق عض الجوع ولا ضراوة الكدح ولا رهبة القوة الغشوم . .

وتحول الشيخ إليهم بنظره وهو يقول :

ـ إذن فهذه هى المسألة !

ـ المسألة ؟ !

ـ إنكم تريدون نقودا ؟ !

ـ بمعنى ما ولكننا لا نريد رشوة . .

ـ ماذا تريدون ؟ . . صارحونى كما وعدتم .

أجاب أحدهم .

ـ ليس فى عقولنا مطالب أوضح مما نطقت به شكاوانا . . .

وقال آخر :

ـ يريحنا أحيانا أن نطالب بنقيض ما هو قائم !

فعبس الشيخ قائلا :

ـ لا يخلو كلامكم من خدر هو التمويه نفسه . حسن ، إنى أشم رائحة فوضوية !

فقال على عويس :

ـ لا تهمنا الأسماء ، وفى الوقت نفسه فهى لن تخيفنا . . .

ـ لعلكم تحلمون بالقتل ؟

ـ القتل ؟ !

ـ بدأتم بالسخرية وستنتهون بالدم . .

ـ أحلامنا تحوم حول هدف واحد هو التقدم . .

ـ يا فتى ، إنى جامعى مثلكم !

ـ نعرف ذلك يا سيدى .

فعاد إلى مجلسه وهو يقول :

ـ فلنتحدث كزملاء .

ـ هذا شرف كبير لنا يا سيدى .

فابتسم مستردا بذلك هدوءه وقال :

ـ إنكم شباب فى مقتبل العمر ، أمامكم فرص لا تحصى للتعلم من الكتب والحياة

والزمن، فأى خطإ تعثرون به قابل للإصلاح؛ لذلك لا يزعجنى كثيرا أنكم لا تؤمنون بشىء . . .

- لا نؤمن بشىء؟!
- أتؤمنون بشىء؟
- إن من يعمل فلابد أن يؤمن . . .
- كثيرون يعملون كالآلات.
- ولكننا نعمل بحماس صادق.
- فلعله الطموح؟

هز على عويس رأسه هزة غير القانع ثم تساءل:

- ألا يستحق العلم أن نؤمن به يا مولاى؟
- إنه معرفة باهرة، وهو من أحب القراءات إلى نفسى.
- وما رأيك فيه؟
- إنه باب من أبواب العبادة.
- وقوته على السيطرة والتغيير؟
- خير كثير وشر كثير.
- هو خير خالص، أما الشر فيجىء من أوضاع إنسانية معوجة . .
- فما الذى يوجه الإنسان نحو الخير؟
- وعى حكيم فى مجتمع سليم.

قال الشيخ بنبرة راسخة قوية:

- لا إيمان حقيقى إلا بالله ولا خير حقيقى إلا بالله وفى سبيل الله.

وساد صمت فترامى من الحديقة نقيق، وخشخشة أوراق، على حين ارتفعت من الحارة ضجة عابثة ضاحكة. جعل الشيخ ينقل عينيه بينهم. لم يستطع تجنب النظر إلى عويس. وقال:

- لعلكم تؤمنون بالإنسان، هكذا يقال كثيرا فى هذه الأيام، ولكن ما قيمة الإيمان بالإنسان بغير الإيمان بالبطولة؟

أجاب أحدهم:

- لا قيمة لشىء بغير البطولة.
- أى ضمان للبطولة - وهى تضحية بالنفس والمال - بغير إيمان كامل بالله؟!

ـ من المؤمنين من لا بطولة لهم والعكس صحيح!

ـ على أى أساس تقوم بطولاتهم؟

ـ إيمانهم بأنفسهم وبعالمهم!

ـ غير كاف وحده.

ـ التربية الرشيدة.

ـ ولا هذه.

فقال آخر:

ـ قد نستعين فى ذلك بالعقاقير كما نستعين بها على مقاومة الأمراض!

ابتسم الشيخ على رغمه ولكنه قال بامتعاض:

ـ حبوب للتضحية.. حبوب للشجاعة... حبوب للأمانة... ما شاء الله!

فقال على عويس منفعلا:

ـ لا تسخر منا يا سيدى، إن جميع ما حولنا يثير الحزن الشديد. لقد ضقنا بكل شىء ونريد لكل شىء أن يتغير، وقد ورثنا هذا العالم عن آباء وأجداد ظُنت بهم الحكمة يوما ما فحق لنا أن نتنكر لهم ولتراثهم...

فتمتم الشيخ ممتعضا.

ـ أسفى على الآباء والأجداد.

ـ نحن أجدر بالرثاء منهم.

تفكر الرجل قليلا ثم قال:

ـ الآن عرفت لم تسخرون من الطريقة وأهلها...

فقال أحدهم:

ـ إنك يا مولانا رجل مثقف، وليس جمعك بين البدلة والعمامة عبثا، وإن خيراً كثيرا يرجى منك لحارتنا...

ـ ترى ماذا يرجى منى؟

ـ لا شىء يخفى على فطنتك..

ـ أعطنى مثالا يا بنى...

فقال على عويس:

ـ أن تمزق ستار الأكاذيب الذى يغشى حارتنا.

ـ الأكاذيب؟!

ـ كالتناقض بين شعار الزهد والممارسة الفعلية للتسلط واقتناء العمارات الشاهقة!

وقال آخر:

ـ والكف عن التغنى بالخرافات.

ـ الخرافات؟!

فقال على عويس:

ـ معذرة عن صراحتنا ولكننا بتنا نكره الكذب حتى الموت.

ـ زيدونى صراحة!

ـ نحن مقتنعون بأن شيئًا لا يخفى عن فطنتكم..

أعقب ذلك صمت ثقيل. طال الصمت فلم يجرؤ أحدهم على خرقه.. وبذل الشيخ جهداً جبارا ليخفى انفعالاته. ونهض باسما. قال:

ـ ها قد تم التعارف بيننا، وذاك من فضل الحوار كما قلت فى بدء الاجتماع..

فقال أحدهم:

ـ نرجو أن تغفر لنا صراحتنا.

فقال الرجل بهدوء:

ـ ليغفر لنا الله جميعا.

صافحهم واحدا واحدا. غادروا البهو. ولما خلا المكان اكفهر وجهه. وروَّح عن انفعاله بالحركة ذهابا وجيئة. لم ينتبه إلى عودة الشيخ عمار حتى مثل الرجل بين يديه. وضع يده على كتفه وهو يقول:

ـ كما أخبرتنى وأكثر.

تمتم الرجل:

ـ أبالسة يا مولاى.

ـ يريدون سلب أموالنا والقضاء على نفوذنا وإهدار قيمنا..

ـ وهم يتكاثرون وتتسلل زندقتهم إلى النفوس الضعيفة.

ـ وابن سواق الكارو صاروخ مدمر.

ـ قلت إنه أسلطهم لسانا.

ـ بل هو شر من ذلك...

ـ والعمل يا مولاى؟

ابتسم الشيخ محمود قائلا:

ـ نحن قوم الحب غايتهم الأولى والأخيرة .

فابتسم الشيخ عمار بدوره قائلا :

ـ الآن عرفت سبيلى يا مولاى . .

ـ ليكن الله فى عونك .

ـ سأفعل ما يمليه الحب علىَّ ، حبنا لمقدساتنا . وحبنا للمريدين الأبرياء !

وتبادلا نظرة طويلة .

٢

جلس على الديوان تحت النجفة يرنو إلى الحديقة بعينين نصف مغمضتين . إلى جانبه استكنت العمامة فبدا شعره الأسود غزيرا مفروقا بعناية لم يتطرق إليه أثر الشيب . ومن الحارة ترامت نداءات باعة الصباح مترنمة . وفى الحديقة تألقت أوراق التوت والحناء والأعناب تحت دفقات حارة من أشعة الشمس . استغرق فى تأملات حتى انتبه على حفيف ثوب . نظر نحو جارية سوداء طاعنة فى السن جدت فى البحث عنه بعينين عمشاوين . . ناداها برقة :

ـ أم هانى . .

اتجه وجهها النحيل الضامر نحو الصوت ثم همست :

ـ امرأة تريد مقابلتك .

جاءت امرأة فى أواسط العمر ، صافية السمرة ، تعكس عيناها السوداوان نظرة جادة متجهمة تستقر فى أعماقها كآبة ثابتة . لبس العمامة ووقف فى دهشة أوشكت أن تكون انزعاجا لولا نجاحه فى ضبط مشاعره . قال :

ـ زينب ! . . أهلا . . تفضلى .

مد لها يده فصافحته بعد تردد ودون أن يند عن وجهها أى تعبير إنسانى .

ـ كيف حالك ؟ . . أهلا أهلا ، تفضلى بالجلوس .

جلست على مقعد قريب من الديوان . ظل واقفا وهو ينعم فيها النظر ثم قال :

ـ لم أرك منذ عمر طويل ، عمر طويل حقا ، ولكنى تابعت نجاحك بإعجاب . .

قالت بلهجة قاطعة فى التركيز على الهدف الذى جاءت من أجله :

ـ أرجع إلىّ أخى !

حدق فيها متسائلا وقال :

ـ ماذا عن أخيك؟ لقد اجتمعت به مع بعض زملائه فى هذا المكان منذ أيام قلائل . .

لازمت الصمت كأنها لم تسمع شيئا ، فواصل حديثه :

ـ دعوتهم بعد أن بلغنى عنهم ما بلغنى ، لا شك فى أنك سمعت بما يقال . وتناقشنا طويلا ، والتزمت فى حديثى معهم بالرفق والسماحة وسعة الصدر ، ولم أضن عليهم بالنصح الرشيد . .

فقالت من دون أدنى تأثر بكلامه :

ـ أرجعه إلىّ من فضلك!

ـ ماذا تعنين؟

ـ أنت تعرف ما أعنيه تماما . .

ـ صدقينى . .

فقاطعته بهدوئها الميت :

ـ لقد ألقى القبض على الجميع فجر اليوم . .

ـ علمت بذلك الساعة فقط ولكنى لم أفهم معنى لقولك بعد . .

فقالت دون مبالاة بأقواله :

ـ لذلك أكرهت نفسى على هذه الزيارة .

ـ الحق أننى نسيت لدى رؤيتك كل شىء .

ـ إن الأخطاء ينسى بعضها بعضا . .

فقال محتجا :

ـ يا للعجب ، إنك تسيئين بى الظن!

ـ نعم . .

ـ مغالاة جاوزت كل حد .

ـ أرجع إلىَّ أخى .

ـ أى تهمة وجهت إليهم؟

ـ يقينى أنهم أبرياء .

ـ إذا كان بريئا فسوف يرجع إليك دون شفاعة .

ـ لست أطلب شفاعتك ، ولكنى أطالبك بإصلاح خطئك .

قطب قائلا :

- اقتلعى هذا الوهم من رأسك .

- ليس وهما ما أعتقد، إنك أكبر من أى وهم!

- سامحك الله .

- إنه يسامح الولايا والضعفاء والمخدوعين والمغلوبين على أمرهم، ولكنه لا يسامح الأشرار والمنافقين .

- صدقينى . .

فقاطعته :

- لا أستطيع أن أصدقك .

- لا دخل لى فيما حصل لأخيك .

- أنت أبلغت عنه أو أحد رجالك بإيعاز منك .

هز رأسه هزة المتسامح وقال :

- لم يكن بحاجة إلى من يشى به، ارتفعت أصواتهم فى كل مكان، ودوت ضحكاتهم بالآراء الهدامة . .

- ليس فيما قالوا جريمة، ولكن انقلب الحال بعد مجيئهم لمقابلتك . .

- ماذا تعنين؟

- أحلام شباب لا تؤذى أحدا من الأبرياء، ولكن مادت الأرض عندما تطرق الحديث إلى شخصك . . .

- كلا، ولكنهم لا يؤمنون بالله، لا يؤمنون بشىء .

- أتؤمن بالله أنت؟

- أيتها الجارة . . اتقى الله . .

- ماذا لديك من درجات الإيمان التى تحفظها عن ظهر قلب؟!

- لا تحكمى على رجل لم تريه منذ عمر طويل .

- كثيرون - حتى من مريديك - يعرفونك على حقيقتك . .

- لا تعرضى بقوم يدينون لى بالولاية .

- إنهم يطيعون نداء المصالح .

- ليسعك حلمى إلى ما لا نهاية .

- لم يغضبك كفره المزعوم ولكن أغضبك رأيه فى عماراتك الشاهقة فى وسط المدينة . .

- ليغفر الله لك سوء ظنك . . .

فعادت تقول بهدوئها الميت :

ـ أرجع إلىَّ أخى . .

ـ يتعذر علىَّ التدخل فى مثل تلك الأحوال .

ـ ما دام فى قدرتك أن ترسله إلى السجن فلن يتعذر عليك إخراجه .

جلس الشيخ على الديوان . ابتسم ابتسامة من يأسى على نفسه . قال معاتبا :

ـ ليغفر الله لك .

ثم واصل حديثه :

ـ أعتقد أن الإجراءات التى اتخذت معهم لا تعدو أن تكون نوعا من الزجر ليس إلا ، ومن أجل خاطرك سأبذل سعيا حميدا ولكنى لست واثقا من النتيجة . أرجو أن تعدلى عن سوء ظنك بى ، إن اتهامك فوق احتمالى ، ولا يليق بمركزى سواء فى الطريقة أو فى الحارة ، ولقد حرمت على أتباعى حق الدفاع عن مقدساتهم إيثاراً للحب والسلام .

ـ إنى عاجزة عن تصديقك ، لدىَّ من الأسباب ما يحملنى على إساءة الظن بك دائما وإلى الأبد ، ولكنى ما كنت أتصور أنك ستلاحقنى بالأذى جيلا بعد جيل !

ـ إنى برىء مما ترميننى به .

ـ إنى أصدق قلبى وهو خير دليل .

ـ صدقينى .

ـ كلا ، ولكن أرجع إلىَّ أخى .

ـ وعدت بالسعى .

ـ سيعرف أهل المقبوض عليهم الرجل المسئول عن ذلك آجلا أو عاجلا .

فقال بحدة :

ـ جيل شرير من الأبالسة ، أوغروا الصدور بضلالهم ولا أحد من العقلاء يضمر لهم أى عطف .

ـ إنهم أفضل مما تظن .

ـ أهذا رأيك؟

ـ يودون الخير من أعماق قلوبهم .

ـ هل حدثك أخوك عن آرائهم؟

ـ أعرف أحلامهم .

ـ يا لخيبة الأمل ، كدت أطالبك بالمعاونة على تهذيبه .

ـ لقد أحسنت تربيته .

ـ إذن كيف نشأ على الحقد والحسد والتعلق بأتفه ما فى الحياة؟!

ـ أتفه ما فى الحياة؟!

ـ زينة المال الكاذبة وما يتبعها من شهوات .

تنهدت زينب وقالت :

ـ يا لك من رجل تفوق جرأته الخيال!

فرّق بينهما صمت . أراح رأسه بالنظر إلى الحديقة . تلقى دفقة من انفعالات طارئة . وكأنما يخاطب نفسه :

ـ يا للذكرى ، ها هى ذى نفحة من الماضى تهب كأنما تهب من بستان ، حاملة عرف عرق خاص ، لعله عرق الإبطين ، ناشرة صورا مطوية فى قلب الزمن ، تثير الحنين بقدر ما تثير الشجن .

ـ ماذا تعنى؟

عاد يحدق فيها ثم قال :

ـ ما زلت جميلة كما كنت . .

فهتفت بحدة :

ـ يا لك من رجل مريض!

ـ ليكن لسانك نفحة من ذكريات لا نصلا للطعن والقتل .

ـ كأنك إبليس بلحمه ودمه .

فقال باسما فى غموض :

ـ هيهات أن تعرفى عذابات رجال الطريق .

ـ ولكنى أعرف المنافقين . .

فقال متوغلا فى الانفعالات الطارئة :

ـ القلب نبع يفيض بمنصهر المعادن النفيسة والخبيثة . والسرور توءم الحزن .

ـ إنك تهذى . .

ولكنه باخ . أفاق تماما . تراخت شفتاه امتعاضا . قال بفتور :

ـ أرجو ألا يخيب مسعاى فى إرجاع الجميع إلى بيوتهم .

ـ أرجو ألا أضطر إلى المجىء مرة أخرى .

ـ بوسعك أن تفعلى شيئا لتجنيب حارتنا ويلات نزاع يوشك أن ينقلب داميا .

ـ بوسعك أنت أن تفعل هذا خيرا منى .

تساءل عابسا :

ـ أتجرين مجراهم؟! أتطمعين أنت أيضا فى مالى الحلال وولايتى المستمدة من كرامات جدى الأكرم؟!

ـ إنى أصغر شأنا من أن أنبهك إلى ما ينبغى لك .

ـ بفضل طريقتنا يؤمن أحقر رجل فى حارتنا بأنه أصل الوجود وغايته!

فقامت وهى تقول :

ـ هل أغنانا ذلك عن تعاستنا شيئا؟!

فقام أيضًا وهو يقول محتدا :

ـ إنك على وشك الزيغ يا زينب .

ـ إنى منتظرة وعدك .

ـ كان أبوك مريدا صادقا .

ـ رحمه الله .

ـ مات سعيدا كما يجدر بمؤمن .

ـ ولكنه عاش عيشة مريرة!

ـ أهم ما فى الحياة هو الموت!

مضت نحو الباب وهو تقول :

ـ إنى منتظرة وعدك . .

* * *

ـ فى هـذا البيت المقدس! وفى هــذه الحجــرة المباركــة ، عليك لعنة الله .

* * *

هَمَّ بقول شىء قبل أن تختفى ولكنه أطبق فاه ، ثم ذهب إلى النافـذة فأزاح الستـارة وألقى نظرة يتابع مسيرها . .

٣

دخل بهو الاستقبال فرأى الشيخ عمار فى انتظاره. صافحه دون أن يخفى دهشته وهو يتساءل:

ـ خير.. ما جاء بك فى هذه الساعة وقد أوشك الليل أن ينتصف؟

فأجابه الرجل وهو يغض البصر:

ـ لا غرابة أن نوجد فى هذا البيت فى أى ساعة من نهار أو ليل..

ـ جواب حسن.

جلسا والشيخ يمسح وجهه بمنديله ويقول:

ـ فى الخارج عاصفة ترابية أخشى أن تدفن الحارة دفنا، فى هذا الجو يضيق الإنسان بالحياة وتضيق الحياة بالإنسان، وعجيب أن نكون من تراب ونجزع هذا الجزع للفحة منه. وفى كل خطوة يصادفك شاب من أولئك الشبان، لقد بذلنا لهم مسعى طيبا ولكنهم لا يبدون شاكرين، كلا، إنهم أبعد ما يكون عن الشكر، وما أجدر اللئام بأن يظنوا الاستجابة الطيبة ضعفا. وذاك الشاب المتهور حدجنى اليوم بنظرة متحدية، وقديما قيل: اتق شر من أحسنت إليه! اللعنة! لم تعد الحارة بالحارة التى أولتنا الإمامة ولا الزمان بالزمان الذى طاب لنا! أكنت تنتظرنى يا شيخ عمار؟

غمغم الرجل:

ـ نعم يا مولاى...

ـ ماذا أرى؟!.. إن وراء نظرة عينيك أنباء لا تعد بخير؟..

ـ حفظك الله من كل سوء يا مولاى.

ـ ماذا حدث؟ هل وقع انقلاب خطير فى نظام الكواكب؟!

ـ الدنيا بخير، ولن ينال من كمالها عبث الأبالسة...

تساءل الشيخ بضيق:

ـ ماذا وراءك يا رجل؟

ـ نحن قوم خلقنا الله لنواجه الشدائد بقلوب أشد منها.

فقال بجزع:

ـ هات ما عندك، كلما استفحلت المصيبة كان الإيجاز أليق بها!

فقال الشيخ عمار بعناد :

ـ ليس من الوفاء أن نخفى عنك أمرا باتت تلوكه ألسنة الكثيرين .

قال بنبرة غاضبة :

ـ تكلم .

ـ ثمة نشرة مطبوعة كتبت بمداد حقد أسود .

ـ نشرة مطبوعة؟

ـ نعم .

ـ للتشهير بنا؟

ـ ما يشهرون إلا بأنفسهم .

وأخرج من جيب جلبابه نشرة على هيئة كتاب بغير غلاف مطبوعة بالرونيو ، وسلمها إليه مطرقا . تلقاها الشيخ متجهما ، تفحص صفحتها الأولى ، فرَّها بسرعة ، ثم عاد إلى صفحتها الأولى .

ـ ياله من عنوان غريب : «ماذا يُعرف عن الأكرمية» ، ولكن منذا الذى لا يعرف كل شىء عن الأكرمية؟!

نظر فى عينى الرجل متظاهرا بالاستهانة ثم سأله :

ـ أقرأتها؟

ـ نعم يا مولاى .

ـ مهاترات؟!

ـ نفثات شيطان رجيم .

ـ هل وزعت على نطاق واسع ؟

ـ على جميع من يعرفون القراءة فى حارتنا .

ـ متى حدث ذلك؟

ـ لم أدر بها إلا اليوم .

ـ لقد تم الإفراج عن الأبالسة منذ عشرة أيام .

أطرق الشيخ عمار صامتا فتساءل الشيخ محمود ساخرا :

ـ هل يحرمنا ما جاء بها من الحياة أو يصد الحياة عنا؟!

ـ معاذ الله يا مولاى .

ـ نحن نعرف أعداءنا كما نعرف أصدقاءنا .

ومضى يقرأ بسرعة وهو صامت وتند عنه كلمات من آن لآن .

ـ توجد مقدمة ، ما شاء الله ، كما يليق بالكتب العلمية ، ماذا تقول المقدمة؟ . . . «الحقيقة هى الحقيقة ، لا تحتاج إلى أسباب تبرر نشرها على الناس ، علينا أن نتقبلها دون تحريف وبشجاعة تليق بالبشر وإن تغير أسلوب حياتنا ليتوافق معها . فنحن لا ننشرها بقصد الإساءة إلى أحد ، ولكن إيثارا للحق ونشدانا للخير» . ما شاء الله ، أى حقيقة يا أوغاد؟ أبواب ثلاثة؟ أى أبواب أيها اللئام؟ الباب الأول عن « البيت الكبير» ، والثانى عن « الأكرم صاحب الطريقة الأول» ، والثالث عن « السلوك فى الأسرة الأكرمية» ، ما شاء الله . . ما شاء الله . .

وراح يقرأ مستغرقا صامتا والرجل يراقبة بإشفاق . وعلى حين بغتة هتف :

ـ اللعنة . . الجحيم . .

ورجع إلى الأسطر وقتا آخر ثم صاح بحنق :

ـ الحمقى يتناسون أن الآلات الحادة قادرة على تحطيم الجماجم الخاوية إلا من ظلمات الكفر . .

وواصل القراءة بوجه مكفهر وشفتين قلقتين حتى هتف :

ـ أشهد الله أنى قوة إذا شاءت اقتلعت أعداءها الجبناء من جذورهم المغروسة فى الطين . .

وانكب على النشرة بنظرات مفترسة وأسارير تنضح بالعنف حتى قال بصوت متحشرج :

ـ إذن فلتتوقف الأرض عن الدوران أو فلتدر فى عكس اتجاهها . .

رمى بالنشرة أرضا . انتتر واقفا . وعلى رغم غضبه الأحمر بدا منهار القوى مهدم البنيان . هرول إلى مدخل الحديقة . ضرب الأرض بقدمه . ثم رجع إلى موقفه مسددا بصره إلى الشيخ عمار الذى وقف بدوره تأدبا ، وقال :

ـ أى وقاحة ، أى جنون ، أى تجديف ، أى دعارة؟!

وكور قبضته ثم استرسل :

ـ الهذيان لغة دارجة ، درجة الحرارة الطبيعية هى درجة الموت ، التاريخ قتل غيلة ، المسك سم زعاف ، الأضرحة الطاهرة متاحف حشرات محنطة ، لا أنت أنت ولا أنا أنا ولا تعجب للدواب إذا زحفت علينا لتعلمنا كيف يكون السلوك فى هذه الحياة اللعينة!

قال الشيخ عمار بإشفاق :

ـ نحن فى موقف يقتضينا أقصى ما نملك من حكمة .

ـ والجنون لماذا خلق إذن؟

ـ مولاى ، علينا بالحكمة التى نبشر بها وإلا أفلت منا الزمام .

ـ أيها العجوز ، لقد كنت الذى يحرضنى وكنت الذى يحذرك .

ـ هذا موقف جديد لم يسبق لنا مواجهته من قبل .

فلوح بيده وهو يصيح :

ـ الويل له . . . الويل لهم . . .

نحن لا نعرف المجرم إلا . .

ـ إلا؟

ـ إلا بالظن . .

ـ لا تغالط ضميرك .

ـ عيون رجالنا فى كل مكان فلننتظر .

ـ سواد الكتاب برهان قاطع على مداد الحقد الذى استمد منه!

ـ الحكمة . . . الحكمة . . .

ـ وندعه يقوم بيننا ساخرا مجدفا؟!

ـ لنتلق الضربة بعقل ولندبر بعقل آخر .

ـ لو تفشت هذه الأكاذيب لقضت علينا .

ـ الأكاذيب لا تقضى على إنسان ولكن قد يقضى الإنسان على نفسه . .

صاح بغضب :

ـ أكافح أنا أمواج الغرق العاتية على حين تجلس أنت على بر السلامة تتغنى بالأقوال الحكيمة؟!

ـ أضرع إليك باسم صاحب الضريح ألا تقدم على خطوة إلا بعد امتحان وتدبر وتفكر .

ـ لقد أذهلتك الضربة .

فقال عمار بهدوء :

ـ سنضرب ضربتنا ، ولكن علينا أولا أن ندرأ عنا الشبهات .

ـ وكيف يتأتى لى أن أمشى فى الحارة مرفوع الرأس بعد اليوم؟!

ـ المؤمنون بنا أضعاف الكافرين .

ـ ولكن الكافرين أقوى على الشر .

ـ لم يئن أوان المعركة بعد ، علينا ألا ننفرد برأى ، وعلينا أن نرد على النشرة بالعلم واليقين فلن يبدد العراك ظلماتها .

فقال الشيخ متأوها :

ـ إجراءات من طبيعتها أن تطول أكثر من ليلتى الحالكة !

فقال الرجل بدهاء :

ـ المعركة قبل جلاء الحق اعتداء ، ومن شأن الاعتداء الغاشم أن يكسبهم عطفا لا يستحقونه ، وسوف يشجعهم ذلك على مقابلة الاعتداء بمثله وهم عدد لا يستهان به ، ورجالنا ورجالهم فى النهاية ينتمون إلى هذه الحارة التى كتب عليها العناء . .

فتساءل فى جزع :

ـ متى وكيف نبدأ؟

فأجاب الرجل بعد تردد :

ـ هنالك رجل لا غنى عنه فى هذا المأزق .

قطب الشيخ متمتما :

ـ الشيخ تغلب الصناديقى ؟

ـ نعم .

فقال ممتعضا :

ـ لقد هجرنا منذ عهد بعيد ، ورأيه فينا غير خاف على أحد !

ـ أعلم ذلك يا مولاى ولكنه ما زال إماما من أئمة الطريقة ولن يتردد فى الدفاع عنها بعلمه الغزير .

تنهد ثم قال :

ـ عليك بإقناعه بالمجىء إلىّ . . .

ـ سأذهب إليه مع الصباح الباكر .

ـ اذهب إليه فى الحال . .

ـ مولاى . . . لقد انتصف الليل .

ـ اذهب إليه فى الحال ، وإن بدا منه اعتراض فذكره بأبى إمامه وصديقه .

أحنى الرجل رأسه ومضى والآخر يقول :

ـ قل له إن رياحا مليئة بالأوبئة انقضت على الطريقة تروم اقتلاعها من جذورها المقدسة .

٤

لاح فى مدخل البهو. تقدم متوكئا على عصاه بعد أن أوصله الشيخ عمار ثم ذهب، فى جلباب أبيض بسيط ناصع البياض، تطوق وجهه الضامر الوضىء لحية بيضاء مسترسلة حتى منتصف الصدر. وعلى رغم طعونه فى العمر تألقت عيناه بحيوية جذابة ونشاط روحى أضفى على أساريره جمالا يجمع بين النضارة والعتاقة اختصت به الشيخوخة المستكنة فى أحضان البراءة والتقوى. هرع الشيخ محمود إليه فصافحه بحرارة وهو يدارى حرجه بابتسامة، ثم مضى به إلى الديوان فأجلسه وجلس إلى جانبه. أرتج عليه القول لحظات ثم قال:

ـ حللت أهلا وسهلا فى بيتك بعد غيبة طويلة!

فقال الشيخ تغلب ببساطة:

ـ كتبت علينا التلبية عند النداء.

لم يرتح الشيخ محمود للإجابة تماما ولكنه قال:

ـ أعترف بأن غيبتك إنما ترجع إلى تقصيرنا.

فقال الرجل بصراحة:

ـ هذا حق!

ابتسم الشيخ على رغم غمه وكمده وقال:

ـ كأنك أصغر منى سنا، إنك رجل سعيد، إننى أغبطك!

ـ خفف الله عنك.

ـ دعنى أشكر لك تفضلك بالمجىء فى هذه الساعة من الليل.

فقال الشيخ تغلب بنفس البساطة والصراحة:

ـ كنت من دعوتك لى على انتظار!

صدمه قوله. آذى مشاعره. ولكنه تساءل:

ـ حقا؟!

ـ نعم.

ـ لعل النشرة بلغتك؟

ـ نعم.

فقال بكآبة جديدة:

ـ لا أجد لها أثرا فى وجهك الكريم!

ـ أى أثر توقعت؟

ـ الأثر المنشود لدى إمام من أهل الطريقة.

فارتفع صوت تغلب الصناديقى وهو يقول:

ـ لم يعد للطريقة أهل!

فانقبض قلب الشيخ محمود وقال:

ـ الوقت غير مناسب لإثارة الخلافات القديمة.

فقال العجوز بحدة:

ـ لم يبق من الطريقة إلا الأغانى والأذكار والنذور والعمارات!

ـ بقى الإيمان وهو كفيل بتجديد الحياة فى أى لحظة.

ـ ليست الولاية أن ترث العرش ولا أن تقرأ كتب الأقدمين والمحدثين، ولكنها طريق طويل شاق لا يقدر عليه إلا أهل الإيمان الحق.

* * *

ـ تزوج، وابدأ الطريق، وإلا فاتك قطار الرحمة إلى الأبد..

* * *

ـ لم نتخل عن الإيمان ساعة، وهو يتبعنا كظل من العذاب، ولكننا وقعنا فى أحابيل زمان عجيب.

ـ أى زمان يمنع الرجل الصالح من التطلع إلى الأفق الأبدى؟!

تنهد الشيخ محمود قائلا:

ـ ليتنا ننسى خلافاتنا فى هذه الليلة المكشرة عن أنياب الشر.

ـ أنسيت أننى لم أرك مذ كنت شابا وها أنت ذا تناهز الأربعين؟

ـ قاطعتنا ونبذت عشرتنا يا شيخ تغلب.

ـ ذلك أنى أضن بوقتى على غير الاجتهاد.

ـ لا يجوز أن تتقطع الأسباب بيننا..

ـ رحم الله أباك.. أما أنت فلم تذكرنى إلا حين هبت الأعاصير على مجدك!

فامتعض الشيخ محمود وقال مصححا:

ـ بل على الطريقة يا شيخ تغلب..

ـ الطريقة؟! لقد تقوضت على يديك .

ـ لن أناقشك ولكنى أطالبك بواجب الدفاع عنها .

ثم بتوكيد :

ـ إنك رجل القلم، مؤلف أشعار الأكرمية وفلسفتها والعالم بأسرارها وأول من يحق له الدفاع عنها .

ـ أقرأت النشرة؟

ـ قرأت نفثات الأبالسة المدسوسة فيها .

هز العجوز رأسه وقال :

ـ تريد أن أرد عليها؟

ـ هذا ما أطالبك به . .

ـ لا رد عندى عليها!

ـ ماذا؟!

ندت عن الشيخ محمود صيحة توجع وقطب غاضبا ولكن الآخر قال بهدوء :

ـ ليس عندى ما أرد به عليها .

ـ ماذا تعنى يا شيخ تغلب؟

ـ أعنى ما قلت حرفيا .

ـ أتعنى أن ما جاء بها حق ؟!

ـ أجل يا مولاى .

ضحك ضحكة جافة باردة وحملق فى وجه العجوز بذهول :

ـ إنك لا تعنى ما تقول . . .

ـ قلت إننى أعنيه حرفيا .

ضرب يدا بيد وصاح :

ـ إلى بعقل جديد لأقترب من هذه الأحاجى!

ـ يلزمك عقل جديد حقا . .

ـ عما قليل سيعتلى الجنون عرش الطبيعة!

ـ لم يجدّ جديد يدعو إلى ذلك . .

ـ لقد اختلقوا الأكاذيب بغية القضاء علينا .

ـ لم يختلقوا أكاذيب، ولكنهم عرفوا السبيل إلى مخطوطات قديمة بدار الكتب . .

- زيفها ولا شك أعداء الأكرمية؟
- بل وضعها مريدون من أصدق المريدين القدامى.
- مريدون صادقون؟!.. أنت تقول ذلك؟
- نعم..
- أكنت على علم بها من قبل؟
- نعم، ولكنى تكتمتها لاعتقادى بأنه قد يساء فهمها.
- لا أصدق أنهم كانوا مريدين صادقين.

فقال الرجل بنبرة تنم على الاحترام:

- كانوا ثلاثة، الشيخ أبو كبير أولهم وقد عكف على دراسة بيوت الأكرمية، والشيخ الدرملى ثانيهم، وكان حجة فى معرفة رجال الكرمية، والشيخ أبو العلاء ثالثهم وقد ولع بتأريخ أهواء القلوب.

فصاح الشيخ محمود:

- أوغاد كذابون!
- بل مريدون صادقون. كان الأولان تلميذين للقطب الأكبر عبدالله الأكرم، أما الثالث فكان مريدا لوالدك رحم الله الجميع...
- لن أصدق أن الشمس تشرق من المغرب ولو أجمع على ذلك المريدون...
- إلى الشيخ أبو كبير يرجع ما ورد فى النشرة عن البيت الكبير..

فقال الشيخ محمود بحنق:

- هذيان ما يقول، من يصدق أن بيتنا هذا ما هو إلا فرع من فروع لا حصر لها من بيوت الطريقة، لا أنه الأصل الذى انبثق منه النور؟!
- لم يقصد الحط من بيتكم، كلا، عنى بدراسة بيوت الطريقة الأكرمية فسافر من أجل رسالته إلى الشام وشمالى إفريقيا وإيران ثم قرر الحقيقة التى لا ضير منها وهى أن هذا البيت الكبير ما هو إلا مقام أنشأه الأكرم، بيت من مئات البيوت التى سبقته إلى الطريقة، بل هو آخر بيت وصل إليه النور والهدى..
- ياللفظاعة!..
- قل يا للحقيقة!
- جدى هو مؤسس الطريقة وبيته هو الأصل والمركز.
- إنك غاضب للكبرياء لا للطريقة، طريق الله مفتوح للجميع، وشرف العزة فيه للواصلين مهما يكن موقعهم.

فهتف محمود وكأنما يخاطب نفسه :

- الهواء يختفى ليحل محله الحزن ، ولن يوجد بعد اليوم مبرر لكى يحافظ العاقل على عقله ولا لبرء المجنون من جنونه .

- تأمل ولا تحزن ، كم صادف أبو كبير فى تجواله من بيوت ظن أصحابها أنهم الأصل والمركز .

- ود أن نضيع فى زحمة لا نهائية!

- النور لا يضيع أبدا ولا يفنى . . .

- إنك تسلبنى العزة لتهبنى بلاغة لفظية .

- إنك تعانى لأنك لم توجه إلى الطريق قلبك . . . لم يشغله إلا الجاه ، جاه وريث البيت الكبير . أما الأكرم نفسه فقنع بأن يقبس من النور شعلة أصَّلها فى هذه الحارة التى أصبحت بفضله مباركة . .

قطب الشيخ محمود وقال :

- سوف يحتاج الناس لرؤيتنا إلى مجهر كبير!

- المهم أن يروا شيئا يستحق الرؤية . .

قام الشيخ محمود فذهب إلى باب السلاملك ثم رجع وهو يتنفس بعمق . وترامى من الحارة صوت يصيح كالمستجير : « يا سيدى الأكرم على بابك» . فضحك الشيخ ضحكة قصيرة لم تنبسط لها أساريره إلا لحظة ثم عادت إلى اكفهرارها . أما الشيخ تغلب فقال :

- وإلى الشيخ الدرمللى يرجع ما ورد فى النشرة عن القطب الأول ، جدك الإمام الأكرم .

فقال الشيخ محمود بحدة :

- ذاك الذى رام نسف الأكرم نسفا .

- ليس فى وسع إنسان أن ينسف مولانا الأكرم .

فقال الشيخ محمود برجاء :

- إذن فأنت تؤمن بكذب ما جاء عنه فى النشرة؟!

- كلا!

تلقى الطعنة فى صميم قلبه وهتف :

- ياللفظاعة يا شيخ تغلب! ألم تعد تؤمن بأن الأكرم جاء مصر بين يدى سلسلة من الكرامات؟!

فلاذ الرجل بصمت قاس مغلق المنافذ حيال أى رحمة .

- أتصدق أن القطب الأعظم جاء مصر هاربا عقب ارتكاب جريمة شنعاء؟!

لم يخرج العجوز عن صمته الرهيب القاتل.

- وأن اسمه الذى عرف به ها هنا وهو الأكرم محور عما شهر به فى الخارج وهو المجرم؟!

أصر العجوز على صمته فقال الشيخ محمود يائسا:

- وأنه جاء الحارة أشعث أغبر عارى الجسد لا يختلف شيئا عن الحيوان الأعجم؟!

وتبادلا نظرة طويلة وهو يلهث ثم سأله متحديا:

- أتصدق ذلك عن مولاك الأكرم؟!

عند ذاك تمتم الشيخ تغلب الصناديقى:

- ما أجمل الهدى بعد الضلال! ما أجمل الاستقرار بعد التشرد! ما أجمل الجلال بعد البهيمية! إنه مولاى الأكرم الذى بلغ بجده المراد وكفى!

صاح الشيخ محمود:

- كذب، افتراء، إلحاد، حسد، حقد.. من أولئك الثلاثة خلفت ذرية الأبالسة التى تعيث فى حارتنا فسادا...

- مأساتك الحقيقية هى الكبرياء والغرور...

- أبالسة من ذرية شياطين...

- لم تحسن معاملتهم كما ينبغى لرجل من رجال الطريق.

فهتف مكورا قبضته فى غضب:

- أنصاف مجانين يحلمون بإبادة الصالحين من البشر.

- ماذا صنعت من أجلهم؟!

- قدمت الحلم حيث كان يجب أن أقدم العصا!

- ثم دسست من وشى بهم إلى السلطة!

- لقد ترامت أصواتهم المزعجة إلى مراكز الأمن دون حاجة إلى وشاية!

- لقد زارونى، حدثونى عن العلم الذى يؤمنون به فحدثتهم عن العلم الذى أؤمن به، تبادلنا الاحترام طيلة الوقت، قلت إن العالم من رجال الله إلا إذا أراد أن يكون من رجال الشيطان، قالوا ليس من أهل الطريق من يلهج بالفسق والجشع، فقلت ولا من العلماء من يهب قدراته للدمار!

وراح الشيخ محمود يحادث نفسه:

- كذب، افتراء، حقد أسود.

ـ قرب التفاهم بيننا حتى فرقت بيننا الشرطة!
فصاح الشيخ محمود بغضب:
ـ الويل، لن يبدد ظلمات الأكاذيب إلا الضربات الحاسمة.
ـ العراك سلوك غير جدير بأهل الطريق!
ـ إن صدق ما قال أبو كبير والدرملى فلا طريق هناك ولا طريقة..
ـ بفضل اكتشافاتهم وضح الطريق..
فقال الشيخ محمود ساخرا:
ـ إنى أرتدى البدلة وما على إلا أن أنزع العمامة...
ـ لقد وضعتك الحقائق فى موضع الامتحان، فاختر لنفسك ما يحلو لها!
ـ لا اختيار هناك، إنه طريق ذو اتجاه واحد.
ثم خاطب نفسه:
ـ ويل لى من العذاب الذى يتبعنى كالظل!.. ويل لى!.. وطوبى للذين يعيشون بلا ضمائر!..
فصل بينهما صمت كالجدار، وطال الصمت حتى قال الشيخ تغلب:
ـ وإلى الشيخ أبو العلاء يرجع ما ورد فى النشرة عن السلوك..
فصرخ الشيخ محمود:
ـ ذلك الداعر!
قال العجوز بإشفاق لأول مرة:
ـ كان خادما فى البيت الكبير قبل أن تولد.
ـ داعر ماجن سافل!
ـ الحق أنه اجتهد فصار من المريدين.
ـ كلماته تقطع بأنه قواد أو منحرف.
ـ لم يقصد الإساءة؛ صدقنى!
ـ ذاك الوحش الذى يتلذذ بتمزيق الأعراض!
ـ كان يؤمن بأن الطريقة حب خالص؛ فتابع الحب فى جميع أحواله!
ـ ذلك الداعر؟!
ـ كان الحب همه الأول والأخير، وآمن بأن فى قلب كل إنسان بذرة حب إلهية مهما يكن من مساراتها فهى تتجه فى النهاية إلى الحبيب الأوحد!

ـ يا شيخ تغلب إن هى إلا أكاذيب افتريت بقصد القضاء على أسرتنا المجيدة!

ـ لو وهبت الطريق قلبك ما أكربتك الوساوس ولا اهتزت شعرة فى رأسك لأقاويل الناس.

ـ يا ويلى من الذين ينثرون لى الحكم وأنا أحترق فى الجحيم!

ـ لو عاصرك الرجل لوجد عندك مادة لكتاب قائم بذاته.

فقال غاضبا متحديا:

ـ إنى رجل محمل بالخطايا ولكنى أنتمى إلى أسرة طاهرة مقدسة، وما أصحابك إلا دجالون مجرمون.

ـ لقد صارحتك بما عندى، هو الحق والصدق، ليس فيه ما يزرى بقيمة حقيقية، ولا ما يسد الطريق فى وجه مؤمن. وكما ترى لم يتزعزع لى إيمان بالطريقة ولا بصاحبها رضى الله عنه.

ـ سأقدم لك الدليل على كذبهم.

ومضى نحو الباب المفضى إلى الداخل ونادى بأعلى صوته:

ـ يا أم هانى.. يا أم هانى.

ثم التفت إلى العجوز قائلا:

ـ إذا ثبت كذب أحدهم انهار البناء من أساسه.

ولكن الشيخ تغلب قام وهو يقول آسفا:

ـ أستودعك الله، لا أحب أن أقوم بينك وبين مربيتك.. إن وجدت جديدا فاستدعنى، ودعنى أقول لك مرة أخرى: «تأمل ولا تحزن وابدأ طريقك».

قال العجوز ذلك ومضى نحو الباب الخارجى:

على حين تحول الشيخ إلى الداخل وهو يصيح:

ـ يا أم هانى.. يا أم هانى..

٥

انتظرها فى الردهة المفضية إلى بهو الاستقبال، ثم قادها من يدها إلى المكان الذى أخلاه الشيخ تغلب الصناديقى. انسابت آثار النوم فى تجاعيد وجهها وعينيها الكليلتين وجعلت تتثاءب بصوت كالأنين وهى تتساءل:

ـ كم الساعة الآن؟

ـ نحن فى أواخر الليل يا أماه .
ـ وماذا يبقيك مستيقظا حتى الآن؟
ـ إنها ليلة لم تخلق للنوم فيما أرى . .
ـ لمَ والعياذ بالله؟
فتَفكر حائرا من أين يبدأ ثم تمتم :
ـ دعوتك لأمور مهمة ، فأصغى إلىّ جيدا وافتحى لى قلبك بلا تردد . .
ـ ليكن ما دعوتنى من أجله .
ـ الخير يتوارى هذه الأيام فى بطون الزواحف السامة .
ـ ماذا بك يا بنى؟
ـ لقد عاصرت أبى وأمى وعمتى ، ربيتنا جميعا وأرضعتنا .
ـ ليمد الله فى أَعمار الباقين وليرحم من انتقلوا إلى جواره .
فجلس إلى جانبها وهو يقول :
ـ أطالبك بالصدق والصراحة ولو زلزل ذلك السماوات السبع ، سنعود معا فى رحلة طويلة إلى الماضى .
ـ الماضى؟!
ـ أجل ، الماضى ، الماضى الذى يتوارى بمكر أحيانا كاللص ولكنه لا يموت ، ثم يبعث بغير دعوة ولا رغبة .
ـ لا أفهم ، عم تتكلم يا بنى؟
ـ لا شك فى أنك تتذكرين عمتى . .
ـ طبعا ، يرحمها الله . .
ـ حدثينى عنها .
ـ أنت تعرف كل شىء عنها ، ليرحمها الله .
ـ دعينى مما أعرف وحدثينى عما لم أعرف .
ارتسم القلق فى صفحة الوجه الضامر وقلقت شفتاها دون أن يند عنها صوت .
ـ إنها لم تمت كما قيل يا أماه!
ـ ليرحمها الله .
ـ لم تمت ، لا فائدة من الإنكار . عشرات وعشرات من أبناء حارتنا يعرفون اليوم الحقيقية فلا جدوى من إخفائها .
هتفت المرأة مستغربة :

ـ أبناء حارتنا؟!

ـ نعم، إنهم يقرءون مغامراتها بشغف شيطانى ويتندرون بها . .

ـ لا أفهم شيئا .

ـ ألم تسمعى عن الشيخ أبى العلاء؟

ـ رضى الله عنه .

ـ فلتمزقه أيدى الأبالسة فى الجحيم الأبدى .

ـ يا رب السماوات!

ـ تكلمى يا أم هانى .

ـ لم تفسد الطيبات التى أنعم الله بها عليك؟

ـ أستحلفك بالله . . بأبى . . . بمولانا الأكرم .

ـ لا تحفر فى الماضى الذى مضى .

ـ أحق ما يقال من أنها عشقت فى شبابها ضابطا إنجليزيا؟

ـ يا ألطاف الله!

ـ وأنها هربت إليه بليل ثم رحلا معا إلى إنجلترا؟

تراجعت العجوز فى فزع، تمتمت :

ـ من؟! . . . كيف؟! . . . ارحم نفسك يا بنى .

ـ هل مرقت من دينها حفيدة القطب الأعظم؟

ـ اللهم ارحمنا .

ـ كذبينى إن استطعت .

أغمضت المرأة عينيها فى حزن ويأس .

ـ أكان بعض كبار الإنجليز يدعون إلى بيتنا هذا على عهد أبى؟

ـ كان له أصدقاء منهم ولا عيب فى ذلك .

ـ ولكن أحد أولئك الأصدقاء الكرام انقض على أخته فطار بها .

ـ قلبى يتقطع يا بنى .

ـ تمنيت أن تكذبينى، ولكن الحقيقة كالموت لا مهرب منها ولا نجاة .

وهز رأسه فى يأس ثم عاد يقول :

ـ وقيل وقتذاك فى الحارة إنها سافرت للعلاج، ثم أذيع بعد ذلك أنها غرقت فى البحار

فأقيم مأتم أمه المريدون وغيرهم من أبناء حارتنا الطيبة الساذجة. كان أي شيء يجوز على حارتنا التي لم يعد يجوز عليها شيء.

أطرقت المرأة حتى خيل إليه أنها نامت أو ماتت. لم يجد في قلبه قدرة على العطف، ولكنه قال:

- لا تؤاخذيني على إزعاجك، أنت أم الأسرة وسرها، وحولك تتفجر أحداث مفجعة فلا مفر من أن يصيبك رشاش منها!

وكان يغوص في ظلمات اليأس بلا توقف، بيد أنه لم يجد بدا من السير في طريق الأحزان حتى نهايته. قال لها:

- حدثيني الآن عن أختي رشيدة!

رفعت المرأة رأسها في فزع.

- لا تجزعي فلا يخفى اليوم سر.

- لتبعد عنا الشياطين!

- لكنها تزحف علينا من جميع الجحور.

- كف عن هذا العذاب.

- لقد خلقت هذه الليلة للعذاب.

- كأني لا أعرفك يا بني.

- ولا أكاد أعرف نفسي ولا طريقتي ولا حارتي، ولكن قيل إني مجرم من سلالة مجرمين.

- بني!

- حدثيني الآن عن أختي رشيدة، لا تخافي عليها، إنها تعيش اليوم في كنف زوج كبير المقام في أقاصي الصعيد، ولكن سيرتها الخفية يقرؤها المطلعون من أبناء حارتنا.

- كيف تفتح أبواب الجحيم بيديك؟

- لقد فتحها الزبانية.

انتحبت أم هاني بحرارة فقال:

- لا تبكي، لا فائدة، ولكن تكلمي.

فهتفت:

- ليقطع لساني إن نطق بسوء..

- لقد لعبت البنت لعبة غير لا ئقة مع خادم، كذبيني إن استطعت!

ـ اللهم احفظنا . .

ـ لعبة ليست غريبة فى هذا البيت ، فقد لعبتها أنا مع أخريات! هكذا يتلقانا الشيطان جيلا بعد جيل .

ـ يا رب عفوك ورضاك!

ـ لا شك فى أن أبى حزن حزنا بليغا ، أخته فابنته ثم ابنه ، لعله تساءل طويلا عن سر عذابه ، ترى ماذا كان يقول فى خلوته؟

ـ كما يجدر بالمؤمن الصادق .

ـ ولا شك فى أنه عانى كثيرا قبل أن يعثر لها على زوج مناسب!

تنهدت المرأة قائلة :

ـ لقد قصرت عمرى يا بنى .

ـ كلانا يتلقى الضربات يا أماه .

وغشيهما صمت غير قصير ، ثم قادها إلى الداخل كما جاء بها وهو يقول :

ـ سامحينى ، لقد حملتك من العذاب ما لا طاقة لك به .

ولما رجع إلى البهو وجد الشيخ عمار فى انتظاره . وقفا متقابلين يتبادلان النظر ، ثم قال الشيخ عمار :

ـ آن لك أن تنام يا مولاى .

ضحك الشيخ ضحكة لا حياة فيها ، فقال الشيخ عمار :

ـ فلنفكر مليا ثم نشرع فى العمل بلا تردد .

فلوح الشيخ محمود بيده فى غضب وصاح :

ـ يا شيخ عمار . . لا تحدثنى بلغة الحكماء ، فلست حكيما . إنى مجرم تجرى الجريمة فى عروقه منذ القدم ، شد على قبضتك . . اشحذ سلاحك . سدد ضرباتك . نحن نخوض معركة حياة أو موت تحتاج إلى الدهاء والقسوة والعنف لا المأثورات الجميلة . إنك ثعلب ماكر وإنى لفى حاجة إلى كل نقطة مكر فى صدرك . لا تعن بالمحافظة على المظاهر الرقيقة فقد فاحت روائح الباطن الكريهة . إلىّ بجميع الشياطين التى تقيم فى هذا البيت واستعر من تستطيع من شياطين الحى كله . كفاك خداعا بالفضائل الكاذبة . . واستخرج من قبور قلبك الرذائل الرائعة المخلوقة أصلا للكفاح والنصر . لنتصرف بسرعة . . وبقوة . . وبلا رحمة ، ليكن سلوكنا كما ينبغى لأناس سادوا بعد هرب موفق من مسرح جريمة بشعة . . . ثم هاموا على وجوهم كالوحوش يأكل بعضهم بعضا . ولما شيدوا من أسلاب الضعفاء قصرا جعلوه ميدانا لألعاب الخسة والفسوق . . يا شيخ عمار هلم إلى ساحة الغدر والجريمة والعنف .

٦

ـ الحال خطيرة، وستزداد مع الأيام خطورة!

قال الشيخ عمار ذلك للشيخ محمود وهما يقفان مستقبلين الحديقة فى ساعة الأصيل. تجاهل الشيخ محمود قوله رانيا إلى الحديقة ثم قال:

ـ ما أهدأ ساعة الأصيل!.. كأنها الوقفة الصامتة بين الشهيق والزفير!

ـ لن تعرف حارتنا الهدوء بعد اليوم.

فقال الشيخ محمود بحدة:

ـ لم يبدأ الشر من جانبنا.

ـ هذا حق ولكن وقع اعتداء على بعض رجالنا الطيبين.

ـ شر لا مفر منه، أما الأبالسة فقد اجتاحتهم العاصفة.

ابتسم الشيخ عمار قائلا:

ـ عليهم اللعنة، ولكن هل تأذن له يا مولاى؟ لقد تركناه ينتظر طويلا!.

ـ إنى أمقته، ولكن فليحضر!

غادر الشيخ عمار بهو الاستقبال وما لبث أن دخل على عويس. جاء بوجه متجهم فلاقاه الشيخ بنظرة جافة باردة. حياه الشاب بالسلام فرد الشيخ بغمغمة ولم يمد يده. قال الشاب:

ـ لقد جئت...

ولكن غلبه الانفعال فسكت. تركزت عليه النظرة الجافة الباردة دقيقة كاملة ثم سأله:

ـ ماذا تريد؟

ـ أنت أدرى بما دفعنى إلى المجىء...

ـ لا تضيع وقتى بالألغاز.

ـ رجالكم يتحرشون بنا فى كل موضع.

ـ أكنت تتوقع عاقبة أخرى؟

ـ كنا نتوقع مناقشة تهيئ للجميع توازنا ونقاء!

ـ أصبح فى كل بيت شقاق، وأنتم أصل البلاء والفتنة.

ـ ما أردنا إلا..

فقاطعه بحدة وازدراء:

ـ لقد عرفتم منى جانبا لينا ولكنى أملك جانبا آخر وعرا. .

ـ سيدى . .

فقاطعه للمرة الثانية وبعنف أشد:

ـ إن من يتحدى المقدسات مثلك لا يليق به أن يكون جبانا!

ـ لست جبانا وليس فينا من جبان!

ـ إن من يدس إلى الناس نشرة ملأى بالافتراءات جبان.

ـ ليس فينا من جبان، وإذا تمادى رجالكم فى التحرش بنا فقد تعصف بحارتنا مأساة مؤسفة!

ـ أتهددنى؟! افعل ما بدا لك، وستنال التأديب الذى تستحقه. . .

ـ ليس نشر الحقائق جريمة، ونحن لم نقصد بنشرها إلا الخير!

ـ اخسأ أيها الوغد الكذاب!

ـ لقد اكتشفها رجال من طريقكم يعدون من الأئمة.

ـ لم يكونوا إلا أوغادا مثلكم ومنذ قديم وأسرتنا هدف للقلوب السوداء الحاسدة.

ـ لا تنظر إلى الخلاف من هذه الزاوية.

فقال بكبرياء وحنق:

ـ اعرف نفسك واعرف من تخاطب.

ـ أتعيرنى بأبى؟

ـ افهم ما تشاء.

ـ كان رجلا شريفا.

ـ كان رجلا حقيرا.

هتف الشاب بغضب:

ـ لم يرتكب جريمة. . .

ـ لعله كان أحقر من ذلك.

ـ ولم يلوث الدنس بيته.

جن جنون الشيخ. هم بضربه. كبح جماح غضبه متراجعا فى اللحظة الأخيرة. قال:

ـ فى بيته الحقير ترعرعت جريمة الكفر.

ـ أشياء تسمى بغير أسمائها.

ـ وفى بيته أيضا دنس خفى لم يجد من يعنى بنشره لحقارته . .

صاح الشاب :

ـ لا تتهجم على الشرفاء .

أعماه الغضب تماما فصاح بدوره :

ـ ما أبعدك عن الشرف ! . . سل أختك عن معنى الشرف .

فصرخ على عويس :

ـ أختى أشرف من أسرتك !

وقبل أن يتم جملته هوت على صدغه لطمة . قبض على يد الشيخ . تلاحما بعنف غير متوقع . صاح الشيخ :

ـ أتعتدى علىّ فى دارى ؟ !

وإذا بالشيخ عمار يندفع داخلا متبوعا بعدد من الخدم فانقضوا على الشاب . قبضوا عليه ، أسكتوا مقاومته ، ساقوه إلى الخارج وهم ينهالون عليه ضربا . وأخذ الشيخ يسوى هندامه وهو من الغضب فى نهاية . وجعل يذهب ويجىء ويحدث نفسه لاعنا متسخطا وحانت منه التفاتة نحو مدخل البهو فرأى زينب !

تسللت الدهشة إلى بركان غضبه . رماها بنظرة قاسية . اقتربت متمهلة فى إشفاق حتى وقفت فى وسط البهو . لم يرد لها تحية ولم يدعها إلى الجلوس .

ـ معذرة . . . لقد اندفعت إلى الداخل بغير استئذان . . .

سألها بجفاء من خلال غضبه المشتعل :

ـ ماذا تريدين ؟

ـ علمت بمجىء أخى فقررت أن ألحق به . .

ـ أرأيته وهم يخرجونه ؟

أجابت بقلق :

ـ كلا . . . ماذا حدث ؟ !

ـ أكنت تتوقعين لقاء أفضل بينى وبينه ؟

ـ كلا . ولكن لا بد من كلمة تقال .

ـ تتكلمين هذه المرة بأدب يقطع بشعورك بالإثم .

ـ لابد من كلمة تقال .

ـ أى كلمة ؟

ـ أعنى بسبب الأحداث المحتدمة فى حارتنا . . .

ـ بسبب سفاهتهم شبت النار فى كل بيت .

ـ ولذلك لا يجوز السكوت . .

ـ ماذا تريدين ؟

ـ ينعقد الرجاء الآن على الحكمة .

ـ فات أوان ذلك ولم يبق إلا التأديب والردع .

قالت زينب بإشفاق :

ـ إنه يعنى الهلاك للجميع .

ـ بل الهلاك للمجرمين وحدهم .

ترددت ثم قالت :

ـ ولكنك . . .

وتوقفت لحظات كأنما تعانى ضيقا ، ثم قالت غاضة البصر والصوت :

ـ ولكنك الأب الروحى للجميع !

تجلت فى عينيه قسوة بالغة وقال :

ـ تنطقين عن كذب وضيع ، إنى أحتقر جبنك !

خرس لسانها تحت وطأة الضربة المهينة ، فقال بسخرية :

ـ كأنما تعترفين بجريمة مخزية !

جمعت أطراف شجاعتها لتقول :

ـ ولكن مركزك التقليدى فى الحارة حقيقة لا يمكن إنكارها !

ـ لا تتمادى فى الكذب دفاعا عن أخيك . .

ـ لعل الأمر أصبح أكبر من ذلك . .

ـ لا تصرى على الكذب ، لا يهمك إلا أمره وحده ، ألم تطلعى على نشرته المسودة بمداد الحقد ؟ . . .

لم تنبس بكلمة فقال بحنق :

ـ إنك وراء ذلك كله كالدمل الكامن وراء أورام خبيثة . .

ـ ليكن ظنك ما يكون ، ولكن نصف الحارة يتحرش بنصفها الآخر ، ثمة عواقب وخيمة تتجمع فى الأفق .

ـ إنى مؤمن بأنك وراء كل مقت فى هذا الخصام الوبيل .

ـ لقد ذهب سوء الظن بك بعيدا . .

- لا أشك فى أنه ورث حقده الأعمى علىّ من حقدك الأبدى . . .
- فليسامحك الله . . .
ضرب الأرض بقدمه وهتف :
- ليس من حقك أن تلعبى دور الضحية البريئة . لم تكونى ضحية قط !
ثم رماها بنظرة تحد وهو يقول :
- لقد كان ما كان وأنت فى كامل اختيارك !
فتساءلت بفزع :
- ماذا يرجعك إلى ماض مضى وانقضى ؟ !
- إنكم تهاجمون الأعراض وتنسون أنفسكم ، فدعينى أذكرك بما كان ، وبأنك لم تكونى ضحية لأحد ، ولكنك تصرفت كما يجدر بامرأة مستهترة !
فهتفت :
- يا لك من رجل لا يفرق بين أنبل المشاعر وأحطها !
فتمتم بحقد وغضب :
- مستهترة ، أجل ، مستهترة !
فغلبها الغضب على حلمها وصاحت :
- يا لك من رجل حقير ! . .
- مزقى ستار الأدب الزائف ، واكشفى عن الحقد المخزون فى أعماقك ، يا بئس الصغيرات اللاتى يتلقين العلم على يديك !
- مجرم عريق فى الإجرام !
- ارجعى إلى بيتك ، وانزوى فى ركن مظلم متلفعة بعارك . .
- أيها الوغد ! . .
- اعترفى لأخيك بعارك ليكف عن الخوض فى سيرة الأعراض !
- لقد جننت أو أنك على وشك الجنون ، هى النهاية ولا راد لها .
- لقد حز فى نفسك يوما أن أرفض الوقوع فى فخ الزواج الذى نصبته لى ، حز فى نفسك أن تنفردى بعارك كامرأة عانس ، ولعلك توهمت أنك تثأرين لنفسك بنشر الأكاذيب عن أعراض الشرفاء .
- ليت مريديك يرونك وأنت على هذه الحال .
- ليتهم رأوك وأنت ترسمين الخطة الحمراء لتكونى زوجة لخليفة الأكرم .
- ماذا أقول لرجل لم يشعر قلبه بقيمة نبيلة قط ؟ ! ماذا أقول لرجل يستمد معارفه عن

النساء من دنيا الساقطات المحترفات؟! ماذا أقول لرجل خسيس يخطر فى لباس شيخ طريقة؟!

لبث يرميها بنظرة قاسية متشفية، ونوازع الشر المتضاربة تقلقل عينيه. وأخيرا قال كمن يود التخلص منها:

ـ اغربى عن وجهى، حتى أخوك كان دونك وقاحة..

فغرقت فى صمت ثقيل لا تنبس بحرف:

ـ اغربى عن وجهى!

تنهدت وقد تملكت مشاعرها، وقالت:

ـ ماضينا لا يهم سوانا، أما الهلاك فإنه يهدد الجميع!

ـ عودى إلى بيتك.

ـ لنرجع إلى الحديث الأهم.

ـ عودى إلى بيتك.

فقالت بهدوء نسبى:

ـ لم أجئ أصلا للشجار، ولكنك أنت الذى دفعتنى إلى الجنون.

ـ هو خير على أى حال من الكلمات الخانعة ذات الطلاء الكاذب..

ـ أسأت فهم مقصدى..

ـ لن تهدر حياتى بلا ثمن. ألم يقل أخوك إننى بلا أصل ولا شرف؟ حسن، سأعامله كما يليق برجل لا أصل له مثله ولا شرف له مثل أخته!

أحنت رأسها فى حزن شديد. غلبها الإعياء فاضطرت إلى الجلوس الذى لم تدع إليه. هز منكبيه باستهانة وهم بالذهاب إلى الداخل وهو يقول:

ـ خذى راحتك ثم اذهبى.

غالبت ضعفها الطارئ فقامت قائلة:

ـ انتظر..

فتحرك وهو يقول:

ـ لا وقت عندى لمهاترات النساء.

ـ آجلا أو عاجلا ستوعز بقتله.

ـ قلت لا وقت عندى.

ـ أعلم أنه فى مقدرتك أن تقتله وأنت آمن.

ولما لم يتوقف اعترضت سبيله قائلة:

ـ انتظر .

ـ ابعدى عن طريقى .

ـ أصغ إلى .

ـ كفاك ثرثرة . . .

ونحاها جانبا وسار نحو الباب الداخلى فهتفت :

ـ إياك أن تمسه بسوء ، أتسمعنى؟ ! إنه . . .

وغصت بعبرة ولكنها صاحت بصوت خشن متهدج مختنق :

ـ إنه ابنك ! من لحمك ودمك . .

٧

تسمر الرجل فى مكانه . استدار بعنف غاضب دارى به فزعا لم يستطع إخفاءه . تراجعت المرأة إلى الديوان فارتمت فوقه ، ثم استسلمت لموجة عاتية من النحيب . تبعها مهرولا . وقف أمامها يحملق فيها يود أن ينفذ إلى أعماقها .

ـ ماذا تقولين؟ !

ولكن البكاء المتدفق لم يمكنها من النطق .

ـ ماذا قلت؟ ! أجيبى من فضلك؟

على رغم مغالبتها للبكاء فإنها لم تغلبه بعد فعاد يتساءل بنفاد صبر :

ـ ابنى؟ ! . . ماذا قلت؟

حركت رأسها بالإيجَاب دون أن تنبس .

ـ أى قول؟ ! . . أى لعبة؟ !

مضت تجفف دموعها . اعتدلت فى جلستها . لم ترفع عينيها عن الأرض .

ـ ابنى؟ !

همست :

ـ نعم .

ـ كلا . .

* * *

ـ إننى . .
ـ لم تشيرين إلى بطنك؟ . آه . . كلا .
ـ بلى .
ـ ألم تأخذى حذرك؟
ـ على رغم ذلك حصل .
ـ تصرفى . . إنك أدرى بهذه الأمور .
ـ إنى خائفة يا محمود .
ـ تصرفى وإلا ساءت العاقبة .
ـ لا تكن قاسيا .
ـ لست قاسيا ولكن عليك أن تتصرفى .

* * *

ـ لكنها الحقيقة .
ـ قول يخرق المعقول ، إنه أخوك ، فكيف أصدق أنه ابنك؟ !
ـ ولم أدّعى ذلك اليوم بعد سكوت عشرين عاما؟ !
قال بارتياب :
ـ لعلك تتصورين أن . .
فقاطعته قائلة :
ـ إنه ابنك وكفى ، لن يغير جدل من هذه الحقيقة !
ـ هل علم بذلك؟
ـ كيف تتخيل ذلك؟ !
ـ ولا أحد غيره؟
ـ كلا ، وقعت فى المأزق عقب وفاة أبى بأيام ، أعلنت المرحومة أمى أنها حبلى . أقمنا زمنا عند جدتى بالمرج حتى وضعت ، ثم عدنا إلى حارتنا وهى حاملة ابنى بوصفه ابنها هى . . .
تنفس بعمق وهو لا يحول عنها عينيه وتمتم مذهولا :
ـ ابنك وابنها؟ !
ـ لم أتصور أننى سأبوح بسره إلى أحد ولكنك دفعتنى إلى ذلك دفعا .
ـ أأنت فى كامل قواك العقلية؟

ـ ليتك كذلك!

ـ أتريدينني على أن أصدق أنه ابني وأنني أبوه؟!

ـ هي الحقيقة التي لا مفر منها.

رفع الرجل رأسه هاتفا:

ـ ما أعجب هذه الحارة! تنام أعواما نوم الأموات ثم تتفجر بها شواظ العجائب كالشهب المجنونة في ليلة واحدة بغير حساب!

ـ لا مفر من الحقائق، ستطاردنا اليوم أو غدا..

ـ لا شيء هو هو، السماء فوقنا وتحتنا في آن، ماذا يجدر بنا أن نفعل؟

قالت متأوهة:

ـ لم يجر لي في خاطر أنه سيقف أمامك متحديا ولا أنك ستجيبه مهددا بالموت!

ـ لقد ترامت إلى قذائفه قبل أن أسمع باسمه.

ـ شد ما أرعبني ذلك.

قال وكأنه يخاطب نفسه:

ـ كم حيرتني عيناه! كم عانيت من تناقض العواطف في أول لقاء، ولكن... رباه حذار من الخداع يا زينب!

ـ أف.. تخل عن شكوك سخيفة لا مبرر لها.

فهز رأسه مغمغما:

ـ إذن هو ابني!

ثم واصل هز رأسه قائلا:

ـ وأنا أبوه..

وتنهد من الأعماق وقال:

ـ فلأسلم بهذه الحقيقة، سيلزمني دهر لهضمها، ولكن على أن أسلم بها..

والتفت نحو المرأة متسائلا:

ـ كيف وُلدت الكراهية في قلبه نحوي؟

ـ لا أدري..

ـ لعله لم ينشأ نشأة دينية صادقة؟

ـ نشأ متدينا، ولكنه..

ـ ولكنه؟

ـ عانى وما زال يعانى حياة فقيرة مريرة .

ـ هو حال الأكثرية الساحقة فى حارتنا .

ـ ولكن يحدث أن يتنبه إلى الفوارق فى المدرسة ، ثم تصادفه كلمات هنا وهناك فيقرؤها باهتمام يفوق الحد ، ويكثر من التساول والنقاش ، ثم يلقى نظرات غريبة على البيت الكبير ، ثم تزلزل الأرض ويخلق شخص جديد !

فتفكر مليا ثم تساءل :

ـ ترى هل ينقلب إذا وجد نفسه فجأة فى البيت الكبير ؟

فسألته فزعة :

ـ فيم تفكر ؟ !

ـ إنه محض سؤال !

ـ حسن ، عهدته يفكر فى الآخرين أكثر مما يفكر فى نفسه ، أو قل لا يفكر فى نفسه إلا من خلال الآخرين . .

فقال بكآبة :

ـ براءة مؤقتة تنطوى مع الشباب الأول !

ـ لا أظن ذلك .

ـ يا لله ، إنه يهزأ بجميع القيم التى يلتحم بها بنيان حارتنا .

ـ لا أدرى كثيرا عن ذلك !

ضرب كفا بكف قائلا :

ـ وقد دمر نفسه تدميرا وهو لا يدرى . . .

فحدجته بنظرة حزينة متسائلة فاستطرد :

ـ شد ما اجتهد اجتهادا عبقريا ليثبت للملإ إجرام جده وهوان بيته ودعارة أهله !

ـ زعم أنه ينشر حقائق يجب احترامها !

ـ أساذجة أنت أم ماكرة ؟ ! ليست المسألة محض عبادة للحقيقة ، ولكنها ذات عواقب محتومة ، فلا ضمان للنذور بعد الأخذ بها ، وسرعان ما ترتفع الأصوات مطالبة إيانا بالأموال المكدسة وريع العمارات !

فقالت بعد تردد وفى إشفاق :

ـ لا شك فى طيبة نواياهم !

ـ بل لمست فى حديثهم الحقد والحسد والرغبة فى الاعتداء .

ـ إن ما دفعنى إلى المجىء إلى هنا هو أن أضرع إليك لتغلب الحكمة . .
ـ أخشى أن تكون الفرصة قد أفلتت .
ـ حتى بعد أن علمت بما علمت؟
ـ الصراع الناشب اليوم أقوى من أى علاقة شخصية .
وذرع المكان ذهابا وإيابا فى اضطراب واضح ثم عاد إلى موقفه أمامها وهو يقول :
ـ الصراع اليوم أقوى من أى علاقة شخصية ، وفضلا عن ذلك فسوف يظل جاهلا بحقيقة نسبه ، ولن يكف ـ هو وأصحابه ـ عن عنادهم المقيت . ومن الناحية الأخرى فإن كبار رجالنا قد أخرجهم الغضب عن جادة الاعتدال .
ـ ولكن الحكمة تستطيع أن تقدم خيرا . .
ـ أين يمكن أن توجد الحكمة فى حارتنا التى زلزلت أركانها؟!
ـ أستحلفك بالله ألا تيأس . .
ـ صدقينى لقد اختل ميزان كل شىء ، خرجت النجوم عن أفلاكها ، والكلمات عن منطقها ، وتمخضت قباب الأضرحة عن أوثان!
ـ ثمة طريق للنجاة!
ـ من أدراك؟ . . . لقد سدته الزبانية!
ـ ولكنك رجل محنك ذو نفوذ شامل .
فضحك ضحكة هازئة وقال :
ـ كنت مستندا إلى عراقة أصل وامتياز بيت وكرامة أسرة ، أين أولئك؟ أين؟
ـ الذين يؤمنون بك لا حصر لهم .
ـ مع الزمن سيرى الناس فىّ رجلا غارقا فى الخطايا ملوثا ضائعا ، شيد من أموالهم بفساد ذمته بناء ضخما .
ـ أكثر الناس ليسوا أفضل من ذلك .
ـ ولكنهم لا يدّعون ولاية ولا يطالبون أحدًا بطاعة . .
فرفعت إليه عينين دامعتين وقالت :
ـ ترى هل أفشيت سره بلا ثمن؟ . . بلا فائدة؟
فقال بامتعاض :
ـ للأسف لن يرث عنى إلا الخطايا ، وربما ضعنا فى الصراع معا!
ـ حسن أن تفكر فيه بعطف لأول مرة . .

- ألم تفكرى فى البوح له بالسر؟
- لو فعلت لحطمته تحطيما . .
عاد يذهب ويجىء وهو يقول :
- اللهم ألهمنى الصواب ، اللهم بدد جيوش الظلمات . .
ورجع إلى موقفه وقد تضاعف تجهمه ثم قال :
- كدت أنسى ! لقد دفعنى الغضب إلى طريق وعر . .
- أجل فقد اعتدى عليه بعضهم .
- هنالك ما هو أفظع من ذلك !
حدجها بارتباك ، ثم عاد يقول :
- لقد عرضت بشرفه !
- شرفه؟ ! . . ماذا تعنى؟
- أشعل غضبى لحد الجنون ، عيرنى متحديا فصحت به أن بيته ليس أشرف من البيوت التى يعرّض بها !
- خبر أسود !
- ذكرتك بطريقة ما .
هبت قائمة فى فزع هاتفة :
- كلا .
فأجاب بأسى :
- بلى !
- أنت ؟ !
- دفعنى إلى حافة الجنون . .
- رباه . . هل لمحت إلى ذلك التاريخ القديم؟
- كلا ولكنه غادر بيتى فاقد العقل ولا شك فى أنه يجدُّ الآن فى البحث عنك .
- إنه يظن الآن أنك تسعى إلى فضحه انتقاما منه ، يا للكارثة ! . .
- أكدى له أنها محض أكاذيب لم أرددها إلا رغبة فى الانتقام منه . .
- ترى أيصدقنى؟
- سيصدقك ، إننا نصدق ما نحب أن نصدقه .
- وإن طاردنى بشكوكه؟

- أصرى على رأيك، ما عسى أن أقول أكثر من ذلك؟ إنى غارق فى محيط من المشاكل التى تبدو لا حل لها . .

شملهما صمت. تبادلا نظرة طويلة. بدا شاحب اللون غائر النظرة كما بدت دميمة من أثر البكاء والغم، وتساءلت بلهفة:

- أأرجع إلى بيتى بلا بارقة أمل؟

فقال متنهدا:

- لا أعد بشىء لا سيطرة لى عليه، يلزمنى وقت أخلو فيه إلى نفسى . .

- وكيف أذهب ولا شىء فى يدى غير الخواء؟

- لقد عريت مزيدا من الحقائق، حسبك هذا . .

- ولكنه لم يغير من القضاء فيما يبدو؟

- لقد أتخمت بالحقائق المفزعة، ويلزمنى وقت أخلو فيه إلى نفسى.

- دعنى أكرر عليك أن الحكمة تستطيع أن تقدم خيرا.

- لا طاقة عندى لسماع جديد.

- أذهب؟

- بسلامة الله . .

همت بالذهاب ولكنها عدلت، ترددت متفكرة. ثم قالت:

- لقد رميتنى بشتى التهم . . تصورت أن أى حقد تحداك إنما يُستمَد من حقدى الأبدى. دعنى أقول لك قبل الذهاب، دعنى أقول لك . . إنك . . مخطئ!

نظر إليها بعينين متعبتين وتساءل:

- ماذا تعنين؟

فقالت وهى تمضى إلى الخارج:

- أستودعك الله.

أتبعها عينيه حتى اختفت. تساءل: ماذا تعنى؟! سرعان ما شدته الهموم إلى دوامتها. جلس على الديوان وأغمض عينيه. دخل خادم فأضاء النجفة والمصابيح ثم ذهب. استشف جفناه الضوء فانقبض قلبه لمقدم الليل. ترامى إلى أذنيه وقع عصا على أرض الحجرة. فتح عينيه ملتفتا نحو الباب فرأى الشيخ تغلب الصناديقى.

٨

قام الشيخ محمود إلى القادم وهو يقول :

ـ أهلا بك يا شيخ تغلب .

ومضى به إلى الديوان والعجوز يقول :

ـ هاتف دعانى إلى لقائك .

ـ أهلا بك وشكرا لك .

فسأله برقة لأول مرة :

ـ كيف حالك؟

ـ النار أرحم من رأسى وقلبى . .

ـ وأرحم من الغضب الذى يجتاح حارتنا . .

ـ ياله من موقف يا شيخ تغلب .

ـ وماذا يقول رجالك الكبار؟

ـ صدق عزمهم على مقابلة التحدى بمثله .

ـ لا غرابة فى أن يدافعوا عن مصالحهم!

فتساءل الشيخ محمود غاضبا :

ـ والآخرون ماذا يحركهم؟

ـ إنهم بحكم سنهم أقرب إلى البراءة .

ـ فات وقت الجدل .

ـ ولكن ثمة مجالا للعمل . بم طالبك أبوك قبل وفاته؟ ابدأ اجتهادك فى الطريق وسوف يقودك من خير إلى خير .

نفخ الرجل قائلا :

ـ رأسى مزلزل!

ـ أفقدت إيمانك بالله؟!

ـ كلا ، صدقنى ، ولكن رأسى مزلزل .

ـ ألا تؤمن بالطريق؟

صمت مليا، ثم قال :

ـ إذا تهاوى بناء شامخ فما جدوى أن تسأل عن حجرة من حجراته؟ !

ـ إذن تريد أن تواصل حياتك كشيخ طريقة بلا طريقة؟ !

ـ أعترف لك بأن ذلك لم يعد ممكنا . .

ـ اعتراف سعيد ولكن خبرنى أكان فى نيتك أن تستمر فى ذلك إلى الأبد؟

تفكر الشيخ باسما فى أسى :

ـ كنت دائما أؤجل البدء، إنه الكسل وعشق الحياة، وأعترف لك بأن ثمة نكدا لا يكف عن مطاردتى . . .

ـ اعتراف سعيد ثان!

ـ من السخرية أن تذكر السعادة فى هذا الجحيم .

ـ ظننت أن عواقب الكسل ستضيرك وحدك ولكن ها هى ذى تعصف بالحارة كلها . .

ـ مرتكبة ما يخطر بالبال، وما لا يخطر!

قال العجوز باستبشار :

ـ فى صوتك نغمة جديدة لعل سرها هو الذى دعانى إليك . .

ـ لا تبادر إلى التفاؤل بلا مبرر!

ـ توكل على الله واتخذ قرارا!

ـ كيف لقلب مزلزل أن يتخذ قرارا؟ !

ـ اتخذ قرارا .

ـ يخيل إلى أننى لست كجدى الأول إن صح ما يقال عن اجتهاده العجيب . .

ـ تقول إن صح؟

فقال بحدة :

ـ أجل، فمن يدرينى أن اجتهاده لم يكن إلا أسطورة كما كان أصله وبيته وكما كانت أسرته؟

فهتف الشيخ تغلب :

ـ حذار من الشك!

فقال الرجل بامتعاض :

ـ لقد زرعته فى قلبى يا شيخ تغلب .

ـ ثمة جوهر حقيقى باق تحت ركام من أوهام لا قيمة لها .

- أنت نفسك لم تعد تؤمن بمعجزات الأكرم .
- أكرر القول بأن معجزته الحقيقية هى أنه على رغم خطاياه قد بلغ المراد باجتهاده .
هز الرجل رأسه بمرارة ، فقال الشيخ تغلب :
- اعزم ، العمل يقتل الشك ، النجاح يقتلعه من جذوره ، فى وسع أى إنسان أن يكون نافعا للناس . على ضعفى وعجزى كنت القوة التى أقنعت كثيرين من أولياء الأمور بإرسال أبنائهم إلى المدارس !
ضحك الشيخ محمود بمرارة وقال :
- أرسلتهم فى الطريق الذى قوض أركان إيمانهم !
- الإيمان يتجدد تحت مظاهر شتى خلال الزمن . . .
- ما جدوى المناقشة ونحن على وشك القتال؟ ! وقد يقتل الأب ابنه أو يقتل الابن أباه؟ !
فقال العجوز برجاء :
- ما كان بوسع أحد أن ينالك بأذى لو أنك . .
فقاطعه بضيق :
- لكنهم يزيحون ملكا مغتصبا عن عرش زائف !
- معذرة يا بنى فإنى لا أنطق إلا عن صدق ، وأردت القول بأنه لو أنك مارست حياة الطريق الشاقة الطاهرة لما تعرض لك أحد بسوء أو لما باليت بما يتعرضون لك به .
قام الرجل متوترا . مضى نحو باب السلاملك وجعل يرنو إلى الحديقة التى ذابت تفاصيلها فى أمواج الظلام فتبدت أشجارها كالتلال حينا وكالوحوش حينا آخر . ومن موقفه جاء صوته قائلا :
- يخيل إلى أنه لم يعد لى مقام هنا !
هتف العجوز بجزع :
- مولاى !
- لعل ذلك يحل الأزمة المستعصية . .
- لكن الأزمة لا تحل بالهرب . . .
استدار نحوه مقتربا وهو يقول :
- ثمة خواطر مغرية تدعونى إلى طرح المتاعب أرضا واستقبال حياة بسيطة سعيدة !
- حياة بسيطة سعيدة؟ !
- لى من المال ما ييسر لى ذلك !

ـ معذرة مرة أخرى عن قول الصدق. لا مال لكم إلا ما جاءكم من المريدين!

ـ إنه مالى أمام القانون وكفى.

نظر نحوه بارتياب وسأل:

ـ أتؤمن بما تقول؟

لم يجب عن سؤاله ولكنه قال:

ـ ثمة حياة بسيطة سعيدة لا تعقيد بها ولا نزاع..

ـ والطريق الذى خلقت له؟

لم يجب عن سؤاله أيضا ولكنه قال:

ـ فلنحب الحياة كما يحبها أكثر الناس..

فقال بثقة أو برجاء:

ـ إنك لا تعنى ما تقول، ولكنك تردد الأفكار التى تناقشها وأنت خال إلى نفسك..

ـ لم لا؟.. فلأذهب إلى مكان قصى، إلى أوروبا كما فعلت عمتى، ولأترك لك الطريقة فأنت خير من يقودها.

ـ ردد ما يناوشك به الشيطان فى نفسك..

ـ لم لا يا مولاى؟!

ـ لقد عشت حتى اليوم عيشة الاستهتار واللذة، ولكن الأمل معقود بالعذاب الذى تبعك فى مغامراتك الليلية كالظل..

فقال بسخرية مريرة:

ـ عند ذاك يهدأ جيل الأبالسة المتمردين!

ـ نحن فى حاجة إليهم كما أنهم فى حاجة إلينا..

ـ لديهم العلم والأفكار الشيطانية التى تصورنا فى صورة نفايات سامة يجب التخلص منها بأسرع ما يمكن صونا للصحة العامة...

فقال العجوز بإصرار:

ـ على ضوء ذلك يتحدد لنا هدف جديد..

ـ لعلها مهمة قديس!

ـ ها قد بدأنا نتقارب..

ـ ولكن عليه أن يقنع الناس بقداسته قبل البدء.

ـ بل عليه أن يقنع نفسه بقداسته قبل ذلك.

ـ ها نحن أولاء نحلم بالطيران ونحن غرقى فى الأوحال . .

ـ القديس لا يكترث للأوحال .

فتنهد الشيخ محمود من الأعماق وقال :

ـ فلنحب الحياة كما يحبها أكثر الناس ، ولا خوف من العذاب الذى أرهقنى ظلمه فيما مضى بعد أن ثبت لى أننى جدير بها كما أنها جديرة بى .

قال الشيخ تغلب غاضبا :

ـ شاهدت فى حياتى حقراء لا حصر لهم ولا عد ومع ذلك فلم يمح من قلوبهم التقزز من القبيح والتهليل للحق .

رفع رأسه إلى فوق وراح يتكلم وكأنما يناجى نفسه :

ـ عاصفة تجتاح رأسى ، أحداث تطاردنى فلا تدع لى فرصة لإنعام النظر ، من أسفل يلح نداء ومن أعلى يلح نداء ، وأنا ممزق القلب ، كأنى مطالب بتنظيم الوجود وأنا محاصر فى ركن ضيق يهددنى الموت !

فقال الشيخ تغلب باسما :

ـ وصف موجز للحياة لا بأس به .

ـ ما أجمل أن أرمى بنفسى بين أحضان اللهو . .

ـ استمر فى محاورة نفسك !

فهتف :

ـ ليتنى بلا ضمير كهذا الجيل الساخر !

ـ صدقنى إنه أمل لحارتنا . .

ـ لا إيمان لهم بشىء .

ـ حب العلم ما هو إلا لغة إيمان جديدة .

وتردد الشيخ محمود مليا ثم سأله :

ـ أعرفت المدعو على عويس ؟

أجاب الرجل بعد تذكر قصير :

ـ نعم ، شاب ممتاز ، قلت له مرة : إذا طعمت علمك بالحكمة فأنت خير حفيد للأكرم !

هتف الشيخ محمود فزعا :

ـ حفيد الأكرم ؟ !

ـ لا تنزعج فإن حفيد الأكرم الحق هو خير من يعيد سيرته ، ويعكس صميم روحه . .

ولزم الرجل الصمت وهو واقف على حين أطرق العجوز. سبحت الأفكار في الصمت محمومة متلاطمة. سقطت فراشة ثملة بالضوء على لحية الرجل السوداء المدببة فهشها بعصبية فتهاوت عند قدميه وندت تنهدة بصوت مسموع، ثم تساءل الرجل:

ـ ماذا كنت تفعل لو كنت مكانى يا شيخ تغلب؟

فرفع الرجل رأسه كمن يصحو بعد غفوة وقال:

ـ لا تسل عن جواب أنت خير من يعرفه!

ـ أريد أن أسمعه!

ـ كلا إن الحياة تتموج أمام بصرك، الأركان تتهاوى، أوهام تتبخر، حقائق تنقض كالقنابل، عناصر تتحلل مطالبة بتركيب جديد، أصوات جديدة تحطم جدران الخرس وترتفع، أناس يتلاحمون، قوى تنطلق من مخابئها، والنفس تطالب صاحبها باتخاذ موقف. اثبت.. اهرب.. احى.. مت.. تعقد.. تجدد.. ولكن لا حل إلا أن تخوض أمواج الظلمات وأن تشق طريقك إلى بر النور.

وقام الرجل العجوز معتمدا على عصاه، فقال الرجل:

ـ لنبق قليلا يا شيخ تغلب..

ـ لقد قلت ما عندى وقلت ما عندك.

تصافحا. مضى معه إلى باب الخروج والعجوز يقول:

ـ الليل يمضى، وقلبى يحدثنى بأنه سيتمخض عن أمور مهمة..

وبينا كان يوصله تسلل من باب السلاملك على عويس. ألقى على المكان نظرة حذرة ثم مضى إلى الديوان فتوارى وراءه فيما يلى الجدار المطل على الحارة. رجع الشيخ محمود فذهب إلى باب السلاملك متلقيا نسائم الليل. زحف الشاب نحو الباب فأغلقه بهدوء. تنبه الشيخ إلى حركة فالتفت وراءه فرأى الشاب وهو يتجه نحوه. فذهب الرجل وقد قرأ الشر فى عينيه وسأله:

ـ من أين جئت؟

تقدم دون أن ينبس فسأله:

ـ ماذا تريد؟

قال الشاب وهو منه على بعد ذراعين:

ـ كدت أقتل بيد رجل من رجالك...

ـ احذر أن ترتكب حماقة..

ـ وتريد أن تشهِّر بشرفي؟

ـ محض أوهام سخيفة . .

ولكنه وجه إليه لكمة شديدة. قبض الرجل على ذراعه قبل أن تصكه الضربة. تلاحما بعنف، الشاب يريد أن يصرعه وهو يقاومه بكل ما أوتى من قوة.

ـ كف وإلا دعوت رجالى . .

ـ سأنالك قبل أن يأتوا . .

ودفعه دفعة قوية فتراجع الرجل مترنحا ولكنه أسند ظهره إلى الجدار . .

ـ كف قبل فوات الفرصة.

ـ إنك شر يجب أن يزول.

ـ دعنا نتكلم!

ـ مكيدة جديدة؟

انقض عليه بوحشية وانهال عليه ضربا. وجعل الآخر يدفعه بقوة ولكنه لم يستطع أن يتفادى من ضربات صادقة أصابته فى صدره وكتفه. وأخذ الضعف يعتوره وتحاصره اللكمات حتى استشعر دنو الانهيار.

ـ حسبك . . أمسك . .

ولكن الآخر ضاعف له الضرب فهتف:

ـ كفاية . . . ستقتلنى . .

ـ إلى الجحيم!

فهتف متوجعا:

ـ ستقتل أباك!

فصاح به:

ـ كف عن الهذيان يا مجرم.

فقال بصوت متحشرج وقد بدا دفاعه يضعف ويتلاشى.

ـ ستقتل أباك! ألا تسمع؟ . . ستقتل أباك . . إنى أبوك!

ولما يئس من إدراكه وشعر بدنو النهاية صاح بأعلى صوته:

ـ إلىَّ . . إلىَّ . . شيخ عمار . .

فى الحال اندفع خدم من باب السلاملك. فتح الباب ودخل الشيخ عمار وبعض الرجال يهرولون. انقضوا على الشاب فقبضوا عليه وشلوا حركته. ومضى الشيخ مترنحا نحو الديوان وتهالك عليه وهو يتمتم:

ـ اقبضوا عليه . . لا تمسوه بسوء . .

أخرج منديلا وراح يجفف به دما سائلا من أنفه وفيه طارحا رأسه على المسند فى إعياء شديد . وتمتم مرة أخرى وهو يقرأ فى الوجوه غضبا أسود :

ـ لا تمسوه بسوء . . .

سأله الشيخ عمار بصوت متهدج :

ـ ماذا نفعل به يا مولاى؟

ـ صبرا!

ـ أندعو الشرطة؟

ـ كلا . .

مرت فترة لم يسمع فيها إلا تردد الأنفاس ، وفى أثناء ذلك جىء للشيخ بقارورة ورد فغسل وجهه . اعتدل فى جلسته متأوها . التفت إلى رجاله قائلا :

ـ اتركوه!

فرفعوا أيديهم عنه فى ذهول ، فقال :

ـ تفضلوا بالذهاب .

لم يتحرك أحد منهم فقال بلهجة آمرة :

ـ اذهبوا!

غادر الرجال البهو ذاهلين . تردد الشيخ عمار ثم ذهب فى أثرهم . ووقف الشاب خافض الرأس لا يفهم شيئا . وقال الشيخ :

ـ تذكر أنك واقع تحت رحمتى ولم أمسك بسوء . .

وجعل يتحسس بعض مواضع تؤلمه ثم قال :

ـ عار عليك أن تستغل قوتك فى الاعتداء على رجل فى مثل سنى ، يجب أن تخجل من نفسك . .

فقال الشاب دون أن يرفع رأسه :

ـ إذا كنت تدبر أمرا فنفذه بلا إبطاء لا ضرورة له .

فسأله بعد وقفة قصيرة :

ـ ألم تسمع ما قلت لك؟

لم يجب ولم يفهم .

ـ قلت لك . . ستقتل أباك . .

فرفع إليه عينيه دون أن ينبس .

ـ لم تصغ إلى. كدت تقضى على أبيك، ألا تدرك معنى لقولى؟

حرك رأسه فى حيرة، فقال الرجل فى هدوء واستسلام:

ـ ذلك أنى أبوك وأنك ابنى!

انتصبت قامته فجأة واتسعت عيناه وتساءل:

ـ ماذا تقصد؟!

ـ ليس لقولى إلا معنى واحد وهو أنى أبوك وأنك ابنى، لقد رميتنى بحقائق عسيرة الهضم وها أنا ذا أرد التحية إليك، ولو عاصرنا أبوالعلاء لعثرت على نفسك فى مخطوطة. أراك لا تصدق؟ حسن، سنبعث فى طلب الشخص الوحيد القادر على إقناعك.. ثم علينا بعد ذلك أن نوطن النفس على مواجهة الحقائق..

٩

كان الشيخ يجلس على الديوان وقد ضمد جراحاته. وعلى كنبة قبالته جلست زينب وعلى. بدت نظراتهم ثقيلة بما حملت من حقائق وما تخايل لها من عواقب. وقال الشيخ:

ـ ها هى ذى الحقيقة عارية!

ثم ردد عينيه بينهما حتى ثبتهما على الشاب وقال:

ـ عرفناها معا فى ليلة واحدة، ها هو ذا الماضى يعانق الحاضر فيكونان معا كلا لا يتجزأ.

وابتسم فى أسى ثم مضى يقول مخاطبا الشاب أيضا:

ـ لقد وزعت على الناس نشرة تكشف عن أعجب الحقائق عن جدك وبيته الكبير وأسرته، ولكن فاتك أطرف ما فيها وهو هذا الفصل الأخير..

نظر الشاب نحو أمه فوجدها تجفف عينيها فتمتم:

ـ الفصل الأخير؟!.. أى حقيقة؟!.. لن أعجب بعد الليلة لو رأى الناس بآذانهم وسمعوا بأعينهم!

فقال الشيخ:

ـ هكذا دار رأسى أيضا بلا توقف، ولكن علينا أن نحسم أمرنا فلم يبق على الفجر إلا ساعة..

قالت زينب :

ـ من حقنا أن نُمْهَل لمزيد من التفكير .

فقال الشيخ :

ـ لا وقت للانتظار ، فالحارة مهددة بالانفجار بين ساعة وأخرى .

ـ والعمل ؟

ـ علينا أن نختار سبيلا من اثنين ، فإما أن نهرب بأموالنا أو بمعنى آخر بأموال الناس ، وإما أن نبقى لنواجه الحقيقة ونتحمل عواقبها . .

تنهدت زينب بصوت مسموع وقالت :

ـ حدثنا برأيك .

فنظر الرجل إلى ابنه وسأله :

ـ أود أن أسمع رأيك أولا .

انتفض الشاب كمن يستيقظ من نوم وقال :

ـ رأيي ! . . أمهلني حتى أستعيد توازني .

ـ لا وقت لذلك ، دعني أساعدك ، ماذا أردت أنت وزملاؤك ؟

تفكر مليا ثم قال :

ـ أردنا الاحتكام إلى الحقائق وإزهاق الأباطيل والخرافات . مؤملين من وراء ذلك أن ترد أموال الناس إليهم وأن تنفق فى سبيلهم وأن ترفع عن كواهلهم الوصاية والسيطرة . .

ـ هذا حسن ولكنه ليس بكل شىء ، الحقيقة لا تتجزأ ، وإن يكن ثمة خير فى أن يعرف الناس الأكرم على حقيقته فمن الخير أيضا أن يعرفونا على حقيقتنا . لا نستطيع أن نبدأ من جديد ونحن نتستر على آثامنا الماضية ، على الاعتراف أن يكون كاملا وصريحا ليكون التفكير كاملا وصريحا ، ولنبدأ حياة نقية بالمعنى الحقيقى .

تساءلت زينب بإشفاق :

ـ ماذا تقصد ؟

فأجاب بإصرار :

ـ يخيل إلىّ أننى لن أتورع عن شىء !

ـ وأى عواقب تتوقع ؟

ـ لا أدرى ، قد يعيدنا ذلك إلى مجد الأكرم وقد يردنا إلى تشرده !

ـ زدنى تفصيلا!

ـ إذا اعترفت بكل شيء، إذا بلغت الغاية فى الأمانة. فلن يتردد على محاربتى أخلص الناس لى اليوم وهم المنتفعون بأموالنا. أما المريدون فسيقعون حيارى بين إيمانهم القديم والحقائق الجديدة، ولا يبعد أن ينقسموا بين مرتد عنى ومؤيد لى حتى النهاية..

ـ يا لها من صورة غامضة!

ـ رجم بالغيب أن أحدس المصير.

ـ هى احتمالات وخواطر ولكن ما الذى تضمره فى قلبك؟

التفت نحو الشاب وهو يقول:

ـ أود الآن أن أسمع رأيك؟

لم ينبس الشاب مستغرقا فى تفكيره.

ـ إنك تبدو شاحب اللون يا بنى؟

ـ ليس هذا مما يهم..

ـ لابد من الإدلاء برأيك.

ـ أظننى أفصحت عنه فيما يخصنى.

ـ ثمة ما يخصك ولا يقل أهمية عن ذلك، إذ إنه يتعلق بكرامتك وسمعتك!

فتمتم بهدوء:

ـ يخيل إلى..

وانطبقت شفتاه فتساءل الشيخ:

ـ يخيل إليك..؟

فقال بحدة عصبية:

ـ أننى لن أتورع عن شيء.

ـ أتدرك ماذا يعنى ذلك؟

ـ أجل.

ـ أنت شجاع، وسوف يتقرر مصيرنا على ضوء ما يرى الناس فينا.

ـ ليكن ما يراه الناس.

ـ سأعيد إليك اسمك، أما الثروة فستعود إلى أصحابها، ستجيئنا بكتبك ولن تجد عندنا إلا كتبا!

ـ ليكن . .

وتساءلت زينب بذهول :

ـ أيمكنك مواجهة الناس بذلك؟

ـ سأدعوهم إلى البيت الكبير صباح الغد .

ـ ألا يلزمك وقت للمزيد من التفكير؟

ـ لا تدرين كم فكرت!

وابتسم وهو يرنو إليها بنظرة ثقيلة :

ـ لم أكف عن التفكير لحظة واحدة مذ انهالت على رأسى المطارق!

ثم وهو يتنهد :

ـ وكان على أن أختار : فإما الدعارة وإما القداسة .

وابتسم فى هدوء ثم استطرد :

ـ وقد اخترت سبيلى ، فاضت من قلبى قرارات عنيدة غير متوقعة كضربات المطارق المنهالة على رأسى ، اكتسحت نداءات الدعارة اللزجة اللينة ، فرفضت الهزيمة ومججت الهناء السهل ، والظاهر أن إيمانى بجوهر جدى كان أكبر من إيمانى بمعجزاته .

وردد بصره بينهما وهو يقول :

ـ فلنستمتع بآخر هدوء يتاح لنا!

فقال على :

ـ أمامنا حياة عسيرة .

ـ ولكنك تود مواجهتها؟

فقال بتصميم :

ـ بلا تردد .

ـ حسن ، لقد تعلمت منك أشياء وأود أن تتعلم منى أشياء!

فقالت زينب :

ـ ولكن النزاع لن ينتهى فى حارتنا .

فقال الشيخ :

ـ نعم ، ولكننا سنكون فى الموقع الأفضل .

وتفكر مليا ثم قال :

ـ لا شك فى أن جدنا اعترضته المتاعب نفسها وهو يتحول من الجريمة إلى الولاية!

وقام فى نشاط حى وقال:

ـ لقد أورثنا مَثَلا لا يجوز أن يُنسى . .

ودنا من مدخل الحديقة المستكنة فى سكينة الفجر وقال:

ـ تلك كانت المعجزة.

حـــارة العشـــاق

١

تربع على الكنبة فى هدوء متوثب. تابعها بعينيه وهى ذاهبة تحمل صينية القهوة. تابعها وهى عائدة بجسمها البض ووجهها الممتلئ البدرى. جميلة فاتنة! وتزداد مع الأيام نضجا وفتنة. ها هى ذى تلقى نظرة على الحارة من النافذة الوحيدة فى حجرة الجلوس. وها هى ذى تجلس إلى جانبه على الكنبة الوسطى. وها هى ذى الغبطة تسيل من نظرتها وهى تقول:

ـ شكرا للترقية!

وابتسمت بحبور ثم قالت:

ـ بفضلها أهنأ بمجالستك كل عصر.

تقلصت بعض عضلاته تحت جلبابه الأبيض الفضفاض، وغمغم بألفاظ غير واضحة. جعلت تلحظه بعينيها الصافيتين. ستكتشف عاجلا أو آجلا وجومه. لعلها اكتشفته. هى شديدة الحساسية فطنة ولكنها فى نفس الوقت مرنة وواسعة الحيلة. كم يحبها. لم يتوقف عن حبها بعد الزواج. لا يتصور الحياة بدونها.

قالت بنعومة:

ـ لمناسبة ما ذكرتنى صاحبة العمارة بأننا نقيم فى هذه الشقة منذ خمس سنوات . .

فصدق على قولها متمتما:

ـ أجل، خمس سنوات.

ـ خمس سنوات حقا؟! هل مرت خمس سنوات حقا؟ . .

ـ خمس سنوات مرت على زواجنا، العمر يجرى جريا يا هنية.

فربتت ظهر كتفه وقالت بحنان :

ـ يبدو أنه يطير طيرانا فى أحضان الحب السعيد .

ترى هل اكتشفت وجومه؟ إنه على دراية بتسللها الناعم ، قال :

ـ أجل فى أحضان الحب يطير طيرانا .

فامتلأت عيناها بالحنان وقالت :

ـ وطيلة النهار جعلت أتذكر وأغنى لنفسى . .

ـ ثمة ذكريات لا تنسى .

ـ قبيل الخطوبة وأنت تخالسنى النظر من مجلسك فى القهوة .

فخفض صوته وهو يقول :

ـ الحب جنون!

ـ وفى كل ركن فى هذه الشقة يستطيع ألف دليل أن يقوم على حبنا . .

ـ ألف دليل ودليل .

ـ هكذا مرت السنون الخمس فلم نشعر بمرورها .

ـ أجل . .

ـ على الرغم من أن متاعبك فيها لا يمكن أن تنسى .

فغلبته عواطف مكبوتة فقال :

ـ كانت متاعب سعيدة .

ـ بل كانت السعادة أقوى من المتاعب!

تنهد . تجلت فى عينيه نظرة حالمة . قال :

ـ تلك الأيام! كنت موظف أرشيف خارج الهيئة ، أعمل عملا متواصلا من طلعة الصبح حتى أول الليل . حتى الغداء كنت أتناوله تحت أرفف الأرشيف ، فقير كادح وزوج عاشق . حتى النسل أجلته لحين تتحسن الحال ، لا وقت للتفكير ، لا وقت للنظر ، عمل عمل عمل . وأعود إليك مرهقا ولكن بفؤاد حى مشتاق ، أجد الحمام مبخرا فأغتسل وأرتدى جلبابا مزهرا ، نتبادل الحديث ، نتناول العشاء ، نسعد بالحب ، ننام النوم العميق ، لا أفكار ولا كدر ، ثقة لا حد لها بكل شىء ، بك وبنفسى وبالله ، وإيمان لا حد له بك وبنفسى وبالله ، كل شىء ثابت الأركان مدعم البنيان .

ـ أيام شاقة وسعيدة يا عبد الله .

- جرى بلا انقطاع وراء لقمة العيش، طمأنينة شاملة، حب يتبادل بقوة تضاهى قوة دوران الأرض!

أزاحت خصلة سوداء تهدلت فوق عينها وقالت وهى تضحك فى دلال:

- ولكننا لم نكن نهنأ بجلسة سعيدة كهذه الجلسة فى العصارى الطيبة.

فقال بحزن لم يعد يستطيع مداراته:

- فقد منَّ الله على بالترقية.

- أصبحت مراجع وحدة ينتهى عمله فى تمام الثانية بعد الظهر مثل كبار الموظفين.

- وتهيأ لى من الفراغ ما لم أكن أحلم به.

ربتت خده وقالت بارتياب:

- مالك؟!

- لا شىء بى.

- خيل إلىّ أنك لست كعادتك.

ابتسم. ابتسم وهو يرنو إلى بشرتها الصافية. اعترف بأنه لا شىء يمارس سيطرته على شىء كما تمارس سيطرتها عليه. عادت تسأله:

- لست سعيدا بالترقية والفراغ؟

- الحق أن الفراغ خلقنى من جديد.

- وأنا كذلك.

- فقد رأيتك فى النهار طويلا بعد أن لم أكن أراك فيه إلا خطفا!

ضحكت ضحكة ناعمة منغومة فواصل حديثه:

- ورأيت حارتنا فى الضوء، عرفت المقهى، توثقت علاقتى بالجيران وبخاصة الإمام والمدرس وشيخ الحارة.

- هكذا الفراغ راحة ونعمة وتعارف.

- وعرفت نفسى بعد أن كانت حواسى مشدودة دائما إلى الخارج.

- يالها من مكاسب لا تقدر بمال.

- رأيت أهل حارتنا، لم أكن أتصور أنهم بهذه الكثرة.

- ما أعجب ذلك وأجمله!

فتفكر قليلا ثم قال:

- ومنهم أناس أثاروا قلقى!

ـ لم كفى الله الشر؟!

ـ يتخذون فى ركن من المقهى مجلسهم، عصابة من الشبان، يتبادلون المزاح بأصوات مزعجة، لا يرحمون كبيرا ولا صغيرا من مزاحهم، ويتهجمون على الأعراض بلا حياء.

ـ هكذا الشبان فى كل زمان ومكان.

ـ ألا يزعجك ذلك ياهنية؟

ـ لا أحب لك أن تنزعج أنت!

ـ ولا يتركون فتاة دون غمز، حتى السيدات المصونات، حتى خيل إلىّ أنى أقيم فى عالم من الدعارة والانحلال.

ـ لا تستسلم للأوهام السخيفة!

قام كأنما ضاق بمجلسه. وقف وراء النافذة دقيقة. رجع إلى وسط الحجرة ووقف مستندا إلى الخوان. قال بحنق:

ـ خيل إلىّ مرة أن أحدهم رمانى بنظرة لم أرتح لها!

نضب المرح من صفحة وجهها وتساءلت:

ـ أى نظرة؟!

ـ نظرة ماكرة ذات معنى.

ـ أى معنى؟

ـ استفزنى غضب وهممت بالقتال!

ـ يا لطف الله!

ـ وتنغص على صفوى فلم أسترده بعد ذلك.

قالت بقلق واضح:

ـ إنك تبالغ يا عبد الله.

ـ الحق أنى عانيت تجربة جديدة كل الجدة وهى الشك!

هتفت باستياء:

ـ الشك؟!

ـ كمن صحا عقب نوم ثقيل على لسع عود ثقاب مشتعل.

قالت بامتعاض وغضب.

ـ أطلعنى على أفكارك أكثر.

ـ قلت إنه الشك وكفى .

فصاحت بغضب :

ـ لا أصدق أننى أتلقى منك إهانة صريحة !

ـ إنى أسألك المعونة .

ـ غير ما بنفسك قبل أن يفسد كل شىء .

فقال دون اكتراث لتحذيرها :

ـ إنك تخرجين كل يوم للتسوق .

ـ لست فى حاجة إلى من يذكرنى بحياتى اليومية .

فقال بخشونة :

ـ وتذهبين إلى الفرن لابتياع الخبز !

ـ كما أذهب إلى البدال والقصاب والكواء .

فقال بحنق :

ـ ولكن الفران يستقبلك استقبالا عجيبا ، يهتف دون مناسبة : أهلا أهلا . ويقبل عليك كأنه صديق حميم .

ـ عبد الله !

ـ إنى أصف ما رأته عيناى .

ـ أكنت تتجسس علىّ ؟

ـ الشك له أسلوب لا مفر منه .

ـ ولو بلغ الوقاحة ؟ !

ـ ولو !

ـ كيف خفيت عن عينى حقيقتك طيلة ذلك العمر ؟

ـ كما خفيت عن عينى حقيقة أفظع !

ـ اقطع لسانك واخرس .

ـ رأيته وهو يكاد يأخذك فى حضنه .

صاحت به :

ـ لا أسمح لك .

ـ رأيت ذلك بعينى كما رأيته قبل ذلك فى عينى الشاب بالقهوة !

ـ لن أسمح لك بإهانتى !

- هل لديك دفاع؟
- لست متهمة!
- هل لديك تفسير؟
- أنت مجنون.
- لا مفر من المواجهة.
- كم أنك كريه أعمى.
- الشتائم غير مجدية.
- إنى أشرف من أفكارك الوضيعة.
- هاتى دفاعك.

فصاحت بكبرياء وهى تثب قائمة فى غضب جنونى.

- لا تردد كلمة الدفاع، لا أسمح لك.
- يا للشيطان!.. هذا يعنى أنك تعترفين.
- إنى ذاهبة، بقائى مع شخص مثلك مستحيل.

ضرب الخوان بقبضته وهو يرتجف غضبا وصاح:

- تكلمى!
- إنى ذاهبة.

غادرت الحجرة فصاح فى أعقابها:

-- تكلمى!

ثم ضرب الخوان بقبضته مرة أخرى وصاح بجنون:

- أنت طالق!

٢

جلس فى حجرة الجلوس وحيدا. لم يحلق ذقنه ولم يمشط شعره. زائغ البصر.

- إنى وحيد، وحر، واليأس إحدى الراحتين.

وصمت مليا ثم قال:

- يجب أن أعترف بأننى غير سعيد وبأننى لا أجد لحياتى معنى.

عاد إلى الصمت مرة أخرى ثم راح يقول :

ـ ويجب أن أعترف أيضا بأننى أحبها ، وبأننى أكرهها .

أطبق شفتيه دقيقة ثم قال :

ـ طلقتها لأنه من غير الجائز أن أبقى على زوجة خائنة ، أما الحب فقلعة منيعة مستقلة ـ بذاتها وأبراجها ـ عن الشك والسلوك .

وقام ليذرع الحجرة ذهابا وإيابا . دق جرس الباب فجأة . فتح الباب فدخل شيخ بدين قصير ذو لحية سوداء . تصافحا ، قاده إلى الكنبة وهو يقول :

ـ خطوة عزيزة ياشيخ مروان عبد النبى .

جلس الرجل وهو يقول :

ـ أوحشتنا يارجل !

ـ أهلا بك ، وكيف الإخوان ؟ !

ـ القهوة كلها مشتاقة إليك .

ـ علم الله أنى مشتاق إليكم كذلك .

فرماه الشيخ بنظرة ارتياب وهو يقول باسما :

ـ لو أنك مشتاق حقا لزرتنا !

ـ الحزن يطوينا على أنفسنا .

ـ ولكنه يتبخر عادة بين الإخوان .

ـ لم تنفتح نفسى لشىء بعد .

ـ كيف ؟ ولم ؟

ـ أنت أدرى !

ـ خطر لى أنه من المفيد أن نتعاون على محاربة ذلك العدو المدعو الحزن .

ـ أنت إمام وصديق وإنسان .

ـ إنه عدو خطير ، له كل يوم فريسة ، ولا يجوز أن نلقاه متفرقين .

دعاه الشيخ إلى الجلوس إلى جانبه . ربت منكبه وقال مستطردا :

ـ وما دام سببه معروفا ، فالاهتداء إلى سبيل الشفاء ميسور !

أطرق عبد الله مليا ثم قال باستحياء :

ـ كانت تجربة قاسية عاصفة ، وليس الشفاء منها بالأمر الميسور !

ـ إنك صادق فى تعبيرك ، ولكن لا يجوز أن تنسى أمرين مهمين .

وسكت ليخلق جوا مناسبا لسماع نصائحه، ثم قال:

- لا تنس أن الإيمان بالله هو الملاذ الأخير من جميع الأحزان.

وعاد إلى السكوت مرة أخرى، ثم قال:

- ولا تنس أن تتثبت من حقيقة التجربة التى عصفت بك!

- لقد رأيت بعينى رأسى!

- واقعة الفران؟

- أجل، وقبل ذلك نظرة الشاب المستهتر إلى!

- دعنى أصارحك بأننى لم أشاركك الاقتناع فيما اقتنعت به!

- لقد بهتت فلم تستطع الدفاع عن نفسها!

- ولا تلك بحجة تشرع ضدها، فللمرأة كبرياؤها!

- إنى مطمئن إلى الإجراء الذى اتخذته.

- ولكنك قضيت على نفسك بالسِّجن كأنما طلقت الدنيا فى الوقت نفسه.

- سوف يدركنى النسيان عاجلا أو آجلا.

فابتسم الإمام وقال بهدوء وثقة:

- إنى رجل من رجال الله، خادم بيت من بيوته، أعرف حارتنا وأحوالها ما ظهر منها وما خفى، أتوكل على الله فى كل فكر أو عمل، ولا غرض لى فى الدنيا إلا الخير، وأبعد شىء عن خاطرى أن أسعى إلى رد زوجة خائنة إلى عصمة رجل فاضل مثلك.

غض عبد الله بصره ليدارى نظرة رجاء لاحت فى عينيه وتمتم:

- لا شك عندى فى ذلك كله يا شيخ مروان.

- يا صديقى عبد الله، لقد قرأت فى وجهك رسالة، لا أجزم بصحة ما قرأت فصارحنى: أيتعذر عليك نسيانها؟

- الخيانة؟!

- الزوجة!

فقال عابسا:

- كل شىء رهن بوقته.

- الحب ككل شىء يجرى مجراه بأمر الله، فلعلك تحبها؟!

- لا أهمية لذلك.

ـ صدقنى يا صديقى عبد الله إذا قلت لك إن زوجتك بريئة!

ـ بريئة؟!

ـ أجل بريئة مما رميتها به .

فسأله باهتمام بيِّن :

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ لا أدرى من أين أبدأ. أأقول لك إن لرجال الله خواطرهم القلبية التى تفوق فى قدرتها براهين العقول؟! ولكنى أخاف ألا يكون إيمانك بالقوة التى تتخيلها، كثيرون يعتقدون أنهم مؤمنون ثم تراهم ينهارون لدى أول تجربة. المؤمن الحقيقى يا عبد الله يحرك الجبل ويزلزل الحياة ويقهر الموت .

فتنهد عبد الله قائلا :

ـ لا ينقصنى الإيمان يا شيخ مروان .

ـ ألم تعاشرها خمس سنوات كاملة بل يزيد؟

ـ لا يمنع ذلك من وقوع شر .

ـ حدثنى عن قلبك لا عن الوقائع الخارجية!

ـ لا أنكر أنى اطمأننت إليها الاطمئنان كله .

ـ ألم يتسلل إليك الشك أبدا؟

ـ نعم، لم يتسلل .

ثم مستدركا بعجلة :

ـ لم يكن لدى وقت للشك .

ـ لا أهمية للوقت فى ذلك .

ـ بل هو كل شىء يا شيخ مروان؛ فأنا لم أنتبه إلى ما يجرى حولى إلا من خلال الفراغ الذى أتيح لى عقب الترقية .

ـ ألا حظت تغيرا فى معاملتها لك؟

فتمهل قليلا ثم قال :

ـ لا أظن . .

ـ يا صديقى، إنى أعرف حارتنا، رجلا رجلا وامرأة امرأة وصبيا صبيا ، لا يغيب عنى شىء من أسرارها، وأشهد الله أننى لم أعرف امرأة تتمتع ببعض الخصال الحميدة التى تحظى بها امرأتك!

فقال متجهما :

ـ السلوك الحقيقى سر من الأسرار .

ـ صدقت ولكن ندر أن استطاع خاطئ التستر على خطيئته إلى الأبد .

ـ لقد رأيت ولا يمكن الاستهانة بما رأيت .

ـ دعنى أحدثك عن الشاب الذى هيجتك نظرته . لقد حققت بنفسى مع الشبان الذين يشاركوننا الجلوس فى المقهى فثبت لى على وجه اليقين ألا أحد فيهم يضمر لك سوء ظن أو تقدير ، فلعلك توهمت رؤية ما لا وجود له .

ـ لا يمكن أن نشك فى حواسنا .

ـ حواسنا؟! عليها اللعنة ، تلك المرايا المشوهة التى لم تخلق إلا لتشهد بكذبها بصدق حدس القلب .

ـ ولكننا نحيا بها يا شيخ مروان .

ـ نحن لا نحيا حقا حتى يمتلئ قلبنا بالإيمان .

فقال بمرارة :

ـ كأنى أيضا لم أر الفران وهو يفتح لها ذراعيه !

فابتسم الشيخ مروان وقال :

ـ صدقنى فقد ظلمته ورميته بما لا يجرى له فى خيال .

ـ لست أعمى .

ـ إنه رجل مسكين ، وزوجته تشاركه فى عمله ساعة بساعة ، وهى تستقبل الزبائن معه !

ـ كلا !

ـ هو الحق بالتمام والكمال !

أطرق عبد الله محاصرا فى ركن مسدود فاستطرد الشيخ :

ـ وإلى ذلك فهو عجوز دميم يكاد يقعده الكبر !

قام عبد الله فى تأثر واضطراب وهو يقول :

ـ لا تجرفنى إلى هاوية يا شيخ مروان !

ـ معاذ الله ، إنى لا أقدم على عمل قبل أن أستخير الله ذا الجلال ، وكم من مرة زارت مطلقتك الضريح ورجتنى أن أدعو لك بالصحة والفلاح !

ـ حسبك .

ـ لعنة الله على الغضب ، لعنة الله على الحواس !

تراجع عبد الله إلى الكنبة فى الجناح الأيسر للحجرة وتهالك عليها مغمض العينين، فقال الشيخ :

- أصلح خطأك، كفر عنه، استرد السعادة التى سلبها الشيطان، تخلص من وحدتك الغارقة فى الحزن.

وتريث قليلا ثم قال :

- ولكن عليك أن تغير حياتك.

فقال عبد الله بتأثر شديد!

- دعنى آخذ أنفاسى!

- إنك فى صميم قلبك ترحب بجميع الحقائق التى كشفتها لك، لا تنكر ذلك، إنك تحبها، ولا غنى لك عنها، إنك تنتظر اللحظة التى أدعوك فيها إلى ردها إلى عصمتك.

فتأوه الآخر قائلا :

- اللهم عفوك ورحمتك . . .

- ولكن عليك أن تغير حياتك، فبادر إلى الإنجاب بعد أن منّ الله عليك باليسر، وتردد على الزاوية فى أوقات الصلاة المتاحة، ولا يفوتك درس من دروسى الدينية . .

فقال عبد الله بحماس :

- بإذن الله لن يفوتنى شىء من ذلك، والحق أنى لم أكن مقصرا ولكن فترة الاستغراق فى العمل أورثتنى عادات سيئة لا يتحرر منها إلا صادق العزم.

- فترة ذميمة!

فتردد عبد الله قليلا ثم قال :

- ولكننى كنت قويا وسعيدا!

- تلك جنة الحيوان، أما الإيمان الحقيقى فلا تكمل أسبابه إلا بالتأمل والصلاة والدرس . .

- سمعا وطاعة!

- آن لك أن تؤمن كما يؤمن الإنسان الكامل، وسوف تعرف الروح وبهجتها، ومعنى الحياة الزوجية ومسراتها الحقيقية، وستعرف إلى ذلك كله كيف تهزم الشيطان إذا تصدى لك بلعبة من ألاعيبه!

انتقل عبد الله إلى جانب الشيخ. قبل جبينه، ثم قال بامتنان :

ـ ربنا يكرمك يا شيخ مروان، لقد انتشلتنى من الظلمات وفتحت لى أبواب الهدى والسعادة . .

٣

دخلت حجرة الجلوس وهى تمشط شعرها . تبدى وجهها موردا رائقا بعد الحمام . نظرت نحوه وهو واقف فى جلبابه وراء النافذة وتساءلت :

ـ ألا تستعد لحضور الدرس فى الزاوية؟

لم يلتفت نحوها . لعله لم يسمعها . جلست على الكنبة وما زالت تمشط شعرها :

ـ أزف ميعاد الدرس يا عبد الله .

أجاب باقتضاب :

ـ لن أذهب .

حدجت ظهره بنظرة متسائلة ثم قالت بدهشة :

ـ لم تتخلف عن درس العصر مرة واحدة طوال العام الماضى .

غادر موقفه إلى الكنبة فى الجناح الأيمن وجلس وهو يقول فى فتور .

ـ لن أذهب .

ـ مالك ؟!

ـ لا شىء .

جمعت شعرها فى ضفيرة واحدة طويلة مليئة كالغصن الريان وهى تتساءل :

ـ هل ثمة شىء ضايقك؟

فأجاب على غير توقع منها :

ـ بل أشياء .

تيقظت تماما فى قلق واضح وسألته :

ـ ماذا هنالك ؟

فقال بامتعاض ولكن بتهيب :

ـ ذلك الشيخ !

وأكمل متجنبا نظرتها المستطلعة :

ـ أصبح مضجرا!

ـ الشيخ مروان؟!

ـ نعم.

ـ إنه يكاد يستأثر بأوقات فراغك!

ـ ثبت لى أنه رجل مضجر!

ـ حدث بينكما شىء؟

ـ يعيد ما يقول ويقول ما يعيد، بطريقة رجل يحفظ كلمات معادة عن ظهر قلب، كالببغاء، كالآلة، ودائما بلا روح.

ـ شد ما تحمست له يا عبد الله.

ـ لا أنكر أننى كنت مبهورا به، ولكنه مضى يتكشف لى على حقيقته. قاومت الملل شهورا، انتظرت عبثا أن يقول شيئا جديدا، ولكن لا جديد، رجل يؤدى وظيفته بلا روح، ينادى على بضاعته كبياع البطاطة.

ـ متى اكتشفت ذلك؟

فقال بنبرة لم تخل من حدة:

ـ منذ زمن قصير، ولكن ليس من اليسير أن نجازف بإنكار ما تعودنا الإيمان به!

بهتت هنية. صرخ الذهول فى عينيها. قالت وهى تضبط انفعالاتها:

ـ ليكن، لا تذهب إلى الدرس إن يكن ذلك يضايقك، وعلى أى حال فصداقتكما أكبر من الدرس وأبقى..

فقال بمرارة:

ـ هو ليس فى المقهى بخير منه فى الزاوية!

ـ رباه كيف أصدق أذنى؟!

ـ حقا؟!

ـ عبد الله لا تنس أفضاله علينا، من أجلها سمينا وليدنا باسمه، ولن تنكر أنك طالما تغنيت بصداقته وسجاياه.

نفخ قائلا بوجه عابس:

ـ لم يعد لى به ثقة ألبتة..

ـ يا ألطاف الله!..

ـ على أى حال كان صديقى أنا لا صديقك أنت!

ـ ولكنه صاحب فضل على كلينا، فهو الذى جمع شملنا من جديد. .

ـ وتبين لى بعد ذلك أنه غير جدير بالمركز الذى يشغله!

ـ بالله كيف؟

ـ كنت أضيق بعم مراد عبد القوى شيخ الحارة إذا احتد عليه فى مناقشة ما، وكان الشيخ مروان بدوره يتهم شيخ الحارة بأنه يعمل مرشدا للمباحث، ولكنى بت أومن بصدق فراسة عم مراد!

قالت هنية بحزن واضح:

ـ لن أناقشك، ولكن فسر ما غمض علىَّ من أمره.

فصمت قليلا ليرتب أفكاره، ثم قال:

ـ لم تتكشف الحقيقة لى دفعة واحدة، ولكنها جاءت كنقاط الماء التى تتجمع رويدا لتصنع فى النهاية بركة آسنة!

ـ أود أن أعرف كل شىء.

ـ حسن. أول ما نفرنى منه تهالكه على تصيد الدعوات إلى ولائم التجار بالحارة!

ابتسمت هنية ابتسامة فاترة، فقال بحنق:

ـ اتضح لى أنه شره، وأنه فى سبيل إشباع شراهته لا يتورع عن التودد المهين. . .

ـ خصال لو نظرت إليها بعين غير غاضبة لأمكن أن تمر بها مرور الكرام!

فقال بسخرية مريرة:

ـ ما أجمل أن يسعد الإنسان بمحام مقاتل مثلك!

ـ عبد الله. . . ما هذه النبرة؟!

ـ آلمتك؟

ـ إنها تذكرنى. .

وأطبقت شفتيها دون أن تكمل كلامها فتساءل:

ـ بم تذكرك؟

ولكنها تجاهلت سؤاله قائلة:

ـ لكل إنسان عيوبه!

ـ ليس الإمام كبقية الناس، وقد قال شيخ الحارة مرة إنه عرف من الأئمة أناسا فوق مستوى البشر!

ـ يمكن أن تقبله كإنسان عادى!

فقال بحدة :

ـ ومرة ضبطته وهو يقرص الزهر فى لعبة النرد ، الغشاش !

غمغمت بإشفاق :

ـ لا تحكم عليه من خلال لعبة تسلية !

ـ الخلق ينعكس على لهونا كما ينعكس على جدنا !

تنهدت ولم تدر ماذا تقول فتساءل بحدة :

ـ ثم ألا تذكرين كيف عاقب خادمته؟ !

ـ قيل إنها سرقت .

ـ أيبرر ذلك انهياله عليها بالضرب وطردها بوحشية؟ خيل إلى وقتذاك أننى أرى وحشا ينقض على فريسته !

صمتت تماما وراحت تعبث بضفيرتها بقلق بين . وضحك هو ضحكة ساخرة وقال :

ـ وكنت لمحت أشياء اعْتَدْتُها فى وقتها أوهاما تافهة ، فلما تبين لى من أمره ما تبين عدت إليها بعين جديدة انحسرت عنها غشاوة التضليل . .

تجلت فى عينيها نظرة متسائلة فقال :

ـ تذكرت أننى رأيت عينيه أكثر من مرة وهما يتابعان نساء حارتنا باهتمام غريب !

هتفت بانزعاج :

ـ كلا !

ـ ألا تصدقين ، أم أنك لا تريدين أن تصدقى؟

ـ ماذا تعنى ؟

ـ لم أعد أشك فى أنه كان يطارد نساء حارتنا بعينين فاسقتين !

ـ يا رب عفوك ورحمتك !

ـ إنه خدعة كبرى وزنديق خطير !

ـ رحماك اللهم !

ـ رحماك يا هنية ، لقد غرقت عاما فى بحر من العمى والضلال !

ـ حسبك ، صادق من تشاء واهجر من تشاء .

فهتف متجهما بنبرة صارمة :

ـ ثمة أشياء لا يمكن أن تمر دون حساب !

ـ ماذا تعنى؟

ـ آن لى أن أصارحك بما فى نفسى . .

ـ هذا ما ناشدتك الله أن تفعله .

ـ لنعد إلى حادث شهده بئر السلم بعمارتنا؟ !

ـ عم تتحدَّث؟

فقال بصوت ممزق :

ـ كان ذلك منذ أشهر مضت . رجعت ذات يوم من مشوار إلى عمارتنا وكنت أنا جالسا فى المقهى ، أردت اللحاق بك لسبب لا أذكره الآن ، صادف دخولك خروج الشيخ من شقته ، رأيتكما فى بئر السلم ، خيل إلى . .

صرخت هنية :

ـ ماذا تقصد؟

ـ رأيته يمد يده . .

قاطعته بغضب جنونى :

ـ ما من مرة قابلنى حتى مد يده إلى رأس الطفل ليباركه ، وقد فعل ذلك أمام عينيك مرارا . .

ـ خيل إلى أن يده كانت تبارك صدرك!

فصرخت ثائرة :

ـ يا لك من مجنون قذر !

وهو يضحك بجنون :

ـ ولكن وقتها كذبت عينىَّ . .

ـ وقح . . وقح . . وقح . . .

ـ استردت الصورة حياتها الحقيقية على ضوء ما تكشف لى بعد ذلك .

ـ اقطع لسانك يا مجنون . .

ـ أدركت أننى كنت أعمى لا مجنونا ، وأدركت لِمَ سعى للإصلاح بيننا ، وأدركت كم كنت لعبة بلهاء فى يديه .

انتترت قائمة وهى تصرخ :

ـ أنت وحش ، حيوان ، مجنون ، لن أبقى فى بيتك لحظة أخرى . .

وغادرت حجرة الجلوس وهى تنتفض غضبا . ضرب هو الأرض بقدمه بعنف وصاح وراءها .

ـ فى داهية . . ألف داهية وأنت طالق!

٤

عاد الصمت إلى البيت. صمت جاف نفاث للقلق. وطيلة الوقت ذرع الحجرة من الكنبة إلى الكنبة وهو يضحك بجنون. اختفت آهات الطفل بشتى درجاتها المنغومة وأنواعها الصوتية الملونة بأطياف السخط والرضا، ولكن لم يبرح مخيلته جسمه الضئيل البنى المطروح على ظهره وأطرافه الأربعة الصاعدة تتلاعب فى الهواء عارضة أصابعه الصغيرة الدقيقة كالنقوش البارزة. وجعل يقول:

- تجنب الوحشة، فهى أنسب جو لتقطير الحزن والأسى!

وذرع الحجرة مرتين ثم عاد يقول:

- تحرك.. انطلق.. حتى لا تبقى فريسة مطاردة عاطفة محمومة..

وتجمع التصميم فى زاويتى فيه وهو يواصل حديثه:

- الأسرة فخ.. والرجل الحر..

ودق جرس الباب فقاطعه. فتح الباب فرأى الشيخ مروان أمامه. قطب فى وحشية، ولكن الشيخ لم يباله. دخل وهو يتساءل:

- أحق ما سمعت يا عبد الله؟

فقال عبد الله بفظاعة:

- اغرب عن وجهى.

- أتطردنى من دارك؟

- شر طردة!

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

- إنك أنت الشيطان الرجيم.

فقال الشيخ وقد غلبه الحزن:

- ربما كان لك عذرك أول مرة!

- اخرس، حذار من السفسطة، اذهب وإلا حطمت رأسك.

- يا لطف الله، لقد أفسد عقلك الرجل الماكر.

- لا أريد أن أسمع صوتك، اذهب..

- المرشد الخبيث مراد عبد القوى، الذى يتخذ من مشيخة الحارة ستارا لمؤامراته

الشيطانية، إنه يشعر بأننى عدوه بالفطرة، فلا يتردد عن التشنيع بى وافتراء الكذب علىّ، ولكن كيف هان عليك أن تصدقه يا عبد الله؟!

ـ اذهب، إنه آخر نذير أنذرك به.

ـ صدقته، بعت صداقتنا بثمن بخس وخربت بيتك؟!

ـ أنت الذى خربته يا خنزير..

وانقض عليه يريد أن يقبض على عنقه.. صده الشيخ بذراعيه. تلاحما بشدة ما بين هجوم كاسر ودفاع حكيم. وفى تلك اللحظة جاء مهرولا رجل نحيل متوسط القامة فدخل بينهما حتى فصل بينهما، ثم هتف لاهثا:

ـ يا للعار... ياللخجل..

والتفت نحو الشيخ وهو يقول برجاء:

ـ تفضل الآن بالذهاب يا شيخ مروان.

وأغلق الباب وراءه، ثم مضى بعبد الله إلى الكنبة متمتما:

ـ تمالك نفسك أيها الأخ الكريم.

وضرب كفا بكف وهو يقول:

ـ أى شيطان عبث بكما معا؟!

وهتف عبد الله وصدره يعلو وينخفض:

ـ ذلك الداعر الخائن..

جلس إلى جانبه، وطوق منكبه بذراعه بحنان وقال:

ـ علينا أن نسترد هدوءنا واتزاننا قبل كل شىء.

فتأوه قائلا:

ـ إنى حزين لدرجة اليأس يا أستاذ عنتر.

ـ أعلم ذلك يا أخى فأنت مصاب فى حب كبير وصداقة وطيدة.

ـ لم تبد لى الحياة من قبل كريهة منفرة كما تبدو اليوم.

ـ نعم، حياة ذات مائة وجه!

ثم بصوت منخفض:

ـ بيد أننا لا نعرفها على حقيقتها حتى نرى وجوهها جميعا!

ـ قلبى غاص بوحشة مخيفة يتعذر معها الاستمرار فى الحياة..

ـ قلبى معك يا صديقى، ولكن لا تستسلم لليأس..

- إنها محنة بكل معنى الكلمة .
- وعلينا أن نخرج منها سالمين !
- يخيل إلىّ . .
فقاطعه قائلا :
- بين آلاف الضاحكين فى هذه اللحظة يوجد على الأقل شخص واحد كان يفكر فى الانتحار منذ عام .
- لعلك لم تعرف كل شىء عن مأساتى ؟
- بل أعرف كل شىء عنها ، المهم أن نتجاوز الحاضر إلى المستقبل . .
- ما أسهل الكلام يا أستاذ عنتر .
- وليس العمل بالمستحيل . .
وسكت الرجل قليلا ثم استطرد :
- فكر جديا فى تجديد حياتك من جذورها .
استغرقته الأفكار فلم ينبس فسأله عنتر :
- هل خطر لك يوما أن تسأل نفسك عن معنى حياتك ؟
فرفع إليه عينين ثقيلتين فاترتين ، فقال الآخر :
- ما معنى الحياة ؟ ما معنى الإنسان ؟ وما معنى الحب ؟ ما معنى الخيانة ؟ أأدركت ما أعنى ؟
- كلا . .
- لقد جربت من الحياة جانبا أقرب إلى البدائية ، ولكن تنقصك الثقافة . .
- وما علاقة ذلك بمأساتى ؟
- أوثق مما تتصور . .
- لا أدرى كيف . .
- فلنؤجل فهم ذلك إلى حين !
- ولكنى رجل بسيط التعليم .
- غير أنك تمتلك أقوى قوة فى الوجود وهى العقل . .
- إن ما يهمنى الآن أكثر من سواه . .
فقاطعه باهتمام :
- الثقافة أن تعرف نفسك ، أن تعرف الناس ، أن تعرف الأشياء والعلاقات ، ونتيجة لذلك ستحسن التصرف فيما يلم بك من أطوار الحياة !

ـ يا له من طريق طويل!

ـ لقد ضيعت فى الأرشيف عمرا!، وفى المقهى عمرا، وفى الزاوية عمرا. ومن حق الثقافة عليك أن تهبها بعض عمرك. . .

ـ يخيل إلى أننى لا أحب ذلك. .

ـ سوف تحبه، وستجد مكتبتى تحت تصرفك. مكتبة متواضعة فما أنا إلا مدرس، ولكن كن على يقين من أنك ستحبه. أكان من الممكن أن تحب زوجتك قبل أن تراها؟

فصاح بحنق:

ـ لا ترجعنى إلى تلك الذكرى.

ـ ما زلت تحبها!

ـ أود أن أقتلها. .

ـ هذا يعنى أنك ما زلت تحبها.

ـ ألم تسمعنى يا أستاذ عنتر؟

ـ الكراهية الحقيقية هى النسيان.

ـ يا له من حديث بغيض!

ـ لا تنس أننى ها هنا لأنتشلك من الهزيمة. فلا يجدى إلا الصدق. .

ـ الصدق؟ . . . أين الصدق؟

ـ إنه جوهرة قد تختفى أحيانا تحت ركام الأوهام.

ـ من سوء الحظ أن مأساتى ليست وهما. .

ـ منذا الذى يستطيع أن يقطع برأى فى ذلك؟

ـ الضحية!

ـ بل البصيرة. .

هز عبد الله منكبيه فى فتور، فقال عنتر:

ـ فلنناقش خيانة الشيخ مروان المزعومة.

هتف عبد الله بغضب:

ـ المزعومة؟!

لم يعلق عنتر على صيحته فقال عبد الله:

ـ أجئت لتدافع عن ذلك الوغد؟

فقال بهدوء :

ـ من أجل الحقيقة وحدها جئت .

ـ لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين .

فواصل حديثه وكأنه لم يسمعه :

ـ لأنى أحب الحقيقة ولأنى أود معاونتك .

ـ لم يعد من السهل إقناعى !

ـ فلنجرب .

ـ إنى أمقت ذلك .

ـ صبرك . .

ـ لقد رأيت بعينى وسمعت بأذنى !

ـ لا تباه بأدوات الخطإ .

ندت عن عبد الله ضحكة جافة وقال :

ـ سمعت مثل ذلك من قبل ، الوغد قاله لى !

ـ حقا؟

ـ لعن الحواس وأشاد بالقلب .

ـ وإنى أيضا ألعنها ولكن لحساب العقل !

ـ لا دخل للعقل فيما رأيت . .

ـ إنى أعرف الشيخ مروان خيرا منك .

ـ لا أحد يعرفه مثلى .

ـ هلا حدثتنى باكتشافاتك؟

صمت عبد الله زاهدا فى الحديث ونفورا منه ، فقال عنتر برجاء :

ـ احترم رغبة صديق يحبك ويتمنى لك الخير .

فقال عبد الله بحنق :

ـ إنه رجل مضجر ، يعمل بلا روح ، على خلاف ما يظن الناس .

فقال عنتر متوددا :

ـ أوافقك على رأيك فى ذلك ولكن لا ذنب له فيما استشعرته .

ـ ذنب من إذن؟

ـ لا أهمية لذلك الآن ، غيره؟

ـ ذله المهين حيال التجار من أهل الحارة؟

ـ لا أنكر ذلك ولكنه من خلال علاقاته معهم أقنعهم بإنشاء المدرسة التى أنا مدرس بها!

بهت عبد الله. وَمَضَتْ عيناه حنقا وهو يعثر بشرك، فقال الآخر برقة:

ـ لا تغرنك المظاهر، إن التكالب على الولائم عيب ولكن ثمة خيرا أكبر منه وأخطر.

فتساءل عبد الله بحذر:

ـ ومعاملته لخادمته؟ . . . أنسيت ذلك؟

فضحك عنتر طويلا ثم قال:

ـ يا للرجل الضحية!

واستمر فى ضحكه حتى قال:

ـ الحق يا صديقى أن البنت حاولت إغواءه!

ـ هه!

ـ أجل، تلك حقيقة لا يعلم بها أحد سواى، وأنا الذى اقترحت السرقة كعذر لطردها صونا لسمعتها!

بهت عبد الله مرة أخرى. عكست عيناه نظرة حذر وخوف.

تمتم:

ـ فلنغلق باب ذلك الحديث. .

ـ أوجدت رغبة طارئة فى الهرب؟

ـ الهرب؟!

ـ لعلك تخشى اكتشاف ضحايا أبرياء لك؟

ـ أستاذ عنتر! لا توصد باب السعادة فى وجهك.

ـ هيهات أن أنسى ما رأته عيناى.

ـ تعنى حكاية بئر السلم؟

فتنهد ولم ينبس.

ـ لِمَ لم تصدقها فى وقتها؟

ـ لِكثافة الغشاوة فوق عينى.

ـ ثم استرجعتها بعين ذاكرة حانقة غاضبة كارهة!

ـ لن أقيم قصورا على الرمال مرة أخرى.

- راجع عقلك وحده.
- كلا، الوغد الفاسق، طالما ضبطت عينيه وهما يفسقان بنساء حارتنا!
ضحك عنتر ضحكة عالية وقال:
- الضحية المسكين! ألا تعرف أنه لا يستطيع أن يرى إلى أبعد من ذراعين؟
- كلا، لم يشك ذلك قط.
- إنه لا يحب الشكوى على الإطلاق.
فصاح عبد الله ملقيا بآخر تحدياته وأخطرها.
- لقد رأيت يده فى صدر زوجتى.
- لم يحصل ذلك يا صديقى عبد الله.
- حصل.
تنهد الرجل قائلا:
- لابد مما ليس منه بد.
وسكت مليا، مكفهر الوجه لأول مرة، ثم قال:
- لا مفر من مصارحتك بحقيقة ما كان يجوز إعلانها.
تابعه الآخر صامتا ولكن باهتمام متزايد فقال عنتر:
- الرجل مصاب بعجز جنسى منذ أكثر من عام!
انكتمت أنفاس الانفعالات المحتدمة تحت طن من التراب فساد الذهول.
وارتفع صوت عنتر قائلا:
- ذهبنا من طبيب إلى طبيب ولكن لم يعدنا أحدهم بشفاء عاجل!
لم يستطع عبد الله الخروج من صمته فقال عنتر:
- إن كنت فى شك من قولى صحبتك إلى الطبيب بنفسى.
ثم وهو يرفع رأسه إلى أعلى:
- ليغفر لى الله ذنبى!

خلا كل منهما إلى نفسه. أغمض عبد الله عينيه. على رغمه انسابت دموع من تحت جفنيه. حانت من عنتر التفاتة إليه فرأى دموعه. تهلل وجهه وانبسط. تمتم بنبرة متأثرة:
- صديقى عبد الله. ليحفظك الله من كل سوء، ليجعل لك من عقلك مرشدا.

٥

ضمت هنية وليدها إلى صدرها ترضعه. أما مروان الصغير فكان يحبو أسفل الكنبة. عبد الله.. انفرد بنفسه على كنبة أخرى يقرأ فى كتاب. وسألته هنية:

ـ متى تستعد للذهاب إلى القهوة؟

فأجاب دون أن يرفع رأسه عن الكتاب.

ـ سأذهب إلى السينما مساء اليوم مع عنتر.

ومضى الوقت فى هدوء شامل حتى دق جرس الباب. فتح الرجل الباب فدخل رجل طويل نحيل فى بدلة رمادية.

رحب به عبد الله قائلا:

ـ أهلا بشيخ حارتنا.

حيا القادم الزوجة وجلس حيث أجلسه عبد الله إلى جانبه.

ـ زارنا النبى يا سيد مراد عبد القوى.

ـ انتظرتك فى القهوة ولكنك لم تحضر كعادتك؟

ـ سأذهب إلى السينما مع الأستاذ عنتر.

ابتسم شيخ الحارة ابتسامة غامضة، فقال عبد الله:

ـ هلا ذهبت معنا ياسيد مراد؟

فقال بهدوء:

ـ جئتك لغرض آخر.

فنظر الرجل نحو زوجته نظرة خاصة لتغادر الحجرة ولكن شيخ الحارة بادره:

ـ لا تزعجها، ولعله من المفيد أن تسمع حديثنا.

فتطلع إليه باهتمام حتى قال بهدوئه المألوف:

ـ سيدور الحديث حول صديقينا الإمام والمدرس!

دهش عبد الله. راقب وجه الرجل الجاد باهتمام. ولما طال السكوت قال:

ـ الحق أنه على رغم صداقتكم فلا يخلو لقاء بينكم من مناوشات غير مريحة.

ـ لا ضرر من ذلك.

ـ ترى هل لانتصارك المتكرر عليهما فى الشطرنج دخل فى ذلك؟!

ـ ليس ذلك بالتفسير المقنع .

ـ بلى .

ـ ولكنك تعرف لذلك أسبابا أخرى!

فلاح الارتباك فى وجه عبد الله فقال شيخ الحارة :

ـ أعرف أنهما يشيعان عنى أننى مرشد!

لم يخرج عبد الله عن صمته ، فقال الرجل :

ـ ما عيب أن أكون مرشدا؟ ما المرشد إلا عين من عيون المصلحة العامة .

ـ هذا حق .

ـ ولا يخافه إلا المنحرفون .

ـ هذا حق أيضا .

فابتسم شيخ الحارة وقال :

ـ ما علينا يا سيد عبد الله ، ماذا تعرف عن الرجلين؟

ـ كل خير يا شيخ الحارة .

وقالت هنية :

ـ نحن مدينان لهما بسعادتنا .

وقال عبد الله :

ـ وباسميهما سمينا وليدينا .

فقال الرجل بهدوء كاد يكون برودا :

ـ إنما أسأل عن الرجلين لا عنكما .

فقال عبد الله بحماس :

ـ هما ألصق الناس بى ، ومنهما أستمد العلم والهداية والمودة .

ـ باسم الصداقة صارحنى : ألك رغبة حقيقية فى خدمة المصلحة العامة؟

ـ أعتقد ذلك .

ـ أتفضلها عند المقارنة على العلاقة الشخصية؟

أجاب بعد تردد :

ـ أعتقد ذلك .

ـ حسن ، قلت إنهما ألصق الناس بك ، كثيرا ما تجمعكم سهرات طويلة فى بيت الإمام أو المدرس أو فى بيتك هذا ، ماذا ترى؟ ماذا تسمع؟ ماذا تلاحظ؟

ـ سهراتنا تمضى عادة فى مناقشات يتخللها شرب الشاى والقرفة . وأنا شخصيا قليلا ما أشارك فى الحديث إذ إنه يعلو على كثيرا ، ربما أطرح سؤالا من آن لآن ، وهما على رغم خلافاتهما الكثيرة ينتهيان عادة إلى نوع من الوفاق .

ـ هل تستطيع أن تمدنى بأمثلة مما يدور النقاش حوله؟

فأجاب عبد الله باهتمام منتشيا بإحساس بالأهمية :

ـ إنها موضوعات خطيرة حقا ، مثل الحرية والخبز ، الخير والشر ، الخلود وهل يكون بالأرواح وحدها أو بالأرواح والأجساد معا ، العفاريت وهل توجد بالحقيقة أو بالرمز .

فابتسم شيخ الحارة ابتسامة غامضة وقال :

ـ يا لها من مسائل خطيرة حقا !

ـ جدا .

ـ وهل برهنا على وجود للعفاريت حقيقى؟

ـ هذا ما يؤمن به الشيخ مروان . أما الأستاذ عنتر فيتكلم عن ذلك بحذر شديد وإن قرر أن احتمال وجود كائنات غيرنا فى العالم مقبول عقلا .

ـ وكيف بررا وجود الشر فى العالم؟

ـ مازال عقلى طفلا ولكن عنتر يؤكد أن ما نعده شرا ليس بشر حقيقى إذا نظر إليه فى موضعه من الصورة الكلية للكون .

فضحك شيخ الحارة ضحكة مقتضبة وقال :

ـ لا أظنه كذلك فى نظر أىّ من المرشدين .

فقالت هنية :

ـ ولا فى نظرنا يا سى مراد .

رحب شيخ الحارة برأيها بهزة من رأسه ثم تحول إلى عبد الله متسائلا :

ـ ألم يتطرق الحديث إلى موضوعات أهم؟

ـ أهم من الخير والشر والخلود؟

فقال وهو يدارى ابتسامة :

ـ كالنساء مثلا أو المخدرات !

فهتف عبد الله :

ـ أعوذ بالله .

وقالت هنية :

ـ إنهما أفضل رجلين فى حارتنا!

فسأله دون اكتراث لا عتراضاتهما:

ـ ألم تلاحظ فى سلوكهما ما يدعو إلى التفكير؟

ـ كلا يا سيدى.

فرمقه بنظرة ذات معنى وقال:

ـ أذكر أنه كانت لك جولات مع الإمام مثيرة!

فقال عبد الله بيقين:

ـ لقد انقشعت غيومها بفضل القلب والعقل.

وقالت هنية باستياء:

ـ كيف هان عليك أن تذكرنا بذلك الماضى؟

ـ لا مؤاخذة، فإن عملى الدقيق عودنى على ألا أتورع عن شىء فى سبيل إتقانه.

ثم مركزا خطابه على عبد الله:

ـ رئى الأستاذ عنتر عبد العظيم فى ليلة ممطرة وهو راجع إلى مسكنه حافى القدمين، واضعا فى الوقت ذاته حذاءه وجوربه تحت إبطه ملفوفين بجريدة، ألم يدعك ذلك إلى التفكير؟

فضحك عبد الله وقال ببراءة:

ـ أبدى عن ذلك منطقا غريبا ولكنه لا يخلو من سداد. قال إن القدمين بغسلهما يعودان إلى أصلهما، أما الحذاء والجورب فلو تعرضا للمطر والطين لأصابهما حتما تلف كبير أو صغير!

ـ أأقتنعت بمنطقه؟

ـ اعتبرت الأمر كله فكاهة لطيفة.

ـ ألم تر فيه تصرفا غير لائق برجل من رجال التربية؟

ـ الحق أن احترامى له منعنى من التفكير على ذلك النحو.

ـ ألم يكن عرضة لأن يراه أحد من تلاميذه؟

ـ يا شيخ الحارة إن أكثريتهم لا تستعمل الأحذية خارج أسوار المدرسة!

ـ ألا يعنى سلوكه أنه يؤمن بأن الإنسان يجب أن يكون فى خدمة الحذاء لا العكس؟

ـ اعتبرت الأمر فكاهة كما قلت.

فتفكر مليا ثم سأله بلهجة ابتداء جديدة:

ـ صرح الشيخ مروان مرة بأنه يفضل أن يعيش فى ظلام دامس على أن ينور مجلسه بمصباح وارد من بلاد أعداء الله، ما رأيك؟
ـ بيته يا سيد مراد مضاء بالكهرباء!
ـ فما معنى التناقض بين قوله وفعله؟
ـ ما هى إلا طريقة للإعراب عن إيمانه وأصالته!
ـ هل استشهد مرة بقول الشاعر:

هل الله عاف من ذنوب تسلفت

أم الله إن لم يعف عنها يعيدها

ـ أجل يا سيدى ولكن كان ذلك من خلال إبداء بعض الآراء فى النحو.
ـ إذن ليس لديك أى ملاحظات عن الرجلين؟
ـ لا يا سيد مراد.
فقال الرجل وهو يهم بالقيام:
ـ آن لى أن أذهب.
فقال عبد الله بحرارة:
ـ بودى أن أدعوكم جميعا إلى جلسة مودة وتصفية فى بيتى.
فقام شيخ الحارة وهو يقول:
ـ فات أوان ذلك!
ـ بل ثمة فرصة طيبة.
فقال شيخ الحارة بهدوئه البارد:
ـ لقد ألقى القبض عليهما منذ ساعتين!
ندت عن هنية آهة فزع على حين صاح عبد الله منكرا:
ـ لا!
ـ هى الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان.
هتفت هنية متسائلة:
ـ كيف يقبض على أشرف رجلين فى حارتنا؟
ـ علمى علمك يا أم مروان.
ـ ولكنها كارثة عظمى!
ـ بل أحداث عادية تقع كل يوم.

وأراد الرجل أن يمضى إلى الخارج ولكن عبد الله اعترض سبيله متسائلا فى هستيريا:

ـ لم قبض عليهما؟

فأجاب بوضوح وقوة:

ـ لا جواب عندى على ذلك.

وحياهما وانصرف. خلف وراءه زوبعة اجتاحت العقل والقلب. جعل الزوجان يتبادلان النظر فى صمت رهيب. قام بينهما حاجز مشحون بالنذر. وتمتمت هنية:

ـ أمر لا يصدقه العقل.

ـ أجل.

ـ كارثة حقيقية.

ـ أجل.

ـ انظر كيف تهدد كرامة الأبرياء!

ـ نعم.. نعم.

ـ عقلى سيطير فى الهواء.

ـ عقلى طار فعلا.

ـ ما معنى ذلك يا عبد الله؟!

ـ ما معنى ذلك؟!

ـ وشيخ الحارة لا يريد أن يتكلم.

ـ مسئولية خطيرة!

ـ ولكنه يعرف كل شىء.

ـ ربما.

ـ ولعله المسئول عن كل شىء.

ـ جائز.

ـ أليس هو بصديقك؟

ـ ليس من السهل مناقشة عمله.

وحدجته بنظرة قلقة وقالت:

ـ الحادث أقلقك؟!

ـ طبيعى.

ـ لقد انفعلت به أكثر مما يجوز .

ـ بل دون ما يجب .

ـ قلبى . . قلبى غير مرتاح .

ـ ولا قلبى .

وتبادلا نظرة ثقيلة معتمة كالحة .

٦

ترامت من الحارة أصوات متلاطمة آخذة فى نقاش محتدم . ترامت من وراء النافذة المغلقة ، فقال عبد الله :

ـ أهل حارتنا يتبادلون الرأى فى القهوة .

ومضى إلى النافذة ففتحها على مصراعيها فتدفقت الأصوات فى قوة ووضوح . ذهبت هنية بالطفلين إلى حجرة داخلية ثم عادت بمفردها فجلست قبالة زوجها على الكنبة وراحا يرهفان السمع باهتمام شديد .

* * *

ـ شيخ الحارة ، إنه شيخ الحارة!

ـ هو الذى دبر الإيقاع بهما .

ـ ولكن لم؟

ـ الأسباب مجهولة .

ـ لعلها أسباب شخصية .

ـ ويتردد ذكر أسباب غريبة .

ـ أى أسباب غريبة؟

ـ أسباب لها علاقة بالسلوك!

ـ السلوك؟! معاذ الله .

ـ الإشاعات تتطاير .

ـ اضرب لنا مثلا .

ـ كلام قيل عن المخدرات!

ـ المخدرات؟! . . منذا يتصور ذلك؟!

ـ بل حتى الاتجار بالمخدرات جرى به الهمس .

ـ يا ألطاف الله!

ـ وكلام آخر عن النساء!

ـ ليقطع الله ألسنتهم .

ـ الرجلان بريئان ، وما هى إلا مكيدة قذرة!

ـ أجل مكيدة يقف وراءها شيخ الحارة .

ـ ولكن شيخ الحارة رجل مستقيم ما عرفنا عنه من سوء .

ـ كالخط المستقيم ، كالماء النقى .

ـ ووسائل عمله وإن تكن مجهولة إلا أنها مؤكدة لا تخطئ .

ـ هذه مغالاة لا مبرر لها ، لا يخلو الرجل من ضعف إنسانى . ولا شك عندى فى أنه أوقع بهما لأسباب شخصية!

ـ اتهاماته لا دليل عليها!

ـ كل واحد يعرف أنه لم يكن يستلطفهما .

ـ إنه لا يستلطف آخرين فلم لم يوقع بهم؟!

ـ لكل إنسان مزاياه ونقائصه ، هذا قانون ينطبق على الإمام والمدرس وشيخ الحارة ، فشيخ الحارة ليس بالإنسان الكامل ولكن الأمر لم يكن يقتضى القبض على الرجلين المحترمين .

ـ أنا أصر على براءة الرجلين وكمالهما!

ـ وأنا أصر على امتياز شيخ الحارة .

ـ انتظروا ، سنعرف الحقيقة عاجلا أو آجلا .

ـ لن يغير شىء من رأينا فى الرجلين .

ـ ولن يغير شىء من رأينا فى الرجل .

ـ يا لها من بلبلة! لن نتفق على رأى .

ـ ولكن الحق واضح .

ـ الحق واضح .

ـ الحق واضح .

ـ لا اتفاق على رأى .

ـ والتعصب رذيلة غير مجدية .
ـ ولكنه مبرر فى حال الرجلين فهما مرجع كل كلمة طيبة أو سلوك حميد فى حارتنا .
ـ وهو مبرر كذلك فى حال الرجل الساهر على أمن حارتنا وسعادتها .
ـ ولكننا حيال موقف يحتم علينا التفرقة بين الصواب والخطإ .
ـ لا يمكن أن يخطئ الرجلان .
ـ ولا يمكن أن يخطئ الرجل .
ـ يا لها من بلبلة! لن نتفق على رأى . .

* * *

ضاق صدر عبد الله بما ترامى إلى سمعه فقام إلى النافذة فأغلقها بعصبية . عادا يتبادلان النظرة المعتمة الثقيلة . وتمتمت المرأة :
ـ إنها لبلبلة حقا لا نستخلص منها شيئًا . .
فقال بقلق :
ـ ولكنها تعصف بالقلب عصفا .
ـ لكل رأيه ولكن أحدا لا يستسلم للعاصفة!
فقال وكأنما يناجى نفسه :
ـ لا يمكن أن يلقى القبض عليهما لغير ما سبب!
ـ سمعنا كل ما يمكن أن يقال .
ـ الأمر يختلف بما يتعلق بى!
وساد صمت لم تجرؤ على خرقه حتى عاد يقول :
ـ فأنا لم أستقر على الطمأنينة إلا استنادا إلى الثقة الكاملة بهما!
ـ لعله من المغالاة أن نطالب بالثقة الكاملة .
ـ لولا ثقتى الكاملة بالأستاذ عنتر لما عاودت الثقة بالشيخ مروان!
ـ ما أكثر الذين يؤمنون ببراءتهما!
ـ وما أكثر الذين لا يؤمنون!
ـ من الحكمة أن تبقى على ثقتك بهما ما دمت لا تجد الدليل القاطع على إدانتهما .
ـ ولكنها حكمة قد تقضى علىّ .
فتساءلت بحزن وأسى :
ـ ماذا تعنى؟

لم ينبس ولكنه طالعها بوجه مكفهر . وإذا بها تهتف بحدة :

- أصبحت خبيرة برصد وساوسك!

- وساوسى؟!

- وساوس التردد وضعف الثقة بالنفس!

فصاح بغضب :

- علىّ أن أكون مغفلا لتشهدى لى بالقوة والثبات؟!

فقالت بوجه متقلص بالعذاب :

- ها نحن أولاء نعود رويدا إلى الجحيم!

- المهم أن يقوم صرح حياتى على حقيقة واضحة .

- لعل من الأهم من ذلك أن تنادى الحكمة فى المحن وأن تتذكر دائما أنك أب!

فقال بسخرية مريرة :

- أجل ، إنى أبو مروان وعنتر . . .

- وهى حقيقة أهم مما عداها . .

فقال بارتياب :

- بل توجد حقيقة أخرى أكبر ، وليست هى بالثانوية ، وأنا أريدها كما هى فى الواقع ولو دهمتنى فى هالة من النيران المتقدة .

- أخشى أن يقتصر حظنا من السعى فى النهاية على الاحتراق بالنيران المتقدة!

فرماها بنظرة متفحصة وقال بحنق :

- أنت وحدك تعرفين الحقيقة الكاملة!

فقالت بإصرار :

- حسبى أن أعرف أننى زوجة أمينة كما ينبغى للزوجة أن تكون .

فتمتم كأنما يناجى نفسه :

- زوجة أمينة كما ينبغى للزوجة أن تكون . .

فقالت بتحد :

- أجل ، هذا ما عنيته . .

- أترثين لى فى صميم قلبك ، أم تسخرين منى؟

فقالت بحدة :

- علم الله أنى أرثى لك . .

ـ إذن فأنت زوجة وفية؟

ـ لشد ما يؤلمنى تساؤلك . .

ـ لا مفر من التساؤل حتى الموت .

فهتفت بغضب :

ـ اطرح أفكارك المريضة أو فلتذهب إلى الجحيم . .

ـ ها أنا ذا أتقدم من الجحيم بخطوات ثابتة . .

ـ فكر مرتين ، فكر مرات ، فكر من أجل الطفلين . .

ـ ما أحوجنى إلى ضوء شمعة فى هذه الظلمات المتلاطمة ! . .

ـ حذار من الخطإ . .

ـ ما أحوجنى إلى ضوء شمعة ! . .

ـ حذار من رمى الأبرياء بالتهم الباطلة ! . .

ـ ضوء شمعة لا أكثر . .

ـ إذا غادرت بيتك للمرة الثالثة فسوف تكون الثالثة والأخيرة . .

ـ أتلجئين إلى التهديد لتمنعينى من التفكير؟

ـ إنى أحذرك وأنبهك . .

ـ هل رميتك بتهمة تكرهينها؟

ـ دعنى أسألك ، أما زلت تؤمن ببراءتى؟

فتنهد قائلا :

ـ فى محنتى الراهنة لا أجد قدرة على الإيمان بشىء .

ـ أرأيت؟ ! إنى ذاهبة ، وعليك أن تحسم أمرك للمرة الأخيرة وإلى الأبد . .

واندفعت خارجة من الحجرة وهى تردد :

ـ للمرة الأخيرة وإلى الأبد . .

٧

جلسا جنبا إلى جنب ، عبد الله وشيخ الحارة . فرغا من احتساء الشاى وشيخ الحارة يقول :

- خمنت من بادئ الأمر لم دعوتنى يا صديقى .
فقال عبد الله بحرارة :
- بالنسبة إلىّ فهى مسألة حياة أو موت .
فقال شيخ الحارة بامتعاض :
- تجنب من فضلك المبالغات العاطفية .
- يهمنى جدا أن أعرف الأسباب التى أدت إلى القبض على الشيخ مروان عبد النبى والأستاذ عنتر عبد العظيم . .
فلوح شيخ الحارة بيده متضايقا وقال :
- عيب أهل حارتنا أنهم يخلطون بين العلاقات الشخصية والأمور العامة!
- ليس الفضول على الإطلاق ما يدفعنى إلى سؤالى!
- ليس الفضول وحده ولكن علاقتك الوطيدة بالرجلين .
- ولا ذاك أيضا ، ولكن لأنه على الجواب تتوقف حياتى ، حياة أسرتى ، سعادتى فى هذه الحياة .
- لعلك تعنى المضاعفات التى أصابت حياتك الزوجية فيما مضى؟
- نعم .
- إنه موقف يشاركك فيه كثيرون من أهل حارتنا!
فتساءل عبد الله بذهول :
- حقا؟
- هو الحق على وجه اليقين .
- أتعنى . . ؟!
- أعنى أن الرجلين بحكم عملهما ، اتصلا بأسر كثيرة ، ونزلا منها نفس المنزلة التى نزلاها من أسرتك .
فقال عبد الله باهتمام :
- حدثنى عما وقع لتلك الأسر؟
فقال بعدم اكتراث :
- منهم من خاب ظنه فيهما فطلق ، ومنهم من أصر على الثقة بهما فمضت حياتهم كما كانت تمضى من قبل دون أدنى تأثر .
وحدجه بنظرة نافذة ثم واصل حديثه :

ـ ومنهم من لم يستقر على رأى فتردى فى هاوية العذاب .
ـ يا له من مصير غير محتمل !
ـ أجل .
ـ ولكن بوسعك أنت وحدك أن تحسم الأمر .
ـ لا شأن لى بذلك .
ـ بل هو واجبك نحو أهل حارتك .
ـ يا صديقى إن مهمتى تتعلق بأمن الحارة وسلامتها ولا شأن لى بحياة الأفراد .
ـ ولكن الحارة ليست إلا أهلها .
ـ الحارة شىء وأهلها شىء آخر .
ـ لا أفهم ذلك .
ـ ولكنى أفهمه بكل وضوح وبساطة ، وتحت شعاره أعمل .
ثم قال بصوت مرتفع الدرجة :
ـ الحارة كل لا يتجزأ وليس من العسير أن أعرف ما ينفعها وما يضرها ، أما أهلها فأفراد لا حصر لهم ، وتتعدد مشكلاتهم بتعدد أهوائهم . .
ـ معذرة ، يتعذر على أن أسلم بذلك .
ـ دعنى أضرب لك مثلا : ثمة زوج يكره زوجته ، وآخر يحبها حتى العبادة ، وثالث لا هو يحبها ولا هو يكرهها ، فهل تتصور لهم موقفا واحدا من حادثة القبض على الإمام والمدرس؟ !
ـ ولكن كلا منهم يود أن يتخذ موقفا على ضوء الحقيقة . .
ـ لعلك تفترض فيهم شجاعة قل أن تتوافر ، وفى النهاية تتحكم الأهواء وحدها . .
ثم التفت نحوه باسما متسائلا :
ـ أتحب زوجتك؟
فلاذ عبد الله بالصمت فقال شيخ الحارة :
ـ لطيف أن تحب زوجتك هذا الحب كله !
ـ أعترف بأنه لعنة تطاردنى . . .
ـ فلماذا تهمك الحقيقة؟
ـ هى كل شىء .
ـ خيل إلى أنها لا شىء فى مثل حالاتك . . .

ـ أى قيمة لحب يقوم على كذبة؟!

وتنهد عبد الله ثم استطرد:

ـ إنى أتساءل دون توقف: هل أطلق؟ هل أغمض عينى؟ هل أسلم للعبث والمجون؟ هل أنتحر؟ . . .

ـ يا له من عذاب!

ـ أنت المسئول عنه.

فابتسم شيخ الحارة ساخرا وقال:

ـ أنت وحدك المسئول!

ـ ما أسباب القبض عليهما؟ . . باسم الرحمة والصداقة أجبنى . .

فقال شيخ الحارة بهدوء:

ـ كثيرون يتصورون مسئوليتى فى ذلك على غير حقيقتها.

ـ ولكنك قبضت عليهما.

ـ لم أقبض فى حياتى على أحد.

ـ الكل يجمع . .

فقاطعه بهدوء:

ـ دعنا مما يجمعون عليه، إن مهمتى تنحصر فى جمع المعلومات.

ـ إذن حدثنى عن معلوماتك.

ـ المعلومات ـ كالوسائل التى أحصل بها عليها ـ سر من أسرار عملى.

ـ أليس من المحتمل أن تكون خادعة؟

ـ إنى أعرف عملى جيدا.

ثم بشىء من الكبرياء:

ـ ولا أثر فيه للهوى أو للأغراض الشخصية.

فقال بنبرة اعتذار:

ـ لم أقصد شيئا يسىء إليك ولكن حدثنى عن انطباعك، فهل تؤمن بأنهما مذنبان؟

ـ الحكم بذلك يخرج عن حدود عملى.

ـ كيف ذلك؟

ـ إننى أقدم معلومات، أما الحكم عليها فمن اختصاص غيرى!

ـ ولكن لا شك فى أن لك انطباعك عن المعلومات التى تتجمع لديك؟

ـ لا أستطيع الجزم بشيء، إنى أعرف على سبيل المثال ـ أن (أ) قابل (ب) فى الساعة (د) فى المكان (هـ)، الواقعة مؤكدة ولكن ماذا تعنى عند أهل الاختصاص؟ . . قد يعقب ذلك القبض على (أ)، أو على (ب)، أو على (أ) و (ب) معا، وقد لا يقع شيء ألبتة . .

ـ فإذا تم القبض فهذا يعنى الإدانة .

ـ كلا . . .

ـ ولكن كيف؟

ـ قد يفرج عن المقبوض عليه بعد وقت ما، وقد يتضح أن القبض على (أ) و (ب) كان بغرض الإيقاع بثالث مجهول هو (و) . . !

ـ أى حيرة؟!

ـ هو الطريق إلى الحقيقة!

ـ ربما كان أفضل ما يتبع هو الانتظار .

ـ رأى يبدو وجيها، ولكن الانتظار قد يمتد عاما أو عشرة أعوام، فهل تطيق أن تترك زوجتك فى بيت أبيها هذه المدة دون حسم؟!

ـ إذن كيف يمكن معرفة الحقيقة؟

ـ لا أدرى ماذا أقول، ولكن لا يكفى الاعتماد على الغير، لابد من استغلال مواهبك الذاتية وخبرتك الماضية . .

تنهد عبد الله من الأعماق وقال :

ـ الحق أنى كنت أجد عند الرجلين إجابات جاهزة وحاسمة ومريحة كلما احتجت إليها .

ـ ولكن لا تنس أنك طلقت فى رحابهما مرتين!

ـ ربما كنت متسرعا .

ـ وربما كنت على حق .

صمت مليا مكفهر الوجه، ثم سأله :

ـ بم تنصحنى فيما يتعلق بزوجتى؟

ـ أرجوك، لا شأن لى بالشئون الخاصة . .

ـ ولكنها كل شيء . .

ـ بالنسبة لك لا للحارة التى أنا شيخها!

ـ إنى أسألك كصديق .

ـ أعترف بأن صفتى العامة قد غلبت على كل شىء، ولو أننى نصحتك نصيحة ثم ثبت بعد ذلك فشلها لحاسبتنى على ذلك بصفتى شيخ الحارة لا الصديق فحسب . .

تنهد عبد الله مرة أخرى ثم قال :

ـ إذن قد تثبت براءة الرجلين وقد تثبت إدانتهما؟ . .

ـ أجل . .

ـ ليس ثمة يقين؟

ـ بلى . .

ـ مجرد احتمال!

ـ نطقت بالصواب .

ـ وما النسبة المئوية لكلا الاحتمالين؟

ـ لنقل ٥٠٪!

ـ ٥٠٪ . .

ـ أيهمك أمر الرجلين لهذا الحد؟

ـ يهمنى أمر زوجتى قبل كل شىء . .

فابتسم شيخ الحارة وقال :

ـ كم تحب زوجتك! ولكن لا غرابة فأنا أحب زوجتى أيضا . .

فرمقه بنظرة غريبة وسأله :

ـ ألم تصادفك متاعب فى حياتك الزوجية؟

فضحك شيخ الحارة لأول مرة وقال :

ـ لا يخلو بيت من ذلك ، وقد وقفت مرة على عتبة الطلاق ولكن الله سلم . .

ـ أكان لذلك أسباب مختلفة؟

ـ ثمة تشابه لدرجة ما . .

فسأله بلهفة :

ـ وكيف استرددت ثقتك بها؟

تفكر الرجل قليلا ثم قال :

ـ الحق أن زوجتى تعاوننى فنحن لا نكاد نفترق ، ولا يجد الشك ثغرة بيننا يمكن أن يتسلل منها . .

نظر الرجل فى ساعته . قام . قام عبد الله أيضا . ومضى شيخ الحارة نحو الباب ولكنه توقف فى وسط الحجرة ، ثم سأله :

ـ بحكم الفضول، هلا أخبرتنى بما أنت فاعل؟

فتفكر عبد الله وقتا ثم قال:

ـ لئن تكن زوجتى مذنبة بنسبة ٥٠٪ فهى بريئة فى الوقت نفسه بنسبة ٥٠٪.

ـ وإذن؟

ـ ولأنى أحبها أكثر من الدنيا نفسها، ولأنه لا بديل عنها إلا الجنون أو الانتحار، فإننى سأسلم باحتمال البراءة..

فابتسم شيخ الحارة ومضى إلى الباب. وتصافحا. ثم سأله وهو يهم بالذهاب:

ـ وهل أنت سعيد؟

فابتسم عبد الله ابتسامة لا تخلو من حزن وقال:

ـ بنسبة لا تقل عن ٥٠٪.

روبابيكيا

١

كالعادة كل صباح كان أول طارئ على الطريق. مع أول شعاع للشمس تنفرج عنه السحب. أورقت الأشجار فترامت خضرتها على المدى فوق كورنيش النيل. مشى على مهل مفعما بأنفاس الربيع وعيناه تنظران إلى بعيد. تنظران فى لهفة. وكالعادة أيضا، وقريبا من منتصف الطريق لاحت لعينيه قادمة. تلاقيا تحت شجرة الأكاسيا فتصافحا باسمين. تساءل:

ـ نجلس فوق السور؟

ـ لا بأس.

وجلسا ظهراهما للنيل ووجهاهما للطريق الخالى.

ـ صباح سعيد أن أصبح على وجهك.

ـ شكرا.

ـ وعلى رغم أننا لم نتعارف إلا أمس فإننى أشعر بأننى أعرفك منذ زمن بعيد..

ـ طالما جمعنا الطريق كل صباح.

ـ كل صباح سعيد.

ـ مشوار ضرورى لى لتجنب الترهل .

ـ ألفتك ، كالنسمة الرقيقة والسحابة البيضاء ، ونفذت إلى أعماقى بقوة مدعمة بالزمن .

ـ لعلك تساءلت كثيرا عن سر مسيرتى الصباحية؟

ـ كثيرا جدا ، وبخاصة أن مظهرك لا يوحى بأنك موظفة . قلت لعلها تتمشى فى منطقتها السكنية لأسباب جمالية . . .

ـ ولكن ماذا عن خواطرك الأخرى؟

ـ الأخرى؟

ـ أى نوع من النساء ظننتنى؟

ـ سيدة جميلة بقدر ما هى قوية ، نظرتها جريئة ورزينة ومليئة بالثقة . وتسلل بصرى . . .

ـ وتسلل بصرك؟

ـ إلى أصابعك فلم أر خاتما!

ـ ولست فى الوقت نفسه بنتا من البنات ، أليس كذلك؟ ، ماذا قلت؟

ـ مطلقة .

ـ وفيم فكرت؟

ـ لم يخطر ببالى عبث . .

ـ توكد لدى ذلك عند تعارفنا أمس .

فتفكر قليلا ثم قال :

ـ ولكن على أن أصارحك بأنى أحبك .

ـ تعنى أنك معجب بى؟

ـ أكثر من ذلك ، أنا أحبك بكل معنى الكلمة . .

ـ ولكنك لم تعرفنى بعد .

ـ ثمة حب يجىء بعد المعرفة ، وحب يسبق كل شىء .

ـ الآخر كثير الأعباء .

ـ الحق أنى أحب المغامرة .

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت :

ـ أتحب الصراحة؟ . . . تخيلت حديثنا هذا من قبل!

فقال بفرحة :

ـ هذا يعنى أنى خطرت ببالك . .

ـ ألا يشهد هذا الطريق على قديم زمالتنا؟

ـ وشهد أيضا مصيرى وهو يتقرر حتى من قبل أن أدرى . .

ـ ولكن ألم تنقض مدة طويلة قبل أن ينطق الحب الذى تزعم أنه سبق كل شىء؟

ـ كان اللقاء يمر فى سرعة الضوء .

ـ جواب غير مقنع تماما .

ـ وأول الأمر كنت فى غفلة ، واعتقدت فترة أخرى أنك سيدة متزوجة!

ـ وربما كنت مرتبطا بعلاقة ما؟

ـ ربما . . .

ـ أى نوع من العلاقة من فضلك؟

ـ عابرة . .

ـ عظيم!

ولاذا بصمت قصير حتى خرقه الرجل قائلا بنبرة جديدة بعض الشىء . .

ـ يحسن بى أن أقدم ما خفى من شخصى ، مهنتى صائغ ، فى الثلاثين من عمرى ، مركزى المالى على ما يرام .

ـ وأنا مطلقة ، قدر عمرى كما تشاء ، ويحسن بى أن أصارحك بأنى جربت الزواج أكثر من مرة!

ـ ما أجمل الصدق! . . .

ـ ألم يخفك ذلك؟

ـ كلا!

ـ من حقك أن تقلق ولكن صدقنى أنى كنت وما زلت بريئة!

ـ وأنا أحبك . .

ـ إذن فأنا سعيدة أكثر مما أستحق . .

ـ أأفهم من ذلك أنك . . . ؟

ـ أنى أشاركك عواطفك!

ـ ما أسعدنى من عاشق . .

وحدجته بنظرة ثاقبة وهى تسأله :

ـ ألم تتحر عنى؟

ـ نعم، لم أتحرّ . .

ـ أما أنا ففعلت .

فضحك طويلا ثم تساءل :

ـ وهل نجحت فى الامتحان؟

ـ أعتقد ذلك . .

ـ بأى مقياس تحكمين؟

ـ العجز هو ما أكرهه فى الرجل .

ـ العجز؟!

ـ أحبه قويا قادرا، رذائل القوة أحب عندى من فضائل الضعف . .

ـ إنك واضحة وقوية . . .

ـ ماذا تكره أنت فى المرأة؟

فتفكر قليلا ثم قال :

ـ القبح والانحلال .

ـ الانحلال؟!

ـ أظنه لا يحتاج إلى تفسير .

ـ أأنت ممن يهتمون بالماضى؟

ـ كلا .

ـ ماذا تقصد بالانحلال؟

ـ الاستهتار، مثل إنشاء أكثر من علاقة فى وقت واحد، أو التسليم بلا حب!

ـ ولكن ذلك مرض؟

ـ ربما .

ـ لا توجد امرأة خائنة أبدا .

ـ هذا صحيح بصفة عامة .

ـ يخيل إلى أننا متفاهمان؟

ـ وعلينا أن نعد أنفسنا للزواج بأسرع ما يمكن . . .

* * *

٢

مضت فى الطريق ووقف يتبعها ناظريه. بقلب كله هيام. ثم انتبه إلى حركة ما. التفت نحو السور. وهو يقترب منه ظهر رأس رجل. لعله كان جالسا أو نائما. ها هو ذا يقف الآن أمامه فى الناحية الأخرى من السور التى تلى شاطئ النيل. ترى هل سمع حديثه مع المرأة؟ وطالعه الغريب بوجه شاحب، بارز العظام، غائر العينين، وذقن غير حليق. سوى جلبابه المتسخ فوق جسده الهزيل، ثم عبر السور فصار على كثب منه. لص؟ متشرد؟ ليكن ما يكون. همّ بالذهاب ولكن صوته استوقفه وهو يقول:

ـ الحب!... ما أجمل الحب!..

رمقه باشمئزاز وهم بالسير مرة أخرى ولكن الرجل خاطبه قائلا:

ـ لدينا حديث مشترك فيما أعتقد.

فسأله بتقزز.

ـ أتخاطبنى؟

ـ لم يعد يوجد سوانا فى الطريق.

ـ ولكنى لا أعرفك؟

ـ ولا أنا أعرفك!

ـ إذن لا تخاطبنى.

ـ ولكن لدينا حديثا مشتركا.

ـ من أنت؟

ـ تاجر روبابيكيا.

ـ وأى حديث تعنى؟

فأشار بيد معروقة شبه سوداء من القذارة نحو الناحية التى سارت فيها المرأة، وقال:

ـ بخصوص السيدة..

ـ وما شأنك بها؟

ـ كنت آخر زوج لها!

ـ هه؟!

ـ تكلمت بوضوح فلا داعى للتكرار.

فتفحصه بذهول وتمتم:

ـ أنت مجنون بلا شك . .

فضحك قائلا:

ـ لم ينعم الله على بالجنون بعد.

ـ لعلك تهذى!

ـ لعلك تتساءل كيف آل أمرى إلى ما ترى؟

فلم يجب الرجل. فقال تاجر الروبابيكيا:

ـ كنت تاجر غلال ناجحا . .

ثم بنبرة ساخرة:

ـ ثم أفلست!

وضحك قائلا:

ـ ولكنى ما زلت تاجرا على أى حال، وهاك عربتى . .

وأشار إلى عربة منزوية وراء جذع شجرة فوق الطوار. هز الرجل منكبيه استهانة، أو تظاهر بالاستهانة، وهمّ للمرة الثالثة بالسير ولكن التاجر سأله:

ـ والحديث المشترك؟

فسأله بحدة:

ـ أى حديث مشترك؟

ـ حديثنا عنها، أى حديث عنها فهو مهم بالنسبة إلى، الحق أنى ما زلت أحبها.

ـ ما زلت تحبها؟!

ـ بكل جوارحى.

ـ ولم طلقتها؟

ـ نتيجة حتمية للإفلاس.

ـ ولكن الزوجة المَخلصة . .

فقاطعه:

ـ لا يمكن أن تكون زوجة لتاجر روبابيكيا.

ـ ألم تكن . . ألم تكن تحبك؟

ـ بلى فيما أعتقد.

ـ كيف تغير قلبها فجأة؟

ـ لا لوم عليها فى ذلك .

ـ لعل إفلاسك جاء نتيجة لأخطاء لا تغتفر !

ـ أعتقد أنا أن إفلاسى وقع بسببها واعتقدت هى أنه جاء نتيجة لعجزى . .

ـ عجزك؟!

ـ وهى تكره العجز كما قالت لك من دقائق!

ـ زدنى إيضاحا .

ـ لا أهمية لذلك .

ـ ولكنه مهم فى رأيى . .

ـ إنك تحبها ومن حقك أن تجرب حظك . .

ـ ولكنك أثرت موضوعا وتركته مفتوحا . .

ـ لا تقلق فهى امرأة ممتازة بكل معنى الكلمة . .

ـ لا تحاول خداعى . .

ـ لا سمح الله .

ـ إنك تعنى اتهامها . .

ـ أؤكد لك أنها على خلق عظيم . .

ـ لعلها لم تكن تحبك؟

ـ ها أنت ذا تتهمها بأنها تزوجت من رجل من غير أن تحبه .

ـ أعنى أنها لم تحبك الحب الكافى .

ـ جعلتنى أؤمن بخلاف ذلك .

ـ المرأة المحبة الفاضلة لا تتخلى عن زوجها .

ـ أنا الذى تخليت عنها!

ـ بسبب إفلاسك؟

ـ أليس ذلك كافيا؟

ـ ألم تختبر استعدادها للوفاء؟

ـ نعم، لم أفعل، لدى تسليمى بعجزى عن إسعادها هربت بالطلاق .

ـ بذلك يصبح الأمر واضحا .

ـ لا شىء واضح فى هذه الدنيا المعقدة .

ـ ولكن ما قلته واضح جدا .

- جرب حظك، جرب أن تبلغ الوضوح بنفسك.
- يخيل إلى أنك تداور وتحاور لتلقى بذور الشك فى نفسى..
- أنت تقول ذلك.

فهتف بغضب:

- إذا كان لديك ما يستحق القول فقله وإلا فاذهب بغير سلام..
- المتاجرة بالأشياء القديمة علمتنى السماح.
- الحديث المشترك؟
- لا شىء بعد.
- أتهزأ منى يا صعلوك؟
- أبدا. ولكنى أحب الحب كما أحب المحبين.
- كنت تتجسس علينا؟
- أبدا، ولكنى أنام على شاطئ النيل فى الربيع.
- كذاب.
- الربيع الذى يجدد الشجر ويعجز عن تجديد حياة البشر!
- لا ألوم إلا نفسى على الاستماع إليك.
- لن تندم على ذلك أبدا.
- عد إلى القبر الذى خرجت منه.
- سمعا وطاعة، أما مجلسى المختار فهو قهوة سوق الكانتو، وشهرتى هناك «الملعون»..
- عليك اللعنة!
- إلى اللقاء.

٣

أمام المرآة وقفت ترنو بإعجاب إلى العقد المطوق لجيدها. ترنو بصفة خاصة إلى اللؤلؤة المدلاة من واسطته. ونظرت من خلال المرآة أيضا إلى صورة الرجل المتربع فوق الديوان وراءها يتسلى بمشاهدة النيل من النافذة. وقالت وهى تتجه نحو الديوان:

ـ فى أصابعك معجزة .
نزع بصره من النيل كمن يصحو من غفوة وتساءل :
ـ ماذا قلت يا عزيزتى؟
ـ من يبدع هذه اللؤلؤة فهو معجزة!
ـ المعجزة حقا من تصنع اللؤلؤة من أجله .
فجلست إلى جانبه فوق الديوان وهى تقول .
ـ جميل أن أسمع منك غزلا رقيقا حتى اليوم .
ـ حقا؟ . . . ما وجه العجب فى ذلك؟
ـ المألوف أن الغزل يتوارى كلما أوغل المرء فى الزواج .
ـ ولكنك نبع للحب لا ينضب أبدا .
فمسحت على شعر رأسه بنعومة وقالت .
ـ حقا؟!
ـ أيداخلك شك فى ذلك؟
ـ كلا ، ولكنك لم تعد كما كنت .
فتردد قليلا ثم قال :
ـ لا علاقة لذلك بحبنا .
ـ لا تخف عنى شيئا فإنى أشعر بكل شىء .
ـ أردت دائما ألا أجرك إلى متاعبى .
ـ ستجدنى دائما فى صميم متاعبك ، لا تخف عنى شيئا . .
فتنهد قائلا .
ـ الحق أنى محاصر بالقلق . . .
ـ أرأيت؟!
ـ أقاومه بكل ما أوتيت من قوة الانحدار إلى الهاوية!
ـ وأخفيت عنى كل شىء .
ـ لم أكف دقيقة واحدة عن الكفاح .
ـ والجميع يضربون المثل بسعادتنا .
ـ الحق أنى أندفع نحو الخراب .
ـ الخراب؟!

ـ اختل ميزان العمل فى يدى ولا سبيل إلى ضبطه .

فقالت بحزن حقيقى :

ـ أى لعنة! أى لعنة! أى صحوة مباغتة من سعادة وهمية؟!

ـ بل كانت وما زالت سعادة حقيقية .

ـ أى لعنة تطاردنى؟! لم أضن بعطاء ، هيأت لك عشا ذهبيا ، ما رأيك فى عشنا؟

ـ جنة .

ـ وأصدقائنا؟

ـ جذابون كالسحرة .

ـ ورحلاتنا وليالينا؟

ـ جمال فى جمال . .

ـ أينقصنا شىء؟

ـ أبدا ، ولكنى أنفق المال بجنون!

ـ إنك صائغ عبقرى ولا حدود لقدرتك .

ـ لو كان مال قارون لنفد . .

ـ لا تقل ذلك يا حبيبى .

ـ ولكنها الحقيقة .

ـ وأى طعم للحياة بغير مباهجها الحقيقة؟

ـ أنا مهدد بالخراب العاجل .

ـ لا تخيب أملى فيك .

ـ ولكنها الحقيقة .

ـ لا تعلن عن عجزك .

فقال بجزع :

ـ كل شىء له حد لا يجوز أن يتجاوزه .

ـ إنما تهمنى النتائج ، أنا أحب الحياة الحلوة بقدر ما أحبك .

ـ أنت جميلة ، أنت فاتنة ، أنت عطر الحب وروحه ، ولكنك تتعلقين بمسرات يمكن الاستغناء عنها .

ـ لا تقل ذلك أبدا .

ـ الحب أغلى من أى شىء سواه .

ـ ولكن أزهاره لا تنور إلا فى خمائل المسرات .

ـ ظننته غنيا بنفسه عما عداه .

ـ لعل حبك فتر . .

ـ يا له من حكم جائر !

ـ عندما يفتر الحب ينشط التفكير والتدبير .

ـ أبدا ، ليس الأمر كذلك .

ـ عندما يفتر الحب يبدأ الندم على السرور البرىء .

ـ أنت تعلمين أن حبى لك لا يفتر أبدا .

ـ بل وليتنى ظهرك أمس واستغرقت فى النوم !

ـ بسبب انشغال البال لا فتور الحب .

فهزت رأسها فى ارتياب فقال :

ـ ما أنا إلاّ إنسان ذو طاقة محدودة .

ـ لم تكن كذلك فى أيامنا الحلوة .

ـ أنت سيدة ناضجة وتدركين من حقائق الأمور ما يقصر عن إدراكه غيرك . .

فقالت بحدة :

ـ لم أحب هذا القول .

ـ ما قصدت سوءا قط .

ـ ولكنى كرهته . .

ـ إنى أعتذر ، وإنى أحبك ، وأقر بأننى إنسان ذو طاقة محدودة !

ـ إنك ترعبنى .

ـ حتى الحب تلزمه استراحات قصيرة . .

ـ إنك تحملنى ذنوب الآخرين .

ـ لا يعنينى الماضى أبدًا .

ـ إنى امرأة بريئة ، لا عيب فيها إلا أنها تحب الحياة حبا لا يعرف الحدود .

ـ ولكنه حب لا يتأتى لرجل إشباعه .

ـ الحق ما أنا إلا ضحية لعجز الرجال .

ـ يا حبيبتى علينا أن نحرص على حياتنا المشتركة .

فقالت بكبرياء :

ـ لم أستطع ذلك فى الماضى ، ولا أستطيعه الآن .

ـ أليس ذلك أيضا نوعا من العجز؟

ـ نعم ، ليس كذلك ، لا تسم الأشياء بأضدادها .

ـ أنت اليوم فى عز نضجك . .

فهتفت غاضبة :

ـ لست عجوزا بعد .

ـ معاذ الله أن يخطر لى ذلك المعنى .

ـ ولكنه خطر ، ورميتنى بما هو فيك .

فتنهد يائسا وقال :

ـ لا فائدة ، أفلست فى كل شىء .

ـ ها هى ذى اللعنة تطاردنى من جديد .

ـ ليبعد الله عنا اللعنات!

ـ ها هى ذى تطاردنى من جديد!

ونهضت غاضبة فغادرت الحجرة . . .

* * *

٤

تذكر فجأة تاجر الروبابيكيا . حاجة ملحة دفعته إلى البحث عنه لمناقشته . ولم يجد صعوبة تذكر فى العثور على القهوة القابعة تحت البواكى بسوق الكانتو . وقف يجيل البصر فى الجالسين ولكنه لم يظفر بطلبته على حين تطلعت إلى منظره الأبصار فى دهشة . ورأى وراء النصبة رجلا يقوم بكل شىء فقدر أنه صاحب القهوة فاقترب منه ، حياه ، وسأله :

ـ أين تاجر الروبابيكيا الشهير بالملعون؟

فحدجه الرجل بنظرة أشعلها انتباه طارئ وقال :

ـ لا أدرى .

ـ ألا يجلس عادة فى هذه القهوة؟

ـ ولكنى لم أره من مدة .

ـ وأين يمكن أن أجده من فضلك؟

ـ لا أدرى .

ـ هل يوجد أمل فى رؤيته إذا انتظرت بعض الوقت؟

ـ من يدرينى ؟ !

وقف الرجل فى وسط القهوة مترددا . وإذا برجل يدنو منه حتى يقف أمامه ثم يسأله :

ـ أتريد مقابلة الملعون؟

ـ أتعرف مكانه؟

ـ اتبعنى .

قال ذلك ومضى إلى الخارج . تبعه بأمل جديد فى مقابلة الرجل . كان المغيب يضفى على الدنيا ظلاله ، ولفحات هواء رطيب تترد بأنفاس الخريف .

سار وراء الرجل فى زقاق ضيق .

ـ أنحن ذاهبان إلى بيته؟

فلم يجب الرجل وواصل السير . ولدى أول منعطف يصادفهما هوت ضربة على رأسه فشهق ثم سقط مغمى عليه . ولما أفاق وجد نفسه ملقى فوق مقعد خشبى كأنه أريكة فى ظلام دامس لا يُرى فيه شىء . جلس فى حذر وهو يتساءل .

ـ أين أنا؟ !

وأجال يده فى الظلام وهمّ بالوقوف ، وإذا بصوت غليظ يقول بنبرة آمرة ومهددة معا :

ـ لا تتحرك .

فصدع بالأمر وهو يرتعد وسأل برجاء :

ـ ما معنى هذا من فضلك؟

ـ لا تسأل ولكن عليك أن تجيب . .

ـ سل عما شئت ولكنى لم أسئ إلى أحد .

ـ اخرس .

فخرس وقلبه يدق فعاد الصوت يسأل :

ـ ما مهنتك؟

ـ صائغ .

ـ وعمرك بالسنة الهجرية؟

ـ لا أعرف .

ـ أنصحك بأن تتجنب الكذب .

ـ يمكن معرفته إذا أعطيت ورقة وقلما ونورا!

ـ أيختلف عمرك الهجرى عن عمرك الميلادى؟

ـ طبعا .

ـ هل أفهم من ذلك أنك مصاب بانقسام الشخصية؟

ـ أنا سليم والحمد لله .

ـ إذن لم ذهبت إلى قهوة الكانتو؟

ـ لمقابلة تاجر الروبابيكيا الشهير بالملعون .

ـ ما علاقتك به؟

ـ لا علاقة لى به .

ـ تجنب الكذب حرصا على سلامتك .

ـ أنا لا أكذب وليس ثمة ما يدعونى إلى الكذب .

ـ ما علاقتك به؟

ـ تقابلنا مرة فى الطريق . .

ـ أكرر تحذيرك من الكذب .

ـ بالحق نطقت .

ـ أى طريق؟

ـ طريق النيل .

ـ متى؟

ـ منذ عام وبضعة أشهر .

ـ لأى مناسبة؟

ـ صادفنى فى الطريق فتبادلنا حديثا عابرا .

انهالت عليه السياط فى الظلام كالنيران . اجتاحه ألم حاد فصرخ من الأعماق . توقف الضرب ولكن صراخه لم يتوقف . تُرك يصرخ ويتوجع بلا مصادرة لحريته فى ذلك . حتى همد وسكت . عاد الصوت يقول :

ـ حذرتك من الكذب .

فقال بصوت ممزق :

ـ أنا لا أكذب .

ـ ماذا كانت مناسبة المقابلة؟

ـ كنت أجالس خطيبتى على سور الكورنيش ، فلما ذهبت ظهر لى الرجل من وراء السور وقال لى إنه كان آخر زوج لخطيبتى . .

ـ السوط أخف أدوات التأديب .

فقال بجزع :

ـ ولكنى أقول الصدق .

ـ ومن كان أول زوج لها؟

ـ لم أسأله عن ذلك .

ـ وماذا دار بينكما أيضا؟

ـ حدثنى عن حياته حديثا غامضا ، وفى النهاية أخبرنى عن مجلسه المختار بقهوة سوق الكانتو . .

ـ لم؟

ـ لا أدرى .

ـ ولم ذهبت تسأل عنه اليوم؟

ـ شعرت برغبة فى محادثته .

ـ فى أى موضوع؟

ـ فشل زواجه .

ـ لم؟

ـ ربما لأن زواجى أنذر أيضا بالفشل . .

ـ ماذا توقعت أن تجد عنده؟

ـ لا أدرى ، ولكن اليأس جعلنى أتخبط . .

ـ حذرتك من الكذب . .

فهتف فى رعب :

ـ ما قلت إلا الصدق .

ـ أمهلك دقيقة واحدة .

ـ أقسم على ذلك بكل غال .

ـ دقيقة واحدة .

ـ أى شىء يدعونى للكذب . . . ؟!

ـ أى شىء يدعوك إلى الكذب؟

ـ لا شىء ألبتة . . صدقونى . .

ـ لم يبق إلا ثوان . .

ـ الرحمة . . .

ـ انتهت الدقيقة . .

وانهال عليه العذاب فى الظلام . لم ينج منه رأس ولا قدم .

* * *

٥

تراءى الملعون فى الجانب الأيسر من قهوة سوق الكانتو وهو يدخن البورى . تلاقت عيناهما مرة ولكن الملعون بدا مستغرقا فى البورى . تقدم منه حاملا كرسيا وضعه أمامه وجلس . ورمقه الملعون بنظرة غير مرحبة وسأله :

ـ ماذا تريد؟

ـ ألا تذكرنى؟

ـ من أنت؟

ـ ألا تذكر الصائغ؟

فانقلبت سحنة الملعون من السخط إلى الذهول ، وهتف :

ـ الصائغ؟!

ـ بلحمه ودمه!

ـ ولكن لا لحم هناك ولا دم .

ـ أجل!

ـ غير معقول .

ـ هى الحقيقة كما ترى .

ـ أعوام انقضت ولكنها لا تكفى لتبرير هذا التغير الشامل!

ـ أجل . .

ـ كأنك خارج من قبر .

ـ كأنى خارج من قبر .

ـ ماذا حدث لك؟

ـ ذاك تاريخ طويل .

ـ ولكن زواجك فشل؟

ـ أجل .

ـ ووقع الطلاق؟

ـ لا أدرى .

ـ وكيف تلاشى شكلك الآدمى؟

فتردد قليلا ثم سأله :

ـ ألك أعداء؟

ـ ليس لى أصدقاء .

ـ سأقص عليك قصتى ، فمنذ . .

وتوقف حائرا ثم تمتم :

ـ الحق أنه لم يعد لى علم بالزمن . .

ـ أهمله كما يهملنا . .

ـ جئت يوما أسأل عنك فى هذه القهوة ، خطفت ، جرى معى تحقيق غريب ، عذبت ، سجنت فى الظلام زمنا لا أدريه ، ثم وجدتنى ملقى فى الخلاء !

ضحك الملعون وقال :

ـ مررت بمحنة مماثلة فى زمن ماض . .

ـ أنت أيضا؟ !

ـ أنا أيضا . .

ـ نفس الظروف والأسباب؟

ـ تقريبا . .

ـ ومن أولئك الشياطين؟

ـ علمى علمك !

ـ كيف يمكن أن تقع تلك الأحداث؟ !

ـ كما يقع غيرها . .

ـ أمور تجنن . .

ـ لا تشغل بالك بما لا حل له .

ـ لا حل له؟

ـ أجل بما لا حل له، وحدثنى عن زواجك .

ـ لم أجد أثرا لدكانى الذى ضاع فى التنظيم .

ـ حدثنى عن زواجك .

ـ ذهبت إلى بيتى، بيت الزوجية، فوجدته مأهولا بأغراب!

ـ ضاع كل شىء؟

ـ كل شىء .

فقال الملعون باسما :

ـ ولكن زوجتنا ما زالت ترفل فى حلل السعادة .

ـ ألديك معلومات عنها؟

ـ هل فى وسع عاشق أن ينزع عينيه من معشوقه؟!

ـ جاء دورى لأسألك .

ـ ما أكثر أخبارها وما أقلها . حدث واحد يتكرر إلى ما لا نهاية، زواج طلاق، زواج طلاق، زواج طلاق، زواج . . .

ـ ما أعجب ذلك!

ـ ما أعجب ذلك!

ـ يا لها من امرأة!

ـ يا لها من امرأة!

ـ لكنها طعنت فى السن؟

ـ جمالها فى عينى غير قابل للزوال!

ـ سيجىء يوم فيجرى عليها ما جرى علينا .

ـ أشك فى ذلك .

ـ لكل شىء نهاية .

ـ ليس كل شىء له نهاية!

ـ أنت تمزح ولا شك .

ـ لم قصدتنى فى ذلك اليوم المشئوم؟

ـ أردت أن أناقش معك أسباب الفشل .

ـ أكنت بدأت تعانيه؟

ـ أجل . .

ـ هى أسباب واحدة .

ـ حقا؟

ـ ما العجب فى ذلك؟

ـ إذن فهى امرأة مريضة .

ـ الأصح أن تقول إننا نحن المرضى!

ـ لن يوفق معها رجل .

ـ لعله لم يخلق بعد .

ـ ولن يخلق أبدا .

ـ لا تحكم على المجهول .

ـ إنه شىء يفوق الخيال .

ـ كما أمكن أن توجد هى ، فمن الممكن أن يوجد هو .

ـ فتنهد فى قنوط وقال :

ـ دلنى على عنوانها .

ـ لمه؟

ـ أرغب فى مقابلتها .

ـ لكنها لن تعرفك .

ـ أذكرها بنفسى فتعرفنى كما عرفتنى أنت .

ـ وما فائدة ذلك؟

ـ أجل ، وما فائدة ذلك؟!

ـ خير من ذلك أن تفكر فى عمل تحصل به على رزقك .

ـ كنت أبرع صائغ .

ـ دعنا من كان وكنا . .

ـ ماذا أعمل؟

ـ ممكن أجد لك عملا فى الروبابيكيا ولكنى من زمن أفكر فى مغامرة تعود علينا بالرزق الوفير . .

- ما هى؟
- مشروع لم أجد الشريك الثقة له . .
- وهل أصلح له؟
- سأجد لك غرفة للإقامة فوق سطح عمارة فى حى راق .
- وبعد؟
- ومن خلال علاقاتى الكثيرة بالبيوت والناس ، سأشيع أنك من رجال الأمن السريين الدهاة . .
- رجال الأمن؟!
- وينتشر الرعب فى المساكن التى لا يخلو واحد منها من نقطة ضعف يخاف عليها من القانون . . .
- وماذا نجنى من وراء ذلك؟
- أمثل دور السمسار الخاص ، وأتلقى الهبات والهدايا !
- يا له من مشروع خيالى!
- هو أكثر من واقعى ، ستنهال علينا الأموال . لن نسترد قوانا الضائعة ، ولكنا سنعيش فى رفاهية كالأحلام . .
- أتمنى أن تتحقق الأحلام .
- وإذا تحققت أمكن بفضل الرفاهية أن نجد الوسائل الكفيلة بالعزاء والنسيان . .
- نسيان المرأة وعشقها . . ؟
- أجل ، ولدينا فرص لا حصر لها لتكرار التجربة فى أحياء كثيرة . .
- لو تحقق ذلك فهو المعجزة !
- أجل . . المعجزة!

* * *

٦

فى بهو فاخر جلس الشريكان . بينهما مائدة حفلت بما لذ وطاب من طعام وشراب . بهو كأنه متحف . وكانت أعينهما تلتمع بالنشوة حين قال الصائغ وهو يرفع كأسه :

- صحة الضعف البشرى .

ـ وليدم إلى الأبد!

ـ أصبح الآن من الممكن أن ننسى.

ـ صدقت ولكننا لم ننس بعد تماما.

ـ كلما رجعنا إلى الإفاقة رجعت الذكريات كالزنابير...

ـ يا ويلنا من الإفاقة.

ـ ولكن لدينا ما يشغلنا، لدينا الطعام والشراب والتحف النادرة وأدوات الترف والحدائق والملاهى الليلية..

ـ لدينا حقا ما يشغلنا ولكنها تخطر على القلب فى الإفاقة.

ـ ما دامت وسائل النسيان متوافرة فلا خوف علينا...

ـ فلنغرق فيها حتى الأعماق.

ـ إنها تطاردنا ولكنها لن تقبض علينا.!

ـ نجونا من الجنون.

ـ يا له من جنون!.

ـ عليها اللعنة.

ـ صحتك.

ـ صحتك.

ـ عليك أن تحصل لنا على عملة صعبة من السوق السوداء لنغزو السوق الحرة...

ـ سيتم ذلك على خير وجه... وأظن آن لى أن أذهب...

ـ مصحوبا بالسلامة..

ودعه حتى الباب. وجعل يذرع البهو وهو ينظر فى الساعة. حتى دخل الخادم وهو يقول:

ـ جاءت السيدة.

فقال بلهفة:

ـ أدخلها.

دخلت المرأة تخطف الأبصار بجمالها وبريق اللؤلؤة فوق صدرها. دعاها للجلوس وهو ينحنى لها تحية، ثم قال:

ـ شرفت الدار.

ـ شكرا.

ـ كنت فى انتظارك لتسليمك القرض كما تم الاتفاق عليه مع زوجك .
ـ ولولا المرض لجاء بنفسه .
ـ أعرف ذلك ، شفاه الله ، ولكن اسمحى لى أن أقدم لك كأسا . .
ـ شكرا . .
وتنهد الرجل وقال بأسى :
ـ إذن لم تعرفينى بعد؟
فحدجته بنظرة غريبة فقال :
ـ أكثر من مرة تقابلنا بحضور زوجك ، ولكنك لم تعرفينى للأسف .
لم تحول عنه عينيها فقال :
ـ لم تتغيرى ، أما أنا . .
هتفت :
ـ أنت؟ !
ـ أجل !
ـ أى مفاجأة؟ ! . .
ـ لا تعجبى فأنت العجب .
ولاذت بالصمت دقائق ثم سألته :
ـ أين كنت طيلة ذلك الدهر ؟
ـ الحق أنى لا أدرى .
ـ غير معقول .
ـ هو غير معقول حقا ولكنه واقع .
ـ كنت فى مكان ما ولم تعن بالاتصال بى .
ـ كنت فى مكان ما واستحال على الاتصال بأحد .
ـ أين كنت؟
ـ فى الظلام .
ـ لا أفهم .
ـ وليس عندى ما أقوله أكثر من ذلك ، دعينا مما مضى وانقضى . .
ـ إنك لا تدرى مدى تلهفى على معرفة ذلك .
ـ وأنا عاجز عن إشباعه !

وتبادلا نظرة كئيبة حتى قال :

ـ وطلبت أنت الطلاق .

ـ اضطررت إلى ذلك .

ـ وتزوجت مرة بعد مرة . .

فلاذت بالصمت ، فقال :

ـ لك كمال مروع لا يحتمل . .

فقالت بتبرم :

ـ دعنا من سيرته .

فتنهد قائلا :

ـ لذلك لا أجد فائدة فى منح القرض !

ـ ولكنك وعدته !

ـ لن يغير من المصير المقرر .

فسكتت متجهمة فقال :

ـ لا أشك لحظة واحدة فى أنك تؤمنين بقولى كل الإِيمان .

فقالت بحزن :

ـ لن أنعم بالاستقرار فيما يبدو !

ـ لذلك أقترح عليك أن تعودى إلىّ ، فعلى الأقل ستجدين عندى ثروة لا تنفد !

ـ غير ممكن ، أنت تؤمن بذلك أيضا .

ـ وقد تحدث معجزة !

ـ معجزة ؟ !

ـ إنى أنتظر طبيبا يُعَدّ فى هذه الشئون معجزة !

فلاحت فى وجهها خيبة واضحة فقال :

ـ لا توصدى باب الأمل وانتظرى . .

وطبع على يدها قبلة حارة وهو يودعها .

* * *

٧

وجاء الطبيب فى ميعاده. جاء يحمل حقيبة وعصا غليظة. رحب به بحرارة، ولكن شيئا فى منظره جذب انتباهه فجعل ينظر إليه بدهشة حتى سأله:

- مالك تنظر إلىّ هكذا؟
- الحق أنى أعجب للشبه العجيب بيننا!
- حقا؟

تساءل الطبيب وهو ينظر فى وجهه بإمعان فقال مستدركا:

- أعنى أيام شبابى..

فابتسم الطبيب فقال الرجل:

- نفس الصورة والقوة!
- كل شىء محتمل.
- أكاد أرى فيك نفسى الذاهبة.
- سييسر ذلك من مهمة العلاج.
- يسعدنى ذلك.

وجال الطبيب بعينيه فى أنحاء البهو الفخم الجميل ثم قال:

- حدثنى عن دائك.
- لحظة واحدة حتى أفيق من الدهشة.

وتريث قليلا ثم قال:

- سمعت عن براعتك كثيرا، فهل حقا تستطيع أن تعيد الشباب؟
- ذاك أيسر علىّ من التنفس.
- ياللسعادة!
- ولكن لم ترغب فى استرداد شبابك؟
- يا له من سؤال يا دكتور!
- يهمنى أن أعرف جوابك.
- ولكن الرغبة فى الشباب لا تحتاج إلى تبرير.

ـ أليس لحكمة الكهولة عشاقها؟

ـ لا أظن .

ـ خبرنى على الأقل ماذا فعلت بشبابك؟

ـ ولكن ألا يعد ذلك خروجا عن الموضوع؟

ـ بل هو فى صميمه .

ـ حسن ، استثمرته فى وجوهه كافة .

ـ أبدا ، بددت شطره الأكبر فى الظلام .

ـ أعرفت ذلك؟

ـ أجل .

ـ كيف عرفته؟

ـ هو بعض عملى .

ـ طبيب أنت أم قارئ غيب؟

ـ هما شىء واحد .

ـ على أى حال لم أكن مخيرا .

ـ ومن قال إنه غير مخير فقد أهدر شبابه .

ـ كانت قوة مجهولة لم أعرف كنهها حتى اليوم .

ـ أى جهد بذلت لتعرفها؟

ـ قلت إن البعد عنها غنيمة والسلام .

ـ وهكذا أهدرت شبابك للمرة الثانية .

وتبادلا نظرة طويلة ، ثم قال الطبيب :

ـ أصابك ما أصابك نتيجة لعجز محقق .

ـ عجز؟!

ـ أجل ، فى العمل والحب .

ـ أعرفت ذلك أيضا؟! إنك مذهل حقا .

ـ قلت إنه بعض عملى .

ـ أشهد بأنك عرفت حبى وعملى وضياعى .

ـ وأكثر من ذلك .

ـ أكثر من ذلك؟

ـ أعرف أنك دجال لص!

تراجع الرجل منذعرا فقال الطبيب ضاحكا :

ـ تاجرت بالخطايا ، وحولت ثروتك الهائلة إلى تحف نادرة كما أرى .

اصفر وجه الرجل وارتعشت أطرافه فقال الطبيب :

ـ لا تخف ، أنا طبيب لا شرطى .

ـ سيدى .

ـ أفندم؟

ـ ماذا تروم من وراء معرفتك اللانهائية؟

ـ أروم الشفاء لمرضاى .

ـ أما زلت تنوى علاجى؟

ـ بل بدأته منذ رأيتك .

ـ أترد إلى شبابى؟

ـ بلا أدنى شك .

ـ وتصون الأسرار التى عرفتها؟

ـ إنه واجب الطبيب الأول .

فقال بابتهاج :

ـ لست مرعبا كما يتبادر إلى الذهن .

ـ سيعود إليك شبابك الحق .

ـ متى . . متى يا دكتور؟

ـ قبل أن أغادر بيتك!

ـ إنك لساحر .

ـ ولكنك ساحر أيضا؟

ـ أنا؟!

ـ استعضت عن الحب بالثروة ثم حولت الثروة إلى طعام ، وشراب وتحف .

ـ هى الرغبة فى النسيان .

ـ ولكنك كنت تخاف النسيان بقدر ما تتمناه .

ـ ربما!

ـ حسن ، سيعود إليك الشباب .

وقبض على عصاه بشدة وهو يقول :

ـ آخر خطوات العلاج هى أصعبها .

وبسرعة جنونية راح يهوى بعصاه على كل ثمين فى البهو . لم يبق على شىء من التحف والصور والمصابيح والثريات والحلى . ولم تكف يده عن توجيه الضربات حتى أصبحت الجواهر أكواما من الشظايا . وانزوى الرجل فى أثناء ذلك فى أحد الأركان وهو يرتعد رعبا ويصرخ بصوت مبحوح . وتنهد الطبيب فى ارتياح وقال بهدوء :

ـ عملية من أشق ما صادفنى فى حياتى الطبية .

فصاح الرجل :

ـ أنت مجنون .

ـ أصدق التهانى .

فصاح الرجل :

ـ خربتنى الله يخرب بيتك .

ـ أكرر التهنئة .

ـ أنت مجنون .

ـ يسعدنى أن أسمع أسلوب الشباب يجرى على لسانك .

وتناول حقيبته ومضى نحو الباب وهو يقول :

ـ عليك الآن أن تصون شبابك بعد أن أرجع إليك بمعجزة وأن تنفقه فيما يليق بروعته ، وإذا حدثت مضاعفات غير متوقعة فتلفن إلىّ من فورك .

* * *

٨

رقد ذاهلا بين الخرائب . ضاعت الحبيبة وهلك ما يمكن أن يتسلى به عنها . لم يبق إلا الفقر والتشرد والهيمان المحروم . كان يفكر فى ذلك عندما تناهى إليه صوت أجش وهو ينادى «روبابيكيا» . نهض متثاقلا فناداه من النافذة . جاء الرجل فنظر فى أنحاء البهو بدهشة ثم نظر إلى صاحبها متسائلا ، ولكن هذا قال له متجاهلا تساؤله الصامت :

ـ افحص هذه البقايا واختر ما يصلح لك منها .

ـ أوقع زلزال فى مسكنك؟

فقال واجما :

ـ اختر ما يصلح لك .

ـ الشظايا لن تنفعنى بطبيعة الحال ، ولكنى آخذ ما يمكن إصلاحه أو تهيئته بطريقة ما .

ـ ليكن .

وانكب التاجر على بقايا التحف المتناثرة يأخذ واحدة من بين كل عشرين وسرعان ما كف وهو يقول :

ـ لم يبق شىء ذو قيمة .

ـ منذ لحظات كان كل شىء محتفظا بقيمته .

فنظر إليه التاجر فى ارتياب وسأله :

ـ هل زارك الطبيب؟

فسأله بدوره دهشًا :

ـ من أدراك بذلك؟

ـ قصته أصبحت مشهورة .

ـ وأنا الذى دعوته بنفسى !

ـ هو على أى حال لا يزور إلا من يدعوه بنفسه .

ـ ولا فائدة من الندم !

ـ ولا فائدة من الندم .

ـ لعلك دعيت إلى بيوت أخرى خربها وذهب؟

ـ يكاد عملى هذه الأيام يقتصر على شراء مخلفاته .

ـ الحق أنى فى مسيس الحاجة إلى نقود .

ـ لن تحصل على شىء يذكر .

ـ افحص من جديد .

ـ لا فائدة ، ولكن هناك فكرة لا بأس بها .

فتساءل الرجل بلهفة :

ـ ما هى؟

ـ توجد تحفة قديمة لم يصبها التدمير .

ـ أين هى؟

فأشار إليه قائلا :

ـ هى أنت !

ـ أنا؟! . . أجننت؟

ـ هى التحفة القديمة الوحيدة التى لم تمس .

ـ أتريد أن تشترينى كالأشياء القديمة؟

ـ خير من الموت جوعا .

ـ يا لك من مهذار!

ـ لا أعرف الهذر فى العمل .

ـ اغرب عن وجهى .

ـ خير من أن تموت جوعا .

ـ سأبدأ من جديد .

ـ لعلك تأمل فى مساعدة شريكك الغنى؟

ـ أتعرفه أيضا؟

ـ حكايتكما ذائعة فى سوق الكانتو!

ـ هلكنا!

ـ كلا فإن أهل المهنة الواحدة لا يخون بعضهم بعضا .

ـ إذن فلأنتظره .

ـ ولكنه قبض عليه فى السوق السوداء .

ـ يا للكارثة!

ـ لم يبق لك إلا أن توافق على رأيى .

ـ إنى أحتقر رأيك .

ـ سأنفذه أردت أم لم ترد .

ـ أتركن إلى القوة اطمئنانا إلى ضعفى وشيخوختى؟

ـ إنى أتعامل عادة مع الأشياء القديمة .

ـ سأقاومك والويل لك .

ـ افعل إن استطعت .

وتقدم منه بثبات فرفعه إلى كتفه كطفل ، ومضى به إلى الخارج غير مبال بحركات ساقيه ولا بقبضاته الواهنة المنهالة فوق ظهره .

* * *

٩

دفع التاجر العربة والرجل راقد فيها بين الأشياء القديمة وكان يصيح بصوته الأجش بين آونة وأخـرى «روبابيكيـا». وبلغ طريق النيل لدى هبـوط المغـيب، وبدا الرجل مستسلما ولكن عينيه تحولتا تلقائيا نحو كورنيش النيل. وخطف بصره شيء يلمع. أحدّ بصره فرأى اللؤلؤة تتراقص فوق صدر المرأة الفاتنة. كانت تسير على مهل كأنما تبحث عن رجل جديد. ودبت فيه حيوية من لا شيء فانتظر اقترابها على لهف. ولكنها حاذته ومرت به دون أن تلتفت نحو العربة. مضت فى الاتجاه المضاد تضيء لؤلؤتها قتامة المغيب.

الرجل الذى فقد ذاكرته مرتين

١

لم يبق فى الحديقة الصغيرة أحد سواه. ذهب الذين تناولوا عشاءهم سواء فى الحديقة أم فى البهو الصغير المتصل بها من الداخل. أكثرهم صعدوا إلى حجراتهم فى الفندق، وقلة مضت فى الطريق الذى يشق الخلاء. انتظر النادل أن يذهب هو أيضًا ليخلى الحديقة من الكراسى والموائد ولكنه لم يذهب، ولم يبد استعداداً للذهاب. جلس وحده يستقبل الهواء الجاف المنعش الهابط من سفح الجبل فيما وراء الخلاء. ولم يجد النادل بدا من نقل الموائد والكراسى إلى الداخل عدا مائدته وكرسيه، ثم حام حوله كأنما ليذكره بأنه آن له أن ينصرف. وتجرأ أكثر فوقف أمامه وهو يسأل:

ـ هل من خدمة؟

فسأله بدوره:

ـ أتوجد فى الفندق حجرة خالية؟

ـ أعتقد ذلك، تفضل بمقابلة صاحب الفندق.

ـ تلك الفتاة فى نهاية البهو؟

ـ كلا، إنه فى الداخل فيما يلى البهو.

ـ ومن تكون الفتاة إذن؟

ـ مديرة المطعم وابنة المدير .

ـ شكرًا .

ولما لم يزايل مكانه قال النادل :

ـ هلا تفضلت بالذهاب لأتمكن من نقل المائدة؟

ـ معذرة ، يلزمنى بعض الوقت لأستعيد نشاطى من تعب طارئ .

ذهب النادل فلبث وحده كما كان . ونظر نحو الفتاة كما فعل مرارا وهو يتناول عشاءه . وبادلته النظر أيضا . وقال لنفسه :

ـ ليتها كانت هى صاحبة الفندق .

ثم بنبرة منتشية :

ـ ما أجمل أن يحوز الإنسان فتاة حسناء مثلها .

ومضى الوقت وهو لا يريد أن يتحرك . وإذا بصاحب الفندق يمضى نحوه على حين وقفت كريمته فى نهاية الممر الموصل بين البهو والحديقة رغبة فى إشباع حب استطلاعها .

وقال صاحب الفندق للفتى :

ـ نحن فى خدمتك .

فقال الشاب بارتباك :

ـ شكرا .

ـ أخبرنى النادل أنك تريد حجرة خالية .

ـ أجل أريد حجرة للمبيت .

ـ تفضل بالدخول للقيام بإجراءات الحجز .

ـ إن أردت الحق . . .

ـ أفندم؟

ـ لا أدرى فى الواقع ماذا أقول!

ـ ولكن لديك بلا شك ما تقوله .

ـ لا أدرى كيف أقول .

اقتربت الفتاة أكثر حتى وقفت جنب أبيها ، وقال الرجل :

ـ ولكن لا مفر من الكلام!

ـ أمهلنى قليلا . .

ـ لعله ليس معك نقود؟

ـ معى من النقود ما يكفى وزيادة.

ـ إذن فما المشكلة؟

ـ مشكلتى أننى مرهق جدا..

ـ ولكنك تبدو فى صحة جيدة..

ـ الحق أننى لا أعرف من أنا!!

ـ ماذا قلت؟!

ـ لا أعرف من أنا.

ـ أأنت مالك لقواك العقلية؟

ـ أعتقد ذلك.

وسألته الفتاة:

ـ كيف لا تعرف من أنت؟!

ـ لا أعرف لى أصلا ولا هوية ولا اسما..

فسأله الأب:

ـ كيف وُجدت فى حديقة فندقنا؟

ـ وجدت نَفسى فى الخلاء، الجبل ورائى، ومبنى وحيد أمامى هو الفندق، ولم أجرؤ على التوغل فى المدينة فتسللت إلى حديقة الفندق..

ـ أليس معك بطاقة شخصية؟

ـ كلا، لعلى سرقت..

ـ ولكن معك نقود كما تقول؟

ـ وجدتها ملفوفة فى حزام حول بطنى..

ـ أليست نقودك؟

ـ هذا ما استنتجته..

تبادلوا النظرات فى صمت حتى قال الأب:

ـ ستتذكر أشياء بلا ريب. لابد أنك تذكر من أين أتيت؟

ـ لا أدرى.

ـ أين كنت ذاهبا؟

ـ لا أدرى.

ـ أسرتك؟

ـ لا أدرى.

ـ عملك؟

ـ لا أدرى.

وسألته الفتاة:

ـ ألك زوجة؟

ـ لا أدرى!

فتفكر الرجل مليا ثم سأله:

ـ وماذا تنوى أن تفعل؟

ـ لا فكرة لى بعد.

فتفكر الرجل مرة أخرى ثم قال:

ـ لا شك فى أنك ستجدُّ فى البحث عن أصلك وفصلك..

ـ هذا هو المعقول.

ـ كأن تنشر صورتك فى الجرائد؟

ـ تفكير صائب.

ـ وهو ما سيفعله المهتمون بأمرك...

ـ أعتقد ذلك.

ـ هى مشكلة نادرة حقا، ولكنها سرعان ما تحل بنهاية سعيدة.

ـ أرجو ذلك.

وسألته الفتاة برقة:

ـ ترى بم تشعر؟

ـ بأننى لا شىء ينحدر من لا شىء، ماض إلى لا شىء.

وتبادلوا النظرات مرة أخرى، ثم قال الشاب:

ـ سأذهب أول ما أذهب إلى الطبيب.

ـ عين الصواب.

ـ ولكن يلزمنى مأوى مع إعفائى من الإجراءات المتبعة.

فقال الأب:

ـ إنها مغامرة قد تدفع بى إلى س و ج.

ـ وقد تمر بسلام .

ـ الله المستعان .

ـ سأذكر لك صنيعتك ما حييت .

وأرسله إلى حجرة مع الفراش ووقف مع ابنته يتابعانه فى سيره فى ذهول صامت . وتبادلا نظرة طويلة ، ثم قال الأب :

ـ عجيبة تلك الحال لدرجة تعز على التصديق .

فتمتمت الفتاة :

ـ ولكنه صادق فى مرضه .

ـ وهذا هو العجب .

ـ أجل . .

ـ ترى هل أخطأت فى قرارى؟

فقالت بهدوء :

ـ إنك لا تخطئ أبدا . .

* * *

٢

كانت شرفة الفيلا ـ فوق الجبل ـ تسبح فى ظلام دامس . وكان يوجد بها رجلان . بدا الرجلان شبحين جلس أحدهما فوق كرسى هزاز ومثل الآخر بين يديه . وسأل الجالس :

ـ ماذا وراءك؟

فقال الآخر :

ـ ساقته قدماه إلى الفندق !

ـ لا أعجب لذلك .

ـ وهو على حال من العدم .

ـ لا جديد فى ذلك .

ـ بل حال جديد تماما .

ـ حقا؟

ـ بالدقة نطقت .

ـ كن يقظا وسجل كل شىء .

ـ سمعا وطاعة .

* * *

٣

تفرق النزلاء بعد العشاء فلم يبق فى الإدارة سوى الأب والفتاة والشاب . وكان القلق بارزا فى قسمات الشاب ، فقال له الأَب بنبرة رثاء :

ـ لم تستقر بعد؟

فقال الشاب :

ـ نشرت صورتى فى الصحف ولم يسع ورائى أحد!

ـ ثمة شىء طيب هو أن الشرطة لم تسع وراءك كذلك!

ـ وأكاد أجزم بأننى لن أصبر على أسلوب العلاج .

ـ طويل ومعقد؟

ـ وكثير التكاليف .

وبعد صمت قصير عاد يقول :

ـ وبت أشعر بأننى حمل ثقيل عليك .

ـ كلا .

ـ حقا؟

ـ أصبحنا فيما أعتقد أصدقاء .

ـ الحق أنكم كل شىء لى فى هذه الدنيا .

ـ ولم أعد أخشى مسئولية من إيوائك .

وقالت الفتاة .

ـ وستعرف نفسك عاجلا أو آجلا .

فقال بشىء من الحياء :

ـ يخيل إلى أننى لن أكتشف شيئا ذا قيمة .

ـ إنك رشيد ولا حاجة بك إلى أحد .

ـ ولكن هل أمضى وقتى كله فى الانتظار؟

فقال الأب :

ـ يحسن بك أن تفكر فى الحاضر والمستقبل .

ـ قبل أن تنفد النقود؟

ـ أجل . .

ـ فعلى إذن أن أجد لنفسى عملا .

ـ ماذا تحسن من الأعمال؟

ـ أجرب .

فتفكر الأب مليا وقال :

ـ عندى فكرة .

فنظر الشاب إليه مستطلعا فقال :

ـ الفندق يحتاج إلى تجديدات . .

ـ ماذا تعنى يا سيدى؟

ـ أقترح أن تشترك فيه بمالك وأن تعاون فى أعمال الحسابات .

ـ فكرة طيبة .

ـ لنبدأ إذن .

ـ ولكنى أخشى أن نكتشف أن المال هو مال للغير .

ـ مضى وقت منذ إعلانك عن نفسك وهو يكفى لإبراء ذمتك .

فالتفت الشاب نحو الفتاة وسألها :

ـ ما رأيك؟

ـ أو افق أبى على رأيه .

ـ عظيم .

فقال الأب :

ـ اتفقنا . .

ـ آن لى أن أصارحك برغبة تضطرم فى نفسى .

ـ إنى مصغ إليك .

فقال بعد صمت قليل :

ـ أود أن أطلب منك يد كريمتك .

ـ لا تتعجل الأمور .

ـ انتظرت من الشهور ما فيه الكفاية .

ـ ربما كنت متزوجا .

ـ لم يسع إلى أحد .

ـ لقد تبادلنا الرأى على أوسع نطاق وأنا مضطر الآن إلى الذهاب إلى مشوار عاجل .

قال الرجل ذلك وذهب . وقف الشاب والفتاة يتبادلان النظر . سألها :

ـ أأنت مترددة مثل أبيك؟

فقالت بهدوء عذب :

ـ أنت تعرف رأيى تماما .

ـ أترغبين أن أنتظر حتى يتكشف لى الماضى؟

ـ لا يهمنى أن تهتدى إلى ماضيك أو أن يهتدى ماضيك إليك . .

ـ أنا سعيد ولكن القلق يطاردنى .

ـ وتحبنى أليس كذلك؟

ـ لا يربطنى بهذا المكان إلا حبك .

ـ حسبنا ذلك .

ـ سأعمل وأتزوج ولكن والدك متردد . .

ـ كلا ، إنى أعرف والدى تماما .

ـ يخيل إلى أنى نلت ثقته . .

ـ أنت أهل للثقة .

ـ لندع الله أن يهيىء لنا السعادة .

ـ لندعه من صميم قلوبنا .

* * *

٤

وفى شرفة الفيلا ـ فوق الجبل ـ جرى الحديث فى ظلام دامس . سأله الشبح الجالس فوق الكرسى الهزاز :

ـ ما وراءك؟

فأجاب الشبح الماثل بين يديه:

ـ آواه صاحب الفندق.

ـ رجل طيب وداهية ماكر.

ـ وعمل كل ما يمكن عمله للاهتداء إلى هويته.

ـ ولم لم ينظر الفتى فى نفسه مباشرة؟

ـ إنهم يفضلون الوسائل غير المباشرة.

ـ وثار فضول الناس؟

ـ لم يعد يثير فضولهم شىء.

ـ حسن.

ـ وظل مجهولا كاللغز.

ـ تعنى فى نظر نفسه؟

ـ طبعا..

ـ وكيف مضت القصة؟

ـ ظهر الحب.

ـ من جديد؟

ـ أجل، وفى الوقت نفسه تطلع الأب إلى نقوده!

ـ يعز على اللص أن يُسْرَق!

ـ إنه من رجال الأعمال يا سيدى.

ـ وهل يوجد فرق هناك بين اللص ورجل الأعمال؟

ـ إنهم هناك يفرقون بينهما.

ـ وبعد؟

ـ اشترك الفتى بماله فى الفندق وتزوج من الفتاة..

ـ طريفة جدا هذه اللعبة.

ـ الحب، والعمل يبتسمان!

ـ والحب عند المجهول من ذاته؟

ـ لا يكاد يخطر له على بال إلا إذا انفرد بنفسه...

ـ وهل ينفرد بنفسه كثيرا؟

ـ زوجته لا تحب ذلك .

ـ ماكرة مثل أبيها .

ـ الحق أنها تحبه وتحب الفندق .

ـ الأمور تتعقد والأمل يتضاءل .

ـ ولكنه موجود .

ـ كن يقظا وسجل كل شيء .

ـ سمعا وطاعة .

* * *

٥

اجتمعت الأسرة حول مائدة فى الحديقة الصغيرة، الأب والزوج والزوجة . تلقت وجوههم ظلال المغيب وقد غيرها على تفاوت تقدم الزمن . وكان الأب يقول :

ـ لن أشهد الصيف القادم، هذا ما أشعر به .

فقالت الزوجة :

ـ ربنا يطول عمرك يا أبى .

وقال الزوج :

ـ ستتحسن صحتك .

فقال العجوز :

ـ السعيد من يذهب فى هذا الزمن .

فقالت الزوجة :

ـ ليست الأحوال بذاك القدر من السوء .

فتساءل الزوج :

ـ أيمكن أن يوجد ما هو أسوأ؟

فقالت الزوجة محتجة :

ـ يوجد دائما ما هو أسوأ .

فقال الزوج متهكما :

ـ ما أجمل حكمتك!

وقال الأب:

ـ كانت الحياة على أيامنا أبسط وأهنأ.

فقال الزوج:

ـ ثمة شكوى دائما من الحاضر وحسرة على الماضى، ولكن الماضى كان حاضرا يوما ما..

فقالت الزوجة:

ـ لا نكاد ننعم بلقاء، نحن نركض كأن سياطا تلهب ظهورنا...

فقال الزوج:

ـ الويل لمن يستسلم لساعة من الراحة.

ـ إنى أعمل معك بقوة عشرة رجال.

ـ وأنا أعمل بقوة عشرات من الخيل.

فقال الأب:

ـ كان العمل أمتع والثمرة أشهى!

فقال الزوج:

ـ نحن نحمل فوق أكتافنا سبعة من الأبناء..

ـ حملنا أكثر وسعدنا بهم..

ـ ألا تدرى ماذا يعنى ابن واحد فى هذه الأيام؟

فقالت الزوجة:

ـ هكذا حال الناس جميعا..

ـ كلنا فى الهم شخص واحد.

فقال الأب:

ـ كم حسدنا الناس من أجل هذا الفندق.

فقال الزوج:

ـ اليوم هم ينظرون لنا برثاء.

وقالت الزوجة وهى تتنهد:

ـ امتلأ طريق الخلاء بالفنادق..

ـ وكلها قامت على طراز حديث.

فسأله الأب :

ـ أليس لديك احتياطى كاف لتجديد الفندق؟

ـ لم يعد التجديد بالحل الناجع!

ـ فما الحل إذن؟!

ـ أن يهدم ويبنى من جديد!

ـ ومن أين لك المال اللازم لذلك؟

ـ لا خيار لنا وإلا تحول الفندق على أيدينا إلى وكالة .

ـ فيم تفكر؟

ـ فى الاقتراض إن أمكن .

فقالت الزوجة :

ـ لا تكن متشائما .

ـ لا وقت عندى للتشاؤم .

ـ إنك تنسى أشياء مهمة .

ـ حقا؟

فقال الأب :

ـ ينقصكم شىء مهم كان متوافرا لدينا .

ـ ما هو يا سيدى؟

ـ الإِيمان .

ـ حتى هذا لا ينقصنا .

ـ لا وقت لديك للإِيمان ، أتدرى ماذا فعل الإِيمان لنا؟

ـ ماذا فعل؟

ـ عثر جدى الفقير ذات يوم فى صحن داره على كنز مدفون!

ـ كنز مدفون؟!

ـ كان يدعو الله أن يرزقه فرزقه ، وشيد بمال الكنز أول فندق فى هذه البقعة . .

ـ كان عليه أن يبحث عن صاحبه فيسلمه له!

ـ كان الكنز هدية من الله إليه .

ـ القانون اليوم يرى قبول مثل هذه الهدية نوعا من النهب!

ـ اللغنة! إنكم تمارسون النهب بألف وسيلة . . .

ـ معذرة يا سيدى، أتريدنى على أن أسأل الله الرزق حتى أعثر على كنز مدفون؟

ـ ولن تعثر عليه مهما فعلت.

ـ حقا!

ـ لأن الإيمان لا يفتعل.

فنظر الزوج إلى زوجته وسألها :

ـ هذا ما تعقدين به الأمل؟

فأجابت ببرود :

ـ ذاك مجد لم نعد له أهلا .

ـ حسن .

– ولكنا نملك ثروة أخرى .

– حقا ؟

– أبناءنا

ـ إنهم الهم الذى قصم ظهرى .

ـ ولكنهم غدا سيسعون إلى أصحاب الفنادق الجديدة بأسباب للنسب والعمل .

ـ ياله من خيال! . .

ـ سيتجسد حقيقة صلبة .

ـ ياله من خيال طموح .

ـ بل علينا أن نيسر لهم سبيل العلم فى أعلى درجاته .

ـ أخشى أن نموت فى أثناء ذلك جوعا .

ـ إنه سباق مرير ولكن الفوز فيه للصابرين .

فقال الأب :

ـ ينقصكما الإيمان .

فقال الزوج :

ـ لا مجال اليوم للحلم بالكنوز المدفونة .

ـ لن أشهد الصيف القادم، هذا ما أشعر به .

وقام بصعوبة، ثم مضى إلى الداخل وهو يقول :

ـ السعيد حقا من يرحل عن هذه الدنيا .

وما لبثت الزوجة أن ذهبت أيضا ولكنها رجعت بعد دقائق بزجاجة بيرة مثلجة وقدحين . ملأتهما والظلام يتجسد متمتمة :

ـ أنعش فؤادك .

ولكنه قال :

ـ لن يكفينى الاحتياطى كله لبناء دور واحد جديد .

ـ أنعش فؤادك ، ألا تسمعنى؟

ـ وماذا يغنى دور جديد واحد فى فندق قديم؟

ـ أنعش فؤادك ، ألا تسمعنى؟

ـ والأساس القديم لن يحتمل مزيدا من الأدوار .

ـ ألا تريد أن تنعش فؤادك؟

ـ أرى الفنادق الجديدة فتقتلنى الحسرة .

ـ يلزمك قدر من الاسترخاء ، فأنعش فؤادك .

ـ كيف تقدَّمهم الحظ وتخلف عنا؟

ـ لا تريد أن تصغى إلى .

ـ إما فندق جديد وإما الجوع .

ـ لدينا الإرادة ولدينا الأبناء .

ـ أنت تحلمين مثل أبيك !

ـ لدينا كنوز غير مدفونة . .

وأرادت أن تداعب يده ولكنه نهض قائما وهو يقول :

ـ آن لى أن أذهب لمقابلة الرجل .

وذهب .

٦

لبثت الزوجة وحيدة حتى رأت رجلا قادما من باب الحديقة . انحنى لها بأدب قائلا :

ـ مساء الخير يا سيدتى .

ـ مساء الخير .

ـ اسمحى لى بأن أقدم لك نفسى : أنا صاحب الفندق الكبير .
ـ أهلا وسهلا ، تفضل بالجلوس . .
جلس الرجل وهو يرمق بعينيه القدحين المترعين ، ثم تساءل :
ـ هل ينضم إلينا أحد؟
ـ كلا ، كان زوجى هنا ثم ذهب . .
ـ ذهب لمقابلة صاحب فندق النور .
ـ كيف علمت بذلك؟
ـ نحن نعرف ما يهمنا يا سيدتى .
ـ همة مشكورة !
ـ لعله نسى أن يشرب قدحه؟
ـ ما أهمية ذلك؟ !
ـ رجال الأعمال ينسون كثيرا من الشئون السارة !
ـ أنت أدرى بذلك . .
ـ ولكن الناجحين منهم لا يهملون شيئا!
فقالت بشىء من الانفعال :
ـ نحن أيضا من الناجحين . .
ـ يسرنى أن أسمع ذلك .
ـ ولكن لم شرفتنا بزيارتك ما دمت تعلم أن زوجى غائب؟
ـ لأقابلك أنت يا سيدتى .
ـ ولم يا سيدى .
ـ الحق أنى أؤمن بتفوق حكمة النساء .
ـ إن كنت تقصد المقارنة بينى وبين زوجى فإنى أرفض ثناءك . .
ـ لم أحضر لأثير خلافا . .
ثم نظر إلى قدح البيرة وتساءل :
ـ أتسمحين لى بأن أحل محل زوجك؟
ـ لا يروقنى تعبيرك !
ـ معذرة ، جميع رجال الحى يعجبون بك .
ـ أجئت يا سيدى لتعرب لى عن إعجابك؟

ـ جئت يا سيدتى لأشترى الفندق .

ـ فندقنا؟

ـ إنه الفندق القديم الوحيد فى المكان كله .

ـ يا له من اقتراح لم أتوقعه أبدا!

ـ زوجك يسعى إلى عقد قرض ، ولن يوفق فى مسعاه .

ـ لمه؟

ـ لأن أحدا لا يريد أن يخلق منه منافسا له خطره .

ـ لا أحب أن أناقش هذا الموضوع فى غيابه .

ـ البيع أفضل ، إنى أخاطب حكمتك .

ـ لا أرى رأيك .

ـ إنه فندق قديم غير قابل للسكنى ، ولا فائدة ترجى من تجديده ، أما ثمنه فيصلح للاستثمار .

ـ إنه حياتنا ومستقبلنا .

ـ يمكن التفاهم على إيجاد عمل لك ولزوجك فى الفندق الجديد .

ـ لا تتكلم كما لو كان الاتفاق قد تم .

ـ إنى أخاطب رأس الحكمة .

ـ الفندق الجديد سيقام بأيدينا وأموالنا .

ـ لا مال لكم ، وأبناؤكم ما زالوا يتلقون العلم .

ـ دعنا وشأننا يا سيدى .

ـ توجد مصالح مشتركة .

ـ لا أظن .

ـ كأننى أخاطب زوجك العنيد .

ـ نحن شخص واحد يا سيدى .

ـ يحسن بى أن أعترف لك بما فى نفسى .

ـ ترى ماذا فى نفسك؟

ـ لا أهمية فى الواقع للفندق .

ـ ولكنه على رغم قدمه ذو موقع ممتاز .

ـ يهمنى أكثر أن أنشئ علاقة مودة إنسانية .

ـ حقا؟!

ـ صدقينى، المال لا ينقصنى..

ـ حقا؟!

ـ ما أنا فى حاجة إليه حقا هو الحب!

ـ انتظر رجوع زوجى لتطارحه الغرام.

ـ ولكنى أؤمن بالمرأة..

ـ لا أشاركك رأيك يا سيدى.

ـ على أى حال قد فهم كلانا صاحبه، ولدينا من الوقت ما يكفى للتفكير واتخاذ القرارات.

وقف الرجل باسما. شرب قدح البيرة حتى الثمالة وأحنى رأسه ثم ذهب.

* * *

٧

جرى الحديث فى الظلام الذى يلف شرفة الفيللا فوق الجبل. سأل الشبح الجالس فوق الكرسى الهزاز:

ـ ماذا وراءك؟

فأجاب الشبح الماثل بين يديه.

ـ تعقدت الأمور.

ـ ماذا يفعل صاحبنا؟

ـ يعمل بجنون، يحارب فى ألف ميدان.

ـ وامرأته؟

ـ تشاركه فى كل خطوة.

ـ والآخرون؟

ـ يعملون للاستيلاء على فندقه وامرأته.

ـ أتعلم هى بنواياهم؟

ـ بكل وضوح، وبكل قوة ترفضها.

ـ وهل يعلم الزوج؟

ـ بذكائه علم، وبصراحة زوجته.

ـ ولم أخبرته؟

ـ لتؤكد له طهرها ولتحيى حبها فى قلبه.

ـ ألم يعد يحبها؟

ـ لا وقت عنده للحب.

ـ ألم يعد للتفكير فى ماضيه المجهول؟

ـ لا وقت عنده لذلك، غير أنه قال لزوجته مرة إنه ربما لو عادت إليه ذاكرته لوجد نفسه ابنا لمليونير! ولكنها سخرت منه قائلة إنه يحلم بالكنز مثل أبيها!

ـ متى ـ فى تقديرك ـ يرجع للتفكير فى أصله؟

ـ أى أصل تقصد يا سيدى؟

ـ يالك من أحمق!

ـ حسن يا سيدى، إن ذلك يتوقف على نجاحه فى مهمته.

ـ لا نهاية لشىء هناك.

فأمسك الرجل عن التفوه بكلمة حتى قال الجالس:

ـ كن يقظا وسجل كل شىء.

ـ سمعا وطاعة يا سيدى..

* * *

٨

فى الحديقة الصغيرة جلس الزوجان وقد تقدم بهما العمر على حين وقف أمامهما شاب مفعم حياة وقلقا. وكان الشاب يقول:

ـ انزعجت جدا لدى قراءة رسالتك..

فقالت الزوجة:

ـ قدرت ذلك يا بنى..

ـ أخذت أول طائرة..

فقال الزوج :

ـ كان على أن أستطلع رأيك . .

وقالت الزوجة :

ـ على رغم علمنا بأنك عاكف على تحضير رسالتك .

فسأل الشاب :

ـ هل الأمر سيئ لهذا الحد يا أبى؟

ـ هو ذلك يا بنى . . .

وقالت الزوجة بنبرة باكية :

ـ كان الجوع ضمن الأسباب التى أدت بأختك إلى الوفاة . .

ـ ولكن الفندق لا يخلو من زبائن .

فقال الزوج :

ـ اضطررنا إلى تخفيض إيجار الحجرة ، لا يفى الربح بالضرورات ، الأمور من سيئ إلى أسوأ . .

ـ والاحتياطى يا أبى ؟

ـ استهلك فى سد نفقات المعيشة .

وتبادل الزوجان نظرة سريعة ، غير أن الزوج خاطب ابنه قائلا :

ـ فى غمار ذلك النزاع الأليم فقدنا أخويك العزيزين . .

فهتف الشاب :

ـ شد ما حزنت عليهما . .

ـ الكلاب يضيقون علينا الخناق مستعملين أخس الوسائل وأقساها . .

وقالت الزوجة بنبرتها الباكية :

ـ ذات يوم عثرنا على جثة أخيك عند سفح الجبل . .

ـ وماذا كشف التحقيق يا أماه؟

ـ قيدت القضية ضد مجهول . .

وقال الزوج :

ـ وقد مات جدك حزنا .

وقالت الزوجة :

ـ وقتل أخوك الآخر وهو يحاول الانتقام لأخيه .

ـ الويل للقتلة !

فقال الزوج :

ـ هكذا نحن محاصرون بالجوع والموت .

وقالت الزوجة :

ـ لذلك فكر أبوك فى بيع الفندق والهجرة إلى مكان آخر .

فهتف الشاب :

ـ لن يحدث ذلك أبدا .

ـ والحل يابنى ؟

ـ لا أصدق أنكما قررتما ذلك ، لعلكما تطرحان الفكرة للمناقشة ؟

ـ حتى لو صح ذلك لما تغيرت النتيجة .

ـ يلزمنا المزيد من الصبر .

ـ العمر يتقدم بنا كما ترى .

وقال الزوج :

ـ وعليك أن تعرف كل شىء ، فقد ورطنا النزاع فى أعمال عنف لم تجر لنا على بال .

ـ أعمال عنف ؟ !

ـ أجل يا بنى . لم نعد أبرياء فى نظر القانون ، لا أنا ولا أمك !

وقالت الزوجة :

ـ قد ينكشف أمرنا فى أى لحظة .

ـ يا للعنة . .

ـ هذه هى حياتنا بكل مرارتها . .

وقال الزوج :

ـ وسيدفعنا الإصرار على البقاء إلى مزيد من الجرائم .

وتساءلت الزوجة :

ـ فما رأيك الآن يا بنى ؟

نفخ الشاب ، تريث قليلا ، ثم قال :

ـ علىَّ أن أكاشفكما بأخطر نبإ فى حياتى .

ـ ما هو يا بنى ؟

ـ إذا صبرنا بضع سنوات فسوف يمكننى إعادة بناء الفندق بلا تكاليف تذكر .

ـ أنت؟ !

ـ أجل، وذلك هو موضوع رسالتى .

ـ لعله أمل، مجرد أمل؟ !

ـ بل أكثر من ذلك فقد كشفت عن حقائق مؤكدة .

ـ وإذا أخطأ تقديرك؟

ـ علينا أن نقبل المغامرة بأى ثمن .

فنظرت الزوجة إلى زوجها وقالت :

ـ هذا عامل جديد لم يجر فى تقديرنا .

فقال الزوج :

ـ ولكنه كالحلم .

فقال الشاب :

ـ بل إنه أنجع فى إعادة بناء الفندق من أعمال العنف نفسها .

ـ سنضطر إلى ارتكاب المزيد منها ونحن ننتظرك .

ـ إذن فعلينا بالصبر وارتكاب المزيد من العنف .

ـ إنك تذكرنا بحماس أخويك .

ـ ولكنى آمل فى نهاية أخرى .

فقالت الأم :

ـ هذا عامل جديد لم يجر فى تقديرنا .

فقال الأب :

ـ أرى أنك تميلين إلى رأيه .

ـ لا أنكر ذلك .

فقال الشاب بحماس :

ـ يجب أن أعود غدا بالطيارة .

فقالت الأم :

ـ سافر بالسلامة . .

ـ سأسافر غدا .

ـ لتصحبك السلامة وليكتب لك التوفيق .

* * *

٩

بقى الزوجان جنبا إلى جنب وساد الصمت. وجعلت المرأة تختلس النظر إلى الرجل حتى خرقت الصمت قائلة:

- علينا أن نصبر كما وعدناه.

فهز رأسه بالإيجاب دون أن ينبس، فعادت المرأة تقول:

- علينا أن نصبر كما وعدناه.
- أنت متحمسة لرسالته التى لا تعرفين عنها شيئا.
- ولكنى أعرفه وأومن به.
- حسن.
- ولكنك مترددة فيما يبدو لى.
- خانتك الفراسة.
- لا أحد يعرفك كما أعرفك.
- هكذا كل زوجين أمينين.
- لا تسخر يا رجل.
- ولكنى جاد جدا.
- أنت متردد.
- لا عيب فى ذلك إذا أخذ بمعنى التفكير.
- وتضمر غير ما تظهر.
- ماذا تعنين يا امرأة!
- قلت إن الاحتياطى استهلك فى سد نفقات المعيشة؟
- قلت ذلك حقا.
- ولكنه لم ينفد بعد!
- لم يبق منه ما ينفع لشىء.
- قد ينفع من يفكر فى الفرار!
- ماذا تعنين؟

ـ أنت تدرك ما أعنى .

ـ إنى أفكر فى شىء واحد هو سلامة الأسرة .

ـ سلامة الأسرة جزء لا يتجزأ من سلامة الفندق .

ـ تحت هذا الشعار ضحيت بما ضحيت .

ـ وعليك أن تستوصى بالمزيد من الصبر .

ـ المزيد من الصبر؟ !

ـ ولكنك تضمر أمرا آخر !

ـ أى أمر يا امرأة؟

ـ لعله الهرب .

ـ الهرب؟ !

ـ إنى أستنتج مستقبلك من مقدمات ماضيك .

فسأل وهو يضحك :

ـ هل سبق لى الهرب؟

ـ نعم .

ـ جميل أن نضحك فى غمرة هذا الغبار الدامى .

ـ من أين لى بالضحك؟ !

ـ إذن فخير ما نفعله أن نغير الموضوع .

فرمته بنظرة قاسية وقالت :

ـ يبدو أنه آن لى أن أصارحك .

ـ بماذا؟

ـ دفاعا عن أسرتك ، دفاعا عن نفسك ، سأصارحك بما كتمته طيلة السنين .

ـ ألديك سر لم أعرفه؟

ـ نعم .

ـ وما هو يا ترى؟

فقالت بهدوء رهيب :

ـ ماضيك المجهول .

فاشتعل اهتماما مباغتا وتساءل :

ـ ماضىَّ المجهول؟

ـ الذى نسيته، أو الذى تصر على أن تنساه .

ـ ماذا تعنين؟

ـ أنت تجهل ماضيك كما تجهل شخصك الحقيقى .

ـ ذاك تاريخ مشهور .

ـ ولكنى أعرفه .

ـ أنت؟!

ـ كما كان أبى يعرفه!

ـ أأنت جادة؟

ـ كل الجد .

ـ منذ متى؟

ـ منذ وجدناك فى هذه الحديقة .

ـ ياله من عبث!

ـ بل هو الجد كل الجد .

ـ أتتوقعين أن أصدقك؟

ـ أقسم لك بروحَىْ ابنىّ .

فهتف فيما يشبه الفزع :

ـ رباه!

ـ أجل .

ـ انتشلينى من هذه الغيبوبة .

ـ سأفعل حتى لا تقع فى الخطإ مرة أخرى .

ـ من أنا؟!

ـ أنت زوجى .

ـ إنى أسألك من كنت؟

ـ كنت زوجى أيضا قبل أن تفقد ذاكرتك!

نظر إليها بذهول فقالت :

ـ كنت قبل ذلك ربيب أبى، وجدك غلاما ضالاّ .

ظل ينظر إليها بذهول، فقالت :

ـ ولم تكن لك فكرة عن والديك فرباك وشغلك فى الفندق ثم تزوجنا .

مالبث ينظر إليها ذاهلا ، فقالت :

ـ وذات يوم سرقت الخزانة وهربت مع راقصة .

ـ ماذا تقولين؟ !

ـ تذكر ، تذكر ، سرقت الخزانة وهربت مع راقصة .

ـ رأسى يدور .

ـ وكنت كما تكون اليوم مزيجا من التمرد والتمرد على التمرد فعذبتها (الراقصة) بالقدر الذى أردت أن تعذب به نفسك .

ـ رباه . . أى عالم هذا؟ !

ـ فاضطرت هى إلى الهرب وسرعان ما فقدت ذاكرتك .

ـ آه . .

ـ وراقبك أبى من بعيد ولم يبلغ الشرطة عنك حتى رأيناك يوما قادما .

ـ آه .

ـ ساقتك قدماك أو ضميرك إلى ضحاياك .

ـ أى حلم مفزع !

ـ ما حدث بعد ذلك فأنت تذكره .

ـ أجل ، ولعبتم معى تمثيلية متقنة !

ـ آثرنا أن ننسى الماضى معك ، حتى ذكرنى ترددك بحالك قديما قبيل الهرب .

أغمض عينيه إعياء فقالت بحزم :

ـ علينا أن نصبر كما وعدناه .

* * *

١٠

فى شرفة الفيللا ـ فوق الجبل ـ وفى ظلام دامس جلس الشبح فوق الكرسى الهزاز ومثل الآخر بين يديه . وسأل الشبح الجالس :

ـ ماذا وراءك؟

ـ الأسرة تكافح فى صبر وعناء وعناد لا يعرف الهوادة .

ـ وما الجديد من أنباء الصراع؟

ـ العنف يتراكم كالجبال.

ـ وكيف حال صاحبنا؟

ـ عرف ـ فيما يعتقد ـ ذاته وتعلم من ذلك درسا لا ينسى.

ـ وذاته الأولى ألا يفكر فيها؟

ـ لا وقت لديه لذلك.

ـ أليس ثمة أمل فى يقظة غير متوقعة؟

ـ لا أستبعد حدوث معجزة إذا تحققت آماله فى البناء.

فتفكر الشبح الجالس مليا ثم قال:

ـ دعه وشأنه.

فقال الشبح الماثل بين يديه:

ـ سمعا وطاعة يا سيدى.

عنبر لُولُو

قام الكشك فى الوسط من طرف الحديقة الجنوبى. . كشك مصنوع من جذور الأشجار على هيئة هرم تكتنفه أغصان الياسمين. وقف فى وسطه كهل أبيض الشعر نحيل القامة ما زال يجرى فى صفحة وجهه بقية من حيوية. جعل ينظر فى ساعة يده ويمد بصره إلى الحديقة المترامية مستقبلا شعاعا ذهبيا من الشمس المائلة فوق النيل نفذ إلى باطن الكوخ من ثغرة انحسرت عنها أوراق الياسمين. ولاحت الفتاة وهى تتجه نحو الكشك سائرة على فسيفساء الممشى الرئيسى. أحنت هامتها قليلا وهى تمرق من مدخل الكشك القصير، ومضت نحو الكهل بوجهها الأسمر وعينيها الخضراوين. تصافحا. ثم قالت بصوت ناعم وبنبرة اعتذار:

ـ إنى خجلة!

فقال الكهل برقة:

ـ يسرنى أن ألقاك.

ـ لا يحق لى أن أنهب وقتك. .

ـ لا يعد ضائعا وقت نمنحه لعلاقة إنسانية.

ـ شكرا لطيبة قلبك .

أشار إلى الأريكة داعيا إياها للجلوس ، فجلست ثم جلس وقالت :

ـ لم تسعفنى الجرأة على طلب مقابلتك إلا لأنى فى مسيس الحاجة إلى رأى حكيم .

ـ كل إنسان عرضة لذلك ، غير أن من يراك فى الإدارة لا يتصور أنك تحملين هما !

ـ دعك من المظاهر !

فهز رأسه موافقا فواصلت :

ـ وتساءلت طويلا إلى من يحسن بى أن ألجأ ، حتى هدانى التفكير إليك .

ـ أستغفر الله .

وتريثت لحظات ثم قالت :

ـ إنك لا تعرفنى إلا كزميلة فى إدارة السكرتارية .

ـ نعم .

ـ فعلىَّ أن أقدم نفسى الحقيقية . . .

ـ أهلا بها .

ـ هى نفس مقضى عليها بالسجن المؤبد فى شقاء دائم . .

ـ أرجو أن تتكشف بعد تبادل الرأى عن مغالاة عاطفية . .

ـ بل هى حقيقة واقعية . .

تجلى الاهتمام فى عينيه وهو يقول :

ـ إنى مصغ إليك . .

فقالت وهى تتنهد :

ـ حسبى أن أعرض عليك الفصل الأخير من المأساة . . .

فتجلى الاهتمام بصورة أوضح .

ـ إنى يتيمة الأبوين ، لى إخوة ثلاثة صغار ، نقيم فى بيت زوج المرحومة أمنا . . .

ـ وضع معقد . . .

ـ وأبعد ما يكون عن الراحة . .

ـ لا يمكن إنكار ذلك .

ـ وهو رجل عنيد متعجرف .

ـ زوج المرحومة؟

- من دون غيره . .
- أهو عجوز مثلى؟
- بل أكبر ، وهو لا يحبنا!
- هل أنجب لكم إخوة؟
- كلا ، إنه عقيم!
- ذلك مدعاة لحب الأطفال .
- ولكنه شاذ، وقد أفهمنى عقب وفاة والدتى بأننى المسئولة وحدى عن إخوتى . .
وساد الصمت مليا حتى استطردت قائلة :
- لعله بقراره لم يجاوز العقل!
- نعم، ولكنه جاوز الرحمة . .
- على أى حال أنا لا أطمع فى رحمته!
- مفهوم .
- وهو يمن علينا بالمأوى وببعض المساعدات وإن يكن يحتسبها ديونا مؤجلة . .
هز الكهل رأسه دون أن ينبس فقالت متنهدة :
- لعلك تخيلت الصورة التى أعيش فى إطارها، والحق أنى لا أملك النقود اللازمة لملابس فتاة موظفة . .
- وشابة فى عز شبابها!
- هكذا تمضى الأيام فى قسوة ومرارة، تحت رعاية عنيفة لا تعرف الرحمة، بلا أمل، أى أمل فى غد أفضل!
فقال الكهل كالمحتج :
- لا يجوز أن ننظر إلى الحياة بهذه العين .
- ولو كانت بالحال التى ذكرت؟
- ولو كانت!
ثم تساءل وكأنه يناجى نفسه :
- منذا يقطع بما يخبئه الغد؟!
فرفعت منكبيها زهدا فى مناقشة فكرته وقالت وهى تتنهد :
- وإذا بى أشعر بزحف الزمن، من خلال حياة التقشف والمرارة أخذ الزمن يطاردنى . .

ـ ولكنك مازلت فى مطلع الشباب.
ـ إنى فى الرابعة والعشرين من عمرى..
ـ عز الشباب!
ـ ولكنه فى مثل حالتى يعد مرحلة من الشيخوخة..
ـ لا داعى للمبالغة، إن وضعك ليس الوحيد من نوعه فى بلادنا، ما أكثر أشباهه وإن اختلفت الظروف والأسباب!
فرمته بنظرة غامضة وقالت:
ـ ولكنى لم أحدثك بعد عن المشكلة الحقيقية!
ـ الحقيقية؟!
ـ التى تتحدانى فى اليقظة والمنام!
ـ غير ما سبق ذكره؟
ـ ما حدثتك عنه حال يمكن اعتيادها كما يعتاد المريض مرضه المزمن..
فرفع الكهل حاجبيه متسائلا فقالت:
ـ أصبحت أشعر بشبابى لا كفترة من العمر تتسرب فى ضياع. ولكن كقوة دافعة، قوة قاهرة. كهبة مقدسة، وحق إلهى!..
نظر الكهل فى بريق عينيها الخضراوين كالمأخوذ، فقالت بنشوة وحماس:
ـ كم تنازعنى نفسى إلى أشياء وأشياء، إلى كل شىء، إلى الوجود كله!
ثم وهى تخفض عينيها وبنبرة معتصرة بالحسرة والحزن:
ـ أود أن أرقص وأغنى وأمرح!
اختبأ الكهل فى صمته وهو يطبق شفتيه متفكرا. ولما طال انتظارها قالت:
ـ لعلى دهمتك بصراحتى!
فأصر على الاختباء فقالت:
ـ لم تتوقع ذلك، أصبحت الأكاذيب وجبات يومية متكررة. ولكن ما جدوى هذا اللقاء إذا لم أكاشفك بدخيلة نفسى؟!
فتمتم الرجل بحذر:
ـ صراحتك مشكورة!
ـ وكان على أن أعلن ما فى نفسى أو أجن، ولكن كان علىَّ أيضا أن أختار الرجل المناسب، وكنت تخطر على بالى دائما، رجل وقور ومحبوب وذو سمعة طيبة، له تاريخ مجيد قضى عليه بأن يكون ضحية فتعلقت به قلوب الضحايا!

ـ أشكر لك إنسانيتك ولطفك.

ـ لا أنكر أن لى صديقتين حميمتين فى المصلحة ولكنى لم أفد من رأيهما ما يذكر!

ـ هل كاشفتهما بما كاشفتنى به؟

ـ كلا ولكنى سألتهما الرأى فى مناسبات جادة وخطيرة!

ـ بم نصحتاك؟

ـ بدت لى إحداهما أبعد ما تكون عن الرحمة!

ـ زيدينى إيضاحا.

ـ ليس الآن موضعه.

ـ والأخرى؟

ـ إنها غاية فى الغرابة، قالت لى إن مشكلتى عامة وإن بدت خاصة وإنها لا تحل بالحلول الفردية، وإن علينا أن نغير تفكيرنا من جذوره لنحقق تغييرا عاما وشاملا..

فابتسم قائلا:

ـ ليس رأيها بالجديد على مسمعى، ولكن كيف كانت استجابتك لها؟

ـ لم يستمر ما بينى وبينها طويلا بعد ذلك، فقد ألقى القبض عليها فجأة..

ـ عرفت المعنية بحديثك، أليست هى زميلتنا السابقة بالحسابات؟

ـ بلى، وهكذا لم أجد أحدا سواك..

فقال بلهجة أبوية:

ـ إنك تنظرين إلى الأمور بمنظار أسود، ونسيت أنك قد ترزقين بابن الحلال غدا أو بعد غد!

ـ أبناء الحلال متوافرون..

ـ ألم يقع اختيارك على أحدهم؟

ـ نعم، لم يقع. إنهم موظفون شبان فى مستوى مادى لا يختلف عن مستواى، وقبول يد أحدهم يعنى التخلى عن إخوتى. ودعنا من تكاليف الزواج ومشاكلها!

فقال الكهل بإصرار:

ـ عسى أن يجىء عريس غنى يقوم بكافة التكاليف ويسمح بالنزول عن مرتبك لإخوتك!

ـ هذا حلم وليس عريسا!

ـ الأحلام توجد كما توجد الحقائق.

ـ أرفض أن أقيم ميزان حياتى على الأحلام. إنى أعيش فى جفاف قاتل وبلا أمل، ونفسى تتحرق إلى الحياة والسعادة. وفى كلمة أود من أعماقى أن أرقص وأغنى وأمرح . .

رجع الكهل إلى حيرته وصمته فقالت بوضوح:

ـ هذه هى مشكلتى الحقيقية!

ولما وجدته مصرا على الصمت عادت تقول:

ـ يسعدنى أنى وجدت أخيرا الشجاعة لمصارحتك بها!

فجعل يغمغم بكلمات مبهمة فقالت باسمة:

ـ وطبيعى أن أنتظر منك شيئا غير الصمت . .

فجمع عزمه وقال:

ـ إنى بطبعى وتاريخى أرفض التسليم بوجود طرق مسدودة!

ـ ولكن طريقى مسدودة!

ـ ما تزال . .

ـ أرجو أن تعتبرها كذلك إكراما لى، أنا لم ألجأ إليك إلا مطاردة بسياط الجزع، وبعد كفر بالأحلام والخوارق!

فقال بوضوح:

ـ لا رأى عندى دون مراعاة كاملة للكرامة!

ـ الكرامة؟!

ـ أعنى السلوك الخليق بفتاة محترمة.

فقالت بتحد:

ـ لقد جئتك وأنا على علم غزير بالنصائح التقليدية!

ـ طيب، هل تتوقعين لدى رأيا آخر؟

ـ نعم!

ـ أن أسوغ لك السقوط؟

ـ نعم!

فتساءل الكهل بذهول:

ـ ألم تجيئينى مدفوعة بما ذكرت عن تاريخى وحسن سمعتى؟

ـ بلى!

- وتصورت بعد ذلك أن أبارك سقوطك؟

- نعم!

فضحك الكهل على رغمه وقال:

- الحق أنى لا أفهمك . .

- ولكننى واضحة كضوء الشمس!

- الرقص والغناء والمرح؟

- نعم!

- خبرينى عما تتوقعين منى؟

- أن تصرح لى بأن النهل من متعة الحياة ليس سقوطا!

- ولكنه ينقلب كذلك أردنا أم لم نرد!

- وإذن فما على إلا أن أصبر حتى أذوى وأذبل وأموت؟

- بل حتى تفرج . .

- كلام لن يكلفك شيئا ولكنه سيكلفنى حياتى . .

فقال متحايلا للهروب من حدة الموقف:

- حدثينى عن رأى صديقتك الأخرى . أعنى التى لم تعتقل؟

- كان الحديث لمناسبة تقدم شاب لخطبتى فطالبتنى بأن أقبله دون تردد. وأما عن إخوتى فقد قالت إنه ليس من حق أحد أن يضحى بحياة آخر فى هذه الدنيا قصيرة الأجل!

فهز الكهل رأسه فى حيرة صامتة فقالت:

- ولكنى أرفض التضحية بإخوتى!

- يا لك من فتاة نبيلة!

- ولكن من حقى أن أحب الحياة، وأن أستمتع بهذا الحب . .

- إذا فقدنا الكرامة فإنه لا يطيب لنا شىء . .

- من الذى خلق الكرامة؟

- خلقتها السماء كما خلقتها الأرض . .

- ألم تسمع عما يقال عن الفتاة الأوروبية؟

- إنها تنتمى إلى حياة أخرى فى أوروبا ولست أملك المعرفة الكافية للحكم عليها . .

ـ ولكنها أثبتت لنا أنه من الممكن الاستهانة بالتقاليد الموروثة دون التضحية بقيم إنسانية باهرة

ـ قلت إنى لا أملك الحكم عليها . .

ـ هل تهرب من مواجهة الحقيقة؟

ـ بل أتكلم بما أعلم . .

ـ أخشى أن تعدنى مسئولية ثقيلة اعترضت طريقك الهادئ؟

ـ بل أود مساعدتك بكل قلبى . .

فقالت برجاء :

ـ إذن قدم لى نصيحة مبتكرة . .

ـ مبتكرة؟!!

ـ أجل، لم أعد أومن بالماضى، لقد ورثت تعاستى عن الماضى، لذلك أكره كل ما يمت إليه بصلة، هبنى نصيحة مبتكرة ولو هزئت فى النهاية بما سميته بالكرامة!

ـ ولكنى صارحتك بما أومن به .

ـ إنك رجل غير عادى، لابد أن تنبع منك أفكار مبتكرة، أفكار لا تستمد سدادها من قول سلف أو من عادة أثرت . .

ـ من حقى ومن واجبى، أن أكون مخلصا لطبعى أبدا .

فقالت وهى تنظر فى عينيه بجرأة :

ـ أحيانا يخيل إلى أن شرا عصريا أفضل من خير بال !

ـ أى ثورة تنطوى عليها جوانحك الرقيقة الجميلة؟!

ـ الحياة توشك أن تفلت من بين أصابعى تحت شعارات متهرئة ترددها ألسنة محتضرة . .

ـ هذه انعكاسات أزمة كفرت بحكمة الصبر . .

ـ صدقنى فإن حياتنا وقف قديم متهدم تتحكم فيه وصايا الأموات . .

ـ كل ذلك لأنك تودين أن ترقصى وتغنى وتمرحى؟

ـ لأنى أود أن أعيش حياتى .

ـ وربما تودين غدا أن تقتلى الأنفس وتشعلى الحرائق وتهدمى الجدران؟

فضحكت قائلة فى حبور :

ـ أود حقا أن أقتل زوج أمى، وأن أحرق من يتطاول على رميى بالسقوط، وأن أهدم جدران الإدارة!

ابتسم الكهل وهو يرمقها بحنان أبوى وقال :

- لعله الحب؟

- هه؟

- لعله حب يائس هو الذى أضرم فيك نار الثورة !

- لا يوجد حب معيَّن الآن، أحببت مرات وخاب الحب مرات، أما الآن فأنا أحب الحب وحده!

- لا شك فى أن للحب عندك قصة!

هزت منكبيها استهانة وقالت :

- أنت تعرف حب المراهقة ومصيره المحتوم . . . ذاك واحد، وحلمت يوما بحب ممثل، وكان كلما تقدم لى خاطب أبدى قلبى استعدادا طيبا للحب لا يلبث أن يذهب بذهابه . .

- لا قصة حب الآن؟

- أكبر قصة حب، حب الحب نفسه!

وتبادلا نظرة طويلة. ثم سألته :

- بم تنصحنى يا سيدى النبيل؟

فقال باسما :

- أنصحك بالرقص والغناء والمرح والقتل والتحريق والهدم . .

- أتسخر منى يا سيدى؟!

- معاذ الله، بل إنك تغريننى بالتعلق بك!

- حقا؟

- ما أكثر أوجه الشبه بيننا!

- فيم؟

- فى التعاسة على الأقل!

فقالت باستطلاع :

- لقد سمعت عنك الكثير . .

فلاحت فى عينيه نظرة حالمة وقال :

- كنت يوما ذا شباب يافع ومستقبل مرموق.

ثم وهو يبتسم :

ـ وذات يوم قررت الانضمام إلى الجموع الثائرة .

وسكت لحظة ثم تمتم :

ـ ولم أكتف بذلك فجازفت بالعمل فى السراديب . .

ثم واصل وهو يضحك ضحكة موجزة :

ـ ثم قضيت من حياتى خمسة وعشرين عاما فى السجن . .

ـ أول ما لفتنى إليك حديث بعض الزملاء فى المصلحة عندما أشاروا إليك وقالوا هذا الرجل بطل من أبطالنا القدامى !

ـ وقد خرج البطل من السجن بعد أن جاوز الخمسين ، وبعطف من البعض ألحقت بالوظيفة بمرتب مبتدئ ، وعما قليل سأترك الخدمة دون أن أستحق معاشا ، وقد فاتنى الحب والزواج والأسرة ، وإن امتد بى العمر فلا مفر من التشرد والجوع . .

ـ يا للبطولة !

ـ لذلك قلت إن بيننا أوجه شبه . .

ـ لكنك اليوم بطل !

ـ لا يذكرنى اليوم أحد !

ترامت إليهما فى الكشك ضحكات هامسة وهى تقترب . مرق إلى الداخل فتاة وشاب سرعان ما تبادلا عناقا حارا . أسلمت الفتاة رأسها إلى كتف الشاب وأغمضت عينيها . قلبت رأسها ، ولما فتحت عينيها وقع بصرها على الكهل والفتاة السمراء ذات العينين الخضراوين . ابتسمت بلا ارتياب يذكر ثم سحبت فتاها من يده وغادرا الكشك . ضحكت السمراء وابتسم الكهل . وسألته :

ـ لم اخترت هذه الحديقة مكانا للقائنا ؟

ـ كنت أتردد عليها فى الزمان الأول . . .

ـ لا علم لك بما يدور فيها اليوم ؟

ـ كلا ، كنا نتخذها أحيانا مخبأ ننقض منه على أعدائنا . .

فقامت برشاقة آخذة إياه من ذراعه ، فمضت به إلى جدار الكشك . مدت بصرها من الثغرات بين أوراق الياسمين داعية إياه إلى النظر . نظرا معا وهما شبه متلاصقين حتى فغر الكهل فاه . وهمست فى أذنه :

ـ انظر إلى الحديقة !

ثم وهى تكتم ضحكة :

ـ كم أنها مرصعة بالعشاق !

ـ كم أنها مرصعة بالعشاق!

ـ فوق ما يتصور العقل . .

ـ العقل يستطيع أن يتصور كل شيء لو تخلت عنه القبضة الخانقة .

فقال فى انفعال ظاهر :

ـ انظرى إلى هذه الفاجرة!

ـ يا لها من سكرى بالحب! . . .

ـ أهذه حديقة عامة؟

ـ لا عيب فيها إلا أنها تشبه الجنة . . .

ـ إنها فى عمر الورد!

ـ الحديقة؟

ـ الفاجرة!

ـ يخيل إلى أنه لا زوج أم يرهبها ولا سجن يهددها!

رجع الرجل إلى مجلسه وهو يلهث . تراجعت الفتاة إلى وسط الكشك . وقفت كأنما تستعرض جسمها الرشيق .

دارت حول نفسها مرتين كأنما تشرع فى الرقص . سألها وهو لا يتمالك نفسه :

ـ لم وقع اختيارك على بالذات؟

ـ لأنك الرجل الذى قضى زهرة عمره فى السجن .

ـ كيف ظننت أنك واجدة رأيا جنونيا عند رجل مثلى؟!

ـ تخيلت أنه لن ينتشلنى من الموت إلا رجل كان الموت لعبته!

ـ يا له من مزاح!

ـ قلت لنفسى سأجد عنده رأيا جديرا ببطل!

فتردد قليلا ثم سألها :

ـ ألم تخشى أن أغازلك؟

ـ ليس ثمة ما أخشاه فى ذلك!

هز الكهل رأسه مغلوبا على أمره فعادت إلى مجلسها إلى جانبه وهى تسأله :

ـ أليس فى حياتك جانب لهو؟

فأجاب دون اكتراث :

ـ أقرأ بانتظام ، وأذهب إلى السينما بين حين وآخر .

ـ تعيش وحدك؟

ـ نعم، لا أقارب لى فى القاهرة.

ـ ولا أصدقاء لك؟

ـ منهم من قتل فى الثورة، ومنهم من تبوأ يوما الوزارة فبعد ما بينى وبينه . . .

ـ والنساء، أليس فى حياتك نساء؟

ـ ولّى موسمهن فى عمرى . .

ففكرت قليلا وقالت:

ـ أود أن أعترف لك بسر!

فى تلك اللحظة ترامى إلى سمعيهما صوت رصاص ينطلق بقوة وغزارة. بهت الرجل وارتجفت الفتاة. تساءلت:

ـ ما هذا؟!

ـ رصاص من بندقية سريعة الطلقات . .

ـ كيف؟! . . . لم؟ . . .

ـ لا أدرى . .

ـ غارة؟!

ـ ولكن صفارة الإنذار لم تنطلق، لعله تمرين.

وسكت الضرب. لبثا يرهفان السمع ولم يزايلهما القلق. تساءلت:

ـ هل يعود؟

ـ لا علم لى . . .

ـ هل تستأنف الحرب؟

ـ من يدرى؟!

ـ الكلام عن ذلك لا ينقطع.

ـ وهو ينتهى حيث يبدأ.

ـ أتفكر فى ذلك كثيرا؟

ـ إنه ظلنا ومصيرنا.

وفصل الصمت بينهما طويلا. حتى قال:

ـ إن الرصاص يحرك غرائز فى أعماقى، لقد زلزل كيانى فى هذه اللحظة القصيرة.

ـ يؤسفنى أننى كدرت صفوك.

ـ لنعد إلى ما كنا فيه، أكنت تتحدثين عن سر؟!

فابتسمت قائلة:

ـ أجل... هناك سر..

فرمقها بنظرة مستطلعة، فقالت:

ـ ثمة رجل فى حياتى.

ـ حقا؟!

ـ شاب غنى من طنطا!

ـ ها هو ذا الحلم يتحقق..

ـ كلا، إنه متزوج.

ـ ما مهنته؟

ـ تاجر.

ـ أتقبلين أن تكونى الزوجة الثانية؟

ـ لكنه يمقت فكرة تعدد الزوجات.

ـ هل سيطلق زوجته؟

ـ ويمقت فكرة الطلاق.

ـ وماذا يريد إذن؟

ـ إنه يحبنى!

ـ كذاب!

ـ أعتقد أنه صادق.

ـ هل.. هل..؟!

ـ تقابلنا فى مشرب شاى مرتين...

ـ ماذا يريد؟

ـ يريد أن أقابله مرة ثالثة...

ـ لا كرامة فى ذلك.

ـ رجعنا إلى الكرامة

ـ واضح أنه يريد العبث بك.

ـ أو أن أعبث به!

ـ كونى بريئة بقدر ما أنت صغيرة..

ـ وحدثنى عرضا عن شقة يملكها فى الهرم!

ـ الداعر !

ـ لم أقطع برأى بعد .

فهتفت بحدة :

ـ الرقص والغناء والمرح!

ـ لا أحب لك أن تغضب . . .

ومالت نحوه فلثمت جبينه . وجعل ينظر إليها باهتمام وتوقد . سألته برجاء :

ـ ألا تريد أن تمن على برأى؟

ـ عليك أن تصبرى حتى يجىء الفرج ، كما أن على أن أصبر حتى يجىء الموت !

فقامت وهى تقول :

ـ شكرا ، وإذن فيجب أن أذهب . . .

هتف باستنكار :

ـ تذهبين؟! . .

ـ لم أجئ لأقيم هنا .

ـ أنت ذاهبة إلى الشاب الغنى من طنطا .

ـ كلا ، ليس موعده اليوم . . .

ـ لا يمكن أن تذهبى . . .

ـ آن لى أن أذهب . .

قام إلى جدار الكشك ورمى ببصره إلى الخارج ثم قال بعصبية :

ـ الحب لا يتوقف لحظة واحدة . .

ـ متع بصرك . . .

تحول إليها وهو يقول بانفعال :

ـ كأنك ابنتى !

ومال نحوها فلثم جبينها وهو يقول :

ـ لا تذهبى إلى مشرب الشاى .

ـ ليس اليوم . . .

ـ إنه يريد عشيقة !

ـ لم يصرح بذلك .

ـ أنت ساذجة؟ . . أنت ماكرة؟ . . ما أنت؟

ـ أنا مصممة .

ـ أنت جميلة ، أنت فاتنة ، اصبرى . .

ـ يجب أن أذهب .

ـ إنه يرفض أن يطلق ، ويرفض أن يتزوج زوجة ثانية ، لماذا؟ لعل زوجته غنية ، لعلها رأسماله الحقيقى ، وغير بعيد أن تكون أكبر منه سنا ، لذلك جهز شقة للعبث ، يجىء إلى القاهرة باسم التجارة ليمارس الدعارة . هذه هى الحقيقة .

ـ أشكرك ، ولكن آن لى أن أذهب .

قبض على يدها ، ثم على ساعدها ، وقال وهو يزداد انفعالا :

ـ لن تذهبى . . .

ابتسمت قائلة :

ـ لقد تأثرت لحالى أكثر مما يجوز . .

ـ لا حدود لما يجوز فى ذلك .

ـ شد ما أزعجتك!

ـ أكثر من سبب يشد أحدنا إلى الآخر .

ـ ولكن الوقت يسرقنا وزوج أمى رجل شرس . .

ـ فلنسحق رأسه ، ولكن لا تذهبى إلى الشاب الغنى من طنطا .

ـ إنى راجعة إلى البيت .

ففرقع بأصابعه وقال :

ـ جاءتنى فكرة طيبة .

ـ فكرة؟

ـ إنك مشغولة بالحياة ، ولا خوف عليك من كهل مثلى ، فلنذهب سويا إلى عنبر لولو!

ـ عنبر لولو؟!

ـ حديقة فى صحراء سقارة ، فى المركز منها بركة مترامية من ماء الورد ، وتنتشر بها المقاصير المغطاة بالأزهار ، وشعارها غير المكتوب : افعل ما تشاء .

فاتسعت عيناها دهشة وقالت :

ـ أنت تدعونى إلى ذلك؟!

ـ مع آمن رفيق!

ـ لا أصدق .

ـ لا يعز شىء على التصديق .

ـ ولكن . . ولكن ليس الوقت مناسبا .

ـ كل وقت فهو مناسب لزيارة عنبر لولو .

ـ لم أسمع بها من قبل .

ـ إنها جنة الأحلام، كل حلم فهو واقع فى عنبر لولو .

ـ إنك تتكلم بصوت جديد، وعيناك تنطقان بمعان جديدة .

جذبها من يدها إلى جدار الكشك فنظر من الثغرات داعيا إياها إلى النظر وقال محموما :

ـ انظرى، جميع هؤلاء حمقى لأنهم لم يعرفوا الطريق إلى عنبر لولو .

ـ تلك الحدائق النائية عرضة للخطر !

ـ إنها ترقد فى حضن الأمان وآى ذلك أنه لا يوجد بها شرطى واحد !

ـ وماذا نفعل هناك؟

ـ كما تهوين، لا أحد يرى الآخر فى عنبر لولو .

ـ انظر إلى هذه الفتاة الفاجرة !

ـ إنها فاجرة لأنها تلهو بعيدا عن عنبر لولو .

ـ إنك تخيفنى !

ـ لا ظل للخوف فى عنبر لولو .

تراجعت عن الجدار فلحق بها فى نشاط غير معهود وهو يشد على يدها . وتساءل :

ـ ألم تجيئى لتسمعى نصيحة من كهل؟

ـ أمقت النصائح !

ـ اذهبى معى إلى عنبر لولو .

ـ رباه . . إنى أتراجع، لعل حديثك الحكيم أثر فى أكثر مما توقعت !

ـ حديث عنبر لولو !

ـ حديث الصبر والكرامة !

ـ إنك لا تؤمنين بالألفاظ الصفراء .

ـ ولكنك تؤمن بها؟

ـ إن ربع قرن فى السجن خليق بأن يخل الميزان .

- إنك تخيفنى .

- كلا ، ولكنها حيلة نسائية بالية !

- اهدأ . فلنجلس ، أود أن أعترف بسر جديد !

- اعتراف آخر ؟ !

عادا إلى مجلسهما وهو يلهث . وقبل أن تفتح فاها تدافعت أقدام مهرولة تند بين وقعها ضحكات شابة متوثبة . اندفعت إلى الداخل فتاة يطاردها شاب . لمحا وجود الكهل والفتاة ولكنهما لم يلقيا إلى ذلك بالا . مضت تحاوره وهو يتحين غفلة للانقضاض عليها . وفجأة وثبت الفتاة فوق الأريكة الوحيدة التى يستقر عليها الكهل وصاحبته ، وتخطت الرجل فاختفى لحظة بين ساقيها ، ثم قفزت إلى الباب . ومنه إلى الحديقة والشاب فى أثرها . سوّى الكهل هندامه وتمتم كأنما يناجى نفسه :

- ما أجمل أن يذهبا إلى عنبر لولو .

ثم قال لفتاته بضيق :

- نحن نضيع وقتا ثمينا لا يعوض !

فقالت تذكره :

- ولكن ثمة اعترافًا جديدًا !

- لا قيمة الآن لأى اعتراف !

- أود أن أعترف لك بأن حكاية الشاب الغنى من طنطا مختلقة من جذورها ولا أساس لها فى الواقع !

- حقا ؟ !

- بالصدق أعترف لك .

- ذاك يعقد الأمور ولا يبسطها !

- وعلىّ أن أذهب الآن .

- كلا ، لن تذهبى .

- لا شىء يدعونا للبقاء .

- بل علينا أن نفهم الأسباب التى دعتك إلى اختراع الحكاية .

- لا أهمية لذلك ألبتة .

- كلام غير علمى ، فالحلم له أسبابه كالواقع سواء بسواء .

- أكرر ألا أهمية لذلك .

فهز رأسه مفكرا وقال باهتمام :

ـ دعينى أفكر .

ومسح على جبينه واستطرد :

ـ شاب . . تاجر . . غنى . . من طنطا . . شقة خاصة فى الهرم .

ـ كدت أنسى تلك التفاصيل .

ـ لا يمكن أن تُنْسَى .

ـ أنت ظريف ولكنك عنيد .

ـ أصغى إلى ، شاب . . تخيلته شابا ، الشباب رمز الجنون بحب الحياة ، وأنت تهيمين بحب الحياة لحد الجنون .

ـ لكنى تغيرت .

ـ كذب ، لم يمر وقت يسمح بالتغيير .

ـ يخيل إلىّ أنى عاشرتك فى هذا الكشك عمرا .

ـ أصغى إلىّ يا عزيزتى . . . تاجر . . ما معنى تاجر؟ إنه نقيض الموظف ، الموظف رمز الروتين ، التاجر رمز الحركة ، الموظف ظل الأخلاق التقليدية ، التاجر ظل الانطلاق واللا أخلاقية .

فتساءلت ضاحكة :

ـ أترانى حلمت بقرصان؟

ـ وأكثر يا عزيزتى ، إنك تدعيننا للإيمان بإبليس كما آمن إبليس بنفسه ، إنك تنبذين آدم مخلوق الخطيئة والاستغفار ، وتعشقين إبليس مخلوق الإبداع والكبرياء ، إنك تعيدين للنار كرامتها حيال التراب .

ـ سامحك الله . . أنت خفيف الروح .

ـ وما معنى غنى؟ الغنى هو الذى يملك المال والقوة ، ولكننا لم نعد فى عصر الأغنياء ، أى غنى اليوم إنما هو كاللص الذى لم يُهْتَدَ إلى أثره بعد ، ستُطْبق عليه يد العدالة فى المساء أو عند منتصف الليل ، فالحلم يريد شابا غنيا ، لفترة محددة ، إنه يخشى المعاشرة الطويلة ، يخشى أن يتكشف مع الزمن عن شخص حقير شرس مثل زوج أمك ، فأنت ترغبين فيه وتكرهين فى الوقت نفسه فكرة دوامه ، سوء ظن مكتسب من ماض تعيس . . .

ـ أتقرأ الفنجان أيضا؟

ـ من طنطا ! . . . ماذا يقول الحلم ؟ طنطا هى مثوى السيد البدوى ، صاحب الكرامات والمعجزات ، الذى كان يجىء بالأسرى من الأعداء . . فهمت يا عزيزتى؟ !

- فهمت يا سيدنا الشيخ .
- وشقة الهرم؟ . . الشقة مفهومة ولكن لماذا فى الهرم؟ . الهرم فى ظاهره قبر ولكنه فى حقيقته يشكل تحديا للزمن . . . للموت .
- تفسير مسل وجميل ، ولكن يجب أن نفكر فى الذهاب .
- ابصقى هذه النية من فيك وهلمى إلى عنبر لولو .
- بل إلى البيت . .
- ماذا فى البيت مما يغريك بالعودة إليه؟
- هو بيتى على أى حال .
- سيتغير طعمه ومذاقه عقب زيارة لعنبر لولو .
رمقته بنظرة ارتياب وسألته :
- ما علاقة كهل وقور مثلك بعنبر لولو؟
- فيه خلوة للعجزة ، كل شىء فى عنبر لولو .
- ترى . . ترى أأنت جدير بالسمعة الطيبة التى تتمتع بها؟
- أنسيت رأيك فى الوقت القديم ووصايا الأموات؟
- لكنى تعلمت أشياء جميلة من معاشرتك الطويلة هنا !
- لا تسخرى من رجل قضى زهرة عمره وراء القضبان .
- اغفر لى فإنى لم أجاوز الأربعة والعشرين ربيعا من عمرى!
- ولكنه فى حالتك يعتبر مرحلة من مراحل الشيخوخة !
وقامت متجهمة فقام فى أثرها بحال توحى بالاعتذار ، وقال :
- لا معنى للغضب بعد أن تعارفنا على خير وجه!
فقالت بنبرة ساخرة :
- شيدتَ قصرا ولكن على الرمال!
- حقا؟
- الشاب الغنى من طنطا حقيقة من صميم الواقع!
- بل خيال فى خيال!
- حقيقة من صميم الواقع .
فقبض على ساعدها بعنف وهو يطلق على عينيها نظرة من نار . وتوثب ليقذفها بسيل من الكلمات التى انصهر بها شدقاه ، ولكن شخصا غريبا اقتحم الكشك على غير توقع .

اقتحمه وكأنما ألقى به إليه. مشعث الشعر، أغبر الوجه يتصبب عرقا. رفع بنطلونه وحبكه حول وسطه. ضرب الأرض بقدميه بشدة ليزيل عن حذائه ما يطويه من طين. بادلهما النظر صامتا دون أن ينبس. مضى إلى طرف الأريكة وارتمى عليها فى إعياء. جعل صدره يرتفع وينخفض ورائحة عرقه تنتشر. حل بالكشك صمت كالشلل. لكن الفتاة كانت أول من خرج منه. خلصت يدها من قبضة الكهل وقالت:

- أستودعك الله، إنى ذاهبة.

فقال الكهل برجاء:

- انتظرى، يحسن بك ألا تسيرى وحدك فى الطرقات الخالية فى هذه الساعة من الأصيل!

وإذا بالشباب الغريب يقول:

- ليست الطرقات بالخالية!

فرماه الكهل بنظرة مغيظة متسائلة فقال الشاب:

- جميع الطرقات مطوقة برجال الشرطة!

فتحول غيظ الكهل إلى دهشة وسأله:

- لم؟

فسأله الشاب بدوره:

- ألم تسمعوا طلقات الرصاص؟

- بلى، منذ وقت غير قصير، ظننته تدريبا عسكريا.

- لم يكن تدريبا عسكريا.

فسألته الفتاة:

- أكان غارة جوية؟

- لم يكن غارة جوية.

فسأله الكهل:

- هل بلغتك عنه أنباء صادقة؟

فهز الشاب رأسه بالإيجاب، وأجاب النظرات المتسائلة قائلا:

- صعد شخص إلى قمة البرج وأطلق الرصاص من بندقية سريعة الطلقات.

- ما هويته؟

- لا يدرى أحد.

ـ وما الهدف الذى أطلق عليه الرصاص؟

ـ أطلقه على الجهات كافة، على جميع الناس!

ـ يا للخبر! وكم عدد الضحايا؟

ـ لم يصب أحد!

ـ غير معقول.

ـ يبدو أنه أراد أن يطلق الرصاص لا أن يصيب أحدا.

ـ حادث غامض.

ـ إنه لكذلك.

ـ هيهات أن يثبت عدم الشروع فى القتل.

ـ ذاك واضح، ولكن ربما صفحته خالية من السوابق!

فقال الكهل باستياء:

ـ ليس خلو الصفحة من السوابق بالشهادة الطيبة دائما. ولا العكس بالصحيح.

ـ قول لا يخلو من حكمة.

ـ أهنئك على حسن إدراكك.

ـ شكرا.

ـ لكن لنعد إلى مطلق الرصاص، لعله مجنون؟

ـ كلا..

ـ إنك تتحدث عنه بيقين!

ـ بل أردد ما تناقله الناس فى الطرق.

ـ ولكن لم يطلق النار فى جميع الجهات دون أن يقصد إصابة أحد؟

ـ ذاك بعض السر الذى يسعى وراءه رجال الشرطة.

فقالت الفتاة:

ـ لعله مجنون بالشهرة.

ـ لا يبدو كذلك.

فعادت تقول:

ـ لعله كان فى حاجة ملحة إلى الترفيه؟!

فابتسم الشاب قائلا:

ـ لا أظن الأمر كذلك.

وسأله الكهل :

ـ ماذا يقول الناس عنه أيضا؟

ـ يقال إنه كان ضمن وفد دعى إلى زيارة الجبهة ومعسكرات اللاجئين .

ـ حقا! . . لعل أعصابه اهتزت فوق ما يحتمل .

ـ لكنه لم يفقد توازنه قط وإلاّ لقتل الناس بالعشرات!

ـ أطلق النار وهو فى كامل وعيه؟

ـ وكامل عقله!

ـ يا له من حادث غامض!

وقالت الفتاة :

ـ كم أود أن أراه .

فقال الكهل :

ـ سترينه فى جرائد الغد، كذلك تجرى الأمور منذ قديم!

ثم التفت إلى الشاب وهو يقول كأنما يقدم له نفسه :

ـ أنا أيضا ولعت يوما بإطلاق النار!

ثم بنبرة اعتزاز :

ـ ولكن الرصاص انصب على الأعداء!

فقال الشاب بامتعاض :

ـ يقال إن صاحب البندقية المجهولة هتف قبل أن يختفى «ليستقر الرصاص فى قلب العدو الأكبر!» .

فقال الكهل فى حيرة :

ـ حتى القتل أصبح غامضا على الرغم من أنه أوضح فعل فى الوجود!

ـ ليس ثمة غموض ألبتة . .

فتساءل الكهل بغيظ :

ـ أكان العدو الأكبر يسير فوق رءوس المارة؟

ـ أو خلفهم أو أمامهم أو تحت أرجلهم!

فقالت الفتاة بانفعال :

ـ واضح أو غامض، لا يهم! كم أنه جميل أن يطوف إنسان بالجبهة وبمعسكرات اللاجئين ثم يصعد إلى برج القاهرة ليطلق النار فى جميع الجهات!

فسألها الكهل :

- هل وضح لك ما غمض على؟

- نعم .

- ولكن كيف؟

- إنى أفهم بطريقتى الخاصة!

وسادت لحظات من الصمت ارتفعت خلالها ضجة فى الخارج، ثم تبين على وجه اليقين أن ثمة ضجة تجتاح الحديقة .

هرعا إلى ثغرات الياسمين فرأيا العشاق يتجمعون فى الممشى وقد تولاهم الوجوم والارتباك . ثم رأيا رجال الشرطة وهم يحتلون الأركان . قالت الفتاة بانفعال :

- أصبحنا فى قلب الحدث . .

فقال الكهل :

- وقد يقع صدام دام .

والتفتت الفتاة نحو الباب وقالت له :

- واضح أن رجال الشرطة يعتقدون أن صاحبك المجهول فى الحديقة معنا!

فقال الشاب بهدوء :

- وهو فرض محتمل!

فقال الكهل :

- ولم يعد ثمة مجال للهرب . .

فقال الشاب :

- إن من يقدم على ما أقدم عليه لا يمكن أن يركن إلى الهرب إلى ما لا نهاية . .

فقال الكهل وهو يحدجه بمودة :

- وعليه فخير سبيل أن يذهب إليهم بنفسه . .

- أتظن ذلك؟

وابتسم . ثم قام بهدوء . حياهما بإحناءة من رأسه قائلا :

- إلى اللقاء . .

ومضى نحو باب الكشك فمرق منه إلى الحديقة وهما يرددان وراءه . .

- إلى اللقاء!

واقتربا من باب الكشك متلاصقين وراحا يراقبان ما يحدث فى الخارج . ولبثا وقتا

غير قصير ثم رجعا إلى مجلسهما فيما يشبه الإعياء والحزن. وقال الكهل وكأنه يناجي نفسه:

- فاتنى أن أستوضحه بعض الأمور، كان الوقت قصيرا وحرجا!

فقالت الفتاة:

- وفاتنى أن أدعوه إلى شيء من اللهو!

فقال لها معاتبا:

- ما زلت قادرة على المزاح!

- أنسيت هيامى بالرقص والغناء والمرح؟

فقال بامتعاض:

- آن لك أن تذهبى إلى شابك الغنى من طنطا!

فضحكت قائلة:

- دعنى أعترف لك بأنه حلم لا أساس له فى الواقع!

فهتف بغضب:

- لقد أرهقتنى اعترافاتك المتضاربة!

فقالت بتسليم:

- هلم بنا إلى عنبر لولو!

ونهضت قائمة. لكنه جذبها برقة من يدها فأجلسها مرة أخرى وهو يحنى رأسه:

- دعينى أعترف لك بأن عنبر لولو لم يوجد بعد.

فاتسعت عيناها دهشة وتمتمت:

- ماذا قلت؟!

- كان مجرد مشروع!

- مشروع؟!

- أجل.

- ماذا تملك لتنفيذه؟

- رسمنا له خطة عظيمة فى غيابات السجن!

- السجن؟!

- كان حياتنا الحقيقية، أنا وبعض الزملاء، وقد اشتققنا اسمه من عنبر السجن وأضفنا إليه «لولو» على مثال هونولولو...

ـ وماذا عن تمويله؟

ـ فكرنا فى ذلك بطبيعة الحال، وبالإِجماع اتفقنا على وسيلتين لا ثالث لهما، وهما السرقة والقتل!

فضحكت متسائلة:

ـ وماذا أخركم عن التنفيذ مذ تم الإِفراج عنكم؟

ـ الخيانة!

ـ الخيانة؟!

ـ إذا بالزملاء يتوبون إلى الله ويؤدون فريضة الحج فى عام واحد! هكذا تعطل مشروع عنبر لولو!

ـ يا للخسارة!..

ـ العين بصيرة واليد قصيرة!

وفرق بينهما صمت واجم ثقيل. حتى قال الكهل:

ـ آن لنا أن نذهب، ولكن لا يجوز أن نفترق!

ـ حقا؟!

ـ ألا ترحبين بذلك؟

ـ من المؤسف أنك لن تحسن الرقص ولا الغناء ولا المرح!..

ـ ولكنى صاحب مشروع قيم!

ـ عنبر لولو؟!

ـ أجل..

ـ لكنه لا يمكن تنفيذه بمجهود فردى؟

ـ إذا اتفقنا أمكن أن نصنع شيئا ذا بال..

ـ وماذا فى وسعى أنا؟

ـ أصغى إلى، نحن نملك مواهب لا تقدر بثمن..

ـ ما أريد إلا أن أرقص وأغنى وأمرح.

ـ لن أطالبك بأكثر من ذلك..

ـ ماذا تعنى؟

ـ عنبر لولو، جنة الأحلام، ما قيمتها بلا رقص وغناء ومرح؟!

فابتسمت الفتاة بأمل وتساءلت:

ـ وأنت؟

فقال بفخار :

ـ أنا مولع بالقتل من قديم الزمان . .

قام فقامت . أعطاها ذراعه فتأبطتها . . مضيا نحو باب الكشك وهو يقول :

ـ سأطلق الرصاص فى جميع الجهات وسنرقص ، ونغنى ونمرح . .



المحتويـــات

شـــهر العســـل

تهلل وجهاهما بالرضا وهما يدخلان. وقفا تحت النجفة الصغيرة يلقيان نظرة شاملة على الحجرة. وقاسا بعين دقيقة المسافة بين الكنبة الرئيسية والصوان الجامع للراديو والتلفزيون. ونظرا إلى الفريجدير القائم فى الركن بشىء من الفتور إذ كانا يتمنيان لو اتسعت له حجرة السفرة. قال باسما وهو يختال فى بدلته الجديدة:

ـ مباركة عليك الشقة الجديدة يا حبيبتى.

ـ مباركة عليك يا حبيبى.

ـ يتجلى ذوق والدتك فى تنسيقها البديع.

ـ ولا تنس دور ذوقى فى ذلك.

فلثم خدها وهو يضحك ثم قال:

ـ شقة لقطة!

ـ حقيقة..

ـ ترى أين أم عبد الله؟

ـ لعلها فى المطبخ أو الحمام..

ـ ترينها يا عزيزتى أهلا للثقة؟

ـ كل الثقة، لم تفارق ماما مذ كانت فى العاشرة.
ـ ستقيم فى شقتنا أكثر منا، وستدير جميع شئونها. أما نحن فلن نهنأ بها إلا حين الراحة والنوم. .
ـ ندر بين أمثالنا من الأزواج العاملين من ظفر بمدبرة بيت مثلها.
ـ أى بهجة لشقة جميلة كهذه بدون مدبرة؟
ـ هذه هى الحقيقة، هى فى ذات الوقت مشكلة، ولكن. .
وجعلت تتشمم الهواء فى قلق وتتساءل:
ـ ألا تشم رائحة غريبة؟
ـ رائحة غريبة؟!
وراح يتشمم بدوره، ثم قال:
ـ أجل. . ثمة رائحة غريبة. .
ـ رائحة طبيخ. .
وقاما بجولة تفتيش فى الأركان، تحت المقاعد، تحت الكنبة، وصاح الشاب باستنكار:
ـ توجد حلة تحت الكنبة. .
ـ حلة؟!
أخرجها الشاب بوجه متقزز وهو يتمتم:
ـ حلة طبيخ فى حجرة الجلوس!
ـ وهو طبيخ حامض، ما معنى ذلك؟!
ـ شىء لا يتصوره العقل. .
وصفق بيديه بشدة ونرفزة. وصاحت الفتاة:
ـ أم عبد الله!
ترامى إليهما وقع أقدام ثقيلة. دخل رجل قصير بدين مصبوب فى كتلة قوية كأنه برميل. غليظ الرأس والوجه والعنق كأنه مصارع محترف، ومن عينيه الغائرتين تنبعث نظرة جامدة بليدة. وقف فى بنطلونه الترابى وقميصه الأسود وحذائه المطاط، ينظر إليهما ببلادة وعدم اكتراث. صرخت فى عينيهما نظرة ذاهلة غير مصدقة. تبادلا نظرة سريعة ثم عادا للحملقة فى وجهه البليد. وسألته الفتاة:
ـ من أنت؟
لم يجب. كأنه لم يسمع. سأله الشاب بصوت رنان:

ـ من أنت؟

فنظر إلى الشاب مليا ، ثم تمتم بهدوء بارد :

ـ أنا ابن أم عبد الله . .

ـ ومن أذن لك بدخول الشقة؟

ـ استدعتنى لأحل محلها فى أثناء غيابها .

ـ أليست فى الداخل؟

ـ سافرت إلى طنطا لحضور مولد السيد .

ـ متى سافرت؟

ـ صباح اليوم . .

فقالت الفتاة باستياء :

ـ لكنها لم تستأذن منا ، بل ولم تخطرنا . .

فجعل ينظر ببلادة وعدم اكتراث حتى سأله الشاب :

ـ ومتى ترجع؟

ـ لا أدرى .

ـ وماذا كنت تفعل؟

ـ لا شىء . .

ـ ماذا تعرف من شئون المنزل؟

ـ لا شىء .

ـ ألك حرفة تتعيش منها؟

ـ كلا .

ـ وكيف تعيش؟

ـ آكل وأشرب وأنام .

فنفخ الشاب فى يأس ، ثم سأله :

ـ ولم استدعتك أمك إذا كنت لا تحسن شيئا؟

ـ لأحل محلها فى أثناء غيابها .

ـ ولكنها تقوم هنا بكل شىء .

ـ قالت لى ابق هنا حتى أرجع .

لوى الشاب شفتيه امتعاضا . أشار بحدة إلى الحلة ، وسأله :

ـ ألم تر هذه الحلة من قبل؟

فنظر الرجل إليها فى بلاهة وقال :

ـ لا أتذكر .

ـ ألم تأكل من الكرنب؟

ـ بلى أكلت . .

ـ فى هذه الحجرة ، أليس كذلك؟

ـ لا أتذكر .

ـ ثم دفعت بها تحت الكنبة؟

فقال فى ابتهاج طارئ :

ـ بحثنا عنها طويلا . .

فنفخ الشاب فى غيظ وقال :

ـ لا جدوى من الكلام ، على أى حال تفضل غير مطرود!

فاستدار ليرجع من حيث أتى ، ولكن الشاب استوقفه ثم أشار إلى ردهة مفضية إلى الباب الخارجى ، فمضى الرجل نحوها بشكل آلى ، غاب قليلا ثم رجع وهو يقول :

ـ ذاك الباب يؤدى إلى الخارج!

ـ أعرف ذلك .

ـ أتطردنى؟

ـ لا حاجة بنا إليك .

ـ قالت لى ابق حتى أرجع .

ـ ولكنى صاحب الشقة!

ـ أنا لا أعرف إلا أمى!

فصاحت الفتاة :

ـ أتريد أن تبقى بالقوة؟

فقال بثقة :

ـ سأبقى حتى ترجع .

ـ ولكننا لا نريدك .

ـ سأبقى حتى ترجع .

فذهلت الفتاة ونظرت صوب زوجها. شعر الفتى بأنه مطالب بأداء واجب فوق احتماله. وبدا أمام الرجل كغصن طرى حيال جذع شجرة بلح. واحتدم غضبا فصاح بالرجل:

ـ اذهب فى الحال.

ـ قالت لى ابق حتى أرجع!

ـ اغرب عن وجهى بلا مناقشة.

ـ لن أذهب، اذهب أنت إذا شئت!

أعماه الغضب فانقض على الرجل ودفعه بكل قوته. لم يتأثر الرجل أقل تأثر ودفعه بكتفه دفعة بسيطة فانقذف الشاب إلى أقصى الحجرة متعثرا فى طريقه بخوان فسقطا سويا. نهض بسرعة لاعنا، ولكنه كف عن تجربة قوته. واندفعت الفتاة نحو النافذة المطلة على الطريق ففتحتها على مصراعيها وراحت تصوت بأعلى صوتها مستغيثة. وإذا بأصوات ترتفع لاعنة فى غضب، وإذا بالطوب ينهال على النافذة ويمرق بعضه إلى داخل الحجرة حتى تنحت الفتاة والفتى فى ركن آمن وهما مذهولان.

تساءلت وهى ترتجف:

ـ ماذا جرى للناس؟

ـ يقذفوننا بالطوب بدلا من إغاثتنا!

والرجل الغليظ لم يسكت. تقدم خطوات فتناول الخوان المقلوب وجرى نحو النافذة فرمى به منها بأقصى قوته، ثم أغلق النافذة! صاح الشاب:

ـ ماذا فعلت؟

فعاد إلى موقفه وهو يقول:

ـ طيلة الوقت تبادلنا الضرب.

ـ الضرب؟

ـ وانتصرت عليهم دائما!

فسألته الفتاة بحنق:

ـ كيف جعلت من شقتى ميدان قتال؟

ـ الحق عليهم، كلما ظهرت فى نافذة بادرونى بمعاكساتهم، اضطررت إلى قذفهم بالأطباق فقذفونى بالطوب..

ـ لقد جعلت من أهل الطريق أعداء لنا!

- لا يهمك .
- ألا ترى أنك تتصرف فى الشقة كما لو كانت ملكك الخاص؟
- الحق عليهم كما قلت لك .
- إنك تبدد الأشياء الثمينة وتعرضنا للخراب .
- أهذا جزاء من يدافع عن شقتك؟
- يا سيدى تشكر ، ما نريد منك إلا أن تذهب بسلام!

هز منكبيه العريضين ثم ذهب إلى الردهة المفضية إلى الباب الخارجى . . لكنه لم يلبث أن عاد فرفع الحلة فى هدوء ومضى بها إلى الداخل . همست الفتاة :

- النجدة!

انتقل الشاب إلى التليفون فرفع السماعة ، جعل ينقر عليه ، ثم أعادها غاضبا وهو يقول :

- حرارته مفقودة!
- رباه!
- لعله عبث به ، ومن يدرى فلعله عبث بالراديو والتلفزيون أيضا . .
- كارثة حلت بشقتنا الجديدة ، ولكن لا بد من عمل شىء . .
- فلنذهب سويا إلى نقطة الشرطة . .
- قد ينتقم من الشقة فى غيابنا . .
- لابد مما ليس منه بد . .

مضيا معا نحو الباب الخارجى ، ولكنهما رجعا وهو يقول :

- أغلق الباب بالمفتاح!

ومضى يفتش عن المفتاح حيث وضعه على ترابيزة صغيرة فلم يجده . . تمتم :

- ليس الوحش غبيا كما تصورت . .
- لقد سجننا .
- حتام نمضى فى السجن تحت رحمته؟
- ذلك لا يمكن أن يقع ولا فى الخيال!

وإذا بدفقة مروعة من أصوات خشنة مختلفة المصادر تنقذف من ناحية المطبخ . وقع أقدام ، ارتطام بجدران ، سقوط أوعية ، تحطيم آنية ، صيحات وعيد . وقبل أن يفيق الزوجان من الصدمة الجديدة اندفع الرجل الغليظ مشتبكا مع آخر فى مثل حجمه إلى

الحجرة وهما يتصارعان. تصارعا بعنف ووحشية وكل منهما يحاول قهر الآخر. فمرة يقع هذا تحت الآخر ومرة العكس. حتى تمكن الرجل الغليظ من غرس الآخر تحته دون أن يدع له فرصة للإفلات أو الحركة، ثم هتف بصوت جذلان:

ـ فيفا فلا!

ونهض فنهض الآخر. تصافح الاثنان كما يتصافح متباريان عقب مباراة عادلة. وانتبها إلى الزوجين فجعلا ينظران إليهما ببلادة وبرود. وحل صمت ثقيل كالاختناق. ثم خرج الشاب من ذهوله فأشار إلى الرجل الجديد وسأل ابن المدبرة:

ـ من هذا؟

ـ صديق!

ـ أكان موجودا معك من قبل؟

ـ نعم..

ـ هل علمت أمك بوجوده؟

ـ كلا..

ـ وكيف تدعوه إلى شقة آخرين؟

ـ دعوته لأنى لا أحب الوحدة، ولنواصل تدريبنا..

ـ أأنت رجل عاقل؟

ـ نحن نتصارع فى الموالد ولا غنى لنا عن التدريب المستمر..

ـ لعلك توهمت أنك صاحب الشقة!

ـ أنا لا أحب الإقامة فى البيوت!

فقالت الفتاة:

ـ إذن غادر بيتنا مصحوبا بالسلامة!

ـ قالت لى ابق حتى أرجع..

فقال الشاب:

ـ نحن على استعداد للذهاب فلم أغلقت الباب بالمفتاح؟

ـ حتى ترجع أمى من المولد..

ـ ولكننا نريد أن نذهب..

ـ إلى أين؟

ـ يا له من سؤال، ألسنا أحرارا؟!

ـ من أدرانى أنكما صاحبا الشقة الحقيقيان؟

ـ أيداخلك شك فى ذلك؟

ـ يجب أن تبقيا معنا حتى ترجع أمى من مولد السيد .

فعض الشاب على أسنانه من الغيظ وقال :

ـ على الأقل يجب أن تلتزم بالنظام!

فأشار الرجل الغليظ إلى زميله قائلا :

ـ أراد أن يجرب قوته معى وقد رأيت النتيجة بنفسك !

ـ حسبكما ما كان من ضجيج وتخريب .

ـ لن يأتيك من ناحيتنا بعد ذلك إلا الطرب!

ـ أريد الهدوء الشامل الكامل . .

ـ ألا تحب الغناء والرقص؟

ـ الغناء والرقص؟!

ـ معنا فى المطبخ راقصة وبعض أفراد الجوقة!

فصاح الزوجان معا :

ـ ماذا تقول؟!

ـ إنهم من الزملاء الموثوق بهم . .

ـ لقد جعلت من الشقة ساحة مولد!

ـ لم تعقدان الأمور بلا سبب؟

ـ كل ذلك وتقول بلا سبب؟!

ـ ما كنت أتصور وجود ناس يكرهون الناس والطرب بهذه القوة!

ورفع منكبيه العريضين استهانة، ثم تأبط ذراع صاحبه، ومضى به إلى الداخل . وجعلا يتبادلان النظر فى غضب ويأس حتى ترامى إليهما دق دف وعزف مزمار وإيقاع رقص، وما لبثت الحناجر الخشنة أن غنت بغرابة :

يا زرمباحه يا زرمباحه خواتمك ستة وقداحه

هتفت الفتاة :

ـ سأجن إن لم أكن جننت بالفعل .

ومضى الشاب نحو النافذة بتصميم، فقالت له محذرة :

ـ الطوب!

ـ لعلهم ذهبوا . .

ثم وهو يمسك بمقبض الضلفة :

ـ علينا أن نوصل صوتنا إلى الناس !

ولكن ما كادت الضلفة تتحرك حتى انهال الطوب عليهما كالرصاص . أغلقها مرة أخرى وهو يسب ويلعن . وتساءل فيما يشبه التنهد :

ـ غلبنا على أمرنا؟

فتمتمت :

ـ إنه كابوس قاتل . .

ـ ولكن لابد أن يوجد مخرج .

ـ أجل ، يجب أن يوجد مخرج .

ـ ولكن ما هو؟

وتفكر قليلا ثم تساءل :

ـ لنسأل أنفسنا ماذا نريد؟

ـ أظننا جئنا ونحن نحلم بقضاء شهر عسل سعيد !

ـ ولكن عاقنا عن ذلك وجود أولئك الشياطين .

ـ فعلينا أن نتخلص منهم .

ـ طيب ، فلنفكر كيف يمكن التخلص منهم؟

ـ الباب مغلق ، التليفون معطل ، النافذة ينهال عليها الطوب .

ـ إذن فلا مفر من الاعتماد على أنفسنا !

ـ ولكننا دونهم فى القوة بما لا يقاس !

ـ ولكن هنالك الحيلة .

ـ أجل . . الحيلة .

ـ هل يسعنا حبسهم فى المطبخ؟

ـ يلزمنا معاينة المكان هنالك .

ـ سأذهب لصنع فنجال قهوة . .

ودون تردد غادر الحجرة . ثم رجع بالقهوة ، فسألته بلهفة :

ـ ماذا وجدت؟

فقال بضيق :

ـ باب المطبخ مفتوح والزمار جالس على الأرض مسند الظهر إليه، ولكن لم يمت الأمل.

ـ حقًا؟

ـ اختلست مفتاح المطبخ من فوق الرف.

ـ ألم تعثر على مفتاح الشقة؟

ـ ليس الرجل بالغباء الذى نتصوره، ولكنهم. . .

ـ ولكنهم؟

ـ يجرعون النبيذ بإفراط!

ـ ننتظر حتى يفقدوا الوعى؟

ـ أجل. .

ـ لكنه سلاح ذو حدين!

ـ أجل، قد يزدادون جنونا، ولكن إذا غلبهم النوم فسوف يتساوون بالأموات.

ـ علينا أن ننتظر الليل.

ـ وليس الليل ببعيد!

تنهدت فى ضيق شديد متسائلة:

ـ متى ترجع أم عبد الله؟

ـ ذاك يتوقف على انتهاء المولد.

ـ ألديك فكرة عن تاريخ الليلة الكبيرة؟

ـ لا فكرة عندى عن المولد.

راحت الفتاة تذرع الحجرة محنية الرأس تحت هم ثقيل. حانت منها التفاتة إلى ما وراء الفريجدير فشد بصرها شىء ما. اقتربت منه ممعنة النظر، ثم قالت باستغراب:

ـ أرفف الفريجدير مخلوعة ومطروحة أرضا وراءه!

وانتقلت إلى باب الفريجدير فجذبته. وإذا بكتلة بشرية تندلق من داخله منكفئة على وجهها فوق الأرض.

صرخت الفتاة بجنون وهى تترنح. وثب الشاب إليها فتلقاها بين ذراعيه. تفحص الكتلة المطروحة بذهول، انحنى فوقها حتى رأى الوجه، ثم هتف:

ـ أم عبد الله!

ـ أجلس الفتاة على مقعد ورجع يفحص المرأة ويجسها، ثم تمتم بذهول:

ـ جثة هامدة!

واقتحم الحجرة الرجل الغليظ وجوقته وهو يقول بنبرة انتقاد:

ـ ألا تكفان عن الضوضاء؟

وتابع عينيهما ببصره حتى استقر على الجثة المنكفئة فتساءل:

ـ ما هذا؟

ولما لم يسمع جوابا صاح بغضب مخاطبا الشاب:

ـ أجب!

فقال الشاب بغضب كظيم:

ـ إنها جثة..

ـ جثة؟!

ـ نعم.

ـ أهى شقة أم مقبرة؟

ـ كانت شقة فأصبحت مقبرة.

ـ أين وجدتها؟

ـ فى الفريجدير.

فقال المصارع الآخر ببلاهة:

ـ إنهما يتغذيان على لحوم البشر.

فقال الشاب بحدة:

ـ لقد قتلت ثم دفنت فى الفريجدير.

فسأله الرجل الغليظ وعيناه تلتمعان بالسكر:

ـ وماذا حملك على قتلها؟

ـ لقد قتلت من قبل وصولنا إلى شقتنا.

ـ فمن الذى قتلها فى رأيك؟

ـ دعنى أسألك أنت فقد كنت قابعا هنا من قبل أن نحضر.

فالتفت الرجل إلى أفراد جوقته وسألهم:

ـ ما رأيكم فى مكابرة هذا الرجل؟

فقال الزمار:

ـ يقتل القتيل ويسأل عن قاتله..

وقال الطبال:

ـ إنه مجنون، لابد أن يكون مجنونا من يرتكب جريمة كهذه.

وقالت الراقصة:

ـ ودفنها فى الفريجدير على أمل أن تتحول إلى ديك رومى!

فقال الشاب مخاطبا الرجل الغليظ:

ـ انظر إلى وجه الجثة.

ـ لا تهمنى معرفته.

ـ إنها جثة أمك!

فضجت الجوقة بالضحك، فصاح الشاب:

ـ إنها جثة أم عبد الله.

فقال الرجل الغليظ بصوت ملتو:

ـ أمى ذهبت إلى مولد السيد!

فأشار الشاب إلى الجثة وسأله فى هياج:

ـ أليست هذه بأمك؟

قالت الراقصة:

ـ كانت أمه يا مجرم..

وقال الزمار:

ـ أمه ذهبت إلى مولد السيد.

وقال الطبال:

ـ إنه يدعى الجنون ليفلت من العقاب.

وصاح الرجل الغليظ:

ـ كيف تنبش القبر لتعبث بالجثث؟!

فهتف الشاب:

ـ لن تفلتوا من يد العدالة.

فقال الزمار:

ـ تقتل مدبرة بيتك، يا لك من وغد خسيس!

وقالت الراقصة:

ـ قتلها كيلا يدفع لها أجرها.

وقال له الرجل الغليظ :

ـ الويل لك أيها المجرم .

فصاح الشاب متحديا :

ـ أهذا ظنكم حقّا؟ . . إذن فاستدعوا الشرطة!

فضجوا بالضحك ، وقال الرجل الغليظ :

ـ نحن الشرطة ونحن القضاة . .

فقالت الراقصة :

ـ فلتقدمه إلى المحاكمة . .

فقال الرجل الغليظ :

ـ بعد أن نفرغ مما كنا فيه .

وتعالى هتافهم فى حبور ، ثم غادروا الحجرة وراء الرجل . أغمض الشاب عينيه إعياء . تجنب النظر نحو عروسه المنطرحة فوق المقعد . رفع الجثة من الأرض فأرقدها فوق الكنبة وغطى وجهها بخمار كان معقودا حول رقبتها . انتقل إلى فتاته متمتما :

ـ كيف حالك؟

فقالت بصوت ضعيف :

ـ سيقضون علينا قبل أن نقضى عليهم .

ـ من العسير أن يتخيل إنسان ماذا تكون خطوتهم التالية فهم لا يخضعون لمنطق .

ـ علينا أن نجد حلا سريعا .

ـ وأن نتوقع ما يخطر بالبال وما لا يخطر .

ـ لن يتركونا أحياء .

فقال محتدما بالغضب :

ـ إذا لم يكن من الموت بد!

فهمست :

ـ هذا جميل ، ولكننا نفضل ألا نموت .

ـ ولا أحد يريد أن يموت ، من رأيى أن تستريحى قليلا فى حجرة النوم .

ـ وأنت؟

ـ لا أكف عن التفكير ، وأردد فى نفسى بلا انقطاع : إذا لم يكن من الموت بد!

ـ هل يحاكمونك حقّا؟

ـ لن يتورعوا عن شىء .
ـ إنه الكابوس .
ـ وربما قتلونى كما قتلوا المرأة الطيبة .
ـ ترى أهى أمه حقًا؟
ـ لن يغير من الأمر شيئا .
فقالت بإصرار :
ـ يجب ألا نموت كالأغنام .
ـ حتى الموت ، يجب أن ندافع عن أنفسنا حتى الموت ، وأن ندخر لهم ضربة مذهلة إن أمكن .
ـ أريد أن أفعل شيئا ذا بال أكثر من مجرد انتظار نتيجة معركة .
ـ فكرى ، فكرى لحسابك ، نحن فى موقف لا يجوز لأحدنا فيه أن يدعى وصاية على آخر .
ـ أعترف لك بأننى أتغلب على الخوف بقوة لم تكن متوقعة .
ـ الموقف أكبر من الخوف .
ـ هذا حق .
ـ والحرص على الحياة خليق بأن يضيع الحياة .
ـ قول جميل .
ـ يجب أن تكون لنا القوة لتنفيذه ، هذه هى مشكلة الأقوال الجميلة .
ـ ألديك خطة جديدة ؟
ـ لا أكف عن التفكير .
ـ و أنا أيضا .
ـ المهم قوة العزيمة إذا وفقنا إلى خطة .
ـ مهما يكن من عواقبها . .
وهى تتنهد :
ـ كنت أحلم بشهر عسل بديع .
ـ انبذى الأحلام التى تضعف الهمم .
ـ طيب .
ـ استريحى قليلا فى حجرة النوم .

ـ أخشى أن يلاحظوا اختفائى إذا قدموا .

ـ إنهم سكارى وهم يقصدوننى أولا .

قامت . قبّلته . مضت إلى حجرة النوم .

ومضت فترة قصيرة ثم دخل الرجل وجوقته . لمعت أعينهم بوهج الخمر وشعت أساريرهم شرا .

وقفوا حيال الشاب على هيئة نصف دائرة مركزها الرجل الغليظ . أشار الرجل إلى الجثة وسأل :

ـ من قتل هذه المرأة؟

فأجابت الجوقة فى نفس واحد :

ـ أنت يا معلم!

ضحك وضحكوا . ثم سأل :

ـ بم تحكمون علىّ؟

فأجابوا :

ـ بالسلامة .

فضحك وضحكوا . ثم سأل :

ـ من الذى انتهك حرمة الجثة؟

فأشاروا إلى الشاب وقالوا :

ـ هذا المجرم .

ـ بم تحكمون عليه؟

ـ بالإعدام .

فرمى الشاب بنظرة وسأله :

ـ هل لديك ما تدافع به عن نفسك؟

فلم يجب . نقل بصره بين الجمع بسرعة وتحفز وانتباه . وتوثبت الجوقة للانقضاض لدى أول إشارة .

عند ذاك دوت صرخة فظيعة فى حجرة النوم ، اندفعت الفتاة إلى الحجرة وهى تصيح :

ـ رجل فى صوان الملابس!

وهتف كثيرون فى دهشة :

ـ رجل!

وظهر الرجل فى مدخل الحجرة. عملاق، عملاق ينطق وجهه البرنزى بالقوة والتحدى والاستهتار. تبادلوا نظرات ذاهلة، وغاضبة، وتأهبوا للعواقب.. لم يبد فى وجه القادم الجديد أى ارتباك ولا خوف. بل تساءل بصوت أجش:

ـ من أنتم؟.. وماذا جاء بكم إلى هنا؟

فسأله الشاب بدوره:

ـ من أنت؟ وماذا جاء بك إلى هنا؟

أجاب العملاق ببساطة:

ـ إنى فى بيتى!

ـ بيتك!.. لكنه بيتى، وتحت يدى ما يثبت ذلك.

ـ لا أحب الهذر، إنه بيتى وكفى.

فقال الرجل الغليظ بحقد:

ـ دجال، أنت لص منازل حقير، سأتذكر فورا متى رأيتك أول مرة..

ـ صه أيها البهلوان وإلا حطمت أضلعك!

ـ أنت تقول ذلك يا لص المنازل؟

ـ مصارع موالد زائف، المصارعة الحقيقية شىء آخر، إنى أعرفكم أيها المهرجون.

فقال له الشاب:

ـ هذا بيتى، وأنت لص كالآخرين.

ـ أنت تهذى.

ـ سيحكم بيننا القانون.

ـ سأقذف بك من النافذة، هذا هو القانون الذى أعترف به.

فسألته الفتاة:

ـ إذا كنت صاحب البيت كما تزعم فلم أخفيت نفسك فى صوان الملابس؟

ـ أنا حر فى بيتى، أرقد حيث يطيب لى.

ـ لا أحد يرقد فى صوان الملابس.

ـ إنه خلوتى المفضلة ولست مسئولا أمام أحد.

فقال الرجل الغليظ:

ـ أنت لص، لص منازل حقير، إنى أعرفك.

ـ اخرس أيها المهرج الحقير .

فقال الشاب :

ـ لندع الشرطة ولنترك لها الفصل فى الأمر .

فقال العملاق بوضوح :

ـ لا أحب الشرطة .

فقال الشاب غاضبا :

ـ فأنت لص كما قال هذا القاتل .

ـ القاتل؟! هل قتل أحدا هذا المهرج؟

ـ ها هى ذى جثة ضحيته!

فمد العملاق بصره إلى الجثة وقال بدهشة :

ـ أى تقدم أحرزته يا مهرج الموالد؟!

ـ هى أمه أيضا!

ـ قاتل أمه! . . هذا شرف لا تستحقه أيها المهرج، من أين جاءك هذا الشرف؟

فقال الرجل الغليظ بحنق :

ـ يا لص المنازل، احذر إثارة الزلازل!

فقال العملاق ساخرا :

ـ أهلا بالزلازل، هى دواء موصوف لصحتى!

فى أثناء ذلك مضت الفتاة تتسلل ناحية المطبخ . . خطوة فخطوة وعين الفتى تلحظها بقلق . وغطى على تحركاتها بتوجيه الخطاب إلى الجميع قائلا :

ـ ما أحوجنا إلى تحكيم نزيه، فهذا رجل يتوهم أنه قاض وهو فى الحقيقة قاتل، وذاك رجل آخر يزعم أنه صاحب البيت وتؤكدون أنه لص منازل حقير، وأنا أقول إننى صاحب البيت على حين يتهمنى هؤلاء بأننى قاتل المرأة الطيبة . فما المخرج من هذه الفوضى؟ لا مفر من أن نستدعى الشرطة!

فقال العملاق باستهانة :

ـ سيقذف بنا اقتراحك إلى قعر بئر عميقة .

ـ بل ليس أسهل من استدعاء الشرطة .

ـ ولكن المشاكل تبدأ بمجيئها، ستحرر لنا محضرا طويلا عريضا لا بداية له ولا نهاية، ثم تأمر بتحويلنا إلى النيابة، ويستمر التحقيق أياما وأسابيع، من القاتل؟ . . من اللص؟ . . من صاحب الشقة؟ ثم تأمر بتحويلنا إلى المحكمة،

ويتقاذفنا الاتهام والدفاع حتى نتفق، ونؤجل من جلسة إلى أخرى، ولن ينطق بالحكم حتى يكون أول إنسان قد هبط فوق سطح القمر، وفى أثناء ذلك تغلق الشقة وتختم بالشمع الأحمر فتصير نهبا للحشرات والأشباح، لا تنس هذه السلسلة المعقدة التى لا نهاية لها.

ـ ولكنها حاسمة وعادلة!

ـ أيسر من ذلك أن تنقض على خصمك فتحطم جدران بطنه بلكمة صادقة فيعترف لك بحقك، ثم تتصافحان ويذهب كلاكما إلى حال سبيله.

وتقدمت الراقصة خطوة وقالت:

ـ فيم تتناقشون والعقد محلولة بنفسها لا تحتاج إلى حلال؟

فقال العملاق ساخرا:

ـ لنستمع إلى الغازية!

ولكنها قالت بهدوء دون تأثر أو غضب:

ـ لا حاجة بنا إلى البحث عن القاتل فقد حُوكم وقُضى عليه بالإعدام!

فقال الزمار بحماس:

ـ وبإعدامه يبطل ادعاؤه ملكية الشقة.

وعادت الراقصة تواصل حديثها قائلة:

ـ وتصبح الشقة ملكا لنا جميعا على قدم المساواة!

فابتسم العملاق لأول مرة، ولكنه قال بعجرفة:

ـ لا أقبل المساواة!

فقال الرجل الغليظ بعجرفة مماثلة:

ـ وأنا أرفضها!

فقال العملاق:

ـ ليكن نصيب كل بحسب قوته.

فقال الرجل الغليظ:

ـ ليكن..

فقالت الراقصة:

ـ الخير بين أيدينا أكثر من أن يحصى!

أحاطت الجوقة بالرجل الغليظ تحاول إقناعه. وتنحت الراقصة بالعملاق جانبا

لتلطف من صلابته. أما الزوجة فقد رجعت خفية إلى موقف زوجها. وقفت لصقه وهى تدس شيئا فى جيبه. وراحا يراقبان الحشد الذى يتآمر على قتلهما ونهب بيتهما بغرابة. غير أن طارئا سرى فى الجو بخفة كالهمس، رائحة ما، وشىء كالزفير أو الهسيس. وتفشى فى دفقات كالفحيح مفجرا رائحة مميزة كالدخان. وانتشرت طقطقة مجنونة بسرعة غير متوقعة فاقتحمت على المتآمرين خلوتهم. جذبت منهم بعنف أعينا محملقة نحو ردهة المطبخ. وما لبثت أن غابت فى سحابات من دخان تسبح فيها عناقيد من الشرر، وتلاطمت صرخاتهم فى غضب:

ـ النار!

ـ حريقة فى المطبخ!

ـ الشقة فى خطر.

ـ كل شىء فى خطر.

ـ فلنطفئها بأى ثمن.

ودبت حركة وحشية. ولكنها لم تكن إلا صدى خفيفا لحركة رعدية أطبقت على الطريق فى الخارج. ارتفع الصياح. دق جرس الباب بلا انقطاع. انهال دق عنيف على الباب الخارجى. وهرع المتآمرون إلى ردهة المطبخ، غير أن العملاق مال نحو الشاب فجأة وهو يصيح:

ـ لن أتركك حرا.

انقض على الشاب. وإذا بالشاب يفاجئه بضربة من سكينة استلها من جيبه فاستقرت فى القلب، وتهاوى على أثرها العملاق دون أن ينبس، لم تغب الواقعة عن الرجل الغليظ فوثب على الشاب وهو يصيح:

ـ خيانة!

وفى الحال صرعه وبرك فوقه، ولكن الزوجة استلت بدورها سكينة مدسوسة فى جيب معطفها وبكل قوتها غرزتها فى عنق الرجل.

وتتابعت الأحداث فى سرعة البرق. تحطم الباب الخارجى. اندفع منه رجال متهورون. ورن جرس المطافئ. وصفارة النجدة. وارتطمت فى الشقة الجديدة قوى المقاومة بقوى الغدر فانخرطت فى معركة شاملة تحت ألسنة اللهب المندفع والماء المتدفق وقطع الأثاث المتناثرة.

* * *

وفى المساء نشر الهدوء ألويته فوق الحى جميعه. خلت الشقة من الغرباء ولم يبق بها قائم، إن هى إلا أشلاء مقاعد وحطام أجهزة ونفايات مفارش. جلس الزوجان على

أريكة تحت نجفة صغيرة لم ينج من مصابيحها إلا شمعة واحدة شعت ضوءا شاحبا. لم يخل وجهاهما ورأساهما من كدمات وتسلخات وأورام خفيفة. أما ملابسهما فقد تمزقت فى أكثر من موضع وتلوثت بالسناج. جعلا ينظران فيما حولهما بوجوم ويتبادلان النظر. وفجأة أغرقا فى ضحك هستيرى ركبهما طويلا حتى رجعا إلى الصمت والوجوم. ورغم كل شىء فإن القلب لم يخل من ارتياح خفى، وامتنان. وتردد صوته فى إعياء:

ـ ضاع كل شىء.

فربتت كتفه بحنان وقالت:

ـ نجونا بأعجوبة!

فهز رأسه فى تسليم وتمتم:

ـ أجل نجونا بأعجوبة.

ثم بنبرة وشت بنشوة طارئة:

ـ لم يضع شىء لا يمكن تعويضه.

العالم الآخر

رقصت الفتاة على عزف جوقة صغيرة فى القهوة الوحيدة بالدرب. جميع المقاعد خالية فى تلك الساعة من الأصيل عدا مقعدين أمام القهوة احتلت المعلمة أحدهما وجلس على الآخر تابع شاب لها. تبدى بلاط الدرب الضيق نظيفا لم تطأه قدم بعد. أما الشمس فتوارت وراء البيوت القديمة طارحة آخر دفقة من شعاعها على أسوار الأسطح المتآكلة. وعلى جانبى الدرب ـ أمام الأبواب المفتوحة ـ جلست نساء على كراسى خيزران فى أزياء متهتكة وزينة فاقعة، يدخن، ويتبادلن الأحاديث. قالت المعلمة لتابعها الشاب:

ـ حياتنا خنوع واستسلام ودفع إتاوات، حتى متى؟

فقال التابع، وهو متين البنيان فى العشرين من عمره:

ـ حتى تتهيأ الفرصة للقضاء عليه!

ـ متى تتهيأ الفرصة؟

ـ كل شىء بأوانه، وإلا دمرنا تدميرا لا يبقى ولا يذر.

ـ مهنة كالقطران، ادفع ادفع، للطبيب.. للشرطى.. للضابط.. وكله كوم

وشيخ البلطجية كوم وحده، هل قضى علينا أن نشقى بمهنة جزاؤها النار وبئس القرار لنبدد مكاسبنا على كل من هب ودب؟!

ـ لكل عمل متاعبه.

ـ ما أكثر الذين يفوزون باللقمة الهنية بلا قرف!

ـ الصبر طيب يا معلمة..

فبصقت المعلمة بازدراء وقالت:

ـ الليلة موسم، وعلينا أن نحقق أكبر ربح بالإضافة إلى نفقات الحكومة والبلطجية!

ـ ستكون ليلة مباركة..

ـ همتك، فتح عينك، خذ بالك من النسوان..

ـ اطمئنى يا معلمة، ولكن الرجل المرعب سيمر آخر الليل ليأخذ الإتاوة..

ثم وهو يشير ناحية الفتاة التى ترقص داخل القهوة:

ـ وليجر وراءه أجمل بنت عندنا!

فتنهدت المعلمة قائلة:

ـ حسبى الله، ولكن أمامها ليل طويل قبل ذلك تستطيع أن تحول ساعاته إلى ذهب!

وقام التابع فدخل القهوة. أشار إلى الجوقة فكفت عن العزف. أخذ الراقصة من ذراعها وانتحى بها جانبا بعيدا عن الأنظار. وفى تلك اللحظة ظهر فى مدخل الدرب شاب يافع يدل مظهره على أنه تلميذ أو طالب. ألقى على الدرب نظرة استغراب، ونقل عينيه بين النسوة فى دهشة واضحة. تردد مليا، استعدت كل امرأة لاستقباله بحركة ترحيب، لكنه ألقى ببصره فيما أمامه بلا فهم أو مبالاة وتقدم نحو القهوة. حيا المعلمة برفع يده إلى جبينه ثم سألها بأدب:

ـ أين صاحب القهوة؟

سألته بدورها وهى تتفحصه بإمعان:

ـ ماذا تريد منه؟

ـ أريده لأمر مهم.

فأشارت إلى نفسها وهى تقول:

ـ محسوبتك صاحبة القهوة.

تساءل بدهشة:

ـ حضرتك؟!

ـ حضرتى!

وضحكت ضحكة عالية ثم قالت :

ـ بشرى لنا ، السماء تمطر أدبا!

ـ لا مؤاخذة ، أرجو ألا أكون أخطأت .

ـ لا سمح الله ولكن خيل إلىّ بادئ الأمر أنك زبون نهارى!

ـ زبون نهارى؟!

ـ ما علينا ، ماذا تريد من صاحبة القهوة؟

فقال الشاب بجدية :

ـ يجب أن أقدم نفسى أولا ، أنا مندوب لجنة الطلبة .

ـ لجنة الطلبة؟

ـ اللجنة العامة للطلبة .

فتساءلت مازحة :

ـ ولم لَم تجئ معك باللجنة لتقضى سهرة الموسم عندنا؟

فقال بجدية مضاعفة :

ـ نحن مندوبى اللجنة انتشرنا فى أنحاء القطر للدعوة إلى قرار خطير!

ـ قرار خطير؟

ـ تعلمين حضرتك أن غدا هو الذكرى الأسيفة لمرور عام على إلغاء دستور الأمة؟

فقالت وهى ما زالت تتفحصه بذهول :

ـ حضرتى لم تعلم .

ـ دستور الأمة!

ـ دستور يا أسيادى .

ـ الموضوع لا يحتمل المزاح .

ـ أليس المزاح أفضل من الجد؟

ـ الموقف خطير والضحايا يتساقطون كل يوم بالعشرات!

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .

ـ والوطن يطالبنا . . .

فقاطعته :

ـ ما الذى جاء بك إلى هذا الدرب؟
ـ وقع شارع كلوت بك فى قرعتى، مررت على المحال والدكاكين والمقاهى فوجدت استجابة شاملة، سيغلقون الأبواب جميعا بلا استثناء غدا، وأنا عائد من مهمتى تنبهت إلى هذه العطفة التى لم ألحظها فى مرورى الأول . .
ـ ألم تدخلها من قبل؟
ـ كلا يا سيدتى.
ـ لم لَم توجه دعوتك إلى الفتيات الجالسات أمام الأبواب؟
ـ عَلى فكرة، لمَ يجلسن بهذه الصورة المنافية لتقاليدنا؟
ـ اجلس، اجلَس واشرب شيئا، أشهد الله أنك أظرف شاب قابلته فى حياتى!
ـ لا وقت عندى، أشكرك وأعتذر، على أن أمر على بقية المحال فى الدرب.
ـ لا يوجد فيها إلا قهوتى.
ـ حقّا؟ إذن فقد انتهت مهمتى، ولكنك لم تعدينى بشىء!
ـ أى وعد؟
ـ بخصوص الإضراب العام المزمع تنفيذه غدا.
ـ ماذا تريد؟
ـ أن تغلقى القهوة غدا.
ـ سبحان الله، لمَ؟
ـ احتجاجا علىَ إلغاء الدستور.
فضحكت المعلمة وقالت:
ـ عشنا وشفنا!
ـ الجميع استجاب لنداء الوطنية.
ـ عشنا وشفنا!
ـ لم يعترض أحد، حتى الخواجات!
فغمزت له بعينها وسألته متهكمة:
ـ أأنت وحيد مامتك؟
فقال وهو يدارى استياءه:
ـ لا وقت للمزاح، ولا للخروج على الإجماع.
فهتفت المعلمة بحدة لأول مرة:
ـ يا دافع البلاء يا رب، لا يكفينا رجال الحكومة والبلطجية حتى ينضم إليهم

مندوب الطلبة والدستور!

ـ الزعيم نفسه سيطوف بأنحاء القاهرة ليتفقد حال الإضراب بنفسه!

ـ الزعيم سيشرفنا هنا؟

ـ بشخصه!

ـ أهلا به وسهلا، سنفتح له الأبواب بالمجان!

ـ موقفك غير مفهوم يا هانم!

ـ هانم!

وأغرقت فى الضحك.

ـ موقفك غير مفهوم!

ـ أقسم برأس أمى أن الإنجليز سيخرجون من مصر قبل أن تفهم أنت أى شىء.

فقال الشاب بنبرة لم تخل من تهديد:

ـ أخشى أن يتعرض الخارجون عن الإجماع لغضب الشعب!

ـ نحن نخدم الشعب من قبل أن تولد لجنة الطلبة.

ـ حتى النساء سيشتركن فى مظاهرات الغد.

أجالت المعلمة عينيها بين النساء القابعات أمام البيوت وصاحت بهن:

ـ اهتفن معى.. يحيا الإضراب.

وهتف أكثر من صوت:

ـ يحيا الإضراب.

ثم ضج الدرب بالضحك. وإذا بالتابع يرجع على صوت الهتاف. ولما رأى الشاب ارتسمت الدهشة فى أساريره. وتنبه الشاب إليه فبادله دهشة بدهشة. هرول كل منهما نحو صاحبه وتعانقا بحرارة. وقال الشاب:

ـ لا أصدق عينى..

ـ ماذا جاء بك إلى هنا؟

وعند ذاك سألته المعلمة:

ـ تعرفه؟

ـ جار العمر، وزميل من أيام المدرسة..

فقالت ساخرة:

ـ بسلامته يطالبنا بالإضراب غدا احتجاجا على إلغاء الدستور!

فضحك التابع ضحكة عالية وقال :

ـ والله زمان ! . . فكرتنا بالذى مضى !

وجذبه من ذراعه فجلس وأجلسه على كرسى جنبه . وهنا قامت المعلمة وهى تقول للتابع :

ـ أنا ذاهبة ، فتح عينك . .

مضت خارج الدرب وقد وقفت النساء لها على الجانبين . التفت التابع نحو الشاب قائلا :

ـ متى رأيتك لآخر مرة؟

ـ منذ عامين، بل أكثر ، أين اختفيت كأنك هاجرت إلى الخارج؟

ـ وأنت . . ألا زلت غارقا فى السياسة؟ . . ولكن كيف تريد لهذا الدرب أن يضرب؟!

ـ إنه أعجب مكان رأيته فى حياتى . .

ـ أما زلت تذاكر وتنجح وتشترك فى المظاهرات؟

ـ وأنت! . . أين أنت؟ . . كم أوحشتنى!

ـ يُخيّل إلىّ أنك نسيتنى!

ـ أبدا ، حتى والدك نفسه واتتنى الجرأة مرة على أن أسأله عن مكانك . .

فضحك التابع وتساءل :

ـ وكيف أجابك؟

ـ نهرنى ، وحذرنى من العودة إلى ذكر اسمك على مسمعه!

ـ وكيف حال أسرتى؟

ـ بخير ، ولكن لم انقطعت عن زيارتهم؟

ـ أليس لديك فكرة عن حينا هذا؟

ـ ولا عن أى شىء سوى الكتب والدستور!

ـ باختفائك فقدنا أبهج صديق!

ـ لعلك الوحيد من العالم الآخر الذى كنت أحن إلى رؤيته . .

فنظر الشاب فيما حوله وقال :

ـ أوضح ما غمض علىّ أمره فى هذا الدرب .

ـ لكل شىء وقته ، لا تتعجل!

ـ أتقيم هنا؟

ـ نعم .

ـ أتعمل هنا؟

ـ نعم .

ـ وهؤلاء النسوة؟

ـ لطيفات وطوع الأمر!

ـ مظهرهن فاقع مبتذل .

ـ بدأت تفهم .

ـ حقًا!

ـ وتطالبهن بالإضراب؟!

وضحك عاليا . وهمّ الشاب بالكلام ، ولكن الموسيقى عزفت بالقهوة فعادت الفتاة إلى الرقص . وانجذبت عيناه إليها بقوة فتابع رقصها باهتمام وإعجاب . ثم شعر بعينى التابع تتجسسان عليه فابتسم مرتبكا بعض الشىء وتمتم :

ـ فتاة جميلة!

ـ حقّا؟

ـ من الطراز الذى يستهوينى!

ـ ترى ما نوع هذا الطراز؟

ـ يصعب تعريفه ، ولكنها ترقص فى قهوة خالية!

ـ مجرد تمرين فالسهرة لم تبدأ بعد .

وتوقف العزف والرقص . وسرعان ما جاءت الراقصة وجلست إلى جانب التابع . وحمل إليها صبى فنجال قهوة فراحت تحتسيه بتمهل وتلذذ لا مبرر له . حانت منها التفاتة إلى الشاب الجديد فضبطت عينيه الصافيتين وهما ترنوان إليها بإعجاب لا خفاء فيه . وفى الحال وهبته عينيها بسخاء أذله وأثمله فقال التابع وهو يتابع الحكاية باهتمام موجها خطابه للراقصة :

ـ صديقى معجب بك!

فقالت ببسالة :

ـ أرجو إبلاغه إعجابى أيضا!

فتساءل التابع ضاحكا :

ـ من أول نظرة؟

ـ نظرة كفاية وفوق الكفاية!

فقال الشاب فى تلعثم:

ـ لا شك فى أنى سعيد الحظ . .

فقالت الفتاة باسمة:

ـ ما أجمل أن أرى وجها يحمر خجلا!

فقال التابع للشاب بتحريض:

ـ أثبت رجولتك.

فغمغم الشاب بأصوات مبهمة حتى قالت الراقصة مازحة:

ـ تاتا . . تاتا . . خط العتبة!

فنهرها التابع قائلا:

ـ شجعيه ولا ترعبيه!

فأعطته الفنجال بعد أن فرغت منه وهى تقول:

ـ شف لى بختى . .

فقلب الفنجال فوق الطبق ثم مضى يقرأ ما بداخله، قال:

ـ أمامك ليلة موسم طويلة غنية الموارد . .

ـ وماذا أيضا يا سيدنا الشيخ؟

ـ فى نهايتها يطرق بابك شيطان ليخطف روحك.

ـ ألا ترى فى طريقه رجلا جديرا برجولته؟

فاكفهر وجه التابع وأعاد الفنجال إلى الطبق، ولكنها ربتت ذراعه ملاطفة، ثم سألته بنبرة جادة:

ـ ماذا أعددتم له؟

ـ ذهبت المعلمة لتجهز له الإتاوة . .

ـ متى يحضر؟

ـ قد يمر فى أى ساعة، لكننا لا ندرى متى ينزل بقهوتنا!

فقالت بحنق:

ـ سيأخذنى معه ولا يدرى أحد متى أعود!

ـ لا تحدثينى عن ذلك . .

فسألت الراقصة الشاب راجعة إلى الدعابة :

ـ وأنت . . ألن تدافع عن حبيبتك؟

فتساءل الشاب :

ـ عم تتحدثين؟

ولكن التابع بادره قائلا :

ـ إن كنت تحبها حقّا فهى لك!

ـ لى؟!

ـ النظرة والحب والتنفيذ تحدث فى دربنا فى ساعة واحدة!

ـ أفندم؟

وقبل أن يجيبه تراءت المعلمة فى أول الدرب. سارت بعجلة إلى داخل القهوة وهى تومئ إلى الراقصة فتبعتها فى الحال. تبادل الصديقان نظرة طويلة، ثم قال التابع :

ـ الظاهر أنك وقعت!

ـ ليس الأمر كما تتصور! إنها فتاة جذابة وفى عينيها نظرة بريئة!

ـ بريئة؟!

ـ ألك ثقة بفراستك؟

ـ قلبى لا يخطئ.

ـ هنيئا لك موهبتك، ولكن ألا ترغب فى شىء من الترفيه قبل أن تخوض جهاد الغد؟

ـ يبدو أنك لم تعد تهتم بالسياسة!

ـ خلنا فيما نحن فيه، ألا ترغب فى شىء من الترفيه؟

ـ ألم يعد يهزك حدث إلغاء الدستور؟

ـ انظر إلى دربنا العجيب، تأمله لتتذكره فيما بعد، فيه تسعد النفس بجميع محرمات العالم الآخر، مثل : الحب والحرية والاحترام!

ومال فوق أذنه و راح يهمس له وكأنما ينفث فى أساريره الذهول. وهتف الشاب :

ـ فوق العقل! . . ولكن ماذا تفعل هنا؟

ـ أقيم هنا كما قلت لك.

ـ ولكن . . .

ـ ألا ترى فى عينى نظرة بريئة؟

فضحك الشاب وقال :

ـ إنه مكان عبور لا مكان إقامة !

ـ لكل قاعدة استثناء كما قيل لنا فى المدرسة !

ـ من يتصور أنك ابن أبيك الرجل الطيب !

فبصق بازدراء وقال :

ـ اللعنة على الجميع !

وحل صمت فاتخذا منه هدنة للتفكير ، ثم قال التابع بنبرة خلت من المزاح أو السخرية لأول مرة .

ـ إنى أكره العالم الذى جئت منه ، هجرته بلا أسف عليه ، وإذا ذكرته فإنما أذكر عنف أبى وغباءه ، وسجن المدرسة الرهيب ، وهراوات الشرطة ، وما إن اهتديت إلى هذا المكان حتى أدركت أننى ولجت أبواب الجنة !

ـ الجنة؟ ! . . أى جنة؟ !

ـ هنا يتقرر مصيرك بقوة رأسك ، ويتحدد مركزك المالى بجرأتك ، وتقرر سعادتك بطاقة حيويتك ، لا زيف على الإطلاق ، اعتبرنى الآن رئيس وزراء يعترض طريقه رجل خطير فإذا تغلبت عليه يوما ما توجت ملكا !

فضحك الشاب قائلا :

ـ عاش الملك !

ـ ما الأمل الذى تشقى من أجله؟ وظيفة حقيرة فى حكومة حقيرة! ثم إنك عبد مضطهد ، الاضطهاد يطبق عليك فى بيتك ، ويطاردك فى الخارج ، وكل عام أو عامين يتصدى لك دكتاتور كالكلب الأرمنت يلتهم لحمك ويهشم عظامك . .

ـ أترى أن الحل أن أحمل متاعى وأقدم إلى هنا؟

فقال التابع معاودا سخريته :

ـ ذاك مطمح فوق قدرتك !

ـ ولكن . . .

ـ ولكن؟

ـ ولكن رب زيارة من آن لآخر تنفع ولا تضر !

ـ فى هذا ما يكفى فى الوقت الحاضر !

وغادرت المعلمة القهوة . هرع التابع إليها فقالت له :

ـ إنى ذاهبة مرة أخرى، سأوفق بإذن الله، انتبه، وإذا مر قبل أن أرجع فتصرف بحكمة، إياك والتهور وإلا هدمت الدرب فوق رءوسنا!

ذهبت المعلمة. عادت الراقصة إلى مجلسها. ومضت فترة قبل أن يسترجعوا جوهم السابق. وتساءلت الفتاة:

ـ هل قرأت البخت لصديقك؟

ـ نعم، فى طريقه بنت حلوة ورخيصة.

ـ هل تشبهنى هذه البنت؟

ـ لا أدرى، لم يبد فى الفنجال إلا جسمها العارى وحده!

ومالت الراقصة بغتة نحو الشاب فقبّلت خده. ضحك التابع وقال:

ـ قم.. لا تؤجل عمل اليوم إلى غد، فإن يوم الدستور غدا!

ونهض التابع ومضى إلى داخل القهوة وهو يقول:

ـ سآمر لكما بكأس كونياك على حسابك!

جعل الشاب يبادلها النظرات. رأى حلية فى عنقها فمد يده إليها وقربها من وجهه. ابتسم متسائلا:

ـ صورة من ؟

قطبت الفتاة مأخوذة، ولكنه قال دون أن يلاحظ شيئا:

ـ طفل جميل، من هو؟

تبدى التأثر فى وجه الفتاة حتى اغرورقت عيناها على رغمها.

ـ رباه.. مالك؟

أشاحت عنه بوجهها وهى توشك أن تنهار تحت موجة بكاء عاتية.

ـ آسف.. آسف لا تؤاخذينى!

وعاد التابع بالكأسين فوضعهما على الخوان متمتما: «عشرة قروش فقط ما أجمل عيونك!»، ثم تنبه إلى الفتاة فتساءل:

ـ تبكين؟!

شرح الشاب له ما غمض عليه بإشارة من يده إلى الحلية فاكفهر وجه التابع وهوى بكفه على خدها بوحشية غير متوقعة غير مبال بما تولى الشاب من ذعر وذهول. وهتف بها:

ـ تقيمين مأتما للزبائن فى ليلة الموسم!.. اشربى!

تناولت الفتاة الكأس فتجرعته دفعة واحدة وقدمت الآخر إلى الشاب، ولكنه تراجع قائلا بعصبية وحدة:

ـ كلا!

فقال له التابع:

ـ خذه معك إلى الحجرة!

ـ الحجرة؟!

ـ ستذهبان معا إلى ذلك البيت القريب.

ـ كلا!

ـ لا تتأثر كالأطفال، انس ما رأيت بسرعة، اذهب، لن تندم أبدا، البنت مدهشة، والبكاء ما هو إلا حيلة نسائية مشهورة..

وهرولت الفتاة إلى البيت وهى تقول بإغراء:

ـ اتبعنى، تاتا.. تاتا.. خط العتبة!

وقال له التابع:

ـ قم قبل أن يجىء الليل وتتقاطر أفواج الزبائن.

فقال بإصرار:

ـ كلا.

ـ كف!.. أنسيت الطراز الذى يستهويك؟

ـ لا رغبة على الإطلاق..

ـ لا تعقد الأمور.

ـ دعنى من فضلك.

ـ لقد سجل فى حسابها أول زبون فلا تتسبب لها فى ضرر.

ـ سأدفع ما تطلبه، ولكنى لن أذهب.

ـ عشرة قروش، هذا حسن، ولكنك لن تستطيع مواجهة الحياة بقلب كاللبن!

ـ ولكن.. أنت.. كيف هان عليك أن تلطمها بتلك القسوة؟.. أأنت ولى أمرها؟

ـ إنى ولى أمرها.. وأعمل لصالحها ولصالح الكل.

ـ أتعد بكاءها على وليدها جريمة؟

ـ لا وقت هنا للبكاء.. إنى الأمين على الصالح العام!

فضحك الشاب على رغمه وقال:

ـ إنك تذكرنى بفعل وكلمات الطاغية! لشد ما تغيرت!

ـ كف عن التفلسف والحق بها . .

ـ لشد ما تغيرت . .

ـ لا تقس فى الحكم علىّ، إن أى ضعف يعترينا هنا إنما يعنى هلاكنا!

ـ وماذا يضطرك إلى الإقامة هنا؟

ـ مهما يكن من أمره فهو أفضل من العالم الآخر . .

ـ ما هو إلا مزاح!

ـ حقّا! . . أنسيت؟ . . أليس الطاغية يحكمكم؟ والشرطة تجلدكم؟ والجيش يحصدكم؟ والإنجليز يتربعون فوق رءوسكم؟ لا أحد يحكمنى هنا، وأنا لا أستعمل القوة إلا دفاعا عن الصالح العام . .

فقال الشاب وهو يلوح بيده فى أسى :

ـ وجئت بغبائى لأطالبكم بالإضراب غدا؟

ـ دستورنا هنا لم يلغ ولا يمكن أن يلغى، إنه دستور أبدى، وهو يقضى بأن نعمل لا أن نضرب، أن نعمل لا أن نبكى موتانا، ووراء هذه الجدران المتداعية نقدم لأمثالك السعادة التى يحلمون بها .

فقال الشاب كالحالم :

ـ واأسفاه . . لِمَ أعجز عن تحقيق ما أريد؟

ـ ماذا تريد؟

ولما لم ينبس عاد يسأله :

ـ ماذا تريد؟

فأجاب بصوت حالم أيضا :

ـ أشياء كثيرة، ما يهمنى منها الآن أن أرجع تلك الفتاة إلى العالم الآخر!

فضحك التابع وقال :

ـ لقد كانت هنالك ولم تجد مناصا من هجره والمجىء إلى هنا . .

ـ من الممكن أن تتوافر لها حياة مستقرة هنالك . .

ـ صدقنى لقد لاذت بنا كما يلوذ الغريق بصخرة!

وفجأة ظهر قزم وهو يصفر ثم صاح : «إبليس» . وفى الحال انفجرت فى الدرب حركة شاملة . هرعت النساء إلى داخل البيوت وأغلقن الأبواب . قبض التابع على ذراع الشاب واندفع به إلى داخل القهوة وأغلق بابها . فى ثوان خلا الدرب تماما وشمله

الموت. ومرت دقيقتان ثم ظهر الفتوة وسط عصابة مدججة بالنبابيت. ألقوا على المكان الخالى نظرة استعلاء وساروا على مهل فى خيلاء. ساروا يرجون الأرض بوقع أقدامهم الثقيلة وارتطام نبابيتهم بالبلاط. مضى الزحف وئيدا حتى اختفوا وراء المنعطف ومرت دقائق والدرب مستسلم للموت. حتى ظهر القزم مرة أخرى وصاح «أمان».

ورويدا رويدا أخذت الأبواب تفتح والحركة تدب واللغط يعلو، كما عاد التابع والشاب إلى مجلسهما حول الخوان. وقال التابع بهدوء:

ـ مناورة، ما هى إلا مناورة، وعندما سيعود سيجد الإتاوة جاهزة!

وانتابت الشاب نوبة ضحك هستيرية:

ـ ماذا يضحكك؟!

ـ فكرت أن لو حصل الإضراب غدا بهذه الصورة فسيكون أكبر مظاهرة وطنية..

ـ إنه يناور ونحن نناور!

ـ إنه الخوف يا صديقى.

ـ لا تحكم بالظاهر.

ـ لستم أفضل حالا منا!

ـ قياس مع الفارق، ثق بأننى سأضربه ذات يوم!

ـ وتصبح عند ذاك الطاغية!

ـ لقد نالها عن جدارة وسأنالها عن جدارة. أما فى العالم الآخر فالطاغية يطغى استنادا إلى قوة أسياده.

ـ أأنت راض عن نفسك حقّا؟

ـ ثمة أمل دائما لا يغيب!

ـ يا للخسارة، لقد كنت تلميذا ذكيا ولكنك كنت عدو الاجتهاد!

ـ الحمد لله، فلو كنت مجتهدا لمضيت فى طريقك حتى أدفن فى إدارة من إدارات الحكومة!

وهنا عادت الراقصة إلى مجلسها وهى تقول مخاطبة الشاب:

ـ خيبت ظنى!

فقال لها التابع بخشونة:

ـ الفضل لدموعك الحارة.

فقال الشاب برجاء:

ـ لا تعد إلى ذلك.

فقال لها التابع :

ـ استعدى للرقص . .

فقالت بإشفاق :

ـ إنى متعبة !

فضحك ضحكة عالية وقال :

ـ متعبة فى ليلة الموسم !

ـ إلىّ بكأس كونياك . .

ـ اطلبيه من عاشقك !

وأدرك الشاب المقصود فقال :

ـ هات لها كأسا !

ذهب التابع . نظر الشاب إليها باهتمام ورثاء وقال :

ـ ثمة شىء فى عينيك ، أنت متعبة حقّا . .

ـ أعراض عابرة سرعان ما تزول .

ـ يُخيّل إلىّ أن هذا الدرب ليس بالمكان المناسب لك !

فقالت بسخرية :

ـ ربما ، لعل المكان الأنسب هو السجن أو القبر .

ـ أعوذ بالله !

ـ أليس الأفضل أن نذهب إلى الداخل لنغير المكان والحديث ؟

فتردد الشاب قليلا ثم قال :

ـ فى وقت آخر . . ولكن . . أنت متعبة حقّا .

ـ حقّا ؟ !

ووقفت فجأة كأنما تنتزع نفسها من كابوس . وخبت نظرة عينيها . وأخذت تتنفس بعمق وبجهد كأنما تحشر الهواء فى قناة مسدودة . وقف منزعجا واقترب منها خطوة ، ولكنها أشارت إليه أن يبتعد . خاضت معركة مجهولة وحدها بلا نصير وبلا استجداء . ثم انقشعت السحابة السوداء فاستردت العين نظرتها المألوفة . تنهدت . ابتسمت فى استسلام . ثم انحطت فوق مقعدها . غمغمت :

ـ لا شىء .

ـ ولكنك . . .

ـ انتهى .

ـ أأنت بخير؟

ـ نعم، اجلس . .

جلس وهو لا يحوّل عنها عينيه .

ـ أعتقد أنه يلزمك راحة طويلة .

ـ تلزمنى راحة أطول مما تتصور !

ـ وهل تستطيعين أن ترقصى؟

ـ أستطيع ، لا أستطيع ، سيان !

وشحب لونها من جديد . وخبت نظرتها .

ـ أنت متعبة يا عزيزتى !

ـ حقًا ! وماذا بعد؟ الطريق طويل .

ـ دعى الأمر لى .

ـ طريق طويل ، أطول مما تتصور .

ـ حالتك تزداد سوءا .

ورجع التابع يحمل كأسين فى يديه ويدندن ، وقال وهو يلقى عليهما نظرة باسمة :

ـ كعروسين فى شهر العسل .

فقال له الشاب :

ـ إنها ليست على ما يرام .

فقطب متسائلا وهو يحدجها بنظرة ارتياب :

ـ عادت للبكاء؟

ولكنه قرأ فى صفحة وجهها شيئا جديدا . قدم لها كأسا ولكنها أطاحت به ضجرة فوقع على البلاط وتحطم مختلطا بسائله . وتأوهت بعمق طارحة رأسها على مسند الكرسى . وصادف ذلك قدوم المعلمة فنظرت إليها عابسة وتساءلت :

ـ مالها؟

فقال التابع وهو لا يحوّل عن الراقصة عينيه :

ـ أزمة كالعادة !

ـ هل تعاطت شيئا؟

أغمضت الراقصة عينيها متدهورة تماما ، فهتفت المعلمة بالتابع :

ـ أدركنا بكوب ماء بالملح . . أسرع .

وقال الشاب للمعلمة :

ـ يجب استدعاء طبيب !

فصاحت المعلمة بحنق :

ـ انتهينا من الدستور وسندخل فى الطب .

ورجع التابع بالكوب ، ولكن الراقصة تقلصت بحركة عنيفة ثم تهاوت ساقطة على الأرض .

أسرع الشاب إليها ولكن التابع كان أسرع منه . عكف عليها يربت وجهها ويدلك خديها وصدرها . قرّب وجهه من فيها . جس نبضها . رفع وجها جامدا ذاهلا ، منهزما لأول مرة وتمتم :

ـ ماتت !

ـ ماتت !

فندت عن المعلمة صيحة خافتة يائسة وقالت :

ـ أنت أعمى . .

فأعاد الكرة ، ثم قال ببرود :

ـ ماتت يا معلمة !

ـ يا خبر أسود !

وهتف الشاب :

ـ خطأ ، يجب استدعاء الإسعاف .

فقال التابع بوحشية :

ـ اصمت ، لقد ماتت .

فهتفت المعلمة :

ـ فى ليلة الموسم ! . . يا له من حظ أسود من الليل !

وقال الشاب بعناد :

ـ إنها حية !

فصاحت المعلمة فى وجهه :

ـ ألا تفهم يا طلعة الشؤم !

ـ ولكن كيف ؟

ـ إنك تخاطبنى كما لو كنت قابضة الأرواح .

ثم التفتت إلى التابع وسألته :

ـ هل تعاطت شيئا؟

ـ كلا . .

ـ هو قلبها إذن؟

ـ أعتقد ذلك .

ـ لو يكن بسبب تعاطى شيء فسنقع فى س و ج .

ـ كلا ، ولكن ما العمل الآن؟

فقالت المعلمة :

ـ فلنحملها إلى حجرتها أولا .

وتعاون الثلاثة على حملها ومضوا بها إلى البيت .

وتساءلت امرأة :

ـ مالها يا معلمة؟

فأجابت المرأة بلا تردد :

ـ مسطولة!

ودخل الموكب البيت بين ضحكات تتجاوب على الجانبين . وما لبث الأصيل أن ولى تماما ومضى الظلام يهبط ماحيا كل شيء . أشعلت الأنوار . بدأ الرواد يحضرون فرادى وجماعات . عزفت الجوقة ودبت فى الأركان حياة صاخبة معربدة . ورجعت المعلمة وتابعها والشاب فجلسوا حول الخوان المعدنى فى وجوم بادئ الأمر ، ولكن المعلمة سرعان ما قالت :

ـ ابسطوا وجوهكم كما يجدر بأناس يستقبلون موسما .

ثم بنبرة متشددة منذرة :

ـ لا يجوز بحال أن يفطن أحد إلى سر الحجرة المغلقة . . وإذا سأل سائل عنها فهى مشغولة بزبون!

وتنهدت بحنق وواصلت حديثها :

ـ لو عرف أن الموت قابع بالبيت لما طرقه طارق حتى القيامة!

فقال الشاب غاضبا :

ـ ولكنه تصرف أبعد ما يكون عن الإنسانية . .

فقالت المعلمة مخاطبة التابع ودون مبالاة باحتجاج الشاب :

ـ تكفل بصديقك ، أنت مسئول عنه ، ولا جدوى من تصرف إنسانى يقضى علينا بالخراب العاجل ، سيجىء دورنا يوما ما ولن تبكينا عين ، سنشيع باللعنات حتى من زبائننا ، الليلة موسم فلتمض بالبهجة والحبور !

فقال التابع :

ـ لا تخشى من جانب صديقى .

فقال الشاب :

ـ ولكنه وضع لا يقبله عقل .

فقالت المعلمة :

ـ لم يحدث شىء غير طبيعى ، وليس فى قدرتنا أن نرد الأرواح إلى أجسادها .

ـ ولكن شتان بين القسوة والرحمة !

فقال التابع :

ـ ليس إلا أننا نؤجل إعلان وفاة !

ـ ولكن للموت احترامه !

فهتفت المعلمة بنفاد صبر :

ـ احترام الموت بعد الدستور والطب !

فقال التابع معتذرا عن صديقه :

ـ لعله يلتقى بالموت لأول مرة فى حياته .

فقالت المعلمة للشاب :

ـ لا تطالبنا بالتفريط فى الحياة باسم احترام الموت ، ابق لصق صديقك حتى تنتهى السهرة ، واحتفل بالموت بعد ذلك ما شاءت لك إنسانيتك !

فقال التابع :

ـ دعى الأمر لى يا معلمة !

ـ ربنا يستر .

ـ جهزت الإتاوة؟

ـ نعم . .

ـ وإذا طالب بالراقصة؟

ـ لن يطالب قبل نهاية السهرة ، وله إن شاء أن يقاتل عزرائيل عند ذاك . .

وقامت وهى تبسط وجهها فمضت إلى القهوة هاتفة :

ـ يا جمال الرقص يا جماله !

ورمق الشاب التابع بمرارة ، ثم قال :

ـ لشد ما تغيرت !

فقال التابع بوجوم :

ـ لا تبالغ يا عزيزى . .

ـ جثة ملقاة فى الداخل والعربدة دائرة فى الخارج !

ـ لا مفر ، للعمل ساعة وللموت ساعة .

ـ إنى حزين ، بودى أن أفعل شيئا .

ـ حسن ، أعد إليها الحياة .

ـ يا لكم من وحوش !

ـ أتذكر كيف كان يلقى بضحايا المظاهرات فى القبور بملابسهم حتى لا يشملهم الإحصاء الرسمى ؟ !

ـ إلى الجحيم بكل شرير وبكل شر !

ـ ما زالت دنيانا أفضل .

فقال الشاب بضيق :

ـ عن إذنك ، أريد أن أذهب .

ـ كلا .

ـ كلا ؟

ـ المعلمة لا تسمح بذلك .

ـ لتذهب المعلمة إلى الشيطان !

ـ لقد وجدت نفسك فى دربنا فلتتم التجربة !

ـ بى غثيان منه .

ـ خذ الأمر ببساطة ولو من أجل خاطرى !

وساد الصمت بينهما ، ولكن صخب العربدة انهال عليهما من الأركان كالصواريخ ، ورغم الزياط سمع صوت الشاب وهو يتمتم :

ـ يا لها من شابة تعيسة !

فقال التابع ملاطفا :

ـ كانت مريضة بالقلب .

ـ لم تنعم بحياة هادئة تناسبها .

ـ ذلك أنه لم يكن من الجائز أن تموت جوعا .

فقال الشاب منفعلا :

ـ إنى أحتقر برودك .

فقال ضاحكا :

ـ إنى أحتقر حرارتك !

ـ دعنى أذهب .

ـ غير ممكن ، إنها تخشى أن تبلغ عن الجثة .

ـ أيعنى ذلك أننى سجين ؟ !

ـ أنت ضيف صديقك القديم .

ـ يجب أن أستيقظ مبكرا ، أمامنا يوم جهاد عصيب !

ـ يسرنى أن أنقذك من الرصاص الذى يعد الآن لأمثالك .

ـ أنا لا أخشى الموت .

ـ ولكنك تحترمه أكثر مما ينبغى .

رفع رأسه إلى نافذة الحجرة الرهيبة ، وقال :

ـ جثة منسية ، بلا أهل ولا أصدقاء ولا رحماء .

ـ لم تعد بحاجة إلى أحد .

وظهر القزم وهو يصيح «إبليس» . خرجت المعلمة فجلست بين الشاب والتابع . سرعان ما سد موكب الفتوة مدخل الدرب . ولما وصل إلى القهوة قامت المعلمة وتابعها لاستقباله . قالت بأدب لأول مرة :

ـ تحية لسيد الرجال .

ـ موسم طيب بإذن الله .

وضعت صرة فى يده وهى تقول :

ـ بفضل الله وبفضلك . .

ـ وأين البنت ؟

ـ مع زبون !

ـ أرسلى فى طلبها .

ـ ستكون بين يديك فى نهاية الليلة .

ـ سأنتظر فى القهوة ساعة واحدة . .

ـ ولكن . .

ـ ساعة بالتمام والكمال !

ـ أنت سيد من يفهم ويقدر .

ـ بالتمام والكمال وإلا فليهنأ عزرائيل بوليمة فاخرة !

ودخل القهوة متبوعا برجاله .

نظرت المعلمة فى حيرة إلى التابع ، وسألته :

ـ ما العمل ؟

ـ ما من قوة فى الأرض تستطيع أن تأتى بها إليه كما يريد .

ـ ماذا تتوقع ؟

ـ أنفضى إليه بالحقيقة ؟

ـ هذا يعنى خرابنا .

ـ أخشى أن يعرف الحقيقة رغم إرادتنا .

فقالت بغضب :

ـ أفضل أن يدهمنى القضاء على أن أسير إليه بقدمى .

ثم قامت وهى تقول :

ـ سأجلس معه وليعنى الله على إقناعه !

ومضت إلى داخل القهوة . مد الشاب جذعه يتابعها حتى استقرت إلى جانب الفتوة . ثم تراجع إلى جلسته وهو يسأل التابع :

ـ ما معنى ذلك ؟

ـ ليس عندى ما أضيفه إلى ما سمعت .

ـ ماذا تتوقع أن يحدث فى ختام الساعة ؟

ـ سيقتحم البيت محطما من يعترضه .

ـ ولكنه لن يجد سوى جثة .

ـ وعند ذاك يتقرر خراب البيت .

ـ وما دورك أنت فى ذلك كله ؟

ـ لا أستطيع أن أدعه يمر دون مقاومة !

ـ أتفكر فى اعتراض سبيله؟

ـ هذا هو عملى .

ـ عملك؟

ـ أنا حامى منطقة المعلمة!

ـ ولكنه . . ولكنه سيقضى عليك .

ـ ربما!

ـ إنه مؤكد فلا تخاطر بحياتك .

ـ هو عملى كما قلت لك .

ـ تجاهله .

ـ أفقد عملى وكرامتى .

ـ يمكن أن تتسلل بطريقة ما إلى الشرطة!

فقال ضاحكا :

ـ أفقد كرامتى مرتين!

ـ لا أفهمك .

ـ هى تقاليد عملى .

ـ إنه الجنون عينه .

فابتسم التابع قائلا :

ـ ممكن أن يقال مثل ذلك عن زعيمك .

ـ أخشى أن تذهب ضحية الغرور ، دعنى أتسلل أنا . .

ـ أرفض اقتراحك .

ـ أنت مهدد بفقد حياتك .

ـ محتمل!

وساد الصمت . نظر الشاب فى ساعة يده فتزايد قلقه . هرب من مخاوفه إلى أمواج الرواد التى لا تنقطع . يعربدون ولا فكرة لأحدهم عما يتأزم فى المقهى ولا عما يقبع فى البيت . والتفت نحو صديقه قائلا :

ـ الوقت يمر أسرع مما تتصور .

ـ ليس أسرع مما أتصور .

ـ قد تكون آخر ساعة فى حياتك .

ـ قول يصدق على أى مخلوق!

ـ لن تكون معركة عادلة.

ـ لا توجد معركة عادلة!

ـ يا له من انتظار!

ـ يا له من انتظار!

ـ ويا لها من نهاية!

ـ ويا لها من نهاية!

ـ بودى أن أصعد إلى حجرة الفتاة.

ـ لم؟

ـ لأجس نبضها من جديد!

ـ إنى أتوثب لمواجهة القضاء وأنت تحلم بالخرافات.

ـ سمعنا عن جثث دبت فيها الحياة بعد دفنها؟

ـ إذا قامت القيامة فابتعد عن ميدان المعركة..

ـ كنت أعتقد أن الغد هو يوم الخطر.

ـ حافظ على حياتك حتى الغد!

ـ يا له من يوم عجيب!

ـ أرجو أن تكون قد تعلمت أشياء مفيدة.

ـ كيف تنتظر الموت بهذا الهدوء كله؟

ابتسم التابع ابتسامة غامضة وقال:

ـ عندما ماتت الفتاة حل بى تشاؤم غريب..

ـ لم يبد عليك شىء قط.

ـ لا يجوز فى عملى أن يبدو على الوجه شىء!

ـ يُخيِّل إلىّ أنك تتكلم بحزن لأول مرة؟

صمت التابع مليا، ثم قال بنبرة اعتراف:

ـ كانت حبيبتى الوحيدة فى هذه الدنيا!

ـ من؟

ـ الميتة!

فغر الشاب فاه من ذهوله فاستطرد الآخر:

ـ عشرة ليست بالقصيرة، وبها أصلت نجاحى فى هذا الدرب .

ظل الشاب يرمقه بذهول، أما هو فقال :

ـ والحق قد ماتت بموتها أشياء لا تعد ولا تعوض .

ونهض وهو يهمس :

ـ ما علينا . .

وأشار إلى المعلمة إشارة خفية فجاءته بوجه كالح . سألها :

ـ هل لان جانبه؟

فقالت بيأس :

ـ أصلب من الصخر .

ـ لم تبق إلا دقائق معدودات . .

والتفت نحو صديقه وقال :

ـ ابتعد دون تردد .

ومضى نحو القهوة فى هدوء وثبات . وجعل يقترب من الفتوة باسما حتى وقف بين يديه . وبغتة استل من صدره خنجرا ودفنه فى قلب الوحش . انتتر الفتوة قائما جاحظ العينين . ترنح جسمه الضخم ودار حول نفسه ثم تهاوى كجدار تهدم . وفى الحال أفاق الوحوش من ذهولهم . زلزلت القهوة بحركة جائحة . انتصبت أجسام، استلت خناجر، ارتفعت نبابيت، تطايرت شتائم، اهتزت جدران، تحطمت مصابيح، هرولت أقدام، اختفى كل شىء فى ظلام حالك، صرخت صفارة الشرطى . ومضى وقت غير قصير فى الظلام . . ولما أشعلت المصابيح من جديد تبدى الدرب فى منظر مختلف . عند مدخل القهوة انطرحت ثلاث جثث للفتوة والتابع والراقصة! خلا الدرب من جميع الرواد عدا نفر قليل دهمتهم المعركة فاندسوا تحت الأرائك ثم أخذوا يخرجون من مخابئهم بوجوه شاحبة، على رأسهم الشاب . وطوق المكان قوة من الشرطة والمخبرين بقيادة ضابط مباحث . وانتحت جانبا المعلمة والنسوة بأبصار زائغة . أما رجال العصابة فلم يظهر لهم أثر .

تحوّل الضابط إلى المعلمة وسألها :

ـ ما معلوماتك عن الواقعة؟

فأشارت إلى جثة الفتوة وقالت :

ـ جاء على رأس عصابة فهاجم الدرب بلا رحمة . .

ـ ماذا رأيت من المعركة؟

ـ إنى امرأة ضعيفة، هربت فلم أر شيئا!

أومأ الضابط إلى جثة التابع وسألها:

ـ من هذا؟

ـ مدير المقهى، قُتل ولا شك وهو يدافع عن نفسه.

ـ وهذه الفتاة؟

ـ كانت ترقص فى المقهى عندما نشبت المعركة!

ـ لا يظهر بها أثر لاعتداء؟

ـ كانت مريضة بالقلب فربما قتلها الخوف..

عند ذاك خاطب الضابط الجميع قائلا:

ـ لا يبرحن أحد مكانه حتى يدلى بأقواله.

وإذا بمخبر يتجه نحو الشاب فيقبض على ذراعه ويشده إلى موقف الضابط، ثم قال:

ـ إنى أتذكر هذا الشاب يا حضرة الضابط..

فتساءل الضابط متهكما:

ـ أهو من رجال العصابة؟

ـ هو الذى اعتدى على حضرة المأمور فى مظاهرات العنابر، ثم نجح يومها فى الهرب.

رماه الضابط بنظرة قاسية، ثم قال:

ـ ما شاء الله!.. تشعلون الفتنة فى البلد وتهرولون إلى المواخير!

فنجان شاى

دق جرس المنبه. تقلب الرجل فى فراشه. تثاءب بصوت مرتفع كالتوجع. أزاح الغطاء وجلس. تزحزح إلى الوراء حتى استند إلى ظهر السرير. تثاءب مرة أخرى. مد يده إلى زر جرس معلق فوق الفراش فضغطه. جاءت امرأة حاملة صينية عليها إبريق شاى وجريدة الصباح فوضعتها على ترابيزة لصق السرير. ملأ القدح بنفسه وتناول الجريدة. لاحظ أن المرأة لم تبرح مكانها فحدجها بعين متسائلة، فقالت:

ـ الأولاد...

ولكنه قاطعها بحدة:

ـ يا فتاح يا عليم، صبرك حتى أغادر الفراش . .

وترددت المرأة فعاد يقول :

ـ هذا وقت الشاى والجريدة فلا تفسدى علىّ أطيب أوقات اليوم .

تنهدت المرأة وغادرت الحجرة وهو يتابعها بعينيه حتى أغلقت الباب وراءها . رشف من الفنجان رشفة ثم عكف على القراءة .

* * *

تحركت ستارة مسدلة فوق نافذة . خرج من ورائها رجل مرتديا بدلة سوداء . تقدم بخطوات متمهلة حتى وقف فى وسط الحجرة . نظر فيما حوله ، ثم قال بلهجة خطابية :

ـ الحمد لله . .

فتمتم رجل الفراش ورأسه لا يتحول عن الجريدة :

ـ الذى لا يحمد على مكروه سواه .

ـ لو قلت إن كل شىء حسن فربما وقع القول من الآذان موقع الغرابة .

فتمتم رجل الفراش :

ـ ربما .

ـ وقد يتوهم البعض أننا لا نتحرك .

ـ قد .

تضايق ذو البدلة السوداء من تمتمات الآخر فمضى إلى الفراش وراح ينقر على رأسه محذرا ثم رجع إلى موقفه . انكمش رجل الفراش ، ولكنه لم يتحول عن الجريدة وواصل قراءته الصامتة فى هدوء . وقال ذو البدلة السوداء :

ـ نظرة عادلة إلى الوراء كفيلة بإبراز المدى الذى قطعناه .

فهز رجل الفراش رأسه دون أن ينبس .

ـ فى كل شىء بغير استثناء .

فهز رجل الفراش رأسه مرة أخرى دون أن ينبس .

ـ ليعلم ذلك عدونا الخارجى ، وليعلمه عدونا الداخلى .

ونظر ذو البدلة السوداء صوب رجل الفراش مستطلعا فتمتم هذا دون أن يتحول عن جريدته :

ـ كلام طيب .

عند ذاك أخلى ذو البدلة السوداء مكانه فاتخذ موقعا جديدا فى ناحية الحجرة المقابلة للفراش ووقف صامتا كتمثال .

تحركت الستارة مرة ثانية فبرزت من ورائها فتاة جميلة فى لباس البحر . تقدمت مزهوة بجمالها الفتان حتى وقفت فى وسط الحجرة . وجعلت ترسم فى الهواء حركات سباحة كشفت بعمق أكثر عن مفاتنها ، ثم قالت بصوت عذب :

ـ سأظهر هكذا فى دور جديد تماما فى الفيلم الجديد «الأبواب الخلفية» .

فقال رجل الفراش :

ـ يسعدنى أن أراك هكذا فى أى دور !

ـ ولكنه دور عجيب يجمع بين المرح والمأساة .

فقاطعها بحماس وهو لا يرفع رأسه عن الجريدة :

ـ المهم هو أنت !

ـ يقتلك بالضحك ويثقفك بالهدف !

ـ لا قيمة لشىء سوى قامتك السحرية .

ـ فهو فيلم ترفيهى وهادف معا .

ـ ماذا؟ سمعى ثقيل ، هلا حدثتنى فى أذنى؟

دنت الفتاة من الفراش ومالت نحوه فطوق وسطها بذراعه وجذبها نحوه حتى التصقت به .

ـ قلت إنه فيلم ترفيهى وهادف معا .

ـ ماذا؟ قربى أكثر وأكثر .

فصاح ذو البدلة السوداء بصوت راعد :

ـ فيلم ترفيهى وهادف معا ، أسمعت ؟ !

سحب ذراعه بسرعة . وواصل انكبابه على الجريدة . رجعت الممثلة وسط الحجرة . دارت حول نفسها فى حركة استعراضية ، ثم مضت ناحية البدلة السوداء واتخذت موقفا .

وقال ذو البدلة السوداء :

ـ الفنانة تريد أن توقظ ذوقك ، ولكنك تأبى إلا أن تراها بشهوتك .

ـ رأيت جسدا جميلا عاريا .

ـ أتريد أن نقدم لك الحكمة فى برميل؟

ـ ما أكثر الأشياء التى تعذب الإنسان !

ـ سنعرض عليك أجسادا عارية .

ـ شكرا!

ـ والويل لك إذا عابثتك شهوة من شهوات الجسد.

وجم الرجل فوق جريدته فسأله الآخر بحدة:

ـ ماذا قلت؟

ـ الويل لى.

* * *

انزاحت الستارة بعنف. دوت فى الجو طلقات رصاص وانفجار قنابل وأزيز طيارات. خرج من وراء الستارة جندى أمريكى وفيتنامى وهما يتبادلان إطلاق النار. تساقطت فوارغ الرصاص فوق الرجل فى فراشه فاضطرب فى مجلسه، ولكنه لم يرفع رأسه عن الجريدة. رشف رشفة فى عصبية واستمر فى القراءة. وصاح الجندى الأمريكى:

ـ أيها الشيوعى المنحط.

فصاح به الفيتنامى:

ـ أيها الإمبريالى المتوحش.

ـ ماذا جاء بك من الشمال؟

ـ ماذا جاء بك أنت من وراء المحيط؟

ـ الأرض كلها أمريكية.. وغدا سيكون القمر أمريكيا.

فقال الفيتنامى وهو يطلق النار:

ـ وستكون المقابر أمريكية، سأقتلك ثم أقطف وردا وأرقص.

وكثر تساقط فوارغ الرصاص فوق رجل الفراش، فقال متذمرا:

ـ ابتعد.

فصاح الأمريكى بالفيتنامى:

ـ انظر كم أنك مزعج للناس.

فصاح به الفيتنامى:

ـ إنه يوجه الخطاب لك أنت.

ـ ما كان ليجرؤ أن يخاطبنى بتلك اللهجة.

ـ إنى أطلق النار عليك. أما أنت فتطلق النار فى جميع الجهات.

وعاد رجل الفراش يقول متأوها:

ـ اللعنة على كل معتد أثيم!

فصاح الأمريكى فى وجه الفيتنامى :

ـ أرأيت أنه يقصدك أنت؟!

ـ يالجنون العظمة!

وظلا يتبادلان إطلاق النار حتى فرغت ذخيرتهما فمضيا غير بعيدين من الممثلة ووقفا جامدين . وقال رجل الفراش وهو مكب على الجريدة :

ـ هذا الرجل جدير بكل إعجاب .

فقال ذو البدلة السوداء :

ـ بكل تأكيد .

وقالت الممثلة :

ـ أرأيت كيف أنه يقطف الورد ويرقص فى حومة القتال؟!

فقال رجل الفراش بصوت منخفض :

ـ سمعى ثقيل ، هلا اقتربت لأسمعك؟

ولكن ذا البدلة السوداء ضرب الأرض بقدمه فساد الصمت .

* * *

تحركت الستارة للمرة الرابعة فخرجت من ورائها امرأة متوسطة العمر تحمل بين ذراعيها ستة من المواليد فوقفت فى وسط الحجرة وقالت :

ـ أنا امرأة من كوبا ، ولدت ستة توائم وجميعها فى صحة جيدة!

فقالت الممثلة :

ـ هيهات أن تصلحى بعد ذلك لحياة الأضواء .

ـ ولكنى معجزة من معجزات الحياة!

فقال الجندى الأمريكى :

ـ نحن فى عصر معجزات العلم والصناعة لا الحياة ، ومثل هذه المعجزة المزعومة خليقة بأن تدفع العالم إلى أنياب مجاعة شاملة .

فقال الفيتنامى :

ـ لا خوف على العالم من مجاعة ما دامت قنابلكم تحصده .

ـ إنها لا تبيد إلا النفايات .

فقالت الأم :

ـ هل أجد طعاما متوافرا؟

فقال لها الفيتنامى :

ـ توجد ذخيرة بعدد حبات الرمال .

فقالت الأم :

ـ لم أسمع تحية واحدة .

فقال رجل الفراش :

ـ طوبى لك فى الدارين!

ـ شكرا يا سيدى .

ـ ولأبيهم أكبر تحيات التقدير .

ـ أكرر الشكر يا سيدى .

ـ هل لديكم قانون تعليم مناسب؟

ـ عندنا أشياء كثيرة مناسبة .

ـ أهلا بك وسهلا .

وذهبت إلى الناحية الأخرى . جلست على الأرض وراحت تغنى للمواليد . تغنى وتغنى حتى ثقل رأس الفيتنامى بالنعاس فتثاءب ، وتبعه الأمريكى على الأثر . وجلسا تباعا على الأرض عن يمين الأم ويسارها . وأوسعت لكل موضعا فى حجرها فتوسده برأسه وغط فى النوم .

* * *

وتحركت الستارة حركة عصبية فخرج من ورائها رجلان ، اندفعا إلى وسط الحجرة وكل منهما ممسك برأس الآخر يحاول جهده أن يخفضه إلى أسفل . صاح أولهما :

ـ المارك فوق الجميع .

فصاح الآخر :

ـ الفرنك لا يُعلى عليه .

ـ المارك رمز التفوق .

ـ الفرنك رمز الإنسانية!

ولكم الألمانى الفرنسى فتراجع مترنحا حتى سقط فوق رجل الفراش . نهض الفرنسى من سقطته فهجم على الألمانى ولطمه على وجهه ، ثم قبض على رباط عنقه وجذبه منه جذبة قوية فاندلق ناحية الفراش حتى ارتطم برجل الفراش . واستعاد توازنه وانقض على

خصمه. وجعل كل منهما يحاور الآخر حتى لا يمكنه من نفسه. ونال منهما الإعياء فوقفا متباعدين وهما يلهثان. وقالت الممثلة:

ـ أقترح أن تودعا نقودكما عندى حتى تسويا خلافاتكما!

فابتسم إليها ذو البدلة السوداء وقال:

ـ قول طيب، أحسنت.

فخطت نحوهما خطوتين وقالت بإغراء:

ـ لدى موضوع يصلح للإنتاج المشترك.

فقال الألمانى:

ـ أوافق أن يكون عن حرب ١٨٧٠.

وقال الفرنسى:

ـ حرب ١٩١٤ أهم وأخطر.

فقالت الممثلة:

ـ هو عن امرأة مريضة نفسيا، وأعراض مرضها أن تسير عارية وهى نائمة!

فقال رجل الفراش وهو مكب على جريدته:

ـ مرض ممتاز.

وقال الفرنسى:

ـ أعطينا مثالا لتلك الحالة المرضية.

مدت يديها للجزء الأعلى من لباس البحر كأنما لتنزعه ولكن ذا البدلة السوداء قال:

ـ ليس فى وسط الحجرة!

فقال رجل الفراش:

ـ يهمنى أيضا أن أرى ما يجرى فى بيتى.

فقال الآخر بحدة:

ـ الأجانب يستحقون معاملة خاصة!

ـ لقد عانيت من صراعهم فمن حقى أن أشاركهم بعض المسرة!

فقالت له الممثلة:

ـ لا من أهل المال أنت ولا من أهل الفن.

فتساءل منكرا:

ـ أفندم؟ سمعى ثقيل.

فقال ذو البدلة السوداء :

ـ ألاحظ أن أذنك تعمل بحسب هواك .

ـ إنى أمارس حريتى من خلال أذنى .

ـ سأسمعك بنفسى ما يتعذر عليك سماعه .

ـ شكرا، لا داعى لتكليف خاطرك!

اندست الممثلة بين الرجلين فتأبطت ذراعيهما ومضت بهما إلى موضعها السابق .

ومن وراء الستارة خرج رجلان، يحمل أولهما كتبا ويحمل الآخر قوارير . وقفا جنبا لجنب وسط الحجرة ثم قال حامل الكتب بصوت عريض رنان :

ـ من ذخائر التراث، تفسير القرآن، طبعة أنيقة مع تعليقات بأقلام أكبر الأساتذة، الثمن جنيه واحد .

وقال حامل القوارير بصوت منغوم :

ـ أفخر أنواع الويسكى، وردت منها كميات محدودة، بأسعار محددة ومعقولة تتراوح بين أربعة جنيهات وخمسة جنيهات .

فسأل رجل الفراش حامل الكتب :

ـ ألا تميزون أرباب الأسر بشىء من التخفيض؟

ـ يختص بالتخفيض الطلبة فقط .

ـ وأرباب الأسر؟

ـ الثمن معقول جدّا . .

ـ شكرا .

وعاد حامل القوارير يقول :

ـ أفخر أنواع الويسكى، كميات محددة وأسعار زهيدة!

فسأل رجل الفراش حامل الكتب :

ـ أحرام أن يتناول المسلم قليلا من الويسكى كدواء؟

فأجاب حامل الكتب :

ـ إنى أتناول كأسا قبل النوم كدواء لضيق الشرايين .

ـ ولكنى أشكو ثقلا فى السمع؟!

فقال حامل القوارير :

ـ ثقل السمع عرض مرضى لضيق الشرايين .

ـ ولكن ثمن الويسكى كفيل بسد الشرايين .

وتدخل ذو البدلة السوداء فى الحديث فخاطب حامل القوارير قائلا :

ـ قف جنب السيد الفرنسى فهو يحب المرح .

وتحول إلى حامل الكتب قائلا :

ـ قف جنب السيد الألمانى فلعله أن يكون مستشرقا .

ثم التفت إلى الممثلة وقال :

ـ همتك ، لديك قرآن وويسكى وموضوع مشترك !

* * *

تحركت الستارة فخرج من ورائها رجلان من رجال الفضاء ، روسى وأمريكى ، سارا بخفة نحو وسط الحجرة ، تصافحا ، ثم قال الروسى لزميله الأمريكى :

ـ أصدق التهانى .

فقال الأمريكى :

ـ ومنى إليك أصدق التهانى .

ـ لا يهم أننى سبقتك إلى التجربة ما دمت تتقدم بنجاح ، تهانى . .

ـ المهم هو النجاح ، وسألحق بك ، وسوف أسبقك ، تهانى . .

ـ لا أظن أنك ستسبقنى أبدا ، فات أوان ذلك ، تهانى .

ـ أراك لا تعمل حسابا للمفاجآت الأمريكية ، تهانى .

فقال رجل الفراش :

ـ إنكما حلم وردى فى عالم قطران !

ـ شكرا أيها الرفيق .

ـ شكرا أيها الزبون .

فقال رجل الفراش :

ـ بفضل العلم تقع معجزات .

فقال الروسى :

ـ وبفضل النظام الشيوعى .

فقال الأمريكى :

ـ بل بفضل النظام الرأسمالى .

فقال رجل الفراش :

ـ لقد ارتفعتما إلى سماوات الله عز وجل .

فقال الروسى :

ـ رأيت الكواكب تسبح فى أفلاك متأثرة باختلاف أحجامها فمساراتها متحددة بصراع طبقى أزلى سرمدى .

فقال الأمريكى :

ـ وهناك الشمس تمد الكواكب بالحرارة والضوء كالمعونة الأمريكية .

ـ ألم تريا شيئا وراء ذلك؟

فقال الروسى :

ـ لا شىء وراء ذلك .

ولكن الأمريكى صاح :

ـ رأيت الله .

ـ كيف؟! . . أين؟ . .

ـ نور يخطف الأبصار ، يشع فى منطقة من السماء تقع فوق البيت الأبيض .

فقال له الروسى :

ـ يا لك من دجال!

ـ اخرس أيها السفاك .

ـ سندفنكم أحياء .

ـ سندفنكم أمواتا .

فهتف رجل الفراش متأوها :

ـ الغوث!

فصاح به ذو البدلة السوداء :

ـ هأنتذا تسمع كل كلمة تقال .

ـ أسمع وشا ، لعله ضيق الشرايين ، إلىّ بقليل من الويسكى . . .

ـ معك عملة صعبة؟

ـ ولا سهلة!

ـ كف عن شرب الشاى فإنه مثير للأعصاب .

ـ إنه يهبنى أطيب ساعات اليوم!

وهتفت الممثلة بنرفزة :

ـ لا أستطيع أن أعمل فى هذا الجو الصاخب .

فقال رجل الفراش بقلق :

ـ من الحمق أن نترك هذين العملاقين يتخاصمان .

فقال ذو البدلة السوداء :

ـ منذا يجزم أين تقع المصلحة؟

وتقدمت الممثلة من رجلى الفضاء وقالت وهى تشير إلى الأم :

ـ يوجد صغار نيام!

فكظم كل حنقه . وقال الروسى بوجه متجهم مخاطبا زميله :

ـ تهانى . .

فقال الآخر بازدراء :

ـ تهانى . .

وذهبا مع الممثلة فاتخذا لهما موقفا .

* * *

ومن وراء الستارة خرجت فتاة جميلة فى العشرين من عمرها ، فى منى جيب ، معلقة حقيبتها بكتفها ، ووقفت فى وسط الحجرة وقالت :

ـ أنا فتاة مثقفة ، أتقن العربية والإنجليزية وأعمال السكرتارية ، أريد وظيفة سكرتيرة .

هرش رجل الفراش ذقنه . أما ذو البدلة السوداء فقد سألها :

ـ ألم تقيدى نفسك فى إدارة القوى العاملة؟

ـ بلى . .

ـ عليك أن تنتظرى دورك .

ـ طال الانتظار ، أريد وظيفة حرة .

فقالت لها الممثلة :

ـ أعرف شخصا مهما فى حاجة إلى سكرتيرة!

ـ إنى مستعدة لمقابلته فى الوقت الذى يحدده .

فقال رجل الفراش :

ـ ولكنك لا تعرفين عنه شيئا؟

ـ أعرف عملى وكفى .

فقال الرجل بتأثر :

ـ فكرى قليلا، إنى أحدثك بلسان أب.

ـ كأنك يا سيدى تخاف علىّ؟

ـ الناس أشرار يا بنتى وأنت صغيرة السن.

ـ لست صغيرة.

ـ ما زلت فى طور البراءة!

ـ لست هشة ولا خوف علىّ.

ـ إنك تعرضين نفسك لخطر فادح.

ـ إنى أحتقر هذا الإشفاق!

ـ إنى أب..

ـ بل جد، وأقدم من ذلك!

ـ سامحك الله.

ـ سأجد فى العمل حريتى وكرامتى.

ـ قد.. قد...

ـ لا أسمح لأحد بالتدخل فى شئونى.

ـ ثمة أخطار.

ـ أخطار!.. ألم تسمع عن غزاة الفضاء؟!

ـ معذرة يا آنسة.

فقال ذو البدلة السوداء:

ـ ليتك تعرف نعمة السكوت.

فقالت لها الممثلة:

ـ انضمى إلينا مؤقتا، ثمة شركة فى دور التكوين.

* * *

وتحركت الستارة فخرج من ورائها رجل عجوز أنيق الملبس، وقف وسط الحجرة وقال بنبرة شبه باكية:

ـ يا بنى، عد إلى أبيك.. طلباتك مجابة.

فسأله ذو البدلة السوداء:

ـ متى اختفى؟

ـ منذ أسبوع..

ـ بحثت عنه فى مكانه؟

ـ لم أترك مكانا واحدا.

ـ ما عمره؟

ـ ستة عشر عاما.

ـ ما مشكلته؟

ـ كل شىء ولا شىء بالذات. .

ـ رأى، سلوك، ذوق، هه؟

ـ نعم. وعلم الله ما راعيت إلا مصلحته.

فقال له رجل الفراش:

ـ إنى أرثى لك.

ـ شكرا.

ـ ليس زماننا بزمان الآباء.

ـ زمان قذر.

فصاح به ذو البدلة السوداء:

ـ لا تسب الزمان فهو الدولة.

فعاد الرجل يردد بهدوء حزين:

ـ يا بنى، عد إلى أبيك. . طلباتك مجابة.

واختار لنفسه موقفا جنب حامل الكتب.

* * *

من وراء الستارة خرجت فتاة صعيدية حاملة مقطفا كبيرا، تبعها على الأثر صعيدى فى الخمسين، وقفا فى وسط الحجرة فسألته الفتاة:

ـ لم جئنا إلى هنا يا أبى؟

فهوى بكفه على وجهها وصاح:

ـ لأنقذ شرفى من الفساد.

ندت عن الفتاة صرخة مدوية. رمت بالمقطف وجرت نحو الفراش فأحاطها الرجل بذراعه. سرعان ما لحق بها الأب ولكى يخلصها من ذراع الرجل انهال على صدره ضربا حتى سحب الرجل ذراعه متأوها. جذبها إلى وسط الحجرة، طرحها أرضا، استل خنجرا وانهال عليها طعنا حتى أخمد أنفاسها. ثم دفنها فى المقطف، وغطاها بخمارها، وهو يتمتم بتشفٍ:

ـ الآن ردت الحياة إليّ.

فقال له ذو البدلة السوداء:

ـ ستفقدها وراء القضبان أو فوق المشنقة.

فقال باستهانة:

ـ طظ!

ـ متى تحترم القانون؟

ـ طظ.

وحمل المقطف ومضى به صوب الفراش فدفعه تحته. تأوه رجل الفراش وقال له:

ـ يا لك من وحش!

فقال له بازدراء وهو يرجع إلى وسط الحجرة:

ـ كيف يعد أمثالك من الرجال؟!

ـ كيف طاوعتك يدك على قتل ابنتك؟

ـ يوجد شيء اسمه الشرف.

ـ وتوجد أيضا الحماقة.

فأشهر خنجره مرة أخرى وهو يتساءل في ريبة:

ـ ماذا يحملك على الدفاع عنها؟

ـ ولكن ذا البدلة السوداء بادر إليه فأخذه من ذراعه إلى الناحية الأخرى.

* * *

وترامى عزف أوركسترا وتخت بلدى فى وقت واحد. وخرج من وراء الستارة رجلان، أولهما فى لباس مغنى أوبرا والآخر مغنى بلدى. وقفا فى وسط الحجرة وراحا يغنيان فى وقت واحد، كل بطريقته. فأحدثا صخبا متنافرا مزعجا مضحكا. ولما ختما غناءهما تصافحا ببرود، مغنى الأوبرا فى احتقار لم يفلح فى مداراته، والمغنى البلدى دارى ضحكة أوشكت أن تفلت منه. فى أثناء ذلك تقلص وجه رجل الفراش من الانزعاج، وتساءل:

ـ أبكما مس أم ألم ملح؟

ـ نحن بخير.

ـ لماذا تصرخان؟

ـ غنينا كأحسن ما يكون الغناء.

ـ أكان ذلك غناء؟

ـ أسمعناك الشرق والغرب معا .

ـ ألم يكن الأفضل أن نسمع كلا على حدة؟

ـ أصلنا ننتمى إلى مؤسسة واحدة . .

وزاد الأوبرالى على ذلك أن قال :

ـ أنا المستقبل ، وزميلى الفاضل يمثل الماضى . .

فغضب المغنى البلدى وقال :

ـ أنا مغن ، أما هذا الرجل فهو مجنون يصرخ بلا سبب .

وتبادلا صفعتين ، وتوثبا لعراك أشد . . فصاح رجل الفراش :

ـ اذهبا . . اتركانى فى سلام .

فقال ذو البدلة السوداء باستياء :

ـ تأدب فى مخاطبة المغنين الرسميين !

وأشار إلى الرجلين فأمسكا عن الخصام وذهبا معا إلى الناحية الأخرى .

* * *

وتحركت الستارة فخرج من ورائها طالب ثم شرطى ، وقفا فى وسط الحجرة وهما يتبادلان نظرة متوجسة ، وسأله الشرطى :

ـ لم تتسكع فى الطرقات؟

فتساءل الطالب بتحد :

ـ لم تتبعنى كظلى؟

ـ أنا ظل الأشياء المعوجة !

ـ ألا تشم فى الجو رائحة غبار خانق؟

فتشمم الشرطى الجو وقال :

ـ فى الجو غبار خانق !

ـ إنى أبحث عن هواء نقى . .

ـ ولكنك بتسكعك تثير مزيدا من الغبار الخانق . .

فضحك الطالب ضحكة جافة وقال :

ـ الليل ينشر جناحيه بينا الشمس ما زالت فى كبد السماء فما تفسيرك لذلك؟

ـ لعل الليل أسرع أو أن الشمس تباطأت . .

ـ فما علاقة ذلك بتحديد مرات السقوط؟

ـ مثل علاقته بإهدار المال بلا حكمة . .

ـ واضح أنك تهذى .

ـ وأوضح منه أنك قليل الأدب .

وقذف الطالب الشرطى بطوبة فلم تصبه، ولكن أصابت رجل الفراش فتأوه دون أن يرفع رأسه عن الجريدة. تراجع الشرطى خطوات، لوح بهراوته استجماعا لقوته ولكنها فى حركاتها العشوائية أصابت رجل الفراش فى قدمه ومنكبه فتأوه مرة أخرى. تبادلا الضرب حتى نزفت دماؤهما فتباعدا وهما يترنحان من الإعياء والإنهاك. وهتف رجل الفراش:

ـ وما ذنبى أنا؟

فقال ذو البدلة السوداء:

ـ لا تفتأ تتدخل فيما لا يعنيك!

ـ ولكن القتال يدور فى حجرة نومى . .

ـ عال فأنت أصلح شاهد للإدلاء بما رأى، ما سبب المعركة؟ ومن البادئ بالضرب؟

ـ للمعركة أسباب غير عادية .

ـ مثال ذلك؟

ـ الغبار والتسكع والليل والشمس .

ـ يا لك من شاهد فاجر!

ـ أقسم لك . . .

فقاطعه بحدة:

ـ ومرات السقوط فى الامتحان ألم تسمع بها؟

ـ إن سمعى ثقيل كما تعلم .

ـ هأنتذا تعود لادعاء الصمم، واضح أنك مغرض!

ـ علم الله . .

ـ فمن الذى بدأ الضرب؟

تلقيت ضربتين متعاقبتين، ولكن تعذر علىّ تحديد المصدر البادئ!

ـ فاجر، ألم أقل إنك شاهد فاجر؟!

ـ دعنا من التحقيق .

ـ دعنا من التحقيق؟!

ـ واضح أن أعصابهما تحتاج إلى عقاقير فعالة.

ـ الصيدليات ملأى بالعقاقير.

ـ الحاجة ماسة إلى طبيب لا إلى شرطى.

ـ ألست طبيبا؟.. إنى أناقشك طيلة الوقت باعتبارك طبيبا!

ـ أنا طبيب حقّا، ولكنى فى إجازة مرضية..

ـ أصبحت قادرا على الحركة فى بيتى فأنا أغادر الفراش وقتما أشاء، ولكن تلزمنى بضعة أيام راحة قبل أن أمضى إلى الخارج لمزاولة نشاطى المعتاد.

ـ حسنا، لا تبدد قواك فى الثرثرة حتى تسترد صحتك.

ومضى الرجل إلى الطالب والشرطى فأخذهما إلى موقف فى الناحية الأخرى.

* * *

وتحركت الستارة فخرج من ورائها زنجى وعربى مسلح، وقفا فى وسط الحجرة وقال الزنجى:

ـ المشوار طويل فيما يبدو.

ـ أجل.. إنه يبدو كذلك.

ـ أين أنت ذاهب؟

ـ إلى آسيا، وأنت؟

ـ أنا متردد بين أمريكا وإفريقيا.

ـ وما مشكلتك؟

ـ فى أمريكا يحاصرنى الاضطهاد باعتبارى الأقلية، وفى إفريقيا يحاصرنى باعتبارى الأغلبية.

ـ يا له من اضطهاد كالقدر! ما سببه؟

ـ لأنى أسود، هكذا يقال.

ـ أن تضطهد وأنت أقلية فتلك رذيلة شائعة، ولكن كيف تضطهد وأنت الأغلبية؟

ـ ثمة رجل أبيض يحتكر الاضطهاد، ويمارسه حيثما وجد.

ـ ولكنى أراك لا تحمل سلاحا؟

ـ كان لنا زعيم يدعو إلى الحب والسلام.

ـ وهل استجابوا له؟

ـ قتلوه غيلة!

ـ ما كان أجدره أن يقتل وهو يقاتل .

ـ آمن بأن الحب أقوى من جميع الأسلحة .

ـ لا مكان إلا لنوعين من الإنسان، واحد يقاتل بقلب ملؤه الشر، وآخر يقاتل بقلب ملؤه الخير .

ـ لعلك من النوع الأخير؟

ـ لعلى .

ـ وما مشكلتك أيها المقاتل؟

ـ لقد سرقت .

ـ سرقوا مالك؟

ـ سرقوا وطنى!

ـ وطنك؟!

ـ بجباله وأنهاره وحقوله وتاريخه ثم قذفوا بى إلى العراء .

ـ أى قطاع طرق؟!

ـ وراءهم يقف الذين يضطهدونك .

ـ لذلك تحمل السلاح؟

ـ ولذلك يجب أن تحمل السلاح .

ـ ولكن أين أجده؟

وهنا قال رجل الفضاء الروسى :

ـ تجده عندى إذا أردته .

ـ ولكنى لا أملك ثمنه .

ـ يمكن الاتفاق على ذلك دون إرهاق .

فصاح رجل الفضاء الأمريكى مخاطبا الزنجى :

ـ تجنب هذا الرجل فإنه لم ير الله فى السماء .

فقال رجل الفضاء الروسى :

ـ أحذرك من أضاليل هذا الزميل فقد زعم أنه رأى إلها أمريكيا .

ـ لم أقل إنه يحمل الجنسية الأمريكية، ولكن ثبت لى أنه إله العالم الحر .

فسأله الزنجى :

ـ هل آنست عنده ازدراء للسود؟

ـ إنه نور فطبيعى أن يفضل من عباده من على صورته .

ـ هل أدركت فى حضرته سر ذلك كله؟

ـ إن حكمته تجل عن أفهامنا ، إنه فوق التصور والخيال ، آه لو رأيته فى مقامه السنى فوق البيت الأبيض!

فصاح رجل الفضاء الروسى :

ـ ألم أقل لك إنه دجال؟

وقال العربى المسلح :

ـ دعونا من السماء ، على الأرض تُسرق أوطان ويضطهد أبرياء ، وعلى المسروق والمضطهد أن يحملا السلاح ، وأن يتعاونا مع من يعطيهما السلاح ، وأن تفسر حكمة الله على ضوء ذلك!

ـ أنت شيوعى!

ـ أنت إمبريالى!

ـ أنت ظالم!

ـ أنت أسود!

ـ أنت دجال!

ـ أنت سفاح!

وتأوه الرجل فى فراشه وعيناه لا تتحولان عن الجريدة ، فسأله ذو البدلة السوداء :

ـ مالك . . ماذا تريد؟

ـ أريد سلاحا!

ـ ولكن إجازتك المرضية لم تنته بعد .

ـ أريد سلاحا!

ـ اصبر . .

ـ ألم تسمع ما قيل؟

ـ سمعت واقتنعت ، ولكن إجازتك لم تنته بعد .

ـ إنى أقرأ فى رأسك أفكارا غريبة!

ـ إن أردت الصراحة فإن تعليقاتك المتكررة لا توحى بالثقة!

ـ لعلك لا تعرفنى على حقيقتى .

ـ إنى أعرفك أكثر مما تتصور!

ـ أنا رجل مخلص ومستعد للقتال .

ـ ولكنك غير مدرب على استعمال السلاح .

ـ إذن أتدرب .

ـ اصبر حتى تنتهى إجازتك .

ـ طيب . . أعطنى كأسا من الويسكى . .

ـ معك عملة صعبة؟

فتنهد الرجل بصوت مسموع ، وعند ذاك قال له رجل الفضاء الأمريكى :

ـ أتريد السلاح حقّا؟

ـ أجل . .

ـ والويسكى؟

ـ أجل . .

ـ عهد الله أعطيك ما تريد من سلاح وويسكى .

ـ حقّا؟!

ـ كلمتى ميثاق!

ـ ولكنى لا أملك نقودا .

ـ لا يهم .

ـ أتعطينى ما أريد بلا مقابل؟

ـ بشروط لا تستحق الذكر ، انتظر . .

وتحرك متجها نحو الفراش ، ولما بلغه وجد ذا البدلة السوداء فى انتظاره ، فقال له :

ـ أريد أن أحادث هذا المريض على انفراد .

فقال ذو البدلة السوداء :

ـ ليس بينى وبينه سر!

ـ المرضى فى وطننا الأمريكى يتمتعون بحريات هائلة!

ـ فقال الزنجى :

ـ كذاب!

تحول نحوه غاضبا ، ولكن ذا البدلة السوداء حال بينهما ، ثم أوسع لهما مكانا بين الآخرين .

من وراء الستارة خرج رجل قصير نحيل ، يلفه الحياء حتى بدا كطفل ، وقف فى وسط الحجرة و راح ينظر فيما حوله بارتباك . همّ بالكلام مرة ومرة ولكنه لم ينبس . وإذا برجل

جديد يخرج من وراء الستارة. ضخم مهيب ذو لحية مدببة، اتخذ موقفه أمام الرجل الأول فأخفاه عن الأنظار وقال بنبرة متعجرفة:

ـ أنا رجل ألمانى من بون.

فسأله الألمانى الأول:

ـ ألديك معلومات جديدة عن المارك؟

فقال بالنبرة المتعجرفة:

ـ لا أقيم الآن فى ألمانيا، لم أجد هناك المعاملة اللائقة، أنا مواطن عالمى، ولدى اختراع كيماوى مذهل.

فسأله رجل الفراش:

ـ أله فائدة فى تجديد الشباب؟

وسأله الزنجى:

ـ هل يجدى مفعوله فى تهذيب الخلق الإنسانى؟

وسألته الأم:

ـ هل ينفع غذاء للأطفال؟

فقال:

ـ إنه مسحوق غامض، يكفى الجرام منه لإبادة خمسين مليونا من البشر.

هب الجميع فى اهتمام ساحق. حتى الأمريكى والفيتنامى استيقظا ووثبا واقفين. قال الألمانى الأول:

ـ لعلهم جهلوا مقاصدك أيها الأخ العبقرى فلم يحسنوا معاملتك، عد إلى وطنك.

ولكن رجل الفضاء الأمريكى قال:

ـ أيها الأخ العبقرى، أمريكا هى وطن العلماء، عندنا برج بابل يعيش فيه العلماء من مختلف الأجناس عيشة الأباطرة، اذهب إلى وطنك الحقيقى أمريكا!

وقال له رجل الفضاء الروسى:

ـ ليكن مسحوقك فى خدمة الملايين الكادحة لا فى خدمة حفنة من مصاصى الدماء.

وقال له العربى:

ـ يلزمنى ملليجرام من مسحوقك العبقرى!

وسأله ذو البدلة السوداء:

ـ هل سبق لك زيارة معبد الكرنك تحت شمس الشتاء المشرقة؟

فقال الألمانى بعجرفة :

ـ تلزمنى مهلة للتفكير .

وذهب إلى ناحية الواقفين فاتخذ مكانا . وبذهابه ظهر مرة أخرى الرجل القصير النحيل .

وقال له رجل الفراش :

ـ كان المنتظر أن تبدأ أنت بالكلام .

فابتسم فى حياء دون أن ينبس فسأله :

ـ بالله ماذا يمنعك من الكلام؟

فتغلب على حيائه وقال :

ـ أعتقد أننى بصدد اكتشاف طريقة ناجعة لمعالجة السرطان .

وساد صمت شامل حتى واصل حديثه قائلا :

ـ لقد جربتها على مرضى كثيرين فنجحت بنسبة ٤٠٪، ولكنى فى حاجة إلى مزيد من البحث والتجريب وتلزمنى تكاليف باهظة!

وساد الصمت . صمت ثقيل، حتى قال الفرنسى هامسا :

ـ هذا الرجل يستحق التشجيع، ولولا أزمة الفرنك . . .

فقال الألمانى :

ـ إنه جدير بالتشجيع، ولكن من أدرانا أنه ليس دجالا؟

فقالت الممثلة :

ـ إن تكشف عن دجال فأنا أرشحه لتمثيل دور فى فيلمنا المشترك .

وقال رجل الفضاء الأمريكى :

ـ أبحاث السرطان متقدمة عندنا . .

فقال رجل الفضاء الروسى :

ـ يمكن أن نستضيفك عاما فى المعهد الطبى الشيوعى .

فصاح رجل الفضاء الأمريكى :

ـ يمكن أن نستضيفك عامين، ولكن إذا زرت روسيا تعذر عليك دخول بلادنا .

ونفخ رجل الفراش بصوت مسموع فسأله ذو البدلة السوداء :

ـ ماذا تشكو؟

ـ أريد كأسا من الويسكى .

ـ تمر بك الأحداث وأنت لاه عنها بشهواتك!

ـ أعطنى سلاحا . .

ـ تريد أن تسكر وتطلق النار على غير هدى!

وأشار إلى الرجل القصير النحيل إشارة خاصة فمضى ليتخذ موقفا بين الواقفين .

وتحركت الستارة فخرج من ورائها رجل ملفوف فى كفن لا يظهر منه إلا رأسه ، وقف فى وسط الحجرة وقال :

ـ أنا المدير العام لمؤسسة م . م . م .

فقال له رجل الفراش :

ـ تشرفنا يا فندم .

ـ انتقلت إلى رحمة الله على أثر نوبة قلبية أصابتنى وأنا جالس إلى مكتبى .

ـ ليرحمك الله .

ـ الموت أكبر كارثة فى الوجود ، أكاد أجن كلما تصورت أن العالم سيمضى فى طريقه عقب اختفائى كأننى لم أعايشه دقيقة واحدة .

ـ أكنت تتوقع أن يتوقف من الحياة إكراما لك؟

ـ هذه هى مأساة الوجود الحقيقية التى تفقده أى معنى من المعانى!

ـ صدقنى فإن العالم مثقل بهمومه بحيث يغفر له ألا يشعر بموتك .

ـ ذهبت الحياة بجمالها وسحرها وآمالها!

ـ ليرحمك الله .

ـ ما لقلبك جامدا هكذا ، حتى الحيوان يحزن .

ـ حزنى للحياة لم يترك فى قلبى موضعا للحزن على الموت!

ـ مت وحيدا وهأنذا أحزن وحدى .

ـ لتكن الجنة مثواك .

ـ وأنا والد س و ص بالجامعة ، وشقيق أ بمؤسسة م . م . م . ، وعم د . بمؤسسة م . م . م . ، وابن خالة ز بمؤسسة م . م . م . ، وستشيع الجنازة من مسجد عمر مكرم فى تمام الثانية عشرة ظهرا ولا عزاء للسيدات .

ـ سأعزى بتلغراف .

ـ ولم لا تشيع جنازتى بنفسك؟

ـ إنى مريض كما ترى .

ـ تستطيع أن تشيع جنازتى لو بك رغبة فى ذلك .

ـ أخشى أن أصاب بنكسة .

ـ أنانى لا تفكر إلا فى نفسك .

ـ لا وقت عندى للتفكير فى نفسى ولا فيمن يموت .

ـ ليت يومك كان قبل يومى .

ـ أنتم السابقون ونحن اللاحقون . .

وبدأ الرجل يتحرك ببطء ليتخذ موقفه بين الجماعة . وفى أثناء سيره قال ذو البدلة السوداء :

ـ مات رجل من جيل الثورة المضادة .

فقال رجل الفضاء الأمريكى :

ـ فقدنا صديقا ذا استعداد طيب للتفاهم .

وقالت الممثلة :

ـ نقص رواد السينما رجلا ولا كل الرجال .

* * *

وتحركت الستارة فخرج من ورائها رجل وجيه بدين أنيق الملبس رغم ضخامته الفذة ، وقف فى وسط الحجرة ثم بسط صحيفة وراح يقرأ منها بصوت جهورى :

ـ من واجبى ، من حقى ، أن أقول رأيى كما يجدر بصحفى يحترم نفسه ويحترمه الجميع ، وأن أصيغه بالوضوح الكامل لنخترق الظلمات إلى رؤية مضيئة لعلنا نهتدى إلى مرفأ آمن فى هذا البحر العاصف الذى تتلاطم أمواجه كجبال من الظلام ، سأقول الحق بوضوح مهما كلفنى ذلك من جهد ومن تضحية . لذلك أقول لكم :

الوعى قضية ، تسير مسارها الطبيعى إلى نقيضها وهو اللاوعى ، وعلى أثر تقدم مطرد يتكون تركيب جديد من النقيضين هو المرض . بمعنى آخر الوعى + اللاوعى = المرض . إن يكن عصابا فهو مرض نفسى ، وإن يكن ذهانا فهو مرض عقلى . ذلك أن كل شىء يخضع فى النهاية للديالكتيك . ولا يلبث التركيب الجديد (المرض النفسى أو العقلى) أن يتحول إلى قضية جديدة تبحث بدورها عن نقيضها كما تبحث المراهقة عن عريس ، ونقيض المرض هو الصحة النفسية ، ثم يجمعها تركيب جديد آخر بحكم حتمية الديالكتيك ، وهذا التركيب الجديد يتكون من المرض والصحة ، مرض ديالكتيكى وصحة ديالكتيكية ، وهى حال لا هى صحة ولا هى مرض ، وإذا ترجمناها إلى لغة فلسفية أمكن أن نطلق عليها «حال وجودية» . . ويغلب عادة أن تكون من نوع الوجود

فى ذاته، ولكن يتدخل قوى قهرية باغية تتحول إلى نوع آخر هو الوجود لذاته، ويخشى فى تلك الحال أن تتحول إلى وضع أجوف أو ما يسمى فى الهندسة بالفراغ، فراغ مشحون بالقلق السرمدى، ولا علاج لذلك إلا بالمزيد من الديالكتيك. هذه هى حقيقة المسألة بلا حشو ولا إسهاب ولا موجب له، شرحتها متوخيا البساطة والوضوح، بلغة شعبية جديرة بمخاطبة شعب عظيم يمر بلا شك بمحنة عصبية، ويتوثب لقهر ما يعترض سبيله من عقبات، مصمما على الصمود والنجاح، ألا هل بلغت؟

أعقب كلمته صمت، استمر حتى خرقه رجل الفراش قائلا:

ـ شكرا يا سيدى، ولكن ثمة أسئلة حائرة أود أن أوجهها إليك.

فقال بهدوء:

ـ صناعتى هى الكتابة لا الكلام.

ـ ولكنها أسئلة ملحة يا سيدى.

ـ اكتبها فى ورقة وسأجيب عليها كتابة.

وتكرم بإعطائه ورقة وقلما فتناولهما الرجل وسجل أسئلة ومد بها يده إليه. قرأها الصحفى بعناية ثم سجل بدوره إجاباته عليها ثم راح يقرؤها:

ـ بالنسبة للسؤال الأول الجواب: محتمل.

بالنسبة للسؤال الثانى الجواب: بين بين.

بالنسبة للسؤال الثالث الجواب: نعم ولا.

بالنسبة للسؤال الرابع الجواب: لعل وعسى.

بالنسبة للسؤال الخامس الجواب: إنه سلاح ذو حدين.

بالنسبة للسؤال السادس الجواب: خير الأمور الوسط..

فتمتم رجل الفراش:

ـ شكرا يا سيدى.

فرد الصحفى الشكر بهزة من رأسه وانتقل إلى الناحية الأخرى، طوى رجل الفراش الجريدة، ثم احتسى آخر رشفة من الشاى. هبط إلى أرض الحجرة. راح يسوى جلباب نومه ويتثاءب. وفى الحال أحدق به جميع الحاضرين بغير استثناء. جعلوا يدورون حوله مرددين مقاطع من أقوالهم السابقة فى وقت واحد. تخلل دورانهم طلقات نارية، انفجار قنابل، أزيز طيارات، صرخات آدمية. وكلما أتم أحدهم دورته زحف تحت الفراش واختفى حتى خلت الحجرة ولم يعد يبقى بها سواه. وفتح الباب وظهرت عنده المرأة وهى تتساءل:

ـ شربت شايك؟

فأحنى رأسه بالإيجاب فقالت وهى تختفى فى الداخل:

ـ أظن آن لنا أن نناقش مشاكلنا العاجلة!

فمضى نحو الباب وهو يتمتم:

ـ استعنا على الشقا بالله.

روح طبيب القلوب

تفحصها الرجل باهتمام فتلقت نظراته بعينين حذرتين مستطلعتين. كان يجلس مسند الظهر إلى باب الضريح الصغير على حين تربعت هى بين يديه. لم يكن فى ساحة الضريح الصحراوية سواهما أحد فى صحبة شعاع الصباح الباكر. وكان الضريح صغيرا مثل زنزانة، ولا تناسب بين جسم الرجل النحيل وبين عمامته الخضراء الكبيرة ولحيته الكثيفة السوداء، وثمة تناقض أشد بين جلباب الفتاة الرث القذر وقدميها الحافيتين وبين جمال وجهها الآسر. أشار الرجل إلى الضريح وقال:

ـ تبارك ذكره، كان بطب الجراح إعجازه وسره.

فتمتمت الفتاة بسذاجة:

ـ تبارك ذكره.

ـ لعل الذى جاء بك إليه جرح عز على البشر شفاؤه؟

فتمتمت فيما يشبه البلاهة:

ـ نعم.

فسألها بارتياب:

ـ كم سنك يا فتاة؟

ـ لا أدرى.

ـ ولكن أمك تدرى؟

ـ لم أر لى أما..

ـ توفاها الله؟

ـ لا أدرى.

ـ وأين أبوك؟

ـ لم أر لى أبا .

ـ وأين تعيشين؟

ـ فى الدنيا!

ـ ماذا تعملين؟

ـ أسرح بالفاكهة الفاسدة يجود بها الفاكهى أو يبيعها بثمن بخس .

ـ ولكنها تجارة فاسدة!

ـ لها زبائن يتنافسون فى الحصول عليها .

ـ وأين تقيمين؟

ـ فى الخلاء صيفا وتحت البواكى شتاء .

ـ أتتحملين تقلب الجو؟

ـ وهل تقلب الجو يؤذى؟

وخفض الرجل صوته وهو يسألها :

ـ وهل صنت شرفك يا فتاة؟

ـ شرفى؟!

ـ ألا تعرفين معنى الشرف؟

ـ الشرف؟!

فتردد لحظة ثم تساءل :

ـ ألم يغرر بك شاب؟

ـ يغرر بى؟!

ـ يخدعك لينال منك مأربه؟

ـ نحن نعمل معا ونلعب معا وننام معا!

ـ يا للعنة!

ـ اللعنة؟!

ـ لعلك قصدت صاحب الضريح مطاردة بعذاب الضمير!

ـ الضمير؟

ـ لا تعرفين الضمير أيضا!

ـ أيضا!

ـ أأنت راضية عن حياتك؟

فقالت بحماس :

ـ الحياة جميلة على الرغم من كثرة المشاجرات .

ـ الشجار إذن هو ما يقلقك؟

ـ كلا ، إنه يهب الحياة مذاقا طيبا !

فنفخ الرجل متسائلا :

ـ ما دينك يا فتاة؟

ـ دينى ؟ !

ـ ألا تعرفين الدين ؟

ـ الدين !

فسألها بحدة :

ـ ماذا جاء بك إلىّ؟

ـ أنت الذى أمرتنى أن أجلس فجلست .

ـ ولكنى رأيتك قادمة نحوى؟

ـ نحو الضريح !

ـ لماذا؟

ـ ظننت أنه يصلح مأوى لى .

ـ أأنت بلهاء أم مجنونة؟

لاذت الفتاة بالصمت ، فقال :

ـ إنك تعيشين فى الخلاء صيفا وتحت البواكى شتاء فماذا جعلك تبحثين عن مأوى؟

بدا أنها تهم بالكلام ، ولكنها أطبقت شفتيها راجعة إلى الصمت فغمغم الرجل فى ضجر :

ـ إنك شيطانة !

فسألته ببساطة :

ـ من أنت ؟

فقال بغضب :

ـ لا يجهلنى إلا الشياطين !

ـ ماذا تعمل ؟

ـ أنت لا تعرفين الشرف أو الدين فكيف تدركين معنى الولاية؟

ـ لماذا أنت غاضب؟

ـ ملعونة أنت فى الدارين!

ـ الدارين؟

ـ فى الدنيا والآخرة.

ـ اعرف الدنيا ولكن ما الآخرة؟

ـ اغربى عن وجهى!

نهضت الفتاة قائمة. سقطت من داخل الجلباب بين قدميها قطعة حلّى. انحنت بسرعة فالتقطتها، ولكن يد الولى قبضت على ساعدها بقوة ثم وثب قائما وهو يقول:

ـ ما هذا؟!

هتفت به أن يطلق يدها، ولكنه قبض على منكبيها وراح ينهرها بعنف فتساقطت قطع الحلى حتى استقرت على الأرض كنزا صغيرا. وفى تلك اللحظة جاء خادم الضريح فرأى الصراع بين الفتاة والولى ورأى الكنز، ردد البصر بينهما ثم حملق فى الكنز متسائلا فى ذهول:

ـ ماذا يحدث؟!

فقال الولى:

ـ لصة من صعلوكات الطريق.

ـ ماذا جاء بها إلى هنا؟

ـ توهمت الشيطانة أنه يمكن إخفاء سرقتها فى الضريح.

ـ وماذا تنوى أن تفعل بها؟

ـ ما ينبغى فعله.

وولولت الفتاة:

ـ دعنى وشأنى.

فصاح بها:

ـ اخرسى يا لصة.

ـ يدك تهشم عظامى.

ـ من أين لك هذه الحلى؟

ـ إنها ملكى!

ـ ورثتها عن أهلك؟

وعاد خادم الضريح يسأل :

ـ ماذا تنوى أن تفعل بها؟

ـ ما ينبغى فعله .

ـ وما الذى ينبغى فعله؟

ـ علينا أن نسلمها للشرطة .

ـ أليس من الجائز أن تكون بريئة؟

ـ ستتكفل العدالة بإظهار الحقيقة .

ـ ولكن العدالة عمياء يا ولى الله .

ـ من أين لها هذه الحلى؟

ـ الله يرزق من يشاء بغير حساب .

ـ أترى أن نطلقها؟

ـ لن تكون بمأمن من قطاع الطرق .

ـ لم يبق إلا أن أضعها تحت رعايتى !

ـ ولكنك ولى وهيهات أن تحسن رعاية الأمور الدنيوية .

فقال الولى بارتياب :

ـ أرى أحلاما غريبة تراودك !

ـ لعلها نفس الأحلام التى تراودك !

وتوسلت الفتاة قائلة :

ـ دعنى أذهب . .

فقال لها الولى وهو يخفف من قبضته عليها :

ـ لا أمان لك فى دنيا الشرور .

وقال لها خادم الضريح :

ـ سأفتح لك الضريح كما تشائين !

ولكن الفتاة قالت بإصرار :

ـ أريد أن أذهب .

وحاولت أن تخلص ذراعيها ، ولكن الولى شدد قبضته ، وأقبل خادم الضريح يساعده . تبادلا نظرة من فوق رأس الفتاة . قال خادم الضريح :

ـ يلزمنا وقت لتبادل الرأى .

وتبادلا غمزة حملا الفتاة على أثرها إلى داخل الضريح . غابا فى الداخل دقائق ثم خرجا يتفصدان عرقا .

أغلق الخادم الباب ، ثم مضى إلى الولى وهو يقول :

ـ الخير فى الاتفاق .

ـ لا تنس أنها جاءت إلىّ بقدميها .

ـ بل كانت تقصد الضريح .

ـ اكشف أفكارك .

ـ نتقاسم الغنيمة !

ـ من العدل أن . . .

ولكن خادم الضريح قاطعه بحزم :

ـ نتقاسم الغنيمة !

فصمت الولى قليلا ، ثم تساءل :

ـ وماذا نفعل بالفتاة؟

ـ نطردها ، ونهددها بالويل إن عادت . .

ـ قد . . .

ـ إنها سارقة ولن تلجأ إلى الشرطة . .

ـ قد تحرض علينا عصابة من الأشرار لا قبل لنا بها .

ـ أترى من الأفضل أن نتخلص منها؟

ـ ماذا تعنى؟

ـ أن نقتلها !

ـ نقتلها؟ !

ـ ثم ندفنها فى الضريح وهو خال كما تعلم !

فقال الولى باضطراب :

ـ ولكن لا قلب لى على القتل !

فقال الخادم بارتياح :

ـ ولا قلب لى أيضا . .

ـ فما العمل إذن؟

وتفكر فى صمت مليا حتى قال خادم الضريح بظفر :

ـ الرأى أن نستعين بصديقنا الشرطى!

ـ فكرة طيبة . .

ـ وهى المخرج الوحيد لنا .

ـ ولكن الغنيمة ستوزع على ثلاثة بدلا من اثنين!

ـ خير من ضياع كل شىء .

وغادر خادم الضريح المكان . غاب فترة غير قصيرة ثم رجع بصحبة الشرطى وهو يقول له :

ـ هذه هى المسألة بلا زيادة ولا نقصان .

هز الشرطى رأسه مفكرا على حين أقبل الولى نحوه قائلا :

ـ عندك الرأى والتنفيذ .

فقال الشرطى :

ـ ولكنها عقدة تحتاج إلى حلال وتحف بها المهالك!

فقال الولى :

ـ سنقبض على الفتاة وتبدأ من فورك التحقيق معها ، ثم تستولى باسم القانون على الحلى ، وعند ذاك نتشفع نحن فى إطلاق سراحها ، وبمجرد أن تفك قبضتك عنها ستطير كالحمامة ولن ترجع إلى هذا المكان ما امتد بها العمر!

فقال الشرطى :

ـ ولكنى لا أقبل الظلم . .

فتساءل خادم الضريح بانزعاج :

ـ أى ظلم؟! إنها صعلوكة شريرة قطاعة طريق!

فقال الشرطى :

ـ الظلم أن توزع الغنيمة علينا بالتساوى!

فوجم الرجلان وقال الولى :

ـ لولا صداقتنا الوطيدة لقمنا بالمهمة وحدنا .

ـ لولا الضرورة ما لجأتم إلىّ!

ـ لا تكن سيئ الظن أيها الصديق .

ـ لى النصف ولكل منكما الربع .

ـ لا تغال أيها الصديق .

ـ لا تبددوا الوقت هباء . .

وصمت قليلا ثم استدرك :

ـ ولكن يلزمنا مثمن !

ـ مثمن ؟ !

ـ للوزن والتقييم والفحص .

ـ ترى هل يفعل ذلك لوجه الله؟

ـ ماذا فعلت أنت لوجه الله؟

ـ ولكن سينقص ذلك من نصيب كل منا؟

ـ من نصيب كل منكما ! !

ـ يجب أن نتحمل العبء الجديد بالتساوى .

ـ أنت تتناسى أنك تخاطب القانون !

ـ الرحمة أيها الصديق .

ـ القانون لا يغمض عينيه بلا ثمن .

فقال الولى :

ـ أنا صاحب اللقية .

وقال خادم الضريح :

ـ أنا صاحب الضريح .

فقال الشرطى بحدة :

ـ أهناك رحمة أعظم من أن أهبكم ثروة بدلا من أن أسوقكم إلى السجن؟ !

فهبط عليهما صمت واجم مثقل بالتسليم . وتسلم الشرطى الكنز فاقترح أن يذهب إلى المثمن ، ولكن الرجلين أصرا على اصطحابه . وفيما هم يهمون بالذهاب جاء عجوز ضرير قابضا على يد شاب ضرير ، يتلمس طريقه نحو الضريح ، فعدل الرجال الثلاثة عن الذهاب حتى تطمئن قلوبهم . بلغ العجوز باب الضريح فبسط راحته عليه وتساءل بصوت مرتفع :

ـ أين خادم الضريح؟

فأجابه الشرطى :

ـ الظاهر أنه مريض ، اذهب الآن وعد غدا .

ولكن العجوز قال :

ـ البـــاب المغـلق لن يسـد سـبيل الرحمــة . إن الرحمن أمر بها .

وأسند رأس الشاب إلى الباب وهتف :

ـ يا طبيب القلوب الكسيرة ، إليك ابنى المسكين ، فقد فى حادث بصره ، فتوقف فى سبيل الرزق سعيه ، وأعيا الأطباء شفاؤه ، اشمله بنفحة من بركتك . .

همّ الرجال الثلاثة بالذهاب مرة أخرى لولا صرخة ندت عن الشاب الضرير . وهتف الشاب .

فسأله العجوز :

ـ مالك يا بنى ؟

ـ أسمع صوتا !

ـ أى صوت يا بنى ؟

ـ صوت طبيب القلوب الكسيرة ولا صوت غيره !

تبادل الرجال الثلاثة نظرة قلقة . ألصق العجوز أذنه بالباب ثم تساءل :

ـ ماذا سمعت يا بنى ؟

ـ نفذ صوته إلى أعماق قلبى . .

وقال الشرطى بحدة :

ـ اذهبا اليوم وعودا غدا .

فصاح الشاب :

ـ لن أذهب ، إنه ينادينى !

فقال الشرطى :

ـ أنا الشرطى ، وأقول لك إننى لا أسمع شيئا . .

فصاح الشاب بأعلى صوت :

ـ اسكت ، دع صوت الرحمة ينفذ إلى قلبى . .

ـ ولكن ذلك مخالف للقانون !

ـ اسكت ، طبيب القلوب يهمس فى أذنى ، تكلم يا طبيب القلوب الكسيرة . .

وجذب صوت الشاب الضرير انتباه بعض الناس فيما بدا فأخذوا يتقاطرون على الساحة بجلابيبهم الزرق وأقدامهم الحافية . وقفوا ينظرون باهتمام ويتبادلون الهمس ، واستشعر الرجال الثلاثة دنو خطر مجهول فحث الولى وخادم الضريح الشرطى على إنقاذ الموقف قبل أن يستفحل الخطر . ضرب الشرطى الأرض بقدمه وصاح بصوت آمر خشن :

ـ أيها الشاب، كف عن الهذيان.

ولكن الشاب صاح بقوة:

ـ طبيب القلوب ينادينى..

ـ كف عن الهذيان..

فقال العجوز بضراعة:

ـ ارحم شبابه وعجزه.

ـ إنه يحدث فتنة.

فقال العجوز:

ـ دعه يسمع ما يطرق أذنيه، لا ضير من ذلك على أحد..

وأكثر من صوت من بين الناس قال:

ـ لا ضير من ذلك على أحد، لا ضير من ذلك على أحد.

أما الشاب فراح يخاطب الضريح قائلا:

ـ يا طبيب القلوب، إنى أسمعك، صوتك يملأ قلبى، يحرك جذور وجدانى، إنى أصعد فى مدارج السماء يا طبيب القلوب..

وهتفت أصوات من الشعب:

ـ تبارك الله القادر على كل شىء.

فصاح الشرطى:

ـ تضليل وتحد لقوانين الأمن.

وقال الولى:

ـ اذهب إلى ولى من أولياء الله أو طبيب من أطباء الدولة!

وقال خادم الضريح:

ـ لقد انتهى عصر المعجزات!

فعادت أصوات من الشعب تهتف:

ـ تبارك الله القادر على كل شىء.

ومضى الشاب الضرير فى مناجاته قائلا:

ـ ما أجمل صوتك يا طبيب القلوب! رقيق كالرحمة، هامس كالسر، عزيز كالنور..

فصاح الشرطى:

ـ دجل يدعو للتجمهر دون إذن من الداخلية!

ولكن الشاب واصل حديثه :

ـ بكل جوارحى أصغى إليك ، أصغى إليك يا بشير النور والأمل .

فتقدم الشرطى من الناس خطوات وصاح :

ـ باسم القانون آمركم بالتفرق .

فقال أكثر من صوت :

ـ دعنا نشهد معجزة . .

ـ اذهبوا وإلا حملتكم على الذهاب بالعصا !

ـ لن تمنعنا قوة من شهود معجزة مباركة !

توثب الشرطى للهجوم فتوثب الجمهور للدفاع دون أن يتزحزح عن مواقعه . وإذا بالشاب الضرير يهتف :

ـ ليفتح الباب ، ليفتح الباب ، بذا أمر طبيب القلوب .

فارتفعت ضجة بين الجمهور وصاحت الأصوات :

ـ افتحوا الباب . . افتحوا الباب . .

وهتف الشاب الضرير متشكيا :

ـ إنه يدعونى إليه !

فهتفت أصوات فى حماس جنونى :

ـ افتحوا الباب ، الروح تريد أن تنطلق . .

فقال خادم الضريح :

ـ لن أفتحه احتراما للأمن والقانون . .

عند ذاك بدأ الشاب الضرير يدفع الباب بمنكبه فتعالى هتاف الجمهور . وأراد الشرطى أن يمنعه بالقوة ، ولكن الشاب دفعه بعنف فرمى به بعيدا . وانفجر حماس الجمهور فاضطر الرجال الثلاثة إلى التنحى جانبا اتقاء لغضبة لا قبل لهم بها .

وفتح الباب تحت وقع دفعات الشاب القوية فاجتاح الهتاف الساحة كالانفجار . ولم يتردد الشاب فدخل متلمسا طريقه بيديه حتى اختفى عن الأنظار . وساد صمت . صمت عميق شامل . تركزت الأرواح فى الأعين المستطلعة . انعدم الزمان والمكان . وإذا بصيحة تند عن الداخل . ثم ظهر الشاب فى الباب وهو يترنح . رفع يديه صوب السماء وهتف :

ـ أشهد الله أنى أرى ! . . أشهد الله أن بصرى رد إلىّ !

وقلب عينيه فى وجوه الذاهلين الصامتين وصاح :

ـ أرى الضياء ، أرى الناس ، أرى السماء ، وقد رأيت الروح !

ـ الروح!

ـ تجسدت لعينى فى صورة فتاة ترسف فى الأغلال . .

ـ الله أكبر . . الله أكبر . .

ـ فككت أغلالها بمشيئة الله!

ـ الله أكبر . . الله أكبر . .

ـ وهى تقطر بهاء وجلالا وجمالا . .

ـ الله أكبر . . الله أكبر . .

ـ وبإذن الله سوف تظهر للأعين المؤمنة!

ووثب الشاب نحو الجمهور فوقف فى مقدمته مستقبلا باب الضريح . وساد الصمت مرة أخرى . وتطلعت الأعين نحو الباب فى لهفة عارمة . وفى خطوات وئيدة مترددة ظهرت الفتاة . ظهرت وهى تنظر إلى الجمهور فى ذهول . تعالى الهتاف من الأعماق وركع الجميع فى خضوع .

ـ الله أكبر . .

ـ الله قادر على كل شىء .

ـ يا له من جمال!

ـ يا له من بهاء!

ـ ما لاعين رأت . .

وحان من البعض التفاتة نحو الرجال الثلاثة الواقفين فصرخوا فيهم أن يركعوا فاضطروا إلى الركوع اتقاء للغضب .

وصاح الشاب :

ـ إنى خادمك منذ الساعة وإلى الأبد . .

واستبقت أصوات الجمهور فى خشوع :

ـ رعايتك للغائب .

ـ رحمتك بالمريض .

ـ كرمك للكادح الفقير .

ـ غضبك على الظالمين .

ـ نظرت الفتاة فيما حولها بذهول وتساءلت :

ـ أين أنا؟

فقال الشاب :

ـ من السماء هبطت إلى أرضنا التعسة . .

ـ ماذا أرى؟

ـ أناس طيبون جمعتهم المعجزة بعد أن فرقتهم الهموم .

ـ إنى أشعر بدوار .

ـ إنه دوار من يرثى لحالنا .

ـ كادوا يكتمون أنفاسى!

ـ الويل للأشرار حيث كانوا وحيث يكونون .

ـ اغتصبوا الحلىّ بلا رحمة . .

ـ جواهرك للطيبين لا للمتغتصبين .

ـ أريد الحلىّ . .

ـ ليجد كل مؤمن بك بمكنون جواهره .

انتهز الرجال الثلاثة فرصة انهماك الجمهور وأخذوا يتزحزحون عن مواقعهم بغية الهرب ، ولكن عينى الفتاة وقعتا على الولى وخادم الضريح فأشارت نحوهما هاتفة :

ـ المجرمان!

انقض رجال على الرجلين فدفعوهما أمامهم حتى خرا أمام الفتاة . سألت الفتاة :

ـ أين الحلى؟

لاذ الرجلان بالصمت فقال صوت من الشعب :

ـ الروح ـ تباركت ـ تتحدث عن جواهر حقيقية!

فقال الشرطى :

ـ للروح لغة لا يدركها أحد من البشر!

ـ إنها تتحدث عن جواهر حقيقية .

فعاد الشرطى يقول :

ـ حذار أن تفسروا كلام الروح على هواكم .

ـ اضربوهما حتى يقرا!

ـ إنى مسئول عن الأمن العام .

ـ اضربوهما حتى يقرا .

فقال الولى مرتعدا :

ـ نحن رجال العهد .

وقال خادم الضريح :

ـ فتشونا إن شئتم .

فصاح رجال من الشعب :

ـ اضربوهما حتى يقرا .

وانهالت عليهما اللكمات كالمطر حتى صاح خادم الضريح :

ـ الحلىّ فى حوزة الشرطى .

تحول الجمهور الغاضب نحو الشرطى فقام الرجل وهو يقول بعجلة ولهوجة :

ـ لقد ضبطهما وهما يتقاسمانها فوضعت يدى عليها باسم القانون . .

وبلا تردد تخلص الشرطى من الحلى فوضعها فى الساحة أمام الضريح ، فى موجة هادرة من التكبير والتهليل .

وصاح الشاب :

ـ الآن وضح الحق !

فانخفضت الأصوات رويدا حتى استقر الصمت فاستدرك الشاب قائلا :

ـ أرادت الروح أن تجود ببعض الجواهر على الفقراء فسرقها اللصان ولكن ها هى ذى الجواهر تعود إلى أصحابها !

ـ الله أكبر . . الله أكبر . .

ـ وتلك هى رسالة طبيب القلوب إليكم . .

ـ الله أكبر . . الله أكبر . .

ـ تباركت يا طبيب القلوب .

ـ فلتوزع بالعدل .

ـ تباركت يا طبيب القلوب .

ـ ولتنفق فى الخير .

ـ تباركت يا طبيب القلوب .

وإذا برجل وجيه المظهر يجىء مهرولا . ينظر فيما حوله بذهول حتى تقع عيناه على الحلى فيندفع نحوها كالمجنون هاتفا :

ـ الحلىّ المسروقة !

ولكن الشاب يدفعه دفعة قوية ترجعه القهقرى . وصاح الوجيه :

ـ هذه حليى، وهى مثبتة بالوصف والعيار فى محضر الشرطة . .

فتعالت أصوات الشعب :

ـ كذاب!

ـ لص!

ـ شريك المجرمين!

فقال الوجيه :

ـ لنذهب إلى قسم الشرطة .

ـ اذهب إلى الجحيم .

وفيما يضرب الوجيه كفا بكف يقع بصره على الفتاة . حدق فيها ذاهلا وهتف :

ـ أنت!

وهمّ بالانقضاض عليها، ولكن الشاب دفعه دفعة قوية كادت تطرحه أرضا . وصاح به الجمهور غاضبا :

ـ تأدب فى الخطاب يا وقح . .

ـ أنت غير جدير بالمثول بين يدى روح كريم .

وتساءل الوجيه فى ذهول :

ـ ماذا جرى للدنيا؟!

ولمح الشرطى فلاذ به قائلا :

ـ أنا صاحب الحلى، اذهب بنا إلى القسم . .

فهمس الشرطى فى أذنه :

ـ اصبر، لا جدوى الآن من تحدى الجمهور . .

ـ ولكنها لصة صعلوكة!

فانهالت عليه الأكف .

ـ اقطع لسانك يا وغد .

ـ يا مجدف .

ـ يا لئيم .

وسأل الشاب الفتاة :

ـ ما قولك فى هذا الوقح؟

فأجابت الفتاة بسرعة :

ـ إنه حيوان يتمرغ فى تراب الفتيات ويضن عليهن بالملاليم!

فصاح الجمهور الغاضب:

ـ حيوان.. حيوان..

فقالت الفتاة:

ـ أمواله حلال لكم!

تعالى التهليل والتكبير. هجم عليه رجال أشداء فطرحوه أرضا واستخرجوا من جيوبه جميع نقوده.. وصاح الوجيه:

ـ أيها الشرطى!

فهمس الشرطى:

ـ ماذا يفعل الشرطى بين مجانين؟!

ـ أموالى تنهب بمحضرك!

وصاح الشاب:

ـ أمواله كالحلى هبة طبيب القلوب للفقراء!

فصاح الجمهور:

ـ تبارك الروح الكريم!

فقال الشاب:

ـ تقاسموا المال بالعدل..

وأحاط الجمهور بالشاب وراحوا يتقاسمون النقود والحلى. وجعل الوجيه يهذى قائلا:

ـ ماذا جرى للدنيا؟

وقال الشاب:

ـ الآن تحققت رسالة طبيب القلوب.

وأشارت الفتاة إلى الوجيه والشرطى وخادم الضريح والولى وقالت:

ـ قيدوهم ثم احبسوهم فى الضريح!

ـ هجم الجمهور على الرجال الأربعة فقيدهم ثم حملهم إلى داخل الضريح وأغلق الباب. وسلمت الفتاة المفتاح إلى الشاب قائلة:

ـ أنت خادم الضريح..

ثم نظرت إلى الجموع وقالت:

ـ اذهبوا بسلامة الله .

على رغمهم غادروا المكان فلم يبق معها إلا الشاب ، خادم الضريح الجديد . تبادلا النظر ، من ناحيته بخشوع ومن ناحيتها بشوق . سألته :

ـ لم لَم تأخذ من المال نصيبا؟

فقال الشاب بوجد وافتتان :

ـ حسبى أن أكون خادم ضريحك . .

ـ ماذا كنت تعمل قبل أن تفقد بصرك؟

نشأت فى الطريق حتى التقطنى منه العجوز الطيب فعلمنى صناعته وهى تحضير الأرواح العطرية!

ـ كنت من فتيان الطريق؟

ـ أول عهدى بالحياة .

ـ وكيف فقدت بصرك؟

ـ صدمتنى سيارة عابرة!

ـ ولكنه رد إليك فمبارك عليك . .

ـ بفضل الله وفضلك . .

تفكرت قليلا ثم قالت :

ـ الأصوب أن ترجع إلى عملك الأول مع العجوز الطيب .

ـ بل أحب أن أبقى خادما لضريحك . .

ـ أقول لك ارجع إلى عملك . .

ـ أهو أمر؟

ـ نعم .

ـ سأرجع إلى عملى . .

ـ سأرسل لك بفتاة من الطريق الذى نشأت فيه إذا رأيتها توهمت أنك ترانى . .

ـ ما أجمل أن أرى صورتك على الدوام . .

ـ تزوج بها فهى هبتى إليك . .

ـ سمعا وطاعة . .

ـ وأحسن معاملتها .

ـ سمعا وطاعة . .

ـ ولا تصدق قول الحاسدين فيها .

ـ سمعا وطاعة . .

ـ ولا تفارقها حتى تفارقك الحياة .

ـ سمعا وطاعة . .

ـ اذهب الآن بسلام . .

ـ وددت أن أبقى كظلك . .

ـ اذهب بسلام . .

أحنى الشاب رأسه فى خضوع ، ثم فارق المكان أسيفا حزينا .

وجدت نفسها وحيدة فى الخلاء . تجلت الحيرة فى عينيها .

تساءلت :

ـ ماذا جرى للدنيا ؟ !

وقطبت فى غضب :

ـ إما أننى مجنونة ، وإما أنهم مجانين !

ثم فى ذهول :

ـ الجميع يركعون ، يهللون ويكبرون ، بإشارة من يدى يأتمرون . . ماذا جرى ؟ !

وبغتة سمعت دفعا يصك باب الضريح من الداخل صكا . تولاها الذعر فأطلقت للريح ساقيها . انفتح الباب بقوة الدفع وانطلق منه الوجيه والشرطى وخادم الضريح والولى . وجعل الوجيه يقول فى صخب غاضب للشرطى :

ـ سأحملك مسئولية المهزلة كلها .

ولكن الشرطى قال :

ـ صبرك ، لم يكن فى الإمكان فعل شىء ، جن الناس وإذا جن الناس تطايرت هيبة الشرطى ، ولكن هيهات أن يفلت مجرم من يدى . .

ـ واللصة الصعلوكة أين ذهبت ؟

ـ اعتبرها فى قبضة يدك ، إنى أعنى ما أقول .

ـ وكيف أسترد مالى وحليى ؟

فقال خادم الضريح :

ـ لتلجأ إلى القسم .

ولكن الشرطى اعترض قائلا :

ـ كلا ، للتحقيق سراديب أخشاها !

فسأله الولى :

ـ والعمل ؟

فأجاب الشرطى :

ـ لى وسائلى الخاصة .

ولكن الوجيه قال :

ـ بل لدى فكرة لو قدر لها النجاح ردت إلىّ أموالى الضائعة !

ـ ما هى فكرتك؟

ـ نلجأ إلى الروح !

ـ الروح ؟ !

ـ الروح التى سلبت مالى هى التى ترده إلىّ !

ـ ولكن ذاك حلم !

ـ سنعيد تمثيل الرواية !

ـ نفس الرواية؟

ـ ولكن بممثلين من عندنا .

ـ والروح من أين نأتى بها؟

ـ نفس الروح ، وإذا خرجت عن المرسوم لها مزقناها إربا !

* * *

وفى صباح اليوم التالى طلع أول شعاع على الضريح وهو مغلق والولى جالس أسفل بابه . وإذا بعجوز يسحب وراءه شابا ضريرا نحو الضريح . وجاء رجال فاتخذوا مواقفهم فيما يلى الضريح . وغمز الولى بعينه فراحوا يتصايحون متظاهرين بالدهشة .

ـ هل نشهد معجزة جديدة؟

ـ أجل . . إنها معجزة جديدة !

وترامت أصواتهم المرتفعة إلى أطراف المدينة فهرع إلى ساحة الضريح جموع الأمس ملهوفين وعلى رأسهم الشاب . ولحق بهم الشرطى وخادم الضريح ، وتطلعت الأبصار إلى الشاب الضرير . رأوه مسند الرأس إلى باب الضريح وهو يهتف :

ـ يا رب السماوات !

فسأله العجوز :

ـ مالك يا بنى؟

فقال الشاب بانفعال شديد :

ـ أسمع صوتا يا أبى .

فسرت فى الجموع همهمة سرعان ما انقلبت تهليلا وتكبيرا . وتظاهر خادم الضريح بالقلق فنادى الشرطى بنبرة تحريض :

ـ أيها الشرطى !

ولكن الشرطى أجاب بإذعان :

ـ كفانى ما لقنت أمس من درس ، فلتكن مشيئة الله .

فهتفت الجموع هتاف النصر . وصاح الشاب الضرير :

ـ إنه ينادينى !

فصاح الجمهور :

ـ الله أكبر . . الله أكبر . .

ـ إنى مرهف السمع ، إنى رهن الإشارة يا طبيب القلوب الكسيرة .

ـ تبارك الله القادر على كل شىء .

ـ افتحوا الباب ، إنه ينادينى ، افتحوا الباب .

مضى شاب الأمس ففتح الباب بين التهليل والتكبير . دخل الشاب الضرير ملتمسا طريقه إلى قلب الضريح حتى اختفى عن الأنظار . وساد صمت . صمت عميق شامل . وتركزت الأرواح فى الأعين المتطلعة . وإذا بصيحة تترامى من الداخل وإذا بالشاب يظهر فى الباب رافعا يديه إلى السماء وهو يهتف :

ـ أشهد الله أن بصرى قد رد إلىّ !

فهتف الناس بانجذاب :

ـ الله أكبر . . الله أكبر . .

ـ خلقت الدنيا من جديد ، بنورها وناسها ، فلتتقبلنى خادما لضريحك يا طبيب القلوب .

ـ تبارك الله القادر على كل شىء .

ـ المنة لله ، ما أحلى النور عقب الظلام !

ـ تبارك الروح الكريم . .

وسأله رجل ممن يقفون فى الصف الأول :

ـ ماذا وجدت فى الداخل؟

ـ رأيت الروح يرسف فى الأغلال!

فتساءل شاب الأمس بذهول :

ـ ماذا قيدها بعد أن أطلقتها بيدى؟

ـ قد أخبرت بما رأيت . .

وتتابعت الاستغاثات من الحناجر :

ـ أتم نعمتك يا طبيب القلوب .

ـ يا مفرج الكروب .

ـ يا ناصر الضعفاء والفقراء .

وظهرت الفتاة فى الباب كما ظهرت أمس ، ودوى المكان بالتهليل والتكبير . .

ـ ها هى ذى الروح المباركة .

ـ ترقبوا مزيدا من البركات . .

ـ طوبى للفقراء .

وتساءلت الفتاة :

ـ أين أنا؟

فاستبقت أصوات تجيب :

ـ فى الأرض التى اخضرت بجودك .

ـ ماذا أرى؟

ـ شعبك الشكور .

فقالت بألم :

ـ كادت الأغلال تكتم أنفاسى!

فارتفعت الأصوات غاضبة تتساءل :

ـ من المجرم الأثيم؟

ـ من الجانى الشرير؟

ـ من عدو الأرواح؟

فقالت الفتاة وهى تلحظ المحدقين بها فى يأس :

ـ رمانى فى الأغلال صديق لا عدو ، وبحسن نية لا بسوء طوية!

فانفغرت الأفواه ذهولا فعادت الفتاة تقول :

ـ ما أساء إليّ إلا سوء الفهم والتأويل!

واصلت الأعين حملقتها فى ذهول وتساؤل:

ـ طرحت لغزا فوقعتم فى حبائله!

ـ ليغفر الله لنا.

ـ غاب عنكم أن الروح لا تتكلم بلغة الدنيا.

ـ ليغفر الله لنا.

ـ وأنها تهب الضياء الخالد لا المال الفانى.

فصاح رجال الصف الأول:

ـ ليغفر الله لنا.

أما الآخرون فوجموا وأطرقوا.

ـ وأنها جاءت لتطهر القلوب لا لتحض على النهب والسرقة!

اندحر الجمهور وغرق فى صمت على حين صاح الآخرون:

ـ ليغفر الله لنا.

ـ هكذا وقعتم فى الضلال ونهبتم المال الحلال!

ـ ليغفر الله لنا.

ـ أطلقوا سراحى أيها الأحباء المخلصون.

وبين التكبير والتهليل أخذ الرجال المحدقون بها يدسون أيديهم فى جيوبهم ويرمون بالنقود تحت أقدامها على حين انكمش الجمهور منقبض القلب والصدر والأمل، وأخذوا يتبادلون النظرات كمن يفيقون من حلم. واستبطأهم الآخرون فسألهم الشرطى محتجا:

ـ أتضنون بالحرية على الروح الكريم؟

ولكن واحدا منهم لم ينبس أو يتحرك. وجعل شاب الأمس يحملق فى الفتاة بذهول حتى صاح متأوها:

ـ ماذا أرى؟

فتطلعت إليه الأبصار فصاح بغضب موجها الخطاب إلى الفتاة:

ـ شد ما تغير كل شىء، ماذا أرى؟!

التصقت به الأبصار وهو يمعن النظر بجنون حتى صاح بتحد:

ـ ما أنت بالروح الكريم!

أشرقت أعين الجمهور بالأمل. أما الشرطى فصرخ فيه:

ـ كف عن التجديف يا مارق!

ولكنه صاح بإصرار :

ـ ما أنت بالروح الكريم !

انبعثت من صدور الجمهور موجة استجابة حارة لقوله صدقوه من أعماقهم المعذبة . تغيرت النظرة وتغير المنظور وتتابعت الصيحات فى غضب وثورة :

ـ ما أنت بالروح الكريم .

ـ أين صوت الأمس الحنون؟

ـ أين ذهبت رحمة السماء؟

ـ أين اختفى البهاء والجلال؟

ـ انظروا إلى أسمالها البالية !

ـ انظروا إلى الطين يعلو قدميها !

ـ انظروا التراب يغطى وجهها !

وفجأة وثبت الفتاة مخترقة الحصار المحدق بها رامية بنفسها وسط الجمهور وهى تهتف :

ـ النجدة !

وصاح الشرطى :

ـ ما هذا؟ !

فصاحت الفتاة :

ـ أنا بنت مسكينة لا روح ولا ملاك !

فصاح الشرطى :

ـ أيتها الدجالة الويل لك . .

فصرخت الفتاة :

ـ هددونى بالقتل إن لم أتكلم على هواهم .

فارتفعت الأصوات بالغضب وتكورت القبضات فى تشنج . وانقض رجال من المتآمرين على الفتاة ، ولكن الجمهور تصدى لهم فدارت بين الفريقين معركة حامية . معركة استعملت فيها الأيدى والأرجل والعصى والطوب والأسنان . وقاتل كل فريق بعناد وغضب . ورأى شاب الأمس الفتاة وهى تقاتل كرجل فخطر له أنها فتاته الموعودة فازداد قوة واستبسالا .

* * *

استمرت المعركة وهى تزداد عنفا ووحشية . . .

مــوقــف وداع

أفاقا فى وقت واحد. دبت فيهما حركة بطيئة كتقلصات اعترت زوايا الفم والجفون والأطراف. فتحا عينيهما . ندت عنهما آهة عميقة من التوجع. تقلبا على الجنبين. زحفا على أربع مقدار ذراع. جلسا على الرمال. أجالا فى الخلاء المحيط بهما نظرة ثقيلة نصف عمياء. تلاقت عيناهما فى نظرة عابرة لم تكد تكفى لكى يرى أحدهما الآخر.

ـ ما أثقل رأسى!

ـ ما أثقل رأسى!

ـ لا ريب أنى أغادر مرضا طويلا.

ـ لا شك فى أنى أبعث من موت.

ـ يا له من خلاء ميت!

ـ لعلى فى قبر، أكذلك يبدو القبر من الداخل؟!

وتلاقت عيناهما مرة أخرى.

ـ من أنت؟

ـ من أنت؟

ـ إنك عار تماما كيوم ولدتك أمك.

ـ وأنت أيضا! ألا تدرك ذلك؟

ـ يا للعجب! أين ملابسى؟

ـ أين ملابسنا؟

ـ من أنت؟

ـ من أنت؟

ـ اسمى عبد الواحد.

ـ اسمى عبد القوى.

ـ ترى أسمعت هذا الاسم من قبل؟

ـ محتمل أننى سمعت اسمك كذلك.

ـ ماذا جاء بك إلى هنا؟

ـ ماذا جاء بك إلى هنا؟

ـ فى الذاكرة تلف وعناء .

ـ فى الذاكرة تلف وعناء .

ـ واضح أننا تعرضنا معا لشر واحد .

ـ أجل .

ـ غير بعيد أننى لا أراك لأول مرة .

ـ ويخيل إلىّ أننى عرفت فى حياتى شخصا يقاربك فى الشبه . .

نهضا معا بصعوبة . وقفا يترنحان . أخذا يتنفسان بعمق .

ـ ما الذى جمع بيننا؟

ـ لا يمكن أن نوجد هكذا معا مصادفة .

ـ ثمة علاقة تربط بيننا ، فما هى؟

ـ ما هى؟

ـ سنتخلص من الإعياء والخور ونتذكر كل شىء .

ـ من خبرتى السابقة أؤكد لك أن رأسينا تعرضا لضرب مركز .

ـ ضربنا لنسرق وقد سرقنا بالفعل كما ترى .

ـ ومن خبرتى أيضا أؤكد لك أننا تعاطينا مخدرا جهنميا .

ـ ولكننى لا أتعاطى أى مخدر .

ـ لعله دس إلينا فى غفلة منا!

ـ لعله ، ولكننا سنعود إلى وعينا . .

ـ استيقظى يا ذاكرة ، حقّا إن الإنسان بلا ذاكرة هو لا شىء!

ـ هأنتذا تتنبه إلى أننا من فصيلة الإنسان .

ـ لا يتعرى إلا الإنسان . أما الحيوان فيخلق بملابس طبيعية .

ـ من حسن الحظ أن تكون إنسانا ولو سرقت وتعريت وتألمت .

ـ علينا أن نقاوم الذهول وإلا ذبنا فى الخلاء .

ـ وهو خلاء صامت لن يجيب بحرف لو سئل ألف سؤال .

ـ صدقت .

ـ الحق أن وجهك غير غريب ، ولا صوتك .

ـ كذلك وجهك وصوتك .

ـ نحن نتقدم بلا شك .

ـ الذكريات تقبل حتى أكاد أمسك بها، ولكنها سرعان ما تدبر .

ـ اشحذ جهاز استقبالك .

ـ صه . . ها هى ذى ذكرى، كأنها عواء! وثمة ظلام كأنما يتكدس فى كهف!

ـ حقّا؟! . . وإنى أكاد أمسك بأرقام محددة . . ترى ما هى؟

ـ وثمة إيقاع شيطانى، لعله زار، أتعرف الزار؟

ـ كلا ولكن هناك خطة . . خطة مهمة!

وفرق بينهما صمت . مضى كل منهما يحرك رأسه بشدة . ويتنفس بعمق . ثم تبادلا نظرة حية لأول مرة .

ارتسمت فى وجهيهما الدهشة .

ـ رباه!

ـ عبد القوى!

ـ عبد الواحد!

ـ ماذا حدث لنا أيها الأخ؟

ـ أجل ماذا حدث؟

وساد الصمت مرة أخرى تحت شمس الخريف الدافئة حتى تمتم عبد الواحد :

ـ كنا ماضيين نحو الطريق الزراعى .

ـ أجل رأيناه بالعين على ضوء النجوم .

ـ ثم؟

ـ ثم انقض علينا قطاع الطرق، لا شك عندى فى ذلك .

ـ وسرعان ما غبنا عن الوجود .

ـ آه، تذكرت، كنا قادمين من مخيم البدوى .

ـ ذلك الرجل الكريم الذى استضافنا فى الواحة .

ـ الواحة! . . أجل الواحة . . وقد قضينا وقتا طيبا فى الخيمة . . وتعاطينا . . .

فقاطعه عبد الواحد بحدة :

ـ إنك أنت أصل المصائب!

ـ كلما هفت نفسك إلى لذة مسحت ضعفك فىّ أنا!

ـ أنت الذى شجعته!

ـ لم اشتركت أنت معنا؟

ـ ضقت بالعزلة . .

ـ هى حجتك إذا أردت أن تمسح ضعفك فىّ . .

ـ وقد وصلنا البدوى حتى مشارف الطريق .

ـ وعقب رجوعه بوقت غير قصير وقع لنا ما وقع .

ـ وحملنا المعتدون إلى هذا الخلاء ثم تركونا عرايا !

وجعل كل منهما يقطب متذكرا حتى قال عبد الواحد :

ـ سرقوا ملابسنا بما فيها . .

ـ نقودنا وأوراقنا الخاصة . .

ـ تركونا بلا شىء فى لا شىء .

ـ فنحن وما حولنا لا شىء .

ـ هراء ما تقول !

ـ ولكنك أنت من قلته !

ـ إنى لا أتكلم ، ولكنى أفكر والتفكير طرح فروض واحتمالات . .

ـ معذرة يا أخى ، ولتفكر فى هدوء .

ـ ويجب أن تفكر أنت أيضا .

ـ إنما اعتمادى ـ بعد الله ـ على إحساسى الباطنى وحده .

ـ ماذا يقول لك إحساسك الباطنى ؟

ـ إنها ستفرج من حيث لا ندرى !

ـ ربما هلكنا قبل ذلك .

فرفع عبد القوى كتفيه العاريين فى صمت واستسلام فقال عبد الواحد :

ـ لقد سلبونا جميع ما نملك إلا العقل .

ـ وهو ما زال فى شبه غيبوبة .

ـ أجل ، ولكن من اليسير أن ندرك أن علينا أن نذهب إلى أقرب نقطة شرطة .

ـ فكرة صائبة ، هيا بنا . .

ـ لا تتعجل ، أنسيت أننا عرايا يستحيل عليهم مواجهة الناس ؟ !

ـ ولكنك أنت الذى اقترحت ذلك .

ـ قلت لك إنى أفكر وإن التفكير ما هو إلا طرح فروض واحتمالات !

ـ معذرة . .

ـ وإذن فعلينا قبل ذلك أن نحصل على ملابس .

ـ فكرة صائبة ، ولكن كيف؟

ـ أن نعود مثلا إلى صاحبنا البدوى .

ـ أسرع ، لنسرع أيها الأخ . .

ـ ولكننا فى خلاء مجهول لا ندرى شيئا عن موقعة ولا بوصلة معنا ولا مرشد .

ـ لم يبق إلا أن ننتظر حتى يعبر أحد فننهبه كما نهبنا .

ـ وأى مجنون يعبر هذه المتاهة؟

ـ يا لها من ورطة مضحكة!

ـ مضحكة!

ـ المآزق تبعث فى نفسى الضحك .

ـ ذاك أنك أهوج ملهوج لا يركن إليه فى أزمة .

ـ أنسيت مواقفى فى نجدتك عند الخطر؟

ـ لا يمكن أن ينسى ذلك ولكن لا تضحك فى المآزق!

أحنى عبد القوى رأسه مستجيبا أو متظاهرا بالاستجابة فواصل عبد الواحد كلامه قائلا :

ـ اتفق الرأى على أننا نزلنا ضيفين فى خيمة البدوى ، ولكن ما الذى دفع بنا إلى الواحة؟

ـ ولكنك لم تحل مشكلة وجودنا فى الخلاء عرايا بعد؟

ـ يقتضى حلها بالرجوع إلى الوراء قليلا فنحن لم نستكمل الوعى بنفسنا وحالنا بعد .

ـ فليتم ذلك قبل أن نهلك فى الخلاء .

ـ لا تبدد الوقت ، ماذا جاء بنا إلى الواحة؟ . لا أظننا من أهل الواحات؟

ـ الثابت أننا من أهل الأرض .

ـ أين كنا قبل أن نذهب إلى الواحة؟ . . ولم ذهبنا إلى الواحة؟

فضرب عبد القوى جبهته بكفه وصاح :

ـ شد ما كانت جيوبى ملأى بالنقود!

ـ ولكننا لا يمكن أن نعد من الأغنياء بحال!

ـ صه ، ها هى ذى ذكرى تقع فى قبضتى ، الاستراحة! . . ألا تذكر الاستراحة؟!

ـ الاستراحة! . . أجل . . الاستراحة والحديقة وبركة البط .

ـ برافو . . والركن القصى حيث قبعت مجموعة من الأفندية؟
ـ أجل . . كانوا يلعبون الورق . .
ـ وجعلت أنا أتابع اللعب من بعيد .
ـ وحذرتك من ذلك .
ـ ولكنى لا أملك أن أرى اللعب دون أن أتفرج .
ـ قلت لك ابتعد .
وإذا بأحدهم يسألنى برقة : «أتريد أن تنضم إلينا؟» .
ـ وهمست فى أذنك أنهم زملاء وقد يتضامنون عليك . .
ـ والخطر لا يخيفنى بقدر ما يستفزنى للتحدى . .
ـ سجية مفيدة فى مجالها مضرة فيما عدا ذلك .
ـ ولكنك أنت نفسك لحقت بى فى اللعب!
ـ عندما طالت بى الوحدة!
ـ كلا . . عندما ثبت لديك أن اللعب نظيف وأننى أربح باستمرار!
ـ ليس إلا أننى أكره الوحدة!
ـ وسرعان ما انهمكت فى اللعب . .
ـ وقد ربحت أنت مالا طائلا . .
ـ ثروة! . . أخذتها من أصحابها لأهبها لقطاع الطرق . .
ـ وأعقب ذلك معركة!
ـ رمانى أحدهم بتهمة باطلة فلكمته!
ـ ولكنها اتسعت واضطررت إلى المشاركة دفاعا عنك ونلت نصيبى من الضرب الأليم . .
ـ ولكننا انتصرنا فى الضرب كما انتصرنا فى اللعب .
ـ وبعد أن ورطتنا فيما لا يليق!
استمتع عبد القوى بلحظات من الارتياح على حين مضى عبد الواحد يفكر حتى رجع يتساءل :
ـ ولكن ماذا دفع بنا إلى الاستراحة؟
أفاق عبد الواحد من لحظاته السعيدة فحدجه بنظرة بلهاء . وتساءل عبد الواحد :
ـ أين كنا قبل أن ننزل بالاستراحة؟

ـ الاستراحة . . الواحة . . مؤكد كنا نقوم برحلة .

ـ من أين؟ وإلى أين؟ . . أعمل ذاكرتك الفذة .

ـ ولكنها ما زالت فى قبضة المخدر وعلقة قطاع الطرق!

ـ تغلب على ضعفك الطارئ فأنت رجل مخلوق للشدائد .

راح عبد القوى يعصر ذاكرته مليا ، ثم قال :

ـ أذكر أننى رفعت بين يدى رجلا يرتدى جبة وقفطانا وطرحته أرضا!

ـ ولكن خصومنا فى الاستراحة كانوا أفندية!

ـ أكان أحد قطاع الطرق؟

ـ ولكنا لم ندخل معركة معهم فقد غدروا بنا بغتة فغبنا عن الوجود .

وإذا بعبد القوى يصيح متهللا :

ـ كان الرجل صاحب الراقصة!

ـ الراقصة؟!

ـ ملهى الزهرة . . ملهى الزهرة بالمدينة . . كنا فى المدينة قبل أن نمضى إلى الاستراحة!

ـ عفارم عليك . . كنا حقّا فى المدينة .

ـ قضينا ليلة عجيبة . .

ـ الله يكسفك!

ـ حياك الله يا ملهى الزهرة!

ـ أنت الذى قدمتنى إليه . .

ـ ينبغى أن أستحق شكرك .

ـ وشربت ، وشربنا ، ولكنك جاوزت الحد .

ـ وكانت الراقصة تضىء كاللؤلؤة . .

ـ ورغم تحذيرى لك فإن النهم تجلى فى عينيك كوحش ضار . .

ـ كنت تحذرنى يا أخ وتسترق إليها النظر .

ـ الإعجاب بالجمال فى ذاته من ضمن أشواق العقل!

ـ لذلك لم أنسك فى مغامراتى الباهرة فساومتها على ليلة كاملة لرجلين معا!

ـ أخزاك الله!

ـ ولم تمانع الفاتنة . .

ـ مؤامرة حيوانية .

ـ ولكنها ضمنت لكلينا ليلة ساحرة.

ـ ثم اعترضتنا متاعب غير متوقعة ومخجلة..

ـ كان ثمة عشاق قدامى لها اعتبروا مغامرتنا اعتداء صارخا على رجولتهم..

ـ وهكذا خضنا فى طريقنا إلى بيتها معركة حامية..

ـ وانتصرنا انتصارا حاسما.

ـ وكدنا نقع فى قبضة الشرطة..

ـ ولكن الله سلم وقضينا ليلة حمراء مترعة بجنون اللذة..

ـ وها نحن أولاء عرايا فى خلاء ميت!

ـ ولكن الليلة الحمراء لا يمكن أن تنسى..

ـ لولا حماقتك ما وقعنا فى هذا المأزق.

ـ حماقاتى قادتنا من لذة إلى لذة، ومن نصر إلى نصر..

ـ حتى مجرد الاعتراف بالخطأ تأباه، أيها العنيد المكابر، أتذكر كم من مرة قلت لك إن العبث قد يحول بيننا وبين إنجاز مهمتنا.

وسرعان ما تبادلا نظرة حادة منزعجة!

وهتف عبد القوى:

ـ ماذا قلت؟.. أعد ما قلت مرة أخرى؟

فقال عبد الواحد بذهول:

ـ يحول بيننا وبين إنجاز مهمتنا!

ـ إذن فهنالك مهمة تتطلب الإنجاز؟

ـ صبرك.. دعنى أتذكر بهدوء..

ـ بهفوة لسان تذكرت أخطر شىء فى رحلتنا..

ـ مهمة.. أى مهمة؟.. دعنى أتذكر.

ـ لا شك فى أننا كنا فى العاصمة قبل أن ننتقل إلى المدينة.

ـ أجل.. لا شك فى ذلك.

ـ وهأنذا أتذكر آخر ليلة لنا فيها، كنا فى زيارة للكهف الذى أقام فيه الوجوديون معرضهم التشكيلى!

ـ صدقت أيها الأخ عبد القوى.

ـ وقابلنا هناك الزميل نوح فأمرنا همسا بأن نذهب من فورنا إلى مستشفى الولادة لمقابلة الدكتور المولّد رئيس وحدتنا السرية ومندوب الزعيم.

ـ وذهبنا إلى المستشفى فانتظرناه فى حجرته حتى يفرغ من توليد امرأة . .

ـ وجاءنا فتحدث معنا عن رحلتنا .

ـ أمرنا أن نسافر إلى الجنوب ، ولكن لِم لَم نسافر إلى الجنوب رأسا؟

ـ رسم للسفر خطة معقدة ، فكان علينا أن نذهب أولا إلى المدينة فالاستراحة ثم الواحة قبل أن نمضى إلى الجنوب .

ـ أجل وحدد لكل مكان وقتا ومدة إقامة ، ولكن ماذا كانت المهمة؟

ـ آن لنا أن نتذكر أخطر ما فى رحلتنا .

ـ أذكر أنه انتحى بك جانبا مقدار خمس دقائق فلم أسمع ما دار بينكما .

ـ ألم أحدثك عن المهمة عقب مغادرتنا المستشفى؟

ـ نعم ، مؤكد أننى لم أعرف شيئا عن المهمة ، ولكنك . . .

ـ ولكننى؟

ـ ولكنك قلت لى ونحن فى الطريق نصف المظلم إننا سنعرف المهمة عندما نصل . .

ـ ذاك يؤكد أننى لم أكن أعرفها وقتذاك .

وهنا صاح عبد القوى متهللا :

ـ قلت إنها فى جيبك ، إنه سلمك مظروفا مغلقا لا يجوز فضه قبل الوصول .

ـ أحسنت التذكر . .

وضرب يده على موضع الجيب فأصابت لحم فخذه الضامرة فصاح بحسرة :

ـ يا للداهية السوداء ، لقد سرق المظروف فيما سرق من أموالنا !

ـ يا للكارثة !

ـ إنك أنت المسئول عما حاق بنا .

ـ لا تمسح فىّ ضعفك .

ـ اعترف بجنونك .

ـ إنى راض عن نفسى فاعترف أنت بضعفك . .

وتبادلا نظرة نارية ، تلاقى فيها الغضب بالتحدى ، ولكن عبد الواحد انتزع عينيه يائسا ، رمى ببصره إلى الخلاء ، ثم تنهد قائلا :

ـ نهاية خليقة بالحشرات !

فقال عبد القوى :

ـ لا تنس مشكلتنا الراهنة ، علينا أن نتخلص من ورطتنا !

لم ينبس عبد الواحد فعاد عبد القوى يقول :

ـ لنبحث عن العمران ، وسنحصل بوسيلة ما عما يسترنا ، ولنرجع بعد ذلك إلى الدكتور .

ـ هذا يعنى القضاء علينا .

ـ حتى إذا علم باعتداء قطاع الطرق علينا؟

ـ له قدرة خارقة على أن يقررنا حتى نقر بما يديننا!

ـ ولم لَم يفض إليك بالمهمة من بادئ الأمر؟

ـ إنه أدرى بما ينبغى أن يتبع .

ـ ولكننا نحن الذين نقوم بالمغامرة ومن حقنا أن نعرف .

ـ لقد دخلنا التنظيم باختيارنا وقبلنا لائحته دون شرط ، فما وجه اعتراضك الآن؟

ـ كان علينا أن نرفض أن نكون مجرد آلات .

ـ بالتنظيم كذلك أناس لا عمل لهم إلا التفكير والتدبير .

ـ ولِم يختصون هم بالتدبير ونختص بالتنفيذ الأعمى؟

ـ لا يستقيم التنظيم إلا بتوزيع دقيق للعمل .

ـ ومتى ثبت لهم أننا دونهم فى التفكير والتدبير؟

ـ يبدأ العضو عادة بعمل تنفيذى ثم يتدرج فى مدارج الرقى .

ـ كلام جميل . أما الواقع فهو أنهم يستأثرون بالعلو والأمان ونتعرض نحن كل ساعة للموت ، وتمر الأيام ونحن نمنى النفس بترقية لا تريد أن تتحقق أبدا!

ـ الحق أنه لا هم لك فى دنياك إلا التمرد وانتهاب اللذات!

فرفع عبد القوى كتفيه العاريتين امتعاضا وأطبق فاه ، فقال عبد الواحد :

ـ شد ما يغضبك قول الحق!

فتساءل عبد القوى ساخرا :

ـ خبرنى عن تفكيرك ماذا أفادنا؟

فتساءل عبد الواحد بالسخرية نفسها :

ـ حدثنى عن إحساسك الباطنى ماذا أفادنا؟

فنفخ عبد القوى مغيظا وقال متشكيا :

ـ آن لنا أن نبحث عن طريق للخلاص .

ـ حسن ، لنسأل أنفسنا ماذا نريد ، وعلينا أن نجيب عن ذلك بوضوح .

ـ نريد العمران، الملابس، المظروف الضائع، مواصلة الرحلة . . .

ـ قد نهتدى إلى العمران، وقد نجد ما نغطى به جسدينا، ولكن كيف يمكن العثور على المظروف؟!

ـ نلجأ إلى نقطة الشرطة!

ـ لقد أنهكك الضياع فنسيت أن رجال الشرطة هم أعداؤنا!

فتفكر عبد القوى مليا فى حيرة بالغة، ثم قال:

ـ أصبحنا مطاردين من الشرطة والتنظيم معا فلم يبق أمامنا إلا سبيل واحد!

ـ وهو؟

ـ الهرب!

ـ الهرب؟!

ـ أجل . . الهرب . .

ـ وكيف نحيا؟

ـ لنا خبرتنا فى الحياة، وما أكثر الذين يعيشون خارج نطاق التنظيم!

ـ ولكن كيف؟

ـ لنبدأ من جديد، لنتسول أو نقامر أو نسرق، وهناك تجارة الرقيق الأبيض!

ـ أتتصور أننى أرضى بشىء من ذلك بعد أن اخترت عضوا فى التنظيم، وبعد أن كلفت بمهمة لا يكلف بها إلا الأكفاء؟!

ـ عيبك الأساسى هو الغرور، اعترف بأننا خسرنا اللعبة، ومن حقنا أن نتعلق بأذيال الحياة بأى ثمن . .

فقال عبد الواحد بإباء:

ـ أرفض أن أتعلق بأذيال الحياة بأى ثمن.

ـ ولكن الحياة تستحق ذلك.

ـ لعلى أفضل الانتحار.

ـ أى شىء أفضل من الانتحار.

ـ ليس أى شىء!

ـ لنكن عمليين!

ـ لنكن عمليين ولنفكر فى وسيلة لإصلاح الخطأ وإنجاز المهمة.

ـ بضياع المظروف ضاع الأمل فى ذلك.

ـ لا تتسرع فى الحكم .
ـ حدثنى عن سبيل لمعرفة المهمة . .
ـ فلنستعن بالعقل .
ـ سل عقلك عن سر مدفون فى مظروف مفقود !
ـ إنك لا تحترم العقل ، وذلك هو سر تعاستك .
ـ ولكنى لست تعيسا .
ـ ومن آى تعاستك أنك لا تعرف أنك تعيس .
ـ إنى مسلم بمقدرتك فى الجدل ، وبسخريتك منى إذا حلا لك ذلك ، ولكن من الخير أن توجه قوتك المزعومة إلى حل اللغز الذى تتوقف عليه حياتنا . .
ـ كأنك عازم على الوقوف منى موقف المشاهد أو الشامت؟
ـ اقترحت عليك ما أرى وهو الهرب .
ـ لنمارس حياة وضيعة فى ظل المطاردة؟ !
ـ سنكون مطاردين على الحالين !
ـ مطاردة الشرطة لنا شرف لم نستحقه إلا بالعرق . أما مطاردة التنظيم فهى اللعنة الكبرى !
ـ لست راضيا عن دورى الآلى فيه .
ـ ولكنك دخلته مختارا؟
ـ بل لأنك دخلته ، ولأنى لم أعتد الحياة بعيدا عنك !
ـ وإذن فعلينا أن نتقبل مصيرنا بالصبر والشجاعة .
فقال عبد القوى متنهدا :
ـ ليكن . . ، حدثنى الآن كيف نعرف المهمة؟
ـ كن معى بكل حواسك ، لقد أمرنا بأن ننزل فى المدينة فالاستراحة ثم الواحة فى طريقنا إلى الجنوب حيث نفض غلاف المظروف .
ـ أجل ، والحق أنى لم أدرك وجه الحكمة فيه ، وقد نفذنا الشطر الأكبر منه بكل دقة ودون جنى أى ثمرة إلا ما حاق بنا من خسران !
ـ لا تنس أننا ضيعنا وقتنا فى العربدة والعراك .
ـ هو خير عندى من المكوث بلا عمل أو تسلية .
ـ فاتتنا أشياء وأشياء لم نفطن لها فى حينها !

ـ ما كان قد كان، انتهينا إلى ما نحن فيه، فما العمل؟
ـ لنسأل أنفسنا ما المهمة الجديرة بعضو التنظيم إذا وجد نفسه فى الجنوب؟
فضحك عبد القوى وأجاب :
ـ قد يقتل أو يشهد حفل كوكتيل!
ـ إنك لا تساعدنى ألبتة!
ـ معذرة، الأفضل أن نتسلل إلى رئيس وحدتنا لنحاول الاتفاق معه . .
ـ أن يعطينا مظروفا جديدا بثمن معقول يمكن دفعه ولو بأقساط .
ـ إنه رجل أمين، وفضلا عن ذلك فالراجح أنه لا يدرى شيئا عما فى المظروف .
ـ لا يدرى شيئا عما فى المظروف؟!
ـ كلا .
ـ يا لها من مهزلة!
ـ إنه تنظيم ضخم ويحسن توزيع العمل بين أعضائه . .
فقال عبد القوى بنفاد صبر :
ـ لنرجع إلى السؤال المطروح، ما المهمة الجديرة بعضو التنظيم إذا وجد نفسه فى الجنوب؟
ـ بالاستقرار والقياس تتضح الأمور فنعرف ما يجب عمله .
ـ ما المهمة الجديرة بعضو التنظيم إذا وجد نفسه، فى الجنوب؟
ـ لا أملك إجابات جاهزة ولكننا نملك خلق الفروض وتجربتها . .
ـ كما يتراءى لنا؟
ـ كما يتراءى لعقولنا!
ـ نفكر ونتعب، نقترح الفروض، نجرب كل فرض، نرتطم بالخطأ، نعاود التفكير والتعب، نقترح فروضا جديدة، وطيلة الوقت نتلفت فيما حولنا بحذر، أن يقبض علينا رجال الشرطة أو يقتلنا رجال التنظيم، وعاجلا أو آجلا سنقع فى المصيدة . .
ـ إنك مثبط للهمم، ولكن حتى لو وقعنا فى المصيدة فسنكون قد أثبتنا حسن نيتنا، وربما نوفق إلى نجاح فذ . يغطى على أخطائنا . . .
ـ عظيم . . عظيم .
ـ ولكنى أراك غير متحمس فى الواقع!
ـ معاذ الله . .

ـ وشارد النظر، سرحت بفكرك بعيدا، فيم كنت تفكر؟

ـ أتريد الحق؟

ـ نعم.

ـ تذكرت كيف هوشت المقامرين فى الاستراحة فربحت فى دور عشرة جنيهات بجوز عشرة!

فقطب عبد الواحد فى استياء وقال:

ـ يا لك من مستهتر!

ـ وعندما جندلت اثنين فى معركة الراقصة بلكمة واحدة مستعرضة!

ـ إنك ثمل بذكريات عفنة..

فقال عبد القوى بحماس:

ـ أصغ إلىّ، إنها ذكريات جميلة، لا أدل على ذلك من أنك شاركت فيها جميعا معتلا بشتى العلل، لا تنكر ذلك، أصغ إلىّ، هلم نهرب، دعنا من خلق فروض خيالية فى الجنوب، دعنا من تعب غير مجد ألبتة، نحن مطاردون، وسنظل مطاردين، وخير لنا أن نهب حياتنا للمغامرات الشائقة.

ـ لا تستسلم لتيار خيالك الجامح، اسبح ضده بقوة، وهلم نبحث عن العمران..

فضرب عبد القوى الأرض بقدمه فى عناد وقال:

ـ كلا.

ـ ثق بأننا سنعرف المهمة.

ـ كلا!

ـ إنى أطالبك بالسير معى..

ـ كلا.

ـ معنى ذلك أننا سنفترق.

ـ لنفترق.

ـ ولكنك قلت إننا اعتدنا الحياة معا.

ـ منذ نشأتنا الأولى!

ـ لم تجرب الحياة وحدك.

ـ ولا أنت.

ـ إذن يجب أن نحافظ على وحدتنا.

ـ تعال معى.

ـ بل عليك أنت أن تأتى معى .
ـ إنى أرفض وصايتك كما رفضت وصاية التنظيم .
ـ لقد انقطع ما بيننا وبين التنظيم ، ولئن زالت عنا ولايته فقد وهبنا الحرية ، ولكنها ليست الحرية التى كانت لنا قبل أن ننضم إليه ، إنها حرية جديدة غير عابثة ، وليست وصاية منى عليك . .
ـ إنك تحسن الجدل ، ولكنى مصر على الرفض !
ـ لا يجوز أن نفترق . .
ـ لا يجوز أن نفترق . .
ـ هلم معى . .
ـ هلم معى أنت . .
ـ ليتقدم كل منا خطوة من جانبه ، عندى اقتراح للتوفيق .
ـ ما هو ؟
ـ ليكن لكل منا اختصاصه وليعمل فى دائرته ولكن تحت شرط !
ـ وهو ؟
ـ أن تسلم بالمهمة ، لا تهرب منها ولا تنكرها ، فبدونها تضحى الحياة لا شىء . .
ـ ولكن المظروف سرق ؟
ـ لا يهم ، إن فقده يعنى الانفصال عن التنظيم ، لا إهمال المهمة أو الكفر بها ، بل لعل الإيمان بالمهمة هو الذى دفعنا إلى الانضمام إلى التنظيم وليس العكس . .
ـ بوسعك دائما أن توقع عقلى أسيرا لمنطقك ، ولكن كلماتك لا تنفذ إلى باطنى . .
ـ اقتراحى يبدو لأول وهلة خارقا للمألوف ، من أين لنا أن نعرف المهمة ؟ ولكن من الأصل فى اقتراح المهمة أليس هو الزعيم المجهول ؟ حسن ، وأليس هو يقترح المهمة بعقله ؟ حسن ، فلم نتصور أن عقله فوق جميع العقول ؟ بل حتى مع التسليم بتفوقه فهل يعنى هذا التسليم بعجز عقولنا ؟ فإذا انقطعت الصلة بيننا وبينه فما علينا إلا أن نفكر ، ثم إن الصلة بيننا وبينه مقطوعة فى الواقع من بادئ الأمر فنحن لا نعرف إلا مندوبه الذى يرأس وحدتنا ، ولا علم لنا عن مدى صلة المندوب به ، ولا يبعد أنه يترك للمندوبين مهمة اقتراح المهمة . .
ـ هأنتذا تتشكك فى القيادات العليا نفسها ؟
ـ أنا لا يهمنى إلا المهمة ، فيها أكتسب وظيفتى فى الحياة وبغيرها لا يبقى لى إلا العدم ، ولقد اعتدنا أن نسلم بالمهمة على ثقتنا بالزعيم ، ولكن ليس ثمة فارق كبير أن تقوم بالمهمة لذاتها وبين أن تقوم بها لحساب زعيم مجهول . .

ـ هل البدء بالمهمة يعنى الانتهاء إلى الزعيم؟

ـ كل شىء محتمل، قد يؤهلنا النجاح لوظيفة المندوب فنتصل بالزعيم، وقد يتضح لنا أن المندوبين أنفسهم لا يتصلون بالزعيم كما يدعون، وقد يثبت لنا أن التنظيم يدار بطريقة جديدة لم تجر لأحد على بال.

ـ وإذا تبين لنا أن إنجاز المهمة قد يكلفنا حياتنا؟

ـ ألم يكن من الجائز أن نفقدها فى بيت الراقصة؟

ـ أن أموت بين يدى راقصة أفضل من أن أموت وراءك!

ـ علينا أن نختار على ضوء احترامنا لأنفسنا.

ـ بكل صراحة أنا لا يهمنى الاحترام!

ـ بل إنك تشعل معركة لأقل إهانة توجه لذاتك!

ـ لا علاقة لذلك بالاحترام الذى تطالبنى به.

ـ لقد أصبحنا وحدنا: فإما أن نختار العمل كأعضاء محترمين رغم زوال صفة العضوية الرسمية عنا، وإما أن نرضى بحياة الصعلكة..

ـ إنى أعشق حياة الصعلكة!

ـ يا لك من مجنون!

ـ يا لك من رجل متعب!

ـ يا للحزن! إن الانفصال يهدد وحدتنا الرائعة..

ـ إنه لأمر محزن حقًا.

ـ انفصلنا عنه، وننفصل عن بعضنا البعض، سلسلة من الانفصالات لا أدرى أين تقف..

لاذا بالصمت وهما يتبادلان نظرة طويلة. وهمّ عبد الواحد بالكلام، فتح فاه ولكنه سرعان ما أطبقه. ورفع رأسه نحو السماء فى دهشة. ورفع عبد القوى رأسه كذلك وهو يتمتم:

ـ صوت طائرة!

ـ أجل.

ـ ولكن أين هى؟

أشار عبد الواحد إلى الأفق قائلا:

ـ هيلوكبتر!

جعلا ينظران إليها وهى تقترب وتتضح فى سمت السماء، وقال عبد القوى:

ـ هلم نلوح بأيدينا لعلهم يروننا . .

ـ لوّح . . ولكنهم لا ينظرون إلينا . .

فصاح عبد القوى :

ـ انظر . . إنها تهبط !

هبطت بتؤدة كأنما تمضى إلى هدف محدد حتى استقرت فوق الأرض غير بعيدة منهما وهما يتطلعان إليها بذهول . وتساءل عبد القوى :

ـ هل هبطت من أجلنا؟

ـ لعلها مناورة لا علاقة لها بنا . .

ـ أو أنها . . .

ولكنه انقطع عن الكلام عندما انفتح بابها ، وتدلى السلم نحو الأرض . ولاح فى الباب رجل يحمل حقيبة متوسطة الحجم سرعان ما أخذ فى النزول . ضيق عبد الواحد عينيه ليحدَ بصره ثم هتف :

ـ زميلنا نوح !

ـ أجل . . هو الزميل نوح . .

مضيا نحوه فتلاقوا فى منتصف المسافة . تهلل وجهاهما بالفرح ، ولكنه قابلهما بوجه جامد لا يفصح عن أى تعبير إنسانى ، فباخا وهما يصافحانه ، وصافحهما بآلية صماء . ودون أن ينبس بكلمة فتح الحقيبة وأخرج لكل طاقم ملابس متكاملة . ارتديا الملابس الداخلية والخارجية فى فتور وقلق . ولما فرغا نظر إليه فى استطلاع فأشار صوب الطائرة وقال :

ـ الطائرة تحت تصرفكما إذا رغبتما فى العودة .

وساد الصمت قليلا حتى تساءل عبد الواحد :

ـ كيف عرفتم بمكاننا أيها الزميل؟

ولكنه لم يجب فعاد عبد الواحد يقول :

ـ لعلهم أرسلوا وراءنا عيونا؟

لم يبد عليه أنه سمعه ، فقال عبد الواحد بإصرار :

ـ أرجو أن يكون رجالنا قد استردوا المظروف المسروق !

فثابر على صمته دون مبالاة . فقال عبد القوى باسما :

ـ بحسن نية أيها الزميل ارتكبنا بعض الأخطاء ، ودون تقدير للعواقب !

كأنه أصم لم يستجب ، ولكن عبد القوى لم ييأس فسأله :

ـ هل نجد محاكمة عادلة ورحيمة ونمنح فرصة جديدة للعمل؟

قام الصمت كجدار سجن. ولما لم يحاولا الكلام مرة أخرى قال نوح وهو يتناول الحقيبة الفارغة:

ـ سأنتظر فى الطائرة ثلث ساعة ثم أرجع من حيث أتيت.

ورجع كما جاء فرقى فى السلم حتى اختفى داخل الطائرة. تبادلا نظرة حائرة، ثم تساءل عبد القوى:

ـ ما له يعاملنا كأنه غريب أو عدو؟

ـ إنه ينفذ ما أمر به.

ـ ماذا تظنهم فاعلين بنا؟

ـ سنقدم إلى محاكمة عاجلة.

ـ وما العقوبة المتوقعة؟

ـ العقوبات تتراوح بين الإعدام والخصم من المرتب.

ـ لو كنا نستحق الإعدام فى نظرهم لأمروه بقتلنا فى هذه المتاهة!

ـ لا تعتمد على المنطق فى فهم نواياهم.

ـ ستوقع علينا عقوبة ما ثم نمنح فرصة جديدة للعمل، هذا هو إحساسى!

ـ أترى أن نعود معه؟

ـ إنه المخرج الوحيد من حيرتنا إلا . . .

ـ إلا؟

ـ إلا إذا وافقتنى على الهرب!

فنفخ عبد الواحد فى ضيق وقال:

ـ لا تعد إلى ذلك.

ـ إذن فلا مفر من العودة.

ـ ألم تتمرد منذ حين قليل على الوضع الذى يجعل منا آلات صماء؟!

ـ ولكنك تكره فكرة الهرب وتقترح ـ بدلا من التنظيم ـ حياة غريبة لا يقين فيها ولا أمان.

ـ ولكنك لعنت دورنا الآلى فى التنظيم!

ـ معذرة أيها الزميل، لا رأى لى إذا اعتبرت الرأى عقيدة ثابتة، إنما أنا ابن الساعة التى أنا فيها . .

ـ وهكذا فأنت ترغب فى العودة؟

ـ ليس ظلما أن ندفع ثمن الخطأ، وسأجد بعد ذلك عملا أنال عليه أجرا، ولن تنعدم الفرص المشروعة للتسلية والمغامرة!

ـ لا فائدة من مناقشتك!

ـ إنى أعجب لشأنك، ألم تبد حرصك الدائم على المهمة؟ ها هى ذى المهمة بأيسر سبيل، ومعها التنظيم كله، والعضوية الرسمية، والمندوب، والزعيم المجهول!

ـ ماذا أقول أيها الزميل؟ لقد عايشت فى هذا الخلاء جوا جديدا، وسلمت نفسى لمنطق جديد، وهيأت إرادتى لحياة جديدة. .

ـ لعلك تبالغ فى الخوف من المحاكمة؟

ـ كلا، فهى لن تكون أقسى من المطاردة التى ستتعقبنا!

ـ أتصر على الاعتماد على نفسك حتى بعد أن هبطت عليك معجزة النجاة؟

ـ لن أطيق بعد اليوم أن أكون آلة صماء.

ـ ولكنه تنظيم كامل، يوزع العمل بكل دقة تضمن النجاح!

ـ لم تعد أعصابى تحتمل المعاملة مع المظاريف المغلقة، ولا المندوب الغامض الذى نلقاه دقائق فى أوقات راحته، ولا الزعيم المجهول الذى لا ندرى عنه شيئا، كلا ثم كلا، وأنت نفسك كنت البادئ بالرفض!

ـ لا تدع فرصة العمر تفلت من بين يديك.

ـ خُيِّل إلىَّ أنى أقنعتك قبل هبوط نوح؟

ـ كلا، إنى أختار واحدا من طرفين، فإما الهرب وإما التنظيم، وها هى ذى الطيارة تنتظر فلا مجال للتردد بعد!

ـ أما أنا فطريقى واضح، سأعيد الرحلة من جديد بدءا من المدينة، ولكن بعقل متفتح لا يغادر كبيرة ولا صغيرة، وفى الجنوب ستنبثق المهمة من صميم رأسى لا من مظروف مغلق!

ـ توقع فى كل خطوة مطاردة من الشرطة أو التنظيم!

ـ سيكون فراقنا موجعا، ولكن لا بد من العودة. .

ـ سنعانى حياة منفصلة لأول مرة، فكر فى ذلك أيها الزميل القديم!

ـ إنه لأمر محزن، ولكن لابد من العودة.

ـ ستوقع عليك عقوبة، سيلاحقك سوء الظن كظلك، سيضاعف ذلك من نصيبك من الآلية.

ـ وأنت! ستهلك فى هذه المتاهة قبل أن تبدأ من جديد!

ـ كلا، لقد جاءت الطائرة من تلك الناحية، فهناك يقع الشمال، وبالتالى عرفت الجهات الأصلية، كما عرفت الطريق إلى العمران، ابق معى!
ـ يا زميلى العزيز سوف تقتل فى العمران إن لم تهلك فى الخلاء، تعال معى . .
ـ ستمضى حياتك وأنت ظل لا حقيقة له، تنفذ مهمة لا فكرة لك عنها، ابق معى . .
ـ أنت تخاف المحاكمة!
ـ إنى أرفض المحاكمة، أرفض العقوبة، أرفض العفو، أرفض الأمر الغامض والتنفيذ الأعمى، أرفض المهمة داخل مظروف مغلق، أرفض النجاة الرخيصة فى الطائرة، ابق معى.
ـ إنى أعجب لشأنك كيف انقلبت من النقيض إلى النقيض.
ـ قلت لك إنى ابن الساعة التى أنا فيها، ولكنك أنت أول من فكر فى الانضمام إلى التنظيم، أنت من دافع عنه بحسناته وسيئاته، أنت من قبل بحماس الدور الذى رسمه لك دون مناقشة!
ـ لعل تمردك تسلل إلى نفسى، خالط فكرى بعلم وبغير علم منى، فلما وقعنا فى هذا المأزق تبدت الحقيقة عارية، وانتهيت إلى رأى حاسم.
ـ يحزننى أن يكون تمردى من أسباب انقلابك.
ـ سأشكر لك ذلك ما حييت.
هنا دار محرك الطائرة محدثا دويا كالانفجار، فهتف عبد القوى:
ـ فكر مرة أخرى أيها الزميل.
ـ فكرت بما فيه الكفاية.
ـ أمامك فرصة أخيرة!
ـ وأمامك فرصة أخيرة!
ـ ما أمر الفراق!
ـ إنه لكذلك أيها الزميل القديم.

تنهد عبد القوى يائسا. فتح ذراعيه فتعانقا بحرارة. اشتد دوى المحرك انتزع عبد القوى نفسه من صاحبه. مضى نحو الطائرة فى خطوات ثقيلة. أخذ يرقى فى السلم حتى بلغ الباب. استدار فلوح لصاحبه مودعا فرد الآخر التحية بمثلها. بدأت الطائرة فى الصعود. دومت فى الفضاء. أتبعها عبد الواحد عينيه وهى تبتعد وترتفع وتصفر حتى اختفت فيما وراء الأفق. وجد نفسه وحيدا. وجد نفسه حزينا، ولكنه لم يبدد دقيقة من وقته سدى. شحذ إرادته لينفض عن قلبه الحزن، قلّب وجهه فى الجهات الأصلية ليحدد طريقه إلى العمران. سار متجها نحو الشرق . .

وليـــد العنـــاء

جلس وحيدا فى الصالة. أرهقه ذرعها ذهابا وإيابا فجلس. ثبتت عيناه على الباب المغلق وأرهف السمع. أشعل سيجارة، دخنها بطريقة آلية خالية من الاستمتاع ولم تتحول عيناه عن الباب المغلق. بدت من وراء الباب أصوات مبهمة، حركة أقدام، تأوهات خافتة، أشاعت فى جوه الخالى روحا مبللا بعرق العناء المر. ونظر فى الساعة، مرت عيناه بالنافضة المكتظة بأعقاب السجائر، ونفخ وهو يمد ساقيه.

وفتح الباب فمرقت منه امرأة عجوز مطوقة الوجه بخمار أبيض. . ردت الباب وراءها وتقدمت، ولكنه وثب معترضا سبيلها. انتبهت إليه وقالت برقة:

ـ كل شيء حسن، لا تقلق . .

فقال بانقباض:

ـ ولكن طال الوقت.

ـ إنها ساعة لا يعلم بأسرارها إلا الله فتوكل عليه.

ـ لولا السوابق الماضية ما باليت شيئا . .

ـ لا تذكرنا بما مضى، الطبيبة مطمئنة، قالت إنها ستلد ولادة طبيعية . .

ـ بدأ الطلق فى أول الليل وها نحن أولاء فى الهزيع الأخير منه.

ـ ربك كريم، وعندها طبيبة لا داية، فاصبر وانتظر.

شعر بامتعاض نبرتها فقال:

ـ لا تلومينى يا دادة، هذا زمن الأطباء لا الدايات . .

ـ كم ولدت الداية أمها فى يسر كالسحر.

ـ ذاك زمان مضى، وما من داية تستطيع أن تواجه هذه الحال . .

ـ كم واجهت مثيلات لها فى الماضى . .

ـ كل شيء تغير، حتى المرض نفسه . .

مضت نحو الحمام ثم رجعت بوعاء من الصاج فدخلت الحجرة وأغلقت الباب. وجد شيئا من الطمأنينة. لم يأل جهدا فى إقناع نفسه بها ما دامت الطبيبة قد قالت. دق جرس الباب الخارجى فبادر إليه. استقبل القادم بدهشة وترحاب معا، وهو نحيل طويل يكاد يماثله شكلا ويقاربه فى العمر. أجلسه على مقعد إلى جانب مقعده وهو يتمتم:

ـ خطوة عزيزة، أهلا بك . .

ـ علمت بالخبر وأنا عائد من سهرة طويلة فلم أتردد فى المجىء إليك . .

ـ أشكرك يا عزيزى، إنها ساعة متأخرة جدّا . .

ـ لا شكر على واجب . .

ـ ولكن كيف علمت بالخبر؟

ـ من أكثر من مصدر فيما يخيل إلىّ . .

ـ لم أتصور أن أحدا علم به سوى أمها . .

ـ أنت يا صديقى لا تعلم بما يدور حولك .

ـ حدثنى عن مصادرك!

ـ لا أدرى، لا أذكر . .

ـ لا تدرى ولا تذكر؟!

ـ كنت وقتها ثملا بالشراب!

ـ وكانوا سكارى؟

ـ المهم كيف حال الست؟

ـ قالت الطبيبة إنها ستلد ولادة طبيعية . .

ـ حمدا لله .

ـ ولكن السوابق تقلقنى . .

ـ لا لوم عليك فى ذلك .

ـ ولكن لا يجوز الخوف من السوابق أكثر مما ينبغى .

ـ عين الحكمة والصواب .

ـ أهذا هو رأيك أيضا؟

ـ علينا أن نستفيد من السوابق لا أن نخافها .

ـ كانت سوابق إجهاض جبرى ونزيف .

ـ لا أعادها من أيام .

ـ ترى كيف يمكن الاستفادة منها؟

ـ بأن نتجنب الأسباب التى أدت إليها . .

ـ ولكنه الحبل نفسه؟

ـ فلنتجنبه .

ـ ولكن أمر الله نفذ وكل شيء بأمره .

ـ أظن لك دخل فى الأمر أيضا؟

ـ طبعا . .

ـ مأثور عنك حب الأبوة بلا حدود . .

ـ لا أنكر ذلك .

ـ صدقنى إنه حب لا معنى له .

ـ إنه أصل الوجود!

ـ لا معنى له فى هذا العصر .

ـ إنها مداعبة ولا شك؟

فقال الصديق وهو يشير إلى الباب المغلق :

ـ أهذا وقت تجوز فيه المداعبة؟

ـ ولكنه أصل الوجود بلا ريب .

ـ فى عصرنا هذا تقع له مضاعفات لم تكن معروفة قديما .

ـ الطبيبة قالت إنها ستلد ولادة طبيعية .

ـ فليباركها الله .

ـ ولكن الوقت طال وها نحن أولاء فى الهزيع الأخير من الليل؟

ـ يا لها من معاناة تهتز لها الأفئدة .

ـ أسعفنى برأيك؟

ـ لا رأى لى يعتد به فى هذه الشئون ، ولكن ماذا قالت الطبيبة فى السابقة الأولى؟

ـ كانت فى الواقع داية ولذلك أرجعنا الإجهاض الجبرى إلى جهلها . .

ـ والسابقة الثانية؟

ـ قالت الطبيبة إن النزيف حدث نتيجة لعيب فى الجهاز . .

ـ وهل برأ الجهاز من عيبه؟

ـ هيأت لها ما استطعت من دواء .

ـ إذن فلا داعى للقلق .

ـ ولكن الوقت طال والمعاناة تتراكم .

وانطلقت من وراء الباب المغلق تأوهة عميقة ، أعقبتها صرخة مدوية ، ثم موجة متقهقرة من الأنين . صمت الزوج محدقا فى الباب ، ولما مضى الانتظار بلا نتيجة قال الصديق :

ـ لعله البشير . . .

ـ هى حال تتكرر من أول الليل .

ـ يا لها من ولادة عسيرة!

ـ ولكن الطبيبة قالت إنها ستلد ولادة طبيعية .

ـ إذن فهى ولادة طبيعية طويلة!

ـ من أين لى باليقين؟

ـ فلنرجع إلى أهل الخبرة .

ـ لديها طبيبة ممتازة .

ـ الآراء تختلف .

ـ هل لديك اقتراح عملى؟

ـ دعنا نفكر .

ـ قلت إن الآراء تختلف .

ـ هذا قول صادق فى ذاته .

ـ كيف نبلغ اليقين؟

ـ الحقيقة بنت البحث!

ـ إنك مغرم بالأقوال المأثورة .

ـ سجية جميلة فى ذاتها!

ـ ولكن لا وقت لدينا للبحث .

ـ هذا حق . .

ـ فكرى تبلبل .

ـ هذا حق .

ـ أراها حالا مرضية . .

ـ هى أحيانا كذلك!

ـ لم يبق إلا الصمت والانتظار .

ـ قد تفوت فرصة نادرة!

ـ فماذا أفعل؟

بعد تردد :

ـ الصمت والانتظار!

ـ ولكنك قلت إنه قد تفوت فرصة نادرة؟

ـ وقد لا يحدث شىء!

ـ فكيف أتصرف؟

ـ فكر!

ـ أإذا فكرت تلد امرأتى بسلام؟

ـ يتوقف ذلك على نوع العلاقة بين التفكير والولادة!

ـ ترى أى نوع من التفكير يمكن أن يؤدى إلى الولادة السعيدة؟

ـ فكر!

ـ يبدو أنك لا تعرف أكثر مما أعرف.

ـ وربما أقل!

فسأله بنرفزة:

ـ لم جئت؟

ـ جئت مدفوعا بواجب اللياقة..

ـ شكرا.

ـ عفوا.

ـ فى أمثال هذه الظروف يقدم المجاملون ما فى وسعهم من خدمات؟

ـ إنى على أتم استعداد.

ـ ماذا فى وسعك أن تفعل؟

ـ أأنت فى حاجة إلى نقود يا صديقى؟

ـ إنى فى حاجة إلى من يسعفها هى.

ـ عندها طبيبة ممتازة.

ـ ترى هل أخطأت؟

ـ أنت؟

ـ نعم.

ـ ما كان يجوز أن تتركها تحبل.

ـ إنها بنت غلطة.

ـ بل أنت مجنون بالأبوة..

ـ هذا شأن الرجال جميعا.

ـ احذر الأحكام الشاملة . .

ـ إذن لماذا يتزوج الرجال؟

ـ أفكرت يوم عشقتها فى الأبوة أم فى الاستمتاع بها؟

ـ الاستمتاع يخمد، أما الأبوة فخالدة!

ـ ما كان أجدرك أن تجد فى السابقتين نذيرا!

ـ الحياة إقدام لا نكوص.

ـ إذن فلتتحل بالشجاعة.

رماه بنظرة نافذة. همّ بالكلام ولكن الباب فُتح وخرجت امرأة فى الخمسين منهوكة القوى. وقف الزوج لاستقبالها. قدم لها صديقه وقدمها له باعتبارها حماته. رفضت المرأة الجلوس وظلت متجهمة الوجه. سألها بإشفاق:

ـ كيف الحال؟

ـ الحمد لله . .

ثم بحدة موجهة خطابها للزوج:

ـ إنى أحتج على ما تذيعه فى كل مناسبة من التشكيك فى كفاءة ابنتى للحبل!

فقال الزوج محتجا بدوره:

ـ لم أشكك فى كفاءتها، ولكن الحكمة تقتضى تذكر الأزمات السابقة!

ـ لا عيب فى ابنتى على الإطلاق.

ـ إنى مؤمن بذلك.

ـ العيب فيك أنت!

ـ أنا ؟!

ـ طالما نغصت صفوها بنزواتك حتى سممت بدنها فأصبحت جميع شئون حياتها عسيرة لا ولادتها فقط!

ـ علم الله أن زوجا لا يحب زوجة كما أحبها.

ـ وجريك وراء كل من هبت ودبت من النسوان؟

ـ أعوذ بالله، أتصدقين شائعات يفتريها علىّ الحاسدون؟

ـ أنا لا أتكلم بلا حساب دقيق.

ـ وأنا مظلوم ظلم الحسن والحسين.

وتدخل الصديق قائلا بلطف:

ـ أشهد أنه يحبها فوق كل شيء.

فالتفتت إليه متسائلة فى حدة:

ـ ماذا تعرف عن أسرار هذا البيت؟

ـ أعرف ما يجدر بالصديق أن يعرفه.

ـ إذن فأنت خبير ولا شك بغرامياته؟

ـ لا غرام له إلا الأبوة.

ـ بل لعلك تشاركه بعض مغامراته ولذلك تنبرى للدفاع عنه؟

ـ سيدتى!

ـ إنى خير من يفهمكم.

ـ الزوج الوفى يظل وفيا حتى لو تسلل بصره إلى هذه أو تلك من النساء..

ـ ما شاء الله.

ـ صدقينى يا سيدتى، إنه لا يثبت أركان الحياة الزوجية ويجنبها الملل مثل التنقل العابر بين النساء!

ـ هأنتذا تعترف!

فصاح الزوج:

ـ أنا لم أعترف، وأعلن استنكارى لهذه النظرية!

فقال الصديق متراجعا:

ـ إنى أضرب مثلا ليس إلا.

فهتفت المرأة:

ـ يا لسوء حظك يا بنتى!

فقال الصديق:

ـ لا تخلو حياة من المر مهما تكن حلوة، وأشهد أنى ما سمعت زوجة صديقى تشكو قط.

ـ ذلك أنها من الصابرات الصديقات!

ـ لو كان هناك ما يدعو للشكوى لشكت..

ـ حتى الجوع!.. تضورت أياما من الجوع!

فصاح الزوج:

ـ الجوع!!

وقال الصديق :

ـ لعلها تشير إلى الأيام التى ندرت فيها اللحوم؟

فقال الزوج :

ـ على أيامك يا حماتى أكل الناس لحوم الخيل .

فهتفت المرأة فى كبرياء :

ـ كانت أيام بلاء واحتلال .

ـ على أى حال فنحن سعداء ولن نسمح لمخلوق بإفساد حياتنا السعيدة!

دوت صرخة وراء الباب المغلق فألجمت الألسن . أسرعت المرأة إلى الحجرة فأغلقت الباب وراءها .

عاد الصديقان إلى مجلسهما وعاد التوتر يركب الزوج جسدا وروحا . لم يجد من يفرغ فيه شحنة قلقه سوى صديقه فقال له :

ـ كلامك جاوز كل حد . .

ـ كثيرا ما أنسى نفسى فى الحديث فيغلبنى الصدق .

ـ قد يغلبك الصدق مرة أخرى فتخرب بيتى .

وقبل أن يرد عليه دق جرس الباب الخارجى . قام الزوج فاستقبل زائرا جديدا فى تلك الساعة من الليل . عجوز طاعن فى السن . لو قدر عمره بتجاعيد وجهه وغضونه لجاوز المائة ، ولكنه تمتع بحيوية لا بأس بها . وهو نحيل لدرجة مخيفة كأنه محض عظام . برزت وجنتاه وفكاه وغارت عيناه فلم يبد فى محجريهما إلا ظلام . وتربع رأسه فوق عنقه الدقيق ضخما أصلع منبعج الجبين . وعكس الوجه هيئة جامدة بل متحجرة وندت عن القدمين خطوات متقاربة غير مسموعة . قبّل الزوج يده المدبوغة ، قدم إليه صديقه ، قدمه هو باعتباره صديق المرحوم أبيه والمرحوم جده من قبل ، وجاءه بفوتيل فأجلسه بينهما وهو يقول :

ـ لم أتوقع أن تتجشم مشقة الحضور فى هذه الساعة يا عماه . .

فقال العجوز بصوت غائر مثل عينيه :

ـ طال انتظارى للبشرى فقررت زيارتك . .

ـ ما كان ينبغى أن تكلف نفسك هذا التعب .

ـ هل من خدمة يمكن أن أقدمها لك؟

ـ لا مطلب لى إلا زوجتى .

ـ يُخيّل إلىّ أنها ولادة عسيرة حقّا؟

ـ قالت الطبيبة إنها ستلد ولادة طبيعية .

ـ عظيم . .

ـ ولكنها طالت كما ترى .

ـ هذا واضح . .

ـ وعندما أتذكر المرتين السابقتين؟

ـ المؤمن لا يخاف ولا يقلق .

فقال الصديق :

ـ هذا ما رددته له مرارا .

فقال العجوز باسما عن أنياب عتيقة :

ـ أتشك فى ذلك يا بنى؟

ضحك الصديق متسائلا :

ـ ألا يتوقع منى مثل ذاك القول الحكيم؟

ـ هذا أقل ما يقال!

ـ شكرا .

ـ عفوا .

ـ يُخيّل إلىّ أنى رأيت سيادتك قبل الآن؟

ـ يعرفنى أهل الحى جميعا .

ـ لست من أهل الحى فمعذرة ولتحل بركتك بالبيت .

ـ فلتحل به بركة الله الرحيم .

ـ صديقى قلق وفى حاجة إلى من يشجعه .

ـ علينا أن نذعن لمشيئة الله قبل كل شىء .

والظاهر أن قوله لم يبشر بالطمأنينة المفتقدة فساد الصمت قليلا حتى خرقه الزوج قائلا :

ـ جئت لها بطبيبة ممتازة .

ـ لم تكن توجد طبيبات فى الزمن الماضى .

ـ ذاك زمن مضى وانقضى .

ـ أعرف زوجة ماتت فى مستشفى خاص تحت إشراف ثلاثة أطباء!

ـ أعوذ بالله!

ـ فلا عاصم لنا إلا إرادة الله .

ـ ولكنى لم أخطئ باستدعاء الطبيبة !

وقال الصديق متضايقا :

ـ ما أجدر أن نتجنب ذكر الموت فى موقفنا هذا !

فقال العجوز :

ـ ولكنه حديث كل يوم وكل ساعة .

فقال الزوج :

ـ هذا حق ، ولكنه حديث غير محبوب . .

ـ لم يا بنى؟

ـ الموت لا يحبه أحد !

ـ يا له من خادم أمين مظلوم !

ـ مظلوم؟ !

ـ كيف تتصور الدنيا بغيره؟

ـ أفضل مما كانت معه عشرات المرات .

ـ أنت مخطئ يا بنى ، مخطئ فى حق ثائر عظيم .

ـ ثائر عظيم؟ !

ـ بل زعيم الثوار فى كل زمان ومكان .

ـ لغة أى عصر هذه؟

ـ لغة العصر ، لغة الغد . .

ـ فلنختر حديثا آخر . .

ـ ما جدوى الأحاديث المعادة؟

ـ أصارحك يا عماه بأننى لا أفكر إلا فى سلامة زوجتى .

ـ فلتحل بها بركة الله .

ـ آمين .

ـ ولكن خبرنى هل جددت مقبرة الأسرة؟

فهتف الصديق :

ـ يا ألطاف الله !

وتساءل الزوج بامتعاض :

ـ من أخبرك أننى أفكر فى ذلك؟
ـ تلك كانت رغبة أبيك لولا أن عاجله الموت .
ـ أما أنا فلا يمكن أن أنفق مليما على تجديد مقبرة!
ـ أحسنت .
وقال الصديق نافخا :
ـ إنى أنذر جنيها استرلينيا إذا تغير الحديث .
فقال العجوز دون مبالاة للمقاطعة :
ـ كلما رأيت مقبرة متجددة حزنت!
فتساءل الصديق :
ـ الظاهر أن سيادتك تزور المقابر كثيرا؟
ـ شيعت المئات من الموتى بحكم سنى الطاعنة!
ـ وماذا يحزنك فى مقبرة متجددة؟!
ـ أرى المقبرة العتيقة البالية من آيات الرحمن!
فقال الزوج برجاء :
ـ هلا حدثنا بحديث آخر؟
ـ سنجد حديثا أو آخر ، سيشرق بنا ويغرب ، ثم لا مفر من العودة إلى الحديث الأول .
ـ إنه حديث كئيب خانق للقلب .
ـ أشك فى ذلك!
ـ لا شك فى ذلك من ناحيتى!
فقال العجوز بصوت هامس مخاطبا نفسه :
ـ علىّ ألا أيأس ، مهما طال الزمن ، حتى لو طال بالقدر الذى أتصوره كافيا .
ثم نهض قائما . نظر نحو الباب المغلق وقال :
ـ آن لى أن ألقى نظرة .
فعلت الدهشة وجهى الصديقين وتساءل الزوج :
ـ على أى شىء يا عماه؟
ـ على زوجتك .
ـ زوجتى! . . شكرا . . ولكن لا تكلف نفسك مزيدا من التعب .
ـ إنه واجب يا بنى!

ـ ولكنه غير جائز!

ـ كيف؟

ـ غير جائز بلا حاجة إلى تفسير!

ـ إنى صديق أبيك وجدك من قبل، صديق حميم..

ـ لو كان أبى نفسه مكانك ما خطر له ذلك!

ـ إنك تمنعنى من أداء واجبى!

ـ إنى أطالبك بالجلوس مشكورا..

ـ هبنى طبيبا.

ـ ولكنك لست طبيبا!

ـ وما الفرق يا بنى؟

ـ مزاح لطيف!

وقال الصديق:

ـ ويا له من مزاح!

فقال العجوز دون التفات لمقاطعة الصديق:

ـ إنى ألصق بك من الطبيب.

ـ اجلس يا عماه مشكورا مكرما!

فُتح الباب. خرجت امرأة متوسطة العمر تتهادى فى معطف أبيض وتنظر من خلال نظارة أنيقة ذات مشبك ذهبى. أقبل الزوج نحوها متسائلا فى لهفة:

ـ دكتورة؟

فقالت المرأة بهدوء:

ـ غير منتظر أن تلد سريعا، ولكنها ستلد ولادة طبيعية.

انتبهت إلى وجود العجوز فصافحته مصافحة حميمة، وقال الرجل:

ـ أهلا بك يا عزيزة، رحم الله أباك.

ـ أهلا بك يا عماه.

ـ وكيف حال الأم الصغيرة؟

ـ طبيعية وإن تكن شديدة بعض الشىء.

ـ كلام يذكرنى بأقوال الأطباء!

ـ ماذا تعنى يا عماه؟

ـ كلام يشى باحتمالات كثيرة!

ـ الحال طبيعية جداً، ولكننا لا ندخل فى علم الله . .

ـ آه من الأطباء إذا رددوا ذكر الله!

ـ ولكنى أتكلم بصراحة .

قال الزوج بحدة :

ـ صارحونى بكل شىء .

فقالت الطبيبة :

ـ ضع ثقتك فى الله .

فقال العجوز :

ـ كلام له مغزى خاص .

فقال صديق الزوج :

ـ عمنا يتلهف على سماع كلمة سوء!

فقال العجوز :

ـ وأنت تتلهف على سماع كذبة .

وقالت الطبيبة :

ـ الحال طبيعية جدّاً يا عماه .

ـ لم تركت الحجرة؟

ـ لأستريح دقيقة .

ـ أردت الدخول فمنعونى .

ـ لا يوجد رجل فى الداخل .

ـ وما رأيك أنت فى ذلك؟

ـ لا رأى لى فى ذلك يا عماه .

ـ بل تستطيعين أن تدلى برأى حاسم فى الموقف .

فقال الزوج بإصرار حازم :

ـ مكانك معنا يا عماه .

وتساءل الصديق :

ـ ألم تجئ للاطمئنان على ابن صديقك الراحل؟

ـ ولكنه لا يعانى ولادة عسيرة!

ـ وأنت لا تعرف الزوجة إلا بصفتها زوجة ابن صديقك الراحل .

ـ والدها أيضا كان صديقا لى . .

ـ لعلك شيعته كالآخرين؟

ـ وهو ثواب كبير . .

وهتف الزوج :

ـ مكانك بيننا يا عماه ولا لزوم للأخذ والرد .

فرفع العجوز منكبيه آسفا وقال مخاطبا الطبيبة :

ـ إنكم تعذبون الناس بلا سبب معقول .

فقالت الطبيبة :

ـ نحن نؤدى واجبنا الإنسانى . .

ـ ولا تميزون الصديق من العدو .

ـ ما أظرفك يا عماه!

ـ وأنتم المسئولون عما يحل بالإنسان من ضرر بالغ . .

ـ سامحك الله يا عماه .

ـ فليسامحك أنت .

وسأل الصديق :

ـ ماذا تعنى يا عمنا؟

ـ لا غموض فى كلامى .

ـ لعله يحتاج إلى شىء من التبسيط .

ـ يتعذر التبسيط على من هو فى مثل عمرى .

ـ إن عطفك يا عماه يركبك الصعب .

ـ إنك فتى مشاغب .

أحنت الطبيبة رأسها تحية ، ثم رجعت إلى الحجرة فأغلقت الباب . وهتف الزوج :

ـ يا لها من ليلة ليلاء!

فقال صديقه :

ـ عما قليل يطلع الفجر .

عاد العجوز إلى مقعده وهو يقول :

ـ ما باليد حيلة .

وأسند رأسه إلى ظهر الفوتيل وأغمض عينيه مستوهبا الراحة أو النوم. وارتفع الصراخ من وراء الباب. مرات متتابعات ثم سكت. تابعه الزوج باهتمام، ولكن الباب المغلق تبدى صلبا عنيدا أصم محدقا فى لا شىء بنظرة باردة مترفعة. واضح أنه لم يجد جديد وأن الكفاح غير المنظور يضطرم بلا هوادة. وفُتح الباب عن زاوية ضيقة وتسللت منه فتاة فى العشرين ترفل فى فستان أبيض. أشرقت بوجه بدا ـ رغم الإنهاك ـ كالقمر الساطع. حيت الجالسين ولكن العجوز لم يبد حراكا وظل مغمض العينين. وقالت للزوج:

ـ إنها تريدك.

ـ قام الرجل فمضى إلى الداخل وأغلق الباب. ذهبت الجميلة إلى كنبة فى الجانب المقابل لمجلس الرجال ثم جلست. لم يحوّل الصديق عينيه عنها مذ طلعت عليه من الحجرة. التقت عيناهما مرة، ثم غضت البصر فى إعياء. قال:

ـ لعلك فى حاجة إلى شراب منعش..

فأجابت:

ـ إنى فى حاجة إلى شىء من الراحة.

ـ شقيت على نفسك بالبقاء فى الداخل إلى جانب شقيقتك.

ـ إنها معاناة مروعة..

وقام، ربما متشجعا بنوم العجوز، فجلس إلى جانبها وهو يقول:

ـ قلبى معك طيلة الوقت!

ـ الله معها..

ـ من أجلك جئت فى هذه الساعة من الليل..

ـ ظننتك جئت من أجل صديقك.

ـ كان من الممكن أن أزوره صباحا، ولكن من أجلك أنت..

ـ ماذا تريد؟

ـ إنك مرهقة الأعصاب.

ـ ربما.

ـ كلانا مرهق الأعصاب!

ـ أنت أيضا؟

ـ شاركت صديقى آلامه، يضاف إلى ذلك تفكيرى الدائم فيك!

ـ شكرا..

مال نحوها كالمسحور فلثم فاها. لم تقاومه ولم تشجعه. قالت:

ـ معذرة فإنى أكره الرجال فى هذه اللحظة!

ـ ذاك من تأثير ما شاهدت فى الحجرة، ولكنها لحظة سرعان ما تمضى.

ـ من يدرى، ولكن كيف قبّلتنى؟!

ـ إنه سحرك الذى لا يقاوم، وغرامى القديم الذى لم ترفضيه على الأقل!

ـ إنه تصرف لا يغتفر.

ـ هيا معى إلى الليل فى الخارج.

ـ أحلام جنونية.

ـ سنستقبل الفجر الندى معا.

ـ هيهات لقلب ميت أن يستجيب لجنونك.

ـ إنه الدواء الشافى لما نعانى من اضطراب.

أراد أن يُقبّلها مرة أخرى، ولكنه رآها تنظر نحو العجوز المغمض العينين باهتمام طارئ، فقال:

ـ لا تهتمى له، إنه مستغرق فى النوم!

حاول أن يضمها إلى صدره، ولكنها دفعته فأراد أن يعيد المحاولة وإذا بصوت العجوز يقول دون أن يفتح عينيه:

ـ عد إلى مجلسك يا بنى!

ارتد عنها منزعجا. نظر نحو العجوز فرآه مغمض العينين مطروح الرأس إلى ظهر الفوتيل. قطب حانقا ولكنه لم يتخل عن مجلسه. جاءه الصوت البارد يقول معنفا:

ـ لا ترتكب فضائح أمام الباب المغلق!

قام الصديق متعثرا. عاد إلى مجلسه حانقا. فتح العجوز عينيه فتلقى نظرة الفتاة الثابتة. تبادلا نظرة طويلة دسمة. ابتسما معا. قام العجوز وهو يقول:

ـ أعصابك مرهقة يا بنتى..

جلس إلى جانبها. تناول يدها برقة فوضعها بين يديه المدبوغتين. قال:

ـ ما أحوجك إلى راحة طويلة!

جذبها بلطف فاستسلمت له حتى أجلسها على فخذه وهو يهمس:

ـ كما كنت تجلسين وأنت صغيرة..

ثم وهو يربت خدها:

ـ رحم الله أباك . .

فقال الصديق بغضب :

ـ وضع غير لائق .

فقال العجوز :

ـ كل شيء في وضعه !

ـ ألا ترى أنها لم تعد صغيرة بعد؟

ومد لها شفتيه الجافتين المكرمشتين فوهبته شفتيها فراح يُقبّلهما . وقف الصديق هاتفا :

ـ أي فعل فاضح !

ولكن الفتاة طوقته بذراعيها وأنامت رأسها على كتفه منخرطة في هيمان ساحر . صاح الصديق :

ـ لا تتمادى في الإجرام .

فهمس العجوز في أذن الجميلة :

ـ اهدئي يا جميلتي .

فغمغمت :

ـ أريد أن أنام .

ـ ستنامين كأسعد ما يكون .

وفتح الباب وخرج الزوج . عاد إلى مجلسه فجلس واضعا رأسه بين يديه . توقّع الصديق أن ينفصل العجوز عن الفتاة ، ولكنه واصل مناغاته وكأنه لم يشعر برجوعه . عند ذاك صاح الصديق :

ـ دعها أيها العجوز القبيح !

رفع الزوج رأسه منزعجا وقال لصديقه :

ـ ما هذا الصياح؟! . . أجننت؟

فأشار إلى العجوز والفتاة قائلا :

ـ انظر !

ـ لعلها في حاجة إلى عطف ، عد إلى مجلسك .

ـ أأنت أعمى؟

ـ احترم حالي التعيسة !

وهمس العجوز في أذن الفتاة :

ـ هلمى نذهب معا .

ـ إلى أين؟

ـ إلى الليل . .

ـ الصبح قريب .

ـ ما زال فى الليل بقية تكفى غطاء للعاشقين!

ـ خذنى إلى حيث تشاء .

ـ ما أجمل عينيك المخضلتين بالأحلام!

ـ ما أعذب همساتك ولمساتك!

فهتف الصديق :

ـ ماذا يحدث فى الدنيا؟

فقال الزوج محتدا :

ـ تصرف كرجل مهذب .

ـ ثمة علاقة عاطفية تنشأ بين العصر الحجرى والعصر الحديث!

ـ تأدب ، إنه عمها ، عمنا جميعا ، ألا تفهم؟

ـ أنتركها تذهب معه؟

ـ هذا شأنها . .

ـ ولكنه يحدث فى بيتك ومع بعض أهلك؟!

ـ عندى من الشواغل ما يكفى . .

وكان العجوز قد قام وقامت الجميلة معه مستسلمة كالمنومة فوثب الصديق معترضا سبيلها وهو يقول :

ـ لن أسمح بذلك ، سأدافع أنا الغريب عن شرفك!

فقال له العجوز بنبرة ساخرة :

ـ إنها نفس الرحلة التى دعوتها إليها!

ـ ولكنها معك تفقد كل الإنسانية!

وصاح الزوج :

ـ اذهبوا جميعا واتركونى فى سلام . .

فقال العجوز :

ـ سمعا وطاعة . .

ولكن الصديق صرخ :

ـ دعها فهى لى أنا وحدى ، أنا المرشح للزواج بها .

فسأله العجوز ساخرا :

ـ منذا الذى رشحك؟

فأجاب الصديق بحنق :

ـ كانت الأمور تسير سيرا حسنا بينى وبينها حتى تدخل صوتك الكريه . .

جلجلت وراء الباب المغلق صرخة مدوية . أفظع من سابقتها جميعا . تحول الزوج نحو الباب منذعرا . تسمر الصديق فى موضعه . رفعت الجميلة رأسها عن صدر العجوز كمن تفيق من غيبوبة ، تخلصت من ذراعيه وهى ترمقه فى ارتياع ، ثم هرعت إلى الحجرة فدخلت وأغلقت الباب وراءها . تمتم العجوز ممتعضا :

ـ ما أضيعها من ليلة!

ومضى نحو مقعده فارتمى عليه وأغمض جفنيه ، وجلجلت صرخة أخرى . تنهد الزوج متسائلا :

ـ أما لهذا العذاب من نهاية؟

ـ لا تتوقع خيرا طالما هذا النحس باق!

ولكن الباب فُتح ، ومنه مرقت الطبيبة متهللة الوجه . هتف الزوج واقفا :

ـ ماذا وراءك؟

ـ مبارك عليك .

ـ حقّا؟!

ـ مولود سعيد ، حال الوالدة طيبة وإن تكن جد متعبة . .

ـ حمدا لله . .

وشد الصديق على ذراعه قائلا :

ـ مبارك .

على حين قال العجوز دون أن يفتح عينيه :

ـ تهانى يا بنى .

وقالت الطبيبة :

ـ كانت ولادة عسيرة حقّا ، لم أصارحك بشىء طبعا ولكنى استعنت بأحدث وسائل التكنولوجيا . .

فسألها الزوج :

ـ وهل من الممكن أن أراه الآن؟

ولكن جرس الباب الخارجى دق فجأة . هرول الزوج إلى الباب وما كاد يفتحه حتى اندفع إلى الداخل أربعة رجال شاهرى المسدسات . أغلقوا الباب وراءهم وصاح أولهم :

ـ ليلزم كل مكانه ، لا صوت ولا حركة . .

تقهقر الزوج أمامهم حتى جلس ـ مؤتمرا ـ على مقعده ، وإلى جانبهم أجلست الطبيبة . تساءل الزوج :

ـ من أنتم؟ ماذا تريدون؟

ـ عليك أن تجيب لا أن تسأل .

قلب الرجل عينيه فيهم مهددا ولما رأى العجوز ـ وقد فتح عينيه ـ قال له بنبرة جديدة :

ـ معذرة يا عماه عن إزعاجك ، ولكنها الضرورة . .

فسأله العجوز :

ـ عم تبحثون يا بنى؟

ـ عن مولود دخل الدنيا فى هذه الساعة .

ـ وهل كنتم تتوقعون مولده؟

ـ أجل . . منذ عام ونحن نرقب مقدمه!

فتساءل الزوج :

ـ ما معنى هذا الكلام الذى لا معنى له؟

فانقض عليه الرجل ولكمه لكمة أذهلته عما حوله وقال :

ـ تأدب ، نحن نتبع إشارات جهاز دقيق لا يكذب . .

انقبضوا فى الصمت حتى قالت الطبيبة متسائلة :

ـ وماذا تبغون من مولود لم يكد يرى النور؟

ـ إنه يهدد الأمن والسلام ، ونحن لن نعفيك من المسئولية يا دكتورة!

وقال الرجل الثانى :

ـ كما لن نعفى منها الأب والأم . .

وقال الرجل الثالث :

ـ جميع من شهد الولادة مشتركون فى الجريمة!

وقال الرابع :

ـ الجميع عدا عمنا العجوز الذى يعفيه سنه من مشكلات الدنيا .

همس الصديق ـ وهو لا يدرى ـ فى أذنى الطبيبة :

ـ وقعنا تحت رحمة مجانين .

فانقض عليه الرجل الأول ولكمه لكمة شديدة وقال :

ـ ستحاسب على قلة أدبك كما ستحاسب على اشتراكك فى الجريمة .

وقال العجوز موجها خطابه للزوج :

ـ تمالكوا أعصابكم والزموا الهدوء فالموقف أخطر مما تظنون . .

فسأله الزوج :

ـ إنك تعرفهم كما يعرفونك فخبرنا عما يريدون؟

فقال الرجل الأول بصراحة :

ـ نريد المولود .

ـ ماذا ستفعلون به؟

ـ ننقذ الدنيا من شره .

فقال الزوج للعجوز :

ـ إنهم يريدون اغتيال المولود البرىء .

فقال العجوز :

ـ ما عليك إلا الإذعان للقدر !

ـ نتركهم يغتالون وليدا لم يكد يرى النور؟

ـ ما جدوى إهدار دماء جديدة بلا فائدة؟

وصاح الرجل الأول :

ـ حذار أن تبدر حركة عن أحدكم فيهلك فى الحال .

وتقدم الرجل نحو الباب المغلق ، ولكن العجوز قام وهو يقول :

ـ أتقتحمون الحجرة على النساء؟

فتوقف الرجل قائلا :

ـ نحن قوم متحضرون فتصرف أنت يا عمنا . .

مضى العجوز إلى الحجرة ، نقر على الباب مستأذنا ، ثم دفع الباب ودخل ، غاب قليلا ثم رجع حاملا الوليد بين ذراعيه تتبعه الحماة والفتاة الجميلة والدادة فى اضطراب وتساؤل . وقال العجوز للزوج :

ـ الأم مستغرقة فى النوم فاطمئن من هذه الناحية .
ورأت الدادة الرجال المسلحين فهتفت :
ـ اللهم الطف بنا .
وتساءلت الجميلة :
ـ أغراب ومسدسات . ما معنى هذا؟
أما الحماة فقد سألت الزوج بحدة :
ـ من هؤلاء؟
فأجاب بنبرات باكية :
ـ إنهم يريدون الوليد . .
ـ ماذا يريدون منه؟
فقال الرجل الأول :
ـ نريد أن ننقذ الدنيا من شره!
فصاحت الدادة :
ـ مجانين . . مجانين . . انظرى إلى أعينهم!
فحرك الرجل مسدسه مهددا وقال :
ـ سنطلق النار لدى أى حماقة ترتكب!
فقالت الحماة مخاطبة الزوج :
ـ لعلهم بعض مدمنى المخدرات من أصحابك؟!
فرفع الزوج يده إلى موضع اللكمة وتأوه فقالت الحماة وهى تزداد قسوة :
ـ أو لعلهم بعض أعدائك الذين تسىء إليهم فى نزواتك لندفع نحن الثمن!
واقترب الرجل الأول من العجوز فألقى على الوليد نظرة، وقال بحقد :
ـ وقعت، أخيرا وقعت، سنريح العالم من شرك!

ووثب الزوج كالمجنون، ولكنه عولج بلكمات كالمطر فتهاوى فوق مقعده. وبسرعة فائقة أجلس الرجال المسلحون الآخرين على مقاعد متقاربة فأوثقوا أيديهم وكمموا أفواههم، ثم وقفوا صفا واحدا وقال أولهم للعجوز :
ـ ضع الشيطان الصغير فوق الخوان .
ثم قال لرجاله :
ـ لدى ابتعاد عمنا أطلقوا النار على الشيطان . .
تحرك العجوز فى صمت خانق بين أعين محدقة . وفجأة انتفض الوليد فى لفافته

فأزاحها وتجرد عاريا. وبسرعة مذهلة طار كالفراشة، انقض على الرجال الأربعة فلكم كلا منهم لكمة بقبضته الصغيرة، ثم رجع فاستقر فوق يدى العجوز. وقع ذلك بسرعة كسرعة الضوء، ذهل الرجال الأربعة وتجمدوا. سقطت المسدسات من أيديهم. تقوضت قاماتهم فتهاووا على الأرض لا حراك لهم. وخيم الصمت والجمود والرهبة. خيم الصمت والجمود والرهبة حتى تحرك العجوز بالوليد فوضعه على الخوان. وراح يحل أوثقة الرجال والنساء، ثم مضى بالوليد إلى حضن أمه، فلما رجع وجد الجميع واقفين فى ذهول. يتبادلون النظرات ثم يركزونها فوق الرجال الراقدين بلا حراك.

ـ ما هذا؟!

ـ أحق ما رأينا؟

ـ أهو سحر؟

ـ أنحن نيام؟

ـ الوليد! . أحق أنه هو؟

ـ لولا وجود الرجال الأربعة لمضى الحدث حلما من الأحلام . .

ـ إنه حقيقة، حقيقة مخيفة . .

ـ لنسأل الله اللطف بعقولنا.

وقالت الحماة:

ـ إنه معجزة من معجزات الله القهار!

فسأل الصديق الطبيبة:

ـ ما رأيك يا دكتورة، ألديك تفسير لذلك؟

فقالت الدكتورة بحيرة شديدة:

ـ أحيانا، أعنى فى أحوال نادرة، عقب آلام معاناة رهيبة . .

ـ ماذا يحدث عقب الآلام والمعاناة؟

ـ ما يشبه المعجزة!

ـ أن ينقلب وليد إلى قوة كونية خارقة؟!

ـ قريب من هذا ما سجلته مذكرات بعض الأطباء فى العصر الفرعونى وفى العصور الوسطى.

وتحول الصديق نحو الرجل العجوز فسأله:

ـ ما رأيك أنت يا عماه؟

فقال العجوز بلا مبالاة بسؤاله:

ـ الأفضل أن نسأل عما يمكن عمله بهذه الجثث!

وهتف أكثر من صوت :

ـ الجثث!!

وانحنت الطبيبة فوق الرجال ففحصتهم ثم قامت وهى تقول :

ـ رباه . . لقد فارقوا الحياة حقّا . .

فصرخ الزوج :

ـ فارقوا الحياة؟!

ـ بكل توكيد .

ـ يجب استدعاء الشرطة فورا .

فسأله الصديق :

ـ وبم نجيب إذا سئلنا عن القاتل؟ أو إذا سئلنا عن أسباب القتل؟!

فقالت الفتاة الجميلة :

ـ يا له من موقف لم يخطر لأحد على بال!

وقال الزوج :

ـ ستوجه التهمة إلينا نحن!

وتساءل الصديق :

ـ أيمكن التخلص من الجثث؟

ـ وكيف نتخلص من جثث أربعة عمالقة؟

فأجاب العجوز متطوعا :

ـ ولكنه لا حل لديكم سواه . .

وتحولت إليه الأعين مستطلعة ومستغيثة معا ، فقال :

ـ طالما أبديت استعدادى لأداء أى خدمة تطلب منى ، وهأنذا أعتبر هذا العمل من اختصاصى . .

وأعرض عنهم متجها نحو الجثث حتى أطل بقامته عليها . مد يده إلى الجثة الأولى . رفعها ثم طرحها على كتفه اليسرى وكأنه يرفع قشة! رفع الجثة الثانية فوضعها فوق الأولى بالسهولة نفسها . كذلك حمل الجثتين الأخريين على كتفه اليمنى كأنه كان يتسلى بلعبة محببة دون عناء ، وكأنه استجد لنفسه شابا أسطوريا بمعجزة . وقال بهدوء :

ـ افتحوا الباب!

ومضى بحمله بأقدام ثابتة وفى غير جهد وفيما يشبه المرح والجميع يتابعونه بأعين ذاهلة. وظلوا فى وقفتهم كالمنومين حتى أفاق الزوج فأقبل على الطبيبة وهو يقول:

ـ أنت وحدك تستطيعين أن تعيدى العقول المتطايرة إلى مستقرها الآمن فى الرءوس.

نافذة فى الدور الخامس والثلاثين

مد ساقيه مستسلما لطراوة الفوتيل. شعر بشىء من الجهد فى نهاية نهار حافل بالنشاط. أضاء الخادم العجوز مصابيح البهو وألقى نظرة أخيرة على البار والمائدة الشهية ثم همّ بالذهاب، ولكنه قال له:

ـ أطفئ النور حتى يأتى المدعوون.

فصدع العجوز بالأمر وذهب. أما هو فقد غاب هيكله النحيل فى ظلمة المغيب. ومضى يرنو من خلال النافذة فى الجدار المقابل إلى المقطم وراء النيل والحقول وشرقى المدينة. وقال لنفسه:

ـ عيد ميلاد جديد، سبع شمعات رمزية، ما أكثر الأعوام! وما أقل من بقى من الأصدقاء!

وأغمض عينيه وهو يتمتم:

ـ ترى ما عدد الأرغفة التى التهمتها؟ وعدد الخراف والعجول؟ والأفدنة من الخضراوات والبقول؟ والأمواج من مياه النيل؟ والسعرات الحرارية التى استهلكت فى اللعب والعمل؟

وتثاءب طويلا وهو يقول:

ـ سعيد من يبلغ هذا العمر وهو مرتاح الضمير!

وأسلم للصمت ليسترد حيويته. وأعجبه أن يسبح فى صمت عميق لولا أن تناهى إلى سمعه حفيف ثوب أو تردد أنفاس. فتح عينيه فرأى فى وسط البهو تقريبا عجوزا مهلهل الثياب أعور حافى القدمين. تساءل:

ـ من؟

وأمعن النظر، ثم قال بدهشة:

ـ جارنا القديم المسكين!

ولم ينبس العجوز بكلمة. فقال الرجل:

ـ ذكريات الصبا التى لا تنسى، كيف صعدت إلى شقتى فى الدور الخامس والثلاثين؟

ولم يتكلم العجوز ولم تند عنه رغبة فى الكلام. فقال:

ـ أدفعتك الحاجة إلى المجىء؟

وانتظر عبثا أن يتكلم، ثم تساءل:

ـ أتريد كالزمن الأول بعض النقود أو الملابس القديمة؟

تراجع العجوز خطوات. فقال الرجل:

ـ خطرت على بالى مرات فظننتك انتقلت إلى دار البقاء!

ولأول مرة قال العجوز بصوت بارد:

ـ لم يخب ظنك!

ـ حقّا؟!

ـ حقّا!

ـ كأنما جئت تحية لعيد الميلاد.

فقال بصوت غليظ:

ـ عليك اللعنة!

ـ اللعنة؟

ـ وعلى جميع المجرمين!

وتراجع أكثر فاختفى تماما. اختفى قبل أن يطفىء وقدة تساؤلاته. قبل أن يجلو سر غضبه عليه وتنكره لإحسانه. وتساءل:

ـ ماذا يقع فى العالم الآخر من أمور يشق على عقولنا هضمها؟

فجاءه صوت ناعم يقول:

ـ ألا زلت تكلم نفسك كالمجانين؟

وتراءت أمامه فى فستانها البيتى الفضفاض تنضح صحة وشبابا. هتف بخوف:

ـ أنت؟!

ـ دون غيرها وبجميع ذكرياتها..

ـ ذكريات أليمة لم يبرأ قلبى بعد من عذاباتها..

ـ يا للعجب!

ـ وبسببها عافت نفسى الزواج فبقيت أعزب حتى النهاية.

ـ ولكنك لم تفعل إلا أن عشقتنى.

ـ رغم أنك كنت بمنزلة الأم، امرأة أبى .

ـ فى مذهب العشق يجوز كل شىء .

ـ ما زالت الجريمة تنغص علىّ صفوى .

ـ أتسميها جريمة؟

ـ أنت التى أغريتنى!

ـ كلانا أغرى صاحبه . .

ـ إنها ذكرى الجحيم فى حياتى . .

ـ وهى أسعد ذكرياتى .

ـ يا لك من . . .

ـ امرأة طيبة كما أنك إنسان طيب . .

ـ أهذا يمثل الرأى هناك؟

ـ كيف لم يبلغك؟ . . عيد ميلاد سعيد . .

وتوارت عن ناظريه . تبلبل فكره . رغم ذلك داخله إحساس دافئ بالارتياح . انجابت هموم ثقيلة . وقال لنفسه :

ـ من يدرى فلعلى بالغت أيضا فى محاسبة النفس عن غرق ذلك الشاب المجهول . .

سمع تنهدة عميقة . رأى الشاب يقف عاريا يحملق فى وجهه ويقول :

ـ تقول إنك بالغت؟

فقال بأمل :

ـ بت أعتقد ذلك . .

ـ يا لك من فاجر!

ترامقا طويلا حتى انقبض قلبه . وقال الشاب :

ـ تركتنى أغرق يا نذل . .

ـ لا ذنب علىّ، أنت وحدك المسئول .

ـ غلبنى الموج وخانتنى قواى فاستغثت بك . .

ـ لم أكن أحسن السباحة . .

ـ بل كنت تحسنها بالقدر الكافى لإنقاذى . . ولكنك هربت يا قاتل . .

ـ لا تقل ذلك، القانون نفسه فى ذلك العهد . .

ـ القانون! إن الغرقى فى ذمة المتفرجين!

ـ حسبت أن ذلك الموقف قد تصور لك فى صورة جديدة . . ؟

ـ ولم يتصور فى صورة جديدة؟

ـ هكذا انقلبت الأحكام فى عالمكم!

ـ لقد انقلبت فى رأسك بحكم الخوف ، وإنى نادم على مخاطبتك . .

وغادره على حال من القلق فقد معها توازنه ، اضطرب صدره وجاش بالمتناقضات . وقال :

ـ أى الأفعال خير وأيها شر؟ وكيف يهتدى ضميرى فى هذه الغابة المتلاطمة بالغرائب!! آه لو كان أبى حيا!

وإذا بالصوت الذى طال انقطاعه يقول :

ـ أشكر لك حسن ظنك .

غض البصر تجنبا للمواجهة وعقل الخجل لسانه فلم ينطق . وقال الأب بنبرة لم تخل من تهكم :

ـ أراك تستعد للاحتفال بعيد ميلادك!

ولما لم ينبس سأله :

ـ ماذا يمنعك من الكلام؟

فأجاب بصوت متهدج :

ـ الذنب وإنه لكبير!

ـ أما زلت تذكر ذلك؟

ـ وكيف لى بالنسيان؟

ـ ولكنى لم أحضر لإحياء ذكريات تافهة .

فتشجع قائلا :

ـ لقد اختل الميزان وانفرط العقد .

ـ وتروم الاهتداء إلى أساس مكين؟

ـ بكل ما أملك من قوة .

ـ حسن ، ركز فكرك جيدا وأجب بأمانة عن ما أسألك عنه .

ـ ستجدنى طوع أمرك يا أبى .

فهتف بإنكار :

ـ لست أباك!

ـ لست أبى؟!
ـ وتصورك هذا يقطع بأنك ما زلت تعيش فى عصر حجرى!
ـ ولكنها علاقة حقيقية لا ينكرها أحد.
ـ بل علاقة خاصة تعيقك عن الرؤية الصحيحة.
شعر بأن عليه أن يجاريه لا أن يناقشه فقال:
ـ معذرة عن خطأ وقعت فيه بحسن نية.
ـ أجبنى، ما أهم حدث وقع لك فى طفولتك؟
ـ لا أذكر، لعل طفولتى مرت دون أحداث تستحق الذكر.
ـ إجابة عمياء تنذر بعواقب سخيفة.
ـ الحق أنى . . .
ـ أجبنى، ما أكبر خطيئة ارتكبتها فى شبابك؟
استعد ولم يجب، فقال الرجل:
ـ ما زلت تخجل مما لا يدعو للخجل وهو نذير بأنك ستباهى بما يجدر بك أن تخجل منه . .
ـ آسف . .
ـ أجبنى، كم شخصا قتلت؟
ـ لم أقتل أحدا والحمد لله.
ـ ألم يشرع أحد فى قتلك؟
ـ كلا، ماذا جعلك تظن بى ذلك؟
تنهد الأب بصوت مسموع. فقال الرجل:
ـ عشت حياة طيبة . .
ـ طيبة!
ـ لم يشبها سوى أخطاء بسيطة، مثل ذلك . .
ـ لا يهمنى أن أسمع إلى أخطاء بسيطة . .
ـ وقدمت للمجتمع خدمات لا بأس بها.
ـ لا بأس بها!
ـ ما الذى يهمك حقّا يا أبى؟
ـ أبى مرة أخرى!

ـ معذرة!

ـ ذهب العمر هباء . .

ـ ماذا تريدنى على أن أفعل؟

ـ يا لضيعة لقاء ينتهى بالسؤال الذى بدأ به!

ـ لكنك لم تقل شيئا . .

ـ قلت كل شىء . .

واختفى الأب . اختفى دون أن تقع عليه عين الرجل . لكنه شعر بذهابه وشعر بخيبة أمل مريرة .

غير أنها لم تطل . وجد نفسه يميل إلى تصديقه فيما قال من أنه قال كل شىء . ما عليه إلا أن يستعيد أقواله .

ومضى يتذكر . وقال لنفسه :

ـ ليس هذا العيد كالأعياد السابقة ، رأسى يدور ، وينثر فى دورانه ما استقر فيه من أفكار ، كل شىء يتطاير . .

ومضى يتذكر . ولكنه عوجل بحضور الممرضة . تصافحا بمودة . راقبها وهى تعد الحقنة معجبا بشبابها الغض .

خلع الجاكتة فحسر كم القميص مسلما ذراعه . حقنته وهى تقول :

ـ بالشفاء . .

ـ شكرا .

أعادت الحقنة إلى العلبة المعقمة . فقال :

ـ ابقى لتشتركى فى حفل عيد ميلادى .

ـ ولكنى لا أعرف المدعوين .

ـ رجلان وزوجتاهما ، لم يبق سواهم!

ـ ولكنى لم أحضر هدية . .

ـ إنك أنت الهدية . .

فأشارت إلى ثوب العمل المحتشم ، وقالت :

ـ لست مستعدة .

ـ جميعنا فى الحلقة السابعة والثامنة فلتكونى أنت صلتنا الحميمة بالحاضر . .

ترددت بعض الشىء فأمسك بمعصمها قائلا :

ـ لن أدعك تذهبين .

فجلست على المقعد التالى لمقعده وهى تبتسم . سألها :

ـ كل شىء على ما يرام؟

ـ نحمده .

ـ متى تتزوجين؟

ـ فى نهاية الشهر القادم . .

ـ سأفتقدك كثيرا . .

ـ ألم تشبع بعد؟

وضحكت فابتسم ابتسامة لا تخلو من فتور . وجاء المدعوون . الصديقان وزوجتاهما . صفت الهدايا فوق الخوان . تبودلت القبلات . جلجلت الضحكات . تم التعارف بين السادة والممرضة . ملأ الرجل الكئوس بنفسه رغم مثول الخادم العجوز وراء البار . اختلطت التهانى بالنكات بالأحاديث . اشترك الرجل فى الحديث بنصف عقل . بدا رغم التظاهر جادا أو متفكرا . ولم يجلس كما جلسوا . جعل يذرع المكان حينا ، وحينا يقف . وقال له الصديق الأول :

ـ اجلس ، وقوفك يرهقنا . .

وسألته زوجة الصديق الآخر :

ـ لم لا تجلس؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

ـ شىء يحدثنى بأنه عيد الميلاد الأخير .

وأكثر من صوت قال :

ـ فال الله ولا فالك .

فقال بإصرار :

ـ سوف يتبين لكم صدق قولى .

فسأله الصديق الأول :

ـ ماذا بك؟

وقالت زوجته :

ـ لست كالعهد بك .

والتفتت نحو الممرضة متسائلة :

ـ أهو على ما يرام؟

فأجابت الفتاة :

ـ على خير حال .

فقال له الصديق الآخر :

ـ إذن فدع ما لله لله واجلس واهنأ بالعيد .

فقال الرجل :

ـ كلا .

ـ كلا؟ !

ـ قررت أن أؤدى واجبى .

ـ أى واجب يا هذا؟

ـ قبل أن تفلت الفرصة إلى الأبد .

ـ إنه الويسكى بلا شك !

ـ لا وقت للهذر .

ـ ولكنها ليلة عيدك .

وقالت زوجة الصديق الآخر :

ـ صديقنا ممتع ، هذا كل ما هنالك .

تحرك الرجل إلى الطرف الآخر من البهو . وضع قدمه على كرسى ، اعتمد بثقله عليها ، وجعل ينظر نحوهم باهتمام ، منقلا بصره من وجه لوجه ، وقال :

ـ الأيام تمر ، وأنتم تتقدمون فى العمر ، لابد من مواجهة صريحة بينكم وبين الأيام .

فقال الصديق الأول ضاحكا وهو يرفع كأسه :

ـ صحتك !

وقالت زوجة الصديق الآخر :

ـ عندى كلمة من الشعر المنثور ، متى يسمح لى بإلقائها؟

فقال الرجل بوجه جاد :

ـ لا محدث غيرى الليلة .

ـ ولكنها ليلة عيدك !

ـ الأخير !

ـ دعنا من هذه السيرة المزعجة !

ـ اسمعوا، لقد شهدت مداولة قضائية، ثم فوضت فى التحقيق والحكم والتنفيذ!

ـ أراهن أن ذلك كله سيتمخض عن فكاهة رائعة!

ـ أشك فى ذلك كل الشك.

فقال الصديق الأول:

ـ أقترح أن نجاريه حتى النهاية.

فقال الصديق الآخر:

ـ عظيم، اعتبرنا ماثلين فى محكمتك!

ـ إنك لكذلك أردتم أم لم تريدوا.

ـ فماذا تروم منا؟

ـ قلت إن الأيام تمر وإن الأعمار تتقدم. ولا بد من مواجهة صريحة.

ـ ولتكن مواجهة صريحة.

فأشار إلى الرجلين وقال:

ـ أجيبانى، كم شخصا قتلتما؟

فضجوا بالضحك. انتظر حتى سكتوا، ثم قال:

ـ أجيبانى، لم لَم تتعرضا للقتل حتى الآن؟

فضجوا بالضَحك مرة أخرى، ولما ساد السكوت قال:

ـ أجيبا، لم لَم تسجنا على الأقل؟

وقالت زوجة الصديق الآخر:

ـ ألم أقل لكم إنه سيتمخض عن فكاهة رائعة؟

فقال الرجل:

ـ إنى مفوض لقتل من لم يَقتل أو يُقتل أو يُسجن!

فهتف الصديق الآخر:

ـ يا عدو الأخيار!

وقال الصديق الأول:

ـ وأنت خبرنا متى قَتلت أو قُتلت أو سُجنت؟

وقالت زوجة الصديق الأول متضاحكة:

ـ ونحن ألا نستحق القتل أيضا؟

فقال الرجل بخشونة:

ـ نطقت بالحق يا سيدتى!

ـ حقّا؟!

ـ أنسيت الحب الذى ألف بيننا فى الصبا؟

ولأول مرة تغير الجو. تجهمت الوجوه فى ذهول. وصاح الصديق الأول غاضبا:

ـ أفقدت عقلك وذوقك؟!

فقال الرجل بتحد:

ـ لا مفر من الحقيقة مهما طال الزمن، كان حبنا حقيقة ولكن تصادف أنك كنت ابن خالتها فقيل إنك أولى بها، وإذا بالحقيقة تنهار وتستسلم!

ـ مجنون، وضح لنا ما غمض من أمرك.

ـ انهارت واستسلمت، لم تقاوم، ثم استسلمت مرة أخرى فيما بعد، هأنذا أصارحك بأننا ـ أنا وهى ـ اشتركنا فى خيانتك زهاء خمسة أعوام!

انتتر الصديق الأول واقفا، وهمّ بالانقضاض على الرجل. ولكن الرجل أخرج مسدسه من جيبه، سدده نحوه، ثم أطلق النار، فخر الصديق صريعا وسط هدير من الصراخ. حتى الخادم العجوز صرخ. وصاح الرجل ويده بالمسدس ترعش:

ـ ليلزم كل مكانه!

انكبت الزوجة فوق زوجها مجهشة فى البكاء. فتساءل ساخرا:

ـ لم تبكين؟ تزوجته على رغمك وخنته بإرادتك، ما أقبح الدموع الجارية فى أخاديد وجهك! أتودين اللحاق به؟

فصاحت فى غضب:

ـ مجرم.. مجرم..

ولكن رصاصة استقرت فى رقبتها قبل أن تكمل كلامها فتهاوت إلى جانب جثة زوجها مضرجة فى دمائها. حملقت فيه الأعين فى فزع أخرس. فقال:

ـ أشهد أن القتل أكبر تحد لقضبان الحياة..

فقال الصديق الآخر بصوت سائب لا ضابط له:

ـ ماذا دهاك أيها الصديق الكريم؟.. أنسيت أننا جئنا للاحتفال بعيد ميلادك؟!

فقال مستردا ذاكرته من صدى الحدث:

ـ أنت أيضا لم تَقتل ولم تُقتل..

فقال الصديق برعب:

ـ كسائر الملايين، وإلا ما بقى على وجهها أحد، ماذا دهاك أيها الصديق الكريم؟

وقالت الزوجة وهى ترتعد :

ـ نحن أصدقاؤك، أنسيت العمر الطويل؟ أنسيت مودة نصف قرن؟!

فحدجها بنظرة احتقار قائلا :

ـ وأنت أيضا، ما تزوجت به إلا من أجل ثروته، أنت أيضا استسلمت لا أحد منكم يحترم المقاومة!

ـ أتحاسبنى على عواطف طفولية اندلعت فى قلبى منذ نصف قرن؟

ـ إنى أعرف عشيقك أيضا!

ـ فليسامحك الله . .

وقال له الصديق متوسلا :

ـ دعنا نذهب!

فسأله بازدراء :

ـ لِم لَم تغضب لعِرْضك؟

ـ دَعنا نذهب بحقَ صداقة العمر!

ـ لقد بلغنا نقطة لا يجوز التراجع عندها .

ـ أتقتل الأبرياء بالجملة؟

ـ لا يوجد برىء واحد .

أخفت الممرضة وجهها بين يديها على حين هتف الخادم العجوز من وراء البار :

ـ سيدى . . اتق الله العظيم!

فقال الرجل بارتياح :

ـ أحسنت أيها العجوز .

وأطلق الرصاص مرتين فسقط الصديق ثم سقطت زوجته . لم يعد يسمع إلا نحيب الممرضة الحسناء، فنظر الرجل نحوها وتساءل :

ـ لم قبلت الدعوة يا سيئة الحظ؟

فواصلت النحيب دون أن تجيب . فقال :

ـ لعله ضميرك الذى أغراك بقبولها؟

فقالت وهى تنشج :

ـ قبلتها إكراما لك .

فقال متقززا :

ـ ولكنك تبغضيننى كالموت!

ـ أنا؟!

ـ أجل.

ـ لا تظلمنى.

ـ اختلست مرة نظرة إلى المرآة ونحن فى غمرة العناق. فرأيت الاشمئزاز مطبوعا على وجهك كالقطران!

ـ أبدا.. أبدا..

ـ عرضت عليك ذات يوم أن تقبلى الزواج بى، ولكنك اعتذرت..

ـ كنت مخطوبة كما تعلم..

ـ أجل، والحق إنى أكبرتك.

ـ ليس إلا أنى كنت مخطوبة..

ـ ولكنك قبلت أن تكونى خليلتى نظير مكافأة من المال تستعينين بها على إعداد نفسك للزواج..

ـ سيدى..!

ـ لم تقاومى! ماذا يبغض لكم المقاومة؟

ـ لكنك سعدت بقرارى على أى حال!

ـ هذا حق، ولذلك فإنى أحكم عليك بالإعدام.

وثبت الجميلة فى استغاثة فزعة، ولكن الرصاصة عاجلتها فهوت على وجهها. أنزل قدمه من فوق الكرسى وتقدم ببطء وهو يتفحص الجثث. ومد بصره إلى الخادم العجوز وراء البار فتراءى شاحب الوجه بلون الموت. قال له:

ـ أيها العجوز الطيب، ما رأيك فيما شهدت؟

لم يستطع الرجل أن ينبس بكلمة فقال:

ـ بدأت الخدمة فى بيتى شابا وهأنتذا تقف كالغصن الذابل الجاف فى أرذل العمر..

هز العجوز رأسه دون أن ينطق فقال:

ـ كم أسأت إليك، حتى العذاب ذقته أحيانا على يدى..

ـ سيدى..

ـ ولم يخطر لك مرة واحدة أن تهجر بيتى..

ـ رغم كل شىء كنت طيب القلب.

- لا تكذب، كم تورطت معى فيما يليق وما لا يليق، كم شهدت هنا ألوانا من الدعارة السافرة!
- أفضالك مع ذلك لا يمكن أن تنسى . .
- ولا مرة واحدة فكرت أن تعاملنى بما أستحق؟
- إنى خادمك المطيع يا سيدى .
- لذلك أحكم عليك بالإعدام . .

حاول العجوز أن يختفى وراء منصة البار، ولكن الرصاصة نفذت فى رأسه. تنهد الرجل بعمق. تنهد بعمق حتى ملأ صوت تنهده البهو . .

* * *

شعر بالضوء يشع وراء جفنيه المغلقين ففتح عينيه. رأى الخادم العجوز واقفا والبهو متوهجا بالضوء فنزع نفسه من جلسته المريحة وهو يقول:

- جاء المدعوون .

فقال العجوز:

- جاءت الممرضة . .

ذهب الخادم. دخلت الممرضة مشرقة الوجه. تبادلا ابتسامة عريضة. خلع جاكتته وحسر كم القميص وهى تعد الحقنة . قالت:

- عام سعيد .

فقال وهو يسلمها ذراعه:

- إنى أدعوك للحفل الصغير .

فقالت وهى تمسح بقطنة مبللة بالكحول موضع الغز:

- أود ذلك، ولكنى على موعد مع خطيبى .
- إنى أدعوه معك، أرجو أن تبلغيه ذلك . .
- سيسره أن يلبى دعوتك فهو لا ينسى مساعدتك فى نقله إلى القاهرة، ولكنه ليس على ما يرام . .
- مريض؟
- كلا . . ولكن حالته النفسية ليست على ما يرام . .
- تلك أعراض تمر، متى تتزوجان؟
- قريبا على أى حال .

ـ سأفتقدك كثيرا .

فضحكت قائلة :

ـ حذار ، سأبدأ بالزواج حياة جديدة !

ـ يا لك من استغلالية فاتنة ، ولكنى لن أنسى السعادة التى حظيت بها على يديك !

ـ أكرر التهنئة .

وذهبت وهو يتبعها عينيه . ثم أجال بصره فى البهو ، الأرض والمقاعد والبار ثم تنهد بعمق . ونظر فى الساعة ثم تمتم :

ـ رحلة طويلة حقّا فى أقل من خمس دقائق !

ومضى يذرع البهو ، ولكن الانتظار لم يطل فما لبث أن جاء المدعوون رجلان وامرأتان فى الحلقتين الثامنة والسابعة . صفت الهدايا فوق الخوان تبودلت القبلات . اتخذوا مجالسهم ومضى الرجل يملأ الكئوس بنفسه .

ـ لم يبق إلا نحن الخمسة .

ـ ليرحم الله الراحلين .

وقالت زوجة الصديق الأول :

ـ ثمة تنبيه مهم أسوقه حرصا على سهرتنا الغالية .

ـ ألا وهو ؟

ـ منع الكلام فى السياسة أو الحرب .

ـ عين الصواب .

ـ إنه يمتص الحيوية ، يجعل من السمر حديثا مرهقا ، يدفع إلى طريق مسدود ، لنرحم أنفسنا هذه الليلة . .

ـ أشك فى إمكان تحقيق هذا المطلب البرىء ، سنتظاهر بالامتثال ، وسنتحدث فى هذا أو ذاك من الموضوعات ثم نجد أنفسنا ونحن لا ندرى فى الجبهة . .

ـ وحتى إذا وُفّقنا إلى اختيار موضوع ما فلن نلبث أن نجد الكلام لغوا لا معنى له ولا طعم ، وإننا فى الواقع إنما نهرب من الحديث الوحيد المقضى به علينا ، ولن نجد بدّاً فى النهاية من الرجوع إلى الجبهة ، وتتشعب الآراء والاحتمالات ، وتتطاحن فروض الحرب والسلم ، وتمضى الليلة ونحن غائصون فى شرك حفرناه بأيدينا .

فقالت المرأة بإصرار :

ـ إذن فلأنصب من نفسى ملاكا حارسا للسهرة ، أطلق صفارة إنذار كلما آنست ميلا نحو الحديث الأبدى .

ـ تجربة لا بأس بها، ولكنى أتنبأ بالفشل من قبل أن تبدأ . .

ـ صحتكم .

ـ صحتك .

ـ ولكن ما بال صاحب العيد يبدو شاردا؟

ـ أنا؟!

ـ أجل . . يوجد شيء فى رأسك الكريم . .

فضحك قائلا :

ـ الحق أنى حلمت حلما غريبا .

ـ خير إن شاء الله .

ـ ولكن ماذا أقول؟

ـ قل ما رأيت ونحن على تأويل الرؤيا قادرون .

فقال وهو يرمقهم بنظرة غريبة :

ـ رأيت أننى قتلتكم جميعا رميا بالرصاص .

ضجوا جميعا بالضحك . .

ـ خير ما فعلت فإننا أصبحنا كالخيل القديمة تُرمى بالرصاص على سبيل الرأفة .

ـ وكنت أقتل وأنا فى غاية من المرح . .

ـ يمكن تفسير الأحلام بأضدادها فمعنى الحلم أن تتمنى لنا طول العمر . .

ـ عظيم .

ـ أما إذا اعتمدنا فى تفسيرنا على العلم، على فرويد مثلا فسنكشف عن رغبات جنسية مكبوتة لا يحسن الجهر بها . .

ـ ما كان فى الوسع أن أكبتها طيلة ذاك العمر .

ـ صحتك . .

ـ صحتكم .

ـ وحتى النساء؟

ـ وحتى النساء!

ـ يخونك العيش والملح .

ـ حتى الخادم العجوز والممرضة!

ـ لم يكن حلما، ولكنه كان استمرارا لأحاديث الحرب .

ـ لعله .

ـ ولكن لم تفضلت بقتلنا؟

ـ لم أعد أذكر فسرعان ما تنسى تفاصيل الأحلام .

ـ تذكر السبب فإننا نتوقع أن يكون طريفا . .

ـ لا أظن . .

ـ لا شك فى أننا تحدیناك بطريقة ما؟

ـ ربما .

ـ ماذا فعلت بعد أن أجهزت علينا؟

ـ لا أذكر .

ـ ألم تشعر بالندم؟

ـ لا أظن .

ـ اسمح لى أن أقول لك . .

ولكن الخادم العجوز دخل ليعلن عن حضور الممرضة وخطيبها . وذهب فجاءت الممرضة يتبعها خطيبها . وتم التعارف على يد الرجل . واتخذ القادمان مجلسيهما متجاورين والشاب يبتسم ابتسامة ودود ربما ليخفى كآبة لم ينجح فى إخفائها . وقدم لهما الرجل كأسين وهو يقول :

ـ صحتكما . .

وقال لهما الصديق الأول :

ـ نشكركما على حضوركما فإن مجلسنا يحتاج إلى دم جديد . .

فقال الرجل :

ـ إنها شابة ممتازة وهو شاب ممتاز ، ولكنه يبدو على غير ما يرام .

فقال الشاب :

ـ إنى على خير حال يا سيدى .

ـ حقّا؟! . . ما رأيك يا آنسة؟

فقالت بشىء من الحزن :

ـ إنه كما تقول يا سيدى ، ولكن لا يجوز أن نكدر صفو الحفل بهمومنا .

وسأل الصديق الثانى :

ـ أهو مريض؟

ـ كلا يا سيدى، ولكن ينتابه من آن لآن شعور مجهول بالكآبة . .

ـ كيف تنتاب الكآبة من أنت خطيبته؟

فقال الشاب محتجا :

ـ إنى بخير . .

فقال الرجل :

ـ لست كما تقول . .

ـ سيدى . . لا يجوز أن نكدر صفوكم . .

ـ صارحنى يا بنى فإنى بمنزلة الوالد . .

وقالت زوجة الصديق الأول :

ـ لعلنا نجد فى حديثك ملاذا من حديث آخر يطاردنا . .

وتساءل الصديق الثانى :

ـ ما علة كآبتك؟

فأجابت الممرضة :

ـ بلا سبب . .

وتساءل الصديق الأول :

ـ لعله خلاف فى العمل؟

فأجاب الشاب :

ـ لا شىء ألبتة . .

ـ أو بوادر قلق مما يخطر للمحبين؟

ـ لا شىء ألبتة يا سيدى .

ولم تملك الممرضة أن قالت :

ـ قال لى ونحن فى الطريق إلى هنا إن الانتحار فكرة طيبة!

فهتف الشاب :

ـ أتعيدين كلمة رددتها بلا قصد ولا معنى؟

ـ لقد خفت خوفا حقيقيا . .

ـ ما أغرب أطوارك!

ـ اعذرنى . .

ـ إننا نفسد الجو . .

فقال الرجل :

ـ لا داعى للحرج يا بنى ، فأنا نفسى حلمت منذ حين بأنى قتلت جميع المدعوين بما فيهم خطيبتك ، وحتى خادمى العجوز . .

وضج المدعوون بالضحك ، حتى الشاب ابتسم ، وقال الرجل :

ـ اشرب كأسك ، اطرد عنك الحرج ، وصدقنى فإنى أرحب بك ترحيبا خاصا وأشعر بأنك تشاركنى فى موقفى الغريب . .

والتفت الرجل نحو أصحابه وقال :

ـ معذرة فإنى أتوهم أن لدى كلمة طيبة يحسن أن تقال لصديقنا الشاب ، فاستمتعوا بوقتكم دون تأجيل . .

فقال الصديق الأول :

ـ إنى أتوقع حديثا طريفا جديرا بالمتابعة وبخاصة وأنه لا يحرم الأكل أو يمنع الشرب !

فنظر الرجل نحو الممرضة وقال :

ـ أنت مسئولة ، كيف تركته يغرق فى الكآبة ؟

فقالت الممرضة :

ـ أعتقد أننا سعداء ، أو هذا ما اعتقدته . .

فسأل الرجل الشاب :

ـ لم أنت كئيب ؟

ـ إنها تبالغ يا سيدى .

فقالت الممرضة :

ـ لم أبالغ قط . .

فقال الرجل :

ـ نحن فى الدور الخامس والثلاثين ، وقد لقننى ذلك حكمة . .

فسأله الصديق الثانى ضاحكا :

ـ ألذلك علاقة بجريمة قتلنا ؟

وأخذ الرجل الشاب من يده ومضى به إلى النافذة ، ثم قال :

ـ من هذا الموضع المرتفع ترى أكثر من نيل يجرى فى القاهرة . .

فقال الشاب :

ـ منظر عجيب حقّا ، ولا شك فى أنه فى أثناء النار أعجب . .

ـ من هنا ترى الحدائق كأنها أشكال هندسية دقيقة مرسومة على سطح من الورق . .

ـ ربما . . ولكن أرجو ألا تصدق أنى فكرت حقًّا فى الانتحار . .

ـ السيارات لعب أطفال، الناس فئران . أما الجبل والمساكن فبناء هائل متصل التكوين تنبثق منه هنا وهناك قباب ومآذن، الطرقات تختفى تماما، كما يختفى تفرد الناس وتميزها ولا أثر يظهر لهمومها ومشاكلها وأفراحها وأتراحها . .

ـ ما أعجب ذلك كله!

ـ ما أجمل أن نتعامل مع الشمس والهواء والعلو! . . أيضايقك حديثى؟

ـ أبدا، أخشى أن يضايقك وجودى . .

وقالت زوجة الصديق الأول :

ـ ارفع صوتك قليلا يا عزيزى فنحن أيضا فى حاجة إلى كلمتك الطيبة . .

فقال الرجل للشاب :

ـ إنى سعيد بك، ولعلى أستطيع أن أقنعك كما أقنعت نفسى بالحياة فوق كل شىء!

ـ فوق كل شىء؟

ـ أعنى أن تنظر إلى همومك من فوق كما تنظر إلى المدينة تحتك فتراها أشكالا مجردة لا فاعلية لها . .

فهتف الصديق الثانى :

ـ أحسنت أيها الحكيم . .

ولكن الشاب قال :

ـ هذه خاطرة قد تخطر أحيانا للمثقل بالهموم للراحة، ولكن لا موضع لها بين الحقائق .

فقالت زوجة الصديق الثانى مخاطبة الشاب :

ـ إنها وصفة مجربة فلا تستهن بها يا عزيزى .

وقال الرجل :

ـ أجل . . لا تستهن بها، ما أجمل أن نحيا فوق كل شىء!

ـ ولكننا خلقنا لنعيش تحت .

ـ ألا تستطيع أن ترتفع؟

ـ لا أظن ، الملايين تعانى تحتنا .

ـ لا يغير ذلك من جوهر الحقيقة . .

ـ أشك فى ذلك يا سيدى . .

فأشار الرجل إلى المدينة المرصعة بالأضواء وقال :

ـ هنا وهناك ، تقع أحداث ، تنشأ علاقات ، تتفجر خصومات ، أما بالنسبة للراصد من هذه النافذة فلا يحدث شىء على الإطلاق!

ـ لعله ضعف رؤية يا سيدى!

فضج البهو بالضحك ، وضحك الرجل أيضا وقال :

ـ الشباب مرحلة خطيرة ، يأنف من المهادنة ويسخر من الحكمة فليس أمامه إلا إحدى طريقين فإما الانتحار أو الثورة . .

وتساءل الصديق الأول :

ـ والحب ، أليس طريقا أيضا؟

ولكن الشاب تساءل :

ـ الانتحار أو الثورة؟

ـ وكلاهما شىء واحد للراصد من النافذة .

ـ النافذة؟!

ـ نبرتك ساخرة! خبرنى بصدق عما جاء بك إلى هنا؟

ـ المشاركة فى عيد ميلادك . .

ـ وماذا أيضا؟

ـ ربما رغبت أيضا فى شىء من الراحة .

ـ علامة سيئة .

ـ سيئة؟!

ـ تقطع بأنك غارق فى الهموم .

ـ لا تخلو حياة من ذلك .

ـ المهم هو موقفنا منها ، أليس كذلك؟

ـ أن نواصل الصراع .

ـ أرجو ألا تردد أمامى شعارات محفوظة .

ـ لا أخجل من ترديد الشعارات إذا كانت مجدية .

ـ وأنا رجل مجرب ، وقد حققت لنفسى نصرا على الدنيا ، ومن واجبى أن أفضى بالسر لمن هو فى حاجة إليه .

ـ أشكرك . .

ـ ألا تصدقنى؟

ـ إنى متلهف على معرفة السر .

وقال أكثر من صوت :

ـ ونحن متلهفون أيضا .

فقال الرجل :

ـ فى الأصل كانت الهموم .

ـ فى الأصل؟

ـ بدأت التجربة والهموم تقصم ظهرى .

ـ أى هموم من فضلك؟

ـ لا أهميـة لذلك ، الفراق . . العقوق . . الدنس . . أشجان الوطن . . زلزال فى يوغسلافيا ، لا تهتم بالأسماء ، كانت الهموم قد قصمت ظهرى .

ـ وبعد؟

ـ استولى علىّ الإعياء والإرهاق ، وذات يوم وجدتنى أطل على المدينة من هذه النافذة ، عند ذاك ألهمت الحقيقة دفعة واحدة . .

ـ الحقيقة؟

ـ وهى أن الهموم لا وجود لها .

ـ أين ذهبت؟

ـ لم أر إلا مدينة مجردة .

ـ المدينة نفسها تختفى إذا ارتفعت درجة مناسبة .

ـ مدينة مجردة ولا أثر للهموم .

ـ محض خيال .

ـ أبدا .

ـ الواقع أن الهموم تستقر فى أعماق نفوسنا .

ـ ولكنها تتلاشى إذا نظرت من عل .

ـ مطلب مستحيل .

ـ ولكنى حققته وانتصرت . .

ـ أتعنى أنه لم يعد يحزنك شىء؟

ـ بلى . .

ـ هذا يعنى أنك لم تعد من البشر .

ـ أكرر التحذير من ترديد الشعارات .

ـ ولكنها الحقيقة .

ـ لا حقيقة إلا تجربتى الظافرة .

ـ تخيل ـ لا سمح الله ـ أنك فقدت أعز ما تملك .

ـ جربت أفظع من ذلك ، أتحداك أن تميز من موقفك هذا بين القبر والبيت . .

ـ ذاك عزاء عقلى لا شأن له بالأعصاب .

ـ الأعصاب تذعن فى النهاية للنافذة .

ـ لا أصدق . .

فقالت زوجة الصديق الثانى :

ـ يجب أن تصدقه .

فقال الشاب للرجل :

ـ إنه يعنى لو صح أنك لم تعد حيا .

ـ أو أننى أحيا فوق قمة الحياة .

ـ لعلك لم تعرف ضراوة الحياة الحقيقية .

ـ عجنت بها وخبزت .

ـ إذن فأنت أسعد رجل فى العالم .

ـ نحن نتحدث عن الحكمة لا السعادة .

ـ قد تكون حكيما ولكنك ـ ومعذرة ـ لست حيا .

ـ ما زالت أنفاسى تتردد .

ـ حكمتك خليقة بقتل بواعث الحياة الحقيقية .

ـ ها قد عدنا إلى الشعارات .

ـ بقتل التقدم .

ـ لم أخل يوما بواجب .

ـ ولمَ تؤدى أى واجب؟

ـ لأَننى حى ولأنه واجب!

ـ إنك تطرح علينا لغزا؟

ـ بدأت تفهمنى . .

ـ ولكن حديثك يخاصم الواقع ويبدو معقدا غير مفهوم .

ـ قولك هذا يمكن أن يصدق على أى شىء فى الحياة .

ـ يؤسفنى أننى لا أستطيع الإفادة من حكمتك .

ـ أعترف لك بأننى قلقت عندما وقع بصرى عليك .

ـ لم؟

ـ شىء حدثنى بأنك مقدم على شىء خطير !

ـ أى شىء هذا؟

ـ أصارحك بأن خاطر الانتحار خطر لى .

ـ فكرة بعيدة عن الواقع بُعْد هذه النافذة عن الأرض .

ـ ولذلك أطلعتك على السر الذى يقتل فكرة الانتحار .

ـ شكرا لا حاجة بى إليه ، ثم إن لى وسائلى الخاصة .

ـ عظيم . . عد إلى مجلسك واشرب .

وتأهب الجميع لشتى التعليقات . أما الرجل فلم يبرح مكانه أمام النافذة . ثم صعد فوق مقعد قريب .

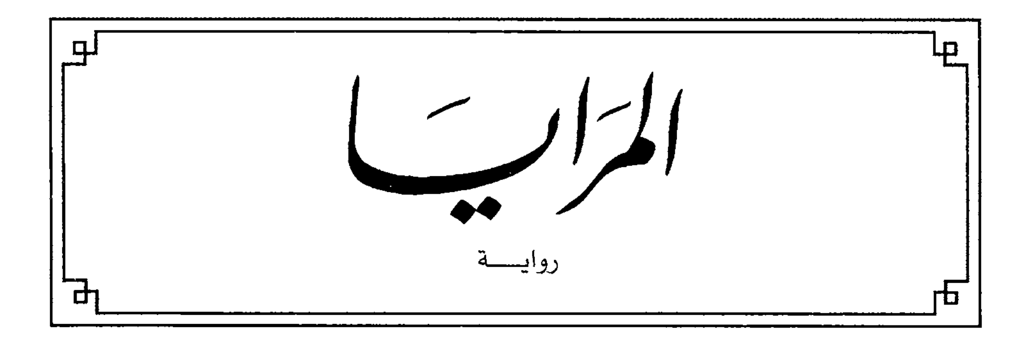
أشاعت حركته الدهشة فتساءل الصديق الأول :

ـ أتنوى إلقاء خطبة؟

من موقفه فوق المقعد انتقل بخفة لا تناسب سنه إلى حافة النافذة فوقف عليها مستندا بيديه إلى ضلعيها . وقف الجميع فى ذهول وصاح أكثر من صوت :

ـ ماذا تفعل؟ ! . . احترس . .

فى اللحظة التالية رأوه وهو يرمى بنفسه فى الفضاء فيختفى بسرعة خاطفة مخلفا وراءه صرخة محشرجة كالعواء . .



المحتويات

إبراهيم عقل

سمعت أول ما سمعت عن الدكتور إبراهيم عقل فى مقالة للأستاذ سالم جبر. لا فكرة لى الآن عن موضوع المقالة ولكنه ذكر فى سياقها الدكتور إبراهيم عقل باعتباره عقلا فذا بشر فى وقت ما بثورة فكرية فى حياتنا الثقافية لولا وشاية حقيرة أجهضته قبل أن يقف على قدميه. رددها شخص لا أخلاق له زاعما بأنه ـ الدكتور إبراهيم ـ طعن فى الإسلام ضمن رسالة الدكتوراه التى قدمها للسربون. وشُنّ على الدكتور هجوم نارى فى عديد من الصحف والمجلات. فاتهموه بالإلحاد، وتبنى آراء المستشرقين المبشرين لنيل الدكتوراه على حساب دينه وقومه، ثم طالبوا بفصله من الجامعة. واهتز الدكتور من جذوره حيال الحملة العاتية، ولم يكن ذا طبيعة مقاتلة، ولا قبل له بتحدى الرأى العام، فضلا عن حرصه على وظيفته وشدة حاجته إليها، فأنكر التهمة، ودافع عن عقيدته، وتوسل بكثيرين ـ على رأسهم صديقه وزميله فى هيئة التدريس الدكتور ماهر عبد الكريم ـ لإخماد الفتنة واسترضاء مؤججيها. ولما التحقت بالجامعة عام ١٩٣٠ وجدته أستاذا مساعدا بها. والظاهر أن المحنة التى مر بها علمته كيف يركز نشاطه فى دروسه الجامعية وينسحب من الحياة الفكرية خارج جدران الكلية. ولاحظنا أن همته يطويها الفتور والملال، وأن دروسه أقرب إلى التوجيهات العامة منها إلى المحاضرات الدسمة التى يلقيها علينا زملاؤه. رغم ما تمتع به من صحة وحيوية، ونضج تربع فوق الأربعين من العمر. وما لبث أن انقلب فى مجالسنا نادرة ودعابة. ومرة سألته فى أثناء مناقشة بقاعة المحاضرات:

ـ لِمَ لم تؤلف كتبا يا دكتور؟

فرماني بنظرة متعالية وقال بصوته الجمهورى:

ـ أتظن أن عالم الكتب فى حاجة إلى مزيد؟

وجعل يهز رأسه الكبير فوق قامته المديدة ثم قال:

ـ لو فرشنا بالكتب سطح الأرض لغطته مرتين!

ثم بامتعاض وازدراء:

ـ ومع ذلك فلو عددنا الكتب المتضمنة جديدا من الفكر لما غطت سطح زقاق!

ولم يكن من النادر أن ألقاه فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بقصره الكبير فى المنيرة. وما أكثر من عرفت من أهل الفكر فى ذلك الصالون العتيد، ومازلت حتى اليوم

أتردد عليه وإن تغير مكانه وزمانه . وثمة ذكرى لاجتماع فيه ترد على الخاطر بوضوح ويسر كلما استدعتها الظروف والأحوال . لعل الدكتور إبراهيم عقل كان أقرب الحاضرين تجانسا مع البهو الكلاسيكى الفخم بجسمه العملاق ومهابته الطبيعية ونظرته الزرقاء الذكية . وعلى غير المألوف خاض الحديث فى شئون السياسة . وكنا نتجنبها إكراما لأستاذنا صاحب الصالون لعلمنا المسبق بنفوره من الأحاديث الانفعالية ، ولكونه من المنتمين إلى الحزب الوطنى بحكم أسرته ونشأته على حين أن تلاميذه جميعا كانوا من شباب الوفد . غير أن الانقلاب الذى قام به إسماعيل صدقى فى ذلك التاريخ طوق المشاعر وضغط على الأفكار فلم يكن من اليسير تجاهله . وتكلم كثير من الطلبة الحاضرين حتى قال الدكتور إبراهيم عقل :

ـ إن حياتنا الدستورية مكسب ولكنها فى الوقت نفسه فخ !

فتحفز الشبان للنضال ولكنه قال :

ـ انحرف الجهاد الوطنى عن غايته الأولى . غرقنا فى معاركنا الحزبية ، ولدى كل انقلاب يحدث رد فعل فظيع فى العلاقات والأخلاق ، ويوما بعد يوم يتفتت البناء الشامخ الذى ورثناه عن ثورة ١٩١٩ . .

فقال أحد أفراد مجموعتنا الشابة :

ـ بناء الشعب غير قابل للتفتت .

ابتسم أستاذنا ماهر عبد الكريم ، وتفكر قليلا ، ثم قال بصوته الناعم الهامس :

ـ شعبنا مثل الوحش المذكور فى بعض الأساطير الشعبية يستيقظ أياما ثم ينام أجيالا .

فعاد الدكتور إبراهيم عقل يقول :

ـ لن نضار ألبتة إذا استمسكنا بالمثل العليا .

وجعل ينقل عينيه الزرقاوين بين وجوهنا المتحفزة ثم كرر بنبرة منغومة :

ـ المثل العليا . . المثل العليا .

وكان يرددها كثيرا فى محاضراته عن الأخلاق حتى أطلق عليه زميلنا عجلان ثابت «دكتور مثل عليا» .

ولعل الدكتور تذكر موجة الإلحاد التى كانت تجتاح الكلية فى ذلك الوقت فقال :

ـ أرجو ألا تعتبروا المثل العليا نتيجة لعقيدة دينية ، اعتبروها إذا شئتم المنبع الذى تدفقت منه العقيدة نفسها . .

فقال شيخ أزهرى لا يحضرنى اسمه الآن :

ـ السياسة ترمى بنا كل يوم فى محنة جديدة . .

فقال الدكتور إبراهيم عقل بإصرار :

ـ المثل العليا ، حسبنا أن تبقى لنا . .

فقال الأستاذ سالم جبر وهو غائص بجسمه البدين فى فوتيل وثير :

ـ يا سيدى الدكتور ما الأخلاق إلا علاقات اجتماعية ، وعلينا أن نغير المجتمع . . .

فسأله بهدوء :

ـ أقرأت كتاب برجسون عن أصل الأخلاق والدين؟

فقال سالم جبر باستهانة :

ـ إنى أقرأ برجسون كما أقرأ قصيدة حالمة!

فقال له الدكتور ماهر عبد الكريم :

ـ إنك يا أستاذ تحلم بثورة كالتى قامت فى روسيا منذ أربعة عشر عاما ، وهى تتكشف كل يوم عن مضاعفات خطيرة . .

فقال سالم جبر بحدة :

ـ نحن لا نعرف عن روسيا إلا ما نقرأه فى صحف الغرب وكتبه .

وحلت هدنة ريثما نشرب أقداح القرفة وننعم بحشوها الطيب من البندق واللوز والجوز . ثم خرق الهدنة شاب قائلا :

ـ لا حل إلا القضاء على أحزاب الأقلية الطامعة فى الحكم .

فقال سالم جبر :

ـ هذه ترجمة ركيكة لصراع الطبقات .

ولكن الدكتور إبراهيم عقل قال :

ـ إن رئيس الوزراء يزعم أنه يسعى للحصول على الاستقلال فلندعه يسع!

ـ وإن فرض علينا معاهدة مثل تصريح ٢٨ فبراير؟

فقال الدكتور بشىء من العنف :

ـ الاستقلال الحقيقى فى المثل العليا وبنك مصر!

طالما عذبنى التناقض بين تناول الأوساط الشعبية للسياسة وتناولها فى الأوساط الثقافية الرفيعة ، فهى هناك انفعال مضطرم سرعان ما يسيل دما . وهى هنا مناقشات متفلسفة لا تخلو من تثبيط للهمم وتخييب للآمال .

فكرت فى ذلك ونحن راجعون من قصر المنيرة ، وتبادلنا الآراء فى سرعة محمومة :

ـ لا بد من ثورة!

ـ أيكفى الإضراب لإشعال ثورة؟

ـ هكذا قامت ثورة ١٩١٩ فيما يقال .

ـ كيف قامت ثورة ١٩١٩ ؟

ـ ما أقربها وما أبعدها . .

ـ وفى صيف ذلك العام قابلت الدكتور ـ كان بصحبته أسرته المكونة من زوجة وغلامين ـ فى كازينو الأنفوشى بالإسكندرية . كنت أجلس هناك فى الصباح عقب الاستحمام ـ فأشرب القهوة وأقرأ الصحف ، وأشاهد فى الوقت نفسه ما يجرى على مسرح الكازينو من بروفات للعروض المسائية رغم نفورى الطبيعى من الغناء الأفرنجى .

وقدمنا الدكتور إلى حرمه وأظنها كانت مفتشة بوزارة المعارف . ولاحظت بسرور غرامه الأبوى بابنيه وملاطفاته لهما مما دعا زوجه لإعلان استنكارها لتدليله لهما واستمالنى لأول مرة بعواطفه الأبوية ، فلم أكن له احتراما يذكر لعزوفه عن التأليف ، ولعدم إخلاصه فى عمله . وما أعجبنى فيه إلا منظره وخفة روحه وسخريته المموهة بالتفلسف .

وسألنى :

ـ أتستحم عادة فى الأنفوشى؟

فأجبت :

ـ إن أمواجه أهدأ بكثير من الشاطبى .

ـ عندما يتم بناء الكورنيش سيتغير وجه الإسكندرية .

فوافقته على قوله فقال باسما :

ـ ولكنكم تكرهون إسماعيل صدقى !

فقلت وأنا أدارى العواطف المريرة التى استفزها ذلك الاسم :

ـ ليس بالكورنيش وحده يحيا الإنسان .

فضحك قائلا :

لا يوجد مثل السياسة مفسدة للتفكير البشرى .

ثم أشار إلى زوجه وقال :

ـ والدتها ـ حماتى ـ عضوة فى اللجنة الوفدية للسيدات .

فرمقت السيدة بامتنان إكراما لوالدتها .

وفى مطلع العام الدراسى تولى الدكتور إبراهيم عقل منصبا جامعيا كبيرا ولكنه اغتال

فى سبيله جميع مثله العليا. كانت الهتافات العدائية للسراى تتردد فى جنبات الوادى. ونشرت جريدة التيمز أن مظاهرة فى أسوان هتفت لمصطفى النحاس رئيسا للجمهورية. وانقسمت البلاد إلى أقلية موالية للملك وأغلبية معادية تكاد تجهر بعدائها. وإذا بالدكتور إبراهيم عقل ينشر مقالة فى الأهرام يدعو فيها للولاء لصاحب العرش وينوه بأيادى أسرته على نهضة البلاد وبخاصة محمد على وإسماعيل. كانت أزمة تهاوت فيها القيم إلى الحضيض وتقوضت كرامات الكثيرين من الرجال. ورمى الأبرياء المهزلة بأعين حمراء ولكن حتى صفوفهم لم تبرأ من فساد. عصر الزلازل والبراكين المتفجرة. عصر إحباط الأحلام وانبعاث شياطين الانتهازية والجريمة. عصر الشهداء من جميع الطبقات. وظل الدكتور يخطر بيننا، متظاهرا بالثبات والشجاعة. يطالعنا بنظرات متحدية تخفى فى أعماقها إحساسا بالهزيمة والذنب. وكنا نلقاه بالاحترام اللائق بمركزه على حين نضمر له الاستهانة والسخرية. الاستهانة والسخرية أجل، لا البغضاء ولا الرغبة فى القتل، كما شعرنا بهما نحو كثيرين من رجال السياسة. لم تكن شخصيته تثير شيئا من ذلك، وكان لخفة روحه ومناوراته البهلوانية خليقا بأن يتبدى لنا مهرجا أو دجالا لا شريرا أو سفاكا للدماء أو عدوا حقيقيا للشعب.

وفى اليوم الأخير للدراسة، ونحن ذاهبون لعطلة قصيرة نتقدم بعدها لامتحان الليسانس، دعانا إلى الاجتماع به فى مكتبه. كنا عشرة ذكور، هم طلاب الليسانس للقسم الذى يرأسه إلى جانب منصبه العام.

أجلسنا أمام مكتبه وراح ينقل بين وجوهنا عينيه الزرقاوين مطيلا الصمت والتأمل وابتسم وهو يهز رأسه فى تعال ساخر، وقال:

- نحن على وشك الفراق ولا يجوز الفراق بلا كلمة...

وعاد ينقل بصره بيننا مواصلا هز رأسه، ثم قال:

- طالما خمنت ما دار بنفوسكم يوما، ولكن ليس الأمر كما توهمتم! ها هو يطرق الموضوع بعد صمت طويل. صمت طويل جدا. ولكن علينا أن نلزم أنفسنا الأدب والحذر. علينا أن نذكر أننا سنمتحن فى كل مادة تحريريا وشفويا معا. وعلينا أن نذكر أن من حق مجلس القسم تعديل نتيجة الامتحان - بصرف النظر عن الدرجات الحاصل عليها الطالب - لتتفق مع مستواه العام كما يقرره الأساتذة. كل ذلك يضعنا تحت رحمته بلا مراجع ولا معقب. وواصل حديثه قائلا:

- المسألة أننى وجدت أناسا يخطبون وأناسا يعملون فاخترت الانضمام إلى العاملين. وكلنا فى النهاية مصريون.

ولذنا بالصمت إلا واحدا فقال بجرأة:

ـ إن من يخطب مطالبا بالاستقلال والدستور خير ممن يبنى الكورنيش ويسفك الدماء . .

كان القائل يدعى إسحق بقطر ، وكان الغنى الوحيد فينا ، وكان سيمضى عقب الامتحان إلى مزرعته عند مشارف القاهرة لزراعة أفخر أنواع الزهور . ولم يغضب الدكتور إبراهيم عقل . ابتسم وقال بشىء من الأسى :

ـ ليس كالسياسة مفسدة للعقل . .

ثم بنبرة تشى بالرجاء :

ـ الحقيقة ، اعبدوا الحقيقة عبادة ، ليس ثمة ما هو أثمن ولا أجل منها فى الوجود ، اعبدوها واكفروا بأى شىء يتهددها بالفساد .

ظللنا ملازمين الصمت ، متذكرين الامتحان الشفوى وحق مجلس القسم ، أما هو فعاد يقول :

ـ لن أناقش بقطر ، لن أتفوه بكلمة فى السياسة ، إنما دعوتكم لنلقى نظرة معا على المستقبل . .

فانتشر الارتياح فى نفوسنا كالضوء . نجونا من مزالق السياسة وها هو يفتح باب المستقبل الذى نرقبه بوجوم قاتم مذ صدرت القرارات الوزارية بوقف التعيينات والترقيات والعلاوات لأجل غير مسمى . ماذا بقى لنا من أمل وماذا عند أساتذتنا من وعود؟ قال :

ـ هذه أيام أزمة ، أزمة تطحن العالم كله وليست خاصة ببلادنا كما يصور البعض ، ماذا أنتم فاعلون؟ !

وسكت قليلا ثم قال :

ـ لن تجدوا وظيفة بالسرعة المطلوبة ، ولن تكونوا أسرة فى أجل قريب ، وربما تفاوتت بينكم الحظوظ . . .

وتلقى نظراتنا التى أطفأ نورها الفتور بابتسام وقال :

ـ حتى الفرص الضعيفة التى يفوز بها الطبيب أو المهندس أو الحقوقى فى الميدان الحر ، حتى هذه الفرص لا نصيب لكم فيها ، ولكن يبقى لكم شىء هام ، جوهرة لم يتعود أحد أن يتحلى بها بعد!

فاشتعلت أعيننا بالاهتمام مرة أخرى فواصل حديثه قائلا :

ـ أمامكم طريق الحقيقة والقيم!

تذكر كل منا آله وحبيبته والآمال المعقودة على الوظيفة المنتظرة . أما هو فقال :

ـ تخففوا من غلواء الطموح الدنيوى وارضوا من الدنيا بما تجود به أما الشوق للحقيقة فلا ترسموا له حدا!

ترى أدعانا الرجل ليعذبنا ويسخر منا؟

ـ إن الجلوس تحت شجرة فى يوم صاف خير من امتلاك عزبة .

أنت تقول ذلك يا من بعت جميع القيم من أجل . . .

ـ إن حكمة الحياة هى أثمن ما نفوز به من دنيانا ذات الأيام المعدودات . . .

وما غادرنا الكلية حتى انفجرنا ضاحكين من عنف المفارقة واليأس .

واستبقنا إلى نعته بكل قبيح :

ـ الوغد .

ـ المهرج .

ـ الدجال .

ومنذ تخرجنا فى الكلية انقضى زمن طويل لم أره فيه مرة واحدة . غاب عن عينى كما غاب عن وعيى إلا فى النادر من المناسبات . وكان يتجنب صالون الدكتور ماهر عبد الكريم منذ وثوبه الانتهازى إلى الوظيفة الكبيرة أن يتعرض لهجوم بعض المتطرفين فاقتصرت مقابلاته لصديقه على الزيارات الخاصة . لذلك مرت ثلاثة عشر عاما دون أن أراه حتى عرضت مناسبة غير سارة، بل مناسبة مؤسفة غاية الأسف إذ فقد ابنيه الوحيدين فى وباء الكوليرا الذى اجتاح البلاد عام ١٩٤٧ عانيت صدمة وأنا أتلقى الخبر ورجعت بى الذاكرة إلى كازينو الأنفوشى وهو يلاعب الغلامين . يا لها من ذكرى ويا لها من نهاية . وذهبت إلى الجيزة للاشتراك فى تشييع الجنازة . جنازة مؤثرة مفعمة بالأشجان . وسار الرجل وراء النعشين بقامته الطويلة كأنها صورة ناطقة لليأس الأعمى . ولا أظنه عرفنى وأنا أقدم له العزاء، لم يتلفت إلى أحد، ولم يهتم بشىء مما يدور حوله، ولكن عندما تقدم الدكتور ماهر عبد الكريم لتعزيته خفض جفنيه على دمع تفجر رغم إصراره على الظهور بمظهر الثبات والصبر . وعند منتصف الليل دعانى الدكتور ماهر عبد الكريم إلى مرافقته فى سيارته إلى المدينة . وفى أثناء الطريق تمتم بعطف :

ـ الله معه، إنها كارثة لا تحتمل . . .

فوافقته على رأيه وكنت فى الحقيقة متأثرا جدا فعاد يقول :

ـ ولكن حديثه أقلقنى!

فسألته عما أقلقه فأجاب :

ـ جعل يقول بنبرة متهدجة إن الموت جميل، وإنه مظلوم، وإنه لولاه لما كانت للحياة قيمة . . .

فصمت متفكرا فعاد أستاذى يقول :

ـ الله معه . .

غاب الدكتور إبراهيم عقل عن عينى مرة أخرى وإن لم تغب عنى مأساته طويلا . وفى صالون قصر المنيرة علمت بما طرأ عليه من أحوال فى الأعوام التالية للحادث . قيل إنه أصبح يُرى كثيرا فى جامع الحسين . وإنه يمضى الساعات متربعا أمام المقام . وفى كلمة أنه يتدروش ويسلم للإيمان تسليما بلا قيد ولا شرط . وأثار مسلكه الكثير من الجدل عن الإيمان بصفة عامة ، والإيمان بالنشأة والإيمان بالاقتناع ، والإيمان بسبب الكوارث ، وإيمان الفلاسفة . وإيمان العجائز ، وكان ماهر عبد الكريم يفند كل حجة يأنس منها هجوما ولو من بعيد على مسلك صديقه القديم . وفى عام ١٩٥٠ ترك الدكتور إبراهيم عقل الخدمة لبلوغه السن القانونية فتفرغ تماما للدروشة . وفى يوم من عام ١٩٥٣ صادفته أمام الباب الأخضر بحى الحسين ـ ذاهبا أو راجعا من الجامع لا أدرى ـ فجذبتنى طلعته المهيبة المجللة بالمشيب . واقتربت منه مادا يدى للمصافحة فصافحنى وهو يحدجنى بنظرة لا يلوح فيها أنه عرفنى ، فلما ذكرته بنفسى هتف بصوته الجمهورى :

ـ أنت ! . . كيف حالك؟ ماذا تفعل؟

فلما أجبته قال :

ـ لا تؤاخذنى فأنا لا أقرأ .

وسايرته حتى موقف سيارته فى ميدان الأزهر وهناك سألنى :

ـ ماذا يدور فى الدنيا؟

فذكرت من الأمور ما رأيته جديرا بالذكر منوها بصفة خاصة بالثورة الجديدة فقال :

ـ هبوط صعود ، موت بعث ، مدنى عسكرى ، فلتسر الدنيا فى طريقها أما أنا فإنى أستعد لرحلة أخرى .

وغاب عنى من جديد حتى قرأت نعيه عام ١٩٥٧ على ما أذكر . وأطرف ما سمعت عنه بعد ذلك ما قيل من عثور ابن أخيه على مخطوط له لترجمة غاية فى الجمال لديوان «أزهار الشر» لبودلير لم يعرف بالضبط تاريخ ترجمته ولما كان ابن أخيه هو الوريث الوحيد له ـ توفيت زوجته فى العام السابق لوفاته ـ فقد أذن بنشره ، هكذا بقى اسمه فى المكتبة العربية مقرونا باسم بودلير على ديوان «أزهار الشر» .

ولا خلاف فى الرأى عن الدكتور إبراهيم عقل بين طلبته . فقد اعتبروه ـ بلا استثناء ـ مهرجا . ولكن ثمة مفكرا له وزنه مثل الأستاذ سالم جبر كان يراه ضحية لمجتمع فاسد وإن لم يغفر له انهزاميته . وذات يوم قال لى أستاذى ماهر عبد الكريم بصوته الهامس :

إنكم تظلمون إبراهيم عقل .

فلم أتكلم احتراما لعواطفه نحو صديقه ، فقال :

ـ إنه عقلية فذة، وكان يبهرنا بذكائه ونحن فى السربون .

فقلت :

ـ لم يفد أحد من ذكائه شيئا . . .

فقال متجاهلا تعليقى :

ـ وهو الوحيد فى مصر الذى يتمتع بعقل فلسفى، بالنظرة الشاملة للأشياء . . .

ونظر إلى باسما ثم استطرد :

ـ لم يخلق كاتبا، ولكنه محدث موهوب، نوع من سقراط، خص أصدقاءه الحميمين بزبدة أفكاره، وطرح أيسر ما عنده على الناس .

فقلت له :

ـ لعله يحتاج إلى أفلاطون جديد ليرد إليه اعتباره !

ولكنه اندثر فلم يبق منه إلا مأساة وترجمة نادرة لأزهار الشر .

أحمد قدرى

يقترن أحمد قدرى فى ذاكرتى بالشهد والفطائر المشلتتة والسينما، كما يقترن بواقعة لا تنسى . وهو قريب لى من أسرة ريفية، كان يفد إلينا فى بعض المواسم لقضاء أيام فى القاهرة . وكانت إقامته تنقضى فى اللعب فى شوارع العباسية الهادئة المحفوفة بالحقول والحدائق . كنت فى التاسعة أو العاشرة وكان يكبرنى بخمس سنوات، وكان وحيد أبويه، وكان عفريتا بكل معنى الكلمة . واقترح ذات مرة القيام برحلة، ولكى يؤكد براءتها استأذن والدى فى أن يصطحبنى معه . وذهبت معه مرتديا بدلتى القصيرة . وقال لى ونحن فى طريقنا إلى محطة الترام :

ـ سأشترى لك بسكوتا بشرط .

فسألت عن الشرط فقال :

ـ أن تحفظ تماما ما سأقوله لك ثم تردده عند عودتنا . .

فسألت عما ينبغى لى حفظه فقال :

ـ إننا ذهبنا إلى سينما أوليمبيا وشاهدنا فيلما لشارلى شابلن .

فوعدته بذلك وأخذت البسكوت ثم ركبنا الترام، وغادرنا الترام فى شارع لم أراه من قبل، فمضى بى من حارة إلى حارة فى عالم جديد وغريب ومثير . وجرنى من يدى إلى

مدخل بيت آية فى الغرابة كان يجلس فى دهليزه ثلاث نساء يبهرن النظر بألوان وجوههن وملابسهن ولا يبالين أن ينكشف من أجسادهن ما ينكشف فوق السيقان وتحت الأعناق. نهضت إليه إحداهن فأجلسنى مكانها وهو يقول :

ـ لا تتحرك من مكانك حتى أرجع إليك . . .

ووصى بى المرأتين ومضى بصاحبته إلى الداخل. وركزت بصرى فى بلاط الدهليز المعصرانى متجنبا النظر إلى المرأتين، شاعرا فى الوقت نفسه بأن مخالفة خطيرة ترتكب على كثب منى، ومتابعا من حين لآخر صوت إحدى المرأتين وهى تغنى «يوم ما عضتنى العضة». ثم مالت نحوى الأخرى فسألتنى :

ـ هل معك نصف ريال؟

فأجبت بالنفى فسألت :

ـ معك كم؟

فأجبت بخوف وأدب :

ـ شلن.

ـ عال، تحب أفرجك على شىء لطيف لم تره؟

ـ ولكنه قال لى ألا أتحرك . .

ـ دقيقة واحدة فى هذه الحجرة أمامك . .

ـ كلا!

ـ لا تخف، مم تخاف!

وأخذتنى من يدى إلى الحجرة وأغلقت الباب وهى تقول :

ـ هات الشلن . .

فأعطيتها إياه بلا تردد فقالت وهى تمسحنى بعينيها :

ـ اخلع بدلتك . .

فقلت بفزع :

ـ كلا . .

وإذا بها تنزع ثوبها فتبدو أمامى عارية. رأيت امرأة عارية لأول مرة ملأتنى الحركة المقتحمة المستهترة فزعا. وملأنى المنظر الذى رأيته خطفا فزعا أشد. تراجعت نحو الباب وأنا أنتقض.

فتحت الباب وهرولت إلى الخارج وضحكتها المائعة المتموجة تتعقبنى كثعبان. وتلقتنى المرأة الأخرى بقهقهة. وأشارت إلى الكرسى كى أجلس ولكنى وقفت فى وسط

الدهليز لا أريد أن ألمس شيئا ولا أريد لشيء أن يلمسنى. وجعل المتسكعون خارج البيت ينظرون إلى فى دهشة ويطلقون فى وجهى أبشع النكات. ولبثت أعانى محنة وأى محنة حتى رجع أحمد فسألنى بفتور:

ـ مالك واقف كالديدبان؟

فقبضت على ذراعه كالمستغيث فمضى بى إلى الخارج، ولم تكن العودة يسيرة كالذهاب إذ صادفتنا مظاهرة ضخمة فشق طريقه خلال أزقة جانبية وأصوات الرصاص تدوى فى الجو. ولما جلسنا فى الترام سألنى بنبرة الممتحن:

ـ أين كنا يا بطل؟

فأجبت من فم جاف:

ـ فى سينما أولمبيا.

ـ ماذا شاهدنا؟

ـ شارلى شابلن.

ـ عظيم، ولكن مالك مخطوف الوجه؟

ـ لا شيء.

ـ ضايقتك المرأتان؟

ـ كـــلا..

وجعل يراقبنى بقلق ثم عاد يسألنى:

ـ مـــالك؟

ففاض بى الحزن حتى كدت أبكى فسألنى بقلق:

ـ مـــالك؟

فقلت بمرارة:

ـ لا شيء، إنه شيء خاص جدا، دورا، ليست دورا جميلة كما توهمت..

ـ دورا!... من هى دورا؟

ـ حبيبة دان..

ـ ومن هو دان؟

ـ بطل المغامرات، ألم تقرأ مجلة الأولاد؟!

ـ أولاد؟!.. بم تهذى؟... ابسط وجهك، لن نرجع إلى البيت حتى ترجع إلى حالتك الطبيعية!

لم يعلم بمدى شغفى بدورا، ولم يدر بأنى تخيلت جسدها من الماس النقى! ولكن بصفة عامة كانت أيامه بالقاهرة من أسعد أيامى. علمنى كرة القدم والملاكمة ورفع الأثقال وأمتعنى بنوادره الفكاهية، وكان يقلد شابلن فى مشيته، ويغنى المنولوجات المشهورة، ويحاكى عمدة القرية وشيخ الخفراء. وانتقل والداه إلى القاهرة فأقاما فى عابدين فلم يعد يزورنا إلا كل حين ومين. وتعثر فى دراسته الثانوية فاختار الالتحاق بمدرسة البوليس. وعقب تخرجه عين فى القاهرة لتقدمه، وشغل بحياته الجديدة فانقطع عن زيارتنا وبتنا كالغرباء. لم أره طيلة عمله الأول بالقاهرة إلا خطفا ومصادفة وهو يتسلل خارجا من سراى عصام بك عقب مغامرة غرامية. وتوفى والداه وكدت أنساه تماما، بل نسيته حتى ذكرتنيه الحوادث فى أثناء الحرب العظمى الثانية وما تلاها بعد أن اختير عضوا فى البوليس السياسى. لم يعد أحمد قدرى بأحمد قدرى الذى عرفته، انقلب شخصية مخيفة تنسج حولها أساطير الرعب، سُلّ سوط عذاب فى أيدى الطغاة يلهبون به الوطن والوطنيين. وكنت أسمع عنه وأتعجب، كيف استحال الظريف الماجن شيطانا من شياطين العذاب، كيف يمثل بالشبان من ذوى العقائد الحرة فيجلدهم ويطفئ السجائر المشتعلة فى جفونهم ويخلع بآلات العذاب أظافرهم! وحدث أكثر من مرة أن نوقش مسلكه على مسمع منى فى بعض مجالس الأصدقاء من أهل الفكر والوطنية مثل رضا حمادة وسالم جبر وغيرهما، وقيل إنه ما دام لا توجد ثورة شاملة فلا أقل من أن توجد جمعيات سرية لممارسة الاغتيال السياسى دفاعا عن الشعب الأعزل. وقد حدثت بالفعل محاولة لاغتياله أمام نادى محمد على ولكنه نجا بأعجوبة وأفلت ممن سموهم وقتها بالجناة الهاربين.

وعقب ثورة يوليو ١٩٥٢ قدم إلى التحقيق فاكتفى بإحالته إلى المعاش، ومضى بالنسبة إلى يذوب فى ماء النسيان، حتى دعيت فى خريف ١٩٦٧ تليفونيا إلى المستشفى الأنجلو أمركى. هناك وجدته راقدا مصابا بأزمة قلبية. لم أعرفه لأول وهلة. جاوز الستين وذكرنى بصورة أبيه فى أيامه الأخيرة. قال:

ـ معذرة عن إزعاجك. . .

فشجعته بما حضرنى من كلمات فقال:

ـ لا أحد لى غيرك فى الواقع. . .

ثم بصوت هامس:

ـ لكى تدفننى إذا قضى الأمر.

فعدت إلى تشجيعه. وخلوت إلى الطبيب مستعلما فأكد لى أنه اجتاز مرحلة الخطر وأن صحته بعد ذلك تتوقف على إرادته. ولما سمع بتلك المعلومات قال:

ـ عندى أكثر من داء!

فخمنت وراء قوله الخمر والنساء والقمار، فقلت:

ـ تجنب الانفعال لكى تتجنب أزمة أخرى.

فقال باستهانة:

ـ إنها آتية لا ريب فيها:

وجعلت أنقب فى وجهه المريض عن الوحش الضارى الذى نشر الفزع فى الزمان القديم أو الشاب المهرج الظريف ولكن عبثا، ولم يكن فى صدرى حياله إلا شعور بالواجب. وعلمت أنه يقيم بشقة صغيرة بالزمالك وأنه لم يتزوج طبعا، وأنه لم يعد له من صديق سوى نفر من كهول اليونانيين المدمنين لسباق الخيل. وهز رأسه ثم غمغم:

ـ يخيل إلى أننى انتهيت كما انتهوا..

ففطنت على البداهة إلى من يعنى. كان ٥ يونية مازال ممتزجا بريقنا كالعلقم. وأدركت من فورى مدى الحقد الذى عاشره منذ إحالته على المعاش. وكرهت مناقشة شماتته المنغصة بسوء حاله لتحديها الجارح لعواطفى الشخصية. وعلى أى حال لم تتحقق نبوءته السوداء فيما يتعلق بحياته أو حياة الثورة. غادر المستشفى عقب ذلك بثلاثة أسابيع. وزارنى فى بيتى للشكر. تبدى فى حال صحية مقبولة وراح يغازل ذكريات الجيل السابق. وطيلة الوقت وجدت إغراء لا يقاوم فى نبش ماضيه الغريب، حتى واتتنى الفرصة فقلت:

ـ أتدرى أننى لم أكن أصدق ما يقال عنك؟

خيل إلى أنه تجاهل قولى تماما. اقتنعت بأننى أخطأت. ولكنه قال وكأنه يقرر حقائق لا علاقة لها بحديثى:

ـ يحدث أحيانا أن تصدم سيارة أحد المارة فترديه قتيلا..

وأشعل سيجارة متحديا أولى نصائح طبيبه ثم قال:

ـ من الخطأ أن نحمل السيارة تبعة ما حدث، التبعة تقع على السائق أو الطريق أو المصنع أو الضحية نفسها أما السيارة فلا ذنب لها...

وقال أيضا:

ـ لِمَ لم نعذب أحدا فى عهود الوفد؟ المسألة أنه يوجد نوعان من الحكومة، حكومة يجىء بها الشعب فهى تعطى الفرد حقه من الاحترام الإنسانى ولو على حساب الدولة. وحكومة تجىء بها الدولة فهى تعطى الدولة حقها من التقديس ولو على حساب الفرد...

وقال أيضا :

ـ لم نعذب أحدا بالمعنى الذى تظنه، كنا نصب العذاب كما تملأ أنت الاستمارة ٥٠ ع . ح . أو كما تكتب تقريرا بناء على طلب الوزير، عمل ليس إلا، له مقاييسه من الإتقان وتقديره فى حساب الواجبات العامة . إذا وجد بيننا من يغالى فى عمله أو ينفذه بلذة خفية أو ظاهرة فكما يوجد أحيانا فى أوساطكم من يفرط فى العمل ليدارى نقصا أو تعاسة ملحة . .

وفى أثناء الحديث ثبتت عيناه على صورة قائمة على منضدة فنظر إليها مليا ثم تساءل :

أليس هذا هو الدكتور إبراهيم عقل؟

فقلت بدهشة :

ـ بلى، بين بعض الزملاء القدامى وبعض الأساتذة، أكنت تعرف الدكتور عقل؟

ـ كلا، ولكن ظروفا معينة جعلتنى أتابع ما كان ينشر له من صور فى الصحف . .

ـ أى ظروف يا ترى؟!

تفكر طويلا ثم قال :

ـ لعلك تذكر وفاة ابنيه؟

ـ أجل، هلكا فيمن هلك من ضحايا وباء الكوليرا .

فضحك قائلا :

ـ يبدو ـ والله أعلم ـ أن الكوليرا لم تكن هى الجانية . . .

فهتفت بذهول :

ـ ماذا تقول؟!

ـ رئيسى رحمه الله همس لى يوما فى مجلس صداقة حميمة بأنهما قتلا!

ـ قتلا؟!

ـ اضبط أعصابك، ذاك تاريخ مضى وانقضى . .

ـ ولكن كيف قتلا ومن الذى قتلهما؟!

ـ لا شىء مؤكد، صدقنى لا شىء مؤكد، حتى رئيسى نفسه لم يكن لديه أكثر من همس، تسلل إليه خبر عن غرام امرأة هامة وشخص من رجال الملك وجريمة قتل فى بيت خلوى بالطريق الصحراوى . .

ـ أعطنى مزيدا من المعلومات . .

ـ لا مزيد عندى، ولا شىء مؤكد، صدقنى لا شىء مؤكد . . .

وأصر على موقفه فلم أجد مبررا لتكذيبه . وقد أفضيت بما بلغنى منه إلى أستاذى

الدكتور ماهر عبد الكريم فأبدى من الدهشة ما لم يعلنه وجهه الهادئ من قبل. وقال لى:

ـ لا أصدق أن المرحوم إبراهيم عقل كان يخفى عنى سرا..

ـ لعل صلة الأمر بالسراى ألزمته بالصمت..

فهز رأسه وهو فى شك وحيرة، وقررت تناسى الموضوع من أساسه. أما أحمد قدرى فقد اختفى من حياتى مرة أخرى. وكنت ألمحه أحيانا فى مقهى فنكس وسط نفر من كهول الخواجات، وفى أوائل عام ١٩٧٠ رأيته ـ من بعيد ـ سائرا فى ميدان طلعت حرب، وثبت لى من تهدل شدقيه أنه خلع أسنانه، ولكن صحته بدت خيرا مما توقعت.

أماني محمد

كان التليفون واسطة التعارف بين أمانى محمد وبينى. بدأت حديثها بالتحيات والمجاملات المعروفة. واستأذنتنى فى طرح أسئلة عن بعض المناقشات التى تتابعها فى التلفزيون. وآنست منها اهتماما بالفن ورغبة فى التزود ببعض المراجع وحماسا للقاء تتم به الفائدة. دعوتها إلى مكتبى ولكنها عالنتنى بنفورها من جو المكاتب واقترحت لقاء فى الخارج. وتم اللقاء فى استراحة الهرم فى أواخر ربيع عام ١٩٦٥. توقعت أن تجيئنى طالبة أو خريجة حديثة العهد بالتخرج. ولكن التى أقبلت كانت امرأة ناضجة، فى الأربعين، ريانة البدن ملونة العينين، تخطر على الحد الفاصل بين حرية المرأة العصرية وبهرج الغانية. ولدى رؤيتها غازلنى شعور مستفز بأن الفن لن يكون ـ وحده ـ ثالثنا. لم يهزنى قبول ولا صدنى رفض فسلمت أمرى للظروف. جلسنا فى طرف الحديقة المطل على المدينة ونظراتنا المتبادلة تعكس الحياء والترقب. قالت بلسان يحور الراء غينا:

ـ معذرة عن جرأتى..

ثم كالمستدركة:

ـ كان لابد أن أقابلك..

فأكدت لها سرورى باللقاء فقالت:

ـ إن فراغ حياتى لن يملأه إلا الفن، ومن حسن الحظ أننى لا أخلو من استعداد.

ـ سيدتى موظفة.

ـ كلا ، ولا حاصلة على شهادة عالية ، الثانوية العامة فقط ، ولكنى قارئة ممتازة ، وكتبت أكثر من تمثيلية إذاعية . .

ـ لم يسعدنى الحظ بسماعها . .

ـ لا غرابة فى ذلك .

وتفضلت بإغداق الثناء فشكرت لها تقديرها فقالت :

ـ إنى بحاجة إلى مراجع تاريخية لأواصل الكتابة .

ـ مطلب يسير فيما أعتقد .

ـ أود أن أكتب عن أشهر نساء الشرق وبخاصة اللاتى لعبن أدوارا خالدة فى الحب . .

ـ موضوعات شائقة . .

فابتسمت ابتسامة رقيقة وقالت :

ـ أطمع أن تشترك معى فى العمل . . ؟

فاعتذرت بلا تردد قائلا :

ـ إنى مشغول بأعمال أخرى .

ـ ممكن أن تمدنى بالمراجع والمادة العلمية وأن تشترك فيما يعجبك من الموضوعات . .

ـ سأهديك إلى المراجع .

ولكنها تجاهلت اعتراضى وقالت وهى ترمى بنظرتها إلى رءوس أشجار الحور تحتنا :

ـ سنعمل فى الحدائق . .

ثم بعد توقف قصير :

ـ إلا إذا تفضلت بتشريف بيتى .

نجحت الغزوة الجديدة فى اقتحام ترددى فتساءلت :

ـ بيتـك؟

ـ لم أعرفك بحالتى الاجتماعية ، إنى مطلقة . أقيم مع خالتى العجوز ، ولى ابن وابنة يقيمان مع والدهما .

ـ ولكن خالتك؟!

ـ لا عيب فى العمل . .

ثم وهى تنظر بعيدا :

ـ يمكن تدبير الأمر لنهيىء جوا صالحا للعمل .

ـ ولكـــن . .

ـ ولكـــن؟

ـ أصارحك بأنه من المؤسف ألا تنعم سيدة مثلك بحياتها الزوجية . .

فقالت بامتعاض :

ـ لم تكن حياة موفقة ، ولا يوما واحدا . .

ـ عجيبـــة .

ـ علمنى كيف أمقته ، ولم أحبه من قبل .

ـ ولم قبلت الزواج منه؟

ـ زوجت إليه وأنا بنت ستة عشر ، أبعد ما تكون عن النضج وبلا وزن لرأيى .

ـ زيجات سعيدة كثيرة بدأت كذلك .

ـ إنه أنانى نذل متوحش .

لم تشأ أن تنتقل من العموميات إلى التفاصيل ففتر اهتمامى بالموضوع ، وبخاصة وأنه أصبح من ذكريات ماض بدا أنه ذهب إلى غير رجعة . حتى الفن نفسه تراجع إلى الهامش وذاب فى الظلام . وبحركة غير متوقعة تسللت يدها البضة فاستقرت فوق يدى على طرف المائدة :

ـ إنى فى حاجة إلى إنسان أطمئن إليه . . .

ورغم احتمال المبالغات بل والأكاذيب فإنى شعرت نحوها بعطف ورثاء . ومع ذلك سألتها مداعبا :

ـ يهمك الفن لهذا الحد؟

فقالت ضاحكة :

ـ الفن والحياة!

ولكننا نسينا الفن والتاريخ ونحن نتجول فى صحراء الهرم . تركزت همومنا فى الواقع المعاصر ، واقع البيت بالذات ، وخالتها بصفة خاصة ، سنها الطاعنة ، ونومها الثقيل ، وحواسها الضعيفة . .

ـ إلا إذا أردت أن نلتقى فى بيت آخر!

وباندماجى فى المؤامرة تدفق طوفان الرغبة فى دمى فقلت :

ـ ليكن اليوم .

ولكنها قالت بسرور وبلا مكر :

ـ أمهلنى حتى أهيئ الجو . .

وعندما جمعتنا الحجرة هفت على حواسى أخلاط روائح مركزة من العطر والبرفان

والخمر تسبح فى أمواج نور أحمر خافت فردتنى إلى ذكريات بعيدة ما كنت أتصور أنها ستعود. وجدتنى مرة أخرى موثقا بالحرير مذعنا لرغبة سكرى بيقظة مباغتة. وبلا حب بالمعنى الحقيقى. أما أمانى فكانت متفانية فى المودة، اهتدت إلى مرفأ بعد تخبط فى ليل بهيم، لهفة بلا حدود على الحب والحنان يزفرها قلب محروم من الحب والأمومة والثقة. وجعلت تصارحنى بخباياها فى لقاءاتنا المتتالية.

ـ حالتى المالية حسنة، ليس لدى ما أشكوه من هذه الناحية..

أو تقول:

ـ ربنا يسامح بابا ويرحمه، كان السبب...

أو تقول:

ـ لا أمان لشبان هذه الأيام، ربنا يحفظ بنتى..

وتضخم شعورى بالمسئولية، وكان يستفحل كلما تذكرت بأن حياتنا المشتركة تقوم على غير أساس مشترك، وأنه لا يمكن أن تمضى هكذا إلى الأبد، وأن العطف والجنس لا يكفيان لاستتباب الأمن فى أسرتنا ذات الجناح الواحد. وذات يوم من أيام العام نفسه ـ أواخر الصيف أو أوائل الخريف. زارنى فى مكتبى الأستاذ عبده البسيونى، تذكرته من أول نظرة رغم التغير الهائل الذى طرأ عليه. ورحبت به بحرارة كأننا لم نفترق حوالى ربع قرن على الأقل. ترى ماذا غيره بهذه الدرجة رغم أنه لا يكبرنى بأكثر من بضعة أعوام؟ وسألته:

ـ ماذا تفعل الآن؟

ولكنه تجاهل سؤالى وسأل بدوره:

ـ لعلك تسأل عما دعانى إلى زيارتك بعد ذلك العمر من الانقطاع؟

ـ لعله خير يا زميلى القديم.

فقال وهو يرمقنى بهدوء:

ـ إنى أزورك بصفتى زوج أمانى محمد!

مرت ثانية وأنا لا أعى لقوله معنى وفى الثانية التالية انفجر معناه فى وعيى كصاروخ. الحق أنى غبت عن الوجود بمعنى ما، تلاشى المكان والزمان، لم أعد أرى إلا وجه عبده البسيونى الأسمر المستدير، كأنه وجه شخص آخر، وجه تمثال يقوم أمام مكتبى منذ الأزل. لم أنبس بكلمة، وطبعا لا فكرة لى عن الصورة التى انطبعت فوق صفحة وجهى، ولكنه هز رأسه بهدوء وقال بنبرة مستأنسة:

ـ لا داعى للجزع.

وابتسم ابتسامة ما وقال :

ـ لا علم لك بشىء . . .

ثم بتوكيد :

ـ لم أحضر للانتقام .

مضيت أرجع إلى مقعدى وحجرتى ولكن شعورا حادا اجتاحنى بأن دنياى على وشك التصدع والتلاشى .

وسمعته يقول :

ـ من حسن الحظ أن الأيام التى عشتها فى باريس لم تضع عبثا !

وقلت وأنا مستسلم تماما للمقادر :

ـ لعلك تعنى امرأة أخرى .

ـ أعنى المرأة التى كنت عندها أمس !

ـ ولكنها مطلقة !

ـ بل هى على ذمتى وأنا زوجها !

فغمغمت :

ـ يا لها من كارثة !

ـ لم أزرك بدافع غضب أو انتقام .

ـ ولكنى أموت أسفا وحزنا .

ـ لا ذنب عليك .

ثم بامتعاض شديد :

ـ وما أنت إلا آخر صيد لها !

ـ مـــاذا؟

ـ مرة ومرة ومرة ، وفى كل مرة أتدخل لإنقاذها من التدهور لإنقاذ مستقبل ابنى وابنتى . . .

ـ يا لها من حياة ! . . . ولكن . .

وتريثت مرهقا ثم عدت أتساءل :

ـ ولِمَ تتحمل ذلك كله؟

ـ لا مفر ، إنى أرفض تطليقها رغم مطالبتها به .

ـ لِـــمَ؟

ـ هى أم ابنتى وابنى، وهما فى طور المراهقة، والطلاق يعنى لها التدهور حتى الاحتراف!

ـ قد تتزوج مرة أخرى.

ـ لم تعد أهلا لذلك!

ـ موقف عسير محزن.

ـ لذلك فإنى مصمم على استردادها. وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ومن حسن الحظ أن حياتى فى باريس لم تضع هدرا!

فقلت بحزن:

ـ ما أبغض الحياة إذا فسدت..

ـ أجل، لعلها حدثتك عنى، وعندى أيضا ما أقوله، ولكنى مصمم على إنقاذ ما يمكن إنقاذه..

فقلت متأسفا:

ـ ما تصورت يوما أن أقف منك موقفى هذا!

فلم يكترث لأسفى هذه المرة. أشعل سيجارة وراح يدخن متفكرا، بدا لى هرما متهدما. ثم نظر إلىّ قائلا:

ـ أنت تذكر بلا شك حياتى الماضية!!

أجل أذكر. زمالته فى الجامعة. سفره إلى باريس فى بعثة خاصة على حسابه. عودته بعد عامين أو ثلاثة بلا نتيجة. انتخابه عضوا بمجلس النواب. تمتعه بجاه الأسرة والحزب والنيابة. قلت:

ـ طبعا أذكرها..

فقال:

ـ لما قامت ثورة يوليو لم أجد تناقضا بينها وبين فكرى الحر...

ـ معقول جدا...

ـ وعملت فى نطاقها بإخلاص ولكنى اتهمت ظلما فى مؤامرة اتهم بها بعض أقطاب الحزب فقبض على حينا ثم صودرت أملاكى..

وجمت لا أجد ما أقوله فقال:

ـ وجدت نفسى فى الطريق متسولا!

ـ ولكن حرمك ذات مال!

فضحك قائلا:

ـ أفقر من الفقر نفسه، لها خالة غنية ولكن لها وريثا، ولعلها كذبت عليك فى ذلك أيضا.

وشملنا الصمت حينا حتى قلت:

ـ أذلك ما أفسد حياتكما؟

كلا، لقد توثبت للعمل الجدى من أول يوم، كرست وقتى وما أزال للترجمة والاقتباس، واستعنت على النشر ببعض الزملاء القدامى المنتشرين فى الصحف والمجلات، غير أن أخلاقى تغيرت فى سياق المحنة، ونشب نزاع متواصل بينى وبينها...

ـ ولكن تلك أمور طارئة يمكن معالجتها.

ـ كان قد فسد الأمر.

ـ خسارة فادحة وغير مقنعة..

ـ إنها حمقاء، غير جديرة بالمحافظة عليها لولا مصلحة ابنى وابنتى..

وصمت لحظات ثم قال بنبرة اعتراف:

ـ ضربتها مرة وأنا فريسة لجنون الغضب فلم تغفرها لى...

ـ يؤسفنى ما صادفك من سوء حظ..

فقال بنبرة متجددة:

ـ إنى أطالبك بقطع علاقتك بها..

فقلت وأنا لا أصدق بالنجاة:

ـ طبعـــا..

ـ وأن تحاول إقناعها بالرجوع إلى بيتها..

ـ سأبذل جهدى وفوقه..

فقال وهو يلوح بحركة قاطعة:

ـ حسبنا كلام فى هذا الموضوع البغيض..

تنفست من الأعماق. وجعل يتذكر عهدنا القديم. وذكر فيمن ذكر الدكتور إبراهيم عقل وأستاذنا الدكتور ماهر عبد الكريم. قال:

ـ لقد انقطعت عن صالونه منذ سفرى إلى باريس ولكنى زرته مرارا زيارات خاصة، وأفكر فى الرجوع إلى اجتماعات الصالون..

وهز رأسه قائلا:

ـ لقد ضاعت أراضى أسرته فى الإصلاح الزراعى، وباع قصر المنيرة وابتاع فيلا فى مصر الجديدة انتقل إليها صالونه العتيد.

ـ أعرف ذلك فأنا من المترددين عليه بانتظام منذ عام ١٩٣٠ . .

فراح ينوه بنشاطى وتقدمى ثم قال :

ـ إنى أكدح بلا انقطاع للمحافظة عل كرامتى . .

ـ أنت مثال طيب .

ـ ولدى مشروعات ترجمة لا حصر لها . . . كتب . مسرحيات . . قصص سينمائية . . .

ـ عظيم . . عظيم . .

ـ ولكن تلزمنى عقود المؤسسات الثقافية . .

ـ اعرض ما لديك . . .

فسكت قليلا ثم قال :

ـ قيل لى إنه لا جدوى من العرض وحده؟

فتساءلت متبالها :

ـ ماذا تعنى؟

ـ قيل إن الوصول قد يقتضى مالا ولا مال لدى!

ـ لا تصدق جميع ما يقال!

ـ أو أن أكتب مقالات نقدية تقدير للبارزين فى المؤسسات . .

ـ قلت لا تصدق . . .

ـ أنا على استعداد لتقرير أن أى بغل فيهم أعظم من أحمد شوقى ولكن المتنافسين فى التقدير لم يدعوا مجالا لشخص مثلى لم يعرف كناقد من قبل! . . . وفضلا عن ذلك فلست إذاعيا ولا تلفزيونيا لأدعوهم إلى برامج أو أعرض أعمالهم، فلم يبق أمامى إلا الطريق الطبيعى وهو كما تعلم غير طبيعى . .

وضحك لأول مرة فشعرت بالنجاة أكثر، وحاولت تبديد ظنونه وتشجيعه. وقام وهو يذكرنى بمطلبه الأصلى فقلت له :

ـ سأبذل ما فوق طاقة الإنسان . .

وقد بررت بوعدى. وما أن طرقت الموضوع حتى هتفت أمانى :

ـ الوحش وصل إليك!

واحترقت عيناها بنار الغضب فذكرتها بواجبها نحو ابنها وابنتها فصاحت :

ـ أنت لا تعرفه!

فقلت:

ـ بل أعرفه من قديم، ليس سيئا كما تتوهمين، وهو خير من كثيرين. . .

ـ كلا. . أنت لا تعرفه. . .

فأصررت على نصحها فصاحت:

ـ كفى. . لا تضطهدنى. .

ـ بل لى عليك عتاب، كيف تخفين عنى علاقتك الزوجية وأنت تعلمين أنه يطاردك؟

فهتفت:

ـ لا غيرة عنده ألبتة!

ـ إنه يحب ابنه وابنته. . .

ـ بل يحب نفسه وحدها. . .

ـ المسألة. . .

فقاطعتنى بحدة:

ـ المسألة أنك لا تحبنى. .

ثم وهى تجفف عينيها:

ـ مات الحب فى هذه الدنيا منذ زمن بعيد. . .

ثم رمتنى بنظرة عتاب وقالت:

ـ لم تقل لى إنك تحبنى ولا مرة واحدة، ولكنى لا ألومك. .

فقلت معتذرا:

ـ أنت تستحقين الحب أما أنا فلم أعد أهلا له. .

ـ كلام. . كلام. . كلام. .

ـ ستجدين فى بيتك ما هو أهم.

رجعت وفى أعماقى شعور بالتحرر والنجاة والندم ثم اجتاحنى حزن عميق. وظل إحساس حاد بالرثاء يطاردنى نحو زميلى القديم عبده البسيونى وزوجه أمانى محمد. وتوقعت أن يتصل بى ولكنه لم يفعل. وأردت أن أتصل بها لأطمئن عليها ولكنى لم أجد فرصة ولا وسيلة. والتقيت بعد ذلك بأزمنة متفاوتة وفى أماكن مختلفة بعبده البسيونى فأشعرنى سلوكه بأنه يتقدم فى طريقه المرسوم بإرادته الكادحة. وفى ١٩٦٨ أو ١٩٦٩ وكنت سائرا بشارع رمسيس أمام مبنى التليفون وجدت أمانى مقبلة نحوى على بعد خطوات! وبحركة عفوية مددت يدى فصافحتنى بلهوجة وارتباك أشعرانى بتسرعى وخطئى. وهمست معتذراً:

ـ إن شاء الله تكونين بخير . . ؟

فأجابت وهى تمضى :

ـ الحمد لله . .

تبدت مفرطة فى البدانة والرزانة غير أن ارتباكها أقنعنى بأنها تعانى مسئولية السيدة المتزمتة إذا ورطتها ظروف خارجة عن الإرادة فى مصافحة رجل «غريب» .

أنور الحلوانى

اسمه قادر على استدعاء عالم متكامل بأسره . ميدان بيت القاضى المتربع بين الجمالية وخان جعفر والنحاسين ، وأشجار البلخ المثقلة بأعشاش العصافير . وقسم الجمالية العتيق ، وحوض الماء القائم فى الوسط تسقى منه البغال والحمير ، وكشك حنفية المياه العمومية ، وهو ملعب طفولتى وصباى . وكنت أتطلع باهتمام إلى أنور الحلوانى فى ذهابه من بيته الملاصق لبيتنا أو فى إيابه إليه . لم يكن شابا عاديا ، كان من رواد المتعلمين الأوائل فى الحى ، كان طالبا بمدرسة الحقوق . وربما كنت معجبا بطربوشه المفرط فى الطول ، وشاربه الغزير المبروم ، وبذلته الأنيقة . وكان يسير فى رزانة لا تناسب سنه فكان يحلو لى أن أقلده ما تيسر لى ذلك . وكنت أتذكر جيدا الشربات الذى شربته احتفالا بنجاحه فى البكالوريا ، قدمته لى أمه بيدها وهى امرأة من أصل ريفى كان يحلو لى أيضا أن أقلد لهجتها . والظاهر أن أحداثا كانت تجرى فى خفاء من حولى وأنا ألعب تحت أشجار البلخ .

استيقظت ذات صباح على صوات يترامى من بيت جيراننا . وحدث اضطراب شامل فى بيتنا فجعلت أتمسح فى المضطربين والمضطربات مستطلعا . وعرفت فى ذلك الصباح أن جارنا الشاب أنور الحلوانى قد قتل برصاصة فى مظاهرة ، بيد جندى إنجليزى . عرفت لأول مرة فعل «القتل» فى تجربة حية لا فى حكاية من الحكايات الشعبية ، وسمعت لأول مرة عن «الرصاصة» فى أول اتصال سمعى بإحدى منجزات الحضارة ، وثمة لفظة جديدة أيضا «مظاهرة» استدعت الكثير من الشرح والتفسير ، وربما لأول مرة سمعت عن ممثل جنس بشرى جديد فى حياتى الصغيرة هو « الإنجليزى» . وتطايرت الأحاديث فى البيت وفى الميدان مكررة لتلك الكلمات ومضيفة إليها غيرها مثل الثروة والشعب وسعد زغلول . انهمرت على الكلمات حتى أغرقتنى وانطلقت منى الأسئلة بلا حساب وبإلحاح شديد ، قتل . . ما معنى قتل؟ وأين ذهب أنور؟ وماذا ينتظره فى العالم الذى ذهب إليه؟

ومن الإنجليزى ولم قتله؟ وما معنى الثورة وما معنى سعد زغلول؟ وما وما وما؟ وما لبثت الأحداث أن تدافعت إلى الميدان نفسه فى جنون خيالى .

قبعت وراء شيش النافذة أنظر بعينين محملقتين إلى جموع البشر المتدفقة من ذوى البدل والجبب والقفاطين والجلابيب، حتى النساء فى الحناطير والكارو، يحملون الأعلام ويهتفون . وسمعت أزيز الرصاص، أجل لأول مرة أسمعه، ينطلق من اللوريات ومن فوق صهوات الخيل، ورأيت الإنجليز رؤية العين بقبعاتهم العالية وشواربهم النافرة ووجوههم الغريبة، ورأيت الجثث بالعشرات مطروحة فى جوانب الميدان، ورأيت الدم البشرى يلطخ الملابس وأديم الأرض، وسمعت الحناجر وهى تهتف من الأعماق «يحيا الوطن»، و «نموت ويحيا سعد» .

بدر الزيادى

كان زميلا بالمدرسة الثانوية . وكان بدينا خفيف الروح، يحب الطعام واللعب والبنات ويحب الوطن . وكان أبوه ضابط المدرسة، عاصرناه عامين . ثم اتهم فى ظروف لا أذكرها بالعيب فى الذات الملكية فقدم إلى المحاكمة التى أدانته وحكمت عليه بالحبس ستة أشهر مع وقف التنفيذ ولكنه فصل من وظيفته . وكان بدر يفاخر بشجاعة أبيه ووطنيته فجاريناه فى ذلك إذ كان العيب فى الذات الملكية يعد درجة لا بأس بها من درجات الجهاد يضمن لصاحبه موضعا فى صفحة المجاهدين . وكان بدر تلميذا عاديا فى الفصل، بل خاملا، أما مجده الحقيقى فكان يتألق فى فناء المدرسة . فى فناء المدرسة كان قطبا ينجذب إليه بعض تلاميذ فصله وتلاميذ من الفصول الأخرى . وعندما يجد نفسه محورا تتحرك مواهبه ويجيش صدره بالعطاء، فيلقى بعض الأزجال الوطنية، ويحكى النوادر اللطيفة، أو يتصدى لتحديات غريبة . سألنا مرة عن أوفق الأماكن لممارسة الحب، فأجاب كل بما خطر له، ولكنه جعل يهز رأسه ساخرا حتى نضب معين خواطرنا، ثم أجاب هو قائلا :

ـ القرافة !

ودهشنا، وضحكنا مما ظنناه مزاحا فعاد يقول :

ـ فى المواسم يبيت الناس فى أحواش المقابر، نساء ورجالا، والنساء يكن عادة أضعاف أضعاف الرجال، وفى ظلام الليل تسنح فرص لا تخطر على بال . .

فقال بعضنا :

ـ ولكنها مناسبة لا تفتح النفس للحب!

فقال بيقين :

ـ الحب لا يتخير مناسبة فهو صالح لكل مناسبة!

وقص علينا كيف انقض على خادمة فى مكان خال من البيت وجثة عمته مسجاة تنتظر من يكفنها والنائحات ينحن فى ساحة البيت . وفى ذاك المجال كانت له حكايات غريبة لا تنفد . أما امتيازه الحق فقد ناله بكل جدارة فى كرة القدم . كان قلب الهجوم فى فريق المدرسة . ورغم بدانته اشتهر بالسرعة وخفة الحركة غير أن اندفاعه المتناقض مع وزنه كان يثير فى الملعب عاصفة من الضحك . وعرف بقدرته الخارقة فى المحاورة والمداورة ، والسيطرة على الكرة كأنما يشدها إلى مجال قدميه بقوة مغناطيسية ، والمكر الأريب الذى يفقد أعداءه توازنهم ويطرحهم أرضا ، كما امتاز بقوة ضرباته للكرة .

وكان يعد نفسه للعب فى النوادى ويحلم بالاشتراك فى الأوليمبيات العالمية . وكان مستر سمبسون المدرب العام بوزارة المعارف يعجب به فنصحه فى ختام إحدى المباريات العامة بين المدارس بتخفيف وزنه فكانت استجابته للنصيحة أن التهم ـ فى حفل الشاى الذى أعقب المباراة ـ طورطة كاملة وحده مع عديد من السندوتشات والفطائر!

وذات صباح وقف بدر الزيادى يهتف ـ مع الهاتفين ـ بحياة دستور ١٩٢٣ وسقوط الدكتاتورية .

كان الملك فؤاد قد أقال مصطفى النحاس وعهد بالوزارة إلى محمد محمود فأعلن هذا تأجيل العمل بالدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد . وأضربت المدارس جميعا ، ومنها مدرستنا . غير أن قوات الشرطة حاصرتنا فلم نتمكن من الخروج . ولكى نتسلح بما يلزمنا فى المعركة اقتلعنا الأشجار والنوافذ والبواب واقتحمنا المطعم فاستولينا على الأطباق والحلل والمغارف والشوك والسكاكين ، وتصاعدت هتافاتنا العدائية مقتحمة كل مقام حتى مقام الملك . وعند ذاك هجم الجنود فجأة ومن جميع الأبواب وانهالوا علينا بالعصى الطويلة على حين أطلق الكونستبلات الإنجليز الرصاص فى الهواء على سبيل الإرهاب . ودارت معركة غير متكافئة ، ولم ينج واحد منا من ضربة أو أكثر ، وسقط جرحى كثيرون ، واستشهد فراش وتلميذ . كان بدر الزيادى هو التلميذ الشهيد إذ قضت عليه ضربة أصابت مؤخر رأسه . وصممت المدرسة على تشييع جنازته فى اليوم التالى ولكن الشرطة ضربت حصارا حول قصر العينى الذى كان عامرا بالشهداء من جميع المدارس . وحملت الجثث رأسا من المستشفى إلى المدافن تحت حراسة الشرطة ، ولكننا ذهبنا فرادى إلى بيت ضابط مدرستنا القديم لنقدم له واجب العزاء . وما زال الرجل حيا حتى اليوم ولعله فى الخامسة والسبعين من عمره . أراه نادرا فى بعض زياراتى للعباسية

وهو جالس فى مقهى صغير قريب من مسكنه. مهدما بالكبر وضيق ذات اليد فيما يبدو. لا يتصور من يراه أنه كان من ذوى العقائد الحرة أو أنه جابه الحياة بشجاعة وأنه فقد فى سبيل ذلك وظيفته وابنه. ومن مكانه المنزوى يراقب السيارات المنطلقة حاملة الناجحين من رجال المجتمع المعتزين بإقبال الحياة الذين لم يكتووا بنار تضحياتها وقيمها السامية. ترى ماذا يدور بخلده وهو يتابع هذا التيار الغريب المتدفق؟ أم أن الكبر والزمن قد أعفياه من كل شيء إلا ما يعانيه فى لحظته العابرة؟!

أما بدر فما زالت الصورة التذكارية لفريق كرة القدم تجمعنا، وهو يتوسط الفريق، الكرة بين قدميه، يطالع الكاميرا بنظرة مرحة مترعة بالثقة بالنفس. .

بلال عبده البسيونى

التقيت به مصادفة فى فيللا جاد أبو العلا فى أوائل عام ١٩٧٠ ورغم أننا لم نتصادق، بل ولم نلتق مرة أخرى إلا أنه ترك فى نفسى أثرا يستحق أن يذكر. ولما ذهبت إلى الفيللا ذلك المساء لم يكن ببهو الاستقبال إلا الأستاذ جاد أبو العلا وزميلى القديم عبده البسيونى وشاب وسيم به شبه منه سرعان ما قدمه لى قائلا:

ـ ابنى. . . الدكتور بلال. .

وفى الحال تذكرت قصة الابن والابنة اللذين كانا محور حديث ذى شجون بين عبده وبينى ثم بينى وبين أمانى محمد منذ سنوات خمس. واشتركت فى حديث مما يجرى بلا هدف وقد عاودنى شعور بالذنب القديم. وإذا بعبده البسيونى يقول مشيرا إلى ابنه:

ـ الدكتور يفكر فى الهجرة!

واسترعى قوله اهتمامى فنظرت إلى الشاب من جديد بحب استطلاع آسر. إن كلمة «الهجرة» من الكلمات الجديدة التى غزت قاموس حياتنا وأثارت فى جيلنا القديم العجب. ها هو واحد من فرسانها فما أطيب الفرصة.

وعاد عبده يقول:

ـ إنه مرشح لبعثة دراسية قصيرة بالولايات المتحدة ولكنه يضمر الهجرة. .

فسأله جاد أبو العلا:

ـ وما رأيك أنت؟

فأجاب عبده ضاحكا:

ـ وما قيمة رأيى أو رغبتى؟

ـ على سبيل العلم بالشىء؟

ـ لا أوافــق . .

ـ وأمانى هانم؟

ضـاعف من ارتبـاكى الخفى ذكـر الاسم ولكنى عـرفت لأول مـرة أنهـا رجـعت إلى أسرتها ، كما أدهشنى أن يتحدث جاد عنها بتلك الألفة . أما عبده فأجاب :

ـ إنها ترحب بالفكرة وتتخيل أنه سيكون بوسعها أن تسافر إلى الولايات المتحدة كلما شاءت . . .

فضحك مضيفنا وجاريته فى ضحكه ثم قال مخاطبا الشاب :

ـ ينتظرك هنا مسقبل باهر .

فقال الدكتور بلال :

ـ إنى أتطلع إلى بيئة علمية صحية . .

فقال عبده البسيونى :

ـ إن هجرة صديق له يدعى الدكتور يسرى أدارت عقله ولكنه فى اعتقادى شخص شاذ لا يصلح مثلا طيبا ، كان طبيبا ناجحا سواء فى المستشفى أم فى العيادة ولكن غضبه على كل شىء لم يكن يهدأ لحظة واحدة ، ولم يكن يكف عن النقد المر ، كان يفور بكراهية غريبة نحو البلد ومن فيه . فانتهز فرصة وجوده فى إجازة دراسية ثم قرر البقاء هناك . .

فقال دكتور بلال :

ـ ونجح هناك نجاحا فريدا ، فى العمل والبحوث على السواء . . .

ـ وكان هنا ناجحا أيضا فما معنى الهجرة؟!

ـ البيئة العلمية يا أبى ! وإليك قصة وكيل قسم بالمستشفى الذى أعمل به ، درس حتى حصل على درجة الدكتوراه بامتياز رائع ، انتظر أى تقدير فلم يظفر منه بشىء ، بل حورب حتى لا يحتل المكان العلمى اللائق به ، فمـا كـان منه إلا أنه هاجـر ولدى عـرض بحثـه فى الولايات المتحـدة تلقى أكـثـر من عـرض للعـمل فى الجـامـعـات والمستشفيات . .

لاحظت أنه كان يتكلم بحدة تقارب الغضب ، فقلت :

ـ قد يوجد خلل ولكن ليس للحد الذى يدفع الناجحين إلى الهجرة . . .

فقال لى دون أن يخفف من حدته :

ـ بل الشأن فى كل شىء يدعو للرثاء!

ـ حسن أن تشعر بذلك وأن تؤمن به ولكن منذا الذى ينبرى للإصلاح سواكم؟ . . .

ـ لن أشغل نفسى بهذه الأفكار . . .

ـ ولكن وطنك قيمة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها؟

فقال بهدوء نسبى :

ـ وطنى الأول هو العلم!

ثم بعد تردد كأنما حاسب فيه نفسه :

ـ الوطن . . الاشتراكية . . القومية العربية . . ماذا أقول؟ لا تتصورنى عابثا . . . كلا . . . ولكن ماذا بقى لنا بعد ٥ يونيو؟!

فقلت :

ـ مضت على النكسة أعوام خليقة بأن تجعل منها درسا لا نكسة . . .

فقال لى عبده البسيونى :

ـ لا فائدة، إنه جيل لا يقتنع إلا بما فى رأسه . . .

فقال جاد أبو العلا :

ـ لا بأس من ذلك ولكن لا يجوز أن ينسى وطنه . .

فقال الدكتور بلال :

ـ لا منقذ لنا سوى العلم، لا الوطنية ولا الاشتراكية، العلم والعلم وحده، وهو يواجه المشكلات الحقيقية التى تعترض مسير الإنسانية، أما الوطنية والاشتراكية والرأسمالية فتخلق كل يوم مشكلات نابعة من أنانيتها وضيق نظرها وتبتكر له من الحلول ما يضاعف فى النهاية من حصيلة المشكلات الحقيقية .

فسألته :

ـ وماذا يمنعك من أن تكون باحثا وعالما فى وطنك؟

ـ توجد موانع وموانع، استعداد بدائى للبحث وجو خانق للفكر والعدالة والتقدير، لذلك أفكر فى الهجرة، وسأكون فى أمريكا أعظم فائدة لوطنى مما لو بقيت فيه، فالعلم لجميع البشر، باستثناء علم الحرب والهلاك فالعلم لجميع البشر . . .

وسأل جاد أبو العلا عبده البسيونى :

ـ وماذا عن شقيقته؟

ـ ستحصل على بكالوريوس فى الصيدلة فى نهاية العام الدراسى وهى متحمسة أكثر منه للهجرة . . .

فضحك الرجل عاليا وقال :

ـ وفتى الأحلام؟ . . . ألم تفكر فى هذه المشكلة؟

ـ إن ما نعده مشكلة يعدونه لعبا . . .

فقال جاد أبو العلا :

ـ من المؤسف أن الفن لم يقدم لنا بعد نموذجا من هذا الجيل ، كم أود أن أسبق إلى ذلك!

فقلت له :

ـ إنه يتقدم بلحمه ودمه فوق مسرح حياتنا المسكينة!

فقال عبده البسيونى مخاطبا ابنه :

ـ إنكم تحلمون بالهروب والسفينة تواجه العاصفة!

شعرت بأن عبده غير جاد فى معارضته وأنه لا يحسن إخفاء إعجابه بابنه . وهز الدكتور بلال منكبيه استهانة فأيقنت أنه يمثل موقفا جديدا من «الوطنية» تلك الأمانة القديمة التى أرهق جيلنا حملها . وقال بلال ضاحكا وقد ذكرتنى ضحكته بأمه :

ـ الحق أنى أحلم بهيئة علمية تحكم العالم لخير العالم .

فسألته :

ـ وماذا عن القيم؟ . . . العلم لا يتعامل معها ، وحاجة الإنسان إليها لا تقل عن حاجته إلى الحقائق .

فنظر إلى فيما يشبه العجز ثم قال :

ـ يجب ألا يعنى ذلك التمسك البائس عديم الجدوى بقيم بالية ، إنكم لا تتمسكون بها إلا خوف المغامرة بالبحث عن غيرها ، والعلم لا يعطى قيما ولكنه يضرب مثالا حسنا فى الشجاعة ، فعندما تهاوت الحتمية الكلاسيكية كيّف نفسه برشاقة فوق أرض الاحتمال وتقدم لا ينظر إلى الوراء . . .

فقال جاد أبو العلا :

ـ من العبث أن تناقش قوما ليس بينك وبينهم لغة مشتركة . .

فقلت وقد أخذ رأسى يحمى بالحدة :

ـ إنكم تودون الهجرة إلى الحضارة بدل أن تنموها فى أرضكم . . .

فقال محتدا :

ـ الإنسان فى الأصل كائن مهاجر وما الوطن إلا المكان الذى يوفر لك السعادة والازدهار ، لذلك لا تقبل على الهجرة إلا الصفوة ، أما المتخلفون . . .

وتوقف كالمتردد فقلت :

ـ أما المتخلفون فيحسن التخلص منهم !

فباخت حدته وقال ضاحكا :

ـ لو سار الازدياد السكانى على معدله الحالى وعجزت الوسائل عن تغذيته فربما تقضى المصلحة العامة للحضارة بإفناء أجناس برمتها !

فهتف به أبوه :

ـ حسبك !

وقال جاد أبو العلا :

ـ ما أسعد اسرائيل بكم !

فعاودت الشاب حدته وهو يقول :

ـ أتحدى إسرائيل أن تفعل بنا مثلما فعلناه بأنفسنا !

وقد بت ليلتى متفكرا فى حديث الدكتور بلال ، مستعيدا جمله وعباراته ، متأملا الموضوع من شتى جوانبه ، حتى اقتنعت فى النهاية بأنه لا نجاة للجنس البشرى ألا بالقضاء على قوى الاستغلال التى تستخدم أسمى ما وصل إليه فكر الإنسان فى استعباد الإنسان وخلق صراعات مفتعلة سخيفة تستنفد خير ما فيه من إمكانيات رائعة ، وذلك كخطوة أولى لجمع العالم فى وحدة بشرية ، تستهدف خيرها معتمدة على الحكمة والعلم ، فتعيد تربية الإنسان باعتباره مواطنا فى كون واحد ، وتهيىء لجسمه السلامة ولقواه الخلاقة الانطلاق ليحقق ذاته ويبدع قيمه ويمضى بكل شجاعة نحو قلب الحقيقة الكامنة فى ذلك الكون الباهر الغامض . إما ذلك وإما مستقبل جعلنى أشعر بالامتنان لكونى من جيل يوشك أن يختم رحلته فى هذه الحياة العجيبة التى تدور بخيرها وشرها فوق فوهة بركان .

وقد التقيت بعبده البسيونى بعد مرور أشهر فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فبادرته بالسؤال عن ابنه فأخبرنى بأنه سافر ، ثم قال :

ـ وستلحق به أخته فى القريب !

ثم قال بنبرة اعترافية :

ـ أجد كثيرا غمزا أليما فى قلبى ولكن زمانى علمنى التسليم للمقادر . .

وبعد قليل من الصمت عاد يقول :

ـ لا أخفى عنك أنى مقتنع بقرارهما ، لِمَ لمْ تؤهلنا دراستنا العقيمة للهجرة؟!

فقلت :

ـ العلم لغة عالمية أما مهنتنا فألغاز محلية .

وأفضيت إليه بالخواطر التى اجتاحتنى عقب استماعى لحديث ابنه فضحك طويلا ثم قال :

ـ نحن الكهول مطالبنا يسيرة ، سعادتى اليومية تتحقق لدى شرب قدح من القهوة باللبن مع قطعتين من البسكوت . . .

ثريا رأفت

رأيتها أول عهدى بالوظيفة عام ١٩٣٥ . كانت تتردد على الوزارة لزيارة عمها فقدمنى إليها فتعارفنا . وكانت طالبة بالمعهد العالى للتربية وعلى وشك أن تعمل مدرسة . وكانت متوسطة الجمال ولكن بارعة القد والقامة ، تنم عيناها عن ذكاء وشخصية ، ولاحظ الأستاذ عباس فوزى وكيل السكرتارية إعجابى بها فقال لى يوما ـ عقب ذهابها مباشرة ـ وهو يوقع لى على بعض الأوراق :

ـ آن لك أن تفتح بيتا وتستقر .

فأدركت أننى ضبطت متلبسا وقلت :

ـ أترى ذلك؟

ـ إن صافى مرتبك ثمانية جنيهات وهى تكفى للزواج من اثنتين !

فضحكت وقلت مردداً مشاعر جيلنا :

ـ ولكن هل تحبذ الزواج من موظفة؟

فقال بتهكمه المعهود :

ـ كما قد توجد منحرفة بين ستات البيوت فقد توجد مستقيمة بين الموظفات !

فعلمت أنه يحذرنى بأسلوبه الملتوى . ولكن سيطرة الفتاة الجنسية على كانت فوق أى تحذير فسعيت إلى توثيق علاقتى بها . وكانت ـ كطالبة ـ تتمتع بقدر من الحرية خليق بأن يثير فىّ سوء الظن ، فضلا عن نظرة عينيها الساخنتين الجريئة ، واستجابتهما المثيرة للقلق . كان كل أولئك جديرا بأن يصدنى عنها ولكنه أغرانى بها فانتظرتها فى الخارج بدافع هو خليط من حسن النية والجرى وراء مغامرة . صافحتها وسرت إلى جانبها وأنا أقول :

ـ أود أن نجلس معا قليلا من الوقت . . .

فسألتنى متظاهرة بالدهشة :

ـ لـــمَ؟

فقلَت :

ـ رغبة فى مزيد من التعارف .

ـ ليس اليوم . . .

وأرادت أن تودعنى فقلت :

ـ ولكنك لم تحددى يوما آخر؟

فأبطأت قليلا كأنما غلبت على أمرها وقالت :

ـ ليكن يوم الاثنين ، العاشرة صباحا ، بحديقة الحيوان . .

ومع أن استجابتها لبت صميم أمنية القلب إلا أنها فى الوقت نفسه ثبتت سوء ظنى بحريتها ، وغلبت فى نفسى جانب المغامرة على حسن النية . والتقينا أمام باب الحديقة . ورحنا نتمشى فى أرجائها ونتكلم . أعلنت عن إعجابى بها ، ثم جرنا الحديث إلى تفاصيل حياتينا ، ومستقبلنا . وكانت عواطفى المكبوتة تعذبنى ، وكنت شديد الثقة فى أنها ستستجيب لها كما استجابت إلى الميعاد . وحاولت لدى أول فرصة لخلو المكان أن أقبلها . وتجنبتنى ، ونظرت إلىّ ، والظاهر أنهاقرأت فى عينى معانى لم ترتح لها فتساءلت فى استياء :

ـ ماذا بك؟

فأشرت إلى خميلة وقلت :

ـ لنجلس هناك . .

فقالت بحزم تغيرت به صورتها :

ـ يخيل إلى أنك أسأت بى الظن . .

فقلت وموجة باردة تجتاحنى :

ـ كـــلا . . .

ـ أو أننى أحسنت بك الظن خطأ . . .

فقلت بحرارة مصدرها الندم :

ـ لا هذا ولا ذاك من فضلك!

أجهضت العاصفة فجلسنا جلسة بريئة وواصلنا حديثنا الجاد السعيد ، ثم افترقنا على ميعاد جديد ، وانجذبت إليها بقوة فحتى الزواج منها فكرت فيه جادا وراغبا . وفى اللقاء الثانى أهدتنى قلم أبنوس فأثرت فىّ الهدية تأثيرا نافذا وساحرا . وقالت لى :

ـ ترددت طويلا ، فكرت فى الانقطاع عنك . .

فسألتها بجزع :

ـ لـــمَ؟

ـ أَخاف من خيبة الأمل .

فضغطت على يدها بحنو وقلت :

ـ أنت تدركين تماما أننى أحبك . .

وفى المقابلات التالية تبلور الاتفاق بيننا وفكرنا فى الخطوات العملية التى تسبق عادة إعلان الخطوبة . وجاءت معها مرة شقيقتها الكبرى المتزوجة ، وتركز الحديث فى الوظيفة وهل تبقى بها أم تتفرغ للبيت . وقلت ببراءة :

ـ لا أتصور كيف يستقيم أمر البيت إذا تمسكت بالوظيفة . . .

فتساءلت شقيقتها :

ـ وعلام كان الجهد والتعب؟

فقلت :

ـ إن مرتبى يغنينا عن توظفها ويوفر جهدها للبيت . . .

فقالت الأخت ضاحكة :

ـ رغم ثقافتك فأنت دقة قديمة . . .

وقالت ثريا :

ـ لم يسألنى أحد عن رأيى بعد؟

فقلت :

ـ ولكنك تشتركين معنا بصمتك . . .

ـ كــلا !

ـ إذن فما رأيك يا عزيزتى؟

ـ سأعمل فيما أهلت نفسى له حتى النهاية . . .

ثم كان آخر لقاء قبل الميعاد الذى حددناه لإشراك الأسرتين . وجدتها على غير عادتها قلقة ، مشتتة الفكر . فقلت :

ـ يوجد شىء يشغلك .

فقالت ببساطة :

ـ نعـــم !

ـ ما هــو؟

ـ لا يجوز تأجيله أكثر من ذلك . . .

وبسرعة استطردت :

ـ وأعترف أنى أخطأت فى تأجيله حتى هذه اللحظة .

ـ شىء خطير؟

ـ يجب أن نتكاشف!

ـ ألم نتكاشف بما فيه الكافية؟

ـ كلا . . الحب يطالبنا بالصدق . . .

فقلت بقلق :

ـ طبعـــا . .

فقالت وهى تغمض عينيها :

ـ يجب أن أصارحك . .

اعترفت بأن شخصا ما «خدعها» وهى فى سن البراءة! وفى أثناء الاعتراف القصير أغرورقت عيناها . لم أفهم شيئا بادئ الأمر ، ثم أدركت كل شىء ببلاهة كأنه دعابة ، ثم اجتاحنى شعور قدرى بأن كل شىء محتمل وأننى لا شىء ، ثم هبطت فى هاوية من الخمود والفتور والاستسلام المشلول كأنها حفرة فى قلب الشتاء ردمت بطبقات من الرماد . وجعلت ترنو إلىّ من خلال رموشها المبتلة ثم همست بيأس :

ـ ألم أقل لك؟

فتساءلت ببلاهة :

ـ هــه؟

ـ أنت لا تحبنى .

ـ أنا! . . لا تقولى ذلك . .

ـ لن تغفر لى . .

فسألتها جاذبا نفسى من تيار أفكارها .

ـ من هو؟

ـ لا يهم . . .

فسألت مصرا :

ـ من هو؟

ـ وغد من الأوغاد؟

ـ ولكن من هو؟

ـ لا تعذبنى . . .

وتناولت حقيبتها وهى تقول :

ـ أستودعك الله . . .

فقلت بآلية :

ـ لا تذهبى .

فنهضت وهى تقول :

ـ أعطيتنى الجواب بلا كلام .

ـ ولكنى لم أتكلم .

ـ إنى أرفض ما دون الثقة الكاملة . .

فقلت وأنا أجد ارتياحا فى الأعماق لنهوضها :

ـ تلزمنى دقائق للتفكير .

فقالت وهى تمضى فى كبرياء :

ـ أستودعك الله .

بدت لى المشكلة عقدة غير قابلة للحل . تكشف حبى عن ولع عنيف ليس إلا وكأن حبى القديم لصفاء قد استنفد طاقتى للحب الحقيقى . وكانت تلك الهفوة مما لا يغتفر على أيامنا . كنا نحارب طبقات كثيفة من الماضى العتيق كلما تلاشت طبقة برزت تحتها طبقة راسخة تتطلب المعاناة والعناء لقهرها . كان علينا أن نقطع خمسة قرون وستة فى ربع قرن . حزنت وخاب أملى ولكنى لم أشك لحظة فى أن ثريا قد خرجت من حياتى إلى الأبد . وامتنعت عن الحضور إلى الوزارة لزيارة عمها فلم تقع عينى عليها حتى كان المعرض الزراعى الصناعى الذى أقيم قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ . كنت أمضى وقتا فى لونابارك الملحقة بالمعرض ومعى صديق صباى عيد منصور فمرت بنا ثريا بصحبة شقيقتها الكبرى وأبنائها . لم ترنى ولكنى رأيتها ، ولما رآها صديقى مال على أذنى هامسا :

ـ انظر إلى تلك الفتاة!

فسألته :

ـ ما لها؟

ـ من حى السكاكينى وجارة لخالتى . . .

وضحك ضحكة خبيثة ورسم بيده حركة وقحة أدركت منها أنه الوغد المعتدى فقلت بامتعاض لم يدرك مداه :

ـ أنت وغد!

فضحك باستهتار كعادته وقال :

ـ ورغم ذلك سمعت أنها مخطوبة وستتزوج فى هذا العام!

ومرت أعوام كثيرة لم أر فيها ثريا ولم أسمع عنها حتى ذهبت لزيارة الأستاذ سالم جبر عقب النكسة فوجدت ثريا ضمن آخرين مجتمعين به فى مكتبه، كنت فى تلك الأيام ألتمس مجامع الزملاء والأصدقاء كما يلتمس المحترق مادة ـ غطاء أو ترابا أو ماء ـ ليطفئ به النار المشتعلة فى ملابسه . وجدت عند الأستاذ سالم جبر نفرا من الزملاء مثل جاد أبو العلا ورضا حمادة وعزمى شاكر وكامل رمزى وسيدة وقورا فوق الخمسين عرفت فيها ثريا رأفت . ألقيت تحية عامة وجلست فلم تلمس يدى يدها ولكنى شعرت بأنها تذكرتنى كما تذكرتها . وكان الحديث يدور حول النكسة : تحديد أبعادها، تحليل أسبابها، واستقراء الغيب عنها . ومضى الزملاء فى الانصراف ثم قامت ثريا فصافحت الأستاذ سالم وهى تقول :

ـ موعدنا يوم الاثنين .

فأكد لها الموعد وهو يوصلها حتى الباب . ثم رجع إلى مكتبه وهو يقول :

ـ جاءت تدعونى إلى مناقشة وطنية بنقابة المعلمين .

فسألته متجاهلا :

ـ من هى؟

ـ الدكتورة ثريا رأفت، مفتشة كبيرة بالتربية .

ثم استطرد بعد قليل :

ـ زوجها من رجال العلم النادرين المكرسين حياتهم للبحث أما هى فمن وجوه نهضتنا النسائية، امرأة تستحق أن يفخر بها جنسها وأن يفخر بها الوطن . .

ثم قال :

ـ يندر أن تجد امرأة فى قوة شخصيتها وعلمها وخلقها .

تذكرت عيد منصور . تذكرت ضعفى وانهزامى . تذكرت نفرا من أصدقاء الصبا مثل خليل زكى وسيد شعير، تذكرت أحمد قدرى قريبى الذى لم أره منذ دهور، تذكرت عشرات وعشرات ممن تلاطمت معهم فى مجرى الحياة، برزت وجوههم وسط هالة من غبار متعفن كما تبرز الحشرات فى أعقاب انهيار بيت آيل للسقوط .

جـاد أبـــو العــلا

هو موجود وهو غير موجود.

ويرجع تاريخ معرفتى الشخصية به إلى عام١٩٦٠ تلفن لى فى مكتبى طالبا مقابلتى فرحبت به متأثرا بما يتمتع به اسمه من شهرة فى دنيا الأدب. كان قد أصدر خمس روايات وربما أكثر. وكانت الإعلانات عن رواياته تلفت النظر لكبر المساحة التى تشغلها فى الصفحات الأولى من الصحف. ويتبع نشر الرواية سلسلة من المقالات النقدية فى الصحف والمجلات الأدبية مغرقة فى التقدير والثناء. وقد ترجمت رواياته جميعا إلى الإنجليزية والفرنسية، كما ترجم ما كتب عنها فى الخارج إلى صحفنا، وهى تشيد بأعماله إشادة لا تتحقق إلا لكاتب ذى خطر وشأن. وتبعا لذلك قرأت له أكثر من رواية ولكننى لم أستطع أن أتم واحدة، ولم أجد ضرورة لقراءة ما قرأت منها بعناية أو اهتمام، وأدهشنى أننى لم أجد عنده موهبة تذكر ولا على المستوى المحلى. وجميع أعماله تحولت إلى مسلسلات إذاعية وأفلام سينمائية فلم تحقق أى نجاح ولكنها كانت تشق طريقها بكبرياء كأنها درر.

ولما جاء لزيارتى وجدته لطيفا مهذبا، لبق الحديث. سرعان ما تشعر بأنه صاحب قديم، وألا مكان للكلفة بينك وبينه. صارحنى بأنه يود أن يتخذنى صديقا ودعانى إلى صالونه الأدبى ببيته الجميل فى الدقى. ومن يومها وأنا أتردد على صالونه من حين لآخر فأجتمع به منفردا أو ضمن مجموعة من الزملاء، ولعل عبده البسيونى كان آخر من انضم إلينا بعد عامين أو أكثر من مقابلته التى لا تنسى معى. ولم يتوان عن عرض تاريخه على منذ أول لقاء. أشار إلى صورة كبيرة مموه إطارها بالذهب وقال:

ـ كان أبى رحمه الله من تجار التحف بخان الخليلى..

وضحك عاليا وقال:

ـ لو سارت الأمور فى مجراها الطبيعى لسجلت تاجرا فحسب ونجوت من انقسام الشخصية!

فسألته عما يعنى بانقسام الشخصية فقال:

ـ شعرت منذ عهد مبكر بالموهبة فألححت على أبى حتى وافق على إرسالى فى بعثة خصوصية ـ عقب حصولى على الثانوية العامة ـ إلى فرنسا...

وهز رأسه وهو يبتسم إلى ثم قال:

ـ لم أكن أومن بالدراسة النظامية ولا كانت هدفى فالتحقت بمعهد لتعليم الفرنسية ثم اتجهت بكل قواى نحو منابع الفن الحقيقية فى المتاحف والمسارح وصالات الاستماع والكتب . . .

وأسهب فى وصف تلك المنابع وتجربته التذوقية معها . .

ـ ولكنى اضطررت إلى قطع دراستى بعد مرور ثلاثة أعوام لوفاة والدى فعدت لإدارة معرضه بصفتى أكبر إخوتى وأرشدهم . . .

وحكى لى كيف انقسم ـ وما زال ـ بين التجارة وبين الأدب ، وكيف استطاع أن يشق طريقه العسير ويحقق موهبته باستغلال كل دقيقة من وقت فراغه القليل . وترك حديثه ـ والأحاديث التالية على مر الأعوام ـ انطباعا فى نفسى لا يمكن أن يوصف بالثقة . كان كثير المرح عادى الذكاء أقرب إلى السطحية ذا طلاء ثقافى بلا أعماق . ومن هذا ومن قراءاتى السابقة لبعض رواياته ملت إلى تصديق ما يقال عنه فى مجالس الفكر مثل صالون الدكتور ماهر عبد الكريم ومجلس الأستاذ سالم جبر وغيرهما . قالوا إنه أنفق أعوامه الثلاثة فى فرنسا فى مجالى اللهو والعبث باسم اكتساب التجارب الحية ومعرفة الإنسان . وشهدوا له بالمهارة فى تجارته مما عاد عليه بثروة طائلة ، تزداد مع الأيام ضخامة . وهو فى نظر الجميع محب للفن وربما للشهرة أكثر ولكن بلا موهبة يعتد بها مما دفع به إلى طريق مليء بالمتاعب ، فقد صمم على أن يكون أديبا وأن يكمل ما ينقصه من موهبة بماله . وكان يكتب تجاربه . ثم يعرضها على المقربين من الأدباء والنقاد ، ويجرى تعديلات جوهرية مستوحاة من إرشاداتهم ، بل يقبل أن يكتب له بعضهم فصولا كاملة ، ثم يدفع بالعمل إلى أهل الثقة منهم فى اللغة لتهذيب الأسلوب وتصحيحه ، غامرا كل صاحب فضل بالهدايا والنقود تبعا للظروف والأحوال . ويطبع الرواية على حسابه طبعة أنيقة فتخرج من المطبعة ـ على حد قول بعضهم ـ كالعروس ، ومن ثم يوجه عنايته إلى بعض النقاد فيملأ نقدها أنهار الصفحات الأدبية ، وينفق أضعاف ذلك على ترجمتها حتى فرض نفسه على الحياة الأدبية . وبنفس الأسلوب شق سبيله إلى الإذاعة والتليفزيون والسينما ، دون اهتمام بربح مليم واحد ، بل ويضيف إلى ذلك من ماله إذا لزم الأمر . كان يحتقر بيئة التجار وهى مصدر جاهه وثرائه وهو فيها كوكب محترم ، ويغرس نفسه غرسا شيطانيا فى بيئة الفن وهى تأباه وهو فيها غريب محتقر . وقد سألت مرة الدكتور زهير كامل وكان الحديث يدور حول جاد أبو العلا :

ـ أى لذة حقيقية يجنيها من جهده الضائع وهو أول من يعلم بزيفه؟

فأجابنى الرجل :

ـ أنت مخطئ ، لعله انتهى بتصديق نفسه . .

ـ أشك فى ذلك . .

ـ ولعله بات يعتقد أن التجربة التى يقترحها أساسا لعمله هى كل شىء، أما الشكل . . أما الأسلوب . . أما الصناعة فأمور ثانوية لا وزن لها يقوم بها عبيد مأجورون!

فقال الأستاذ رضا حمادة مصدقا :

ـ لا نهاية ولا حد للغرور البشرى . .

فعاد زهير كامل يقول :

ـ الزيف فى الحياة منتشر كالماء والهواء وهو السر الذى يجعل من باطن الإنسان حقيقة نادرة قد تخفى عن بصيرته فى الوقت الذى تتجلى فيه لأعين الجميع .

وضحك زهير كامل ثم قال بنبرة تسليم يائسة :

ـ بت أعتقد أن الناس أوغاد لا خلاق لهم، وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك، وأن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف، وعلى ذلك تصبح المشكلة الأخلاقية الجديدة هى: كيف نكفل الصالح العام والسعادة البشرية فى مجتمع من الأوغاد والسفلة؟!

وظهر عبده البسيونى فى صالون جاد أبو العلا متأخرا، عام١٩٦٨ أو بعد ذلك . وقلت لنفسى ساعة رؤيته ـ لم أكن رأيته منذ لقائنا الرهيب بمكتبى ـ ها هو جاد أبو العلا يظفر بصيد ثمين حقا! وتصافحنا بحرارة كالأيام الخالية على عهد الدراسة وكأن الخطيئة لم تكن . وكبحت رغبة شديدة كادت تدفعنى إلى سؤاله عن زوجه وهل رجعت إليه، ومن ناحيته لم يشر بكلمة إلى ذلك . وقال لى :

ـ القافلة تسير والصعاب تذلل، وابنى بلال فى السنة النهائية بكلية طب القاهرة وهو شاب نابغة وسيكون له شأن، وأخته لا تقل نباهة عنه وهى فى كلية الصيدلية، وعما قريب سأستقبل عهدا من الاستقرار المالى والنفسى . .

فهنأته بذلك وتمنيت له أصدق التمنيات، وقلت له :

ـ الظاهر أنك عرفت الأستاذ جاد أبو العلا حديثا؟ .

فقال لى همسا :

ـ منذ عامين ولكنى لم أتردد على هذا الصالون إلا مرات معدودات لم يتصادف وجودك بها . .

ثم وهو يبتسم :

ـ إن أغلب مسلسلاته الإذاعية والتلفزيونية بقلمى! . . .

وضحكنا معا ثم عاد يقول :

ـ وحتى الآن لم أوفق إلى بيع مسلسلة باسمى!

ولما فاز الأستاذ جاد أبو العلا بجائزة الدولة التشجيعية زارنى الأستاذ عجلان ثابت ومضى يضحك ساخرا وهو يقول :

ـ ألا يتقون الله؟!

وتحادثنا طويلا حتى جاء ذكر عبده البسيونى فقال عجلان :

ـ لعلك لا تعرف أن زوجه كانت خليلة للأستاذ جاد أبو العلا؟

فجرى فى باطنى تيار مضطرب لم يدر به عجلان ولا بأسبابه الحقيقية . . وقلت :

ـ اتق الله بدورك .

ـ صدقنى فأنا أخصائى فى هذا النوع من الأخبار .

فسكت فعاد يقول :

ـ وعبده البسيونى يعرف ذلك أيضا وقد ضبطهما فى فيللا بالهرم واكتفى بقطع العلاقة وتسلم حرمه، ثم أعقب ذلك صداقة وطيدة بين الزوج والعشيق السابق . .

قلت باذلا جهدا غير قليل لتمالك أعصابى :

ـ متى كان ذلك؟

ـ منذ سنوات لعلها ثلاث أو أربع أو خمس!

ـ ليكن . .

ـ يا له من رجل زائف! . .

ـ عبده البسيونى؟!

ـ هذا حمار بائس إنى أعنى صاحب الجائزة الكبيرة . .

ـ نعـم . .

ـ ومن عجب أن أبطال رواياته مُثل للصدق والكرامة والفضيلة!

ـ نعـم . .

فهتف ضاحكا :

ـ علينا اللعنة جميعا حتى يوم الدين .

جعفر خليل

بذكره يذكر حينا «العباسية» فى العشرينات من هذا القرن . حى الهدوء الشامل والحقول المترامية والحدائق الغناء . شرقيه قصور كالقلاع وشوارع شبه خالية يجللها

صمت وقور، وغربيه بيوت مستقلة ذوات حدائق خلفية صغيرة تزدان بكرمة وشجرة جوافة وأرض مغروسة بالشيح والورد والقرنفل، تحدق بها الحقول، فى طرفها ساقية تدور بين خمائل من أشجار الحناء، وتزكو رقعتها بالجرجير والطماطم، وتنتثر فوق أديمها نخلات معدودات، أما فيما يلى أسوار البيوت فتمتد غابة من أشجار التين الشوكى. فى النهار لا يخرق صمتها إلا جلجلة الترام وفى الليل لا يتردد فى جنباتها إلا صيحة الخفير. وإذا هبط الليل لفها بظلامه فلا يخفف من غلظته إلا إشعاعات الفوانيس المدلاة من أعالى أبواب بيوتها. ويوم انتقلنا من الحى القديم إليها، ومضى الحمالون بالأثاث إلى داخل البيت الجديد تجمع فى الطريق صغار متقاربو الأسنان يستطلعون. فعندما خرجت مستطلعا كذلك وجدت أمامى جعفر خليل، سرور عبد الباقى، سيد شعير، عيد منصور، رضا حمادة، خليل زكى، شعراوى الفحام. وقفنا نتبادل النظرات حتى سألنى خليل زكى:

- تلعب معنا؟

ترددت بلا جواب فسألنى سرور عبد الباقى:

- من أى حى؟

فأجبت متشجعا بأدب أختص به:

- حى الحسين.

فسألنى جعفر خليل:

- تلعب كرة!

- كــــلا.

- تعلمها، متى تدخل المدرسة الابتدائية؟

- عقب الإجازة..

- سندخلها جميعا فى وقت واحد.

وسأل رضا حمادة:

- هل قابلتكم مظاهرات وأنتم قادمون؟

- جئنا عن طريق الحسينية، المحال والمقاهى مغلقة فى إضراب شامل.

- هل صادفكم إنجليز؟

- دورية واحدة. هل ترونهم هنا؟

فضحك جعفر خليل وقال وهو يشير ناحية ما:

- ثكناتهم هناك فى قلب العباسية، ستراهم عند كل خطوة تخطوها..

وسأل سرور عبد الباقى :

ـ أتممت الدراسة الأولية؟

ـ مكثت بها عامين وعامين قبل ذلك فى الكتاب .

ـ لا توجد هنا كتاتيب!

فسكت وأنا أرمقهم فى عدم ارتياح ، غير أن صداقتنا كانت قد بدأت ، وهى لم تنقطع بعد ذلك إلا بالموت فى حال شخصين منهم . وفضلا عن ذلك كان جعفر خليل الوحيد الذى زاملنى أيضا فى مراحل الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعية . وكان يمتاز بخفة الروح وحلاوة النكتة والتفوق فى اللعب والجد معا . وقد دعانى إلى مصاحبتهم لمشاهدة مباراة كرة القدم بالنادى الأهلى ولما سألته عن التكاليف أجاب بكل بساطة :

ـ ولا مـليم .

ذهبنا بجلابيبنا وصنادلنا مشيا على الأقدام مخترقين شوارع الظاهر ، الفجالة ، ميدان المحطة ، عباس ، ميدان الخديوى إسماعيل ، جسر قصر النيل ، حتى بلغنا النادى ، وإذا بالمجموعة تتسلق شجرة كبيرة وتتخذ أماكنها فوق الغصون فلم يسعنى إلا أن أفعل مثلهم . فى ذلك اليوم شاهدت مباراة كرة القدم لأول مرة فى حياتى ، وعرفت لاعبين لم يمح أثرهم من نفسى حتى اليوم مثل حسين حجازى ومرعى ، ورأيت الإنجليز وهم يلعبون وكنت أعتقد أنهم يقتلون فقط ، وهالنى أن أرى على الحسنى وهو يكاتفهم فيطرحهم أرضا فلا يعقب ذلك معركة دامية . سررت وسعدت ، وبدأت أعشق هواية جديدة ، وآمنت بأنه يمكن الانتصار على الإنجليز ولو فى ملعب النادى الأهلى ، ولكننا تأخرنا طبعا فى العودة إلى بيوتنا وتعرضت هناك إلى حساب شديد . وانضممت إلى ناديهم «قلب الأسد» واشتركت فى اللعب الذى كان يجرى وسط غابة التين الشوكى ، وقدر لى أن أنافس فى المهارة جعفر خليل نفسه بل وعيد منصور الذى توهم فى ذلك الوقت أنه يعد نفسه لاحتراف اللعبة . وكان جعفر خليل حسن الصوت فكان يغنى لنا بعض أغانى سيد درويش ومنيرة المهدية وعبد اللطيف البنا ، وبتقدم السنين راح يؤلف الزجل . بل كان يحول بعض مناظر الأفلام إلى مواقف زجلية ويخرجها ويشترك فى تمثيلها فى غابة التين الشوكى أيضا . ولم أعرف له قصة حب واحدة وإن ضبطته مرة وهو يعلم بنتا يهودية من جاراته كيف تركب الدراجة . وبتوثق علاقتى به عرفت أنه فقير بحق ، بل لعله كان أفقر المجموعة ، إذ كان أبوه موظفا صغيرا رغم تقدمه فى السن ورغم طول مدة خدمته ، ولكنه كان برغم ذلك أكثر مرحا وسيطرة . ورغم تعدد ميوله فى اللعب والفن لم يبد اهتماما بالسياسة أو الوطنية كما كانت تعرف فى تلك الأيام . وظل على سلبيته تلك حتى الجامعة وبعد التخرج . قلت له يوما :

ـ عجيب ألا تهتم بما يصهرنا حتى الذوبان .

فقال ضاحكا :

ـ للوطنية رجالها ، لست منهم وإن تمنيت لهم النجاح .

ـ ولكن كل مواطن فهو من رجالها . .

ـ إنى أجد سعادتى بين أهل الفن .

فحتى وهو تلميذ بالثانوية كان يتردد على نقابة الموسيقيين الأهلية ويشهد حفلاتهم المجانية ، ويحضر مجالس الزجالين بالقهوة الخديوية ، وكان يتمتع فى ذلك بجرأة انفرد بها وحده . وعن طريق المرحوم كمال سليم عرف الطريق إلى الوسط السينمائى ، فقام بدور ضمن الكومبارس فى بعض الأفلام . وقدم قصصا سينمائية وهو طالب بالجامعة ، حتى وفق إلى المشاركة فى كتابة سيناريو عقب تخرجه عام ١٩٣٤ . وعين مدرسا للغة الإنجليزية ، وعرف فى المدرسة بنشاطه الرياضى وإشرافه على فريق التمثيل ، وسحر بشخصيته الخلابة الألباب . وقال لى :

ـ الوظيفة خطوة ليس إلا ولكننى عرفت هدفى . .

وكان من الشاق أن تعرف له هدفا محددا ، أزجال هو أم ممثل أم مطرب أم سينارست؟ فسألته :

ـ وما هدفك يا صاحب الأهداف؟

ـ السينما !

ـ السينما؟

ـ أجل ، هى مجمع الفنون ، هى دنيا السحر والرفاهية والجمال ، ولى فيها مجال وأى مجال فى التمثيل والكتابة والغناء . . .

ثم وهو يضحك :

ـ وشكلى مقبول ، لا تحكم علىّ بماضىّ ، الفقر لم يوفر لى الغذاء الكافى لكنك سوف تحكم بعينيك عندما يستفيد جسمى من اللحوم التى طالما حرمت منها ظلما وعدوانا !

وفيما بين تخرجه ونهاية الحرب العظمى الثانية تقدم فى نشاطه السينمائى بخطى ثابتة وملموسة ، اقتبس أربع قصص . وكتب ستة سيناريوهات ، ومثل أدوارا ثانوية فى عشرة أفلام ، وألف عشرات الأغانى ، وتحسنت أحواله المالية بدرجة طيبة جدا ، وكان بارا بأسرته الفقيرة فنقلها إلى عمارة جديدة بالشارع العام الذى تغير مع الزمن شكله ومضمونه ، وأقام معها وإن استأجر شقة خاصة فى شارع شامبليون لعمله ـ أو قل لعمله ومزاجه ـ وحافظ بالمثل على علاقاته القديمة بحيه وأصدقائه . وإذا به يختار عضوا ببعثة

إلى الولايات المتحدة فى العام الذى أعقب انتهاء الحرب. ولم تكن البعثة فى حسبانه ولكنه وجدها ممكنة بوساطة صديق من الوسط الفنى ذى صلة طيبة بوزير المعارف. ولم تنقطع عنى رسائله طوال مدة بعثته، ومنها علمت أنه يعد رسالة للدكتوراه عن الفن فى المجتمع العربى، ومنها علمت أيضا أنه ينوى دراسة السيناريو فى لوس أنجلوس. وفى رسائل تالية علمت أنه يراسل بعض المجلات بأجر طيب وأنه سيجرب حظه فى الكتابة للإذاعة، وأنه سيعود بمقدار طيب من الدولارات الأمريكية.

وعاد إلى مصر عام ١٩٥٠، وزرته فى اليوم التالى مباشرة لعودته فى مسكن الأسرة ولم يكن بقى فيه سوى أمه. تعانقنا بحرارة. ووجدت فى زيارته كثيرين من أهل الفن كما وجدت أصدقاء الطفولة جميعا عدا شعراوى الفحام الذى قتل فى غارة أثناء الحرب. وسئل أيبقى فى الوظيفة أم يستقيل للتفرغ للفن فأجاب:

ـ سأبقى حتى أستوفى المدة الإلزامية بمقتضى البعثة وهى خمس سنوات!

وقــال:

ـ الحياة الأمريكية حياة غريبة وعظيمة، والأمريكى ذو مزايا لا يستهان بها، ولكنى لم أستطع التخلص من إحساس عام بالنفور والكآبة بسبب قنبلة هيروشيما..

وقال أيضا:

ـ يخيل إلىّ أن الأمريكيين يتجهون الآن نحو الاهتمام بالشرق اهتماما غير عادى، وأن علينا أن نعمل لذلك ألف حساب!

وقال بحماس:

ـ لدى أفكار قيمة سيكون لها شأنها فى تطوير فن السينما فى مصر..

ثم غلب المرح على الجلسة وضجت الحجرة بالقهقهات وبخاصة عندما انضم إلينا المرحوم الشيخ زكريا أحمد.

وغادرت البيت مساء بعد أن دعانى إلى الاجتماع به صباح الجمعة بمسكنه الخاص بشامبليون.

وفى صباح اليوم التالى قرأت فى الأهرام نعيه.

نعيــه؟!

أجل نعيه.

فقد غادر مسكنه فى الثامنة مساء، فزلت قدمه فوق قشرة موز ففقد توازنه وسقط فارتطم رأسه بحافة الطور وسرعان ما فاضت روحه فى ثوان معدودات أمام باب العمارة.

حنـــان مصطفى

سمعت صوتا ينادينى فتوقفت عن السير متلفتا إلى الوراء فرأيت سيدة فى الحلقة السادسة تنظر نحوى بعينين زرقاوين باسمتين. تطلعت إليها لحظات متسائلا ثم اقتحمنى التذكر والعرفان كنفحة من عبير الأزهار فهتفت:

- حنـــان!

فقالت فيما يشبه الامتنان:

- نعم.. حنان.. كيف حالك؟

وتصافحنا بحرارة ونحن نميل إلى جانب من الطوار، وراحت تقول:

- تذكرتك بسهولة، لم تتغير تغيرا يذكر، وخفت ألا تتذكرنى ولكن الظاهر أننى لم أتغير بصورة تدعو لليأس، ماذا جاء بك إلى جليم فى مايو أم أنك مقيم هنا فى الإسكندرية؟

- بل جئت لاستئجار شقة للصيف، وأنت؟

- نفس السبب، وحدك؟

- نعـــم.

- وأنا كذلك.

وتبادلنا السؤال عن الأهل فعلمنا بمن ذهب ومن بقى، وأخبرتها عن حالتى الاجتماعية، فقالت:

- لى أربع بنات متزوجات، وأنا جدة من زمن، أما زوجى فقد توفى منذ عامين..

ومشينا على مهل على الكورنيش حتى سألتنى:

- متى رأيتنى آخر مرة؟

فتفكرت مليا ثم قلت:

- منذ أربعة وأربعين عاما؟

فهتفت ضاحكة:

- يا للفضيحة، وبرغم ذلك عرفتك من أول نظرة!

- كما عرفتك!

ـ بل ترددت قليلا .

ـ من المفاجأة . .

فضحكت ثم تساءلت :

ـ أتذكر حب زمان؟

وجعلت تتكلم بتدفق وتضحك بين ذلك بصوت عال حتى ذكرتنى بما كان يقال عن جنون أمها . ولبثنا معا دقائق ثم ذهب كل إلى طريقه . ورجعت إلى عباسية الحقول والحدائق والهدوء الشامل . وعاود ذاكرتى بيت آل مصطفى ، الأب والأم والابن وحنان . بيت بهر أخيلتنا بسحره الخاص . فعند الأصيل يجلس الأب فى السلاملك المطل على الطريق ، يجلس على كرسى هزاز وبين يديه منضدة عليها زجاجة ووعاء ثلج وكأس وطبق مزة . رجل بدين متوسط القامة أحمر الوجه أصلع يتحدى بكل استهانة تقاليد الزمان والمكان . فى أول الجلسة يبدو صامتا رزينا بل متعاليا منطويا . ثم ينشرح صدره بالانتشاء فيجود بنظرات إنسانية على الطريق والعابرين ، وبعد ذلك لا يستنكف من مخاطبة بياعى الملانة والبطاطة والسحلب والدندرمة تبعا للفصول ، وربما مازحهم واستعادهم الإنشاد المطرب الذى يعلنون به عن بضاعتهم على عادة ذلك الزمان . وكنا نقف غير بعيدين لنسمع ونشاهد ونشارك فى السرور . ونتابع تعليقاتنا مرة مستنكرة فى الغالب إلا ما يصدر عن جعفر خليل الذى كان يحبه ويعجب به ويعتبره فرجة لا تقل فى بهجتها عن السينما والسيرك . وتظهر خلال تلك الجلسة اليومية ربة البيت ، طويلة نحيلة تتوكأ على عصا لعرج خفيف بها ، فتلقى على ما حولها نظرة مستكبرة متأففة . والويل لنا إذا رأتنا نتفرج ونضحك فتنهال علينا قدحا وتقريعا ، ولعناً لآلنا الذين لم يحسنوا تربيتنا ، ثم تختفى من السلاملك وهى تسب الناس والبلد . كانت تعد ـ مثل زوجها ـ غير طبيعية ، وكثيرا ما كانت ترى وهى تتشاجر مع الباعة والخدم ، وقيل إنها كانت تكبر زوجها بعشرة أعوام ، وإنها غنية تملك أرضا ونقودا على حين لايملك زوجها إلا حصة فى وقف ، وقد تزوجت منه رغم أنه بلا علم ولا عمل لعراقة أصله . وكان ضمن المترددين على الطريق غجرية ترعى الأغنام ، حافية فى جلباب أسود مشدود عند الوسط بحزام ، متلفعة بخمار أسود ينسدل من تحته على وجهها برقع أسود أيضا يخفى الوجه ما عدا العينين . وكان بيننا وبينها معركة لا تهدأ فكلما أقبلت وراء الأغنام نصيح بصوت واحد :

يا غجرية حلى حزامك من قدامك

فتقذفنا بما فى مجال يديها من طوب . ومضى مصطفى بك يهتم بها ويزجرنا مدافعا عنها . ويوما قال لنا سيد شعير وكان أسرعنا إلى التطلعات الجنسية :

ـ ألا ترون ما بين الخروف والمعزة؟!

وأعقب ذلك مشاجرة عنيفة بين البك وحرمه تصدعت لها جدران البيت وعصفت بالشارع الهادىء حتى ازدحمت خصاص النوافذ بأشباح الحريم . وغادر الرجل البيت فلم ير بعد ذلك ، ولكن شاع فى الحى أنه تزوج من الغجرية وأقام معها فى الدرب الأحمر . ووجدت الزوجة نفسها بلا رجل فلعبت دورى الرجل والمرأة معا .

كانت غريبة الأطوار حقا ، ومن آى ذلك أنها سمحت لحنان باللعب مع أترابها على حين منعت أخاها الأكبر سليمان من مغادرة البيت إلا بصحبتها! كان صبيا جميلا رشيقا ، كنا نراه وهو يلعب فى الحديقة منفردا أو مع خادمة ، وكان وديعا مهذبا أرق من أخته نفسها ، وكنا نبادله النظرات فنود لو يلعب معنا ويود لو نلعب معه ، ولكننا ظللنا غرباء حتى غادر مع أسرته الحى . وتعلق قلبى بحنان قبل أن أناهز البلوغ . كانت بيضاء زرقاء العينين ناعمة الصوت ، وكانت ليالى رمضان فرصة هنية للصغار من الجنسين ، يجتمعون فى الشارع بلا اختلاط ، ويتراءون على ضوء الفوانيس وهم يلوحون بها فى أيديهم ، وكنا نترنم بأناشيد رمضان ونتبادل مشاعر الحب وهو كامن فى براعمه المغلقة . وقنعت عواطفنا الساذجة بتبادل النظرات ، وإظهار الرشاقة فى الجرى والغناء ، أو المخاطبة بالابتسام فى خفاء . ولما بلغت الثانية عشرة من عمرها منعت عن الطريق والمدرسة معا . لم يكن بيتها يؤمن بالتعلم أو العمل ويعتبرهما من ضروريات الفقراء فحتى سليمان هجر المدرسة قبل أن يحصل على الابتدائية . وباختفاء حبيبتى من الطريق اشتد ولعى بها وصارت شغلى الشاغل . وكانت ترينى نفسها خطفا من النافذة ، أو نتبادل المشاعر بإشعال أعواد الثقاب فى الظلام فوق الأسطح . وخطونا خطوة جديدة بفضل خادمتها التى ترددت بيننا خفية حاملة التحيات والورد ، وسعدت بذلك سعادة لا توصف . فطمعت فى المزيد منها ، ولكنى لم أدر كيف ، وتسلل إلى روحى قلق نشيط غامض تتجاذبه قوى خفية من البهجة والكآبة . وإذا بأمها تزورنا ونادرا ما كانت تزور أو تزار . وبصراحة لا يمكن أن تصدر إلا عن امرأة مثلها اقترحت أن نتزوج!

وأحدث اقتراحها ذهولا ، وقالوا لها :

ـ إنه شرف كبير ولكنهما لم يبلغا الثالثة عشرة من عمرهما .

فضربت بعصاها الأرض وقالت باستهانة :

ـ الزواج يعقد أحيانا بين أطفال فى الأقمطة . .

فقالوا :

ـ ولكنه لم يتم دراسته الابتدائية بعد وما زال أمامه مشوار طويل . .

فقالت بعجرفة :

ـ بنتى غنية ولن يجد حاجة إلى شهادة أو وظيفة .

- ولكن التعليم ضرورى والوظيفة ضرورية .
- كـــلام فـــارغ . . .
- إنه لا يملك ولن يملك شيئا ، ولن يقبل أن يكون مجرد زوج لزوجة غنيــة . . .
فتساءلت بحدة :
- والعمل؟
- لا سبيل إلا الانتظار حتى يتم تعليمه ثم له أن يتزوج بعد ذلك . . .
- وما مدى هذا الانتظار؟
- عشرة أعوام على الأقل . .
فصرخت المرأة :
- إنكم تركلون النعمة . .
ووقفت غاضبة ثم رددت بنبرة أقوى :
- إنكم تركلون النعمة!

وغادرت البيت عابسة متعجرفة . ودار تحقيق معى لمعرفة الأسباب المجهولة التى تقف وراء تلك الزيارة الغـريبـة . ولـم أكن أتخـيل إمكان وقـوع ذلك . ولـم أشك فى أن الأم المجنونة اطلعت على سر ابنتها فتنازلت لاقتراح الحل السعيد كما تتصوره وهى واثقة من قبولـه ، وتأثرت لذلك غاية التـأثر ، ورغبت رغبـة صـادقة فى الاعـتذارإلى حنان ولكن هالنى أنها لم تعد تلوح فى نافذتها ، كما كفت خادمتها عن المجىء إلى . ورجعت عصر يوم من المدرسة لأعلم أن آل مـصطفى قـد غـادروا البيت والحى إلى مكان مـجهـول . وعـانيت لأول مرة فى حياتى عذاب الحرمان والهـجر . ولكن حدته لم تقتلنى بل ولم تبطش بى . أطبقت على حينا ، ثم مضت تخف وتبهت حتى استحالت ذكرى مجردة من أى انفعال .

ولـم تقع على حنان عيناى مذ غادرت حينا حتى التقيت بها فى جليم فى مايو ١٩٦٩ وهى تقترب من الستين من عـمرها . أما شقيقها سليمان فقد ترامت إلى بعض أنبائه عن طريق المرحـوم جـعفـر خليل عـقب انعطافه إلى الوسط السـينمائى . إذ صـادفه لـيلة فى استـديو مصـر وهو يعـمل راقصـا ضـمن فرقة جىء بـها للتصـوير فى بعض مناظر فـيلم استعراضى ، قال :
- سلمت عليـه وذكـرته بنفـسى فـتـذكـرنى وأخبـرنى بأنه هـوى الرقص وكـرس له حياته . . .

ودهشت يومذاك لتلك النهاية غير المتوقعة فقال لى جعفر وهو يضحك ضحكته الكبيرة :

ـ يبدو لى أنه يمارس هوايته وحياته فى حرية مطلقة!

وفى لقاء جليم أخبرتنى حنان أن أباها توفى فى ختام عام انتقالها من العباسية إثر جراحة لاستئصال الزائدة الدودية، وأن أمها توفيت منذ عامين فقط أما سليمان فقد انقطع عنها انقطاعا كليا فهى لا تعلم أخباره إلا من المجلات الفنية. . .

خليــــل زكــــى

كان اسمه يطلق على الشر والعدوان بين أصدقاء العباسية. فرضته الجيرة فرضا لا حيلة لنا فيه ولا اختيار. وأى اختلاف معه يعنى معركة فلم يفلت أحدنا من عدوانه. حتى اليوم فى جبينى أثر من ضربة قبقابه. اختلف رأيانا فى حسين حجازى ومحمود مختار أيهما أمهر فى اللعب فقلت إنه حسين حجازى وقال إنه محمود مختار ثم كانت ضربة القبقاب فسال الدم على وجهى وجلبابى. وتشاجر مع جعفر خليل لاختلاف حول شارلى شابلن وماكس لندر. وتضارب مع عيد منصور لاقتراضه منه قرشا ومماطلته فى رده. ولم يكن له كفء فى مجموعتنا سوى سيد شعير، ولما نشب بينهما القتال شهدنا معركة عادلة لأول مرة، فسال الدم من أنفيهما معا وتمزق جلبابهما، وتخيلنا ما ينتظره فى البيت بسبب تمزق جلبابه فتضاعف سرورنا. ولم تجد معه المقاطعة فسرعان ما يتناسى الخصام ويقبل علينا هاتفا «صافية يا لبن» فإما نقبله وإما يتجدد القتال. على أنه من الحق أن اعترف بأنه لم يخل من فائدة لنا فقد كان قائدنا فى المعارك التى تنشب بيننا وبين غلمان الأحياء القريبة خاصة فى أعقاب مباريات الكرة. وكان أبوه عطارا فى بين الجناين، وكان يعامله بفظاظة ضرب بها المثل، وكثيرا ما كان ينهال عليه ضربا فى الطريق على مرأى من أصحابه، كان يضربه بقسوة وحشية وبلا رحمة، وكان خليل يمقته مقتا ويحلم ليل نهار بموته. وكان الأب مدمن أفيون، وكان خليل من أفشى سره وشهر به فى كل مكان، وكان أسوأ مثال لرب الأسرة، ولكنه خص خليل بلب كراهيته وشراسته. وكنا نتابع تلك العلاقة باستغراب وفزع، وفسرها سرور عبد الباقى تفسيرا دينيا فقال:

ـ إن الله سلط عليه أباه كما سلط الطوفان على آل نوح!

ولم يفلح خليل فى دراسته الابتدائية، ولما تكرر سقوطه شغله أبوه فى دكانه. وتنفسنا الصعداء كما يقولون، وخيل إلينا أننا تخلصنا من شره، ولكنه لم يغب عنا أكثر من شهر واحد، وأقبل علينا ضاحكا وهو يقول:

ـ عادت ريمة لعادتها القديمة.

فقلنا ونحن نداري خيبتنا:

ـ خير إن شاء الله.

ـ طردني ابن المجنونة!

ـ من الدكان؟

ـ ومن البيت!

وجاءنا سيد شعير بالأخبار ـ كان أبوه تاجرا ومن أصدقاء والد خليل ـ فأخبرنا بأن خليل اعتدى على زبون بالضرب، وتكررت سرقاته لنقود الدكان حتى اضطر الرجل إلى طرده. وجمنا للأخبار وأدركنا أنه سيتفرغ لنا بثقله وعناده. وبالفعل تحملنا نفقاته في المقهى والرحلات، وعدا ذلك فلم ندر شيئا عن أين يذهب بقية الأوقات ولا أين ينام ولا كيف يأكل. وفي تلك المرحلة من دراستنا الثانوية اتصل جعفر خليل بدنيا السينما فجره معه ليعمل ضمن الكومبارس فدرت عليه قليلا من النقود، وهناك التقى بسليمان مصطفى الراقص فحام حوله بغريزته النفعية. وما لبثت أن نشأت بينهما صداقة غريبة فسار في ركابه وانتفع إلى أقصى حد بماله. وكان جعفر خليل يحكي لنا مغامراته السينمائية تلك وهو يضحك من أعماق قلبه، حتى قال لنا يوما:

ـ صاحبنا تمادى كعادته حتى ضاق به سليمان فطرده!

فهتفنا ونحن نتوقع شرا:

ـ طـــرده؟!

ـ وانقلب عليه يهدده ويتحرش به...

ـ وقع المسكين في شر أعماله!

ـ ولكن سليمان صديق لقوم من الكبراء فما يدري صديقنا خليل إلا وهو يساق إلى نقطة الشرطة، وهناك جلد حتى بح صوته من الصراخ، ثم أفرج عنه بعد ما أخذ عليه تعهد بألا يتعرض للشاب.

وعاد خليل يتسكع هنا وهناك، ثم اختفى زمنا فلم نعد نسمع عنه خبرا، وكان عيد منصور أول من جاءنا عنه بنبأ إذ تسلل ذات ليلة إلى بيت دعارة سرية بالسكاكيني.

ـ فلمحته هناك يجلس مع المعلمة كأنه شريك!

ولكن جعفر خليل هو الذي جاءنا بالخبر اليقين. كان أحب مجموعتنا إليه مذ فتح له بابا للرزق فأفضى إليه بسره. كان يذهب إلى أي بيت دعارة كأنه زبون، ولما يقضي وطره ويطالب بالنقود يهدد بإبلاغ الشرطة، فإذا استعانوا عليه بحامي البيت جندله، وما يلبث

أن يفرض نفسه «حاميا» للبيت، ولم تمر فترة طويلة حتى شمل بحمايته جميع بيوت الدعارة فى منطقة السكاكينى. بذلك تحسنت أحواله واستقرت ميزانيته وعرف النعيم. وكانت حياة خطرة مهددة ولكنها كانت تناسبه كما كان يناسبها. وتدرج فيها فى مدارج الرقى حتى وثب به نشاطه إلى بيوت الدعارة الفاخرة فى وسط المدينة. وابتسم له الحظ فقدم خدمة (غرامية) لطبيب كبير، وابتسم له الحظ مرة أخرى عندما عين الطبيب عميدا لكلية الطب فكافأه بإلحاقه بوظيفة إدارية بمستشفى قصر العينى. هكذا وجد خليل زكى نفسه موظفا فى مستشفى كبير، موظفا يخطر تحت رعاية العميد، مرتبه بسيط حقا ولكن أرباحه خيالية. ورجع يزورنا فى المقهى وهو بادى النعمة فيطلب النارجيلة والشاى الأخضر وينظر إلينا من فوق كما يجدر بموظف يجالس تلاميذ. وقد سألت جعفر خليل مرة:

ـ وماذا عن المهنة الأخرى؟

فقال ضاحكا:

ـ الظاهر أنه لا فكرة لك عن أرباح المستشفى؟!

ـ إذن قطع علاقته بالبيوت؟

ـ طبعا.. عدا المختار من البيوت الرفيعة.. الممتازة جدا.. ومن بعيد لبعيد.. وليؤدى خدمات نادرة للصفوة.

وكان على علاقة بقصاب غنى من مدمنى المخدرات فخطب منه كريمته. وكانت الوحيدة التى بقيت من ذرية الرجل بعد أن قتل أخواها فى المظاهرات التى اجتاحت البلاد فى أول عهد إسماعيل صدقى. وتزوج خليل من فتاة موعودة بميراث كبير عبارة عن أربع عمارات فى شارع فاروق غير النقود السائلة. وعقب الزواج بعام واحد ضبط القصاب الغنى متلبسا بتعاطى المخدر فقبض عليه وحكم عليه بالحبس عاما ولكن صحته لم تحتمل ذلك فمات فى مستشفى السجن، وانتقلت إدارة الأملاك إلى يد خليل زكى. وعندما ترامت إلينا تلك الأخبار لم يشك أحد منا فى أن خليل هو الذى أوقع بحميه ليستولى على ثروته: وتسلطت علينا تلك الفكرة لحد الايمان. قال عيد منصور فيما يشبه الحسد:

ـ صفقة تاريخية.

وقال جعفر خليل ضاحكا:

ـ عليه العوض فى العمارات الأربع.

وقال رضا حمادة:

ـ مسكينة، سنراها متسولة فى الطريق عما قريب!

وجاءت الحرب وذهبت ولم أكن ألقاه إلا فى النادر. ومنذ اجتمعنا فى مأتم المرحوم

جعفر خليل عام ١٩٥٠ لم أره ولم يكن يخطر ببالى حتى عام ١٩٧٠، كنت جالسا بالتريانون فى أوائل الخريف حين وقفت أمامى سيارة بويك سوداء ورأيت وجها ينظر نحوى من نافذتها. وأقبل نحوى ضاحكا فسلمنا وجلس. رغم كبره بدا بجسمه القصير مدمج التكوين قوى البنيان، كما بدا شرس السحنة همجى المنظر فلم ترفعه بذلته الشركسكين إلا قليلا. وظل محتفظا بطربوشه ليخفى صلعة مشوهة بآثار خياطات جراح قديمة من مخلفات معاركه. تذاكرنا أخبار الصحاب ثم قال:

ـ لعلك لا تعلم بأننى أصبحت من أهل الإسكندرية؟

ـ حقا؟

ـ آخرة العنقود طالبة بالآداب لم تجد فى القاهرة متسعا فقررت الاقامة فى الإسكندرية وابتعت ڤيللا فى لوران. ستراها بنفسك!

فشكرته وسألته:

ـ ووظيفتك؟

ـ أصبت منذ عامين بذبحة صدرية فاعتزلت الخدمة.

ـ سلامتك..

ـ صحتى عال ولكنى لا احترم كثيرا الإرشادات الطبية.

وضحك حتى كشف عن أسنانه الملونة ثم قال:

ـ لى غير البنت التى حدثتك عنها ثلاثة مهندسين وطبيب!

فأبديت الإعجاب والاستحسان فقال وهو يغرق فى الضحك:

ـ عرفت كيف أكون أبا!

ثم بنبرة أسف:

ـ وددت لو جاءوا مثلى لا يهتمون إلا بأنفسهم ومستقبلهم ولكنهم دوخونى بمناقشاتهم السياسية.

وجعلت أختلس إليه النظرات متسائلا، ترى هل يثب إلى العدوان إذا تهيأت أسبابه؟ إلى أى مدى تغير حقا؟ وكيف ينظر اليوم إلى ماضيه؟ وبأى صورة يتصور أمام أبنائه؟ وهل يطيق أن يعيد أحد سيرته؟ وألا يعتبر ثلاثة مهندسين وطبيب كفارة عن أى ماض أسود؟ وأى الحلين كان أفضل، أينجو من القانون رغم جرائمه ليهدى للوطن أربعة من العلماء أم كان يقبض عليه لتستقر العدالة فوق عرشها؟! وتذكرت قول الأستاذ زهير كامل: «بت أعتقد أن الناس أوغاد لا أخلاق لهم، وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك، وأن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف، وعلى ذلك تصبح المشكلة

الأخلاقيـة الجديدة هى : كيف نكفل الصالح العـام والسعـادة البـشرية فى مـجتمع من الأوغاد.

دريـــة ســالــم

ـ اسمحى لى أن أحييك.

فارتسم ظل ابتسامة على شفتيها فقلت متشجعا :

ـ غير معقول ألا نتبادل تحية بعد ما كان.

فخرجت عن صمتها قائلة :

ـ بعد ما كان؟

ـ بعد ما كان من عشرة طويلة بين أعيننا.

فضحكت ببراءة وقالت :

ـ نقبل التحية.

ـ هذه هى الخطوة الأولى.

ـ هل توجد خطوات أخرى؟

كـانت تجىء بأبناء ثلاثة إلى المنتزه، فيستحم ثلاثتهم فى البحر على حين تجلس هى منفردة فى الكازينو تراقبهم من النافذة. لفت نظرى إليها وجه بشوش وجسم فوار.. بالنضج الأنثوى. وعشقت فى عينيها نظرة ودودا كأنما خلقت للاستقبال والترحيب. وسرعان ما شعرت بأن ثمة دعوة رقيقة تطالعنى كالزهرة الناعمة وأن تجاهلها فوق طاقة البشر. وتبادلنا كلمات عابرة فاتفقنا على موعد فى حديقة البجعة. وآمنت وأنا فى الطريق إليها بأنها امرأة من نوع خاص فلعلها أرملة أو مطلقة، ولكنها قالت لى ببساطة :

ـ أنا متزوجة!

فقلت مأخوذا :

ـ ولكننى أراك دائما منفردة.

ـ هو فى بعثة قصيرة تنتهى هذا العام ١٩٦٠.

فوجمت فسألتنى ضاحكة :

ـ أتخاف من النساء المتزوجات؟

ـ إنى أفكر...

فقاطعتنى قائلة :

ـ فكر فى إعداد مكان آمن نلتقى فيه فى القاهرة !

فقلت بحماس ظاهرى :

ـ اتفقنا .

ـ ولا تسىء بى الظن !

ـ كيف ولِمَ؟

ـ لعلك تتساءل عما وراء امرأة لبت لك أول إشارة؟

وكان ذلك ما يبدو ببالى ولكننى قلت :

ـ لم أكن دونك استجابة وكنت البادئ !

فقالت برقة :

ـ من حقنا أن ننعم ببركة الصراحة .

تأملت كل شىء بوعى شأن من لم يقع تحت سيطرة مجنونة . وقلت لنفسى إنى أعجب بهذه المرأة وأرغب فيها ولكننى لن أحبها . وتهيأ لنا المكان فى طريق سقارة . وتخيلت خلوة حمراء مشتعلة . ولكن ما أن أغلقت الباب وراءنا حتى وجدتنى بحضرة امرأة جديدة . جلست مسترخية على كنبة ، حتى التلفيعة الحريرية لم تنزعها من حول عنقها . تبدت هادئة مستسلمة تطالعنى بعينين ملؤهما الحنان ، ورحت أداعب أطرافها وألثم فاها فتبادلنى عواطفى بابتسامة محبة قانعة . ولما قدمت لها كأسا اعتذرت فلما دعوتها إلى الفراش همست فى أذنى :

ـ ليتنا نمضى وقتنا فى سعادة بريئة هادئة .

فقلت محتجا :

ـ لا أصدق .

فنهضت وهى تقول :

ـ ولكن لا تعتبره غاية فى ذاته .

وبالرغم من أن التلاقى كان جذابا إلا أنى آمنت بأنه كان من الممكن لها حقا أن تمضى الوقت فى سعادة بريئة هادئة . ثمة تناقض كبير بين المرأة اليسيرة المستجيبة لدى أول إشارة وبين هذه المرأة الرقيقة الزاهدة . وقلت لها :

ـ أنت شخصية غريبة !

ـ حقا . . . لِمَ؟

ولما تلكأت فى الاجابة سألتنى :

ـ هل تجد صحبتى عزيزة محببة؟

ـ بكل جدارة.

ـ هذا ما يهمنى حقا.

وتتابعت اللقاءات أسبوعيا. بلا حب حقيقى من ناحيتى وبلا دافع يبرر الخيانة من ناحيتها. ولما رفعت الكلفة بيننا قلت:

ـ أعترف لك بأننى ـ فى كازينو المنتزه ـ توهمت أنك امرأة لعوب!

فسألتنى باهتمام:

ـ ماذا تعنى؟

ـ أعنى معنى بريئا!

ـ سامحك الله!

فتناولت يدها بين يدى وقلت:

ـ إنى أتساءل عما يدفعك إلى حضن رجل آخر؟

ـ آخر؟!

ـ أعنى غير زوجك؟

فقالت وهى تسبل جفنيها فى استياء:

ـ لذلك يضيق الناس بالمحققين!

ولكن باطراد اللقاءات استأنستها العادة فاستسلمت بحرية إلى تيار الذكريات الحميمة. وفى مناسبة ما قالت بصدق:

ـ تزوجت بعد قصة حب، حب عميق.

وكانت تعمل ممرضة وكان هو طبيب امتياز.

ـ تبادلنا حبا جميلا كاملا، وأصارحك بأننى استسلمت فى أول لقاء.

ـ وتزوج منك؟

ـ كان شهما، كان محبا صادقا.

ـ ما أجمل ذلك.

ـ وعشنا طويلا كأسعد ما نكون فأنجبت له ثلاثة أولاد.

وسكتت فسألت:

ـ ثم ماذا؟

فأجابت كمن تفيق من حلم:

ـ لا شيء.

ـ كيف حالكما اليوم؟

ـ حال عادية!

ـ ماذا تعنين؟

فقالت ضاحكة:

ـ كل ذلك الوقت الضائع على حساب حبنا!

ـ ممكن نواصل لقاءاتنا بعد عودته!

ـ لِمَ لا؟!

لم يعد يربطنى بها إلا المجاملة ثم العادة. وازدادت هى رقة ومودة وحنانا حتى قالت لى يوما:

ـ لا أتصور حياتى بدونك.

فوجدت أن أسلم سبيل أن أجيبها بقبلة طويلة ولكنها تساءلت فى عناد:

ـ وأنت؟

ـ مثلك وأكثر.

ـ لم تقل لى صراحة إنك تحبنى.

فقلت:

ـ لكنى أحبك بالفعل وهو الأهم.

ورجع الدكتور صادق عبد الحميد من بعثته القصيرة. تحدثت عنه بموضوعية كأنه ظاهرة لا تربطها بها علاقة حميمة. ولكن باحترام لا مزيد عليه. وفى ذلك التاريخ كنت بدأت أتردد على صالون الأستاذ جاد أبو العلا، وهناك التقيت بالدكتور صادق عبد الحميد! وقص علينا جاد أبو العلا كيف زار الدكتور فى استشارة طبية وكيف توثقت العلاقة بينه وبين الدكتور. وبدأت بيننا صداقة روحية نادرة، فقدمته بدورى إلى مجلس سالم جبر وزهير كامل وصالون الدكتور ماهر عبد الكريم. وأدهشنى أن أرى فيه رجلا يماثل درية فى السن أو لعله يصغرها ببضع سنوات، وسيما ذكيا ذا طموح روحى لا حد له. هكذا بدأت صداقتنا بعد توطد علاقتى بزوجته بأربعة أشهر! وضايقنى ذلك وأزعجنى لحد العذاب. ولم تتوقع درية ذلك فذهلت له. ولاحظت دون جهد ارتباكى وقلقى، وجو الكآبة الذى خيم بثقله فوق لقاءاتنا فخنقها. وبدا أن تيار الحياة يمضى إلى زاوية مسدودة ليشهر موته. قالت لى بتوسل:

ـ انس تماما أنه زوجى، ألم يكن من المحتمل ألا أشير بكلمة إلى هويته أو اسمه؟

فقلت بارتباك :

ـ لا فائدة من افتراض احتمالات لا أصل لها .

ـ يجب أن نحافظ على علاقاتنا فهى أهم من كل شىء .

فقلت بحزن صادق :

ـ إنى أتعذب .

فقالت بانفعال غير معهود :

ـ لعله لو علم بعلاقتنا ما اكترث لها !

فنظرت إليها بذهول غير مصدق فقالت :

ـ إنه لا يحبنى . لم يعد يحبنى منذ ثلاثة أعوام أو أكثر . صدقنى .

ـ إنى أصدقك وأنا آسف .

ـ وهو يعاشر امرأة أخرى ، ولولا تفانيه فى حب أولاده لهجرنا ليتزوج منها !

ـ إنى آسف يا درية .

ـ ماذا تعنى بقولك آسف؟

ـ آسف لحالك ، ولحالى التى لا أحسد عليها .

ـ لو كنت تحبنى لما شعرت بأسف على الإطلاق !

ـ الواقع أنى لا أطيق ذلك الموقف بحال .

أشاحت بوجهها عنى محمرة العينين وتمتمت :

ـ أنت لم تكد تعرفه ، هل تنشأ الصداقة من العدم؟

ثم بحزن شديد :

ـ والحب أقوى من الصداقة ولكن الحقيقة أنك لا تحبنى !

لم أجد ما أقوله فصمت . وبالصمت أسدل الستار على علاقتنا الحزينة المفتعلة . وعندما غادرنا عشنا تأملت شخصها الناضج الذى يعانى أحرج فترة من العمر تحت وطأة الهجران والخيبة فتقلص قلبى ألما وحزنا . ولفحنا فى الخارج هواء بارد كلسع السياط ، فى ظلمة الليل .

رضا حمادة

يرتبط فى الخيال بالعباسية، عباسية الحقول والحدائق، مثل جعفر خليل وخليل زكى وحنان مصطفى. ولكنه يرتبط أيضا بقيم ومبادئ لا يستهان بها، وبعنف تيار الحياة فى صعوده وهبوطه، وبإرادة الإنسان حيث تتوثب للصراع والتحدى وتجاوز اليأس والأحزان. وهو عملاق كصديقنا سرور عبد الباقى، امتاز بالعملقة حتى ونحن غلمان نلعب فى غابة التين الشوكى، ولعله من القلة التى واجهت عنف خليل زكى برباطة جأش. وعرف منذ عهد المدرسة الابتدائية بالاهتمام الشديد بالوطنية. كان يتكلم عن سعد زغلول أكثر مما يتكلم عن حسين حجازى أو شارلى شابلن أو المصارع عبد الحليم المصرى. ولعله ورث ذلك عن أسرته التى اشتهرت فى شارعنا بالوطنية والعلم فكان أبوه مدير عام مستشفى الحميات بالعباسية، وكانت أمه مدرسة من السابقات إلى التعلم ومن طلائع النهضة النسائية، ونبغت أخته فى العلوم فأرسلت فى بعثة إلى إنجلترا. كما تفوق أخوه فى مدرسة الحقوق. ولكن أسرته اشتهرت أيضا بالكوارث التى حلت بها، فماتت أمه وهو طفل، وفصل أبوه من الخدمة لفرط نشاطه فى خدمة الوفد المصرى فى إبان تكوينه، وماتت أخته فى انجلترا، واستشهد أخوه فى ثورة ١٩١٩. وكان يفاخر بأخيه واستشهاده وينوه بذكائه واجتهاده حتى ضاق خليل زكى بذلك فقال لى مرة:

ـ لِمَ قتل هذا المجنون نفسه؟

فقلت ببراءة:

ـ فى سبيل الاستقلال.

فتساءل ساخرا:

ـ وهل كان الانجليز يقيمون فوق صدره؟!

ولما عرفت رضا كان يعيش مع والده وخادم عجوز ولا رابع لهم فى البيت. وكان يضيق بالبيت ويعتده سجنا بلا قضبان. ويرهب جانب أبيه ويعمل له ألف حساب. اعتكف الوالد فى البيت عقب فصله من الخدمة. لا يغادره إلا إذا استدعى لاستشارة خاصة فى أحد البيوت، والظاهر أنه كان يريد أن يخلق من رضا شخصا يعوضه عن جميع خسائره، فاشتد فى معاملته، وحمله ما يطيق وما لا يطيق. وطالبه بالعلم والأخلاق والوطنية والتفوق، وراقبه مراقبة بلا هوادة ولا تسامح. لذلك نشأ رضا

متطهرا متقشفا مجتهدا مطلعا طموحا ولكنه افتقد دائما الحنان والعذوبة. وكثيرا ما كان يقول:

ـ حدثنى عن أمك، كيف تحبها وكيف تحبك!

ويتغنى بالنشيد المعروف:

أيها الطائر أهــلا بمحيــاك وســهلا

ويتهدج صوته وهو ينشد:

أمكن أستودعتنى شـوقها إذ ودعتنى

وخطابا حملتنى لفظه يشفى العليل

ومرة أهانه أبوه فى الطريق لإهمال تورط فيه فتأثر تأثرا بالغا. وسرنا وهو صامت حتى وقفنا عند السبيل كعادتنا كل أصيل فى العطلة. وغاب عنا بعض الوقت ثم رجع فلم يكد يلحظ أحدنا شيئا. وبغتة تكور وهو يقبض على بطنه بيدين متشنجتين ويصرخ من الأعماق. وانطرح على الأرض تحت شجرة، وراح يتمرغ فى التراب، ومن شدة الألم يعض أصول الشجرة الضاربة فى الأرض، واجتمعنا حوله فزعين واجتمع الناس. وما لبث أن جاءت الشرطة والإسعاف فحمل إلى قصر العينى حيث أسعف من حمض الفنيك الذى شربه بقصد الانتحار. شد ما هزنى الحدث والمنظر. وسألته فيما بعد:

ـ كيف هانت عليك نفسك؟

فابتسم فى حزن وتمتم:

ـ ألم تر كيف أهاننى أمامكم؟

وأعتقد أن تلك المحاولة المشئومة غيرت من سياسة أبيه نحوه كما أن تفوقه النادر وفر له المزيد من التقدير والاحترام. ولم يمنعه تفوقه الدراسى من الإسهام فى النشاط السياسى الذى خفت حدته وتغير لونه بعد انحسار موجة الثورة العارمة. فقد بلغنا أولى درجات الوعى بعد أن انقلبت الثورة الدامية أسطورة مقدسة من أساطير الغيب. وكان كل منا يحتفظ من ذكرياتها بمشهد عابر عجيب أو ذكرى شهيد أو هتاف مثير ولا شىء أكثر من ذلك. وقد اشتركنا معا فى المظاهرة التى قادها نادر برهان تأييدا لسعد زغلول ـ وهو رئيس وزارة ـ فى اختلافه الدستورى مع الملك فؤاد. وتوطدت علاقته فى الثانوية مع بدر الزيادى لتقارب مشاربهما. ولما تولى محمد محمود الحكم قال بدر:

ـ لم يكن لنا من عدو فى الماضى إلا الإنجليز.

فقال رضا حمادة:

ـ والملك.

ـ هما شىء واحد .

ـ موافــق .

فقال بدر :

ـ وها هو عدو جديد ينضم إلى الميدان .

ولما قتــل بــدر الزيادى فى فناء المدرسة حزن رضا حزنا شديدا ، وقال لى :

ـ مات بدر على حين يحيا خليل زكى !

فقلت له بحزن :

ـ ومحمد محمود يحيا أيضا !

وتقدم رضا فى نشاطه السياسى فجالس مصطفى النحاس فى بيت الأمة ضمن وفود الطلبة . وقبض عليه فى حكم محمد محمود ، وكاد يقتل فى عهد صدقى ، وفى كلية الحقوق صار من زعماء الطلبة فاستمعت مرات إلى خطبه الحماسية فى الحرم الجامعى . كان مثالا للوفدى الصادق فى إيمانه بالاستقلال والدستور والحياة الديمقراطية . وكان ينظر بامتعاض شديد إلى مجرى السياسة فى مصر حتى آمن بفكرة نبتت فى يقينه . قال :

ـ لقد فقد الوفد أو قل الشعب قوته الضاربة يوم قبض على زعماء جمعية الكف السوداء .

فقلت ببراءة :

ـ ولكن الوفد يدعو إلى الجهاد المشروع !

فضحك وقال :

ـ دعك مما يقولون .

ثم قال بحنق :

ـ لا نجاة لنا إلا بإبادة السراى وأحزاب الأقلية ثم نواجه الإنجليز كتلة واحدة !

وقد أحب ثريا رأفت وأراد أن يخطبها وهو طالب بكلية الحقوق . لم يصارحنى بذلك فى حينه كما لم أبح له بعلاقتى بها فى حينها ولكنى عرفت الحكاية عقب النكسة ! كان رضا ضمن المجتمعين فى مكتب سالم جبر الذى تراءت فيه ثريا رأفت . وتقابلنا بعد ذلك فى بيته بمصر الجديدة فسألنى :

ـ أتذكر السيدة التى كانت فى مكتب سالم جبر ؟

فقلت باهتمام :

ـ ثريا رأفت .

فضحك قائلا :

ـ كانت من أهل السكاكينى وقد أحببتها وأنا طالب فى الحقوق حتى عزمت على خطبتها لولا .

ـ لولا؟

ـ لولا أن رأيتها بصحبة صديقنا عيد منصور!

وعند ذاك قصصت عليه قصتى معها!

وتخرج رضا فى الحقوق عام ١٩٣٤ فاشتغل بالمحاماة . ومات أبوه تاركا له ثروة لا بأس بها . وبزغ نجمه ككاتب سياسى كما رسخت قدمه فى المحاماة . وانتخب نائبا عن دائرتنا فى انتخابات ١٩٤٢ ، وكانت موقعة ٤ فبراير قد هزتنى من الأعماق ورمت بوفديتى فى أزمة خانقة . وصارحته بذلك فقال لى :

ـ إنى أعتقد أن مصطفى النحاس قد أنقذ الوطن والعرش!

فقلت بأسى :

ـ تصور أن الدبابات البريطانية تجىء بزعيم البلاد رئيسا للوزارة!

فقال بإصرار :

ـ لقد كان الانجليز أعداءنا ولكنهم اليوم يقاتلون فى الجانب الذى نرغب فى أن ينتصر .

ـ ثمة خطأ يفرى روحى كالسم!

فسألنى :

ـ أتود للفاشستية أن تنتصر كما يود الملتفون حول الملك؟

ـ كلا طبعا .

ـ فانظر إلى ٤ فبراير إذن على ضوء ذلك الضوء .

وانتخب مرة أخرى عام ١٩٥٠ عن نفس الدائرة . وكانت تعتريه نوبات حزن شديد كلما شعر بأن الوفد لم يعد على المستوى الرفيع الذى طالما تربع عليه بجدارة ، أو أنه تسلل إليه خور فى الإرادة والاستقامة وفتر حماس الشعب له . وكم اهتز طربا يوم ألغى مصطفى النحاس المعاهدة ثم أعلن الجهاد ، يوم سرت فى الوادى نفحة من روح ١٩١٩ ، ثم تتابعت الخيبات كالمطارق حتى قامت ثورة يولية ١٩٥٢ . وتحمس لها فقال لى :

ـ سيعود الوفد بلا منازع!

ولما سارت الثورة فى طريقها المرسوم أمل أن تتخذ من جماهير الوفد قاعدة لها . حتى إذا صدر قرار حل الأحزاب تقوضت آماله وقال لى :

ـ نحن مقبلون على حكم عسكرى لن يعرف مداه إلا الله .

فقلت له بإخلاص :

ـ اعتزل السياسة وتركز فى مهنتك!

فقال ضاحكا :

ـ لا خيار!

ولكن وفاءه لزعيمه وزملائه رمى به فى موضع الشبهات فاعتقل أكثر من مرة. وكان قد تزوج عام ١٩٤٠ فأنجب ابنا وحيدا قبل أن تصاب زوجه بما منعها من الإنجاب. وطالما أعجبت بابنه لذكائه وحيويته. ولما اعتقل رضا تعرض لحملة تشهير كبقية زملائه فعانى ابنه ـ وكان طالبا فى المدرسة الثانوية ـ تجربة مريرة بين أقرانه. وكان شديد الحساسية فامتحن بأزمة نفسية عنيفة أتلفت أعصابه. وسرعان ما كره المدرسة، واعتكف فى بيته. ومضت حياته من سيئ إلى أسوأ حتى اضطر أبوه إلى إيداعه مستشفى الأمراض العقلية. ولم تحتمل أمه الصدمة فشلت وماتت فى نفس العام. هكذا وجد رضا نفسه كهلا وحيدا غارقا فى الأحزان، وهكذا أدركته لعنة أسرته. قلت لنفسى :

ـ انتهى رضا حمادة.

ـ ولكنه لم ينته فى الواقع. غادر حيه القديم إلى مصر الجديدة، وكرس حيويته لمهنته ولمكتبه. ولعل العشرة الأعوام الأخيرة كانت أنجح سنى حياته. إنه اليوم من أبرز المحامين. وهو عاكف على تأليف ما سماه بدائرة معارف العلوم الجنائية. وقد ضمن مقدمتها من الآراء الفلسفية والنظرات النفسية ما يشهد له بالموسوعية فى المعرفة والمقدرة الفائقة فى التفكير، وليس هذا بالجديد علىّ فقد سمعته يناقش الأساتذة ماهر عبد الكريم وسالم جبر وزهير كامل وغيرهم فكأنه موسوعة فى الفلسفة والسياسة والأدب، أما عن القانون فهو حجة من حججه المعاصرة بلا جدال. غير أن إعجابى الأول به إنما يرجع إلى شخصيته الأخلاقية قبل كل شىء. وقليلون جدا من عرفتهم يماثلونه فى ذلك مثل كامل رمزى وسرور عبد الباقى. ولا غرابة فى أن تبهرنى الأخلاق البناءة كرجل عاصر فترة انهيار فى الأخلاق والقيم لا نظير لها حتى خيل إلىّ فى أحيان كثيرة أننى أعيش فى بيت كبير للدعارة لا فى مجتمع. ففى رضا حمادة عرفت رجلا نقى النوايا والسلوك، نزيها مخلصا، آمن طيلة حياته بمبادئ لا يحيد عنها كالحرية والديمقراطية والثقافة إلى عقيدة دينية مستنيرة متطهرة من شوائب التعصب والخرافة.

أجل وقف موقف الرفض من أى رأى يسارى، وعجز عن التطور مع الزمان، فعاصرته أول العهد بصداقته وهو مثال للشاب الثورى ثم عاصرته فى شيخوخته وهو محافظ عنيد وإن لم يعترف بذلك. فما برح يردد أن الليبرالية هى آخر كلمة مقدسة فى

تاريخ الإنسان السياسى . ولعل شخصيته الأخلاقية هى التى سندته حيال الكوارث التى عصفت بحياته . وأيدته بسحرها وهو يشهد اختفاء القيم والأشخاص الذين عبدهم مثل الحرية والديمقراطية ومصطفى النحاس وزوجته وابنه ، توارى كل جميل من دنياه فلم يتهدم ، ولكن ثابر على العمل بقوة مضاعفة وجابه الحياة بإرادة من فولاذ ، وظل على علاقاته الطيبة بالأصدقاء والصالونات والمجالس . وكلما أقبل علىّ بقامته المديدة ورأسه الأبيض ، أو أمتعنى بأحاديثه المتنوعة . انبعث فى أعماق روحى نشاط متألق بالأفراح فأجدد إعجابى به وبالحياة المباركة التى خلقته .

زهـــران حســونـة

ثمة أصحاب من نوع خاص ، أصحاب يرتبطون بمكان ما لا يتجاوزونه ، حلا لى يوما أن أدعوهم أصحاب المقاهى . فى المقهى نتصافح بحرارة ونتجالس ونتسامر ثم يذهب كل إلى سبيله . ومنهم من يختص بصفة تستحق التأمل فيترك أثرا قبل أن يذوب فى النسيان . من أولئك زهران حسونة . عرفته فى مقهى ركس فى أيام الحرب العظمى الثانية وكنت أتردد عليه من حين لآخر بصحبة جعفر خليل ورضا حمادة وشعراوى الفحام وعيد منصور . كان يزور المقهى مع آخرين من صحبه فى يوم الأحد ، وكان بدينا متوسط القامة كبير الرأس جدا كأن به عاهة . وعن طريق النرد تعرفنا بهم ثم صاحبناهم . قال يعرفنا بنفسه :

ـ كنت موظفا بوزارة التجارة والصناعة ثم سويت معاشى لأشتغل فى الأعمال التجارية .

وكان إذا حضر وقت الصلاة قام وصحبه فانتحوا جانبا فيما وراء البار وأدوا الصلاة جماعة وهو يؤمهم . وهو يؤمهم لأنه الوحيد بينهم الذى أدى فريضة الحج . والحق أن الدين كان يشغل حيزا من أحاديثهم لا يستهان به ، وهى تفصح عادة عن إيمان بسيط صادق تختلط فيه العقيدة بالخرافة بالأساطير الشعبية ولكن لا شك فى صدقه . وكانت صحبتهم ممتعة ، وكانوا كرماء ، وفيهم شهامة أولاد البلد . غير أن عيد منصور قال لنا يوما :

ـ جئت لكم بمعلومات طريفة عن الحاج زهران حسونة .

فسألناه عنها فقال :

ـ لم يستقل ولكنه اضطر إلى الاستقالة لسوء سمعته .

ـ أى نوع من سوء السمعة؟

ـ الرشوة!

وعيد منصور يسره دائما أن يثبت أن جميع الناس لا خلاق لهم مثله! وقال وهو يضحك:

ـ إنى أشك فى جميع الناس ولكنى أشك بصفة خاصة فى المتدينين!

فقال رضا حمادة:

ـ ولكن ليس كل متدين منافقا!

فقال عيد منصور وهو يضحك أكثر:

ـ النفاق درجة لا يرتقى إليها عم زهران حسونة!

فضحكنا فراح يفسر قوله:

ـ النفاق أن تبطن الكفر وتعلن الإيمان ولكنه أغبى من أن يكون كافرا، أنا لا أشك فى إيمانه.

ـ إذن لعله تورط فى الرشوة تحت ظروف ضاغطة!

ـ لعله..

ولاحظنا أن زهران حسونة يعمل بهمة فى السوق السوداء، فى تجارة الثقاب والويسكى، ثم اشتغل فى المواد التموينية، ولم يكن يخفى ذلك بل كان يبدى استعداده لتقديم الخدمات لنا، فلم أملك أن أسأله:

ـ ألا ترى يا حاج فى العمل فى السوق السوداء ما يناقض ورعك؟

فأجابنى بثقة:

ـ للدنيا أسلوب فى المعاملة وللآخرة أسلوب آخر!

ـ ولكن الله لا يمكن أن يرضى عن تجويع الفقراء.

فقال باطمئنان:

ـ إنى أكفِّر بالصلاة والصوم والزكاة فماذا تريد؟

فقلت لأصحابى بعد انصرافه:

ـ الرجل يرتكب الإثم عن علم لا عن جهل أو نفاق!

فقال عيد منصور:

ـ ويثرى ثم يلجأ إلى الدين ليكفِّر فتتحول سرقاته بقدرة قادر إلى ربح حلال، الدين عند عم زهران هو المشجع الحقيقى على ارتكاب كافة الآثام!

ثم وهو يضحك عاليا :

ـ ولذلك فهو يسرق قوت الفقراء ويمضى ووجهه ينور بالإيمان والطمأنينة!

وكنت أتابعهم وهم يصلون فى المقهى بعين متأملة ساخرة، يركعون ويسجدون ويسدلون جفونهم خشوعا وامتثالا، وأتذكر كم أنهم أوغاد لصوص لا يحق لهم أن يبقوا ساعة واحدة فوق سطح الأرض. ولم أجد جدوى فى مناقشاته فدائما أراه مطمئنا واثقا من نفسه، يؤمن بالشر كما يؤمن بالخير، ويطيع الشيطان كما يطيع الله، ويتردد بينهما تردد التاجر الماهر فى السوق الحرة الذى يحرص فى النهاية على أن يزيد دخله على منصرفه. وجعلنى ذلك أتلمس وجوه الأعذار لأوغاد مثل خليل زكى وسيد شعير بل وعيد منصور ممن لم يتعاملوا معاملة جادة مع دين فانطلقوا فى الحياة بوحى غرائزهم وعقولهم العملية الجافة خلال أجواء من الصراع العنيف القاسى. ولذلك أيضا ترديت كثيرا فريسة لكآبة روحية معتمة كدت أرفض تحت وطأتها التجربة الإنسانية كلها. وكانت تلك المشكلة مدار أحاديث لا تنتهى بيننا. قال رضا حمادة :

ـ الظاهر أنه لا يوجد تاجر شريف!

فقال عيد منصور :

ـ لا يوجد إنسان شريف.

فتساءلت :

ـ ماذا عن دور الدين؟

وتساءل عيد منصور :

ـ لم نتمسك بالأخلاق ما دامت تقود إلى الفشل؟

وعاشت تلك المشكلة معى أعواما وأعواما حتى ناقشتها فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم، بدءا من نقد الواقع المصرى وانتهاء إلى دراسة الخير والشر فى ذروتها الفلسفية. ويدعونا ذلك إلى تذكر الدكتور إبراهيم عقل وفلسفته فى المثل الأعلى وسلوكه المناقض لفلسفته! وأذكر بالمثل قول الأستاذ سالم جبر :

ـ مهما يكن من أمر فلا يمكن تجاهل المرحلة التى قطعها الإنسان من الغابة إلى القمر!

أو قول رضا حمادة :

ـ توجد سجايا قيمة جديرة باسترداد الثقة، مثل تفانى الرجل فى خدمة أسرته، مثل الذكاء الوقاد المولع بالحقيقة، مثل بعض مواقف البطولة النادرة.

وقوله أيضا :

ـ لا تغال فى المثالية وإلا مت تقززا!

وأثرى زهران حسونة فى أثناء الحرب ثراء فاحشا فارتفع إلى مرتبة أصحاب الملايين.

وأسس شركة للمقاولات عام ١٩٤٥ ولكنى أغضيت عن التشهير به مذ قتل ابنه الطالب بكلية الهندسة فى معركة القنال عقب إلغاء معاهدة ١٩٣٦ . سار الرجل وراء النعش معتمدا على ذراعى صديقين محمر العينين شارد اللب . واقتصرت علاقتنا وقتذاك على تبادل المجاملات فى المناسبات ، ولكن عيد منصور وكّد لى أنه ما زال يجمع النقود ويؤدى الصلاة ، وكان أوثقنا صلة به بحكم أعماله التجارية . واستمر ازدهاره المالى فى صعود ، وأقام فى قصر المعادى ، وتزوج فى الخمسين من فتاة فى العشرين بحجة زهد زوجته الأولى فى المسرات الزوجية عقب وفاة بكريها . ولكن ظل الحج نزهته الروحية كل عام ، وازداد نشاطه بعد الثورة . لم يكن من الملاك الزراعيين . ولكن شركته أممت فيما أمم من شركات عام ١٩٦١ ، وهكذا تقوض ذلك البناء الشامخ الذى نحتت أحجاره من الذكاء والغش والإرادة والانتهازية والإيمان والفجور . وكان رضا حمادة يعلق على الأحداث بامتعاض شديد ، مؤكدا موقفه الثابت من الثورة ، فقلت له :

ـ ولكنك عرفت الرجل تماما .

فقال :

ـ ولو ، إنها مسألة مبدأ .

فقلت :

ـ ليست مسألة مبدأ ولا رجل ولكنه نظام بارك ذلك كله .

فقال بمرارة :

ـ انتظر حتى يتبين لك النظام الجديد ، لقد كان زهران حسونة فى البدء موظفا كهؤلاء الموظفين الذين انقضوا على شركته ليديروها !

ولما أفاق الحاج زهران من الصدمة باع قصره ففتح مقهى فى مصر الجديدة ، وضمن لنفسه مستوى من المعيشة لا بأس به . وهو يتظاهر دائما أمامنا بالشجاعة ورباطة الجأش ، ويعلق على الأحوال بعبارات ذات مغزى دينى مثل الحمد لله ، والأمر لله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، له فى ذلك حكمة ، ويذهب به الحذر أحيانا إلى الثناء على القرار الذى جرده من ثروته فيقول :

ـ عدالة علينا أن نقبلها على العين والرأس .

ولكن تفضحه أحيانا ومضات فرح للكوارث لا يحسن مداراتها ، مثل الأزمة الاقتصادية وورطة اليمن ، وأخيرا ٥ يونيو الذى دار رأسه فيه بنشوة النصر ! لقد لاطمتنى فى ذلك اليوم المشئوم تيارات متناقضة كاد يختل لها عقلى ، ولعله مما زاد إكبارى لرضا حمادة أن المأساة قصمت ظهره كما قصمت ظهرنا ، وأنه نسى فى ذلك اليوم كل شىء إلا حبه العتيد لوطنه .

زهير كامل

عندما التحقنا بالجامعة كان معيدا بقسم اللغة العربية تمهيدا لإرساله فى بعثة إلى فرنسا. وسمعنا عنه ثناء طيبا من الدكتورين ماهر عبد الكريم وإبراهيم عقل فقال الأخير عنه مرة:

- إنه مثال للفلاح إذا نبغ.

وحدثنى رضا حمادة عنه فقال:

- عرفته فى بيت الأمة خلال اجتماعات الطلبة وهو من سمنود ويعرف مصطفى النحاس معرفة شخصية.

وسافر فى البعثة عام ١٩٣٢ ثم رجع دكتورا عام ١٩٣٨ أو ١٩٣٩ فعين مدرس (ب) بهيئة التدريس الجامعية. وفيما بين تاريخ تعيينه وعام ١٩٥٠ تركز نشاطه الفكرى فى الجامعة والتأليف، فأصدر كتبه المعروفة عن نظريات النقد العامة. ونقاد من الشرق والغرب، ودراساته عن شكسبير وراسين وبودلير وإليوت والشعراء الأندلسيين. وكان يتردد على صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فتوطدت بيننا صداقة متينة. وتزوج فى أثناء الحرب من فتاة يونانية كانت تعمل فى محل ڤينوس فأنجب منها ولدين وبنتا. وكان أستاذا جامعيا بالمعنى الدقيق، يكرس حياته للبحوث الأكاديمية، ولا حديث له خارج مضامينها. فلم أعرف له اهتماما عاما آخر. وحاولت أحيانا أن أستشف فيه الطالب الوفدى القديم فلم أفلح، ولكنه بخلاف الكثيرين كان يتمنى النصر للحلفاء، ربما حبا فى الديمقراطية كما قال، أو ميلا مع عواطف زوجته، أو تعصبا لفرنسا التى عشقها من أعماق قلبه. وفى عام ١٩٥٠ فاجأنا بما لم نتوقع أبدا. فرشح نفسه على مبادئ الوفد فى إحدى دوائر القاهرة وفاز بأغلبية ساحقة، وأثار سلوكه تساؤلات كثيرة ولكن الدكتور ماهر عبد الكريم قال رغم تحفظه الشديد:

- إنه قرار يستحق الأسف.

وقال لى رضا حمادة:

- لعله يحلم بوزارة المعارف.

ولكن قد يطول الزمن حتى يتحقق الحلم فكيف يواجه أعباء الحياة بمعاش صغير ومكافأة النيابة التى لا تتجاوز الخمسين جنيها؟ قال رضا حمادة:

- ستخبرنا الأيام!

وأخبرتنا الأيام بأسرع مما تصورنا، فظهرت مقالاته السياسية فى الجرائد الوفدية، بل برز ككاتب سياسى من الدرجة الأولى، إلى مقالات فى النقد فى المجلات الأسبوعية. وحدث أن كان لزهران حسونة أعمال فى الحكومة تحتاج فى إنجازها إلى واسطة فطلب منا أن نقدمه إلى صديقنا النائب ففعلنا، ومن يومها توطدت بين الاثنين علاقة متينة. ثم مضت تترامى إلينا همسات عن تصرفات الدكتور زهير كامل غريبة بل مريبة. وقد سألت رضا حمادة يوما:

ـ ما رأيك فيما يقال عن زهير كامل؟

فأجابنى بامتعاض شديد:

ـ يقال إنه أصبح سمسار وظائف.

ثم وهو يهز رأسه فى أسف:

ـ ويقال إنه يقدم خدمات لزهران حسونة وإنه ينال عن خدماته مكافآت سخية.

ـ وهل صحيح ما يقال؟

ـ نعم للأسف الشديد، وإنى أتساءل أحيانا والحزن يمرر ريقى، أى فارق هناك بين الوفد وبين غيره من الأحزاب؟!

ـ ولكن هل تتصور أن زهير كامل نبذ الأستاذية فى الجامعة ليمارس النهب والفساد؟

ـ إنى أتصوره وغدا من البدء غير أنه كان يتحين فرصة لاستغلال مواهبه حتى وجدها فى السياسة.

وجلسنا يوما نتبادل الأحزان على صديقنا النابغة وحزبنا العتيد. ولما أقيلت حكومة الوفد عقب حريق القاهرة حاول الدكتور زهير الرجوع إلى الجامعة ولكنه لم يفلح. وواصل حياته ككاتب سياسى وناقد ولكنه بات ينظر إلى المستقبل بقلق وبخاصة وأنه كان اعتاد مستوى من المعيشة الرفيعة. واجتمعنا يوما عند الأستاذ سالم جبر، وكان منفعلا ويقول:

ـ ما هذا الذى يحدث بالوطن؟.. الملك جن، وكل شىء ينهار.

فقال الدكتور زهير كامل.

ـ ما أشبه حالنا السياسى بالدكتور إبراهيم عقل الذى بدأ باحثا نابها وانتهى بالدروشة!

وقال رضا حمادة:

ـ أصبح الوفد كزعيمه فهو شيخ هرم طيب يزحف عليه العجز والتدهور.

فقال سالم جبر:

ـ لا يمكن أن تدوم الحال على هذا المنوال فماذا عن الغد؟

فقال زهير كامل :

ـ ما زال الوفد أفضل الجميع وسيضطر الملك إلى استدعائه عاجلا إتقاء لانفجار ثورة شاملة !

فقال سالم جبر :

ـ الثورة أفضل من الوفد .

فقال رضا حمادة :

ـ وفى الانتظار الإخوان والشيوعيون .

فقال زهير كامل بحدة :

ـ لا أغلبية لهؤلاء أو أولئك .

فقال سالم جبر :

ـ الوطن غير مؤهل للشيوعية ولا عقيدة هناك جديرة باستيعاب الشباب المتفتت بين الثورة والانحلال !

وقامت ثورة يوليو متحدية كل تخمين . وسرعان ما وجد زهير كامل نفسه فى مأزق لم يعمل له حسابا . أغلقت دونه أبواب السياسة والجامعة وتحير ماذا يفعل وماذا يكتب . ولما اتجهت السياسة العامة نحو تصفية الأحزاب وتركز الهجوم عليها بصفة عامة وعلى الوفد منها بصفة خاصة باعتباره القاعدة الشعبية القديمة ، إذ بالدكتور يرمينا بالمفاجأة الثانية فى حياته ، فانقض بمقالات من نار على الوفد مرجعا إلى فساده كل فساد نخر فى عظام الوطن . وأثارت المقالات عاصفة من الغضب المكتوم فى صدور الوفديين ولكن أحدا لم يستطع أن يقلل من خطورتها لصدورها من رجل له تاريخه الجامعى الوقور فضلا عن اشتراكه فى برلمان الوفد الأخير . وتعين صحفيا فى إحدى الجرائد الكبرى ، وسرعان ما اعتبر قلمه من أقلام الثورة ، كما عهد إليه بتحرير صفحتها الأدبية فقاد نقد الأدب المعاصر . وبسبب مسئولياته الجديدة ، وربما خجلا من انقلابه المفاجىء تجنب إلى حين التردد على صالون الدكتور ماهر عبد الكريم . وتساءل الدكتور ماهر :

ـ ألم يكن الأفضل له أن يبقى فى الجامعة؟

وتساءل الأستاذ رضا حمادة :

ـ أرأيت ماذا فعل الوغد بنفسه؟

فقلت :

ـ لعل عذره أنه فعل ما فعل لحساب قوة وطنية لا شك فى وطنيتها .

وعاد زهير كامل للظهور فى مجالسه المفضلة كصالون الدكتور ماهر عبد الكريم

ومكتب سالم جبر فعدنا للتلاقى المنتظم كما كنا، وعاودت الاطلاع على فؤاده. قال:

ـ لم تكن ثمة جدوى من المقاومة، ولم أقاوم؟

وقال أيضا:

ـ كنت على وشك الإفلاس، ولكن لم يكن المال وحده هو الدافع فأنا مطمئن الضمير!

فقلت:

ـ إذن فأنت تؤمن بثورة يوليو؟

فقال وهو يتفحصنى بعينيه الذكيتين:

ـ إنها حركة مباركة منعت بقوتها الذاتية اشتعال ثورة لاحت مخالبها فى الأفق!

ـ يا لها من فكرة!

ـ وأعترف لك بأننى لست ثوريا، فكما لا أوافق على رجعية الإخوان فإنى لا أوافق أيضا على ثورية الشيوعيين، وأومن بالإصلاح الرزين الذى نتأثر خطاه، وهو طريق الوفد أيضا لو قيض لجناح شبابه أن ينتصر.

ولكنى لاحظت بدقة المراقبة أن عواطفه لم تنسجم تماما مع أفكاره، وأن تحمسه الظاهر كان لتبرير انقلابه قبل كل شىء. وعلى مدى الأيام اضطر إلى أن يعترف لى قليلا:

ـ ألم يكن الأفضل أن يتم ما تم بيد انتفاضة شعبية بقيادة شباب الوفد!

فقلت:

ـ المهم أن يتم ما تم.

فقال بعد تأمل:

ـ ولكن الإنسان لا يستطيع التخلص من عقليته الخاصة ولذلك فقل على الحرية السلام!

وكان الأستاذ رضا حمادة معتقلا فى ذلك الوقت فجاء ذكره فقال زهير:

ـ ربنا معه.

فقلت بثقة:

ـ إنى أعتقد ببراءته.

ـ لِمَ؟

ـ إنِى من أعلم الناس بنقاء أخلاقه.

ترى أضايقه قولى؟ . . على أى حال قال :

ـ على ذلك الجيل من السياسيين أن يتخذ من أستاذنا القديم إبراهيم عقل مثلا يحتذى .

فدهشت لقوله وقلت :

ـ الدكتور إبراهيم عقل يعانى حال دروشة كاملة وقد لمست ذلك بنفسى فى لقاء عابر معه بحى سيدنا الحسين!

ـ هذا ما أعنيه تماما ، فالدروشة هنا أسلوب لمواجهة الكوليرا التى قضت على ابنيه .

ـ ماذا تعنى؟

ـ أعنى إذا صادفتك كارثة يستحيل التغلب عليها فعليك بالدروشة ، أى نوع من الدروشة ، أما المقاومة غير المجدية فترمى بك إلى المعتقل!

وزهير كامل الناقد عانى انقلابا من نوع آخر فى نفس الوقت . فبكل استهانة مضى يتاجر بالنقد . مضى يتقبل الهدايا والنقود ويقيم الفن والفنانين تبعا لذلك . وبازدهار الحركة المسرحية والانتاج السينمائى تضاعفت أرباحه فشيد فيللته الأنيقة بالدقى واقتنى المارسيدس ، وبخلاف اعتداله القديم أفرط فى الطعام والشراب فزاد وزنه لدرجة أصبح من المتعذر معها التعرف عليه من أول نظرة . لم يبق من مزاياه القديمة إلا ثقافته الواسعة وذوقه المدرب فى شتى ألوان الفن . ورغم الثورية التى اتخذها مهنة كان إذا ذكر الوفد تجلى الحنين فى عينيه ، بل علمت أنه حمل صديقا رسالة خاصة إلى مصطفى النحاس يعتذر له فيها عما بدر منه فى حقه ، ويشرح له الظروف القاسية التى اكتنفت قراره . ولما أعلنت ثورة يوليو عن سياستها الاشتراكية توثب بهمته المعروفة لدراسة الاشتراكية ليؤيدها عن علم ويحتفظ لنفسه بمستواه ككاتب من كتابها الأول . وفى أعوام قلائل متتابعة ترجم أربعة كتب عن الاشتراكية ، ثم أصدر فى النهاية مؤلفه المعروف «اشتراكية هذا الوطن» . وفى هذه الناحية بالذات يئس من إقناعى بإخلاصه لسابق علمى بديمقراطيته الليبرالية . وقد سألته مرة ضاحكا :

ـ كيف انقلبت اشتراكيا بهذه السرعة الجنونية؟

أجابنى ضاحكا أيضا :

ـ الناس على دين أوطانهم .

ـ أتعتقد أنهم يصدقونك؟

ـ لم يعد أحد يصدق أحدا .

ثم قال والضحك يعاوده :

ـ المهم هو ما تقول وما تفعل!

واجتاحته موجة من الضحك ثم قال:

ـ يتساءلون كثيرا عن سر ازدهار المسرح، أتدرى ما هو سر ذلك؟ السر أننا صرنا جميعا ممثلين.. !

فقلت:

ـ وبالرغم من ذلك فقد حقق هذا العهد من الخير ما لم يحققه عهد سابق بلا استثناء!

فقال وهو يتنهد:

ـ وأصبح لكل شيء قيمة إلا الإنسان!

فتساءلت بمرارة شديدة:

ـ متى كان للإنسان قيمة فى بلادنا؟! على الأقل فهو يحرر اليوم من عبوديته الاقتصادية والطبقية والعنصرية وستجىء الخطوة الذاتية عندما يستحقها بجدارة!

وقد بلغ قمة سقوطه الأدبى عندما ألف رسالة صغيرة عن أدب «جاد أبو العلا»!. وكان جاد أبو العلا سعى إلى التعرف به حوالى عام ١٩٦٠ نفس العام الذى تعرف بى فيه. ورغم ذلك كانت الرسالة مفاجأة لى لم أتوقعها بحال. ومهما يكن الثمن الذى قبضه ـ قيل إنه طاقم تحف عربية وألف جنيه ـ فقد دل على أن صاحبى تمرغ فى السقوط حتى فقد إحساس الحياء الذى يصاحبه، وصدق عبده البسيونى عندما قال لى يوما فى حديث جرى لمناسبة الرسالة المذكورة:

ـ هذا كتاب لا يجرؤ على تأليفه إلا مومس!

وأوشك زهير كامل أن يعلن ارتداده فى ظرفين لولا حسن حظه، أولهما الاعتداء الثلاثى عام ١٩٥٦ والآخر النكسة عام ١٩٦٧، ففى كل مرة خيل إليه أن الثورة صفيت وانتهت فتوثب للعمل لمستقبله من جديد. ووضح لى فى المرتين مدى ما ينطوى عليه من انتهازية وزيف، بالرغم من أنه يدين للثورة بجاهه وماله. وقارنت بينه وبين رضا حمادة، فكلاهما يتمتع بثقافة إنسانية عميقة وشاملة، وكلاهما من الجيل السياسى السابق الذى أجهضته الثورة، وكلاهما ينتمى إلى عقيدة معادية للاشتراكية، ولكن أحدهما يحتوى على طوية عفنة تتقزز منها الحشرات، والآخر تستقر فى أعماقه روح نبيل يستحق الفرد من أجله أن يقدس ويعبد. وفى العام التالى للنكسة دهمته أحداث فى صميم أسرته لم تخطر له ببال، إذ صمم ابناه المهندسان على الهجرة إلى كندا! ولم يستطع أن يثنيهما عن عزمهما، أما أمهما فمالت إلى تشجيعهما، وما لبث الشابان أن حققا رغبتهما بالفعل. وحزن زهير لذلك حزنا شديدا وراح يقول لى:

ـ أنا فلاح. ومن طبيعة الفلاح حبه لالتصاق أبنائه به.

فسألته عما دعاهما للهجرة فقال :

ـ الأمل فى مستقبل أفضل .

وهز منكبيه فى أسف وقال :

ـ لم يعد للوطن قيمة ، تركاه فى محنة قاسية ، عن عدم اكتراث أو يأس ، وجريا وراء الأمل الخلاب .

واجتاحه غضب مفاجىء فقال :

ـ عقلى معهما ، ولكن قلبى يتوجع .

وأما كريمته فقد أحبت شابا يونانيا وهى فى رحلة إلى اليونان بصحبة أمها . وبكل بساطة تزوجت منه هازئة بكافة التقاليد . وجعلت زوجته تتردد بين القاهرة وأثينا حتى استقرت بصفة نهائية فى موطنها الأصلى قبيل انقضاء العام . ووجد الدكتور زهير كامل نفسه وحيدا فى الستين ، مريضا بالسكر والضغط . . وهو فى ذلك يشبه رضا حمادة غير أن هذا خلق نهايته بنفسه متجاوزا كافة أحزانه ، أما زهير فعانى مرارة الوحدة والسأم والهجر . ويوما سألنى عبده البسيونى فى صالون جاد أبو العلا :

ـ هل تعرف نعمات عارف؟

فأجبت بالنفى فقال :

ـ هى صحفية تحت التمرين .

ـ وماذا يعنينى من ذلك؟

فقال ضاحكا :

ـ إنها عشيقة الدكتور زهير كامل!

ـ زهير كامل! . . إنه شيخ فى الستين أو أكثر .

ـ ستسمع عن زواجهما فى القريب .

وسمعت . وعرفت العروس وهى جميلة فى العشرين . وركن الأستاذ معها إلى اللهو والراحة فلم يمسك بالقلم إلا لكتابة يومياته الأسبوعية فى الموضوعات اليومية العامة مقلعا عن مراجعة الكتب والمراجع . ولكن مرضه استفحل حتى أقعده بصفة نهائية فى الفراش ، فأطفأ الشعلة المضيئة الوحيدة فى حياته المعتمة ، شعلة العقل . ومازلنا نزوره من حين لآخر ، فتدور المناقشات فى حجرة نومه ، ويشارك هو فيها بسمعه أو ببضع عبارات موجزة فقدت إشاراتها الذكية وأفكارها الموحية ، لتذكرنا بأن لكل شىء نهاية .

سابا رمزى

زاملنا فى المدرسة الثانوية. زاملنا عامين ثم اختفى. وبالرغم من أن زمالته ترجع إلى عام ١٩٢٥ فمازلت أتذكر بوضوح عينيه اللوزيتين الحادتين وقامته القصيرة لحد الرثاء. وكان رياضيا متفوقا فى القسم المخصوص والكرة. كان الجناح الأيمن لبدر الزيادى وكان تبادل الكرة بينهما يشكل خطرا على أى فريق نلاعبه. لذلك اكتسب فى المدرسة شهرة واحتراما رغم قصر قامته. وكنا فى أوقات الفراغ نقرأ المنفلوطى معا ونستظهر ما نختاره من جمله الموسيقية. وحدثته مرة عن روايات ميشيل زيفاكو فتجهم وجهه وسألنى:

ـ أصدقت ما جاء فى رواياته عن البابوات؟

فقلت ببراءة:

ـ ولم لا أصدقها؟

فقال بنبرة تحذير:

ـ إنه عدو للكاثوليكية ولذلك فهو يتعمد تشويه سمعة البابا.

عرفت لأول مرة أسماء جديدة كالكاثوليكية والبروتستنتية والأرثوذكسية. وتحيرت بينها حتى أخبرنى زميلنا ناجى مرقس أن المذهب المسيحى المصرى هو الأرثوذكسية وأن المبشرين أفسدوا بعض الأقباط فجروهم إلى اعتناق الكاثوليكية أو البروتستنتية. وراح جعفر خليل يداعب سابا رمزى قائلا:

ـ الآن عرفنا أنك قبطى فاسد!

وجعفر خليل هو الذى أفشى سره فقال لنا يوما:

ـ فيكم من يحفظ السر؟

فتساءلت أعيننا باهتمام فعاد يقول:

ـ الجناح الأيمن سابا رمزى يحب مدرسة بمدرسة العباسية للبنات!

وراقبناه عقب انصراف المدرسة فرأيناه وهو يتبعها فى طريقها حتى مشارف باب الشعرية. وكنا يوما نقرأ بالتبادل فى مجدولين فلاحظت تهدج صوته حتى كف عن القراءة من شدة التأثر. وشعر بعينى فوق جفنيه المسدلين فتمتم:

ـ رأيتكم وأنتم تتبعونى!

ثم بمزيد من التأثر:

ـ أنا أحب مثل ستيفن وأكثر!

ووجد منى مشاركة وجدانية إذ كنت عاشقا مثله فقال:

ـ سأحبها مهما يكن الثمن!

فقلت له بعطف:

ـ ولكنها مدرسة ومازلت تلميذا صغيرا.

فقال بإصرار:

ـ الحب أقوى من كل شيء.

وقال:

ـ إنى أحاول محادثتها ولكنها تتجاهلنى، يقال إن ذلك أسلوب من الدلال، ما رأيك؟

ـ لا أدرى.

ـ كيف أعرف إن كانت تحبنى أو لا تحبنى؟

ـ لا أدرى..

ـ هل نسأل جعفر خليل وبدر الزيادى؟

فقلت محذرا:

ـ كلا.. إنهما يحبان المزاح وسيجعلان منك نادرة!

واستمرت مطاردته اليومية للمدرسة بلا نتيجة، وأخذت ثقته بنفسه تضعف ويغلبه الحزن. وشهدنا عصر يوم منظرا ليس من السهل أن يمحى من الذاكرة. رأيناه يعترض سبيل المدرسة بجرأة ويقول لها:

ـ من فضلك..

فمالت عنه ناحية وسارت فى طريقها فتبعها وهو يقول:

ـ لابد من كلمة..

فهتفت به غاضبة:

ـ لا يمكن أن احتملك إلى الأبد.

فقال بتوسل:

ـ اسمعى كلمة بكل أدب.

ـ دعنى وإلا ناديت الشرطى.

وابتعدت تسير بخطوات غاضبة سريعة. وقف ينظر إليها بذهول. وبحركة سريعة

غير متوقعة دس يده فى جيبه . فاستخرج مسدسا فسدده نحوها وأطلق النار! صرخت الفتاة صرخة فظيعة وارتفع وجهها إلى السماء فى حركة متشنجة ثم تهاوت على ظهرها . وجعل سابا ينظر إليها ، ذراعه مدلاة ، ويده ما تزال قابضة على المسدس . وظل كذلك حتى قبض عليه . وفاضت روح الفتاة قبل مجىء الإسعاف . وعرفنا فيما بعد أن سابا سرق مسدس أخيه الضابط فى الجيش ليرتكب جريمته عند اليأس ، ولم ندر عنه شيئا بعد ذلك ، ولم نره مرة أخرى . لقد طبع فى خيالنا صورة لا تنسى ثم ذهب .

سالم جبر

عرفت اسم سالم جبر ككاتب مقال بجريدة كوكب الشرق عام ١٩٢٦ . كان بدر الزيادى أول من نوه به أمامى فوصف كتابته بالبلاغة والفائدة . ووجدته داعيا متحمسا للحضارة والاستقلال الاقتصادى وتحرير المرأة كما دعا إلى اتخاذ القبعة غطاء للرأس بدلا من الطربوش . وكان حقوقيا ولكنه لم يشتغل بالقانون ، وكان يقوم بجولة ثقافية فى إنجلترا وفرنسا كل عام تقريبا . ولما قامت ثورة ١٩١٩ اشترك فيها ضمن طلبة مدرسة الحقوق . وأصيب برصاصة فى كتفه يوم الهجوم على الأزهر ، ثم عمل فى الصحافة الوفدية ، وظل يعمل فى الصحافة حتى اليوم . وتغير موقفه السياسى بعض الشىء منذ تولى سعد زغلول الوزارة عام ١٩٢٤ . وقد قال لى يوما بعد أن جمعتنا صداقة متينة ملقيا ضوءا على تلك الفترة من حياته :

ـ كان من رأيى ألا يتولى سعد زغلول الوزارة ، وأن يظل الوفد وراءه فى الميدان الشعبى حتى تتحقق رسالة الوفد الوطنية .

فسألته :

ـ خرجت وقتذاك على الوفد؟

ـ كلا ولكن تحول اهتمامى الحقيقى إلى ناحية أخرى .

أجل ، تحول إلى اعتناق الشيوعية . وعرف بذلك منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم . ولم ينس أنه صحفى فى جريدة الوفد ، فتجنب مناقشة الموضوعات الجديرة بإحراج الزعيم ، واختط لنفسه منهجا خاصا فى الكتابة ينفس به عن عقيدته الجديدة بطريق غير مباشر ، ولا يتنافى فى مظهره مع سياسة الوفد ، فراح يدعو إلى حرية المرأة والعلم والصناعة . وتقدم خطوة أخرى فألف رسالة فى المذاهب الاقتصادية مؤرخا ضمنا للاشتراكية! وحوالى عام ١٩٣٠ أصدر رسالته الثانية عن «كارل ماركس ورسالته» ، وسرعان ما

صادرتها السلطة، وتعرض بسببها لحملة عاتية من الجهات المحافظة التى اتهمته بالإلحاد والفوضوية. تعرفت به وأنا طالب بالجامعة فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بالمنيرة، وكنا نلتقى كثيرا بالصالون أو فى مكتبه بالجريدة.

وقدمت إليه من زملائى رضا حمادة وجعفر خليل. وكنا نتحادث فى السياسة والاشتراكية، ولم نفتح صدورنا لما قال عن صراع الطبقات ودكتاتورية الطبقة العاملة، وقلت له:

ـ اشتراكية تجيء عن طريق البرلمان، هذا ما أحلم به!

فقال متحديا أفكارى:

ـ أنا عدو للوفد!

ـ أنت تقول ذلك؟

ـ ونصير للملك وأحزاب الأقلية.

فضحكت غير مصدق فقال:

ـ الوفد أفيون الشعب!

ثم وهو يضرب مكتبه بقبضة يده:

ـ الوفد هو المسئول عن استسلام الشعب لأحلام لن تتحقق أبدا، وسيعجز دائما عن تقديم أى خدمة حقيقية للشعب، أما إذا سيطر الملك وأحزابه، واستشرى الفساد واستوطن، يئس الشعب وتوثب لثورة حقيقية!

فسألته:

ـ وما جدوى ذلك والإنجليز يكتمون أنفاسنا؟

ـ توقع المعجزات عند اليأس.

وآنس الدكتور إبراهيم عقل منى ميلا لترديد بعض آراء سالم جبر فقال لى:

ـ احذر فلسفة سالم جبر الكاذبة!

فأخذت بموقفه وقلت له:

ـ الحق أنى أول ما سمعت عنكم كان لدى قراءة مقال له يدافع فيه عنكم!

فقال ساخرا:

ـ لم يكن دفاعا ولكن كان إحراجا فهو لا يرضى عن مفكر إلا إذا أشهر إلحاده أو فوضويته.

وكان ذلك بحضور الأستاذ عباس فوزى ـ بصالون المنير.

فقال عباس منضما للأقوى كعادته:

ـ إنه رجل فاجر ومن آى ذلك أنه لا يؤمن بالزواج !

فقلت بدهشة :

ـ ولكنه متزوج وقدمنى للمدام فى حديقة الأورمان !

فقال عباس فوزى ضاحكا :

ـ إنها عشيقته ، وهى أرملة فرنسية ، فكيف تجهل ذلك؟

وتوكّد لى أنها عشيقته بعد ذلك ، وظل مخلصا لها حتى توفيت عام ١٩٦٠ . وروى لى حكاية غرامهما الأستاذ عبد الرحمن شعبان المترجم فقال إن المرأة كانت زوجة لمهندس فى شركة الكهرباء ، وإنها أحبت سالم جبر فى حياة زوجها . فلما توفى اتفقا على المعاشرة دون زواج . وكانت امرأة حرة وشيوعية مثله . أملاكها فى مصر ولكنها تحب السفر كثيرا إلى فرنسا . وتكره فكرة الإنجاب .

وألف سالم جبر كتابا عن الدين المقارن قبيل الحرب العظمى الثانية ، عرض فيه الأديان بأسلوب علمى موضوعى ، فأثار الكتاب ضجة . واتهم صاحبه بالافتراء على الدين الإسلامى . ومن أجل ذلك قدم الأستاذ إلى المحاكمة . ولكن المحكمة برأته وصادرت الكتاب . وفى أثناء الحرب شن حملات صادقة على النازية والفاشستية كان لها صدى حسن فى دار السفير البريطانى .

ودعى لإلقاء محاضرات أسبوعية فى الإذاعة ، وقلت له بمكتبه بجريدة المصرى :

ـ يقولون إنك أصبحت من أصدقاء السفارة البريطانية .

فقال ساخرا :

ـ لا عداوة تدوم ولا صداقة ، أعترف بأننى فى هذه الحرب حليف للإنجليز !

فقلت له :

ـ يبدو أن نجمهم آخذ فى الأفول !

فقال بحدة :

ـ لا خوف من انتصار النازية حتى إذا انتصرت فإن للتاريخ قوانينه وهى أقوى من الحرب والنصر .

ولما جاءت حكومة الوفد عمل معها بإخلاص كشأنه قبل أن يتولى سعد زغلول وزارته ، ولما زحفت جيوش رومل نحو الحدود المصرية هرب مع الهاربين إلى السودان . ثم رجع عقب انقلاب الميزان ليواصل جهاده الصحفى . وأذكر أنه جلس بينى وبين رضا حمادة فى مأتم المرحوم جعفر خليل عام ١٩٥٠ فحدثنا عن أفراح الوطن بعودة الوفد ولكنه قال :

ـ لم يعد بوسع حزب من الأحزاب مهما تكن شعبيته أن يواجه الموقف .

وتكلم عن الولايات المتحدة باعتبارها روح الشر فى العالم ، قال :

ـ لا نجاة للعالم إلا بالشيوعية العالمية .

ولما انصرف قال لى رضا حمادة :

ـ لا يوجد إنسان كهذا الرجل يجمع الكل على بغضه !

فقلت بصدق :

ـ ولكنه رجل ذو عقيدة ومنزه عن الأغراض .

ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ تكشف ذلك البناء المنطقى المنسجم مع ذاته عن تناقضات كالخيال فى غرابتها . وهو فى الظاهر لعب الدور المنتظر منه . كان حقيقة فكرية واضحة للصديق والعدو . عمل فى جريدة الثورة واضعا قلمه فى خدمتها . ولكنه تكشف لخاصته المقربين عن حزمة من المتناقضات جعلت منه فى النهاية شخصا مجهول الهوية . تحمس لإلغاء النظام الملكى تحمسا لا مزيد عليه واعتبره معجزة من المعجزات ، ولكنه همس فى فتور :

ـ ذهب الملك وحل محله عدد غير محدود من الملوك !

وفرح بالقضاء على الإقطاع وتحديد الملكية الزراعية ولكنه قال :

ـ المسألة هى ملكية أو لا ملكية ، أما توزيع الأرض على الفلاحين فمن شأنه أن يقوى غريزة الملكية المتوارثة من عصور الظلام !

ولما حلت الأحزاب التى طالما حمل عليها حزن على الوفد حزنا غير مفهوم وقال :

ـ وكيف تمضى البلاد بلا قاعدة شعبية ؟

وقال أيضا :

ـ التضحية بالحرية فعل مؤقت معقول من أجل الشيوعية ولكننا نسير بلا حرية ولا شيوعية !

ولما حاربت الحكومة الشيوعيين والإخوان المسلمين قال :

ـ ها هم يقضون على القوى الإيجابية فى الأمة فلا شيوعية ولا إخوانية ولا أحزاب فعلى من يعتمدون فى تحقيق سياستهم ؟ ولم يبق إلا الموظفون المأجورون وسيقيمون بنيانهم على قوائم من قش .

حتى الشيوعيون أنفسهم لم يكونوا بأحظى عنده من غيرهم ، وما نالوا عطفه إلا فى فترات الاعتقال أو السجن ، وسرعان ما يرميهم بالتفسخ والانحلال والسقوط ، واقتنعت أخيرا بأنه شخص غريب خلق ليكون معارضا ، حبا فى المعارضة قبل كل شىء ، فإذا

كانت الدولة إقطاعية فهو شيوعى. وإن تكن يساريه فهو محافظ. أجل محافظ! فعندما ساند الاتحاد السوفيتى الثورة وعاونها فى الحرب والسلام، سمعت منه ما لم يجر لى على بال. قال مرة والحنق يلتهم قلبه:

ـ الشيوعية نظام عظيم حقا ولكن ما هو الإنسان الشيوعى؟.. هو شيء ميكانيكى لا إنسان حى!

وبغير حياء سألنى مرة:

ـ لمَ يود الناس أن يهاجروا إلى الولايات المتحدة؟

فأَجبت بسخرية واضحة:

ـ لأنهم يجدون هناك الخبز والحرية!

فقال بامتعاض:

ـ لا قيمة للحياة بلا حرية فلا تكن متعصبا.

فقلت وأنا أضحك:

ـ أنت الذى علمتنى ذلك!

فقال بمزيد من الامتعاض:

ـ متنا.. متنا.. فمتى نبعث؟

وقلت له بشيء من الصراحة:

ـ أحيانا يتعذر فهمك.

فقال بحدة:

ـ أنا واضح كالشمس ولكنكم اعتدتم الشروح المطولة والهوامش وهوامش الهوامش!

وقد علمت بوفاة صديقته الفرنسية عرضا فى بار الأنجلو بعد مرور أيام على وفاتها فبادرت إلى زيارة مسكنه بشارع قصر النيل ولكنى وجدته مغلقا لا يرد، ولم أجده بمكتبه بالجريدة كذلك، ثم تبين أنه سافر عقب دفنها إلى أسوان فخلا إلى نفسه شهرا كاملا. ولما قابلته بعد ذلك وجدته يمارس حياته بنشاطه المعهود ولكن مسحة من الكآبة طبعت وجهه بطابعها فلم تفارقه دهرا طويلا. ولم يكن يحب الخوض فى شئونه الخاصة، فلم يحدثنى بكلمة واحدة عن حبه أو أسرته أو طفولته، وكأنه إنسان عام فحسب، عام فى الظاهر والباطن، فى الحضور والغياب. وسألته مرة:

ـ ألم تأسف مرة على أنك لم تتزوج ولم تنجب؟

فأجاب بسخرية:

ـ الندم عادة دينية سخيفة.

ولكنى شعرت - إن صدقا وإن وهما - بأنه يعانى مرارة الوحدة فى الشيخوخة . وحفلت تلك الفترة من حياته بالمناقشات الحادة التى بلغت فى أحايين كثيرة حد المصارحة الجارحة فى مخاطبة أصدقائه . قال مرة لرضا حمادة :

- عليك أن تعترف بأنك رجعى ترسب فى مجرى الزمن .

وقال مرة أخرى للدكتور زهير كامل :

- أنت لا تنقد ولكنك تقتل القيم .

وسأله جاد أبو العلا عن رأيه فى أدبه فأجابه على مسمع منا :

- من الخير لك أن توفر وقتك لتجارة التحف !

وكان من بين الذين سروا فى أعماقهم بالكارثة التى حلت بالوطن فى ٥ يونيو ١٩٦٧ ! وهو موقف غريب ولكن تبناه جميع أعداء الثورة ، وشاركهم فيه ذلك الرجل الشاذ الذى خلق ليعارض الدولة وليقف منها موقف النقيض دائما وأبدا . قال منفسا عن حقده :

- ما جدوى أن نتحرر من طبقة لنقع فى قبضة الدولة الفولاذية؟ السلطة الحاكمة أثقل من الطبقة ، أثقل من الشيطان نفسه !

ولكن الثورة لم تتلاش ، بل مضت تضمد جراحها وتجدد حيويتها وتتأهب لمعركة جديدة . ومضى هو يحنق من جديد ويتمزق بين المتناقضات ، وإن حافظ فى الظاهر على شخصيته التى عرف بها منذ عام ١٩٢٤ وإن ظل قلما أمينا من أقلام الثورة . ورغم بلوغه السبعين من عمره ، ورغم وحدته وخلوه من روح الدعابة ، فهو يتمتع بصحة جيدة ونشاط موفور . ولعله المصرى الوحيد من معارفى الذى لم أسمعه يمزح أو ينكت أبدا ، ولا عرفت له هواية فنية ، حتى الغناء لا يتذوقه . والأدب النادر الذى يطلع عليه يقرأه قراءة سياسية خاصة كأنه خلق شاذ مقطوع الصلة بالإمتاع والجمال . وركز فى الأيام الأخيرة على الإيمان بالعلم ، إيمانا نسخ إيمانه القديم بالأيديولوجية ، ويتساءل مرارا :

- متى يحكم العلم؟ . . متى يحكم العلماء؟ !

هذه هى آخر هتافاته ، وهى خليقة بإشباع معارضته الأزلية لجميع أنواع الدول ، حتى قال رضا حمادة :

- إنه رجل مجنون ، هذه هى الحقيقة !

فقلت :

- وثمة حقيقة أخرى وهى أن أقواله التى تنكر لها خلقت فى أجيال أثرا لا يمحى !

سرور عبد الباقى

من أصدقاء العباسية. وكان أبوه محاميا ذا شهرة ومال. وكانت أمه قوية الشخصية تحكم بيتها بسيطرة لا تقاوم فخضع لها الأب والابن والبنتان. وكانت بخيلة فيما بدا. تساوم الباعة المتجولين بلا رحمة، ومن أجل مليم واحد تلغى صفقة. وتزن مشترياتها فى ميزان خاص ابتاعته لذلك. وظهر أثر ذلك كله فى سلوك سرور بيننا بالتهذيب والأدب والاقتصاد. وكانت علاقته بنا ذات نوع خاص، فهو لا يفارقنا، وهو لا يندمج فينا، ويتجنب مشاركتنا فى مزاحنا الطليق ونكاتنا اللا أخلاقية. وتذاكرنا يوما مطربة جديدة هى أم كلثوم فقال سرور عبد الباقى:

ـ سمعتها فى فرح وأعتقد أن صوتها أحلى من صوت منيرة المهدية!

فكبر علينا ذلك وقال جعفر خليل:

ـ صوت منيرة يعلو ولا يعلى عليه.

وانتهره خليل زكى، رغم عدم اهتمامه بالغناء، قائلا بوقاحته المعهودة:

ـ لا تردد آراء أمك بيننا!

وغضب سرور عبد الباقى وصاح به:

ـ لا شأن لك بأمى يا قليل الأدب.

وجاء الرد فى صورة لطمة، ثم اشتبكا فى معركة حتى فصلنا بينهما. وكان تلميذا مجتهدا، ولكن نجاحه كان دائما دون اجتهاده. والحق لم نكن نؤمن بذكائه! وأوشك يوما أن يقسمنا فريقين، إذ طالب بشدة بالتزام الأدب فى السلوك والكلام، قال:

ـ يا جماعة.. يجب ألا تتردد بيننا كلمة بذيئة وأن نتعامل باحترام.

وفى الحال شخر خليل زكى وسيد شعير فى وقت واحد تقريبا، فعاد سرور يقول:

ـ وإلا سأضطر إلى مقاطعتكم!

فقلت بجزع لحبى له:

ـ اقترح ما تشاء ولكن لا تفكر فى المقاطعة.

وقال رضا حمادة:

ـ كلامه يستحق التقدير!

فقال جعفر خليل:

ـ البذاءة فى الكلام كالملح فى الطعام.

وقال عيد منصور:

ـ يا جماعة أنا لا أستطيع أن أذكر والد أحدكم أو أمه إلا إذا قرنته بالسب المناسب.

وقال شعراوى الفحام محذرا:

ـ يا جماعة إذا خلت اجتماعاتنا من قلة الأدب فقل عليها السلام!

وتداولنا فى الأمر باهتمام جدى ثم تم الاتفاق على مواصلة المعاملة الحرة فيما بيننا مع استثناء سرور عبد الباقى فيعامل معاملة مؤدبة خاصة.

وكان يتخذ من السياسة موقفا مماثلا فلا يتعامل معها على الإطلاق ولا يهتم بها، حتى المظاهرة السلمية التى زحفت على ميدان عابدين تأييدا لسعد زغلول رئيس الوزراء لم يشترك فيها. ويوم الإضراب الذى قتل فيه بدر الزيادى تخلف سرور فى بيته. ورغم رشاقته ووسامة وجهه الأسمر تجنب البنات ولم يلعب بعينيه هنا أو هناك وكان يشعر دائما بأن عينى أمه تراقبانه وتتبعانه حيث ذهب. والأوقات التى كنا نخصصها للقراءة كان يقضيها فى حديقة بيته ممارسا هوايته فى رعاية الزهور أو رفع الأثقال. ومن فترة مبكرة وضح ميله لدراسة الطب ولكن نجاحه فى البكالوريا لم يحقق له المجموع المطلوب، ولذلك أقنع والديه بوجوب الالتحاق بكلية الطب فى لندن. وكان المتبع أن تقبل الكلية المصرية الطالب إذا نجح عامين فى انجلترا. وسافر إلى انجلترا فدرس الطب عامين بنجاح ثم رجع إلى مصر فالتحق بكلية الطب، وناقشنا تلك الواقعة يوما فقال رضا حمادة:

ـ ليس سرور غبيا كما توهمنا وإلا ما نجح فى انجلترا!

فقال عيد منصور:

ـ وليس نظام القبول بكلية الطب المصرية سليما كما يظن.

فقال جعفر خليل:

ـ وليست الفرصة متكافئة بين الأغنياء والفقراء!

وتخرج سرور عبد الباقى فى الكلية عام ١٩٣٦، وتزوج بعد أربعة أعوام من فتاة من أسرة كبيرة، وتقدم فى عمله عاما بعد عام حتى عد من كبار الجراحين فى مصر، وربح من ذلك أموالا طائلة فشيد عمارة كبيرة فى وسط المدينة وبنى لنفسه فيللا غاية فى الجمال بالمعادى. ولم يتخل يوما عن مبادئه الأخلاقية حتى عرف بأخلاقه وإنسانيته كما عرف ببراعته. وهو طبيب مثالى، مهارة فى العمل، وغزارة فى العلم، ورحمة بالمرضى، وبعدا عن الجشع والاستغلال. وهو محبوب جدا من طلابه. وكثيرا ما خاض معارك حادة فى مجلس الكلية بسبب مثاليته التى لا تعرف المهادنة، وبالرغم من علمه الواسع

وتجربته الفذة ظل طفلا ساذجا بالنسبة للثقافة والعقائد والسياسة ولم ينعم بأى نظرة شمولية للمجتمع الذى يتألق فيه كنجم من نجومه. ومرت به الأحداث الكبرى وهو منها بمأمن لا تعنيه فى شىء حتى قامت ثورة يوليو بثقلها الاجتماعى فشدته من مأمنه لأول مرة، بدأ يهتم بهذه الثورة التى تتعرض للأرزاق وتغير الأوضاع، وتسلل إليه قلق لم يعرفه من قبل. وطبق نظام الإصلاح الزراعى على زوجته فطارت من ملكية أسرته خمسمائة فدان بجرة قلم. وذهل الرجل الذى تعود على تقديس المال والملكية، ونبض قلب أسرته بالعداوة، وعد هو ضمنا من الأعداء. ولذلك لم يتعين عميدا للكلية رغم استحقاقه العلمى لها فامتلأت نفسه بالمرارة والحزن. قال لى:

ـ فكرت طويلا فى الاستقالة للتفرغ لعيادتى الخاصة.

ثم قال بإخلاص أنا أول من يقدره:

ـ ولكنى لا أحب أن أتخلى عن واجبى العلمى!

وبدءا من ذلك التاريخ مضى يهتم بالحياة العامة، والسياسة بصفة خاصة ـ التى تجنبها طوال حياته ـ بعد أن غزته فى صميم داره. وكنا نقابله فى نادى المعادى على فترات متباعدة كلما سمح وقته المشحون بالعمل. وكنت أنا ورضا حمادة الصديقين اللذين استمرت علاقتهما به. وثمة آخر هو خليل زكى اتصل به دون صداقة حقيقية بحكم عمله فى قصر العينى. ولكنه كان يذكر الجميع بقدر من الحنان، وقد حزن لمصرع شعراوى الفحام ووفاة جعفر خليل وضياع سيد شعير، فإذا ذكر عيد منصور ضحك قائلا:

ـ شيلوك!.. عليه اللعنة!

وفى تلك الأثناء ساء حظ رضا حمادة فأصيب فى وحيده وزوجته، فوثق بينهما سوء مصير واحد على تفاوته بينهما. وبعد صفقة السلاح المشهورة مع تشيكوسلوفاكيا جزع الدكتور سرور عبد الباقى وقال:

ـ هذه هى الخطوة الأولى نحو الشيوعية!

فلما كان الاعتداء الثلاثى وما أعقبه من انسحاب القوات المعتدية، جعل يلتمس العزاء فى طوايا الموقف. قال:

ـ لولا الولايات المتحدة لقضى علينا.

فقلت:

ـ بل الإنذار الروسى.

ولكنه رفض ذلك بشدة وقال:

ـ يحسن بنا ألا نفرط فى الصداقة الأمريكية بعد اليوم.

ولما أعلنت القوانين الاشتراكية اجتاحه الرعب وغشيته كآبة ثقيلة ثابتة.

قلت له :

ـ إنك صاحب مهنة ولن تعرف الفقر .

فقال :

ـ لم يعد لشيء قيمة .

ثم قال :

ـ زوجتي تنصحني بالهجرة .

فقال له رضا حمادة :

ـ لا داعي لذلك على الإطلاق .

فقال :

ـ الاشتراكية تعبير عن الحقد على المتفوقين . . وقد استولى حكامنا على السلطة بقوة السلاح لا العلم .

فسأله :

ـ وما رأيك في مشكلة الفقر في مصر ؟

فأجاب بسذاجة :

ـ كل يتقرر موضعه على قدر طاقته وتلك هي حكمة الله سبحانه !

فأدركت أنه مهما يكن من علم الإنسان أو أخلاقه فلا غنى له عن الوعي الثقافي المتضمن طبعا الوعي السياسي . وأنه مهما يكن من تفوقه وبراعته وفائدته فلن يعتصر من ذاته إمكاناتها الإنسانية حتى ينظر إلى نفسه لا باعتباره جوهرا فردا مستقلا ولكن باعتباره خلية لا تتحقق لها الحياة إلا بوجودها التعاوني في جسد البشرية الحي . لذلك بدا الدكتور سرور بجسمه القوي ووجهه الوسيم ومهارته العلمية الخارقة ، بدا متدهورا مترنحا لا لشيء إلا لأن يدا أخذت من فائض الذين يملكون كل شيء لتضميد جراح الملايين الجائعة . وشد ما جزعت عندما آنست في نبرته شماتة عقب هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ، عندما لم يحسن مداراة فرحته بما ظنه النجاة . وناقشت ذلك الموقف مع الصديق كامل رمزي فقال :

ـ لا تدهش ولا تجزع ، الأفضل أن تعرف الحقيقة مهما تكن غريبة وقاسية ، ثمة جانبان يتصارعان بلا هوادة يقف في أحدهما الروس والاشتراكيون العرب وطوائف الشعب التي وجدت في الاشتراكية جنتها الموعودة ويقف في الآخر الأمريكان وإسرائيل والذين رأوا في الاشتراكية ردعا لطموحهم وجشعهم .

فسألته :

ـ والوطن والوطنية؟

فأجاب:

ـ تغير مفهوم الوطن ومضمونه، لم يعد أرضا ذات حدود معينة ولكنه بيئة روحية تحدها الآراء والمعتقدات!

سعاد وهبى

تلك الزميلة الجامعية التى عاشت فى كليتنا عاما واحدا ولكنها بهرت خيالنا عهدا طويلا. كانت الزميلات عام ١٩٣٠ قلة لا يتجاوزن العشر عدا. وكان يغلب عليهن طابع الحريم، يحتشمن فى الثياب ويتجنبن الزينة ويجلسن فى الصف الأول من قاعة المحاضرات وحدهن كأنهن بحجرة الحريم بالترام. لا نتبادل تحية ولا كلمة وإذا دعت ضرورة إلى طرح سؤال أو استعارة كراسة تم ذلك فى حذر وحياء، ولا يمر بسلام فسرعان ما يجذب الأنظار ويستثير القيل والقال ويشن حملة من التعليقات. فى ذلك الجو المتزمت المكبوت تألقت سعاد وهبى كأنها نجم هبط علينا من الفضاء. كانت أجمل الفتيات وأطولهن وأحظاهن بنضج الجسد الأنثوى. ولم تقنع بذلك فلونت بخفة الوجنتين والشفتين، وضيقت الفستان حتى نطق، وتبخترت فى مشيتها إذا مشت، وكانت تتعمد أن تدخل القاعة متأخرة بعد أن نستقر فى مجالسنا ويتهيأ الأستاذ لإلقاء محاضرته، ثم تهرول كالمعتذرة فيرتج ثدياها النافران فتشتعل الفتنة فى الصفوف وتند عنها همهمات كطنين النحل. وعرف اسمها وجرى على كل لسان، ونحتت له الأوصاف والأسماء فهى «أبلة سعاد» و«كلية سعاد» و«بانت سعاد». وكانت بخلاف زميلاتها غاية فى الجرأة، تواجهنا بثقة لا حد لها، ولا تخفى إعجابها بنفسها، وتناقش الأساتذة بصوت يسمعه الجميع، وبالجملة تحدت الزمان والمكان. وقال محمود درويش:

ـ إنها غانية لا طالبة.

وقال لى مرة جعفر خليل:

ـ ترى كيف كانت وهى تلميذة مراهقة بالمدرسة الثانوية؟ فاتنا نصف عمرنا.

فقلت:

ـ لم تلتحق بالكلية إلا لاصطياد عريس!

ـ أو عشيق!

وجرت عنها الأخبار لا أدرى إن كان مصدرها الواقع أم الخيال .

ـ إنها من حى اليهود بالظاهر ، ولدت وترعرعت فى جو من الحرية الجنسية المطلقة !

ـ وأسرتها منحلة ، الأب والأم والأخوات .

ـ وهى امرأة لا عذراء مجربة للسهر والسكر والعربدة !

وتشجع جعفر خليل بذلك فحاول أن ينشىء معها علاقة ولكنه صد ولم يفلح . وصد غيره ولم يفلح . ومع ذلك فلم تضن بصداقتها على طالب إذا التزم بحدود الأدب . وطبقت شهرتها الآفاق الجامعية فجاء طلبة من كلية الحقوق للمشاهدة والمعاينة . وكانت فى الأدب الانجليزى تتلو أحيانا ما تيسر من مسرحية عطيل فتلقيه إلقاء مسرحيا ناعما يسحر الألباب . فحتى الأستاذ الإنجليزى أعجب بها وعاملها معاملة ودية خاصة . وأخذ الطلبة الوقورون ـ الريفيون خاصة ـ يناقشون الظاهرة السعادية ويتساءلون عن عواقبها الوخيمة . وسرت عدوى اهتمامهم إلى الدكتور إبراهيم عقل الذى يفرض بقامته المديدة رعاية أبوية على الطلبة والمثل العليا معا . وانتهز فرصة اضطراب قاعة المحاضرات لارتجاج الثديين النافرين وجعل يسلط سحر عينيه الزرقاوين على الجميع حتى ثابوا إلى الرشد والسكينة ، ثم قال :

ـ يجب أن يوجد فرق هائل بين قاعة المحاضرات بجامعتنا وبين صالة بديعة !

فضجت القاعة بالضحك فى غير موضعه .

ثم وهو يهز رأسه بطربوشه الطويل :

ـ تذكروا أننا جميعا ـ نساء ورجالا ـ هدف لمجهر الناقدين وأن جمهرة منهم لم تسلِّم بعد بمبدأ اختلاط الجنسين فى الجامعة ، بل بمبدأ تعليم الفتاة تعليما عاليا .

وفى نهاية المحاضرة استدعى سعاد وهبى لمقابلته فى حجرته ، وخمَّنا موضوع الحديث وتنبأنا بنتيجته المحتومة ، وكثيرون شعروا مقدما بالأسف لحرمانهم الوشيك من الإثارة اليومية الفاتنة . وغادرت سعاد وهبى حجرة الدكتور متجهمة الوجه ، ولما رأت جموع المنتظرين فى الخارج قالت بحدة وبصوت مسموع متحد :

ـ لن أسمح لأحد بمصادرة حريتى الشخصية .

وأصرت على التمتع بحريتها حتى فوجئنا بصدور أمر بفصلها من الكلية ! وفرح البعض وأسف البعض أسفا عابرا بالرغم من اجتماع كلمة الجميع على مقاومة الحكم السياسى الرجعى الذى بطش بحرية الوطن . وجاء والد الفتاة لمقابلة العميد ، ومازال به حتى حمله على سحب قرار الفصل بعد أن تعهد له بتحقيق مطالبه . وأعجب ما سمعت عن رجوع سعاد حدثنى به جعفر خليل ، إذ سألنى باسما :

ـ أما سمعت بالسر وراء عودة سعاد؟

فسألته بدورى :

ـ أى سر ؟

ـ يقال إن وزير المعارف أوصى العميد بها .

ـ ولكن وزير المعارف رجل رجعى كثير التشدق باحترام التقاليد؟

ـ ويقال أيضا إنه على علاقة بالفتاة .

على أى حال عادت سعاد . وعندما هلت علينا بعد انقطاع استقبلناها بالتصفيق . رأينا وجهها الطبيعى لأول مرة وكان وسيما أيضا ، ورأينا فستانها يحتشم طولا وعرضا لأول مرة أيضا ، أما ثدياها فلم يستطع تعهد الوالد بتغيير موضعهما ولا فتنتهما فظلا نافرين يتحديان العميد والتقاليد جميعا .

ويوما قال أحد الطلاب :

ـ أمس رأيتها مع الرجل الإنجليزى بالحديقة اليابانية بحلوان .

وانتشر الخبر فى الكلية ، وسألها صديق عنه فأجابت بأنها قابلته هناك مصادفة فسارا معا يتحادثان . توكد الخبر . وبلغ جميع المسئولين فى الكلية . ولكن نجمت عن ذلك مشكلة تحدت الجميع بقحة لا مثيل لها . لم يكن من المستطاع اتخاذ إجراء مع المدرس خشية إغضاب دار المندوب السامى ، ولا كان من المستطاع معاقبة الطالبة خشية إغضاب المدرس! وأدركنا الموقف بكافة أبعاده السياسية والنفسية . وقال جعفر خليل بروحه الساخرة :

ـ إنجلترا زادت من تحفظات ٢٨ فبراير تحفظا جديدا خاصا بسعاد وهبى .

وقال آخر :

ـ الأسطول البريطانى يهدد باحتلال الجمارك إذا تعرضت سعاد لأى ضغط .

وقيل فى الموقف أشعار كثيرة من أصحاب المواهب من الطلبة . وتبودلت السخريات على مسمع من العميد نفسه . ولكن فى بداية العام الدراسى الجديد وجدنا الموقف مختلفا . فالمدرس الإنجليزى لم يرغب فى تجديد عقده ، وسعاد لم ترجع إلى الكلية . أين ذهبت سعاد؟ قيل إنها سافرت مع المدرس الإنجليزى ، وقيل إنها تزوجت ، وقيل إنها أصبحت غانية فى شارع الألفى . ومع كثرة تقلبى فى أنحاء القاهرة فلم تقع عليها عيناى منذ ذلك التاريخ البعيد .

سيد شعير

كان زعيم الجماعة من أصدقاء العباسية . أجل كان خليل زكى يماثله فى القوة أو يفوقه ولكن الزعامة لا تقوم على القوة وحدها لابد لها من أساس مكين من الحب . وكان سيد شعير محبوبا كما كان كريما ، وفى أوقات اللعب كان مهرجا . وفى ليالى رمضان كان نجما لامعا . ولا مفر من عقد المقارنات بينه وبين خليل زكى دائما ، فكلاهما قوى سريع العدوان غير أن خليل ينطلق من شراسة إجرامية على حين ينطلق سيد من المجون والاستهتار ، وكلاهما لم يوفق فى الدراسة الابتدائية ، وكلاهما وظفه أبوه فى دكانه ، وكلاهما طرد من رعاية أبيه غير أن خليل طرد لشراسته على حين طرد سيد لسلوكه مع النساء من زبائن المحل . وبطرف عينه الماكرة اكتشف الهوى بينى وبين حنان ، وراح يداعبنى ساخرا من ترددى ، حتى قال لى يوما :

ـ كلام فارغ ، غرامك كلام فارغ .

ولم أحب أن يجعل من حبى سخرية من سخرياته ولكنه قال :

ـ اسمع نصيحتى وواعدها فى غابة التين الشوكى .

وفى مساء الأربعاء من كل أسبوع ـ فى العطلة السنوية ـ كان يدعونا إلى بيته فى آخر شارعنا من ناحية بين الجناين حيث يقام ذكر فى الفناء فنجلس على أريكتين متقاربتين نتابع الأناشيد الدينية ونشاهد حركات الذاكرين ونحتسى الشاى والقرفة ، وكلما ابتعد أبوه عن مجالنا روى لنا ما يحفظ من النوادر الماجنة عن أهل الذكر ! بقدر ما كانت أسرته متدينة بقدر ما كان مستهترا وبقدر ما حيرنى فى فهمه . ولما يئس من مواصلة الدراسة فى المدرسة الابتدائية عمل فى دكان أبيه فى الغورية . وفى العطلة السنوية كنا نذهب إليه فى المغارب ، ولما يغلق الدكان يمضى بنا فى أنحاء الحى الحسينى ، من عطفة إلى عطفة ، ومن مقهى إلى مقهى ، فعرفنا بإرشاده مجاذيب الباب الأخضر والفيشاوى والمدق وخان الخليلى واستمعنا إلى أذان على محمود ومواويل العربى ، وعلمنا ـ ونحن فى السنة الأولى من المدرسة الثانوية ـ تدخين الجوزة والبورى والنارجيلة ولعب النرد والدومينو . كانت تلك الأيام من أسعد أيام سيد شعير ، كان يعيش فى بيت والده وينفق راتبه على مزاجه الخاص ويتشبه بالرجال وهو فى الرابعة عشرة من عمره . ونشأ الخلاف بينه وبين أبيه بسبب النساء من زبائن المحل . ومرة غازل امرأة وكان زوجها فى الخارج فنشبت بينهما معركة وسرعان ما فصل أبوه بينهما وانهال على ابنه ضربا أمام الناس ، ففقد سيد

عقله وصب غضبه على البضائع من أوان زجاجية ومعدنية وقوارير العطر وغيرها . وطرده الرجل، طرده من دكانه ومن بيته فانقطع ما بينهما إلى الأبد . اقترحنا أن نوسط آباءنا فى الإصلاح بينهما ولكن سيد رفض ذلك بإباء وقال :

ـ سجن البيت لم يعد يناسبنى ودنيا الله واسعة .

وكنا نظنها نزوة غضب ولكن الأيام أثبتت لنا أنه بحق رجل الدنيا الواسعة وأنه ذو قدرة غريبة على تمزيق الأواصر العائلية ونبذها من حياته كأنها نفاية من النفايات . وقد حرت فى تعليل ذلك فى وقتها ولكنى أدركت فيما بعد أنه كان مراهقا منبوذا وسط ثلاثة إخوة ناجحين، عمل أحدهم مع والده بعد حصوله على التجارة المتوسطة وواصل الآخران تعليمهما بتفوق ساحق . وقال لى بكبرياء :

ـ إن أى تاجر فى الحى يتمنى أن يستخدمنى !

فقلت له مخلصا :

ـ ولكن حكاية النسوان حكاية خطيرة .

فقال ساخرا :

ـ المرأة تتسكع بين دكان وآخر التماسا لغمزة عين أو كلمة حلوة أما البيع والشراء فلا يحدثان إلا فى المواسم !

وعمل بالفعل فى محال كثيرة حتى خنقت الأزمة الاقتصادية التجارة فاستغنى عنه فيمن استغنى عنهم ووجد نفسه وحيدا بلا مورد ولا أهل ولا أمل . ولم يكن بوسعنا أن نقدم له ـ ونحن تلاميذ ـ أى مساعدة ناجعة، ولكنه كان صديقا لصاحب مقهى فى مرجوش يعمل فى الوقت نفسه تاجر مخدرات بالجملة فعرض عليه أن يشتغل موزعا بالنسبة وسرعان ما قبل . وأخبرنا بذلك فى مباهاة طفولية فذعرنا وقال له سرور عبد الباقى :

ـ أنت مجنون .

وقال له رضا حمادة :

ـ لن يكون ذلك أبدا .

ولكنه سخر من ذعرنا ورجانا فى الوقت نفسه أن نخفى الأمر تماما عن خليل زكى الذى كان يمقته . واندفع فى طريقه باستهتار غريب فانتشل نفسه من الجوع والكرب . وفى الخطوة التالية عرف السبيل إلى أحياء البغايا لا كهاو، ولكن كمحترف، وعاشر امرأة وأقام معها فى بيتها، ودعانا إلى الطواف بمملكته الجديدة . تخلف عن الدعوة سرور عبد الباقى، وذهبنا إليه مدفوعين بحب الاستطلاع والرغبات المكبوتة وسحر المغامرة . وذكرت فى الحال تجربتى القديمة مع قريبى أحمد قدرى، وعثرت على البيت،

ودهشت للوجوه الجديدة التى طالعتنى . ومضى سيد شعير بنا فى تلك الدروب كما فعل من قبل فى الحى الحسينى ولقننا كافة تقاليدها وأسرارها ، وسهرنا فى مقاهى الأنس ومجالس المعلمات والفتوات والبلطجية والبرمجية ، حتى باتت أغانيها الخليعة وأناشيدها الساخرة ودعاباتها الفاضحة ورقصاتها العارية ، باتت تعزف فى رؤوسنا كالسحر الأسود وتسكب فى قلوبنا عصير الأفراح والمآسى . وانضم بقدرة قادر إلى زمرة رجال الأعمال فافتتح مقهى فى وجه البركة امتاز بالأناقة والخمور الرخيصة وعازف أرغول يشنف آذان السكارى ومدمنى المخدرات من الزبائن . وكان يديره بحزم الفتوات وابتسامة التجار المحترفين ، مرتديا بدلة كالأفندية إشارة إلى أصله العريق المختلف عن أصول أصحاب المقاهى من أهل البلد البرمجية . ولما قامت الحرب العظمى الثانية تضاعفت أرباحه من المقهى غير أن رفيقته هجرته فيمن هاجر من حى البغايا من المومسات الجميلات اللاتى آثرن العمل فى المشارب الليلية استغلالا للجنود البريطانيين ، فلم يبق فى الحى إلا النسوة الميئوس منهن ممن تقدم بهن العمر أو ذبل جمالهن . وتدهور الحى القديم فلم يعد صالحا لارتياد الأفندية ، ولم نعد نرى سيد شعير إلا كل حين ومين . وقد جمعنا مأتم شعراوى الفحام ، ومرة أخرى اجتمع فى ركن من السرادق جعفر خليل وخليل زكى ورضا حمادة والدكتور سرور عبد الباقى وعيد منصور وسيد شعير وأنا .

اجتمع أصدقاء العمر بعد أن نقصوا واحدا ، وهم فى ذروة الشباب ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من العمر ، وقد عرف كل سبيله ، المدرس والموظف والمحامى والدكتور والتاجر والقواد والبرمجى وتاجر المخدرات . وجعلنا نرثى صديقنا الراحل فنقول :

ـ ترك فراغا لن يسد .

ـ ما أجمل ذكرياته .

عاش ضاحكا ومات ضاحكا .

ـ راهن طيلة عمره على حلم لا يريد أن يتحقق .

وعاتبنا سيد شعير على انقطاعنا عن زيارته فاعتذرنا له بأن الحى القديم لم يعد بالمكان المناسب .

فقال بازدراء :

ـ اخص على أصلكم .

ثم بأسف :

ـ رحم الله شعراوى ، كان الوحيد المواظب على زيارتى .

وبعد انتهاء الحرب بأعوام تقرر إلغاء البغاء الرسمى فاضطر سيد إلى الظهور فوق

سطح الأرض مرة أخرى. رجلا فى الأربعين، يملك بضعة آلاف من الجنيهات، وذخيرة كبيرة من التجارب الفاسدة. واجتمعنا فى مقهى الفيشاوى. فقال له رضا حمادة:

ـ أمامك فرصة طيبة فابدأ حياة صحية جديدة!

فضحك سيد قائلا:

ـ ما أقبح الوعظ والإرشاد.

وقرر أن يستجم فترة من الزمن. أقام فى فندق بالموسكى يدار بطريقة مريبة. وأسرف فى تعاطى المخدرات والخمور، واصطياد بنات الهوى ممن هن فى حكم المومسات، أما نهاره فيمضيه فى لعب الكومى وتدخين النارجيلة. وظل خارج الزمن تماما فيما يتعلق بجميع الأحداث كحرب فلسطين وحريق القاهرة وثورة يوليو. وتزوج وهو فى الخمسين من تاجرة مخدرات مات زوجها فى السجن وكانت فى الأربعين من عمرها. وبالرغم من شدة العقوبات التى فرضتها الثورة على تجارة المخدرات فقد تاجر فيها بكل استهانة وبغير تقدير للعواقب. وقد شيد لنفسه بيتا كبيرا فى طرف الدراسة على حافة الخلاء المفضى إلى جبل المقطم وسط حديقة مساحتها فدان زرعها بالنخيل والأعناب والجوافة والليمون والحناء والياسمين، وأثثه بالأثاث الشرقى، وأقام فوق سطحه حظائر الدجاج والأوز والأرانب.

واجتمعنا بكامل هيئتنا مرة أخرى فى مأتم زوجة رضا حمادة، وغادرنا المأتم معا ـ أنا وسيد ـ حوالى منتصف الليل فسرنا معا نتحادث. وسألته برجاء:

ـ ألم تجمع من الثروة ما يغنيك عن تجارة المخدرات؟

فأجاب باستهانة:

ـ إنى أربح كثيرا وأنفق أكثر.

ـ ولكنك لا تقدر العواقب.

فقال لى وهو يربت على كتفى:

ـ طظ فى العواقب!

ثم قال بحسرة:

ـ هل تذكر رفيقتى القديمة التى هجرتنى أيام الحرب؟.. سمعت أنها أنجبت منى ولدا ولكنى لم أعثر لهما على أثر!

فسألته:

ـ أتحب أن يكون لك ولد؟

فضحك متجاهلا سؤالى، ثم قال:

ـ أنا سعيد بزوجتى ولا أفكر فى الزواج من أخرى!

ثم ضحك عاليا وقال:

ـ والزواج من أخرى يعنى بالنسبة لى الخراب أو التأبيدة!

وتنهد وهو يقول:

ـ كل شىء يهون بالقياس إلى ما وقع لصديقنا الشهم رضا حمادة!

فقلت مستعيدا حزنى كله:

ـ إنه أعظمنا شخصية وأسوأنا حظا.

فقال بحنق:

ـ قارن بين حظه وحظ ابن القديمة خليل زكى!

ـ أى نعم، يا لها من مقارنة ساخرة.

ـ ذلك هو الحقير الشرير أما أنا!.. ما عيب تجارة المخدرات؟!

ـ المسألة إنى أخاف عليك العواقب.

ـ فلنذكر عاقبة رضا حمادة الذى لم يتاجر فى المخدرات قط!

وأصر على اصطحابى إلى بيته العامر بالدراسة. ولكن ندر اللقاء بيننا. وربما مرت أعوام دون لقاء على الإطلاق. أو يقع لقاء مصادفة فى مقهى الفيشاوى. ولا أنسى يوم أقبل علىّ فى الأسبوع التالى للنكسة. كنت جالسا وحدى أجتر الهم الثقيل الذى لم أعرف له نظيرا من قبل. سلم وجلس ثم بادرنى متسائلا:

ـ هل يقضى احتلال سيناء على التهريب حقا؟!

أحنقنى سؤاله. اعتبرته غاية ما بعدها غاية فى الاستلقاء خارج الزمن. وأدرك بذكائه استيائى فسكت. ومضى يدخن النارجيلة صامتا.. ثم تمتم:

ـ كعادتك دائما لا شىء يهمك مثل السياسة ووجع الدماغ.

فسألته بضيق:

ـ الظاهر أنك لم تسمع بما وقع؟

فقال وهو يشكم رغبته فى السخرية:

ـ سمعنا وشفنا العجب!

ولقيته بعد ذلك بعامين فى مكتب عيد منصور. رأيته فى صورة جديدة، منتفخ الوجه والبطن، يشى منظره بحال مرضية لا شك فيها ولا فكرة لى عنها، فسألته:

ـ كيف حالك؟

فأجاب ببساطة مذهلة:

ـ بخير كما ترى!

ـ ولكنك لست كعادتك!

ـ سبحان الذى لا يتغير!

فضحك عيد منصور قائلا:

ـ أخيرا عرف ربنا.

فسألته:

ـ ألم تستشر طبيبا؟

فتساءل بدوره:

ـ أتؤمن حقا بالأطباء؟!

ـ لم أذهب ولا مرة واحدة إلى طبيب ولم يدخل معدتى دواء!

ولما غادر المكتب ضحك عيد منصور وقال:

ـ يبدو أن جنازة وشيكة ستجمع شملنا من جديد!

شـــرارة النحـــال

عرفت شرارة النحال أول عهدى بالوظيفة الحكومية. كان عامل التليفون، فى العشرين من عمره، ومن حملة الابتدائية حديثا. وكان يلفت النظر بجمال وجهه ورشاقة قده ورقة شمائله. رأيت عم صقر الساعى يمازحه مرة فيقول له:

ـ اخلع بدلتك وارتد فستانا وأنا أضمن لك عريسا فى ظرف أربع وعشرين ساعة!

وخلت درجة سابعة لوفاة شاغلها فاشتعلت أفئدة كتبة الدرجة الثامنة تطلعا إليها. ولم يكن ثمة قانون ينظم الترقيات، كما كانت الشهادة العليا لعنة على حاملها لما تثيره من حنق فى صدور الرؤساء من حملة شهادة الابتدائية القديمة، وفزع كل موظف من الفئة الثامنة إلى من يعرف من الكبراء والشيوخ والنواب فانهالت بطاقات التوصية على وكيل الوزارة، ووجدت أنا شفيعا ـ فى ذلك السباق ـ فى شخص زميلى القديم عبده البسيونى عضو مجلس النواب، وقابلنى الأستاذ طنطاوى إسماعيل فى الممشى خارج السكرتارية فاستوقفنى متجهما وسألنى:

ـ أما علمت بالذى رقى إلى الدرجة السابعة؟

فقلت وقلبى يخفق:

ـ كلا .

ـ أسرع بتهنئة شرارة النحال!

فهتفت :

ـ شرارة النحال؟!

ـ نعم .

ـ عامل التليفون؟!

ـ نعم .

ـ ولكنه بالابتدائية ووظيفته خارج الهيئة!

فرفع الرجل رأسه إلى فوق وقال :

ـ اللهم فاشهد، مازال بمصر أناس يحتكمون إلى المنطق!

ثم مضى إلى حجرته. وذهبت إلى إدارة السكرتارية فوجدت أن الترقية أصبحت خبر اليوم دون منازع .

ـ هل سمعتم عن عامل تليفون فى الدرجة السابعة؟

ـ من قال إنه عامل تليفون؟ . . لقد انتدب للعمل بمكتب وكيل الوزارة .

ـ وكيل الوزارة على سن ورمح؟

ـ وكيل الوزارة على سن ورمح!

وتساءلت :

ـ كيف . . ولماذا؟

فقال لى الأستاذ عباس فوزى همسا :

ـ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا . .

وقال لى عم صقر الساعى وهو يقدم لى القهوة :

ـ لا تدهش يا بك، حضرتك موظف جديد نسبيا هذا هو كل ما هنالك، والمسألة أنه كان تقرر ترقية موظف آخر، ولكن شرارة طلب مقابلة سعادة وكيل الوزارة، ولما طرد من سكرتاريته انتظر فى الممشى حتى إذا خرج الوكيل فى وقت الانصراف رمى بنفسه بين يديه وقال بلهجة تمثيلية كأنه فاطمة رشدى إنه مسئول عن أسرة كبيرة وإنه لا واسطة له بعد الله إلا سعادته، ونظر إليه الوكيل نظرة عابرة لا تخلو من ضيق وامتعاض. غير أن شيئا فى وجه شرارة جعله يعيد إليه النظر باهتمام، ولبث ينظر إليه كأنما لا يريد أن يسترد بصره .

وسكت الساعى وهو يبتسم بخبث فساورنى الشك. غير أنى سألته :

ـ أى شىء تقصد؟

فانسحب الرجل من أمام مكتبى وهو يهمس باسما :

ـ فى العشق ياما كنت أنوح!

ونقل شرارة النحال إلى مكتب الوكيل بصفة نهائية للعمل فى أرشيفه . وتغير منظره الخارجى ليناسب وظيفته الجديدة فارتدى بدلة جديدة أنيقة بدلا من القديمة الرثة ، ولبس حذاء أسود بدلا من النعل المطاط ، وتزين عنقه بكرافتة حريرية عليها طابع الأبهة وأطل من طرف جاكتته الأعلى منديل مزركش . وصرنا إذ تقابلنا تبادلنا التحية تبادل الأنداد لا تبادلها القديم بين موظف وآخر فى حكم السعاة . ولعله كان على وعى بما يدور عنه ولكنه لم يكترث له ، إما لأنه كان مكشوف الوجه . أو لأنه آمن بأن مركز القوة خليق بمحق المعايب وإخراس الألسنة . وفى ظرف عامين عين شرارة سكرتيرا خاصا للوكيل مع ترقية إلى الدرجة السادسة . وتهامس الموظفون بشتى التعليقات كالعادة ، وقال لى الأستاذ عباس فوزى :

ـ ستراه عما قريب ضمن الهيئة الحاكمة!

وسرعان ما عرف فى الوزارة كأهم شخصية فى مكتب الوكيل ، أهم من مدير المكتب نفسه ، فصار كعبة لطلاب الحاجات من الموظفين والأهالى . وانهالت عليه الهدايا أشكالا وألوانا . وأصبحت ابتسامته أو تحيته هدية يفاخر بها المتلقى وهو يحمد الله المنان . وحدث أن تولى وزارتنا وزير من «أهل ذلك» فانفجرت أزمة لم تجر لأحد فى خاطر ، بالرغم من أن الوزير والوكيل كانا ينتميان إلى حزب واحد . ودبر المؤامرة موظف كبير من محاسيب الوزير كان يتحين الفرص للانتقام من الوكيل لإساءة سبقت منه إليه ، فحدث الوزير حديثا مغريا عن سكرتير الوكيل «الجميل» . ورتب لقاء بين الوزير والسكرتير لعرض أوراق طلب الوزير الاطلاع عليها . وقيل إن الوزير اقتنع بكفاءة السكرتير من النظرة الأولى ، وأن السكرتير رحب بتقدير الوزير ترحيب شاب ليس لطموحه حد . وأبلغ الوكيل برغبة الوزير فى نقل سكرتيره إلى مكتبه فثار غضبه وصارح مبلّغه بأنه لا يستغنى عنه . وغضب الوزير بدوره فأصدر أمرا بنقل شرارة إلى مكتبه فما كان من الوكيل إلا أن اعتكف فى قصره . وقيل إن رئيس الحزب وبخ الرجلين ، وإنه حذرهما من تسرب خلافهما إلى الصحف الوفدية ، فرجع الوكيل إلى عمله كاظما غيظه . وتتابع صعود شرارة النحال فرقى إلى الخامسة مع قيده على الرابعة ـ وترامى المستقبل أمامه فسيحا باهرا . غير أنه لم يشق طريقه معتمدا على جماله وحده ، أو أن جماله لم يكن ميزته الوحيدة . فكان إلى ذلك ذكيا عالى الهمة مزودا بأكثر من سبب من أسباب النجاح . ففى أثناء عمله المرهق انقلب من جديد تلميذا مجتهدا ، وحصل من

«منازلهم» على شهادات الكفاءة فالبكالوريا وأخيرا ليسانس الحقوق. وعلق عباس فوزى على اجتهاده متهكما وجادا فى آن فقال :

ـ ليس كغيره من أمثاله، فهم اعتمدوا على جمالهم وحده وهو خاصية تفقد قيمتها سريعا بالتقدم فى العمر. لذلك تجدهم الآن كهولا منسيين فى الدرجة الرابعة أو الثالثة على الأكثر، أما صاحبنا فيعد نفسه للمناصب الرفيعة!

وكموظف يعتبر من أكفأ الموظفين الذين عرفتهم فى حياتى، همة فى العمل وجلدا عليه وحسن تصرف فيه، فهو مرجع من المراجع الهامة فى الإدارة، ومن ناحية أخرى اشتهر بالطموح والأنانية، والقسوة فى معاملة مرءوسيه من زملائه القدامى، فلم يغفر لأحدهم هفوة أو زلة لسان. وكان قدرا كبيرا من سعادته لا يتحقق إلا بإذلالهم والتمثيل بهم. واستقالت الوزارة وهو فى الدرجة الثالثة مديرا لمكتب الوزير. وتولى الوفد الحكم. وأحيل الوكيل إلى المعاش قبل أن يتمكن من الانتقام من محبوبه القديم. وهرع الحاسدون إلى الوزير الجديد فاتهموا مدير المكتب بالحزبية المضادة والشذوذ الأخلاقى. ودافع شرارة عن نفسه باستماتة فقال إنه «موظف» وموظف فحسب، ولاؤه أولا وأخيرا للعمل، وإخلاصه لمن يعمل فى خدمته. وتقرر نقله مديرا للمحفوظات، وهى وظيفة خلفية لا مجال فيها للطموح، ومع ذلك فقد عكف على دراسة نظام الأرشيف وأعاد تنظيمه على أسس جديدة مما بث فيه حياة لم يحظ بها من قبل. ودعا الوزير لتفقده فأعجب الرجل باجتهاده وأثنى عليه. وإذا به ينشر مقالة فى جريدة المقطم بعنوان «وزير وفدى يثنى على خصم من خصوم الوفد»، نوه فيها بعدالة الوزير وإخلاصه وإيثاره للمصلحة العامة وكيف أنه شجعه بدل أن يبطش به، وختمها بقوله: إن الإنسان ليحتاج إلى قوة خارقة لتمنعه من الارتماء فى أحضان الوفد.

وحدثنى الأستاذ عباس فوزى بأنه كان فى حضرة الوزير عندما استدعى شرارة النحال لشكره وأنه قال له :

ـ من أين لك بهذا الأسلوب البليغ؟

فما كان من شرارة إلا أن قال على الفور :

ـ إنه فضيلة يا صاحب المعالى اكتسبتها من حفظ خطب خالد الذكر سعد زغلول باشا!

ونقل شرارة النحال مديرا للمستخدمين ثم رقى إلى الدرجة الثانية قبيل إقالة حكومة الوفد. وفرح الحاسدون وقالوا «الدب وقع»، فهاهو الوزير السابق يعود ومعه الوكيل أيضا، فما عسى أن يصنع شرارة النحال؟ وتوقعنا أن نشهد خاتمة الرجل، ولكنا فوجئنا جميعا بترقيته إلى الدرجة الأولى مديرا عاما للإدارة!

ـ ما معنى هذا؟

ـ ماذا جرى فى الدنيا؟!

ومضت الأخبار تتسرب كنقط الماء، عرفنا ما خفى علينا. فطيلة عهد الوفد لم ينقطع شرارة عن زيارة وزيره السابق سرا، وكان ينفذ له رغائبه دون أن يدرى أحد. وأكثر من ذلك سعى سعيه حتى صالح بين الوزير السابق والوكيل المحال إلى المعاش؟ فلما رجعا قال بكل ثقة:

ـ رجع عهدنا العتيد!

وقيل أيضا أنه راح يعطى دروسا خصوصية لابن الوزير الوفدى الطالب بكلية الحقوق. غير أنه بفطنته أدرك أن ميزان القوة الحقيقى مضى يتركز فى السراى، وأن السراى خير وأبقى لمن أوتى بعد نظر حقيقى. وعليه ألف كتابه الوحيد «صانعو مصر الحديثة» أرخ فيه لمحمد على وإسماعيل وفؤاد، وأهداه إلى السدة الملكية. وجاءه من الديوان الملكى جواب شكر نشر فى جميع الصحف. وقال لزميله وغريمه عدلى المؤذن:

ـ الآن أصبحت من رجال السراى ولن يفكر حزب فى التنكيل بى.

وفى أواخر أيام الحرب تزوج من أسرة محترمة، فأنجب بنتا وولدا، كانا ـ مثله ـ آيتين فى الجمال. وقد تزوجت الفتاة من سكرتيره، أما الشاب فعمل ضابطا فى الجيش. وعقب انتهاء الحرب العظمى الثانية وقبيل إجراء انتخابات لمجلس الشيوخ استدعانى فى مكتبه، وتعطف فسمح لى بالجلوس أمام مكتبه وقال لى:

ـ انتخابات الشيوخ غاية فى الأهمية، ولو فاز الوفديون لحق لهم تغيير العهد كله..

فنظرت إليه متسائلا فواصل قائلا:

ـ إنى أفكر فى إرسال اسمك ضمن المرشحين لرئاسة اللجان الانتخابية...

فابتسمت ولم أنبس فقال:

ـ ستجد فى الدائرة رجلا من رجال حزبنا..

فسألت بخبث:

ـ أى حزب؟

فضحك عاليا حتى احتقن وجهه الوردى بالدم ثم قال:

ـ لا أهمية للحزب، المهم الولاء لصاحب العرش!

فقلت بقلق:

ـ لا خبرة لى بذلك العمل..

ـ أغمض عينيك ودع المأمور يعمل، لن يطلب منك أكثر من ذلك.

فوجمت وهو ينظر لى ثم قال متأسفا:

ـ الحق أنى رشحتك لما أعهده فيك من خلق طيب ولكنى لن أثقل عليك .

ونهض مادا يده فصافحته وغادرت الحجرة . وأسفرت نتيجة الانتخابات عن نجاح عشرة من الشيوخ الوفديين فى أربع وأربعين دائرة استعملت فيها جميع صنوف الضغط والإرهاب والتزوير كالعادة ، فحمدت الله على أننى لم أشترك فى تلك الجريمة التاريخية المدبرة .

وقد اختلفت الأقوال فى نزاهته فمن قائل إنه كان نزيها بالرغم من عيوبه الكثيرة ، ومن قائل بأنه لص أريب شديد الحذر . ومعروف أنه امتلك ڤيللا جميلة فى حلوان وعمارة فى الدقى ، ولكنه كان يردد دائما بأنهما اشتريا بأموال زوجته . ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ قدم إلى لجنة التطهير بناء على ما قدم فيه من عرائض ولكن الظاهر أنه لم يثبت عليه ما يدينه ، فاستمر فى عمله . وقيل إنه استمر بفضل شفاعة ابنه الضابط والله أعلم . ورقى بعد ذلك وكيلا للوزارة ، ثم عين رئيسا لمؤسسة عقب تطبيق القوانين الاشتراكية . وتسلل إليه ا لحزن مرتين ، مرة عندما أصيب ابنه برصاصة غير قاتلة فى حرب اليمن ، ومرة عندما أصيب زوج كريمته إصابة عشواء ـ وهو جالس فى مقهى ـ فى مظاهرات الطلبة التى تفجرت عقب هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ . ولم أره منذ غادر الوزارة ، وانقطعت عنى أخباره إلا فيما تسوقه المصادفة بين الحين والحين . وآخر ما سمعت عنه من صديق رآه فى مكة عام ١٩٧٠ وهو يؤدى فريضة الحج .

شعراوى الفحام

لعله كان أطيب أصدقاء العباسية . طيبة تخالطها لا مبالاة وبساطة بالغة فى الذكاء والتفكير . وأتذكره كلما تذكرته ضاحكا لسبب ولغير ما سبب وكان يكفيه أن يسمع شتمة أو ملاحظة عابرة ليغرق فى الضحك ، وكلما اشتد نقاشنا فى السياسة ضحك ، وكلما تجادلنا فى الكرة أو السينما ضحك . وإذا شهدنا جنازة قريب لصديق تجنبنا النظر نحوه خشية إثارة فضيحة بين المعزين . حضرنا يوما جنازة شاب قريب لجعفر خليل . وخرجت أم الشاب تودع النعش أمام البيت فى حال جنونية ، حافية القدمين محلولة الشعر تلطم خديها بشبشب ، ثم من شدة الحزن راحت ترقص كالمجنونة ، منظر أثار حزننا جميعا وأجرى دموعنا ، ولاحت منى التفاتة نحو شعراوى الفحام فرأيته يعض النواجذ على ضحكة تريد أن تفلت على حين راح جسمه النحيل يرتعش تحت ضغط الضحك المكتوم ، ولم يكن قاسيا ولا بليدا ولا أبله ولكنه كان غريبا ، كان نوعا قائما بذاته . وكان يقيم مع أمه فى البيت المجاور لبيت سيد شعير ، بلا أب ولا إخوة ، مات أبوه وهو فى

المهد، تاركا له ولأمه البيت ومعاشا مقداره عشرة جنيهات. وكرست أمه حياتها لتربيته معتمدة على معاش زوجها وريع وقف يماثله فى المقدار. لذلك اعتُبرت أسرة ميسورة الحال وستظل كذلك حتى يدخل شعراوى طور الشباب فتكثر مطالبه ويتغير الحال. ولم يوفق شعراوى فى دراسته الابتدائية، لا بسبب الإهمال والشقاوة مثل خليل زكى وسيد شعير ولكن بسبب الإهمال والشقاوة والغباء. وفصل من المدرسة لكثرة سقوطه، فلم يجد سوى البيت والمقهى والطريق. ونفر بطبعه المهذب من مصاحبة خليل زكى ولكنه وجد ملاذه عند سيد شعير، فلازمه فى سهرات الحى الحسينى ثم فى أحياء البغايا بعد ذلك. وعن طريقه تعلم شرب الخمر ثم لم يفارقه إدمانها حتى الموت. ويوما قال لى وكان مازال تلميذا بالابتدائية:

ـ أنا عارف؟

فسألته عما يعنيه فقال:

ـ أنت تحب حنان مصطفى.

فسكت ضيقًا وحياء فقال:

ـ وأنا أحب حنان مصطفى!

فدهشت وتوقعت صراعا من نوع ما غير أنه ضحك وقال:

ـ يد الله مع الجماعة!

ـ ماذا تعنى؟

ـ نستدرجها معا إلى غابة التين الشوكى!

فصحت به:

ـ عليك اللعنة!

وكان ذلك قبيل رحيل آل مصطفى بأيام فسرعان ما تلاشى سوء التفاهم. على أنى لم أعرف له بعد ذلك قصة حب أو زواج واقتصر نشاطه فى ذلك المجال على مصادقة المومسات. ولما يئست أمه من تعليمه أرادت أن تجد له عملا، وكانت تردد دائما أن أى عمل خير من البطالة. وقصدت قريبا لها من الكبراء هو أحمد باشا ندا فوظفه فى وزارة الأوقاف، ولكنه لم يستطع المواظبة على العمل، وكان يمضى يومه فى الفيشاوى منتظرا سيد شعير حتى يفرغ من عمله فى دكان أبيه، وسرعان ما فصل من الوزارة، ولم يتخلف يوما عن سهراتنا الأسبوعية سواء كنا طلبة أم موظفين، وتمكن منه إدمان الخمر فكان يشرب كل ليلة، يشرب أرخص الخمر وأردأها التى تتناسب مع دخله. ويمكن تخيل ما أحدثه ذلك فى أمه من قلق وأسى. وهو نفسه قال لنا ذات ليلة ونحن نسمر فى مقهى سيد شعير بوجه البركة:

ـ أمى لا تريح ولا تستريح، تريد أن تخلق لى عملا ولكن أى عمل؟ وتريد أن تزوجنى ولكن أى زوجة؟

فقال له عيد منصور:

ـ دخلك الثابت عشرة جنيهات وهو دخل طيب لو قنعت بسكرة واحدة فى الأسبوع وما عليك إلا أن تبحث عن زوجة ذات إيراد . .

فضحك كالعادة وقال:

ـ إنى أنتظر الفرج وهو آت عما قريب!

وكان يقصد قريبه أحمد باشا ندا الذى تولى رئاسة الديوان الملكى فسأله عيد منصور وهو أشغفنا بالشئون المالية:

ـ ألك فكرة عن ثروته؟

فأجاب شعراوى وهو يملأ كأسه بالكونياك الجهنمى:

ـ عشرون ألفا من الأفدنة أما أمواله السائلة فلا يعلمها إلا الله . .

ـ ولا ورثة له غيركم؟

ـ أمى هى قريبته الوحيدة الباقية . .

وكان رضا حمادة يؤكد لنا تلك المعلومات نقلا عن أبيه. ومن الطريف أننا لم نعلم بقرابة شعراوى لأحمد باشا ندا إلا فى وقت متأخر نسبيا، إذ أنه أخفاها على عهد المدرسة الابتدائية لسوء سمعة الباشا كرجل من رجال السلطان وعدو من أعداء سعد زغلول. واسترسل شعراوى يقول:

ـ أمى هى الوريثة الوحيدة له وأنا الوريث الوحيد لها والباشا الآن فى الخامسة والسبعين من عمره، وكل آت قريب!

وسأله جعفر خليل:

ـ حدثنا عما ستفعل بالتركة إذا آلت إليك؟

فضحك طويلا وقال:

ـ آه لو تتحقق الأحلام، سأبنى قصرا فى القاهرة وآخر فى الإسكندرية كالباشا نفسه، وسأملأ الخزائن بجميع صنوف الخمر المعتقة، وأما النسوان . .

فقاطعه سيد شعير:

ـ وماذا ستقدم لنا نحن الأصدقاء؟

فأجاب:

ـ ستكون سهرتكم فى حديقة القصر وسيقدم لكم أجود ألوان الطعام والخمور والنساء، عهد الله بينى وبينكم . .

وهمس رضا حمادة فى أذنى :

ـ سوف يكون يوما تاريخيا يوم يرث صديقنا تركته الخيالية . .

وظل يسكر ويحلم بالتركة، يسكر ويحلم، ومع الأيام رق عوده وجف جلده وبرغم شبابه جرى المشيب فى شعره. وإذا بالباشا العجوز يفاجئ البلد بمغامرة لا تخطر بالبال، فعاد من رحلة بالنمسا بصحبة غادة شقراء فتنة فى العشرين من عمرها، قيل إنه ينوى الزواج منها على سنة الله ورسوله. وثار الرأى العام، واضطربت جماعتنا، أما صديقنا فكاد يجن. وما ندرى إلا وشعراوى يقيم على الباشا دعوى للحجر عليه باعتباره سفيها. وأدهشنا ذلك وبحثنا عما خفى علينا منه فوضح لنا أن خليل زكى هو الذى أشار عليه بذلك! غير أن قوى مجهولة تدخلت لتعيد إلى الأمر توازنه. فسافرت الفتاة النمساوية فجأة وقيل إنها لم توافق على السفر حتى استولت على عشرين ألفا من الجنيهات. وبتدخل السراى كفت الجرائد عن الخوض فى الموضوع، وبتدخلها أيضا رفضت دعوى الحجر. واعتكف الباشا فى قصره لا يزور ولا يزار ثم أعلن وقفيته المشهورة التى أوقف أرضه بها للخيرات والمساجد. تذكرنا صديقنا فأحزننا مآله وخيبة آماله، وأقبل علينا فى مقهى الفيشاوى سكران كالعادة محمر العينين ذاهل الطرف، نظر فى وجوهنا مليا، ثم أغرق فى الضحك! وخلع حذاءه فوثب إلى أريكة فى صدر المقصورة فتربع عليها وراح يغنى :

البخت لو مال حتعمل إيه بشطارتك

وأغرق فى الضحك مرة أخرى حتى أعدانا فضحكنا كالمجانين. ولم يطرأ عليه من جديد بعد ذلك سوى الإفراط فى الشراب. فكان يشرب فى النهار كما يشرب فى الليل. ولم يتيسر له من أنواع الخمور إلا الأنبذة الرخيصة الشيطانية، أنبذة السلسلة ودرب المبلات وخمارات شارع محمد على، وخبت شهواته الأخرى كشهوة الطعام وشهوة النساء، وبدا أنه يعيش فى منفى من صنعه، يتخاطب بلغته القائمة على الإشارة ويضحك لخيالاته الراقصة أو يطرق فى كآبة حيال أشباحه، وأنه يسير بقوة نحو الذوبان. وحاول جعفر خليل أن يجره إلى دنيا السينما كما فعل مع خليل زكى ولكنه رفض الفكرة وضحك طويلا. وعرض عليه سيد شعير أن يعمل فى المقهى بشرط أن يمتنع عن السكر فضحك أيضا. لم تكن لديه همة ولا رغبة ولا دافع. وقامت الحرب العظمى الثانية، وفى نفس العام توفيت والدته، فأجَّر البيت وأقام فى حجرة مستقلة بمرافقها فوق السطح. وفى عام ١٩٤١ أغارت الطيارات الإيطالية على القاهرة فى النصف الثانى من

الليل . وكان جالسا فوق السطح فى غيبوبة تامة من السكر . والظاهر أنه لم يغادر كرسيه إذ وجد مطروحا عليه قتيلا بشظية مستقرة فى رأسه . وكان مصرعه أول تجربة من نوعها فى حياتنا المشتركة ، فهو أول من فقدنا من أصدقاء العمر . وكان جعفر خليل أشدنا حزنا إذ عرف دائما بتعاطفه مع أصدقائنا المنحرفين كسيد شعير وخليل زكى . وجمعنا المأتم حتى الذين باعدت بيننا وبينهم الظروف الطارئة : وجعل سيد شعير يقول بأسف حقيقى :

ـ رحم الله شعراوى ، كان الوحيد المواظب على زيارتى .

صادق عبدالحميد

قال الأستاذ جاد أبو العلا يقدمه لى فى صالونه بالدقى .

ـ الدكتور صادق عبدالحميد .

سرت فى روحى رعدة وأنا أصافحه . تذكرت الاسم بقوة مخيفة . تذكرت درية زوجته وهى تحدثنى عنه . ترى أيكون آخر له نفس الاسم؟ ولكن هذا الأمل تلاشى عندما واصل جاد أبو العلا حديثه قائلا :

ـ كان فى بعثة قصيرة أخيرا فى إنجلترا ، ولكنه حصل على الدكتوراه من إنجلترا على عهد طلب العلم ، وهو باطنى ممتاز ولكنه أديب وفنان وفيلسوف وسياسى أيضا . .

إذن فهو زوج عشيقتى دون غيره! ذلك الرجل الذى بلغ الأربعين بالكاد والذى يفيض حيوية ويتألق ذكاء . وأعجبنى حديثه الذكى وجولاته المضيئة فى الفن والفكر والسياسة . ووجدته يجذبنى بطلاوة الحديث وعمقه وتنوعه ، ووجدت فى روحه سرا ينفث صداقة راسخة ، وازدادت مع ا لأيام رسوخا . وصفا جوها بقطع العلاقة بينى وبين درية زوجته وإن لم أخل من ضيق كلما تذكرتها . وبتحريض حار من ناحيته قدمته إلى صالون الدكتور ماهر عبدالكريم ومجلس الأستاذ سالم جبر . كما قدمته إلى الأستاذ زهير كامل . وخيل إلى كثير أنه يضمر تجربة نفسه فى الكتابة ولكنه قنع ـ ولو إلى حين ـ بالاستماع والمناقشة ، وكان يحظى منهما بسعادة لا توصف . وكان من المتحمسين لثورة يوليو عن إيمان وعقيدة . وكان يحلم بالاشتراكية منذ عهد طلب العلم ، ولم تكن له جذور حزبية أو إقطاعية تمنعه من الارتماء فى أحضان الثورة . سأله رضا حمادة يوما :

ـ أليس لك مأخذ ولو على بعض تصرفاتها؟

فأجاب بحماس ، وهو دائما يتكلم بحماس :

ـ كـلا، الحق أنى أيدت مـوقـفـهـا من الأحـزاب، ومن الإخـوان، وحـتـى من الشيوعيين. . .

ـ وما لزوم «حتى» هذه؟

ـ لست شيوعيا، ولكنى أرحب بالتعاون بين الثورة وبينهم، فالثورة والشيوعية تياران ينبعان من مصدر واحد ويهدفان فى النهاية إلى أغراض متقاربة. .

وبعد صمت قصير استطرد:

ـ وأيدت موقفها من الوحدة مع سوريا، ومن حملة اليمن!

فقال رضا حمادة:

ـ إذن فليس فى الإمكان خير مما كان. .

فقال ضاحكا:

ـ لست غافلا عن السلبيات ولكنها شر لابد منه فى فترات الانتقال والتطور، فأنت بضربة موفقة واحدة تستطيع أن تغير نظام الحكم، أما الطبائع فيلزمها وقت أطول بكثير!

وعمد إلى تفصيل رأيه فقال:

ـ قولوا فى الجمعيات التعاونية ما شئتم، وقولكم حق، ولكنها كنظام فهو نظام مثالى، وسوف يختفى الفساد يوما وتبقى الجمعية لتؤدى رسالتها، ويمكن أن يقال ذلك بالحرف عن القطاع العام، ألا تذكرون بنك التسليف الزراعى؟. . لقد استغله إسماعيل صدقى للتنكيل بخصومه وتفتيت وحدة الأمة ولكن إسماعيل صدقى ذهب وبقى بنك التسليف!

ولما وقعت الواقعة يوم ٥ يونيو ١٩٦٧، ذهل واختل توازنه، ومضى يتخبط بين الصالونات والمقاهى وكأن القيامة قامت، ودار بينى وبينه حديث طويل فى التليفون ختمه متسائلا:

ـ أكانت حياتنا وهما من الأوهام؟!

وقابلته بعد ذلك بأيام فى بيت رضا حمادة بمصر الجديدة فوجدته ممتعضا غاية الامتعاض، وجعل يردد بتألم شديد:

ـ ما أكثر الشامتين، ما أكثر الهازئين، ما أكثر المازحين، لم يجن أحد، لم ينتحر أحد، لم يصب بجلطة أو ذبحة أحد، يجب أن أجن أو أن أنتحر.

ولكنه أخذ يسترد الثقة يوما بعد يوم، وينظر إلى الهزيمة باعتبارها تجربة مريرة نزلت بنا لنعيد «تشخيص» أنفسنا، وكلما سمع عن رغبة الأعداء فى تصفية الثورة، ازداد إيمانا بها

وحماسا لها، حتى اعتقد مخلصا أن استمرارها أهم من استرداد الأجزاء المحتلة من الوطن العربى، إذ ما فائدة أن نسترد أرضا ونخسر أنفسنا؟ ثم إن استمرارها هو الضمان الوحيد لاسترداد الأرض طال الزمان أو قصر، كما أنه الضمان الوحيد لبعث الشعب العربى.

ـ إننا مطاردون، يطاردنا التخلف، وهو عدونا الحقيقى لا إسرائيل، وليست إسرائيل عدوا لنا إلا لأنها تهددنا بتجميد التخلف.

وانصرفنا ذات ليلة معا من صالون الدكتور ماهر عبدالكريم فجلست إلى جانبه فى سيارته نصر التى مضت بنا على مهل تخوض الظلام على ضوء فانوسها المطل بالأزرق. ووجدتنى أقول له:

ـ عبده البسيونى حدثنى بحديث عجيب..

فتساءل عن الحديث فقلت:

ـ قال إن الدكتور زهير كامل عشق أخيرا صحفية تحت التمرين تدعى نعمات عارف..

ـ وما وجه العجب فى ذلك؟

ـ هو فى الستين كما تعلم وهى فى العشرين..

فضحك وقال:

ـ العشق هو العشق بصرف النظر!

فقلت:

ـ وقال أيضا إنه سيتزوج منها..

ـ يا عزيزى إن حربا تنشب فجأة فتقتل آلافا أو ملايين، وإن زلزالا يقع فيدمر آلافا، أما زواج زهير كامل فربما مر بسلام وربما تخلف عنه ضحية أو ضحيتان!

وسكتنا مليا، ثم قال لى.

ـ أعترف لك بأنى عاشق!

فتذكرت ما قالته لى درية فى آخر لقاء ولكنى تساءلت متظاهرا بالاهتمام:

ـ حقـــا؟

راقصة إيطالية بالأوبرج..

ـ لعلها نزوة!

ـ حب عاش أكثر من عشرة أعوام..

ـ يا له من حب عظيم!

ـ أشعر أحيانا بأنه عاش أكثر مما ينبغى!

فترددت، وصمت، بعد أن كدت أطرح سؤالا عن الزوجة ولكنه قال وكأنه قرأ أفكارى.

ـ كما أحببت يوما زوجتى..

وحدثنى بفتور عن حبهما، حب طبيب الامتياز للممرضة، كما سبق أن سمعته:

ـ كانت فقيرة، وبالرغم من أننا لم نكن أغنياء إلا أن أحدا من أهلى لم يوافق على فكرة زواجى بها، أبدا أبدا أبدا..

ـ ولكنك تزوجتها...

ـ وغرقنا فى الحب كالمجانين..

وتمرد اللسان على تحفظى فقلت:

ـ ثم جفت ينابيع الحب!

فارتفع صوته ـ كأنما ليستمد من ارتفاع النبرة دفاعا ـ وهو يقول:

ـ الحق أن نظرتها إلى الحب تغيرت تماما بمجرد أن صارت أما..

ـ كيف تغيرت نظرتها؟

ـ لا أدرى!

ـ أنت تدرى بلا شك.

ـ لعلها أصبحت تكن حبا أعظم من الحب العادى ولكنى افتقدت الحب الأول.. وإذا بى..

ـ وإذا بك؟

ـ إذا بى أزهد فيها نهائيا وبلا رجعة..

ـ يا لها من سيدة تستحق الرثاء!

ـ إنى أوفر لها جميع أسباب الرعاية والراحة!

ثم بصراحة:

ـ أحيانا أتمنى لو توفق إلى حب رجل آخر فتذهب معه بسلام!

وخيل إلىّ أن قصة درية قد اكتملت ولكن ساورتنى ـ وما تزال ـ شكوك كثيرة وشاءت الظروف أن نتعرف ـ أنا وصادق ـ إلى حرم الدكتور زهير كامل معا، ودعاهما الدكتور صادق عبدالحميد إلى رحلة فى أوبرج الفيوم ولم يصطحب زوجته معه بحجة انشغالها بالأولاد. وبعد مرور عام قال لى الأستاذ جاد أبو العلا فى صالونه:

ـ إنى رأيتهما معا!

فسألته عمن يعنى فقال :

ـ نعمات عارف والدكتور صادق عبدالحميد فى كنج مريوط . .

فقلت وأنا أدارى انزعاجى :

ـ لعلهـــا . .

فقاطعنى ساخرا :

وقالوا تراها يا جميل تبدلت وغيّرها الواشى فقلت لعلها

وقلت لنفسى إن الدكتور الممتاز يحتاج إلى مزيد من الدراسة عن جانبه العاطفى. وظل يتحدث فى السياسة والفن ولكنه لم يشر بكلمة إلى حبه الجديد، وواصل زياراته للدكتور زهير كامل، وقام بتمثيل دور الصديق والمعجب كما كان يفعل من قبل، وهو ما ساءنى منه وأثار اشمئزازى. وضاعف من إثارتى أنى رأيت فى نفس العام درية فى سيارة جاد أبو العلا وهو ينطلق بها فى طريق الهرم، وللحال تذكرت ڤيللته بالهرم التى حدثنى عنها عجلان ثابت عندما أخبرنى بعلاقته ـ جاد أبو العلا ـ بأمانى زوجة عبده البسيونى. ها هى درية تجرب حظها مرة أخرى مع رجل عابث لا يوفر الأمان لأحد. وضقت بهمومى الأخلاقية وتذكرت الكثيرين ممن يصفونها بازدراء بقولهم «برجوازية»، وقلت لنفسى إنه لمن حسن الحظ أنه لم يبق لنا طويل عمر فى هذه الحياة المتعبة الفانية.

صبـــرى جـــــاد

تعين بإدارة السكرتارية فى أواخر عام النكسة. كان فى الثانية والعشرين من عمره، ومن حملة ليسانس الفلسفة، ومن أول يوم جعلت أرمقه بحب استطلاع، وأنتظر على لهف اليوم الذى يكاشفنى فيه بطويته فيصلنى بهذا العالم الجديد الغريب. وكان من أصل ريفى ولكنه نشأ وتربى وتعلم فى القاهرة، فى أسرة متوسطة، ابنا وحيدا بين ثلاث بنات توظفن وتزوجن، ويوما سألنى :

ـ حضرتك تعرف الأستاذ عباس فوزى؟

فأجبته بترحيب :

ـ طبعا، كان رئيسنا حتى أحيل إلى المعاش منذ أعوام . .

ـ أين يقيم الآن؟

ـ فى عابدين، أتريد أن تقابله؟

ـ نعم، أريد منه حديثا لمجلة العلم . . .

ـ أنت صحفى بها؟

ـ تحت التمرين . . .

ـ ما رأيك أن نزوره معا؟ . . . فإنى لم أره من مدة غير قصيرة .

وذهبنا معا إلى ڤيللا عباس فوزى، وهى مقامة فوق سطح عمارة يملكها فى عابدين . ورحب بنا بلطفه المعهود، وأجرى صبرى جاد معه حديثه الذى دار حول مؤلفاته عن التراث . ولما انتهى استأذن فى الانصراف ولكن الأستاذ عباس فوزى قال له :

ـ لن أسمح لك بالذهاب حتى تجيب عن أسئلتى . .

فتساءل الشاب عما يريد فقال :

ـ ثمة أسئلة تلح على بخصوص جيلكم فهل أنت على استعداد للإجابة بصراحة؟!

فأجاب الشاب باسما :

ـ طبعا .

ـ بصراحة من فضلك، نحن غير رسميين ونحن فى خلوة، فلا تضن على بالحقيقة . . .

ـ تحت أمرك . . .

وقلت أنا :

ـ الأستاذ يريد أن يعرف أشياء عن الجيل ككل لا عن شخصك . .

فقال عباس فوزى :

ـ هذا ما أقصده تماما .

فقال صبرى جاد :

ـ تحت أمرك . .

اعتدل الأستاذ عباس فوق الكنبة التركية ثم سأله :

ـ ما موقفكم من الدين؟

فأجاب صبرى جاد ببساطة :

ـ لا أحد يهتم به!

ـ لا أحد؟!

ـ الأغلبية لا تهتم به!

ـ لِمَ؟

ـ لم يكن موضع بحث، ربما لأنه توجد به أشياء غير معقولة وتخالف ما ندرسه من العلم . .

ـ ولكن أعلم أن الدولة تهتم بتدريسه وتشترط النجاح فيه؟

ـ ونحن نحفظه وننجح فيه .

ـ أتعنى أن تعليمه غير مثمر من ناحية العقيدة؟

ـ أجــل .

ـ والبيت؟ . . . ألم تلقنه فى البيت؟ . . . هل والداك مؤمنان؟

ـ نعم ولكنهما لا يصليان ولا يصومان ولا يتحدثان فى الدين!

ـ ألا يوجد بين الطلبة إخوان مسلمون؟

ـ كلا . . أو عدد لا وزن له . .

ـ ألا يوجد تلاميذ مؤمنون؟

ـ فى رأيى أنهم قلة . . .

ثم مستدركا :

ـ بعد النكسة وجد نوع من الميل للدين، البعض يقولون إن هزيمتنا ترجع إلى إهمالنا لديننا . . .

ـ إذن يوجد ميل للإيمان؟

ـ نعم يوجد . .

فقال الأستاذ عباس باسما :

ـ إنى أطمع فى مزيد من الدقة .

ـ أجبت بما أعرف . مستعيدا ذكريات الثانوية والجامعة .

ـ دعنى أساعدك، لعلك تقصد أن تقول إن الإيمان بصفة عامة لا يلعب دورا هاما بينكم، ولكن الوضع قد يتغير بعد النكسة؟

ـ نعــم . . .

ـ ما مدى هذا التغير المحتمل فى نظرك؟

ـ لا أدرى . .

وتفكر الأستاذ عباس مليا وأنا أتابعه ـ أتابعهما ـ بحواس مرهفة واهتمام لا مزيد عليه . وعاد الأستاذ يسأل :

ـ ما هى القيم التى تقدسونها؟

فنظر إليه صبرى جاد فى حيرة وتمتم :

ـ القيــم؟

وقلت من فورى مخاطبا الأستاذ :

ـ أرجو أن تتجنب التجريدات ما أمكن . .

فعاد الأستاذ يسأل :

ـ لم تتلقون العلم فى المدارس؟

ـ لعله خير من أن نتصعلك فى الشوارع!

ـ فقـط؟!

ـ ولكى نحصل على وظيفة توفر لنا الحياة السعيدة .

ـ وما الحياة السعيدة؟

ـ هى المسكن الصحى والمأكل اللذيذ والملبس الأنيق وغير ذلك من مسرات الحياة . .

فتدخلت فى الحديث بلا تدبير متسائلا :

ـ ألا تحبون العلم؟ . . ألا تسعون للتفوق فيه؟

ـ كلنا نطمح إلى دراسة العلم إلا من يقعده المجموع عن ذلك .

ـ لمـــاذا؟

ـ الشهادات العلمية هى التى توفر الوظائف الممتازة . .

ـ والتفوق فى العلم والحلم يخلق إضافات فيه؟

فتردد قليلا ثم قال :

ـ أعتقد أن المتفوقين يحلمون بذلك . . .

فسأله الأستاذ عباس :

ـ ألا تقرءون الكتب فى أوقات الفراغ؟

ـ نفضل السينما والإذاعة والتلفزيون وقليلون يقرءون . .

ـ وهل يقرءون التراث؟

ـ لا أظــن!

ـ ألم تقرأ التراث بصفتك طالب آداب؟

ـ لغته معقدة ومحصوله ضحل ، وهو مقطوع الصلة بزماننا!

فتسللت نبرة حادة بعض الشىء إلى صوت الأستاذ وهو يسأل :

ـ والوطن أما زلتم تحبونه؟

ـ طبعـــا .

ـ وإسرائيل هل تودون محاربتها؟

ـ نحن الذين سنحرر الوطن بدمائنا ، الوطن الذى تسببتم فى هزيمته . .

ـ نحـــن؟

ـ نعـــم .

ـ ليس جيلنا الذى يحكم . .

وأشرت إلى الأستاذ عباس إشارة خفية ليتجنب الحدة فثاب إلى الهدوء وجعل يبتسم فى مودة ، ثم سأله :

ـ وماذا تفضلون الاشتراكية أم الرأسمالية؟

فرفع صبرى منكبيه وأجاب :

ـ لا تهمنا الأسماء !

ـ الأســـماء؟ !

ـ أجل ، مللنا ذلك . . يهمنا أن تتحقق لكل فرد حريته ونجاحه وسعادته . . .

فقلت متدخلا فى الحديث مرة أخرى :

ـ هذا يعنى أنك تفضل الاشتراكية !

ـ لا أدرى !

ـ أتفضل النظام الرأسمالى؟ !

ـ لا أعتقـــد .

ـ ألديك نظام جديد؟

ـ كلا . . . ولكننا مللنا ذلك . . .

ورجع الأستاذ عباس فوزى يسأل :

ـ وما موقفكم من الحب؟ . . . ألا زال للحب عندكم قيمة أم أصبح الجنس كل شىء؟

ـ الجنس مسيطر ، وقليلون يحبون بل ويرغبون أن يمتد بهم الحب حتى الزواج !

ـ وماذا عن الأكثرية؟

ـ يمارسون المغامرات الجنسية . .

ـ مع من؟

ـ التلميذات . . الطالبات . . الفتيات !

ـ هل يقبلون الزواج من المغامرات؟

ـ كثيرون يقبلون . . . والبعض يتبع تقاليد الجيل الماضى . .
ـ أعتقد أن الفتيات لا يتخلين عن حلم الزواج .
ـ هذا هو عيبهن الأول .
ـ وغير مستحيل أن تتزوج أنت نفسك يوما ما .
ـ غير مستحيل ، وإن يكن مرتبى مضحكا ومستقبلى عدما .
ـ ولكن ثمة ما يشدك إلى الحياة ولا شك؟
ـ غريزة حب البقاء .
ـ ربما لم تخل حياتك من سرور؟
ـ لقمة سائغة ، فيلم جيد ، علاقة جنسية بريئة .
ـ بريئـة؟!
ـ أى ليست استدراجا لزواج .
ـ أتعتقد أنك خير من أبيك؟
ـ كان أبى وفديا يقدس سعد زغلول ومصطفى النحاس وأنا أعتبر ذلك مضحكا .
ـ لـمَ؟
ـ ثبَت أنهم أصنام لا أكثر ولا أقل .
ـ لا أجد عندك عقيدة بديلة؟
ـ كان عندى ، وتزلزل كل شيء عقب ٥ يونيو . . .
ـ ماذا تقترح لتحسين الأحوال؟
ـ العالم كله عدم وهباء .
ـ ماذا تقترح لتحسين أحواله؟
ـ القضاء على جميع المسئولين فيه!
ـ وماذا يحدث بعد ذلك؟
ـ لا يهم ، ستتحسن الأحوال وحدها . .
ـ لقد جئتنى يا عزيزى لإجراء حديث عن التراث على حين أنك لا تؤمن به؟
ـ إنى صحفى تحت التمرين!
ـ ولكن سلوكك لا يخلو من انتهازية؟
ـ وما العيب؟ أى وسيلة تنفع للوصول فى هذا العالم المكتظ فهى مشروعة!
ـ أشكرك جدا .

ـ العفـــو . .

وغادرنا عمارة الأستاذ وصدرى يجيش بانفعال عاصف . .

صفـــاء الكـــاتب

كان بيت الكاتب من أعرق البيوت فى العباسية القديمة . وكان يقع فى الحى الشرقى بمبناه الشامخ وحديقته المترامية ما بين محطتى ترام . وكثيرا ما سرنا بحذاء سوره ونحن فى طريقنا إلى الصحراء للعب الكرة فلم أر منه إلا رءوس الأشجار وخمائل الياسمين والستائر المسدلة . وذات يوم وكنت ماضيا نحو الصحراء رأيت حنطورا ينحدر من الطريق الشرقى نحو الشارع العمومى ، فى صدره جلست عجوز تلوح من وجهها عينان ناعستان فوق حافة اليشمك ، وإلى جانبها فتاة تتألق بنور الشباب . تفتحت بها أبواب السماء فأغدقت علىّ فيضا من بركات الحب . وقال شعراوى الفحام وكان أكثرنا خبرة بالحى الشرقى :

ـ هى صفاء ابنة صاحب القصر .

وقال خليل زكى وكان يسطو على حدائق الحى الشرقى كلما وجد غفلة ليخطف عنقود عنب أو ثمرة من المانجو :

ـ وهى فى العشرين من عمرها .

وعند ذلك همس جعفر خليل فى أذنى وقد لحظ تغيرى :

ـ أما أنت ففى الخامسة عشرة!

ومن عجب أن صورتها ـ رغم العاطفة التى ابتعثتها ـ اختفت تماما وراء سحب الماضى . بل تعذرت على الوضوح حتى وأنا فريسة لسحرها . لا أعرف لون شعرها ولا تسريحته ولا لون عينيها أو رسمهما ولا طول قامتها أو درجة امتلائها . ذاب ذلك فى سائل سحرى . وكنت إذا تذكرته ـ أو خيل إلىّ ذلك ـ فعن طريق غير مباشر وبإيحاء عفوى كشذا الورد الذى يباغتك من وراء سور وأنت ماض غارقا فى أفكارك . وكأن قلبى لم يكن يحركه شىء إلا إذا انتهى إليها بسبب خفى . ولذلك همت فى أزمنة متأخرة نسبيا بقسمات وملامح وسمات ولفتات لنجوم توهمت أنها تذكرنى بما غاب عنى منها . بل ما أحببت صفة فى وجه إنسانى إلا وكانت هى وراءه حقيقة أم وهما . وبسبب ذلك الحب الخاطف عانت حياتى العاطفية من أزمات متواصلة معقدة كأنها السحر الأسود . والعجيب أنه كان حبا بلا مواقع ولا مواقف ولا تاريخ يذكر . رأيتها فى الحنطور ثوان

ليس إلا ففقدت إرادتى وألقى بى فى طور جديد من أطوار الخلق. وكنت قريب عهد بحب حنان مصطفى فأدركت خطئى وآمنت بأننى أحب لأول مرة. وعرفت كيف يغيب الإنسان وهو حاضر ويصحو وهو نائم، كيف يفنى فى الوحدة وسط الزحام ويصادق الألم. وينفذ إلى جذور النباتات وموجات الضوء. وجعلت أحوم حول سراى الكاتب وهو قصر مغلق النوافذ مسدل الستائر لا يرى به إنسى سوى البواب والبستانى وبعض الخدم. وسمعت مرة صوتا ناعما ينادى البواب فاهتز قلبى وافترضت فى الحال أنه صوتها ثم آمنت بذلك. ورأيتها للمرة الثانية فى مناسبة حزينة جدا، فى نافذة بيت أثرى بشارع محمد على احتشد فيه نفر من النساء لمشاهدة جنازة سعد زغلول، ولم أنتبه إليها إلا عقب مرور النعش فرأيت من خلال دموعى وجهها المشرق وهى تجفف عينيها مادة عنقها وراء النعش المبارك. خفق قلبى خفقة مباغتة ولكننى لم أنعم بالرؤية وفقدت النشوة فى قلب كسير محزون، واجتاحتنى عواطف متناقضة كما اجتاحنى تيار الخلق المتلاطم الباكى. لم أرها بعد ذلك إلا ساعة هبطت أدراج السلاملك فى ثوب العرس لتستقل سيارة إلى بيت العريس وكنت ضمن حشد وقف على الطوار المواجه للقصر للفرجة. وكانت مدة ذلك التاريخ الذى مر بلا أحداث عاما إلا قليلا، ولكنه كان أعجب عام فى حياتى.

وانكشف أمرى لأصدقائى جميعا، أما المهرجون فسخروا منى وأطلقوا علىّ «مجنون صفاء»، وأما الآخرون فحذرونى من التمادى فى عاطفة لا جدوى منها ألبتة. وكنا صغارا وكانت أفكارنا ساذجة مستعارة من الروايات وما عرفناه من تاريخ الأدب العربى، فقال لى سرور عبد الباقى:

ـ لا تستسلم وإلا جننت كمجنون ليلى...

وقال لى رضا حمادة:

ـ إن حبك هذا يقطع بأنك أحببتها فى تاريخ سحيق مضى، ربما فى عصر الفراعنة كما يقول ريدر هجارد.

وتمثل ذلك الحب فى صورة قوة طاغية متسلطة لا تقنع بأقل من التهام الروح والجسد، قذف بى فى جحيم الألم، وصهرنى، وخلق منى معدنا جديدا تواقا إلى الوجود، ينجذب إلى كل شىء جميل وحقيقى فيه. وبقى الحب ـ بعد اختفاء خالقه ـ ما لا يقل عن عشرة أعوام مشتعلا كجنون لا علاج له. ثم استكن على مدى العمر فى أعماقى كقوة خامدة ـ ربما حركتها نغمة أو منظر أو ذكرى فتدب فيها حياة هادئة مؤقتة تقطع بأنه لم يدركه الفناء بعد. وكلما تذكرت تلك الأيام أذهلنى العجب، وتساءلت بدهشة عن سر الحياة التى عشتها، وهل كان أصابنى مس من الجنون، وأسفت غاية الأسف أنه لم يقدر

لحبى أن يخوض تجربته الواقعية، وأن تتلاقى فى دوامته العنيفة السماء والأرض، وأن أمتحن قدراتى الحقيقية فى معاناته ومواجهة أسراره على ضوء الواقع بكل خشونته وقسوته. وما أحكم رضا حمادة حين قال لى يوما وقد بلغنا درجة من النضج والتجربة:

ـ صفاء ألقيت فى حياتك كمثير.. لم تكن إلا «شفرة» تشير إلى شىء، تعيّن عليك أن تحل رموزها للوصول إليه.

فقلت له:

ـ لقد تحللت حياتنا إلى سخريات ولكنى أكره أن أذكر تلك الأيام باستخفاف.

ـ استخفاف؟! كيف يستخف إنسان بأروع سنى العمر؟!

ومررت بقصر آل الكاتب فى الستينيات فوجدته قد هدم ورفعت أنقاضه، مخلفا أرضا فضاء تحفر تمهيدا لإقامة أربع عمارات سكنية. ابتسمت وأنا أنظر إلى الأرض الفضاء. وعبرنى إحساس بالأسى. فتذكرت صفاء التى لم أرها منذ هبوطها فى ثوب العرس، التى لم أدر عنها شيئا، حية كانت أم ميتة، سعيدة أم شقية. وكيف غيرها الكبر بعد بلوغ الستين؟ وأيا كان خبرها، ورأى الآخرين فيها. ألم يكن من حقها أن تعرف أنها عبدت فى محراب كإله، وأنها فجرت فى قلب حياة مازالت تنبض بين الحين والحين بذكراها؟

صقر المنوفى

كان طبيعيا أن يوصف عم صقر المنوفى بأنه الساعى بإدارة السكرتارية ولكن جاء وقت كاد يطلق على إدارتنا العتيدة بأنها إدارة عم صقر. وكان أقرب إلى القصر والبدانة ولكنه كان جم النشاط، بل فاق نشاطه عادة المهام المطلوبة منه. وكان جاسوسا بالسليقة، ولحساب نفسه، وفى أوقات تقديم قهوة الصباح كان يتطوع بالهمس مفشيا الأسرار، أسرار الوزارة والموظفين. ولعله كان أول من بصرنى بالأسباب الحقيقية لترقية شرارة النحال من عامل تليفون إلى سكرتير لسعادة وكيل الوزارة، ثم انهمرت أنباؤه تباعا عن عباس فوزى وعدلى المؤذن وعبد الرحمن شعبان والآنسة عبدة سليمان والرجل الطيب التعيس طنطاوى إسماعيل وغيرهم. قال لى يوما الأستاذ عباس فوزى ونحن بصدد الحديث عن ارتفاع الأسعار وبؤس الموظفين ذوى المرتبات الثابتة فى أيام الحرب:

ـ لا أحد يأكل ما يشتهى إلا عم صقر!

فأبديت الدهشة فقال:

ـ إنه مغرم بالطعام الجيد .

فقلت له :

ـ الغرام شىء والقدرة شىء آخر .

فقال بسخريته المعهودة :

ـ كأنه قلم مباحث ، فما من فرح يقام أو مأتم إلا وعنده علم به ، وسرعان ما تجده بين العاملين فى الفرح أو المأتم ، يتطوع للخدمة ليشهد فى النهاية وليمة العشاء ، كذلك تجده فى ليالى الموالد بالجوامع الكبرى ، فما من ليلة تمر إلا وهو فى وليمة ، فأى باشا يدانيه فى هذا الحظ الغذائى منعدم النظير ؟ !

من ذلك جاء تألقه الدائم بالصحة والعافية ، وغزله الرقيق باللحوم والفطائر والحلوى . أما بقية مظاهر حياته فجرت فى مستواها الطبيعى البائس كساع مسكين ، يقيم فى حجرة أرضية بعطفة دعبس بالحسينية هو وزوجته وأبناؤه . ولكن متى رسم خطة للإثراء؟ إذ من المحقق أنه رسم تلك الخطة وعمل على تنفيذها بصبر ودأب ، ربما منذ عهد التحاقى بالخدمة فى أواخر عام ١٩٢٤ .

انطلق فى ذلك السبيل بادئا من بيع قطع الحلى والنحاس ورثها عن أمه فتجمع لديه مبلغ من المال راح يستثمره فى إقراض الموظفين بربح فاحش . وهو نشاط غريب بالنسبة لرجل مسلم من أهل البلد الفقراء ولكنه أقدم عليه وتمادى فيه حتى النهاية . وعرف بذلك فى أوساط الموظفين الفقراء وما أكثرهم فأقبلوا عليه بنهم وأصبح بذلك مركزا لحركة مصرفية سرية ونمت نقوده وتراكمت . وفى بحر ربع قرن من الزمان استطاع أن يشترى البيت الذى يسكن حجرته الأرضية بألف جنيه ، ثم هدمه فأقام موضعه عمارة صغيرة مكونة من دورين ودكانين . وكان له ابنان وبنت ، أهملهم إهمال الفقراء فعمل البكرى فراشا فى وحدة صحية بالريف وانقطع كلية عن أسرته ، واشتغل الأوسط صبى قصاب ، أما البنت فقد اختفت وهى فى سن المراهقة ، قيل إنها خطفت أو تاهت أو هربت . وما لبث ابنه الأوسط أن قتل فى مشاجرة بالمذبح . وحزن عم صقر حزنا عميقا ، واعتقد أن ما أصابه فى بنته وابنه إنما هو عقاب من الله على إثرائه بالربا فكف عن الإقراض ، وأدى فريضة الحج تائبا . والعجيب أن تحسن حاله المالية لم يغير مظهره ولا سلوكه العام فى الحياة . بقى فى وظيفته الحقيرة يقوم على خدمة موظفين يعتبر سيدا لهم من الناحية الاقتصادية . ولبث يسعى إلى الأفراح والمآتم للاستمتاع بالولائم المجانية ؛ وظل يتشمم الأخبار ليفشى الأسرار عند تقديم القهوة ، فإذا خلا إلى نفسه غلبه الحزن على ابنته المفقودة وابنه القتيل . وأذكر أننى كنت فى مأتم جعفر خليل عندما جاء عدلى المؤذن للتعزية ، وجالسته بعض الوقت فقال لى :

ـ صقر المنوفى قبض عليه !

فدهشت وسألت عن السبب فقال :

ـ الرجل جن ولا شك . .

ثم قال :

ـ كان فى مسكنه وحده فجاءت بنت الكواء ببدلته فاعتدى عليها وهى قاصر !

وغاب عن ذاكرتى زمنا طويلا حتى رأيته مقبلا على مجلسى بمقهى الفيشاوى حوالى عام ١٩٦٠ بعد خروجه من السجن بأشهر . وكلما سألته عن حاله أجاب باقتضاب :

ـ الحمد لله .

وعلمت أن زوجته توفيت وهو فى السجن وأنه يعيش وحيدا .

ـ سافرت لزيارة ابنى ولكنى لم أرتح فرجعت بعد أسبوع واحد !

وجعلت أواسيه وأشجعه حتى قال :

ـ إنى راض بما حدث فهو جزاء حق ولكن لِمَ لا يعامل الله سبحانه بالمثل أشخاصا مثل شرارة النحال أو عدلى المؤذن؟ !

صبرية الحشمة

كانت تدير بدرب طياب ـ حوالى ١٩٣٠ ـ بيتا وأربع فتيات حسان . وتأصلت بينها وبين سيد شعير صداقة متينة منذ ذلك العهد البعيد . قدمنا إليها فصرنا من المقربين إلى المعلمة وتمتعنا بامتيازات غالية ، وكنا نشهد السهرات الخاصة ـ التى تبدأ بعد وقت التشطيب فى الدرب ـ داخل البيت فنسمع الغناء ونشاهد الرقص وتمادى فى السهر حتى مطلع الفجر . وكانت فى الأربعين . . لحيمة مهيبة ، جذابة الملامح ، ذات شخصية مسيطرة تليق بالمعلمات . وكان مجرد حضورها كأنه قانون طبيعى ، يخضع له كل فى دائرته الخاصة ، لا تجرؤ على الاستهانة به جارية أو قواد أو زبون أو خادم . وأعجب بها جعفر خليل ، وعشقها شعراوى الفحام حتى اضطر سيد شعير إلى أن يقول له :

ـ المعلمة تدير ولا تعمل .

فسأله :

ـ أتعنى أن حياتها خالية من الرجال؟

ـ كلا ، المعلمة تعشق ولكنها لا تعمل بالأجرة ، ولها رفيق رومى بياع نبيذ !

ولما قامت الحرب العظمى الثانية كانت بين أوائل المعلمات اللاتى استجبن للتطورات

الطارئة فاستأجرت شقة كبيرة فى شارع شامبليون وخصصتها للدعارة السرية، ووسعت دائرة نشاطها ففتحت مشربا للخمور بشارع الملكة نازلى، واستفادت أكبر استفادة من الترفيه عن جنود الإمبراطورية البريطانية. وكشفت تلك الفترة المتوترة عن مواهبها فى الإدارة حتى قال لى سيد شعير:

ـ خفت عليها من التوسع أن يفلت الزمام من يدها ولكنها أمهر من الجن الأحمر!

وكان يواظب على زيارتها ويحكى لنا عن مغامراتها أول فأول، فعرفنا كيف تاجرت فى السوق السوداء فربحت أموالا طائلة من الخمور والخردة. قال سيد شعير:

ـ إنها أقدر من وزير بالرغم من أنها أمية، لا يفوتها مليم من حسابات البيت والمشرب والتجارة، وتعرف العملاء بالاسم، ويا ويل من يحاول خداعها، وهى كريمة تجود بسخاء على العاملين معها من الموزعين والقوادين والفتيات، وكل شخص يحبها ويحترمها ويعمل لها ألف حساب.

فقلت لرضا حمادة:

ـ ليت حكومتنا تتبع مثالها فى معاملة موظفيها!

فضحك رضا حمادة وقال:

ـ هى عندى خير من صاحبنا المتدين زهران حسونة!

فقلت:

ـ بل هى عندى خير من كثيرين من الوزراء والزعماء الذين يقومون بنفس الدور مع الإنجليز ولكن على حساب الوطن!

فقال جعفر خليل بأسى:

ـ رحم الله صديقنا خليل شعراوى الفحام فلعلها المرأة الوحيدة التى عشقها فى حياته القصيرة.

وعند نهاية الحرب كانت قد جمعت ثروة طائلة، وأثبتت أنها أعقل من كثيرين، وكانت قد بلغت الخامسة والخمسين من عمرها، فصفت أعمالها، وأودعت فى البنك ألوفها المؤلفة. وشيدت لنفسها فيللا فى المعادى. ولكن صاحبها الرومى قد توفى ولم يكن لها وريث ولا أهل، فعاشت عيشة هنية هادئة، ثم قررت تغيير حياتها جذريا، فأدت فريضة الحج، وأغدقت الخير على أصدقائها القدامى، وتبرعت كثيرا للجمعيات الخيرية. وسمعت ـ عام ١٩٥٠ وهى فى الستين ـ أنها تزوجت من شاب فى الثلاثين، موظف بمصلحة المساحة فأدركت أن فترة الهدوء قد انطوت وأن فترة من القلاقل قد بدأت. ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم لم يبلغنى عنها جديد، إذ أن زواجها أغلق بابها فى وجه سيد شعير وبالتالى انقطعت أخبارها عنى.

طنطاوى إسماعيل

لعله الموظف الوحيد الذى لم أجد فيه شيئا من «مضمون» الموظف المتعارف عليه. كان وقت دخولى الخدمة رئيسا للسكرتارية العامة، درجة خامسة، فى الخمسين من عمره، وظل يشغلها حتى أحيل إلى المعاش عام ١٩٤٤. ولما اطلع على ملف خدمتى الجديد سألنى :

ـ أكنت من تلاميذ الدكتور إبراهيم عقل؟

فأجبت باعتزاز :

ـ نعم ومن تلاميذ الدكتور ماهر عبد الكريم أيضا.

فقال بصوت ذى رنة نحاسية :

ـ ماهر عبد الكريم رجل عظيم أما إبراهيم عقل فوغد كافر من ذيول المبشرين!

فقلت وأنا لا أجد حافزا للدفاع عن الرجل :

ـ يخيل إلى أنه اعتزل الفكر ولم يبق من أستاذيته إلا شبح.

فقال بحدة :

ـ لم يبق منه إلا مرتزق من المرتزقة!

وحضرته ـ طنطاوى إسماعيل ـ مرات فى مكتب المدير العام فراعنى منه أنه لا يحنى ظهرا ولا يردد ملقا وأنه يحافظ على كرامته تماما، ثم يغادر المكان مخلفا وراءه أسوأ الأثر! ولفت نظرى أنه كان يصحح الخطابات التى تعرض عليه للتوقيع من أخطائها اللغوية والنحوية لا المصلحية فقط. وكان يفتش على حجرات الإدارة متفقدا النظام والعمل. فلا يتسامح مع متلكئ أو مهمل أو متهم بسوء معاملة الجمهور. وبالرغم من ذلك كله لم أعثر على موظف واحد يعترف له بفضائله. كانت تصرفاته توصف عادة بالحماقة أو بجنون العظمة. وأذكر أنه قال لى قبيل حلول عيد الهجرة :

ـ أنا أول من طالب باعتبار يوم الهجرة عطلة رسمية!

ووعدنى بالاطلاع على المقالة التى دعا بها إلى ذلك وقد فعل. وأذكر أيضا أنه رقى ترقية جديدة بعد أعوام تنفيذا لقرار مجلس الوزراء الخاص بالمنسيين فهنأته بذلك ولكنه قال بصوته الجهورى :

ـ لو أنصفوا لولّوا المنسيين مقاليد الحكم فهم فى الواقع أشرف الموظفين!

وكان عم صقر الساعى موجودا، وكان موضع عطف الرجل:
فقال له:
ـ لعل ذلك يدعو سعادتك إلى تغيير رأيك فى الوفد؟
فقال بصراحته.
ـ ليس هذا بالإنصاف المنشود ولكنه مداراة قلقه لشر مستحكم، نوع من أنصاف الحلول، وذلكم هو شعار الوفد الحقيقى الخفى، الحق حق والباطل باطل، والخير الحقيقى أن تولى من يصلح وأن تطرح فى السجون الفاسدين. رحم الله زعماء الحزب الوطنى، عرفوا الحياة تضحية وجهادا لا سياسة ومهادنة!

واطلع يوما على أسماء كبار الموظفين الذين نالوا رتبا وأوسمة لمناسبة من المناسبات فقال:
ـ لولا إيمانى بالله، لولا إيمانى بأن حكمته فوق العقول، لجننت!
وهمس عبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة فى أذنى:
ـ ما زال يتصور أنه عاقل!

أجل. بالجنون كان يُرمى دائما. ولذلك غض عن الكثير من تصرفاته. وقد عرفت ماضيه من عباس فوزى وعم صقر وغيرهما. عين فى الوزارة بدبلوم التجارة العليا وهو فى العشرين من عمره. وفى ظرف خمس سنوات عمل مفتشا بالحسابات. وكان ذا خلق نقى طاهر، يحمل الأمانة بإخلاص، ولا يحيد عن الحق، فأثار موجة من الرعب فى قلوب الكتبة والمراجعين. كانوا يعملون من خلال نظام محكم تعاونى يقوم أساسه على الرشوة والهدية فانفجر الرجل فى أوساطهم كالقنبلة فاتكا بمصادر رزقهم الحقيقية. ولو كانوا يملكون الشجاعة الكافية لاغتالوه، ولكنهم فكروا فى وسيلة تخلصهم منه. ولعبوا بإمضائه لعبة ماكرة فوجد نفسه وهو لا يدرى موضع اتهام وتعذر عليه تبرئة نفسه منه. وقدم إلى مجلس تأديب فقضى بفصله من عمله.

ـ تصور شخصا أمينا لدرجة الجنون يجد نفسه مفصولا بتهمة خيانة الأمانة!

غادر الوزارة وهو يصرخ بأعلى صوته «أنا أمين.. أنا شريف.. أنا مظلوم.. حسبى الله ونعم الوكيل»، وعانى الألم والجوع والجنون خمس سنوات كاملة حتى انهارت أعصابه تماما، وحتى اضطر عمه إلى نقله إلى مستشفى أمراض عصبية بحلوان، فقضى فيه عاما ثم غادره بعد أن تماثل للشفاء، ولكنه كان خسر شيئا صميميا لا يعوض. ومرض وكيل الحسابات فشعر بدنو الأجل. فاستدعى مدير إدارة التحقيقات واعترف له بحقيقة المؤامرة التى حيكت للإيقاع بطنطاوى إسماعيل. وأعيد التحقيق بصفة سرية ثم تقرر إعادة الرجل إلى الخدمة، مع إلحاقه بإدارة «غير مالية» تجنبا لأى أذى قد يلحق به أو

بالآخرين! وقد عملت معه عشر سنوات فعرفته عن كثب، عرفت إيمانه بالله الذى لا حد له، عرفت نقاء خلقه الناصع. كما لمست فيه وطنية تبلغ درجة التعصب الأعمى. وكان كثير الاطلاع على المراجع الدينية، ميالا للمحافظة لدرجة أن يعاف أى حديث من فكر أو سلوك فيعده انحرافا وسقوطا. جمعنى وإياه ركن بجامع الحسين فى الليلة السنوية التى كان يحييها الشيخ على محمود، وكان يسأل من حوله:

ـ ترى أما زالت الفضائل فضائل أم أصبحت موضة قديمة؟

وراح يحمل على الجبن والتملق وفساد الذمم والانحلال فيقول:

ـ نحن فى حاجة إلى طوفان جديد لتمضى السفينة بقلة الفضلاء ليعيدوا خلق العالم من جديد!

طالما تشوقت إلى معرفة المزيد عنه، حياته الخاصة. نشأته الأولى، علاقاته بزوجه وأبنائه، تصرفه حيال سائر مغريات الحياة، ثم قنعت بما تيسر لى معرفته، فهو إنسان يتحلى بالنقاء لكنه يعيش فى مستنقع مكتظ بالجراثيم. غير أن عنفه فى الحق يدفعه أحيانا إلى حافة اللا إنسانية وهو لا يدرى، فصراحته كثيرا ما تتسم بالإيذاء فى غير ما ضرورة. مما جر عليه شعورا عاما بالنفور بل والكراهية، وكان عبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة يشير إليه بقوله «ابن المجنونة»، كما كان الأستاذ عباس فوزى يقول عنه متهكما:

ـ سيدنا طنطاوى بن الخطاب رضى الله عنه!

ورغم ذلك كله فلم يستطع أن يصد موجة «العصر» عن أن تغزو عرينه، فذات يوم ـ وأنا موظف جديد ـ رأيت فتاة مليحة جذابة تجلس إلى جانب مكتبه قدمنى إليها ثم قدمها إلى قائلا:

ـ ثريا رأفت كريمة شقيقى.

ثم قال باحتجاج باسم:

ـ طالبة بالمعهد العالى للتربية!

ثم وهو يهز رأسه:

ـ العلم نور، ولكنى لا أوافق على المرأة العاملة، ومن ذلك فلا سلطان لى على بنت أخى الأكبر إلا النصيحة.

ولعل آخر موقف انطبع فى نفسى من طنطاوى إسماعيل كان غداة يوم ٤ فبراير ١٩٤٢، قال لى قبل أن يجلس إلى مكتبه:

ـ ما رأيك؟.. ها هو زعيمك يرجع إلى الوزارة فوق الدبابات البريطانية.

وكنت أتجنب مناقشته وبخاصة وهو ثائر، وجعل يتساءل وعيناه تبرقان:

ـ أسمعتم عن زعامة من هذا النوع من قبل؟!

ثم اجتاحته موجة من الغضب فجعل يصيح كالممسوس:

ـ الطوفان.. الطوفان.. الطوفان..

طـــه عنـــان

ظهر فى حياتنا ونحن فى السنة الرابعة الثانوية، كان أبوه مأمور قسم شرطة بأسيوط ثم نقل إلى القاهرة مأموراً لقسم الوايلى متخذا من العباسية مقاما لأسرته. وتعرف طه عنان بأصدقائى جعفر خليل ورضا حمادة وسرور عبد الباقى من زملاء المدرسة الثانوية، ولكن علاقته توثقت بى وبرضا حمادة فقط لاشتراك ثلاثتنا فى العقيدة الوفدية والميول الثقافية. وقد اشترك فى الإضراب الذى استشهد فيه زميلنا بدر الزيادى، ومما يذكر أن أباه كان ضمن القوة التى حاصرت المدرسة ثم اقتحمتها بعد ذلك بالقوة والعنف. وناقشنا موقف والده، وكان خجلا منه ومتألما وجعل يدافع عنه فيقول:

ـ أبى وطنى، مثلنا تماما، ويؤمن بمصطفى النحاس كما آمن بسعد زغلول، ولكنه يؤدى واجبه!

فقال رضا حمادة:

ـ سمعنا عن ضباط مثله انضموا إلى الثوار فى سنة ١٩١٩.

فقال طه عنان مدافعا عن أبيه ما وسعه الدفاع:

ـ كانت أيام ثورة ولا ثورة الآن..

وكان يغلب على طبعه الجد فنفر من مزاح جعفر خليل. وكنا نقرأ معا بعض كتب التراث وكثيرا من مؤلفات كتاب العصر من قادة الفكر الجديد، كما كنا نناقش كل شىء بحرية وحماس. ونتطلع إلى مستقبل فكرى واحد. وكان يؤمن بالكتب ويرجع إليها فى كل ما يهمه من شئون الحياة. ولما اطلع على قصة حبى لصفاء الكاتب دهش وقال:

ـ ولكن حالك غير طبيعية.

فقلت باستياء:

ـ ولكنها واقع..

ـ أنا أحب أيضا ابنة عمى ونفكر فى إعلان خطوبتنا!

واتباعا لأسلوبه فى الرجوع إلى الكتب مضى بى إلى دار الكتب ورحنا نقرأ معا عن كلمة «حب» فى دائرة المعارف البريطانية، ثم قال:

ـ هذا هو الحب من جميع نواحيه الفسيولوچية والنفسية والاجتماعية، ومنه ترى أن ما بك ليس حبا ولكنه جنون.

فتمتمت بحنق:

ـ جنون . . .

فابتسم قائلا:

ـ لا تغضب، ربما احتجنا لقراءات أخرى!

ولكنا لم نواصل القراءة عن الحب، وقرأنا كثيراً ـ وخاصة فى العطلة الصيفية ـ عن حقائق جديدة ومتنوعة، وكل شيء كان جديدا. وتعرضنا لأزمات نفسية وعقلية وحشية. وزُلزل قلبانا زلزالا.

واقترح على اقتراحا عجيبا ونحن جالسان فى مقهى الفيشاوى قال:

ـ علينا أن نبدأ من العدم!

ـ من العدم؟

فقال بثقة لا تتفق مع انهيارنا:

ـ لا سبيل إلى مواجهة هذا العذاب إلا بأن نبدأ من الصفر.

ورمقته بنظرة متسائلة بالرغم من أننى أدركت ما يعنيه فقال:

ـ من الصفر، ثم نستعيد قصة الحضارة من جديد معتمدين على نور العقل وحده.

فسألته:

ـ وإن صادفتنا أشياء لا يفصل فيها العقل بحكم؟

فقال بحماس:

ـ لنبدأ بالعقل باعتباره الإنسان ولننظر أين يذهب بنا.

وواصلنا رحلتنا طوال العامين الأولين من حياتنا الجامعية. واعترضتنا أحداث لم تخطر لنا على بال، فقد ألغى إسماعيل صدقى دستور ١٩٢٣ وهبّ الوفد لمحاربته بكل قواه الشعبية.

وكان ثمة يوم رهيب بلغ التوتر فيه مداه. احتلت مفارق الطرق بقوات الشرطة والجيش. ولم يتمكن الشعب من التجمع الذى يصلح أساسا لمظاهرة ضخمة، فعمد الناس من جميع الطبقات إلى التجمد فى الحوارى والأزقة والشوارع الجانبية، ومنها يندفعون بقوة هاتفين ملقين بالطوب فى جميع الجهات ثم يتفرقون بسرعة ليعيدوا الكرة والرصاص يطاردهم. اشتركنا فى مظاهرات ذلك اليوم أنا وطه عنان ورضا حمادة. اشتركنا من أول اليوم فى التجمعات المتفرقة والانقضاضات المباغتة والتفرقات السريعة

على أنغام الرصاص المتطاير. وشاهدنا المئات وهم يسقطون كما شاهدنا الجنود وهم ينقضون عليهم كالنسور فيحملونهم بعنف غير إنسانى ويلقون بهم فى اللوريات ويطمسون آثار دمائهم فوق أديم الأرض بالرمل والأتربة. وقبيل المغرب خفت حدة القتال. وندر ظهور التجمعات، ولكن لم يخل الجو من هتافات متقطعة متباعدة ومن طلقات نارية قليلة ولكن مستمرة. وقررنا العودة إلى بيوتنا فسرنا معا مخترقين شارع حسن الأكبر. سرنا متشابكى الأذرع من شدة الإعياء ونحن نتصبب عرقا، وقال طه عنان وهو يتوسطنا:

ـ منذ أشهر والشعب يقاوم والضحايا يسقطون بلا حساب ولا مبالاة..

فقال رضا حمادة:

ـ إنه سفاح متعطش للدماء!

فقال طه:

ـ على أى حال فإيجابية الشعب خير من المنافشات الباردة التى نسمعها فى صالون أستاذنا الدكتور ماهر عبد الكريم.

وثقل بين أيدينا حتى سألته:

ـ هل غلبك التعب؟

ولكنه ثقل أكثر دون أن يجيب فالتفتنا نحوه فرأينا فاه ينفث دما غزيرا. صاح حمادة:

ـ أصيب برصاصة..

لم تكن الطلقات قد سكتت. ورأينا لافتة طبيب أسنان فحملناه إليها ونحن نرتعش من الاضطراب. وكانت العيادة خالية ولكن التمرجى أنامه على كنبة وهرع إلى التليفون لطلب الإسعاف.

ولفظ طه أنفاسه الأخيرة بين أيدينا قبل أن يصل رجال الإسعاف.

عباس فوزى

جمعت بيننا مودة صميمة منذ أول يوم دخلت فيه الخدمة. وكان يجمع مكاتبنا ركن واحد بإدارة السكرتارية العامة، أنا وعباس فوزى وكيل السكرتارية وعبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة. ولما قدمه رئيسنا طنطاوى إسماعيل قائلا:

ـ الأستاذ عباس فوزى وكيل السكرتارية.

نظرت إليه باهتمام وسألته :

ـ حضرتك الكاتب المعروف؟

فأجاب بالإيجاب فشددت على يده بحماس ، والموظفون يرمقوننا بفتور وقرف . وقلت له :

ـ طالما انتفعنا بكتبك عن التراث .

فقال :

ـ ولكن الجامعة لا تعترف إلا بالشهادات .

ـ ولكن ثمة درجة من العلم تتخطى أى شهادة !

فقال بحنق :

ـ أستاذك إبراهيم عقل لا يؤمن بذلك .

على أى حال اعتبرته جوهرة فى عالمى الجديد ، زاملته فى العمل ، والتقيت به فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم وسالم جبر ثم فى صالون جاد أبو العلا فى زمان متأخر . وعجبت كيف أنه فى الدرجة السادسة فقط بالرغم من شهرته وبلوغه الخامسة والثلاثين من العمر ، ثم تبين لى أن زملاءه يعتبرونه مغتصبا للدرجة باسم الخزعبلات التى يؤلفها . والموظف القح لا يحترم عادة إلا الموظف «الحقيقى» الخبير بالإدارة واللوائح ، أما تأليف الكتب فيعد عندهم نوعا من العربدة التى لا تليق بالمحترمين من الرجال . ويحكون حكاية وثبته إلى الدرجة السادسة فيقولون إنه كان كاتبا بالأرشيف كما ينبغى له . فحتى الابتدائية لم يحصل عليها ، ولكنه دأب ـ كلما تولى الوزارة وزير جديد ـ أن يحمل إليه مجموعة من مؤلفاته مصحوبة بإهداء شعرى ، وكان الوزراء يتقبلون الهدية شاكرين ومن ثم يرجع إلى الأرشيف ويسدل الستار على الدراما المتكررة ، حتى تولى الوزارة رجل يحب الأدب فأعجب به ورقاه إلى الدرجة السابعة ، ثم ـ بعد عامين إلى السادسة مع نقله وكيلا للسكرتارية ، هكذا فرض الرجل عليهم . وكان الأستاذ عباس فوزى على علم بما يقال ، وكان يبادلهم احتقارا باحتقار ، وكثيرا ما قامت بينه وبينهم معارك كلامية حتى يفصل بينهم أهل الخير .

وكان يعتبر الموظف حشرة من الحشرات السامة ، وكان يعرف الإنسان فيقول : «الإنسان موظف ناطق !» .

غير أن رجلا فاضلا مثل طنطاوى إسماعيل قال لى مرة :

ـ احذر ذلك الرجل ، إنه ذو علم ولكنه بلا خلق .

المسألة أنه كان مثقلا بالعيال والفقر وكان يكافح بكل سبيل لإسعاد نفسه وأسرته . ولم أعرف رجلا مثله ينضح بالمرارة ، وكان يترجم مرارته إلى سخريات لاذعة لا ترحم

كبيرًا ولا صغيرا، موظفا أو مفكرا أو أديبا. سخر من أخلاق الموظفين رغم تشبعه بها حتى قمة رأسه، ويهون من شأن الناجحين والمفكرين رغم قصوره عن بلوغ ما حققوه حتى فى ميدانه، ويحتفظ دائما بمدخر لا ينفد من المعلومات التى تشكك فى مواهبهم أو تزرى بسلوكهم الشخصى. أما قيمته الحقيقية فكانت مركزة فى تراث اللغة، ولا أغالى إذا قلت إنه كان يحفظه كله شعرا ونثرا عن ظهر قلب. قال لى يوما:

ـ شد ما يبهركم الأدب الغربى حتى تظنونه كل شىء، أما أدبكم العربى فلا تعرفون منه شيئا، إنى أتحداك، أذكر لى ما شئت من مختار أشعارك الغربية وسأعطيك ما يقابلها من تراثنا.

وجعلت أردد له ما حضرنى من معانى الشعر والنثر فكان يعطينى المقابل العربى بما يقارب الإعجاز. وكان يلاحقنا ـ إذا تكلمنا ـ بتصحيح نطق الكلمات، وكان يقول:

ـ لا يجوز أن تطبع كلماتنا بدون تشكيل.

وأذكر أنه مرض يوما بالكلى فذهبت مصطحبا الأستاذ عبد الرحمن شعبان المترجم لنعوده، فوجدناه راقدا ملفوفا ببطانية لا يبدو منها إلا رأسه. فجلسنا قرب فراشه وسألته:

ـ كيف حال الكلى يا أستاذ.

ونطقتها مكسورة الكاف كالمألوف فما كان منه إلا أن صحح النطق قائلا بصوت لا يكاد يسمع من الضعف:

ـ الكُلى.

رافعا الكاف. وعدنا والمترجم يقول لى:

ـ إذا مات هذا الرجل فسوف يصحح النطق للملاك الذى سيحاسبه!

وتركز اهتمامه فى تراث العربية فلم نعرف له هواية أخرى، فهو لا يتذوق أى فن آخر حتى الغناء، ولا يكاد يعرف شيئا ذا بال من الثقافة الحديثة بوجه عام، ولا يهتم بالسياسة، ولا يفرق بين حزب وآخر، ولا يحترم إلا الوزير القائم بالوزارة، ولا يؤمن بقيمة من القيم ولا دين من الأديان، ولم يحب بإخلاص إلا نفسه وأسرته واللغة العربية. وكان مكتبه بالوزارة ملتقى لكثيرين من الشعراء والكتاب والصحفيين والزجالين من مختلف الأجيال، ولعل كثيرين منهم كانوا يستعينون به فى مراجعة نصوصهم من الناحية اللغوية والنحوية نظير مبالغ بسيطة. وكان دائما يحسن الترحيب بهم فيغدق عليهم أعذب ألحان المديح حتى إذا ذهبوا انهال عليهم بالحجارة!

ـ أرأيتم ذلك الرجل؟.. إنه لا يتملق وهو فى المدينة!

ـ مسكين ذلك الزجال.. طلق زوجته لوقوعه فى غرام ابن لها من زوج آخر!

ـ أما هذا فلعله الشاعر المعاصر الوحيد الذى فاق فى لواطه الشاعر الراحل الكبير فلان!

ـ هذا الكاتب ذو قلب كبير حقا.. لقد أحب جميع الأحزاب، ولا يحلو له حب حزب إلا وهو فى الحكم!

وزاره مرة إنجليزى عجوز، لبث فى مصر بعد إحالته على المعاش، وكان يتقن العربية إتقانه للإنجليزية، ولما ذهب الرجل قال:

ـ إنى معجب بالأخلاق الإنجليزية، فثمة فرق هائل بين لوطى إنجليزى ولوطى مصرى، اللوطى الإنجليزى يحمل لواطه معه إلى أقصى الأرض فلا يمنعه ذلك من خدمة الإمبراطورية حتى الموت، أما اللوطى المصرى فلا يعرف لنفسه مبدأ أو عقيدة!

وكما لم يرحم أحداً فلم يرحمه أحد. كان يزعم أن والده مهندسا فقالوا إنه كان ترابيا، وأن أمه كانت غسالة، ورموه كذلك بالشذوذ الجنسى.

لم يرحم أحدا إلا الوزير الذى عطف عليه أو الذى ـ على حد تعبيره ـ اكتشفه، فكان يقول عنه:

ـ كان رجلا أديبا وشهما ومنصفا رغم أنه كان وزيرا!

ولكنه كان يكبح جماح عدوانه إزاء أصحاب النفوذ، من هم فى الوزارة ومن هم خارجها، فلا يتدخل فى مناقشة حزبية، أو يتعرض بكلمة لرجل من رجال السراى ولو كان طاهيا، وفى أثناء الحرب تظاهر بأنه من أنصار الحلفاء. فلما كانت موقعة دنكرك وظن كثيرون أن الحرب موشكة على النهاية بانتصار الألمان سمعته يترنم بقول بشار:

بعثنا لهم موت الفجاءة إننا
بنو الموت خفاق علينا سبائبه
فراحوا فريق فى الإسار ومثله
قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

ولما دارت الدائرة على الألمان فى موقعة العلمين استشهدت بدورى بشعر بشار فأدرك مكرى ومن فوره قال:

ـ لا رحم الله بشارا، كان نازيا لوطيا!

وغداة ٤ فبراير ١٩٤٢ ثار أذيال الأحزاب من الموظفين فاتهموا الوفد بالخيانة، أما الوفديون فقد فرحوا وطربوا وراح عم صقر الساعى يرقص فى الإدارة، فخاف عباس فوزى أن يفسر صمته بأنه موقف غير ودى من الوفد، فانتهز فرصة غضب طنطاوى إسماعيل وهتافه «الطوفان.. الطوفان.. الطوفان..» وقال برزانة:

ـ قولوا فيما حدث ليلة أمس ما شئتم ولكن من الإنصاف أن نعترف لمصطفى النحاس بأنه أنقذ الوطن فى هذه المرحلة الحرجة من حياة الوطن!

ومن حسن حظه أن كان الوزير الوفدى مغرما بالأدب فرقاه إلى الدرجة الخامسة وعينه رئيسا للسكرتارية عقب إحالة طنطاوى إسماعيل إلى المعاش. على أن كتبه لم تلق من الرواج ما كان يطمح إليه لمناقشة الأساتذة الجامعيين له فى ميدانه وتفوقهم عليه بمنهجهم العلمى الحديث. وزاد من شجاه أن أحد تلاميذه استغل معرفته بالتراث فى تأليف كتب دينية عن النبى والقرآن فربح من ذلك أموالا خيالية فكاد الرجل أن يجن. وراح يقول:

ـ على أيامنا كان الإلحاد هو الموضة فولينا وجهة أخرى!

ثم هز رأسه فى أسى وتساءل:

ـ كيف فاتنى ذلك الباب الذهبى؟!

ثم سألنى حانقا:

ـ أتعلم ما هى الثروة الحقيقية فى بلاد العرب؟

ثم أجاب:

ـ ليست البترول ولكنها السيرة النبوية والقرآن.

فقال له الأستاذ عبد الرحمن شعبان المترجم:

ـ ما رأيك فى أن نترجم معا بعض الكتب الغربية التى أنصفت الرسول؟

فرحب بالفكرة، ونفذاها، بالرغم من إلحادهما الكامل فدرت عليهما ربحا يعتبر أول ربح ذى وزن ربحه فى حياته. وانطلق بعد ذلك يكتب سير الأنبياء، فتحسنت أحواله، وواجه بثقة ارتفاع الأسعار الذى أعقب الحرب، حتى قال لى يوما:

ـ ليت الله أرسل أضعاف أضعاف من أرسل من الأنبياء والرسل.

ومضى أبناؤه يتخرجون فى الجامعة ويتوظفون. فقرر فى عام ١٩٥٠ القيام بأول إجازة صيفية فى حياته. أجل، لم يكن يطلب إجازة أبدا، ولبث يعمل عاما بعد عام بصفة متواصلة حتى سألته:

ـ لم لا تقوم فى إجازة لتنعم بقدر من الراحة؟

فضحك وقال:

ـ يا لك من طيب القلب، أنت لا تدرى شيئا عمن يطمعون فى وظيفتى، إنهم يلقوننى بالأحضان على حين يوارون خناجرهم وراء ظهورهم، فإذا غبت شهرا سعوا سعيهم ودسوا دسائسهم ليستولوا على الوظيفة، إننا نعيش فى غابة من الوحوش ولكنهم أحط من الوحوش وأقذر.

ولم أفهم منطقه وعجبت له . على أى حال وثق عام ١٩٥٠ بنفسه واطمأن إلى دخله من كتبه فقرر أن يبر نفسه بإجازة ، بل سافر بحرمه وكريمته إلى الإسكندرية . كان يرى الإسكندرية لأول مرة فى حياته ، ولكنه وجد نفسه كالتائه الشريد إذ لم يتعود أبدا معاملة الفراغ . كان يومه مستغرقا دائما بالعمل فى الوزارة ، فى البيت ، فى صالونات الأدب ، ولكنه لم يعرف مقهى أو سينما أو مسرحا فضلا عن الإسكندرية . لذلك ضاق بالمصيف ، وفزعت حرمه من الزحام ، فقررا العودة بعد أسبوع واحد ، بالرغم من توسلات ابنتهما الحارة . ولما قدمت ثورة يوليو لم تكد تؤثر فيه شيئا . فلا حزن على العالم المولى ولا سر للعالم الصاعد ، وضاعف نشاطه فى التأليف الدينى حتى حاز ثروة كبيرة بكل معنى الكلمة . وأحيل إلى المعاش عام ١٩٥٩ فتفرغ لعمله أكثر ، وشيد عمارة فى عابدين أقام لنفسه فوق سطحها فيللا ، ولكنه مازال حتى اليوم متمردا ساخرا ، وكلما زرته أتحفنى بالجديد من سخرياته وشكاياته . قال :

ـ تصور أننى لم انتخب حتى الآن فى المجمع اللغوى ! . . كأن أعضاءه الخواجات أفقه فى اللغة منى ! والمجلس الأعلى للآداب لا يوجد عباس فوزى ضمن أعضائه ! . . هل حُتم ألا يدخله إلا العوام ؟ !

ولما لاحظ همى وغمى فى الأيام التى أعقبت هزيمة يونيو قال باسما :

ـ شاب شعرك ولم تتعلم الحكمة بعد !

ثم تساءل بسخرية :

ـ هل ثمة فارق حقا بين أن يحكمك الإنجليز أو اليهود أو المصريون ؟ !

عدلى المؤذن

عندما التحقت بالجامعة كان موظفا بها . وكنت ألتقى به كثيراً فى مكتبة الجامعة . كما كان يحضر معنا محاضرات مسيو كوريه فى الفلسفة تحصيلا لبعض فوائد رآها ضرورية فى تحضير رسالة الماجستير . وكنا ندعوه «الكاتب المصرى» للشبه العجيب الذى بينه وبين وجه التمثال المعروف بالكاتب ، غير أنه كان طويلا عريض الكتفين ذا وجه أسمر غامق تتحرك فيه حركة متحدية براقة عينا صقر يشعان ذكاء ودهاء ، التقينا مرة فى حديقة الأورمان ونحن سائران إلى الكلية فتصافحنا وأخذنا فى الحديث . قال :

ـ سأقدم رسالة الماجستير فى اكتوبر القادم ولكننى أفكر منذ الآن فى الخطوة التالية . .

فسألته :

ـ الدكتوراه؟

ـ كلا، هل لك فكرة عما يمكن أن يروج من الكتب الفلسفية؟

ـ لا أعتقد أن الكتب الفلسفية توضع للرواج.

ـ ولكن إذا أصدرنا سلسلة من الكتب عن ضحايا الفكر الحر فى الفلسفة والتصوف ألا نسهم بذلك فى الدفاع عن الحرية المغتالة فى هذا العهد؟

فقلت بحماس:

ـ فكرة بديعة...

ـ وناجحة، أليس كذلك؟

ـ بكل توكيد..

ولكنه حصل على الماجستير ولم ينفذ فكرته، ولم ينشر من الكتب إلا تحقيقا لتهافت الفلاسفة وتحقيقا آخر لتهافت التهافت. وكان زميلى فى الكلية عجلان ثابت هو الذى أطلعنى على جانب من ماضيه المجهول، قال:

ـ إنه يسكن معنا فى حى السيدة، وكان أبوه سائق ترام، وهو يعيش اليوم مع أمه وشقيقته.

فقلت:

ـ إن مظهره المهيب الرزين يقطع بأنه من سلالة حكام!

فضحك عجلان ثابت وقال:

ـ توظف بالابتدائية ثم درس وهو موظف حتى بلغ ما بلغه من العلم.

ثم همس:

ـ ويبدو أن شقيقته بنت لعوب عفريتة ولذلك فاتها سن الزواج ولم تتزوج!

ولم يكن يخلو من جانب مزاح ففى أحد احتفالات آخر السنة بالكلية تطوع لتقليد بعض الأساتذة، ونجح فى تقليد الدكتور إبراهيم عقل نجاحا مثيرا، فما كاد يتكلم عن المثل العليا حتى دوت القاعة بالتصفيق الشديد. ومع ذلك كانت علاقته بالدكتور إبراهيم عقل وثيقة، ولما ولى الدكتور منصبه الخطير نتيجة لتقربه من السراى اعتمد فى إدارته على عدلى المؤذن، وهو الذى قدمه إلى أحد الوزراء قبيل الحرب العظمى الثانية فنقله الوزير إلى وزارته مفسحا لطموحه مجالا جديدا أحفل بالفرص من إدارة الجامعة. هكذا وفد إلى وزارتنا كرجل خطير من رجال الوزير، وزرته مهنئا ومستبشرا بقدومه خيرا، ولكنى وجدت فيه شخصا جديدا، شخصا إداريا خطيرا مقطوع الصلة تقريبا بالرجل الذى كان يتلمس طريقه بمشقة بين مسالك الفلسفة.. وتجلت مواهبه الكامنة فى خدمة

الوزير والوزارة، وكان ـ والحق يقال ـ حاد الذكاء ذا مقدرة إدارية فذة، وكان بارد الأعصاب لدرجة لا تصدق ولم تُعهد عادة بين المصريين، ومنذ أول يوم شعر شرارة النحال بخطورته وعمل له ألف حساب وحساب. وخيل إلى الأستاذ عباس فوزى أنه طرأ على الوزارة موظف خطير مثقف لأول مرة، وأنه يحسن به أن يهدى إليه مؤلفاته، وفعل، وقال له وهو يهديها إليه وبحضورى إذ كنت أنا الذى قمت بالتعارف بينهما :

ـ ليس من عادتى أن أهدى كتبى إلى أحد، ولكن الكتب لا تؤلف إلا لتهدى إلى أمثالك!

فقال عدلى المؤذن ببروده النادر :

ـ أعترف لك بأنى اطلعت عليها . .

فشاع الفرح فى وجه عباس فواصل الآخر قائلا :

ـ وأعترف لك بأنى وجدتها سطحية لم تكد تضيف إلى الأصل إلا قليلا .

فاصفر وجه عباس فوزى غير أنه قال متظاهرا بالمرح :

ـ لا تحكم بعقلك يا أستاذ، نحن نكتب للبسطاء لنعلمهم، أما الفلاسفة فلا سبيل لنا إليهم .

وعدنا إلى الإدارة والرجل يقول لى فى الممشى :

ـ لا تخبر بما سمعت أحدا من الرعاع .

فقلت له برثاء خفى :

ـ طبعا . .

فقال مستردا طبعه الساخر :

ـ بدأت الفلسفة بابن رشد وانتهت بابن كلب!

وفى مدة وجيزة أحاط عدلى المؤذن بشئون الوزارة والموظفين. وكان يشغل وظيفة رئيس المكتب الاستشارى. فاتصل بحكم عمله بجميع فروع الوزارة. وأثبت فى العمل طاقة خارقة. واستحق بعمله الثقة كل الثقة دون انزلاق إلى سراديب الحزبية، مع الاحتفاظ لشخصيته بالاحترام، ومع عدم الحيد إلى ما يمس الكرامة إلا عند الضرورة القصوى فرفع الوصولية إلى أرفع مراتبها. وكان فى أعماقه ميالا للوفد وقيمه الشعبية والديموقراطية والاستقلالية، ولكنه كبتها فى الأعماق، وتغلب عليها بقوة أعصابه الباردة. ولم يعرف عنه أنه صنع خيرا فى حياته، ولم يتورع عن إيذاء شخص طالما وسعه ذلك، وكان بلا شك يجد سعادة خاصة فى الشر والتحدى والايقاع بالخصوم بل وبالأصدقاء، ولم يكن يهمه أن يكون محبوبا، وخيل إلىّ كثيرا أنه يعمل بشغف على أن

يكون موضع النقمة والبغض والحسد. وهو يختلف فى ذلك عن شرارة النحال الذى آثر بعض الأذناب بالعطف، والذى حرص دائما على معسول الكلام حتى وإن دس فيه السم، والذى سعى إلى نيل الثقة ولو بالكذب والنفاق. لذلك كره الموظفون عدلى كإبليس، وتهامسوا بنقاط ضعفه كأصله وسيرة أخته، ومنهم من فسر عزوبيته بشذوذ جنسى يخفيه بصرامته وعنجهيته، ولذلك فإن الموظف الوحيد الذى ساعده كان شابا جميلا منحلا. وطالما ساءلت نفسى حائرا كيف أمكنه المحافظة على كرامته ووظيفته بالرغم من تتابع الوزراء والأحزاب عليه؟ وبالبحث والتحرى، ولمعرفتى الوثيقة به، علمت أنه كان يبسط حمايته ـ وقت إقبال الدنيا عليه ـ على عدد محدود من موظفى الأحزاب المختلفة، حتى إذا أقبلت دنيا الأحزاب على أحدهم رد الجميل إليه فزكاه عند وزيره، بذلك احتفظ بمكانته فى جميع العهود معللا فوزه بكفاءته الشخصية وحدها، وظل يترقى من درجة إلى درجة حتى عين مديرا عاما قبل ثورة يوليو. ورغم صلتنا القديمة وزمالتنا العلمية لم يتورع عن التضحية بى فى أول فرصة سنحت. كان ذلك عندما رشحتنى لجنة شئون الموظفين لدرجة خالية بعد مقارنات طويلة بينى وبين منافسى الذى كان كاتبا بالسجلات. ورفعت اللجنة قرارها فوقعه الوزير وغادرت الوزارة مترقيا متلقيا التهانى. ولما رجعت إلى الوزارة صباحا فوجئت بإلغاء القرار وترقية المنافس بدلا منى. كدت أفقد عقلى، وبالبحث علمت أن موظفا كبيراً بديوان جلالة الملك اتصل مساء أمس بالأستاذ عدلى المؤذن موصيا بمنافسى فما كان منه إلا أن سارع إلى مقابلة الوزير ـ والعهد كان ملكيا ـ وأخبره بالتوصية، وفى الحال تمزق قرار ترقيتى وتحرر قرار جديد بالترقية الجديدة. وذهبت إلى عدلى المؤذن منفعلا وناقشته فيما سمعت من أنباء ولكنه ظل طيلة الوقت صامتا باردا حتى تعبت وبخت، ثم قال لى بهدوء:

ـ أعدوا بيان الميزانية الجديدة للنشر فى الصحف!

وعرفت أمورا أكثر من وكيل المستخدمين الذى كان له صديقا كما كان لى عدوا، قال لى:

ـ ما حصل يعتبر مخالفة صريحة للقانون، فالقرار الوزارى لا يجوز تغييره إلا بقرار وزارى مثله، وقد اطلعت بنفسى على قرار ترقيتك فمتى صدر قرار آخر بإلغاء الترقية؟

فسألته:

ـ ألا تستطيع أن تثير المسألة رسميا؟

فقال ضاحكا:

ـ هيهات أن يستطيع ذلك إلا السفير البريطانى نفسه!

فسألته بدهشة :

ـ ولكن ما علاقة الموظف الآخر وهو على قد حاله مثلى تماما برجل السراى الخطير ؟ !

فقال ضاحكا :

ـ صل وسلم على سيدنا لوط !

ومنذ ذلك الموقف فترت علاقتى به حتى كادت تقتصر على العمل الرسمى قبل ذلك كنا نلتقى صباحا فى ميدان سليمان باشا ، نسير كزملاء رغم فارق الدرجة ، فنتناول فطورنا فى الأميركين ، ثم نمضى فى طريق الوزارة معلقين على الأحداث والمارة والأشياء . ويبدو فى تلك الفترة لطيفا ودودا ضاحكا محبا للمزاح حتى ليقص على آخر ما سمع من النكات السياسية عن الملك وحاشيته وأسرته ، أو يدعونى إلى زيارته فى مسكنه الجديد بالمعادى الذى انتقل إليه بعد صعوده السريع ، ثم قد يستدعينى إلى مكتبه بعد ذلك بربع ساعة فيطالعنى بوجه جديد ، وجه صارم بارد مجرد ، يأمر ويكلف وينذر بلا رحمة ولا ذوق ! وأغادره وأنا أضرب كفا على كف ، ومرة فضفضت نفسى فبحت بما يكربنى للأستاذ عباس فوزى فقال لى :

ـ عنده انقسام شخصية ابن القديمة ، نحن موعودون فى هذه الوزارة بكافة أنواع الشذوذ .

ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ تهيأت له فرصة للتخلص من شرارة النحال أكبر منافس له على وكالة الوزارة . وأشهد أنه كان وراء بعض العرائض التى قدم بها شرارة إلى لجنة التطهير ، ولكن الرجل نجا بأعجوبة ورقى وكيلا للوزارة فتلقى عدلى المؤذن أكبر ضربة وجهت إليه فى حياته . وسرعان ما وجد نفسه غريبا بين موظفين جدد لم يعرف لهم أصلا ولا فصلا . اختفى أغلب معاونيه فى التطهير واستقبل حياة جديدة بكل معنى الكلمة . ورجع يخطب ودى كما كان يفعل فى حديقة الأورمان ، ورجعنا نتلاقى فى ميدان سليمان باشا وراح يقول ساخرا :

ـ لقد سقطت الوزارة فى أيدى جماعة من الغلمان !

أو يقول :

ـ ما قيمة أن تعرف القوانين والأصول الإدارية ؟ ممكن أن تفعل الآن أى شىء كما تشاء وكيفما تشاء باسم الثورة !

وشعرت لأول مرة فى حياتى بأن موجة من العدالة تجتاح العفونة المتصلة بلا هوادة فتمنيت أن تواصل سيرها بلا تردد ولا اعوجاج وفى نقاء وطهر إلى الأبد . وحاول الرجل التسلل إلى القيادات الجديدة ولكنه لم يفلح . وما لبث أن أصيب بسرطان الدم فاعتكف فى بيته فترة ثم وافاه الأجل حوالى عام ١٩٥٥ . ولا أنسى ساعة انتشار خبر

وفاته فى الوزارة، فقد خرج الموظفون على تقاليدنا المرعية، وسمعت العشرات وهم يقولون بأصوات مرتفعة شامتة:

ـ الله يجحمه!

ـ فى ألف داهية!

وكانت جنازته أفقر جنازة شهدتها، شيعها عشرة أنفار، قريب واحد وتسعة من زملائه القدامى بالجامعة. وحضرها رجل ذو شأن هو الدكتور إبراهيم عقل فى عهد دروشته التى أدركته بعد وفاة ابنيه وقبيل وفاته. وعقب وفاة عدلى المؤذن بيوم واحد انتحرت شقيقته العانس.

عبد الرحمن شعبان

شخصية لا تنسى. عندما جلست إلى مكتبى لأول مرة فى إدارة السكرتارية لفت نظرى بشدة كهربية. عملاق فى طول العقاد وضخامة زيور باشا، أنيق الملبس فخم المنظر، تخاله وزيرا رجعيا أو مدير بنك.

ـ حضرته أستاذنا الكبير عبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة.

ليس هذا فحسب ولكنى عرفت أيضا مع الأيام أن مرتبه عشرون جنيها لا غير! بدا لى أول يوم منطويا متجهما كحصن فقدّرت المتاعب فى زمالته التى فرضتها الأقدار على، ولكنه كان يفتح قلبه بيسر وبسرعة، وسرعان ما تنفجر قهقهاته كالقنابل ويحتقن وجهه المستدير الريان بالدم ويتجلى فى براءة الأطفال. وعند الحديث تنهمر منه المعلومات كالمطر الغزير، فهو يحب الموضوعات التى تطرق مدخراته من المعارف بقدر ما يضيق بالموضوعات التى يجهلها فتضطره إلى التزام السمع وهو أبغض الأشياء إلى نفسه. يحب الكلام لحد العبادة، ولديه معلومات عن أشياء لا حصر لها: السيارات والأثاث والزيوت والأمراض والساسة والأفلام والبلاد والنكت والتاريخ والجغرافيا والفلك والقانون والمصارف والدعارة. طفل كبير فى الخامسة والثلاثين، خفيف الروح، دعاباته أزهار منورة، ونوادره وشى منمنم، أما غضبه فآه لو انفجر غضبه، وما أسهل أن يثور غضبه. لشيء ولغير ما شيء ينفجر غضبه، وعند ذلك تزلزل الزلازل وتنفجر البراكين وتنطلق الأعاصير، فإذا لم يقابل بتحد هدأ وسكن وتراخى وتراجع فاعتذر وقدم السيجارة أو أمر بالقهوة. تناقش مرة مع أحد الموظفين فعانده الرجل حتى أثاره، وأراد أن

يفحمه فاستشهد بنادرة من التاريخ الإسلامى ـ وعبد الرحمن يجهل التراث جهلا تاما ـ فقال :

ـ دخل بدوى على عبد الملك بن مروان فقال . .

ولكن عبد الرحمن شعبان انتتر قائما كعمود السوارى وصاح وهو ينتفض غضبا :

ـ عبد الملك بن مروان! من هو عبد الملك بن مروان؟! . . تستشهد لى بحيوان يا حيوان ، ملعون أبوك أنت وعبد الملك بن مروان .

وهجم عليه كالوحش ففر الرجل من الإدارة كالنحلة . ولكنه لم يقدم فيه شكوى ، حتى طنطاوى إسماعيل رئيس السكرتارية كان يتجاهل ذلك التمرد الصارخ على أصول الوظيفة ، وكان يقول :

ـ إنه أحمق ولكنه أنظف معدن فى هذه الوزارة .

وأدركت أن معاندته غير مأمونة ، وأن الخوض معه فى موضوع تعرفه ويجهله مغامرة جنونية . ولعل عباس فوزى كان أول من عرف كيف يداريه بمكره ولباقته ، ومع أن عبد الرحمن كان يحتقره فى باطنه إلا أنه عامله باحترام ومودة وكان أبوه وزيرا للحربية ، أرسله إلى فرنسا ـ بالبكالوريا ـ ليدرس الطب فمضى يتنقل ما بين فرنسا وانجلترا عشرة أعوام دون جدوى ، مكث عاما أو عامين فى كلية الطب . وعامين آخرين فى كلية العلوم ، كذلك الحقوق والآداب . ولكنه لم يتثابر ولم يحصل على شهادة . ولما توفى والده رجع إلى مصر فى الثلاثين ، يحمل فى رأسه دائرة معارف مضطربة غير متكاملة وخبرة عميقة بالإنجليزية والفرنسية والنساء والقمار والحانات والمسارح والسينما وبيوت الدعارة ، كما رجع بزوجة لبنانية تقاربه فى العمر أو تماثله . ولم يترك أبوه له مالا ، وكانت أخته الكبرى متزوجة من سفير خارج القطر ، فعمل مترجما فى السفارة الفرنسية .

ـ لم أعمر فى الوظيفة أكثر من عام ثم اضطررت إلى تركها بسبب لكمة وجهتها إلى الملحق الصحفى!

واشتغل بالإذاعة ـ قبل تمصيرها ـ ثم اضطر إلى الاستقالة بعد مشاجرة عنيفة ، وعمل فى جريدة المقطم حتى وجه إلى صاحبها كلمة نابية كاد يقدم من أجلها للمحاكمة فتركها ، وأخيراً التحق بخدمة الوزارة بعد نجاحه فى امتحان أعلن عنه فى الصحف . وكان اعتاد الحياة الدسمة المضيئة على الطريقة الأوربية فلم يف مرتبه بتحقيق مآربه ، فاستغل قدراته فى اللغتين فى الترجمة للصحف ودور النشر وروايات الجيب ، مكرسا جهده الضخم لرفاهية الحياة ولابنة وحيدة كان يعبدها عبادة . وأقام فى شقة فى شارع فؤاد الأول ، وأحاط جوه العائلى بصداقات أوروبية لأسر فرنسية وإيطالية وأحيانا

إنجليزية، ليكفل لنفسه البيئة التى يعشقها بكل مشتهياتها من أثاث جميل ومأكل طيب وشراب ممتع وصحبة راقية وأحاديث طلية رفيعة. وكان يقول بوجد:

- أوروبا روح الدنيا وأهلها ملائكة الخلق أما من عداهم فهم حيوانات أو حشرات.

ومرة قال لى:

- أصاب أحيانا بذهول مرضى عندما أنظر حولى فأجد نفسى غريبا وسط نفر من الموظفين التعساء الجهلاء الخانعين المطيعين المتملقين المنافقين، الله يرحمك يا أبى، لم بددت مالك فى القمار؟!

ولم يكن يوجد ما يدل على إسلامه إلا شهادة الميلاد. ولا يعرف من دينه إلا اسم «محمد»، ولم ألمس فيه اهتماما بقيمة من القيم وإن كان شجاعا كريما محافظا على كرامته، وكان مدخنا مجنونا وسكيرا عربيدا ومقامرا متهورا وأكولا متوحشا. وكنا نسير معا عادة عقب انصرافنا من الوزارة حتى محطة الترام الواقعة تحت مسكنه، فلا يكف عن الكلام دقيقة واحدة وأتابعه أنا بالسمع والبصر، وكان ينتقد كل ما تقع عليه عيناه ويقارنه بنظيره فى فرنسا أو إنجلترا:

- أتعجبك هذه المحال والدكاكين؟ إنها زنزانات سوقية.

- أنظر إلى قذارة الشوارع فى قلب المدينة، سيأتى يوم يطالب فيه الذباب بحقوق المواطن!

- ما رأيك فى هؤلاء الغلمان الحفاة فى شارع سليمان باشا؟!

- انظر إلى هذا المنظر الفريد، الكارو والجمل والسيارة فى قافلة واحدة وتقولون الاستقلال التام أو الموت الزؤام؟!

- أيعجبك حقا ذلك المقرئ المدعو على محمود؟ رجل ضرير منفر المنظر يزعق كالأبله، قارن ذلك بقداس كاثوليكى تسبح فى جوه الموسيقى الخالدة!

- صدقنى إن رجال السياسة الذين تعجب بهم لا يصلحون موظفين مبتدئين فى سفارة أجنبية..

- وملايين الفلاحين القذرين بأى منطق يستحقون الحياة؟.. لماذا لا تستغنون عنهم بالآلات الزراعية الحديثة؟!

- إن خير ما تمخضت عنه الحضارة المصرية هو الحشيش ومع ذلك فما أقبحه بالمقارنة بالويسكى!

- هل حقا تعجب بهؤلاء الكتاب والأدباء؟.. صدقنى إنهم أميون على المستوى العالمى.

ـ اسمح لى أبول على جميع من تحبهم من زعماء وأدباء ومطربين.

ـ أتعرف ما هى أكبر نعمة أغدقت علينا؟ . . هى الاستعمار الأوروبى، وسوف تحتفل الأجيال القادمة بذكراه كما تحتفلون بمولد النبى.

ـ لا يغيظنى شىء كما يغيظنى ضربكم الأمثال بعدالة عمر ودهاء معاوية وعسكرية خالد، عمر شحاذ ومعاوية دجال وخالد فتوة درجة ثالثة لم يجد من يؤدبه.

ـ المرأة المصرية هى المخلوق الوحيد الذى يستحق التقدير، فهى لبؤة، ويمكنها إذا منحت مزيدا من الحرية إسعاد هذا الشعب الذى يستحق الإبادة.

ـ أليس الأفضل للإنسانية أن ينتشر الأوروبيون فى الأرض وأن يبيدوا من عداهم من بنى آدم؟!

لم يكن يقرر ذلك عن حقد ولا عن رأى بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة، ولكن عن انفعال، ووسط ضحكات بريئة، ولو صادف بعد ذلك شخصا يتعصب لأوروبا لانقلب بنفس الحماس مدافعا عن الشرق، فهو معارض بطبعه، إن قلت حلوا قال مرا وإن قلت مرا قال حلوا، مغتنما الفرص على الحالين للكلام. ولم أجد عنده أصالة فى عواطفه إلا ما تعلق بكريمته، فهو يعبدها عبادة، ويروى أحداثها التافهة كأنها ملاحم ويستشهد بكلامها الفارغ كأنه جوامع الحكم، وينقل إلينا آراءها التى ينسبها إليها كذبا وادعاء ـ فيما مر بالوطن من أحداث وحروب، منوها بذكائها المبكر الذى يكبر سنها بعشرات السنين. وكنت دائما أخاف أن يصطدم يوما بشخص قوى ومؤذ مثل عدلى المؤذن أو شرارة النحال ولكن ضخامته أسبغت عليه مهابة فرضت على كبار الموظفين احترامه، وهو من ناحية أخرى ـ بعد تجاربه المؤسفة فى السفارة الفرنسية والإذاعة والمقطم ـ تجنب أصحاب النفوذ ما وسعه ذلك. وكان يقول لى:

ـ لعن الله الأيام التى علمتنا احترام الأوغاد، الله يسامحك يا بنتى!

وقد دعوته إلى الفيشاوى وعرفته ببعض الأصدقاء مثل جعفر خليل ورضا حمادة وشعراوى الفحام فأعجبه المكان وأحب الأشخاص، وفى جنازتى شعراوى وجعفر بكى كطفل. وبالرغم من مودتنا الحميمة فإننى لم أسلم من غضبه، فيوما كنت أقرأ الجريدة فاطلعت على صفحة مخصصة لذكرى سلامة حجازى، ونقلا عن كاتبها قلت للأستاذ عباس فوزى بسرور:

ـ هل تصدق أن فردى قال عن سلامة حجازى إنه لو كان ولد فى إيطاليا لما كان له ـ فردى ـ شأن؟!

وإذا بالأستاذ عبد الرحمن يرمى بكتاب كان يقرأه وصاح بى كبركان:

ـ ما هذا الكلام الفارغ! أتصدق أى كلام يتقوله هؤلاء الأوباش فى الصحف؟ . . من

هو سلامة حجازى؟ . . إن أى منادى سيارات فرنسى أعذب منه صوتا، ولكن هكذا أنتم أيها المصريون، لن تزالوا غارقين فى أوهام الكلمات حتى تموتوا، كوكب الشرق . . مطرب الملوك والأمراء . . سلطانة الطرب . . عاهل التمثيل فى الشرق . . لو لم أكن مصريا لتمنيت أن أكون مصريا . ولم لا تتمنى أن تكون حمارا، فيكون لك نفع على الأقل، نيلة تاخدكم أنتم وبلدكم!

وفى عام ١٩٥٠ زوج معبودته «كريمته» من موظف فى البنك الأهلى . واحتفل بزواجها فى الأوبرج، وسعد كما لم يسعد من قبل فسعدنا به . وبعد ذلك بعامين، وعلى التحديد فى صباح يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢ دخل علينا معاون الوزارة وقال :

ـ البقية فى حياتكم فى الأستاذ عبد الرحمن شعبان!

وفزعنا كأنما نسمع عن الموت لأول مرة . كان حتى أمس يتخذ مجلسه بيننا فى الإدارة، وسرت معه حتى مسكنه فى شوارع مكتظة بالمتظاهرين والمخربين وألسنة النيران تشتعل هنا وهناك فى المحال العمومية والملاهى والسينمات . وعلمنا فى أثناء النهار ونحن نشيع جنازته أنه كان ساهرا فى الترف كلوب مع بعض أصدقائه من الإنجليز حين هاجم المتظاهرون النادى فقتلوا من فيه، وقتل الرجل فيمن قتل، وانتهت حياته العجيبة .

عبد الوهاب إسماعيل

إنه اليوم أسطورة، وكالأسطورة تختلف فيه التفاسير . وبالرغم من أننى لم ألق منه إلا معاملة كريمة أخوية إلا أننى لم أرتح أبدا لسحنته ولا لنظرة عينيه الجاحظتين الحادتين . وقد عرفته فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فى أثناء الحرب العظمى الثانية، كان فى الثلاثين من عمره، يعمل مدرسا للغة العربية فى إحدى المدارس الثانوية، وينشر أحيانا فصولا فى النقد فى المجلات الأدبية أو قصائد من الشعر التقليدى . كان أزهريا، لا علم له بلغة أجنبية، ومع ذلك أثار اهتمامى واحترامى بقوة منطقه وهو يناقش أشخاصا من المعروفين بثقافتهم الواسعة واطلاعهم العميق على اللغات الأجنبية مثل الدكتور إبراهيم عقل وسالم جبر وزهير كامل . وامتاز بهدوء الأعصاب وأدب الحديث فما احتد مرة أو انفعل ولا حاد عن الموضوعية، ولا بدا فى مستوى دون مستوياتهم الرفيعة، فكأنه ند لهم بكل معنى الكلمة، فاقتنعت بحدة ذكائه ومقدرته الجدلية واطلاعه الواسع رغم اعتماده الكلى على التراث والكتب المترجمة، ولم يداخلنى شك فى أنه أذكى من إبراهيم عقل وسالم جبر وزهير كامل جميعا . وحتى نقده للكتب العصرية لم يتسم بالهزال أو

السطحية بالقياس إلى نقد المتخصصين من حملة المؤهلات الباريسية واللندنية، وإن كان ثمة فارق دقيق فلم يكن لينكشف إلا لعين العارف المدقق.

قال لى عنه يوما الدكتور ماهر عبد الكريم:

ـ إنه شاب موهوب ومن المؤسف أنه لم يرسل فى بعثة.

وكان الدكتور ماهر عبد الكريم ممن يزنون أقوالهم بميزان دقيق. وبالرغم من أن عبد الوهاب إسماعيل لم يكن يتكلم فى الدين، وبالرغم من تظاهره بالعصرية فى أفكاره وملبسه وأخذه بالأساليب الإفرنجية فى الطعام وارتياد دور السينما، إلا أن تأثره بالدين وإيمانه بل وتعصبه لم تخف عليّ. أذكر أن كاتبا قبطيا شابا أهداه كتابا له يحوى مقالات فى النقد والاجتماع فحدثنى عنه ذات يوم فى مقهى الفيشاوى فقال:

ـ إنه ذكى مطلع حساس وذو أصالة فى الأسلوب والتفكير.

فسألته ببراءة وكنت مغرما بالكاتب:

ـ متى تكتب عنه؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال:

ـ انتظر وليطولن انتظارك!

ـ ماذا تعنى؟

فقال بحزم:

ـ لن أشترك فى بناء قلم سيعمل غدا على تجريح تراثنا الإسلامى بكافة السبل الملتوية.

فتساءلت بامتعاض:

ـ أأفهم من ذلك أنك متعصب؟

فقال باستهانة:

ـ لا تهددنى بالأكليشهات فإنها لا تهزنى.

ـ يؤسفنى موقفك.

ـ لا فائدة من مناقشة وفدى فى هذا الموضوع، وقد كنت وفديا ذات يوم، ولكنى أصارحك بأنه لا ثقة لى فى أتباع الأديان الأخرى!

وقد كان حقا وفديا، ثم انشق على الوفد وراء الدكتور أحمد ماهر وكان عظيم الإعجاب به، ورقى فى عهد السعديين إلى وظيفة مفتش. وكم تخلى عنه حلمه بسبب مصرع الدكتور أحمد ماهر، كأنما أصيب بنفس الرصاصة التى أودت بحياة الرجل، وقال لى بحزن بالغ:

ـ ضاع أعظم رجل فى الوطن.

وكان يشكو صحته كلما سنحت مناسبة، وبها يتعلل فى إفطار رمضان ولكنه لم يصرح بحقيقة مرضه لأحد، كما أنه لم يهتم فى حياته بالنساء ولم يتزوج، وعرف فى تلك الناحية بالاستقامة الكاملة. وعلى جدية أخلاقه، وحملاته الصادقة على المنحرفين، تكشف لى جانب منه لم أكن لأصدقه لو لم أخبره بنفسى. ذلك أنه كان يوجد كاتب صاحب مجلة ومطبعة تصدر سلسلة شهرية من الكتب، وكان عبد الوهاب يحتقره ويقول عنه:

- لولا مجلته لما وجد مجلة تقبل أن تنشر له كلمة.

وكم أدهشنى أن أطالع له مقالة فى الرسالة عن صاحب المجلة رفعه فيها إلى السماء! حرت فى تفسير ذلك، حتى علمت بأنه اتفق معه على نشر كتاب له فى سلسلته الشهرية نظير أجر ممتاز لم يظفر بمثله كاتب آخر! وتذكرت فى الحال موقفه الأعمى من الكاتب القبطى فأزعجنى جدا اكتشاف ذلك الجانب الانتهازى فى شخصيته، وساورنى شك من ناحية صدقه وأمانته. واستقر فى نفسى - رغم صداقتنا - نفور دائم منه. وظل يعمل مفتشا وكاتبا حتى ولى الوفد الحكم عام ١٩٥٠، فلم يرتح إلى معاملة الوزير الوفدى له، فقدم استقالته وتفرغ للعمل فى الصحافة - وعرف فى تلك الفترة بهجومه المتواصل على حكومة الوفد، وفى نفس الوقت شرع يكتب كتبا عصرية عن الدين الإسلامى، لاقت نجاحا منعدم النظير. وقامت ثورة يوليو ١٩٥٢ وهو منغمس فى محاربة الوفد والدفاع عن الدين الإسلامى. وكان مر عامان على الأقل لم نلتق فيهما أبدا وانقطعت عنى أخباره الخاصة. ويوما كنت فى زيارة للأستاذ سالم جبر فقال لى:

- الظاهر أن نجم عبد الوهاب إسماعيل سيلمع قريبا.

فسألته باهتمام:

- ماذا تعنى؟

- أصبح من المقربين.

- ككاتب سياسى أم ككاتب دينى؟

- باعتباره من الإخوان المسلمين.

فهتفت بدهشة:

- الإخوان؟!.. لكننى عرفته سعديا متطرفا.

فقال متهكما:

- سبحان الذى يغير ولا يتغير!

وقابلته بعد ذاك بعام أو نحوه أمام بار الأنجلو فتصافحنا بحرارة، وسرنا معا نتحادث حتى جاء ذكر الثورة فقال بتحفظ:

ـ ثورة مباركة ولكن من العسير أن تعرف ماذا يريدون .

ولمست فى حديثه مرارة لم أقف على سرها ولم يبح به . . كانت له قدرة على الاحتفاظ بأسراره ليست إلا لقلة نادرة من المصريين . . وقلت له :

ـ بلغنى أنك انضممت إلى الإخوان المسلمين؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

ـ أى مسلم عرضة لذلك !

ـ من المؤسف حقا أنك نبذت النقد الأدبى .

فضحك قائلا :

ـ يا لها من تمنيات جاهلية !

وافترقنا وأنا أشعر بأننا لن نلتقى مستقبلا إلا مصادفة فى الشوارع . وعند أول صدام بين الثورة والإخوان قبض عليه فيمن قبض عليهم من أعضاء الجماعة ، وقدم للمحاكمة فحكم عليه بعشرة أعوام سجن ، وغادر السجن عام ١٩٥٦ فرأيت أن أزوره مهنئا ، فذهبت إلى مسكنه بشارع خيرت . والحق أنه لم يتغير كثيرا ، شاب شعر رأسه ، كما يتوقع لرجل فى السابع أو الثامن والخمسين من عمره ، وزاد وزنه حتى خيل إلىّ أن صحته تحسنت عما كانت عليه . وتبادلنا الأسئلة عن الظروف والأحوال ، وكان يحافظ على رزانته المعهودة وبرودة أعصابه الفذة ، وخاض دون مقدمات فى المسائل العامة فأدلى بآرائه بكل ثقة .

ـ يجب أن يحل القرآن مكان كافة القوانين المستوردة .

وقال عن المرأة :

ـ على المرأة أن تعود إلى البيت ، لا بأس من أن تتعلم ولكن لحساب البيت لا الوظيفة ، ولا بأس من أن تضمن لها الدولة معاشا فى حال الطلاق أو فقد العائل .

وقال بقوة :

ـ الاشتراكية والوطنية والحضارة الأوروبية خبائث علينا أن نجتثها من نفوسنا .

وحمل على العلم حملة شعواء حتى ذهلت فسألته :

ـ حتى العلم؟ !

ـ نعم ، لن نتميز به ، نحن مسبوقون فيه وسنظل مسبوقين مهما بذلنا ، لا رسالة علمية لنا نقدمها للعالم . ولكن لدينا رسالة الإسلام وعبادة الله وحده لا رأس المال ولا المادية الجدلية .

استمعت إليه طويلا ضاغطا على انفعالاتى حتى لا أخل بواجب المجاملة ثم قمت للانصراف وأنا أسأله :

ـ ماذا عن المستقبل؟

ـ هل لديك اقتراح؟

ـ لدى اقتراح ولكنى أخشى أن يكون جاهليا هو أن تعود إلى النقد الأدبى!

فقال بهدوء:

ـ تلقيت دعوة للعمل فى الخارج.

ـ وعلام عوّلت؟

ـ إنى أفكر.

وودعته وانصرفت. وبعد انقضاء عام على المقابلة طلعت علينا الصحف بأنباء مؤامرة جديدة للإخوان، ولم أعرف وقتها شيئا عن مصير عبد الوهاب إسماعيل الذى رجحت أنه غادر الوطن للعمل فى الخارج. غير أن الصديق قدرى رزق أكد لى أنه كان ضمن المؤامرة وأنه قاوم القوة التى ذهبت للقبض عليه حتى أصيب بطلقة قاتلة فسقط جثة هامدة.

عبـــدة ســـليمان

لعلها كانت أول فتاة تعين بوزارتنا، ولكن مؤكد أنها كانت أول موظفة بإدارة السكرتارية. عينت فى أيام الحرب العظمى الثانية، فى نفس الشهر الذى تولى فيه عباس فوزى رياسة السكرتارية. كانت فى الخامس والعشرين من عمرها، بضة ممتلئة، سمراء، متوسطة الجمال، خفيفة الروح. وكانت تحمل شهادة البكالوريا، ولم ترغب فى الوظيفة حتى توفى والدها. وقال عباس فوزى محذرا:

ـ كونوا جديرين بالزمالة من فضلكم!

وهمس لى عم صقر وهو يقدم لى القهوة:

ـ صاحبتك من السيدة زينب!

فسألته:

ـ وماله؟

ـ السيدة مأهولة بالطلبة ولذلك فكثيرات من بناتها...

ورسم بيده حركة مثيرة للشك. وعموما اشتدت العناية بالمظهر فى السكرتارية، واسترقت الأعين النظر إلى ركن الحجرة حيث جلست عبدة إلى يمين الأستاذ عبد الرحمن

شعبان. وكان علينا أن ننتظر طويلا حتى تصير عبدة «عادة» يومية لا تثير الأهواء ولا تلفت النظر. وتواترت أخبار تصوّر سلوكها الخاص فى حى السيدة بالاستهتار. وقال لى عم صقر:

ـ لا تصدق أن فتاة «شريفة» تقبل أن تعمل وسط الرجال.

فقلت له:

ـ ولكنها مؤدبة حقا وتصد عنها جميع الطامعين دون استغلال للدعاية.

فقال بإصرار:

ـ سياسة حلوة.. حفظا على كرامتها كموظفة، ولتوقع بالمغفل ابن الحلال!

ولاحظنا أن زميلا من الأرشيف أصبح يتردد على صديق له فى السكرتارية على غير عادة، وكان زميلا مشهورا رغم حقارة وظيفته وبدائية تعليمه الذى لم يجاوز الابتدائية، ولكنه كان جميلا، له مظهر الذوات واعتدادهم بأنفسهم، وكان من أسرة العادل ـ يدعى محمد العادل ـ فى الثلاثين من عمره. وكان ابن شقيق الباشا عميد الأسرة، وزوج كريمته الغنية، ورغم فقره وضآلة مرتبه كان يرتدى أفخر البدل وينفق عن سعة من مال زوجته، وعرف أنه يطارد عبدة، وأنه يزور السكرتارية جريا وراء هدفه. ولم يتعرض له عباس فوزى بأية ملاحظة لعلمه بصداقة عمه الباشا لوكيل الوزارة فتجاهله على مضض، ولكن الأستاذ عبد الرحمن شعبان المترجم لم يبال بذلك فمضى نحوه يوما ثم قبض على أعلى چاكتته ودفعه أمامه حتى باب الإدارة وهو يقول له:

ـ إذا رجعت مرة أخرى فسأكسر رأسك.

ولكن عم صقر أخبرنى أنه يطارد عبدة حتى مشارف السيدة وأنه يلح بجنون فى التعرف بها. ووضح أن الفتاة رفضت تلبية النداء وأصرت على ذلك. رفضت بكل قوة أن تكون عشيقة وعاملته بخشونة. وأخذنا نناقش الموضوع همسا. فقال عباس فوزى:

ـ الولد فحل جميل ولا يقاوم.

فقال عبد الرحمن شعبان:

ـ ولكنه حقير جاهل.

فقال له عباس فوزى:

ـ المرأة هى المرأة والرجل هو الرجل.

فقلت:

ـ من الطبيعى أن تبحث عن زوج فما معنى أن ترضى بدور العشيقة..

ـ هذا هو المعقول ولكن الحب لا معقول.

ولكن مضت الأيام وعبدة سليمان ترفض أن تستسلم. ذات يوم طلبت إجازة أسبوعا. ولم يهتم أحد بالطلب حتى جاءنا عم صقر وهو يقول:

ـ محمد العادل أخذ إجازة أسبوعا أيضا!

وتضاربت التخمينات ولكنها كانت مجرد تخمينات، ومضى الأسبوع ورجعت عبدة ولكنا رأينا فيها فتاة جديدة كأنما فقدت فى صميم روحها شيئا ثمينا لا يعوض. انتظرنا أن تقول شيئا ولكنها عكفت على عملها فى صمت تكتنفها هالة حزن كأنما هى راجعة من قرافة. ومال عبد الرحمن شعبان نحوها وسألها برقة:

ـ مالك يا مدموازيل؟

وبمجرد استشعارها العطف انهمرت دموعها! واتجهت إليها الأبصار. ومضى عباس فوزى فوقف أمام مكتبها وهو يسأل:

ـ مالك؟.. نحن زملاء. والإنسان للإنسان!

ـ لا شىء!

ـ لا نريد إكراهك على الكلام إذا كرهت ذلك.

فقالت بيأس:

ـ لن يخفى شىء!

ـ حسن فماذا يحزنك؟

ترددت قليلا ثم قالت:

ـ أخذت الإجازة لأتزوج..

ـ لا عيب فى ذلك ولا حزن.

ـ تزوجنا أنا ومحمد العادل.

ـ محمد العادل!

ـ نعم.

ـ سرا؟!

ـ قال لى إنه مقامر بمستقبله، وأنه إذا عرفت زوجته أو عمه الباشا فسيقضى عليه إلى الأبد.

فسألها عباس فوزى بنبرة لم تخل من عتاب:

ـ وكيف رضيت أن تتزوجيه وأنت على علم بحاله؟

فقال عبد الرحمن شعبان بغضب:

ـ تذكر أقوالك عن الحب..

فتراجع الرجل قائلا :

ـ حسن ، وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ سافرنا إلى الإسكندرية فمكثنا أسبوعا !

ـ ثم ماذا؟

وهى تحاول تمالك أعصابها الباكية :

ـ طلقنى أمس !

ـ طلقك؟ !

ـ نعم . .

ـ لِمَ؟

ـ قال إنه إذا استمرت العلاقة فستعرف وإذا عرفت خسر كل شىء !

وهمس عم صقر فى أذنى :

ـ طريقة جديدة للعشق !

ونالت عبدة من العطف بقدر ما نالت من اللوم . وتطوع كثيرون لمساعدتها فى إجراءات القضية الشرعية . ونما الخبر إلى الزوجة والباشا ، واستدعى وكيل الوزارة ـ بإيعاز من الباشا ـ عبدة فوبخها واتهمها بإغواء الولد الأرعن وطالبها بالتنازل عن القضية فى نظير أن يحفظ لها حقها ولكنها صارحتنا بأنها حبلى ، وبذلك تعقدت الأمور أكثر . ووضعت طفلة وكانت النفقة تقتطع لها من مرتب الشاب الصغير ، والحق أن محمد العادل لم يكن شبع تماما من عبدة ، وكانت هى من ناحيتها تحبه ، وهى حقيقة لم تخف عن المجربين مثل عباس فوزى وعبد الرحمن شعبان . وعادت العلاقة بينهما ، غير شرعية هذه المرة ، وفى تكتم لم يدر به أحد منا ، حتى فوجئنا ذات يوم بالوكيل يستدعى عبدة ومحمد ، ويهددهما بالنقل إلى الأقاليم إذا لم يقطعا علاقتهما «الآثمة» فى الحال . وحدث ذلك بحضور الباشا نفسه ، وترامت الأصوات إلى السعاة فالتقط عم صقر الخبر وأذاعه بطريقته السادية ، حتى اضطر الأستاذ عبد الرحمن شعبان إلى تذكيره بابنته الضائعة فغادر الرجل الحجرة متقلص الوجه . ونقل محمد العادل بعد ذلك إلى وزارة الزراعة . وتزوجت عبدة من مقاول قَبلَ أن تتربى ابنتها فى بيته تحت شرط أن تقدم عبدة استقالتها وقد فعلت . كان ذلك على عَهد حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨ ، ومر على ذلك عشرون عاما حتى لقيت عبدة مصادفة فى ميدان التحرير .

تصافحنا بحرارة ، وكانت فى الخمسين وبدينة جدا ، وسرنا معا وهى تسأل عن الزملاء القدامى فحكيت لها ما كان من أمر عباس فوزى ، ونهاية عبد الرحمن شعبان وقد تأسفت عليه بصدق ، وحتى عم صقر أخبرتها بسوء مآله ، أما هى فأخبرتنى بأن

زوجها توفى من عامين، وأنها أنجبت منه ثلاثة ذكور فى كليات الطب والزراعة والاقتصاد، وأن ابنتها تزوجت من ضابط، ثم تساءلت:

- أتدرى ماذا حصل لأبيها؟

ولكنى كنت نسيته تماما فقالت:

- بعد تطبيق قانون الإصلاح الزراعى بعام واحد مات الباشا، ولم يبق لابنته إلا ما تستطيع أن تربى به أولادها فامتنعت عن إعطاء زوجها أى نقود فلم يستطع ممارسة الحياة على المستوى الذى اعتاده فاختلس وفصل من عمله.. وهو يعيش الآن كالمتشردين، واضطر إلى العمل فى الإسكندرية منادى سيارات!

ثم سألتنى ونحن نتوادع:

- خبرنى ماذا عن الموقف، حرب أم صلح؟

فبسطت راحتى فى عجز عن الجواب وافترقنا.

عجلان ثابت

زاملنا فى الجامعة عاما ونصف عام، واتهم بسرقة طربوش فافتضح أمره واضطر إلى قطع دراسته. حدثنى عنه فى ذلك الوقت الأستاذ عدلى المؤذن فقال:

- إنه يعيش مع أم عجوز على معاش بسيط.

فقلت بأسف:

- لا أحد منا يستطيع معاونته، وكان النجاح والتفوق فى ميسوره.

- ولكنه كان قليل الأدب. ألا تذكر مناقشاته الحادة مع الدكتور إبراهيم عقل؟

فقلت بامتعاض:

- إنه أفضل فى نظرى من الدكتور إبراهيم عقل.

وفى أثناء تزاملنا اقتنعت بذكائه واجتهاده ووعيه، وكان ذا استعداد طيب لتعلم اللغات الأجنبية، كما كان قارئا ممتازا. وأذكر أنه ترجم - فى تلك الفترة المبكرة من حياته - بعض قصائد شيللى ونشرها فى مجلة المعرفة. وكان يقول لى:

- لا تحترم طالبا غير مهتم بالسياسة. ولا تحترم مهتما بالسياسة إن لم يكن وفديا، ولا تحترم وفديا إن لم يكن فقيرا.

فقلت له:

ـ ولكن سعد زغلول لم يكن فقيرا .

ـ أما مصطفى النحاس فزعيم فقير !

ـ هل تعنى أن مصطفى النحاس خير من سعد زغلول؟

ـ كان سعد زغلول عبقريا أما مصطفى النحاس فإرادة نقية .

ولم يستطع ـ بعد انفصاله عن الجامعة ـ أن يجد وظيفة ، فالوظيفة كانت مطلبا عسيرا لمن لا وساطة له ، ولكن أحد أعضاء الوفد استطاع أن يلحقه بدار صحفية محايدة مترجما بأجر زهيد . وافترقنا نحوا من عشرة أعوام ، وتقابلنا بعد ذلك مصادفة فى مقهى الفيشاوى . ورحبنا بالمصادفة واعتبرناها سعيدة وسألته عن حاله فقال :

ـ ما زلت مترجما صحفيا ومازال الأجر زهيدا!

وضحك وكانت روحه المعنوية مرتفعة وقال :

ـ ولكنى متزوج . .

ـ أنت مغامر !

ـ إنه الحب . عليه اللعنة . .

ودعانى إلى مسكنه بخان الخليلى فتعرفت بزوجته ، وكانت فتاة حسناء ، على قدر متوسط من التعليم ، ولاحظت أنها متفانية فى الحب وذات إرادة صلبة فى مواجهة حياتها المتقشفة . ودار الحديث عن الحرب والسياسة ، فقال :

ـ لم أعد وفديا كما كنت . .

فدهشت ، ولكنه صارحنى بأنه «شيوعى» ، وراح يؤكد لى أن الشيوعية حل لمشكلات العالم ، ثم وهو يضحك :

ـ وحل لمشكلتى أيضا . .

فضحكت زوجته وقالت :

ـ وهذا هو الأهم!

ومضى يشرح الشيوعية باعتبارها نظرية علمية ولكننى شعرت بأنها حلت فى نفسه محل العقيدة الدينية . وفى أعقاب الحرب فصل من الدار الصحفية بإيعاز من الداخلية فى ظل الحكم الرجعى الذى سيطر على البلاد بعد إقالة الحكومة الوفدية . وتحرج مركزه ، حتى سكنه المتواضع أصبح مهددا بالطرد منه لعجزه عن دفع الإيجار . وكنت أزوره ، وأقدم له أحيانا مساعدات لا تغنى . ثم تبين لى أن مسكنه يتحول إلى شيء جديد ، غريب ، إلى ملتقى لبعض أهل البلد من أغنياء الحرب ، حيث تدور الجوزة . وتجلس زوجته بينهم كربة الاستقبال والبيت! وآثرت ـ تفاديا للإحراج ـ أن تقتصر مقابلاتنا على

المقهى، وأخذ يبدو لى مكشوف الوجه مستهترا، وماجنا عابثا، ورغم ذلك كله فإن عقيدته لم تتخلخل. ولم يتسلل إليها الفساد، وبقيت جوهرة مدفونة فى العفن ولكن محتفظة بقيمتها. وفى عام ١٩٥٠ رجع إلى عمله بالدار الصحفية ولكنه لم يغير أسلوبه فى الحياة، لزهادة المرتب من جهة ولفقدان الثقة من ناحية أخرى. ولقيت زوجته بعد انقطاع طويل فهالنى أن أرى غانية متبرجة ذكرتنى بالمحترفات فتقطع قلبى وحزنت حزنا لا حد له. ولعله لاحظ انقباضى إذ قال:

ـ مهما يكن من أمرنا فثمة جانب فينا يستطيع أن يصنع المعجزات، وهو الذى خلق الله!

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ أمكن بعض زملائه أن يهيئوا له عملا أرقى، فتحسنت أحواله، بل وغير مسكنه فانتقل إلى شقة فى عمارة بميدان الجيزة. رمزا لعزمه على تغيير أسلوبه فى الحياة، وممارسة حياة محترمة. وبسبب نشاطه العقائدى اعتقل أعواما حتى اضطرت زوجته إلى اللجوء إلى حماية أحد زبائن بيتها القديم. ولما خرج من المعتقل خرج متعبا متقززا. استعاد عمله ودخله ولكنه لم يستطع استنقاذ زوجته. قال:

ـ أدمنت الأفيون..

وهز رأسه فى رثاء وقال:

ـ إنى أحبها، وسأحبها إلى الأبد، ولكنها لم تعد قادرة على إعطاء الحب!

ثم بغضب:

ـ إنى أحمل على الفساد بصدق أيان أجده، ولا يخيفنى أن يشهِّر بى أحد..

وقدس علاقته بها، متفانيا فى الإخلاص لها والتسامح معها، فهيأ لها الحياة الطيبة ولم يسمح لنفسه بمحاسبتها على تصرف، تواجدت أم غابت، استقامت أم استهترت. وزحف عليه العجز قبل الأوان فلم يبق له من مسرات الدنيا إلا العمل والحديث والتسامح اللانهائى مع زوجته. وبالرغم من آلامه وحرمانه وتدهور زوجته المحبوبة فقد بلغ فى تلك الفترة غاية نضجه وأعطى أطيب ثماره، فتتابعت مقالاته السياسية والاجتماعية متسمة بالطلاوة والعمق، وإنى لأعد كتابه عن الفكر العربى التقدمى من أمتع الكتب المعاصرة وأقواها إيحاء وتفاؤلا، كما أعد وجهه الشعبى، وتناقضات حياته الشخصية، ومتاعبه الجسمانية، ووحدة ذهنه وصفائه، مثالا لعصر مضطرب جياش بعوامل هدم وبناء، وتفكك وتجمع، ويأس وأمل. ولشد ما تألمت عندما لم أجد من أستاذى الدكتور ماهر عبدالكريم استعدادا للترحيب به فى صالونه فقال بهدوئه المعروف:

ـ يقال إنه شخص..

وابتسم ابتسامة استغنى بها عند تسجيل وصف لا يرتاح إليه ذوقه الرفيع ! وعلمت أن الذى وشى به عنده هو جاد أبو العلا ، ذلك الشخص الذى لا وجود له فى الواقع !

عدلى بركات

له فى الذهن صورة قديمة ، كالعباسية القديمة بحقولها وسكونها الأبدى ، عندما كان يتهادى به الحنطور من العباسية الشرقية إلى المدرسة ، فيغادره وهو يسير - رغم حداثة سنه - فى عظمة خيالية تناسب ولاة العرش ، ويمر بنا دون أن يلقى نظرة على أحد ، وحيدا بلا صاحب إلا فيما ندر ، ونتابعه بسخرية تخفى تحتها إعجابا وحسدا . وكان آل بركات - كآل الكاتب - من أرستقراطية العباسية الشرقية المقيمين فى القلاع . وكانت أم عدلى تركية وكان الأب فلاحا مصريا غنيا ، فأنجبا غلامين عدلى وأخا أكبر . وماتت الأم وعدلى فى الثانية عشرة ، فتزوج الأب بعد عام من وفاتها بسيدة مصرية . وقيل لى إن وفاة أمه رسبت الحزن فى أعماق روحه . كما إن حلول أخرى محلها قضى على توازنه مدى العمر . تلك أحزان يمكن تخيلها فحسب ، أما تحليلها فلا سبيل إليه ، وبخاصة وأن عدلى لم يكن يذكر سيرة أمه أمام أحد ، ولا يسمح لأحد بالتسلل إلى ذلك التاريخ القديم ، وبالرغم من أننى عرفته فى تدهوره ، وهو لا يعترف لشىء باحترام أو يعفيه من سخريته ، فإنه كان من المسلم به بيننا أن أمه سر مغلق مقدس لا يجوز مسه أو الحومان حوله أو مجرد التفكير فى الاقتراب منه . وكنا فى صبانا نراه كثيرا ، فى المدرسة ، وفى حديقة القصر ، ولكن لم تنشأ بيننا وبينه أى معرفة أو حتى ميل إلى ذلك . ومرة وكنا عائدين من ملعب الكرة فى الصحراء وجدناه واقفا أمام قصره فقرر خليل زكى أن يتحرش به فوقف أمامه وسأله بوقاحة :

- هل تعرف أين تقع دكان عم فلقوس بياع المدمس؟

فتراجع إلى داخل القصر دون أن ينبس ومضينا ونحن نكتم الضحك ونلعن خليل ولكن اجتاحنا سرور لا شك فيه . وطالما كان خليل يقول :

- ياما نفسى أطبق فى زمارة رقبته!

ودخلنا الجامعة فى عام واحد فزامل رضا حمادة فى كلية الحقوق ، وعارف رضا بينى وبينه ونحن نشاهد مباراة كرة حامية بين النادى الأهلى والمختلط . قلت له :

- نحن أبناء حى واحد منذ قديم ومع ذلك لم نتعارف إلا اليوم .

فابتسم قائلا فى اقتضاب :

ـ نعـم .

وتمعنته عن قرب فإذا به رغم الأناقة والعظمة المطبوعة يشبه أباه الفلاح لحد التماثل، ولم يرث عن الأم التركية شيئا ظاهرا ينتفع به! وأدركت من أول وهلة أنه متعب. وأنه يحتاج إلى سياسة خاصة فى معاملته كى يمنح ثقته وصدقاته، وأنه يحتقر كل شىء فى الوجود، وأن كلمة «مضحك» أكليشيه لاصق بلسانه يصف به أى شخص أو أى فعل مهما يكن رأى المتحدث فيه. فأستاذ المدنى «دكتور مضحك»، ومصطفى النحاس «زعيم مضحك»، وقرار الوفد بإعلان المقاطعة «إعلان مضحك»، وقواعد الإسلام «قواعد مضحكة» حتى سألته مرة :

ـ من يستحق احترامك من الناس؟

فأجاب وهو يضحك :

ـ الجميل الشرير!

ثم وهو يواصل الضحك :

ـ يقال إن إسماعيل صدقى كان كذلك فى شبابه . .

فقلت :

ـ ولكنك تحترم والدك بلا شك؟

فبصق على الأرض بتلقائية ووحشية وقال :

ـ اللعنة عليه وعلى جميع الحشرات!

وعرفت ما لم أكن أعرف من مقته لأبيه وحدثنى موسيقار من جيرانه عن تلك العلاقة الغريبة فقال إنه ـ عدلى ـ لم يعد يخفى كراهيته لأبيه منذ زمن بعيد، وأن الباشا يداريه مسلما أمره لله. وسألت عن السبب فقال :

ـ لا يدرى أحد شيئا على سبيل اليقين، وعدلى نفسه لا يحب أن يفشى ذلك الجانب من أسراره، ولكن المظنون أن مرجع هذه الكراهية إلى زواج أبيه من امرأة أخرى بعد وفاة أمه . .

ولما توثقت العلاقة بيننا سألته عما يدعوه إلى مقت أبيه واحتقاره فحدجنى بنظرة قاسية وقال :

ـ ألا يكفى لذلك أن يورثنى سحنته؟!

فقلت :

ـ أنت فلاح جميل!

فعبس قائلا :

ـ لو نافقتنى مرة ثانية فسأمقتك أكثر منه .

ولكى يبتعد عن مجال أبيه ويتجنب رؤيته ما أمكن أقام فى مبنى مستقل بحديقة القصر كان يُستعمل كمضيفة ، وربما مر الشهر والشهران فلا تقع عينا أحدهما على الآخر . وفى آخر عهده بكلية الحقوق انتقى من الزملاء صحبة قليلة عرفت باستهتارها الأخلاقى ، وجعل منها خاصة أصدقائه ، وبهم خرج من عزلته فعرف مواطن اللهو ومقهى الفيشاوى ، وانقلب مقامه المستقل فى الحديقة إلى حانة وغرزة! ولا شك أن الباشا فطن إلى دبيب الحركة الجديدة المريبة ولكنه لم يستطع أن يتعرض لها إيثارا للسلامة . وقال لى يوما :

ـ عليك بصحبة الأشرار فبفضلهم تعرف نفسك . .

ولم أعرف ما يعنيه تماما إلا فيما بعد نسبيا ، عندما تبين لى أنه بقدر ما يحب مصاحبة الحسان فإنه لا يستجيب لهن ، وأنه لا يستجيب إلا للمومسات ذوات السحن الوحشية . وأتم دراسته عام ١٩٣٨ بعد سقوط أربع مرات ، وسعى الباشا إلى تعيينه فى النيابة العمومية بنفوذه ، ولكن لم يكن يقبل أحد فى وظائف النيابة إلا بعد تحريات ، وقد كشفت التحريات عن الغرزة المستقرة فى مسكنه المستقل فرفض الطلب وأبلغ والده بالحقيقة! وفاتحه أبوه بالأمر فقال باستهانة :

ـ النيابة العمومية وظيفة مضحكة!

فغضب الرجل وغضب الابن وسعى الابن الآخر بينهما حتى هدأت النفوس . واتفق على أن يفتح الباشا له مكتب محاماة فى مقامه المستقل على أن يجعل سهراته الخاصة فى الخارج . وأعد فى إحدى الحجرتين اللتين يتكون منهما المبنى مكتبا ، ومكتبة قانونية ، وألصقت على مدخل السراى لافتة باسم المحامى الجديد . ولم ينفذ الاتفاق إلا أياما معدودات ثم رجعت ريمة لعادتها القديمة ، فعاد الأصدقاء ودارت الجوزة ، وكان الحشيش قد أسره تماما . ولم يقنع الأصدقاء بذلك فكانوا يجيئون ببعض المومسات باعتبارهن عميلات للمحامى الجديد ، فتطورت الغرزة إلى ماخور ، وسكرت إحداهن ذات ليلة حتى فقدت وعيها فتجردت من ثيابها وراحت ترقص فى الحديقة تحت ضوء القمر . .

ولأول مرة يسمح الباشا لغضبه بالانفجار ، انهال على الابن سبا ولعنا ، فرد له الابن السبة سبتين واللعنة لعنتين ، وصفعه الأب فهدده الابن بالصفع والركل ، وعند ذلك طرده من قصره وحذره من أن يريه وجهه مرة أخرى . وغادر عدلى القصر مطرودا فى أوائل أيام الحرب العظمى الثانية ، وليس معه إلا ملابسه . وراح يبيت بالتناوب فى بيوت أصدقائه ويفكرون فى المستقبل . اقترح عليه بعضهم أن يبحث عن أى وظيفة كتابية حتى يجىء الفرج ، ولكنه قال بكبرياء :

ـ إنى أفضل الصعلكة . .

وعرض عليه رضا حمادة أن يبدأ من جديد فى مكتبه ولكنه قال له :

ـ نسيت القانون ولا همة لى الآن على استرجاعه .

فقال الرجل ببراءة :

ـ قم بأى عمل فى المكتب !

فأدرك أنه يعرض عليه أن يعمل كاتبا بمكتبه فصاح غاضبا :

ـ إنى أحتقرك وأحتقر من خلقك !

واختار الصعلكة فكان يقترض مبالغ متفاوتة بضمان موت أبيه الذى جاوز السبعين من عمره وكان يتبلغ بالسندوتش ويسكت صراخ بطنه بالفول السودانى ، وينتقل فى الليل من غرزة إلى غرزة فيدخن بالمجان ، ثم يقضى الليل فى بيت صديق أو فى مقصورة من مقاصير مقهى الفيشاوى . وساء مظهره ، ووهنت صحته ، ورثت ثيابه ، وصار أشبه بالمتشردين ، ولكن كبرياءه كان يتعقد ويتضخم حتى انقلب وقاحة وسفاهة . وكنا مجتمعين مرة بالفيشاوى فإذا به يضحك عاليا ويستغرق فى الضحك ، فسألته عما يضحكه ، فقال :

ـ تصور أن أموت أنا قبل «الكلب» . . ؟

فقلت باسما :

ـ هذا محتمل ومتوقع أيضا !

فلعننى وقال :

ـ إنى على استعداد لأن أعبد الله إذا أخذ روحه . . .

ثم مستدركا :

ـ على أى حال ليس لدى ما أشكوه ما دمت أجد الجوزة فى آخر النهار !

وكان أيضا قابعا فى الفيشاوى ١٩٤٧ ـ أو ١٩٤٨ ـ عندما جاءه رسول من شقيقه ينعى إليه والده ويدعوه إلى القصر . كان مسطولا فلم يفهم من المرة الأولى . ولما أخذت الحقيقة تلاطمه وتوقظه وقف مترنحا ، فحملق فى الجدار المطعم بالأرابيسك ، وسرح فى غيابات لا يدريها أحد ، ثم غادر المكان دون أن يلقى تحية وراءه . واستقبله أخوه ـ رئيس محكمة كان ـ وقال له :

ـ البقية فى حياتك .

ومضى به إلى الداخل وهو يقول :

ـ ما كان كان ، وهذه ساعة مقدسة تُنسى فيها الأحقاد . . حتى أوصله إلى مخدع الباشا فأوسع له وهو يقول :

ـ ادخل فودع أباك ليغفر الله له ولك ولنا جميعا .

وتسلل عدلى إلى الحجرة ـ كما حكى لنا فيما بعد ـ ووقف وحده عند رأس الجثمان المسجى ، ثم أزاح الغطاء عنه قليلا حتى انكشف وجهه المطوق ، ونظر إليه مليا ، ثم غمغم :

ـ إلى الجحيم يا قذر !

وأكثر من صوت قال :

ـ مستحيل . . مستحيل . .

فنظر إليهم باحتقار لضعفهم وتمتم :

ـ كم وددت أن أمثل بجثته !

بعضنا لم يصدق كلمة مما حكى والبعض آمن بكل حرف وخمن أنه ربما فعل أكثر مما قال . على أى حال ابتسمت له الدنيا بعد عبوس . وقد ترك الباشا أملاكا منها أرض وعقار وأموال سائلة ، وكان نصيب عدلى عمارتين يدران دخلا صافيا قدره ألف جنيه فى الشهر ، بالإضافة إلى أربعين ألفا من الجنيهات . وقال كثيرون من أصدقائه :

ـ لقد كانت أعوام التشرد درسا أريد به أن يعرف قيمة القرش فيحسن معاملته !

والتف حوله أصدقاؤه عقب انفضاض المأتم واستبقوا إلى تخطيط صورة للمستقبل السعيد :

ـ من حسن الحظ أن مطالبك فى الحياة معقولة وأنه بوسعك أن تعيش ملكا حتى آخر يوم فى حياتك .

ـ وفر لنفسك مسكنا جميلا ، واعرض نفسك على طبيب كبير ، واحمد ربك أنك لم تغو القمار ، الطعام أمره هين ، ومزاجك فى النسوان متواضع ، ولم نسمع عن أن الحشيش خرب بيت أحد ، فمبارك عليك رزقك الحلال !

وصاح بهم :

ـ كفوا عن النصائح عليكم اللعنة !

كان يمقت النصح ويعده تعاليا مرذولا ولكنه بدا ثملا بالفرح والسعادة ، وبات ليلتها فى فندق سميراميس ، وأقام به حتى يدبر أموره ، ونشط نشاطا غير معهود فاستأجر شقة على النيل بخمسين جنيها شهريا . ومضى يؤثثها بأفخر الأثاث ، وقد ذهلنا ـ نحن البسطاء ـ عندما علمنا بأن تأثيثها تكلف عشرين ألفا من الجنيهات ، وأعجب ما أذهلنا فيها كان حجرة شرقية ، أقام بها بارا أمريكيا وغرزة موهت أدواتها بالذهب والفضة ، كما ابتاع سيارة كاديلاك ، وكان مجموع ما أنفقه على ذلك ـ بالإضافة إلى الملابس ـ ثلاثين ألفا .

كان مبلغا خياليا، ولكن اعتذر عن ضخامته أصدقاؤه بما عاناه من حرمان طويل، وقالوا أيضا إن التأسيس عادة يتكلف أضعاف أضعاف ما تتكلفه الحياة اليومية. ولكن الحجرة الشرقية شهدت سهرات ليلية جمعت الأصدقاء والطفيليين وغانيات الملاهى الليلية وبعض الفنانين والفنانات، وجرت الخمر وانتشر الدخان الأزرق وجىء بموائد الطعام من نادى السيارات، وراح يخطر بين الضيوف رافلا فى الحرير محاطا بالإجلال والإكبار. وما لبث أن تطايرت العشرة الآلاف جنيه فلم يبق إلا دخل العمارتين، وقال المتفائلون أن آن أوان الانضباط وستسير الحياة سيرتها المتزنة المعقولة، ولكنه كان اعتاد عادة الإسراف وتقمص روح ليالى ألف ليلة وليلة. وعلى حين كان ينفق بسخاء على غانيات الملاهى كان يمارس العشق الحقيقى مع بنات الهوى المتواضعات، ومع بياعة فول سودانى فلاحة من المترددات على مقهى الفيشاوى، ولذلك لم يوفق إلى التوازن أبدا، واضطر إلى بيع إحدى العمارتين رغم توسلات الأصدقاء، ثم ألحق بها الأخرى، وتجلى فى أثناء ذلك سعيدا مجنونا فوق الحذر والماضى والمستقبل. وما جاء عام ١٩٥٠ حتى كان قد باع شقته ورجع للإقامة فى فندق سميراميس، ثم باع السيارة، وبدا المستقبل واضح المعالم. وأذكر أننى تدارست حاله مع الصديق رضا حمادة فقلت له:

ـ أهو مجنون؟

فأجاب:

ـ لا يخلو من جنون.

ـ إنه لا يشعر بالغد.

ـ أو أنه مستغرق فى لحظته الراهنة.

ـ أكاد ـ وسط همومنا التى تثقلنا ـ أحسده!

فضحك عاليا، وقال:

ـ على الحياة أن تكون جدا أو فلتذهب إلى الشيطان!

وعندما نفد حسابه غادر سمير اميس. واجه الحياة مرة أخرى وهو لا يملك مليما ولا أمل له من وراء وفاة أحد. ولم يكن بلا خطة. شرب زجاجتى ويسكى وبلع ربع أوقية حشيش وهام على وجهه. وعثر عليه صباح اليوم التالى جثة هامدة على شاطئ النيل.

عـــزمى شـــاكر

تعرفت به فى صالون الدكتور ماهر عبدالكريم عام ٦٠، وقد قلت له من فورى :

ـ أذكر أنى رأيتك فى زيارة للأستاذ عباس فوزى فى أثناء الحرب العظمى الثانية .

فقال :

ـ لم أقابله من مدة طويلة ، وبالمناسبة كيف تفسر تحوله إلى تأليف الكتب الدينية ، أكان عن عقيدة حقا؟

فأجبت بحذر :

ـ أنت تعلم أنه كان دائما من المهتمين بالتراث!

وكان عزمى شاكر يوم تعرفت به فى الأربعين ، وقد جذبنى بذكائه وثقافته وصراحته ، وأشعرنى تماما بأنه من الناس الذين يأخذون الأمور مأخذ الجد ، ويلتمسون السبل إلى الأمل . وكان دكتوراً فى التاريخ من فرنسا ، ومتزوجا من مدرسة دكتورة فى العلوم . وكان الأستاذ سالم جبر يعرفه ، وقال لى عنه :

ـ إنه كان تلميذا وفديا ولكنه اهتم من بادئ الأمر بالمشكلات الاجتماعية ، ويعترف بأن قلمى كان له الأثر الأول فى توجيهه .

ولما حادثت عزمى شاكر فى ذلك قال لى :

ـ لم تكن وفديتى قوية كالحال فى جيلكم ، وتخلصت منها تماما قبيل الثورة ، ولكنى بقيت على صلة حميمة بالجناح الوفدى اليسارى ، وعددت منذ ذلك الوقت من الشيوعيين وعرفت بذلك فى أوساطهم .

وقال لى أيضا :

ـ ولما قامت ثورة يوليو استقبلتها بترحاب وحذر معا ، أعجبت بإلغائها للنظام الملكى وبتحقيقها للجلاء ، ولم أعجب كثيرا بإصلاحها الزراعى ، وسرعان ما اعتبرتها انقلابا قصد به الإصلاح وتفادى الثورة الحقيقية .

وبسبب موقفه فصل من هيئة التدريس الجامعية ، ثم اعتقل أعواما ، ثم أفرج عنه فعمل فى الصحافة . وعكف على الكتابة فى الموضوعات التى تتيح له التعبير بإخلاص عن آرائه فآثر الكتابة فى الشئون الخارجية أو التاريخية أحيانا . وعقب صدور قوانين يوليو ١٩٦١ الاشتراكية تغير موقفه تغيرا ذاتيا وجذريا وعن إخلاص حقيقى . كان قد انضم

إلى أصدقائنا، وكان يجتمع بنا فى مكتب سالم جبر وصالون ماهر عبد الكريم. وذات يوم قال لى :

ـ الثورة هى أنسب حركة تاريخية لوطننا فى ظرفه الراهن.

فقلت له :

ـ إذن غيرت رأيك؟

ـ أجل، علينا أن نضع عقائدنا بين قوسين، وأن نؤيدها بكل قوانا!

وآمنت بصدقه، ولم أجد ما يدعو إلى التشكيك فيه، ثم إننى من المؤمنين بإخلاصه. ومن يومها وهو دائب على تأييد الثورة بقلبه وقلمه، فى سره وعلانيته، ولم يفهم موقفه على حقيقته فى أوساط زملائه.

وأذكر أن عجلان ثابت قال لى عنه :

ـ إنه وغد لا أكثر ولا أقل، ومهما خطر فى لباس قديس!

فقلت له :

ـ إنى أعتقد بإخلاصه، لا يداخلنى شك فى ذلك.

فقال ساخرا :

ـ إن أقواله تبرر ترددك، هذا كل ما هنالك!

وسنحت فرصة لرجوعه إلى الجامعة ولكنه آثر الجهاد فى ميدان الصحافة. ومن المهم أن أسجل أنه لم يكن مؤيدا أعمى أو متعاميا، فلم تكن تخفى عنه الأخطاء التى ترتكب. وكثيرا ما كان يردد :

ـ مما يؤسف له أن الثورة لم تعتمد على الثوريين الحقيقيين، فخلقت منهم أعداء حينا، أو وضعتهم تحت المراقبة حينا آخر.

وقال مرة بحزن شديد :

ـ إن الفساد ينتشر كالوباء. لا نملك إلا التحذير، وحتى ذلك لا يتيسر لنا إلا فيما ندر.

وثبت لى أنه من الشيوعيين المتجددين، الذين يتطلعون دائما إلى الحرية، الذين يعتقدون أن الحرية تعانى مأساة مريرة، ولكنه لم يهون أبدا من شأن النقلة التاريخية التى وثبها الوطن، وكان يتعلق بالمستقبل المضىء كلما ألحت عليه عثرات الحاضر. ولما عرفته بالدكتور صادق عبد الحميد لمس سريعا ما يقرب بينهما من وجهات النظر فتوثقت العلاقة بينهما. ولما قبض على الشيوعيين حزن حزنا عميقا، وساوره قلق أشبه بتأنيب الضمير، ولكنه قال :

ـ إنه التعصب، والإيمان بالكتب أكثر من الواقع!

وكم اغتبط لدى الإفراج عنهم، واغتبط أكثر عندما علم بأنهم تبرأوا من الحزب الشيوعى، وعقدوا العزم على التعاون مع الثورة، وقال:

ـ ها هم يرجعون إلى موقفى الذى اتهمت به عندهم!

فقال الدكتور صادق عبد الحميد:

ـ وفى ظروف مختلفة تماما!

وتولوا مناصب رئيسية فى الدولة والصحافة تاركين إياه ـ نسبيا ـ فى القاع، فلم تخل نفسه من امتعاض، وأفلت منه ذلك القول مرة:

ـ أخشى أن يكتشف الكتاب يوما أن اللامعقول أسلوب مناسب لمعالجة العقائد أيضا!

ولم يعد يجد فى الصحافة الراحة النفسية التى نعم بها طويلا. فطلب العودة إلى التدريس بالجامعة، وسرعان ما حققت له رغبته. ولما وقعت الواقعة ـ هزيمة يونية ١٩٦٧ ـ تزلزل كيانه كالجميع، وشدته إليها موجة النقد العاتية فغطس فيها وقب، ولكنه لم يكتب كلمة فى الموضوع بالرغم من أنه كان يكتب نظرات أسبوعية فى مجلة سياسية. وأشهد بأنه كان من أوائل من ثابوا إلى التوازن بل لعله كان أولهم، ففى أكتوبر من السنة نفسها نشر مقاله المشهور الذى حلل به الهزيمة، فاعتبرها درسا، وحذر من الاستسلام لطغيان النقد واحتقار الذات وتعذيبها وفقدان الثقة بالنفس، وأكد فى النهاية حقيقة مازال يؤمن بها وهى أن الثورة هى الأرض الحقيقية المتنازع عليها، لا سيناء ولا القدس، وأنها هى التى يجب أن تبقى وأن تستمر. وفى الأعوام التى تلت ذلك عكف على تأليف كتابه الرائع «من الهزيمة نبدأ»، وهو دستور لحياة جديدة تشق طريقها نافضة عن نفسها ركام الأتربة، وقد شهدته وهو يعمل فى وحدته بالاتحاد الاشتراكى بهمة مذهلة، كما استمعت إليه فى التليفزيون مرارا. وهو من القلة التى لم تصب بانقسام الشخصية، فهو هو سواء تكلم على الملأ أم فى مجالسه الشخصية. وإشادتى به كانت بلا شك من أسباب إغضاب كثيرين ممن هزمتهم الأحداث مثل عجلان ثابت وسالم جبر. ولا أنسى كيف غضب الأستاذ سالم وأنا أنوه مرة بكتاب «من الهزيمة نبدأ» فقال ببرود:

ـ طالما احترمته ولكنه لم يعد إلا المعادل الموضوعى المدنى!

أما ثابت عجلان فسمى الكتّاب «من الانتهازية نبدأ» وجعل يضحك ويقول:

ـ حسبنا أن يكون لنا من الكتاب جاد أبو العلا وعزمى شاكر، يا بلد الاحتفال بالإسراء والمعراج فى عصر الهبوط على سطح القمر!

ولكن الدكتور عزمى مازال ثابتا فى إيمانه وصدقه ونشاطه.

عــزيزة عبــده

عندما قدمنى لها الدكتور زهير كامل فى صالونه لم أكن أسمع باسمها لأول مرة، لعلى اطلعت عليه فى مجلة أو جريدة. كانت بصحبة زوجها، سمراء أنيقة القسمات خفيفة الروح، قدرت عمرها بالثلاثين وقال جاد أبو العلا إنها فى الأربعين، وكان ذلك فى عـام ١٩٦٠، وهى وزوجهـا ـ فى الخمسين ـ فنانان تشكيليـان، وقد دعيـانى إلى مسكنهما فى مدينة الأوقاف فاطلعت على معرضهما الدائم، ودهشت وأنا أتنقل بين لوحات واقعية فى زمن ندرت فيه الواقعية وطغى التجريد، بل كانت واقعية ذات أهداف واضحة، وقلت مداعبا:

ـ أخيرا أظفر بفن رجعى!

ولكنها قالت باحتجاج عذب:

ـ أمامك فن تقدمى، بل الفن التقدمى الوحيد!

ونشأت بينى وبينها مودة عميقة، وكما أقنعتنى بفنها أقنعتنى بأمومتها الصادقة لابنين، ولكنها بدت أقدر على الصداقة من زوجها الذى لا يحب الارتباط، والذى يحضرنا بجسمه على حين يغيب بروحه عن الزمان والمكان. وكانت مثقفة جدا، وتُعتبر هى وزوجها من ذوى الميول اليسارية، ولكنها كانت تشعرنى دائما بقوتها بخلاف زوجها الرقيق، القشة التى تتلاعب بها أخف الرياح. واصطحبت معى الأستاذ يوسف بدران محرر إحدى الصحف الفنية إلى بيتهما بناء على اقتراح منها، فلاحظت أنهما تفاهما تفاهما روحيا عجيبا وسريعا، وأنهما تبادلا احتراما ومودة.

وذهبت يوما لزيارة يوسف بدران فى شقته بشارع قصر العينى، وجلسنا نتحادث وأنفاسه تتردد على وجهى معبقة برائحة الخمر. وما لبث أن فتح باب حجرة النوم فخرجت منه عزيزة عبده مرتدية إحدى بيچاماته! دهشت وارتبكت ولكنى واجهت الموقف باللغة المناسبة فتظاهرت بعدم المبالاة. وشجعتنى على موقفى بضحكاتها العذبة وحديثها الطبيعى. وكانت أنفاسها تنفث أيضا شذا الخمر.

وتكلمنا فى شئون كثيرة أما وجودها فى الشقة بالحال التى وجدت عليها فمضى دون ضوء أو تفسير كأنه حقيقة مسلم بها. وقال لى يوسف بدران فيما بعد:

ـ هكذا وقع الحب علينا من السماء!

فقلت له:

ـ أنت تحب الغزل!

ـ ولكنها كانت البادئة . .

فرميته بنظرة شك فقال :

ـ صدقنى ، وسيطرتها أقوى من جمالها .

ـ تحبها؟

ـ هى تحبنى وفى ذلك ما يكفى .

ـ وأنت؟

ـ هى كنز لا يستهان به ولكنها لا تعكس الأسلوب الذى أعشقه!

ـ وزوجها؟

ـ لا أهمية له فى الموضوع!

والتقيت بها بعد ذلك فى صالون جاد أبو العلا ، وكانت وحدها إذ كان زوجها فى الإسكندرية ، فطلبت منى أن أوصلها إلى بيتها ، وسرنا معا فى الطريق فإذا بها تقول :

ـ أنا حريصة على صداقتك .

فقلت بصدق :

ـ وأنا حريص على صداقتك .

ـ ولا صداقة بلا احترام .

ـ وإنى أحترمك .

ـ أكاد أقرأ فى نفسك تساؤلات محيرة .

ـ لست قليل الخبرة كما قد تظنين .

ـ ولكن قد يبدو لك زوجان شاذين لنظرتهما المغايرة للدنيا والحرية؟

ـ لا أظن .

ـ أنا لم ولن أمارس الخيانة!

ـ لا تسيئى الظن بفهمى يا عزيزتى .

وحدثتنى عن ماضيها فقالت إنها التحقت بالمدرسة الثانوية وهى مزودة بإرشادات أمها الطيبة المرددة لصوت الجيل السابق ، ولكنها سلمت نفسها لأول شاب بادلها الحب وهى تظنه سيفى بوعوده ، ثم كررت ذلك مرارا ، بدافع الثورة حينا وبدافع اللهو حينا آخر وبدافع الحب فى بعض الأحوال .

ـ وكنت أشعر بالخوف أحيانا ولكنى لم أشعر بالندم قط .

وتوقفت عن السير متأثرة ثم قالت :

ـ أصبحت سيدة نفسى ، وتحديت العالم كله ، بكل قيمه التى لم أعد أومن بها .

وواصلنا السير وهو تقول :

ـ وآمنت دائما بأننى نقية مثل الأوكسچين .

ولما حم الافتراق شدت على يدى وهى تقول :

ـ نحن أمل المستقبل الحقيقى !

وبعد سنوات من تعارفنا اعتقل زوجها فيمن اعتقل من الشيوعيين ، فحزنت حزنا عميقا شاملا ، ونهضت بعبء الأسرة والابنين رغم اضطراب بطنها بجنين جديد . وتوارت عن الصالونات والمعارض ولم نجد وسيلة للاطمئنان عليها إلا التليفون . وسألت يوسف بدران عنها فقال لى :

ـ علمى علمك .

فسألته بدهشة :

ـ ألا تتقابلان كالعادة؟

ـ قطعت العلاقة مذ اعتقل الرجل .

ـ حقا؟

ـ إنها غريبة الأطوار ولكننى غير آسف .

انقطعت عنها فلم أعد أتذكرها إلا لمناسبة . وزرتها بعد ذلك بسنوات ـ بعد الإفراج عن زوجها ـ للتهنئة . كان ابناها طالبين فى الجامعة وكانت ابنتها فى السادسة . ودب النشاط فى حياتها مرة أخرى ولكنها لم تصل ما انقطع من أسبابها بيوسف بدران الذى تزوج فى تلك الفترة من مهاجرة فلسطينية مثقفة . ويوما كنت ويوسف فى زيارة للجبهة الشرقية ضمن مجموعة من المواطنين ، وجاء ذكر عزيزة فسألنى :

ـ أرأيت ابنتها الصغيرة؟

فقلت :

ـ نعم ، وهى جميلة جدا !

فهمس فى أذنى بهدوء :

ـ إنها ابنتى !

فقلت بذهول :

ـ كلا !

ـ هى الحقيقة !

ثم قال:

ـ حاولت إقناع عزيزة بإجهاض نفسها ولكنها رفضت.

ـ متى كان ذلك؟

ـ فى الأيام السابقة مباشرة لاعتقال الرجل.

ـ ولم رفضت؟

فصمت قليلا ثم قال:

ـ قالت لى لقد أحببتك حبا لم أحبه أحدا من قبل وسأحتفظ بثمرته!

ـ رغم أنها قاطعت الدنيا عقب اعتقاله!

ـ وزوجها هل يعلم؟

ـ لا أدرى..

وتفكرت قليلا ثم قلت:

ـ الحق أن البنت تشبهك!

ـ أجل، ولذلك أحرص على تجنب رؤيتها!

وبحلول عام ١٩٧٠ أحرزت عزيزة عبده أول نجاح حقيقى فى حياتها الفنية بنجاح معرضها، واعترف بها كفنانة مصرية أصيلة.

عشماوى جلال

يقع بيته فى شارعنا عند طرفه الشرقى المتصل بشارع العباسية، وهو بيت رمادى اللون، مكون من طابقين، وحديقة شبه مهملة لم يبق من زرعها إلا ياسمينة ونخلتان وشجرة مانجو شامخة. وكلما مررت به ألقيت عليه نظرة مشحونة بحب الاستطلاع والنفور كحال سكان شارعنا جميعا. وأنا جديد طارئ على الحى، وفى فترة التعارف والاستكشاف، أشار صديق ـ لعله رضا حمادة ـ إلى البيت وسأل:

ـ أتعرف بيت من هذا؟

فأجبت بالنفى طبعا فقال:

ـ بيت عشماوى بك جلال!

وسرحت لحظة كالمذهول ثم هتفت:

ـ عشماوى بك جلال؟!

ـ بنفسه ودون غيره!

ـ قاتل الطلبة؟

ـ قاتل الطلبة!

ـ وهل ترونه؟

ـ لا يعلم أحد بمكانه، لا هو ولا أهله، يخافون جمعية الكف السوداء، ولكن هذا هو بيته.

ـ أكانوا يقيمون هنا؟

ـ نعم.

ـ ومتى هجروا البيت؟

ـ مذ اشتهر الشيطان بقتل المتظاهرين.

اقترن اسم عشماوى جلال بالرعب فى وجدانى منذ طفولتى. كان ضابطا كبيرا بلواء الفرسان بالجيش المصرى. واستحق بجدارة أن يوصف بأنه العدو الأول لثورة ١٩١٩ فى الجيش المصرى. وجرت أخباره كحكايات الرعب بأنه يقتل بلا رحمة، ويعذب ضحاياه فيربط الطلبة بجواده وينطلق به وضحيته يسحل خلفه مرتطما بالحصى والأسفلت حتى تفيض روحه. ولما تولى سعد زغلول الوزارة عام ١٩٢٤ أحاله إلى المعاش، فتسلل عائدا إلى بيته المهجور بشارعنا، وقبع فيه لا يبرحه كأنه سجن. وددت كثيرا أن أراه ولو مرة، أجلت البصر فى النوافذ والشرفات والحديقة، لمحت زوجته وابنتيه ولكنى لم أره أبدا. وكان اختفاؤه مثار الأحاديث، فهو لا يغادر البيت ولا يظهر فى نافذة ولا يتمشى فى الحديقة، وتعرض المناسبات فى الشارع فلا يزور ولا يجامل، فكيف يمضى وقته، وكيف يطيق سجنه، قال جعفر خليل:

ـ إنه ينفرد بنفسه لأنه لا صديق له.

وقال رضا حمادة:

ـ إنه يخاف انتقام الشعب.

وقال سرور عبد الباقى:

ـ يقال إنه فقد البصر وعجز عن الحركة وأنه يتكتم ذلك حتى لا يشمت الناس به.

وكان له ابن وابنتان، فأرسل ابنه إلى إنجلترا ليباشر دراسته الثانوية خوفا عليه من انتقام الطلبة فى القاهرة. وسمعنا فيما بعد أنه التحق بكلية الطب فى لندن ثم عمل هناك طبيبا وتزوج وتجنس بالجنسية الإنجليزية. وأما البنتان فكانتا تلعبان فى حديقة البيت،

وكانتا وسيمتين جذابتين فعجبت كيف ينجب الوحش مثلهما، ولما حجبتا ـ عن الشباب ـ كان عزفهما على البيان يترامى إلينا فى الشارع، فعجبت مرة أخرى كيف يعاشر الوحش الموسيقى والألحان، وحوالى عام ١٩٣٥ تزوجتا من عريسين مجهولين، ولم يعد فى البيت إلا الرجل وزوجته، ثم شاع فى الحى أنه هجر بيته تاركا زوجته وحدها، وقيل ـ وأكدت زوجته ذلك ـ أنه أقام فى الأسرة فى الحجرة المعدة لاستقبال زوار المقبرة فى المواسم وأنه أوصى بأن يدفن بعد موته دون جنازة أو احتفال، وكانت زوجته جميلة وطيبة، وقد خرجت من عزلتها عقب هجرته إلى المدفن، فزارت الجيران، واكتسبت ودّهن بيسر، وأصبح لها مكانة مرموقة فى الحى، وكل ما عرف عن الرجل الوحش عدا ذلك فمرجعه إلى رجال الجيل السابق من قدامى سكان الحى، قالوا عنه إنه كان غلاما منطويا على نفسه، ولكنه كان مهذبا، ورغم اجتهاده فشل فى دراسته حتى اضطر أبوه ـ وكان ناظر وقف صغير ـ إلى إلحاقه بالمدرسة الحربية وهو ساقط ابتدائية. متشفعا بصداقته لهربرت باشا ناظر المدرسة فى ذلك الوقت. ولدى تخرجه عمل فى السودان. فأثبت فى الخدمة كفاءة حازت تقدير الإنجليز وخدمت سياستهم الموضوعة بحذق فى جباية الضرائب بقسوة لتنفير المواطن السودانى من الضابط المصرى، ومن ثم نشأت بينه وبين الضباط الإنجليز صداقة حميمة. وكان عشماوى جلال يعجب بالإنجليز إعجابا فاق الحدود، ويحبهم حبا عظيما ويتيه بصداقتهم ويعتدها عزته الأولى فى الحياة. وكان يمضى إجازته السنوية فى إنجلترا سائحا ومستطلعا حتى آمن بأن الإنجليز هم سادة البشر وأنهم المبعوثون من العناية الإلهية لتمدين البشر وخاصة المتأخرين منهم كالمصريين. وأخبرنى رضا حمادة أنه بسبب آرائه احتدمت المناقشة بينه وبين والده الدكتور يوما حتى تبادلا كلمات قاسية قطعت ما كان بينهما من علائق المودة والجيرة.

ولما قامت ثورة ١٩١٩ دعى الجيش المصرى لمساعدة جيش الاحتلال فى قمع الثورة والقضاء على الثوار، ولكنه لم يحز الثقة أبدا، وافتضح تعاطفه مع الثورة، وولاؤه لزعيمها، بل وتصديه جهارا للدفاع عنه عندما تآمر أعداؤه على الغدر به. ولكن شذ عن ذلك عشماوى جلال باندفاعه الجنونى فى الهجوم على الثوار والغدر بهم وتعذيب زعمائهم من الطلبة حتى فاق الإنجليز أنفسهم فى عنفهم وقسوتهم، وحتى احتل فى قلوبهم منزلة لم يحتلها مصرى من قبل. وأبغضه مواطنوه حتى الموت، ولم يعطف عليه السلطان لعلمه بأن إخلاصه كان وقفا على سادته الإنجليز لا عليه، وبذلت محاولات لقتله لم تكلل بالنجاح، وإن أصابته شظية قنبلة وطنية إصابة سطحية فى ساقه. ولم يكترث الرجل لموقف الشعب منه، وتمادى فى ضلاله كأنما كان يؤدى فريضة دينية. وقالت زوجته ضمن أحاديثها عنه مع جاراتها إن والدها طالبه يوما بالاعتدال وأنه قال له:

ـ قم بواجبك بلا تورط فى الأعمال المتطرفة .

فقال له :

ـ إنى لا أقوم بواجبى كضابط فحسب ، ولكنى أدافع عن مبدأ ، فإنى اعتقد أن استقلال مصر عن إنجلترا سيؤدى بها إلى الانحلال والفساد ، وأننا إذا خرجنا من الإمبراطورية خرجنا من الحضارة !

وتوفيت زوجته بالسكتة قبيل الحرب العظمى الثانية فدفنت على بعد أذرع من مقام الرجل الوحيد فى حجرة استقبال المدفن . ولحق بها فى العام الأول من الحرب بعد أن تمكن منه تليف الكبد ، ومن العجيب أن اسمه لم يمح من ذاكرة جيلنا حتى اليوم ، وأن الكثيرين مازالوا يحفظون الأغنية الشعبية التى وضعت بقصد التشهير به .

عصام الحملاوى

كان بيت آل الحملاوى يطل على شارعنا بضلع كما يطل على بين الجناين بضلع آخر . وهو أكبر بيوت الشارع ، وذو حديقة واسعة تحيط به من جميع الجهات ، ويتراءى من فوق أسواره العالية رءوس النخيل والمانجو بكثرة مذهلة . وكان ربه عصام بك من الأعيان والمضاربين فى البورصة . وكانت أسرته تتكون من زوجة وثلاث بنات . وكان الحنطور يحمله فى الذهاب والإياب معلنا برنين جرسه عن تحركاته . ولم تكن الأسرة تنتسب إلى زماننا ، ولا ألوانها البراقة تنتمى إلى جنسنا ، وهى وحدة كانت مستقلة بذاتها ، لا سبب يربطها بمن حولها من الجيران ، فلا تزور ولا تزار ، ولا تتبع تقليداً ، ولا تحترم موسما ، وإذا خرجت الأم وبناتها ـ راكبات أو راجلات ـ خرجن سافرات فبهرن الأعين ببشراتهن العاجية وشعورهن الذهبية وعيونهن الملونة . وخرق عصام بك المألوف والمعقول عندما دعا إلى بيته ممثلة مشهورة ، وعندما مضت تتردد عليه فى أيام محددة . وسرعان ما عرف أنه اتخذها عشيقة . بل نشرت مجلة الفن أنه أهدى إليها عقدا ثمنه عشرة آلاف جنيه . وكنا نتجمع فى الشارع لنشهد مقدمها واستقبالها ونسعد بذلك حتى قال جعفر خليل :

ـ نحن نشاهدها بالمجان أما بقية المسرحية فلا يمكن تخيلها !

وتساءل خليل زكى :

ـ كيف يتصرف البك القواد أمام زوجته وبناته ؟

فقال سيد شعير :

ـ يتصرف أمامهن كما يتصرفن أمامه !

وكان بيت سيد شعير أقرب بيوتنا إلى بيت آل الحملاوى ، وكان آل الحملاوى يثيرون اهتمامه للدرجة القصوى ، فجاءنا يوما وهو يقول :

ـ انكشف الغطاء!

والتففنا حوله متلهفين فقال :

ـ الهانم تعشق محمد الكواء!

ـ محمد الكواء!

كنا نعرفه تماما فهو كواء الشارع ، وإلى ذلك كان فتوة كما كان أعور ، ولم نتصور أن الهانم الجميلة التى كنا نشبهها بماى موراى يمكن أن تعشق ذلك الأعور ذا الكرش المترامية والرقبة الغليظة والوجه المفلطح . وقال سيد شعير :

ـ وهى تذهب إلى بيته متخفية فى الملاءة اللف ، رأيتها بعينى!

واستغنت المرأة عن الاستخفاء فكان الكواء يحمل الملابس بنفسه ويذهب بها إلى البيت فلا يغادره إلا بعد ساعة أو ساعتين . وحدث أن اصطحب عصام بك الممثلة إلى رحلة خارج القطر فكان الكواء يتردد على البيت لمناسبة ولغير ما مناسبة ، ومضى يبيت فيه جهارا وبلا حذر . وفى أثناء ذلك كان البنات الثلاث يخرجن معا إلى أطراف العباسية الشرقية فيقابلن المعجبين ، أو يستقبلنهم مساء فى حديقة البيت ، ورأيت بين أولئك عيد منصور وشعراوى الفحام وقريبى أحمد قدرى وضابط قسم الوايلى وطبيب أسنان الحى ومدرس فرنسى! وتوهمنا أن واجب الرجولة يطالبنا بالتحرش بالبيت وبالمترددين عليه ولو بالقذف بالطوب من بعيد لصغر سننا ولضعفنا ولكن شرطيا انبرى لحماية البيت ، ربما بإيعاز من ضابط القسم العاشق . وكنت إذ ذاك غارقا فى حب صفاء فغضبت أضعافا على سلوك بنات عصام ، واعتبرته زراية وتلويثا لأسمى عاطفة فى الوجود . ولكن بدءا من عام ١٩٣٠ حدث ما خيب تقديرات أهل الحى جميعا . فقد تزوجت البنات الثلاث تباعا ، وفزن بزيجات ممتازة! . تزوجت الكبرى من مهندس ، والوسطى من سكرتير وزير ، والصغرى من محام ناجح . والأعجب من ذلك أنهن قاطعن حياة بيتهن مقاطعة شاملة فكون أسرا كانت مثالا فى التوفيق والاستقامة! وفى الخمسينيات وما بعدها صادفت بعضا من أبنائهن من الشباب الموفق الناجح ، ومنهم من عرف بالوعى السياسى التقدمى ، وقد توفى عصام بك فى أيام الحرب العظمى الثانية . فى نفس الأسبوع الذى قتل فيه شعراوى الفحام . ووزعت التركة فورثت الهانم دخلا كبيرا ، وكانت فى الخمسين من عمرها ولكن حيويتها فاقت سنها ، كما احتفظت من جمالها بقدر موفور . ومكثت فى البيت وحدها ، وأصبح من النادر أن تزورها إحدى بناتها ، وذهبنا فى تفسير ذلك مذاهب لا تخلو من سوء . والواقع أن علاقتها بالكواء كانت وما تزال مستمرة . ولكن بدا

أن الرجل أراد التخلص منها، حتى أنه صفعها مرة أمام دكانه وعلى مرأى من بعض الخدم وهى تحاوره بما لم يسمعه أحد. ولم تمض أسابيع حتى نشأت علاقة جديدة بينها وبين القصاب، حتى قال جعفر خليل ضاحكا:

ـ الولية أرستقراطية ولكنها ذات ميول شعبية!

وفى أواخر أيام الحرب باعت البيت وغادرت الحى. ولكنها لم تغب عن ناظرى طويلا، إذ كانت ترى جالسة فى مقهى اللواء أو جروبى أو الأرجنتين، تشرب كأسا، ثم تمضى وقد اصطادت شابا، حتى اشتهرت بذلك فى وسط المدينة. ورأيتها فى أثنيوس بالإسكندرية تلعب نفس اللعبة. وتغيب فترة ـ طويلة أو قصيرة ـ ثم تظهر مرة أخرى فى نفس الأمكنة لتلعب نفس الدور، هذا والكبر يزحف والذبول يستفحل والفخامة تقل مما قطع بأن نقودها تنفد مثل أيامها. وكلما رأيتها من جديد أدركت أنها تتدهور وتقترب من النهاية المحتومة. لم تعد إلا عجوزا معدمة أوشبه ذلك، وسارع إليها الانحلال والتفسخ. وامتنعت عن الذهاب إلى تلك الأماكن الفاخرة أو اضطرت إلى ذلك. فقنعت بالتجوال فى الشوارع فى ملابس رثة ممزقة، ثم لم تعد تظهر إلا فى جلباب وشبشب، وانتهى بها الأمر إلى التسول أو ما هو قريب من ذلك. لم أرها تمد يداً ولكن بعض أصحاب المطاعم الصغيرة ممن وقفوا على سيرتها المشهورة كانوا يتصدقون عليها بالسندوتش أو ببعض النقود. ومازلت كلما لمحتها أستشعر رجعا من الأسى وأستقبل فيضا من ذكريات الشارع القديم بالصورة التى كان عليها على عهد الفوانيس المدلاة من أعالى الأبواب والحقول المترامية والهدوء الشامل، تلك المرأة التى راحت ضحية لنهم جنونى بالحياة. والتى يسعى من حولها أحفادها الناجحون وهم على جهل تام بأشجانها ووحدتها.

عيد منصور

من مجموعتنا العتيدة، صادقها وصادقته، واتصلت بيننا الأسباب على مدى العمر، ولكنه كان ومازال الصديق بلا صداقة. وكان ومازال بلا قلب، حتى خليل زكى له قلب وحتى سيد شعير له قلب، أما عيد منصور فلا قلب له. وكان يعيش مع أبيه وخادم عجوز ولا رابع لهم، أما أمه فماتت عقب إنجابه مباشرة. وكان أبوه تاجر عمارات، عمل مع اليهود طويلا، واكتسب الكثير من أساليبهم ومهاراتهم. وكان عجوزا فقد أنجبه وهو فى الخمسين ولم يتزوج مرة أخرى بعد وفاة زوجته فكان عيد وحيده، وكان بخيلا،

دقيقا، فظا، جامد المشاعر فربى ابنه تربية شديدة لا رحمة فيها ولا مهادنة. مصمما على إخراجه على نمطه، فلم يعرف صديقنا المعاملة العاطفية ولا جرب الحنان أو الرحمة، كأنما كان يتكون فى معسكر لإعداد الإرهابيين. لذلك تجلت مواهبه منذ سن مبكرة، فنشأ عمليا، صارما، ذا عقل نفعى، وبلا قلب، ومازال كذلك حتى اليوم والغد. ومنذ الصغر اتخذ من القرش معبودا ومقياسا للرجولة والتفوق، ولم يتسع قلبه إلا لذلك المعبود الأوحد. وكما قلت فهو الصديق بلا صداقة. صديق بحكم الجوار والزمالة واللعب وعشرة العمر ولكن بلا عاطفة ولا مودة ولا حب حقيقى، يضحك للكارثة كما تضحك للنكتة، فلم يعلن أى تأثر لموت شعراوى الفحام ولا لموت جعفر خليل، ويوم قتل زميلنا بدر الزيادى فى الإضراب لم يكن يخفى ارتياحه لخلو الميدان من منافسه فى رئاسة فريق الكرة، ولما شعر يومها بعينى تحرقانه عض على أسنانه ليمنع ضحكة من ضحكاته القاسية فقلت له:

- أنت شيطان!

فهمس فى أذنى:

- ربنا يسمع منك!

ثم بمزيد من السخرية:

- لا فرق بينى وبينكم إلا أننى صادق غير منافق!

واعتاد أن يعيش بحكم تربيته ومزاجه خارج دائرة تقاليدنا وديننا وأشواقنا، بحكم تربيته ومزاجه وبلا دخل من تفكير أو فلسفة، وبلا دافع من الفساد والشقاوة كما كان الحال مع خليل زكى وسيد شعير، فلم تحتشد قواه إلا للعمل والربح، وحدهما، حتى الجنس وهو الترفيه الوحيد الذى مارسه لم يشغل إلا هامش وقت فراغه. وما إن حصل على البكالوريا عام ١٩٣٠ حتى أشركه أبوه فى العمل، وظل يدربه حتى مات عام ١٩٣٥ مخلفا عليه ثروة طائلة. ورغم مغامراته فى حديقة بيت آل الحملاوى فلا اعتقد أنه تعلق بامرأة مثلما تعلق بثريا رأفت، رآها وهو يعمل مع والده فاندفع فى إغرائها، وقد قال لى:

- مرّ بى وقت وقعت فيه تماما تحت سيطرتها ولو تمنعت علىّ تماما حتى النهاية لربما. . .

وسكت فسألته:

- لربما تزوجتها؟

- على الأقل كنت فكرت فى ذلك.

فسألته:

ـ ألم تحزن أو تخجل من الغدر بها؟

فقال وهو يضحك :

ـ لا أظن . .

لم يعرف الحب . ولا رغب فى الزواج ، ولا حن إلى الأبوة ، وحتى اليوم وهو فى الستين أو جاوزها بقليل مازال يعمل بنفس الهمة ويجمع المال بنفس النهم ولم يعرف للحياة غاية أخرى . وكنت أضيق به إذا سخر من عواطفنا الوطنية كما ضقت به يوم سخر من بكائى لوفاة سعد زغلول ، ولكنه كان يستهين بكل ذلك ويقول :

ـ لولا الإنجليز ، لولا اليهود ، ما كان لهذا البلد حياة!

وظل يردد ذلك حتى آخر يوم للإنجليز فى مصر . ومع أنه كان بخيلا كأبيه إلا أنه استن سنة جديدة فى البخل ، فقرر ألا ينفق مليما لغير ما ضرورة بشرط أن يهيىء لنفسه حياة رغدة .

ـ أنا أعزب وسأظل أعزب وبلا وريث فيجب أن أتمتع بحياتى .

طالما احتقر الزواج واعتبره عجزا وغباء ، ويبدو أنه لا يندم على قرار اتخذه أبدا ، وكلما تقدم به العمر نعم برضاه عن نفسه وعن قراراته . ومنذ عام ١٩٣٦ غادر حينا بعد أن باع البيت ، وأقام فى فندق ميناهاوس إقامة دائمة مفضلا الفندق لما يوفره له من خدمة شاملة وليعفيه من هموم المسكن المستقل المتنوعة ، وفى الوقت نفسه استأجر بيتا ريفيا فى الهرم لمغامراته النسائية المتقطعة ، إذ لم يكن يحب العلاقات الطويلة ويفضل غوانى الملاهى الليلية من الأجانب ، ولم يضن على نفسه بفاخر الطعام والشراب مع اعتدال تام فى الخمور ونفور طبيعى من المخدرات . وكان يقضى لياليه فى سمر تجارى مع العاملين معه فى حقل تجارة العمارات ولكنه لم ينقطع عنا فى ليالى سهراتنا الأسبوعية . وكان يهمه أن يقارن بين نجاحه وبين نجاح أصدقائنا أمثال الدكتور سرور عبد الباقى والأستاذ رضا حمادة ، ولم يخف إدلاله بالتفوق عليهما فى الثروة التى يعتبرها القيمة الأولى والأخيرة فى الحياة . . وقد داعبته يوما قائلا :

ـ ها هو خليل زكى ينافسك فى النجاح والثروة!

فقال باحتجاج :

ـ إنه قذر حقير .

فسألته :

ـ تعتبر نشاطك المالى نشاطا شريفا؟

فقال بصراحة معهودة فيه :

ـ الشرف تتغير معانيه من بيئة لأخرى، قد أقوم بصفقة تعتبر فى نظرك نهبا ولكنا نعتبرها خبرة وذكاء ولكنى أحتقر أساليب خليل زكى التى تعد من خبرة الفقراء!

وأحبته غانية أفرنجية، ومضت تراسله، فكان يقرأ علينا رسائلها ساخرا ويقول:

ـ هكذا تتوهم المرأة أنها تحب إذا رغبت فى الاستحواذ على رجل وامتلاكه!

وتجلت عواطفه العامة فى أبشع صورة يوم نشبت الحرب بيننا وبين اليهود عام ١٩٤٨. حتى خيل إلى أنه يكره وطنه لأسباب لا أدريها، أو أن مصالحه التجارية أفسدت عليه الميول التى نعتبرها فطرية، وتكرر ذلك الموقف منه عام ١٩٥١ لدى إلغاء المعاهدة وكفاح القنال، ولذلك كان يكره الوفد بالرغم من لا مبالاته السياسية بصفة عامة، على أن حياته واصلت مسيرها فى استقرار حتى قامت ثورة يوليو ١٩٥٢. ومع أن الثورة لم تقتحمه بصفة عامة إلا أنها زعزعت طمأنينته وأقلقت ثقته. توالت عليه الهموم بإلغاء النظام الملكى وإعلان الإصلاح الزراعى والجلاء. توثبت فى أعماقه غريزة الدفاع عن النفس، وأدرك ـ وإن لم يكن هدفا مباشرا ـ أنه ضمن الجبهة التى تهب عليها العواصف وأنها قد تقتلعه عاجلا أو آجلا. وهيأ له الاعتداء الثلاثى عملية نقل دم ولكن سرعان ما انطفأت شعلة الأمل، واختفى من الميدان كثيرون من أصدقائه اليهود حتى قال لى يوما:

ـ كم أتمنى أن أهرب أموالى وأهاجر!

ولما قرأ الوجوم فى وجهى قال:

ـ لم تعد مصر بالمقام الصالح للأذكياء!

ثم ضحك ضحكته القاسية وقال:

ـ لو لم أكن مصريا لتمنيت أن أكون مصريا.

وتابع نشاطه بنفس القوة بالرغم من مخاوفه، واسترد أنفاسه فى يونيو ١٩٦٧، ومع أنه راقب الأحداث التالية للهزيمة بدهشة وذهول إلا أنه لم يفقد الأمل هذه المرة، وقال لى بشماتة:

ـ لا مفر!

وقال أيضا:

ـ طبعا سمعت عن صحوة الموت!

ومرت أشهر، وعام وعامان وثلاثة أعوام، وتحسنت الأحوال، وصلبت الإرادة، وتجددت آمال النضال، ولكن ذلك لم يهزمه وإن أقلقه أحيانا، واعتصم بفكرته الثابتة، وغذاها بمتابعة الإذاعات المعادية، والإشاعات المغرضة، ولما وجد منى ومن رضا حمادة اتهاما لوطنيته قال:

ـ لا وطن بعد اليوم إلا وطن المصالح، فإما أن تكون أمريكيا وإما أن تكون سوفيتيا، إما أن تقبل الحرية والإرادة الخلاقة والإنسانية وإما أن تقبل النظام والعدالة العمياء والإرادة الميكانيكية!

فقد الأمل فى الإنجليز، وأصبح حلمه الذهبى أن تسيطر أمريكا على الشرق الأوسط وأن تحدد له مدارا حضاريا فى مجالها الحيوى يلعب فيه العرب واليهود دورا متكاملا.

هكذا علمته المصلحة أن يتكلم فى السياسة، وما زال يعمل، يشيد العمارات ويبيعها، يقيم فى ميناهاوس يستمتع بحياته كأعزب مقطوع من شجرة، ويمارس الجنس كل شهر مرة. ويزورنا فى أوقات محددة تحية لعشرة نصف قرن، صداقة بلا حب حقيقى ولا احترام، نراه مخلوقا شاذا قُدّ من حجر ويرانا مجموعة من الحمقى العابثين بلا قيمة حقيقية.

غانم حافظ

كان مدرس الرياضيات فى المدرسة الثانوية، وكان وقتها شابا، عرف بالأدب والوقار وحسن المعاملة فلم يخرج تلميذ فى معاملته عن حدود الأدب، حتى الذين عرفوا بالشقاوة مثل جعفر خليل وبدر الزيادى وعيد منصور. طلبه عيد منصور مرة لدرس خصوصى بعد أن أقنع أباه بأن أجرة الدرس الخصوصى أرحم من مصروفات سنة إعادة. وقابل غانم أفندى حافظ والد عيد فسأله الرجل عما يطلب فطلب ريالا فى الساعة ولكن الرجل فزع وقال إنه لا يدفع أكثر من شلن، فابتسم غانم أفندى حياء واقترح أن يعطيه الدرس مجانا بشرط أن يحضره مع تلميذ آخر فى نفس الحى، وقد كان، وتلقى عيد منصور درسا خصوصيا فى الحساب مجانا طيلة شهرين! وقد رأيته وهو يبكى يوم مصرع بدر الزيادى، وكان جزاؤه منا حبا واحتراما. وبعد التحاقى بالجامعة عرفته عن كثب فى مقهى الحى، فتحولت التلمذة إلى صداقة ـ وكان أهم ما يميزه دماثة الأخلاق وهدوء الطبع وأناقة الملبس، كان يجالسنا فى يوم واحد فى الأسبوع ـ وخاصة فى العطلة الصيفية ـ يدخن النارجيلة، يصغى فى أدب ومجاملة وقليلا ما يتكلم. وكان يعالج شتى الموضوعات فى إطار طبعه الهادئ، ومهما يكن من عنف الموضوع وشدة حرارته فإنه يتحول على لسانه همسا عذبا تحيطه هالة باسمة. لم ير غاضبا أو محتدا أو صارخا، حتى السياسة كان يترجمها حديثا جذابا لطيفا غاية فى الوداعة ولو هوجم حزبه المحبوب الوفد. وإذا تصدى للدفاع قال:

ـ إنهم ناس طيبون!

أو يقول:

ـ مصطفى النحاس؟ . . إنه رجل طيب مبارك!

وأقسى ما يذهب إليه فى الدفاع أن يقول:

ـ سامحك الله!

واقتصر نشاطه السياسى على ذلك، وعلى التوجه يوم الانتخاب ـ إذ تقرر إجراء انتخابات حرة ـ إلى اللجنة لإعطاء صوته لمرشح الوفد. ولذلك لم يشترك فى ثورة ١٩١٩ إلا بقلبه وحده. وكان جم التواضع، لا يخجل من أصله بخلاف الكثيرين من أهل طبقته، فحدثنى مرة عن أصله قائلا:

ـ كان أبى شرطيا.

ثم قال:

ـ وكان همه أن يجعل منى شرطيا غير أن جارا لنا ـ تاجرا ـ نصحه بإدخالى المدرسة الابتدائية، ففعل، ونجحت نجاحا استحققت عليه المجانية حتى نلت البكالوريا، ولم أجد مدرسة ميسرة أمامى إلا المعلمين فدخلتها!

وتزوج من كريمة مدرس اللغة العربية وكانت حاصلة على الشهادة الابتدائية.

ـ وكانت أسرة زوجتى على تواضعها أرقى من أسرتى فصادفتنى متاعب مؤسفة.

ثم قال بشىء من الحزن وفى صراحة مؤثرة:

ـ كان الموقف يتطلب شخصا أصلب منى! ولكن زوجتى أنجبت لى ثلاثة ذكور!

كان له يوم ترفيه واحد يمضيه فى المقهى ولا يغادر أهله بعد ذلك إلا لعمل، ومرت أعوام حافلة بالتاريخ وهو قابع فى عشه يراقب الأحداث من بعيد، يناقشها بهدوء ويعلق عليها برقة، مركزا على تربية أولاده الثلاثة حتى تخرج بكريه ضابطا فى سلاح الفرسان، والأوسط مهندسا ثم التحق بالجيش، والثالث بيطارا. وقد نجا ابناه من حرب ١٩٥٦ بأعجوبة فحمد الله وشكره، وواصل عمله حتى أحيل على المعاش عام ١٩٦٠، وهو يتمتع بصحة جيدة وحياة زوجية سعيدة. ولما احتشدت قواتنا فى سينا فى أواسط عام ١٩٦٧ خفق قلبه بعنف بعد طول هدوء، وراح يسأل كل من هب ودب:

ـ حرب أم لا؟

ووقعت الواقعة، وانحسر الظلام عن شىء من النور، فرجع الابن الأوسط مصابا إصابة غير قاتلة، أما بكريه فاعتبر من المفقودين، وهزته الصدمة من الأعماق. وتبدد هدوءه التقليدى فانهار انهيارا يدعو إلى الرثاء، وكان يحب أبناءه كأم، ورفض أن يصدق

أن ابنه قتل، وظل يحلم دائما بمعجزة تعيده إليه سالما. وما لبث ابنه الأوسط أن تماثل للشفاء فعاد إلى الجبهة، وبقى الرجل ممزقا بين أحلامه عن المفقود وخوفه على المقاتل، وهو يتابع أنباء الجبهة ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم، ترجفه أخبار الغارات فى الأرض والسماء، ويخذله إيمانه رغم رسوخه، ويزلزله حبه العميق لأولاده. وأراه أحيانا شيخا عجوزا محنى الظهر قليلا أبيض الشعر. يجلس شارد النظرة، يفكر فى المجهول، لا يبشر منظره بقدرة على مواجهة الحياة بمطالبها الجامحة، فاحتار طويلا بين العتب عليه والرثاء له، ثم أنضم إليه مواسيا، ثم نتبادل التخمينات عن الغيب.

فايـــزة نصـــار

تعرفت بها فى بيت عجلان ثابت بالجيزة حوالى عام ١٩٦٠ كما تعرفت بزوجها فى نفس الزيارة. كانت فى الثلاثين، لوجهها طابع ريفى رائق بالرغم من أناقتها العصرية. وهى وإن تكن متوسطة الجمال إلا أنها ذات جاذبية جنسية قوية، أما زوجها ـ عبده إبراهيم ـ فصاحب جراج فى الخمسين، بدين مترهل خامل المظهر، يشترك فى الحديث بالنظرة أو الابتسامة البلهاء ولا يكاد يتكلم.

قال لى عجلان:

ـ إنها جارتنا فى نفس العمارة وصديقة زوجتى.

فقلت:

ـ زوجها غير مقنع!

ـ ولكنه ذو دخل محترم، أنجب منها طفلين، وهى أم لا بأس بها وإن تكن أمية!

ـ تبدو ذكية.

ـ فى الأصل كانت ابنة بياعة جبن وزبدة، ولكن استعدادها للتأقلم قوى، وهى تتقدم بفضل الإذاعة والتليفزيون والصديقات.

وفى زيارة تالية لبيت عجلان ثابت قابلت فايزة نصار وكانت بصحبة رجل أربعينى حاد البصر قوى الجسم علمت أنه يدعى جلال مرسى وأنه صاحب كازينو الهرم. وقال لى عجلان ثابت باستهتاره المعروف.

ـ فى المرة السابقة عرفت زوج فايزة وها أنت تعرف فى هذه المرة عشيقها!

وضجت الحجرة بالضحك، زوجة عجلان وفايزة وجلال صاحب الكازينو، وقال جلال:

ـ لا تصدق!

فسألته فايزة بنبرة وعيد:

ـ هل تنكرنى؟

فأحنى رأسه بخشوع وقال لى:

ـ صدق يا سيدى.

قال عجلان ثابت:

ـ وهو صديق الزوج!

ودعتنى فايزة لزيارة بيتها فتوطدت العلاقة بينى من ناحية وبينها وبين زوجها من ناحية أخرى. وذهبت فى صحبتهما مرات إلى كازينو الوادى فكان ينضم إلى مائدتنا جلال مرسى، ولمست مدى عمق العلاقة بينه وبين الزوجين. ولم أقطع برأى فى مدى معرفة الزوج بالعلاقة بين زوجته وعشيقها، وحتى عجلان ثابت لم يعلم أكثر مما أعلم، ولكنه قال لى:

ـ تعود على هذه العلاقات حتى تبرأ من عبوديتك البرجوازية.

ومرة وكنا مجتمعين فى بيت عجلان أنا وعجلان وزوجته فايزة. فأشار إلى دون تمهيد وبلا مناسبة وقال لفايزة:

ـ إنه يعانى من عشقه لك!

وانتقلت إلى جانبى بخفة وطوقت عنقى بذراعها السمراء البضة وقالت:

ـ أرانى!

فقال عجلان ضاحكا:

ـ بهوادة حتى لا يفزع.

فقالت:

ـ ولكن تحت شرط.

وسألها عن الشرط فقالت:

ـ ليلة واحدة..

ثم وهى تنظر فى عينى:

ـ المرأة الفاضلة يكفيها زوج وعشيق واحد!

هكذا كانت فى مزاحها، ولكنها ـ فيما علمت ـ كانت تحب جلال حبا حقيقيا. وكانت فى الوقت نفسه تحرص على نقاء بيتها وتربية طفليها تربية حقيقية، وقال لى عجلان:

ـ إن ما يتعبها حقيقة هو طموحها، فبالرغم من أميتها تحلم بأن تكون شيئا عظيما!

فتساءلت :

ـ لعله المال !

ـ حياتها رغدة ، ولكنها تحب المال ، وشيئا أكثر من المال .

ـ أى شىء ؟

ـ الفن إن صدق تخمينى !

ثم قال لى :

ـ كلفت أن أدعوك لزيارتهم معى .

فقلت وأنا أتساءل عن السبب فقال :

ـ يبدو أنه أمر هام ، وسنعرفه فى الحال .

وجدنا فايزة وزوجها وعشيقها فسلمنا وجلسنا ونحن نشعر بأن توترا ما يكهرب الجو والوجوه ، وسرعان ما قالت فايزة :

ـ المسألة وما فيها أن أحد المخرجين عرض على دورا هاما فى فيلمه القادم !

ونظرت فى وجوهنا وقالت :

ـ ما رأيكم ؟

ولما رأيت عينيها تطاردانني قلت :

ـ المسألة تتعلق بك وبالسيد عبده أولا وأخيرا .

فقال عبده إبراهيم وهو يرفع وجهه ليجد للكلام ممرا خلال لغده :

ـ سيدات العائلات يمثلن فى هذه الأيام .

ولكن جلال مرسى تساءل :

ـ أود أن أعرف كيف ومتى رآك ، ذلك المخرج ؟

فأجاب الزوج :

ـ رآنا ونحن عندك ليلة فى الكازينو .

ـ وهل تجلت له موهبتها من النظرة الأولى .

ـ هذا شأنه لا شأننا .

فقال جلال :

ـ كصديق مخلص لكما لا أوافق على دخولها ذلك الميدان .

فسألته فايزة وهى تبدو سعيدة رغم التوتر العام :

ـ لِمَ ؟

ـ لم تظهرى فيما سبق أى اهتمام بالفن .

ـ لم توجد مناسبة .

ـ إنه لا يولد فجأة ولا لمجرد أن مخرجا اقترحه .

ـ بل هكذا يولد .

فقال الزوج :

ـ أظن ذلك .

فقال جلال بحدة :

ـ إنهم لا يعرضون الأدوار لوجه الله .

فقال عجلان ثابت :

ـ لوجه الفن .

فقال جلال :

ـ ولا لوجه الفن !

فقالت فايزة :

ـ لست قاصرا !

وقال الزوج :

ـ إنها أهل للثقة .

فقال جلال بإصرار :

ـ كصديق مخلص لكما لا أوافق .

فقال الزوج :

ـ هذه فرصة لا يجوز إهمالها .

ووافق عجلان على رأيه كما وافقت أنا وكأنما كانت مؤامرة بلا تدبير سابق ، وقام جلال مرسى فحيانا ومضى وهو يقول :

ـ قلت رأيى وأنا مصر عليه .

وقال عجلان بخبث :

ـ عليك أن تقابل المخرج فى أسرع وقت .

وعندما غادرنا البيت أنا وعجلان قلت له :

ـ عبده إبراهيم بكل شىء يعلم !

فضحك عاليا وقال :

- وانتهز الفرصة فوجه إلى غريمه ضربة موفقة.

- ولكنها ماذا ستفعل فيما ترى؟

فتفكر قليلا ثم قال:

- إن صح ظنى فطموحها أقوى من عشقها!

وصدق ظنه. قامت بتمثيل الدور. وكانت مفاجأة فنية لا يستهان بها، ودعيت إلى تمثيل دورين جديدين.

وهجرها جلال فلم تسع لاسترداده. وما لبث زوجها أن طلقها بحجة حماية بيته وطفليه من الجو الفنى الذى أخذ يغزو بيته، ودل بقراره ذلك على أن خموله لم يكن إلا قشرة تخفى وراءها حقداً طويلا. وانتقلت فايزة إلى شقة صغيرة وأنيقة بالزمالك. وقد زرتها يوما بصحبة عجلان فالتقيت عندها بالدكتور صادق عبد الحميد وعشيقته الصحفية نعمات عارف زوجة الدكتور زهير كامل التى تخصصت أخيرا فى النقد الفنى، ووجدت فايزة مرحة كعادتها، وسعيدة بالنجاح، حتى قال لى عجلان ونحن راجعان معا:

- محتمل أن تحن أحيانا إلى طفليها ولكنها ليست بالتى تنهار بسبب ذلك، أعترف لك بأننى أسعد بنجاح أى فلاح أو فلاحة، مهما يكن ثمن ذلك النجاح!

فتحى أنيس

لفت نظرى مذ رأيته فى أول يوم التحقت فيه بالوظيفة. حسبته موظفا كبيرا أو سليل أسرة عتيقة، وكم دهشت عندما تبين لى أنه كاتب القيد بالسكرتارية. كان فى الثلاثين من عمره، شهادة ابتدائية، مرتب ثمانية جنيهات، متزوجا وأبا لخمسة أبناء، ولكنه كان طويلا رشيقا عظيم القسمات، حتى قال لى الأستاذ عباس فوزى.

- انظر إلى عبث الطبيعة، جادت عليه بمنظر يليق بموظف استقبال بالخارجية ولكنها ضنت عليه بما ينفعه أو ينفع الناس.

وكان يقول عنه أيضا:

- إنه حى لا يرزق!

وكان مسئولا عن أم وأختين مطلقتين، فاستقبل أيام الحرب وارتفاع مستوى المعيشة وهو على تلك الحال. ولم يكن نادرا أن يقترب من عباس فوزى أو عبد الرحمن شعبان ويقول ببساطة:

ـ من يعطينى قرشا أشترى به سندوتش فول وله الجزاء الأوفى فى يوم القيامة؟

وكان إذا لمح أحدا من الأهالى فى الممشى الخارجى بادر إليه فيسأله إن كان فى حاجة إلى خدمة يؤديها له عن طيب خاطر، وفى الختام يسأله بلا حياء :

ـ هل أجد عندك سيجارة؟

وعطف الأستاذ عبد الرحمن شعبان عليه يوما فقال للأستاذ عباس فوزى :

ـ حال فتحى تستحق النظر .

فصدق الرجل على قوله وقال :

ـ العين بصيرة واليد قصيرة!

فقال عبد الرحمن :

ـ أسعفوه بوظيفة يمكن أن تدر عليه رشوة!

فقال عباس فوزى باسما .

ـ يوجد فرص فى المستخدمين والحسابات والمخازن والمشتريات ولكنه بدون مؤهلات .

فقال عبد الرحمن فى شبه غضب :

ـ يوجد مديرون بالابتدائية .

ـ أعنى بالمؤهل الوساطة ويبدو أن أعظم من يعرف فى الحياة هو عم صقر الساعى!

واهتدى إلى وسيلة يستغل بها منظره فى مقاومة الجوع، فكان يتقدم إلى أسرة ما كخاطب، فيقابل بالترحيب من ناحية المبدأ حتى تتم الاستعلامات عنه، وفى الفترة الموضوع فيها تحت الاختبار يزور الأسرة فيستقبله رب البيت، ويتعمد البقاء حتى وقت الغداء أو العشاء، ولما يدعى للمائدة يلبى وهو يقول :

ـ لا يأبى الكرامة إلا لئيم .

ثم يأكل بوحشية وكأنما يخزن الطعام ليجتره بقية الأيام . وتجىء نتيجة الاستعلامات فى غير صالحه طبعا فيعتذرون من عدم قبوله فيذهب وقد فاز ببضع أكلات خيالية . ويواصل غزواته فى أحياء المدينة حتى تسربت أنباؤها إلى الموظفين فجعلوا منه نادرة تروى . وما ندرى يوما إلا وهو يدخل علينا مرتديا جلبابا! وكان الأستاذ طنطاوى إسماعيل مازال رئيسا للسكرتارية فاستدعاه وسأله :

ـ ما معنى ذلك يا فتحى أفندى؟

فقال ببساطة :

ـ البدلة استهلكت تماما، قلبتها منذ ثلاثة أعوام فلم يعد بها رمق، ولا أستطيع أن اشترى زرارا!

فقال الرجل فى حيرة :

ـ ولكن ذلك يخالف التعليمات !

فقال بثقة :

ـ لا نص فى التعليمات على ذلك !

وتداولنا إن كان ذلك يجوز أو لا يجوز دون أن نهتدى إلى علاج . وزاد الحرج عندما فاجأنا الوزير الوفدى الجديد بزيارة تفتيشية . ولما رآه الوزير ظنه ساعيا فقال له :

ـ ألم يصرفوا لك بدلة السعاة؟

فأجاب بإيمان :

ـ أنا موظف يا معالى الباشا ، ولكنى لا أملك ثمن بدلة جديدة !

فدهش الوزير وسأله عن وظيفته وشهادته ومرتبه وعدد أولاده الذين بلغوا التسعة عدا فى ذلك التاريخ ، ثم سأله ضاحكا :

ـ أليس لك هواية إلا الإنجاب؟

فقال فتحى بجرأته المعهودة :

ـ أنا من شعب الوفد ولن أضام فى عهدكم !

وقد منحه الوزير علاوتين استثنائيتين ، ثم أدركته علاوة الغلاء التى تقررت لأول مرة ، فاشترى بدلة ولكن حاله لم تتحسن إلا قليلا . وذات صباح همس لى عم صقر وهو يقدم لى القهوة :

ـ أخيرا وُفّق ابن الشحاذة !

فسألته :

ـ فتحى أنيس؟

ـ نعم .

ـ كيف؟

ـ سيتزوج من أرملة غنية جدا .

ـ حقا؟ . . وجميلة؟

فضحك قائلا :

ـ عمرها ستون عاما ، وهى فى الجملة كالمومياء !

وصح الخبر كجميع أخبار عم صقر . وتزوج فتحى من أرملة عجوز تركية مستحقة فى وقف كبير ، وقيل إنه تزوج بموافقة زوجته الأولى إيثارا لسعادة الأولاد على نفسها .

وتغير حاله بصورة ملموسة، وظهرت عليه النعمة فى ملبسه وصحته ورونقه، ورغم كل شيء أثار حسد الكثيرين، وكان عباس فوزى يتهكم به فيسأله:

ـ كيف طاوعتك نفسك على معاشرة مومياء؟

فيجيبه بصراحته وبساطته:

ـ عندما يملأ الإنسان بطنه بثلاثة أو أربعة أصناف من اللحوم وخمس كئوس من الويسكى فإنه يستطيع أن يعاشر عزرائيل نفسه!

وعقب حرب فلسطين الأولى ١٩٤٨ توفيت زوجته الجديدة مخلفة عليه ثروة طائلة، ولم يفلح فى إخفاء أفراحه حتى فى الأيام الأولى للحدث، واستقال من وظيفته، وفكر فى إنشاء عمل حر. حتى هداه تفكيره إلى فتح مقهى كبير فى التوفيقية، وتحمل خسائر عام أو عامين حتى يتقن مهنته الجديدة، ثم نجح المشروع نجاحا منعدم النظير، وانقطعت أخباره عنى بطبيعة الحال حتى بعثها من الظلمات عم صقر عقب خروجه من السجن فحدثنى عن ثرائه الفاحش، وما ملك من عمارات. وعن معيشته الحالية فى قصره بالهرم، وعن نجاح أبنائه فى المدارس والكليات وقد بلغ عددهم أثنى عشر ولدا. أخبرنى كذلك بأنه أبقى على زوجه الأولى ولكنه اتخذ من راقصة إيطالية عشيقة له. قال عم صقر:

ـ إنه اليوم فى السادسة والستين من عمره. ولكنه قوى مهيب كرجل فى عز شبابه، ويرافق راقصة إيطالية فهل سمعت عن عاشق فى مثل هذه السن؟ ولكنه الحظ، ألف ليلة وليلة، وكل ما عداه باطل.

قــــدرى رزق

كان يتردد على شقة عدلى بركات الفاخرة فى أوائل عام ١٩٤٨، وكان فى الثلاثين من عمره أو دون ذلك بقليل، وطالما جالسنا ببدلته الرسمية كضابط فى سلاح الفرسان، فيضفى على المجلس من روحه مرحا وصفاء. وبدا قليل الاهتمام بالسياسة والشئون العامة ولولا محاولة بذلت لاغتيال مصطفى النحاس ما فطنتُ إلى أنه ينطوى على ميول وفدية، ورثها غالبا عن أبيه الذى كان عضوا بالهيئة الوفدية.

وكان ممشوق القوام أسمر واضح الملامح جذابها ذا شارب غليظ لا ينى يغازله فى إعجاب وارتياح. وفى جلسات الأنس التى اشتهر بها مسكن عدلى بركات شهدت له غزوات موفقة مع فنانات كثيرات. وفى أعقاب حرب ١٩٤٨ اجتمع بنا فى شقة عدلى

بركات وقد زايله المرح ووشت حاله عموما بامتعاض وقرف . وكنا ـ أنا ورضا حمادة ـ فى غاية من الحزن ، فطرحنا عليه العديد من الأسئلة لعله يروى غلتنا أو يبدد من أفكارنا بعض الظلمات ، ولكنه لم يمس التفاصيل وقال بإيجاز :

ـ لقد ضحى بالجيش بطريقة دنيئة قصد بها القضاء على كرامته وأرواح رجاله .

وهز رأسه بضيق وقال :

ـ لا يمكن أن يمر ذلك بلا ثمن !

فقلت ببراءة :

ـ لكننا لم نهزم ، الفالوجة نصر مبين .

فقال بحدة :

ـ بل هزمنا ، وحوصرنا بين عدوين ، عدو فى الخارج وعدو فى الداخل .

واستجابت نفسى لغضبه بقدر ما وجدته متجاوبا معها ، وقال رضا حمادة :

ـ كل ذلك نتيجة لحكم أحزاب الأقلية الذى مكن لطغيان الملك .

فقال قدرى رزق :

ـ ونتيجة أيضا لضعف الوفد الذى عجز عن تحقيق الإرادة الشعبية .

فاستاء رضا حمادة وقال :

ـ الوفد اعتمد دائما على ثورية الشعب ولكن الشعب تخلى عن ثوريته !

فقال قدرى رزق الذى لم أره من قبل على تلك الدرجة من السخط :

ـ الوفد هو المسئول عن تخلى الشعب عن ثوريته !

وتوثقت علاقته بنا فى تلك الأيام ، وتعددت لقاءاتنا بشقة عدلى بركات . وشهدنا معا تدهوره حتى انتحاره ، ولكنه لم ينقطع عنا فكان يجتمع بنا فى بيت رضا حمادة أو فى مقهى الفيشاوى ، ورجع إلى طبيعته الأصلية فقل اهتمامه بالسياسة والشئون العامة ، وعاوده المرح والمجون والتفرغ لغزو الحسان . ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ اكتشفنا أنه كان ضمن مجموعة الضباط الأحرار فعجبنا لقدرته الخارقة على الكتمان وقد سهر معنا عشية الثورة فى مقهى الفيشاوى ، وجلس كعادته يضاحكنا ويسامرنا ، وعدت معه قبيل منتصف الليل إلى العباسية مشيا على الأقدام من طريق الجبل ، ثم ملت أنا إلى العباسية الغربية وواصل هو سيره شمالا إلى مسكنه بشارع أحمد ماهر كما ظننت ، أما الحقيقة فإنه لم يذهب ليلتها إلى بيته ولكنه مضى صوب منشية البكرى ليقود قوة صغيرة إلى احتلال مفترق طرق ! وغيبته الأحداث عنا فترة غير قصيرة طرد فى أثنائها الملك ، ثم رجع إلينا وقد رقى إلى رتبة جديدة . وتتابعت التطورات الهامة مثل الإصلاح الزراعى والجلاء وغيرها ونحن نتلاقى بانتظام أسبوعى فى بيت رضا حمادة قبل اعتقاله ، واستمر التلاقى

بعد ذلك في بيتى أو بيته أو في مقهى الفيشاوى، وطيلة تلك المدة لم يخرج حديثنا عن السياسة التى لم يعد له من حديث غيرها. ولم يكن بيننا خلاف جدى، استطاعت الثورة أن تستأثر بقلوبنا وآمالنا فى لحظة تاريخية أسطورية باهرة. وقال قدرى رزق:

ـ اندثرت القوى الجهنمية التى كانت تعوق تقدم الشعب مثل الملك والإنجليز والحكام الفاسدين ورجع الأمر إلى أبناء الشعب الحقيقيين، فهو حكم الشعب للشعب لخير الشعب، انتهى الفساد والانحلال وسينطلق تيار الإصلاح والتقدم إلى الأبد.

وقلنا إنه آن للحلم أن يتحقق، وأن ينعم بالحرية والرقى والعدل ذلك الشعب الذى عانى الظلم والاستعباد والفقر والغربة آلاف السنين. أجل ساءنا بعض الشيء التوثب للقضاء على الوفد، وسأله رضا حمادة ـ قبل اعتقاله ـ أكثر من مرة:

ـ أليس الأفضل أن تتخذوا من الوفد قاعدة شعبية لكم؟

كما ساورتنا مخاوف من ناحية أمريكا، وخشينا أن تحل محل إنجلترا بطريقة أو بأخرى، بعدما شعرنا بمدى تأييدها للنظام الجديد. ولكن قدرى رزق قال:

ـ الأمريكان ذوو نفع كبير ولا خوف علينا منهم بفضل وطنية زعمائنا الجدد.

وحلت الأحزاب وضرب على أيدى الإخوان والشيوعيين، وكان قدرى يتحمس لكل إجراء بلا قيد ولا شرط، حتى سألته مرة:

ـ ولكن من أنتم؟

فضحك، وتفكر مليا، ثم قال:

ـ نحن أصدقاء الوطنية والعروبة والثورة وأعداء الفساد والتعصب والإلحاد!

وقال أيضا بحماسه الطيب:

ـ هدفنا تحرير الشعب مما يستعبده سواء أكان شخصا أم طبقة، فقرا أم مرضا، ثم دفعه إلى المكان اللائق به تحت الشمس.

ونغص صفونا ما أصاب صديقنا رضا حمادة فى شخصه وابنه وزوجته، وشد ما تأثر لذلك قدرى رزق وحزن، ولكن هوّن من وقع المأساة القوة التى لاقاها بها صديقنا الجلد الصبور القوى. وكان قدرى يعجب به ويقول عنه إنه رجل ولا كل الرجال، ويتعجب كيف أن رجلا مثله ورجلا مثل الدكتور زهير كامل ينبتان من أرض واحدة. وتتابعت أحداث مجيدة مثل الاتجاه نحو الكتلة الشرقية للتسليح، ومثل تأميم قناة السويس الذى بلغ بحماسنا درجة لم نعرفها من قبل، فثمل بذلك قدرى رزق وثملنا، وقال لنا:

ـ أرأيتم؟ نحن مصريون أولا وأخيرا، لا أمريكيون ولا روسيون!

وتزوج قدرى فى تلك الفترة من كريمة أسرة كبيرة إقطاعية ممن طبق عليهم قانون

الإصلاح الزراعى، وكانت مفارقة تستدعى الملاحظة وتحتاج إلى تفسير، غير أنه يمكن اعتبارها ظاهرة عادية إذا نُظر إليها من الناحية العاطفية البريئة، ولم يغب عنى أن صديقى كان فخورا بمصاهرة تلك الأسرة رغم ثوريته وإخلاصه وطيبته، وأما رضا حمادة فقال لى:

ـ إنها طبقة تتطلع إلى أن تحل مكان طبقة!

ثم كان الاعتداء الثلاثى وانقلابه على المعتدين ولكن صديقنا قدرى رزق أصيب فى ساقه وفقد عينه اليسرى فاضطر إلى ترك الجيش، وعين فى وظيفة ثقافية كبيرة بوزارة الإرشاد. وبتوليته للوظيفة الجديدة بدأ اهتمامه بالثقافة لأول مرة فى حياته، فكان يعمل نهارا ويدرس ليلا، وأثبت أنه عالى الهمة فى التحصيل والإدارة. وكان فى إجازة شهر العسل حينما نشبت الحرب فاستدعى من بين أحضان عروسه للقيام بواجبه العسكرى فأصابه ما أصابه. ولما أعلنت القوانين الاشتراكية بعد ذلك بأعوام بدأ يدرس الاشتراكية بنفس الهمة التى درس بها الثقافة، وكان على استعداد دائما للإيمان بما تدعو الثورة للإيمان به إذ أن إيمانه الحقيقى كان بالثورة. بالثورة وحدها. والحق أنه كان وما زال برجوازيا فى أخلاقه وآماله وأحلامه وتقاليده، ولكنه كان وما زال برجوازيا ذا لسان اشتراكى، ولم يجئ ذلك عن نفاق أو خوف ولكن بدافع إخلاص حقيقى للثورة وما تنادى به، وإنى لأعده من أخلص الرجال وأنقاهم وأنزههم، كما كان من أشدهم سخطا على المستغلين والمفسدين ممن خانوا أمانة الثورة. ولما حاقت بنا هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ زلزل لها كيانه حتى خيّل إلىّ أنه يموت وهو حى، وتساءل فيما يشبه الهذيان:

ـ أيذهب ذلك التاريخ كله هباء؟!

ونظر فى وجوهنا بوجه شاحب وتساءل مرة أخرى:

ـ أنركع مرة أخرى تحت أقدام الرجعيين والاستعماريين؟!

وكان يجاهد بعنف ليسترد أنفاسه اللاهثة. وليخلق فى الضياع أملا جديدا، وليحول الهزيمة إلى درس وعبرة. وكلما مر يوم دون استسلام استرد بعضا من عافيته، وعكف على أرض الواقع الصلبة يحفرها بأظافره لعله يستخرج منها بعض قطرات من ندى الأمل. وما أشبهه فى ذلك بالدكتور عزمى شاكر أو الدكتور صادق عبد الحميد، وكان يقول:

ـ ما تاريخ العرب الحديث إلا سلسلة من الهزائم أمام الرجعية والاستعمار، ولكن ما يكاد اليأس يخيم حتى ينبثق من ظلماته نور جديد، وهكذا ذهب التتار والصليبيون والإنجليز وبقى العرب!

وهو يريد للثورة أن تبقى، وأن تنتصر، مهما كان الثمن، كيلا تتعثر النهضة فى زمن

لم يعد يسمح بالتخلف يوما واحدا، ويتابع أنباء القتال وهو آسف على أنه لم يعد فى إمكانه الاشتراك فيه. ويحزنه أن نتلقى ضربة دون أن نردها بالمثل ولذلك فهو ينتظر على جمر اليوم الذى نستكمل فيه استعدادنا للقتال. إنه يعيش يوما فيوما بل ساعة فساعة فى متابعة وقلق وترقب وأمل ومحاسبة للنفس لا هوادة فيها. وبصرف النظر عن آراء الأستاذ سالم جبر المتناقضة وسخريات عجلان الحادة وانتقادات رضا حمادة المرة فإن قدرى رزق يعتبر رجلا محترما ومخلصا من رجال ثورة يوليو، وقد يتعذر تعريفه على ضوء المبادئ العالمية ولكن يمكن تعريفه بدقة على ضوء الميثاق، فهو يؤمن بالعدالة الاجتماعية إيمانه بالملكية الخاصة والحوافز، ويؤمن بالاشتراكية العلمية إيمانه بالدين، ويؤمن بالوطن إيمانه بالوحدة العربية، ويؤمن بالتراث إيمانه بالعلم، ويؤمن بالقاعدة الشعبية إيمانه بالحكم المطلق. وعندما يقبل علىّ وهو يعرج ويطالعنى بعينه الباقية ينبض قلبى بالمودة والإكبار.

كامل رمزى

تعارفنا عام ١٩٦٥ فى بيت الدكتور عزمى شاكر. كان حديث عهد بالحرية بعد أن قضى فى الاعتقال خمسة أعوام. وهو أسمر نحيل طويل أصلع كبير الرأس صغير العينين براقهما فى الخمسين من عمره. دكتور فى الاقتصاد وكان أستاذا بكلية التجارة حتى تاريخ القبض عليه. قلت له:

ـ قرأت كتابك عن المذاهب الاقتصادية وأشهد بأنه أمتعنى بقدر ما أفادنى.

فشكرنى وقال:

ـ كانت الحياة الجامعية تناسبنى جدا!

وقال الدكتور عزمى شاكر:

ـ اتهم خطأ بالنشاط العملى أما الحقيقة فهى أنه أستاذ مفكر لا يجاوز نشاطه مجال التفكير والتأليف.

وفى نفس الأسبوع الذى تعارفنا فيه ولى منصبا كبيرا، وقال لى عزمى شاكر للمناسبة:

ـ إنه مثال فى العلم والحزم والنزاهة.

وكان صديقا لسالم جبر وزهير كامل، وعرفته بدورى لرضا حمادة وقدرى رزق والدكتور صادق عبد الحميد فنال احترامهم جميعا ولكن لم يغال أحد فى حبه! وقد

أشعرنى حديثه بالصدق والصراحة والعلم، وهو ممن أتموا تعليمهم بإنجلترا، وذو اطلاع شامل فى الاجتماع والسياسة، وله قدرة فائقة فى المناقشة والجدل. ويتكلم إذا تكلم بثقة وصراحة وقوة. ولا يؤمن فى شىء بالحلول الوسطى، ولا بالمجاملة، ولا بالتسامح، بل يؤمن برأيه لحد التعصب، ولا يطيق المعارضة فهى تثير أعصابه وتخرجه عن الاتزان اللائق بمركزه فسرعان ما يهدر غاضبا بالحجج والأدلة وكأنه يخوض معركة حامية. وهو يشبه عبد الوهاب إسماعيل فى تعصبه على تناقضهما فى الأسلوب، حتى قلت مرة للدكتور عزمى شاكر:

ـ إنه عالم ولكنه ذو عقلية دينية.

فقال:

ـ إنه متعصب بلا شك، ومشتعل فى مناقشته، ولكن أعصابه لم تفسد بهذه الصورة إلا بعد تجربة الاعتقال.

وبمزيد من الاختلاط به عرفت زوجته وهى دكتورة فى الاقتصاد أيضا ومدرسة بكلية التجارة ومثال مشرف للمرأة المصرية. وعرفت له أسلوبا فى الحياة يعتبر غريبا فى عصرنا، فهو يميل إلى التقشف فى ملبسه، وطعامه الذى يشبه الرجيم، وإلى ذلك فهو لا يدخن ولا يذوق الخمر. وقد قال لى مرة:

ـ لم أعرف المرأة قبل الزواج، وقاومت جميع المغريات وأنا طالب فى البعثة!

وأدهشنى أن يصوم فى رمضان رغم إيمانه الكامل بالمادية الجدلية وسألته:

ـ ما معنى ذلك؟

فضحك قائلا:

ـ كان أبى عاملا بسيطا، وكان متدينا، فربانا تربية دينية شاملة فنشأت فى أحضان الأخلاق الإسلامية، ولم أستطع بعد ذلك التخلى عنها إلا فيما يناقض عقيدتى الجديدة، وكان الصيام فيما استبقيت من العادات القديمة فهو رياضة تناسب سلوكى تماما.

وتفكر قليلا ثم قال:

ـ العظمة الحقيقية للدين لا تتجلى إلا عندما تعتبره لا دينا!

وذكرنى فى الحال بإلحاح زهران حسونة فذهلت للفارق الهائل بينهما مثل الفارق بين ملاك وشيطان. وقلت له:

ـ لا يمكن أن تخلو حياتنا من تناقضات كثيرة.

ـ المهم أن نعمل للمستقبل.

ـ وطبعا أنت تؤمن بالشيوعية؟

ـ ذلك حق .

فسألته باسما :

ـ أتعتبر نفسك مخلصا للثورة التى تعمل فى جهازها؟

فقال بوضوح وقوة :

ـ خلقت لأعبد العمل وأخلص له .

ـ إنى أسأل عن إخلاصك للثورة؟

فأخذ شهيقا عميقا كأنه الترجمة الجسمانية لتفكيره وقال :

ـ لم أكن فى يوم من الأيام ذا وجهين ، وما دمت قد قبلت العمل فى جهازها فأنا مخلص لها .

فقلت باسما :

ـ هذا هو الجواب الذى أسأل عنه ، ولكن ينقصه شىء ما !

ـ عظيم ، أنا مخلص لها ولكنى غير مؤمن بها ، أو غير مؤمن بها إيمانا كاملا ، حسبى فى الوقت الراهن أنها تمهد السبيل إلى الثورة الحقيقية !

فأشرت إلى صديقنا الدكتور عزمى شاكر وقلت :

ـ ما أشبه موقفك بالموقف الذى اتخذه هذا الرجل من بادئ الأمر .

فضحك ، ورغم ضحكه قال بحدة :

ـ لقد سلم قبل المعركة أما نحن فسلمنا بالأمر الواقع بعد أن أثبتت المعركة عقمها .

ـ لعله كان أبعد نظرا !

ـ اسمح لى فى هذه الحال أن ألعن بعد النظر !

وكان عزمى شاكر كبير الإعجاب به ، وكذلك رضا حمادة على تناقضهما فى المبدأ ، وكانت شخصية كامل رمزى تغرينا بتحليلها وتقييمها . ويوما قال رضا حمادة :

ـ لقد تشفعت به فى نقل موظف فأعطانى درسا قاسيا فى فساد الوساطة ، ومع أننى استأت فى نفسى إلا أننى ازددت إعجابا به .

فقال عزمى شاكر :

ـ بل أوصاه وزيره بموظف فاعتذر من عدم التنفيذ حرصا على مبادئ العدالة !

فقلت بدهشة :

ـ وزيره نفسه؟ !

ـ أجل، إنه خلق صلب غير قابل للثنى، ولذلك أشك كثيرا فى إمكانية بقائه فى منصبه!

فسأله رضا حمادة:

ـ هل يستغنون عن موظف لاستقامته؟

ـ إن الأسباب التى تدعو للاستغناء عن موظف لاستقامته أكثر من الأسباب التى تدعو للاستغناء عنه لانحرافه!

واعترف لى كامل رمزى نفسه بأن أحدا فى إدارته لا يحبه بدءا من الفراش حتى الوزير، قال:

ـ لا استطيع أن أهتم بعواطف الناس والمصلحة العامة معا، إن منصبى يحتاج لألعبان لا لموظف أمين!

ثم قال بازدراء:

ـ نحن شعب المصاطب والمجاملات والمساومات.

وضحك عاليا وقال:

ـ لقد عبدنا مصطفى النحاس يوما لا لشىء إلا لنزاهته وصلابته فى الحق وهما صفتان جديرتان بكل مواطن عادى ولكن لندرتهما جعلنا منهما دعامتين أساسيتين لزعامة شعبية!

فسألته:

ـ هل عبدت مصطفى النحاس يوما؟

فقال بصراحته المعهودة:

ـ كنت وفديا، وعطفى على الوفد عاش طويلا فى نفسى حتى بعد نضوب إيمانى به.

وحملق فى وجهى بعينيه البراقتين وقال:

ـ قل فى الوفد ما شئت ولكن لا تنس أنه كان حزبا شعبيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وأنه كان يغير سياسته أحيانا إذعانا لمشيئة التلاميذ بالمدارس الثانوية!

ثم حدثنى عن أحداث عام ١٩٣٥، وكيف ناقش مصطفى النحاس ضمن وفد من الطلبة؟ وكيف احتدت المناقشة بين الطرفين؟ وكيف عدل الوفد عن تأييد وزارة توفيق نسيم فأعلن الثورة على لسان مكرم عبيد؟ وكيف سالت الدماء عقب ذلك بأقل من ساعة؟!

ولم يعمر كامل رمزى ـ كما تنبأ عزمى شاكر ـ فى وظيفته طويلا. باشرها عاما واحدا

حتى ضج جميع أهل الأرض من صلابته ونزاهته، وإذا بجرائد الصباح تنشر خبر نقله إلى مؤسسة صحفية.

ومن عجب أن عمت الشماتة به أكثرية الناس. ولم أدهش لذلك كثيرا، وذكرت فى الحال مأساة الأستاذ طنطاوى إسماعيل رئيس السكرتارية القديم كما ذكرت الدكتور سرور عبد الباقى، وقلت لنفسى إن أمثال أولئك الرجال يغلقون الأبواب فى وجوه الوصوليين والانتهازيين وما أكثرهم. كما أنهم بقوة أخلاقهم يفضحون الضعفاء أمام أنفسهم فيمتلئون حقدا عليهم. لذلك لم أسمع رثاء له إلا بين خاصة أصدقائه. وأما هو فقد غضب وفاضت نفسه مرارة وخيل إليه أن نواميس الطبيعة تقلقلت وشذت عن مداراتها. ولكن ذلك لم يمنعه من مزاولة عمله الجديد بنفس الهمة والنزاهة والقوة السابقة، بل إنه وجد فراغا لم يكن يجده فاستأنف نشاطه العلمى، وشرع فى وضع قاموسه السياسى. وكان وما زال شعلة من النشاط المتواصل، ونورا يطارد ظلمات اليأس.

كاميليا زهران

يوم أقبلت علينا فى السكرتارية بفستانها الأنيق وشعرها الأسود المقصوص المطوق لرأسها تذكرت عبدة سليمان، ولكن ما أبعد المسافة بين عام ١٩٤٤ وعام ١٩٦٥! اختفت الوجوه القديمة مثل طنطاوى إسماعيل وعباس فوزى وعدلى المؤذن وعبد الرحمن شعبان وعم صقر. اجتاحت السكرتارية موجة من الشباب نصفها من الجنس اللطيف، وها هى كاميليا زهران تنضم إلينا، كأحدث قطفة من تلك الأزهار. وكنا ألفنا وجودهن بيننا، كما ألفنا الشائعات التى تلاحقهن فى الفترة الحرجة التى تسبق الزواج. وأكثرهن تزوجن من شبان خارج وزارتنا عدا واحدة تزوجت من زميل فى الإدارة القانونية. ولم تهجر واحدة منهن العمل بسبب الزواج.

وكاميليا زهران حقوقية فى الثالثة والعشرين، وقد استقبلت عملها بامتعاض لإلحاقها بعمل كتابى بعد دراسة قانونية توشك أن تذهب هباء وسرنى أن أطالع فى عينيها نظرة مستقيمة وجريئة جاوزت بشكل ملموس نظرة الحريم المستكينة الخاملة، ومع ذلك شعرت بطريقة ما بعمق تجربتها فى الحياة، وأنها لا تكاد تختلف فى أمر جوهرى من هذه الناحية عن زميلها الجالس إلى جانبها. وسرعان ما رفع الحجاب الكلفة بينها وبين الزملاء ولكنه لم يجاوز حدود الأدب التقليدية، شأن من تنظر إلى المستقبل بحكمة وتعمل حسابا للعقد الشرقية التى يحملها الزملاء من أسلافهم فى البيوت.

وعقب الإجازات الصيفية حدثنى زميل قديم نسبيا فى الإدارة فقال :

ـ لعلك لا تدرى أن كاميليا زهران راقصة بارعة؟

فسألته بدهشة :

ـ راقصة؟ !

ـ رأيتها فى هانوفيل تراقص شابا وكانت مندمجة فى الرقص بنشوة كأنها نغمة .

فقلت متوثبا للدفاع :

ـ لم يعد عيبا ما كان يعد عيبا على أيامنا .

فهرش رأسه قليلا ثم قال :

ـ أود أن أتخيل كيف تكون الحياة مع زوجة مثلها؟

فقلت :

ـ إن نسبة الطلاق فى هذه الأيام أقل من نظيرتها على أيامنا وكذلك نسبة تعدد الزوجات !

فقال ضاحكا :

ـ الظاهر أنك رجل عصرى رغم كهولتك؟

ـ أود لو كنت من أبناء هذا الجيل ، لا استخفافا بمتاعبه ولكن لتخففه من كثير من العقد التى نغصت علينا صفو الحياة .

وقد قلت مثل ذلك لصديقى رضا حمادة وهو أقرب أصدقائى القدامى إلى المحافظة فسألنى عما أعنى فقلت :

ـ تبادل الحب فى جو من الصراحة الصحية خير من الكبت والتقلب بين أذرع البغايا .

فقال بارتياب :

ـ يخيل إلى أن الحب كالديمقراطية أصبح معدودا من المهازل البائدة !

وكنت أرهف السمع كلما دار الحديث بين الشباب فى إدارتنا ، ومن كلمات متناثرة أدركت أشياء لا بأس بها . خاصة عن كاميليا التى استحوذت على اهتمامى أكثر من غيرها لحداثتها . فأسرتها مثلا متوسطة وهى أول من توظف من إخوة خمس ، وليس من الصعب تخيل المتاعب التى تعانيها أسرة من ذلك النوع والدرجة ، ولا المتاعب التى تتحدى الفتاة كإنسانة مستقلة ومسئولة عن نفسها وربما عن أسرتها جزئيا . وما تطالبها به الحياة العصرية من نفقات وما يطالبها به المستقبل كفتاة تتطلع إلى عريس محترم . ولذلك فإن اهتمامها بالشئون العامة اهتمام سطحى ، وهى تسلم بأشياء تسليما واقعيا دون تفكير ولا إيجابية مثل الدين والثورة ، ولكن حياتها الخاصة هى شغلها الشاغل ، وما حياتها إلا الحب والزواج وثمرات الحضارة الحديثة .

وندر أن صادفتنا أنثى تهتم اهتماما حقيقيا بالدين أو الفلسفة أو السياسة، ولعل تفسير ذلك أننا لا نزامل منهن إلا الأوساط أما النابغات فلهن طريق آخر فى الجامعات أو الحياة العامة. وللدكتور زهير كامل رأى فى الموضوع. قال:

ـ عدم اهتمام المرأة بالعقائد والفلسفات يقطع بأنها ـ العقائد والفلسفات ـ معطلة للنشاط الحيوى الحقيقى.

وقال أيضا:

ـ المرأة لا تعنى إلا بالخلق وما يتعلق به، هى خالق جميل، الخلق محور حياتها كلها، أما ما عدا ذلك من نشاطات فهى من صنع الرجل وهى ضرورية للسيطرة لا للخلق!

وقال أيضا:

ـ الدنيا هى هدف المرأة ومعبودتها، وبمعنى آخر هى هدف الخلْق، وهذا يدل على أننا خلقنا لنهتم بالدنيا دون سواها، وأن كل ما عداها باطل، وأن الخلود يجب أن يتحقق فيها، ولو أن الأديان تصورت الله على صورة امرأة لأهدتنا حكمة جديدة هى السعادة الحقيقية!

وربما تعذر تفسير هذه الآراء على ضوء ما عرفنا من عقلية زهير كامل، ولكن لن يتعذر تفسيرها على ضوء حياته إذ كان يعانى الحنين إلى زوجته وابنته اللتين هاجرتا إلى الخارج كما كان يفتح قلبه لحب جديد، حب نعمات عارف. وكانت تظلنا سحابة من الغم والنكد فى أعقاب هزيمة يونيو عندما قال لى الزميل القديم:

ـ توجد أحداث غريبة لا صلة لها بالمعركة.

فسألته عما يعنى فقال:

ـ كاميليا زهران تلعب مع المدير العام تلك اللعبة القديمة!

حقا أصبح المديرون فى سن الشباب لا كالعهد القديم، ومديرنا العام فى الأربعين ولكنه متزوج وأب وذو سمعة ـ من هذه الناحية على الأقل ـ طيبة. قلت:

ـ ولعلها إشاعة!

ـ ولعلها حقيقة!

فسألته:

ـ وما تفسيرك للأمر؟

ـ لعله حب، وإن صح هذا الفرض فسيخرب بيت ويقام مكانه بيت جديد.

وصمت مليا ثم عاد يقول:

ـ ولعلها اللعبة القديمة على طريقة شرارة النحال.

ـ هل تسللت انتهازية جيلنا إلى الجيل الطازج؟

ـ إن المغريات اليوم أقوى وأعنف .

فقلت بامتعاض :

ـ لعل الانتهازية يعترف بها فى النهاية باعتبارها أخلاقا جديدة ، ومهارات جديدة مثل التكنولوچيا!

وحدثت صديقى الدكتور عزمى شاكر فى الموضوع وقلت له :

ـ إنك مفكر بارع ، فلم لا تدرس الأخلاق الجديدة؟ أعنى الأخلاق الصالحة للعصر الحديث ، التى يجب أن تستلهم من المجتمع الجديد لا من القيم القديمة .

فسألنى :

ـ ما الذى دعاك إلى هذا التفكير؟

فقلت وأنا من الاستياء فى غاية :

ـ انظر إلى مآل صديقنا الدكتور كامل رمزى ، وعندى نظائر له عرفتهم فى مجرى الحياة ممن نعدهم أمثلة طيبة للإنسان ، ألا يجوز أن أخلاقهم لم تعد صالحة للعالم الحديث؟

فقال باسما :

ـ إنك تنفس عن مرارة نفسك .

ـ الحق إنى حائر وحزين .

وتفشت الشائعات عن كاميليا والمدير ، وأصبح الشك يقينا عندما نقلت أخيرا إلى الإدارة القانونية ، ولكن لم يخرب بيت ولم يقم محله بيت جديد ، ولما تعين عندنا صبرى جاد ، نشأت بينه وبين الفتاة علاقة حب صادقة . ومع أنه بدا أول الأمر متمردا ومستهترا إلا أنه أحب كاميليا كما أحبته ، وبالرغم من أنه كان يصغرها بعامين أو أكثر إلا أنهما أعلنا خطوبتهما رسميا . وسعدت أنا شخصيا بهذه النهاية السعيدة ، التى شدت الاثنين إلى حياة أصيلة ومسئولية جادة من شأنها أن تعيد خلق الإنسان وتضمه إلى الركب الجاد فى الطريق . ويوما بعد يوم فإن إيمانى يرسخ بأن نقاء الإنسان يجىء من الخارج بقدر ما يجىء من الداخل ، وأن علينا أن نوفر الضوء والهواء النقى إذا أردنا أزهارا يانعة .

ماهر عبد الكريم

كان أستاذا مساعدا بالكلية عندما التحقت بها عام ١٩٣٠ . وكان فى منتصف الحلقة الرابعة، يتمتع بسمعة علمية وأخلاقية وإنسانية كأنها عبير المسك ـ ولم أعرف أستاذا فتن طلبته بسجاياه الروحية وسماحة وجهه مثله . وهو سليل أسرة عريقة، عرفت بثرائها كما عرفت فى التاريخ الحديث بولائها للحزب الوطنى، وعد هو بالتبعية من الموالين للحزب، ولكن ذلك لم ينل من حبنا له، والحق أنه لم يعلن عن ميل سياسى قط، ولم يقع فى رذيلة التعصب أبدا، ولم ينطق فى حديث عن هوى أو تحيز أو حقد، ووهب نفسه للعلم والخير . قال لنا مرة الدكتور إبراهيم عقل :

ـ لو كان جميع الأغنياء . مثل ماهر عبد الكريم لقررت أن المثل الأعلى للإنسان أن يكون غنيا!

والحق أن كرمه كان يلتهم ثروته، فلم يصد محتاجا قط . وكان يجود بالإحسان سرا كأنما يتستر على عيب، وكان مثالا لسعة الصدر، هكذا كان فى مناقشاته العلمية والعامة، بل والسياسية إذا جُر إليها جرا، وكأن أسارير وجهه لم تهيأ أصلا إلا للتعبير عن التأمل أو الترحيب أو البشاشة، وغير قابلة للإفصاح عن الحدة أو الغضب . وكان قصره القديم بالمنيرة ملتقى أهل العلم والأدب والفكر، وبه متسع دائما لطلبته فيقدمهم إلى الكبار ويعاملهم معاملة الأنداد، وما أكثر الذين عرفتهم فى صالونه من رجال الفكر . وكان التيار الجارف فى أحاديث الصالون ثقافيا بالمعنى العام ولم تكن السياسة لتخالطه إلا فى ظروف نادرة، ومع ذلك لم يتردد الأستاذ سالم جبر عن إثارة موضوع فوارق الطبقات يوما من أيام عام ١٩٣١ عقب عودته من رحلة فى فرنسا، قال :

ـ إنهم فى بعض الأوساط يحتقروننا لسوء حال شعبنا!

فابتسم الدكتور ماهر عبد الكريم وقال :

ـ أعتقد أنها حالة سيئة .

فقال الدكتور إبراهيم عقل مخاطبا سالم جبر :

ـ إنك تزور فى فرنسا أوساطا متطرفة لعلها تضمر نفس الاحتقار لفرنسا أيضا، على أن الإنسان لا تتقرر حاله الحضارية بما يملك ولكن بما ينبض به فكره وقلبه، وأنا شخصيا أعتبر الفقير الهندى أجل إنسانية من فورد أو روكفلر!

واحتد سالم جبر فاتهمه بالمثالية الرجعية، كما اتهمه بالصوفية التى يعدها مسئولة عن تأخر الشرق.

ولم يكن ماهر عبد الكريم يفكر كما يفكر سالم جبر ولكنه اعتقد دائما بأن الإسلام يكفل للناس عدالة اجتماعية شاملة، كا اعتقد أن نشر التعليم يحقق الغاية نفسها بطريقة أخرى. ويوما دعانى أنا وجعفر خليل - عقب إحدى المحاضرات - لمقابلته فى قصر المنيرة، ووجدناه وحده فى بهو الاستقبال. فرحب بنا وقال:

- ستزورنى آنسة أمريكية بناء على طلبها وقد اخترتكما مترجمين بينى وبينها.

وكان يجهل الإنجليزية، ولعله فضل أن يستعين بنا على أن يستعين بأحد من زملائه الكبار حتى تتبين له أسباب الزيارة الغريبة. وعند الغروب قدمت فتاة شقراء آية فى الجمال، فى العشرين من عمرها، فسلمت وجلست وهى تعتذر عن تطفلها. وقدم لنا الشاى والحلوى، وراحت الفتاة تقص قصتها فقالت إنها تزور مصر ضمن مجموعة من الشباب، وأن أمها كلفتها بالبحث عن شخص فى مصر يدعى ماهر عبد الكريم كان طالبا بالسوربون فى أعقاب الحرب العظمى، وأن مدير الفندق دلها عليه وطلب قصره لها بالتليفون، ووضح لنا من تبادل الحديث أن أمها كانت زميلة لأستاذنا فى باريس، وأنها كانت صديقته أيضا، وأنها انتهزت فرصة سفر ابنتها إلى مصر لتحملها تحياتها إليه.

وعلى طول الزيارة دار الحديث حول الذكريات القديمة الجميلة، وما آل إليه حال الصديقين القديمين فى الوقت الحاضر. وعندما غادرنا القصر قلت لجعفر خليل:

- الظاهر أن تأثير أستاذنا فيمن حوله سجية قديمة فيه منذ عهد الشباب.

فغمز جعفر بعينه وقال ضاحكا:

- ولكن التأثير فى النساء ذو مغزى آخر!

ثم قال بإيمان:

- الحق أن جمال الرجل يؤهله لدور الفتى الأول فى أفلامنا!

فرددت قول الفرزدق الذى كان يذكرنى دائما بوجه أستاذنا:

يغضى حياء ويغضى من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم

وقلت لجعفر:

- ما أتصوره أبدا متخليا عن وقاره. فإذا كان الوقار لباسا لغيره فهو منه بمثابة اللحم والعظم.

والحق أنه لم يؤخذ عليه طوال حياته ما يمس السمعة أو السلوك. وعند هذه النقطة أرى لزاما على أن أعرض لشائعة اقتحمته فى فترة القلاقل التى اتسمت بالاغتيالات

السياسية فى أعقاب الحرب العظمى الثانية. قيل إنه رفع خطابا سريا إلى الملك فاروق يحذر من مغبة التمرد الذى يجتاح الشباب، مفصلا أسبابه وبواعثه ومقترحا العلاج له. سمعنا ذلك فيما نسمع من شائعات فى المقاهى، وحتى اليوم لم أتأكد من صدق الشائعة، وكل ما قيل عنها كان ضربا من التخمين ونتيجة للأهواء السياسية المتنازعة، فقال وفديون إنه اقترح على الملك حل الأحزاب وإقامة ديكتاتورية صالحة تعجل بالإصلاح وتربى الشباب تربية دينية علمية، وقال المتطرفون من تلاميذ سالم جبر إنها دعوة لثورة مضادة يراد بها تفادى الثورة الحقيقية. أما أنا فساءتنى الرسالة ـ مهما كان مضمونها ـ باعتبارها انتهاكا لحرية الدستور واستهتارا بسلطة الشعب، ووجدتنى فى حرج شديد بين إجلالى لأستاذى وبين موقفى السياسى الواضح، ووجدت حرجا أكثر من مفاتحته بالموضوع، غير أن جعفر خليل وجد الجرأة لمفاتحته! حدث ذلك عندما زرنا الأستاذ معا ليودعه جعفر خليل قبل سفره إلى الولايات المتحدة، وعند ذاك أخبره صديقى المرحوم بما يشاع وبما يقال. وأنصت الدكتور فى هدوء وابتسام، ثم سأله:

ـ صدقت ما يشاع وما يقال؟

فتراجع جعفر خليل قائلا:

ـ كلا.

فاكتفى الأستاذ بقوله:

ـ عظيم!

ويدعونى ذلك إلى تذكر رأى رجلين فيه، أحدهما صديق له قديم هو الأستاذ سالم جبر، والآخر مريد من مريديه هو الأستاذ عباس فوزى. أما سالم جبر فكان يحبه ويعجب به ولكنه يرى أنه من طبقة النبلاء، لم يعرف الفقر. ويرى الشعب من فوق، وله رؤيته الخاصة وهى رغم جاذبيتها ونقائها غريبة عنا كأنها لغة كوكب آخر.

أما عباس فوزى ـ معجم السخريات اللاذعة ـ فكان يعرب عن رأيه فيه ولكن فى حذر وعلى مهل ونقطة نقطة متجنبا سكب ما فى نفسه دفعة واحدة. فيوما قال عنه:

ـ إنه وجيه نبيل، مملوك من نسل مماليك!

وتأملت قوله طويلا على ضوء ما أعرفه من خبثه وساءلت نفسى عما يقصد الشيطان. ومرة استمع إلى ثناء جميل منى على الأستاذ ثم قال:

ـ هذه هى فضائل الأغنياء النبلاء وهى فضائل لم تتعرض للتجارب المريرة!

ومرة ثالثة قال لى:

ـ فى مصر لا يجتمع النبل والثروة والعلم، ولكن النبيل الغنى متعالم، يستغل ذكاء

الفقراء، يجمعون له مواد البحث ويقترحون عليه الأفكار، أما هو فيصغى بوقار ويوقع بإمضائه!

ومرة رابعة قال لى:

- أستاذك ذواقة لكل طعام جيد، يلتهم فى اليوم ما يكفى لغذاء لواء من الجيش، خبرنى يا عزيزى متى يفرغ من الهضم ليتفرغ للتفكير والبحث؟!

ولكنا كنا نتصل بعقل الأستاذ اتصالا مباشرا وندرك مدى ما يتمتع به من دقة ووضوح وغزارة فى العلم، ومرت به الأحداث وهو ثابت فى وقاره، ولكنى استشففت قلقا فى ذاته فى مواقف من حياتنا لا تنسى، مثل الاغتيالات السياسية، حريق القاهرة، ثورة يوليو، القوانين الاشتراكية، ولكنه لم يجاوز القصد أبدا، ولا أظن أن إقطاعيا تلقى الضربة التاريخية فى مثل هدوئه، تلك الضربة التى نزعت من يده عشرة آلاف من الأفدنة، وقد باع قصره القديم بالمنيرة واشترى ڤيللا جميلة بمصر الجديدة ما زالت حتى اليوم تستقبل أهل الفكر والرأى، وواصل عمله الجامعى بنفس الهمة حتى أحيل إلى المعاش عام ١٩٥٤ لبلوغه السن القانونية، فعمل أستاذا زائرا، وعين عضوا فى المجلس الأعلى للآداب ونال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية كما نال وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى. إذن قدرت له الثورة مكانته العلمية وسمعته العطرة واستقامته العامة التى أبعدته عن الشبهات، وهو وإن لم يعلن ولاءه للثورة لبعده عن مجالات الإعلام ولرغبته عن إقحام نفسه فيها بطريقة غير طبيعية أن يرمى بشىء مما يمس الكرامة، فإنه لم يتردد فى إعلان ذلك الولاء فى مجالسه الخاصة، فقال يوما:

- إنى مقتنع بما يقع فهو أقل ما يمكن عمله كى يصلح الوطن للحياة وتصلح الحياة له.

ولم أستشعر فى حديثه أو سلوكه أى أثر لمرارة، ولا معنى بعد ذلك للتنقيب فى الأفئدة فلا يطالب مثله بأكثر من ذلك، أكثر من أن يواجه بحكمة ثورة تاريخية منطلقة أصلا لاقتلاع طبقته، وأن يقنع نفسه بها فلسفيا كحركة تاريخية حتمية لا مفر منها طال الزمان أو قصر. وفى عام ١٩٦٩ احتفل بعيد ميلاده الخامس والسبعين، فازدحم الصالون بمن بقى على قيد الحياة من أساتذة الجامعة القدامى، وبالأصدقاء سالم جبر ورضا حمادة وعزمى شاكر وكامل رمزى وقدرى رزق وجاد أبو العلا وعباس فوزى وصادق عبد الحميد ونعمات عارف نيابة عن زوجها زهير كامل، وهفت على ذكريات إبراهيم عقل وجعفر خليل. ورأيت قلة من الشباب بينهم صبرى جاد وزوجته كاميليا زهران، ولكن غلب الشعر الأبيض والتجاعيد والنظرات المجردة والعصى، ولم أشعر من قبل كما شعرت ذلك اليوم بمرور الزمن وثقله وجلاله وغدره وأبديته وأثره وترفعه وتواضعه وحكمته ونزقه، كأنما غفوت فى الديزل إغفاءة طويلة استيقظت بعدها فى

محطة سيدى جابر . ورغم كل شىء فقد بقى لماهر عبد الكريم عيناه الزرقاوان الواسعتان وابتسامته الغازية ووقاره العذب . قال أستاذنا :

ـ لا احتفال بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، فلا يجوز أن نحتفل ونحن نقاتل ، ولكنها فرصة طيبة للاجتماع .

وشرق الحديث وغرب ولكنه كان يرتد إلى بؤرة واحدة هى الصراع فى الشرق الأوسط ، ويعالج على مستويات سياسية واقتصادية وفلسفية ودينية ، ويتفرع إلى الموقف العالمى والكشوف العلمية والمشكلات العامة الإنسانية والاضطرابات الخطيرة فى الغرب والشرق وذبول القيم ، والمستقبل ، أجل المستقبل ، وبأى وجه يطالعنا . وطغت موجة من التشاؤم ، وترددت كالهنك المطرب بين الشيوخ ، طوبة يرمون بها الدنيا المولية ، واشترك أستاذنا فى الجوقة ولكن بنغمة أخرى ، وفجأة قال :

ـ رحم الله إبراهيم عقل .

ما الذى دعاه إلى تذكره؟ كان أحب الأصدقاء إلى قلبه ، ولم أشهد دمعه إلا يوم جنازته عام ١٩٥٧ ، وتذكرت بدورى كلمته لنا قبيل التخرج . وعاد يقول :

ـ سلم بالإيمان تسليمه بالموت وبالحقائق الملموسة مثل شروق الشمس .

وابتسم طويلا ثم قال :

ـ قولوا فى الدنيا ما شئتم ، لا جديد فى التشاؤم ، ولكن الحياة فى صالح الإنسان وإلا ما زاد عدده باطراد ، وما زادت سيطرته على دنياه .

محمود درويش

كان يستلفت الأنظار بين طلبة الكلية بطول قامته ونحول قده ، وسرعان ما تميز بذكائه واجتهاده الخارق فاكتسب مكانة محترمة بين الزملاء ولدى الأساتذة المصريين والأجانب ، وكان دقيق الملامح وسيما ولكنه كان أيضا جافا منطويا على نفسه ، يزامل ويصاحب ولكنه لا يعرف الصداقة ، كان صديقه الحقيقى الكتاب . وكان أبوه إمام مسجد بالجيزة ، يشكو كثرة العيال وقلة المال ، فكان محمود درويش يعانى حياة متقشفة ، ومن أول يوم نشأ سوء تفاهم بينه وبين عجلان ثابت ، إذ سمع عجلان . محمود وهو يقول إن أباه إمام مسجد فضحك ، فسأله محمود درويش :

ـ ماذا يضحكك؟

فأجاب عجلان :

ـ ألا يضحكك أن تكون الإمامة وظيفة؟

فغضب محمود وقال له :

ـ أنت قليل الأدب .

وهتف به عجلان :

ـ اخرس!

وفصلنا بينهما ، ولكنهما أصرا على الخصام إلى النهاية ، وفي حادثة سرقة الطربوش التي اتهم فيها عجلان شهد محمود ضده ، وكان ضمن الأسباب التي أدت إلى فصله من الكلية ، وقد عاتبناه في ذلك ولكنه قال :

ـ لا خير في أن نقدم للمجتمع لصا متعلما .

وكانت آثار الكبت والحرمان تتجلى في عينيه كلما وقع بصره على طالبة من الطالبات . وأما سعاد وهبي فكادت تتسبب في جنونه ، ولكنه بدلا من أن يغازلها أو يحاول ذلك على الأقل راح يحمل على «تهتكها» حملة كادت تبلغ العلانية ، وكان أول من أبلغ العميد عن تبرجها ، وعن الفتنة التي تثيرها في قاعة المحاضرات . والظاهر أنه تعرض لأزمات عنيفة ، وصراعات حادة بين حيويته وبين حرمانه الإجباري ، فلم يجد أبوه حلا لذلك ـ بعقليته الريفية الدينية ـ إلا أن يزوجه من ابنة عم يتيمة يكفلها فرجع إلى الكلية في العام الدراسي التالي متزوجا من فتاة ريفية أمية ، ولكنها أراحت باله ، وأطلقت قواه في التحصيل دون عائق . ولم يعد له من اهتمام إلا العلم والتفوق ، وكان إذا احتشد لكتابة بحث ما تكلف بكتابته في أثناء السنة الدراسية كتبه بذكاء واقتدار وأحاط به إحاطة تقطع باطلاعه الواسع وبدرايته في استخراج المراجع . ولذلك كان يتابعنا أحيانا ونحن نهدر بأحاديث السياسة وكأنه عاقل يستمع إلى مجانين . وتساءل مرة :

ـ كيف تجدون متسعا بعد ذلك للدراسة!

فأجابه طالب متعجبا :

ـ كأن الإنجليز يحتلون وطنا غير وطنك وكأن الملك يستبد بشعب غير شعبك!

ولم يكن يفرق بين مصطفى النحاس وإسماعيل صدقي ، وأحيانا كان ينسى اسم «الباشا» الذي يرأس الحكومة . ولما اجتاحت موجة الإضراب الجامعة وقف حيالها غاضبا وعاجزا ، وكان يتسلل إلى المكتبة فيقرأ ويقرأ وحده حتى تغلق أبوابها . ويوما وثب إلى منصة الخطابة عقب خطبة ثورية ألقاها زعيم الطلبة . وثب إلى المنصة ، وبجرأة جنونية . دعا الطلبة إلى الانتظام في العمل والعكوف على الدراسة باعتبارها هدفهم الأسمى ، وهاج الطلاب وماجوا ، وطالبوا بإنزاله ، ولولا الاحترام الذي اكتسبه بتفوقه لاعتدوا عليه اعتداء مؤكدا . وصدر أمر بإغلاق الجامعة شهرا ، وفي أثناء ذلك قبض على

زعماء الطلبة جميعا، ولما عدنا إلى الكلية وجدت همسا تتناقله الألسنة قال لى جعفر خليل:

ـ سمعت؟.. يقولون إن محمود درويش متصل بإدارة الأمن العام.

فاستفظعت ذلك ولم أصدقه فقال:

ـ يقال إن الذى رشحه لذلك أبوه باعتباره من ألسنة إدارة الأمن وعيونهم!

ـ ولكنه شاب مستقيم!

فقال بحزن:

ـ ويقال إنه هو الذى أرشد إلى زعماء الطلبة!

كانت إشاعة قوية ولكن لم يكن من سبيل إلى التأكد منها، وقد تحرش به بعض الطلبة وعرضوا بدوره فى المؤامرة، ولكن الدكتور إبراهيم عقل استدعاهم إلى مكتبه وهددهم ـ إذا عادوا ـ بإبلاغ أمرهم إلى الجهات المختصة. وعاشت الإشاعة معى زمنا طويلا، وخلقت فى نفسى نفورا منه وبخاصة وأننى استثقلت ظله من أول يوم، وكدت أومن بصدقها عقب تخرجنا عندما اختير محمود درويش عضوا فى بعثة إلى فرنسا فى فترة من الزمن توقفت البعثات فيها تماما. وانقطعت أخباره عنى أعواما طوالا حتى صادفته فى مكتب الأستاذ عدلى المؤذن بوزارتنا فتصافحنا وجلسنا نتبادل الحديث. بدا لى وقتها فى صورة جديدة، مليئة بالحيوية والصحة والعافية، وطالعتنى عيناه من خلال نظارة أنيقة أسبغت على وجهه هيئة العلماء قال:

ـ أنا مدرس اليوم بالكلية..

فقال عدلى المؤذن:

ـ وهو شارع فى إصدار سلسلة فى فلسفة التصوف.

وقال محمود درويش:

ـ أدركتنى الحرب فى فرنسا قبل إتمام الرسالة فسافرت إلى سويسرا وهناك حصلت على الدكتوراه.

ولما غادرنا قال لى عدلى المؤذن ضاحكا:

ـ عاد خواجا كما ترى ليجد فى انتظاره زوجة ريفية أمية.

وسألته عما قيل عنه يوما من اتصاله بإدارة الأمن العام وخاصة وأن عدلى المؤذن كان موظفا فى ذلك الوقت بإدارة الجامعة فقال عدلى باقتضاب.

ـ كلام فارغ.

ولما حكيت تلك الواقعة للأستاذ عباس فوزى ضحك طويلا وقال:

ـ يا لك من رجل طيب! ألا تعلم أن عدلى المؤذن نفسه كان متصلا وقتها بإدارة الأمن العام؟

والتقيت ـ بعد ذلك بأعوام ـ بالدكتور محمود فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بالمنيرة، وكانت قدمه قد رسخت فى عالم التأليف، وصدر له أكثر من ثلاثة كتب عدت من المراجع الهامة فى دراسة التصوف فى العصر الحديث، وسمعت عنها الثناء تلو الثناء من أستاذنا ماهر عبد الكريم. ويومها سألته عن أحواله فقال:

ـ لى أربعة أبناء فى كليات الهندسة والتجارة والحقوق والآداب وبنت متزوجة من ضابط طيار.

فسألته باهتمام:

ـ هل تمارس التصوف؟

فأجاب ضاحكا:

ـ كلا، ولكن لا مراء فى أن الإنسان لا يتخصص إلا فى مادة متغلغلة فى نفسه.

وفكرت فى زوجته التى اختارتها الظروف ربة لبيت من المثقفين وهى بدائية بكل معنى الكلمة، فوددت لو أتسلل إلى أعماق ذلك الجانب من حياته، ولكنه كان يبدو متألقا بالسعادة والنجاح. وقال لى:

ـ طبعا علمت بمأساة الدكتور إبراهيم عقل؟

ـ طبعا، كارثة ولا شك، ولكنى لم أرك فى جنازة ابنيه؟

ـ كنت خارج القاهرة، هل حافظت على اتصالك به مذ تركت الكلية؟

ـ كلا..

ـ إنه أستاذ بلا تلاميذ ولا مريدين.

والتقيت به مرة أخرى فى صالون المنيرة، ثم دعى للتدريس فى إحدى الجامعات العربية فسافر خارج القطر وانقطعت عنى أخباره.

مجيدة عبد الرازق

فى زيارة لسالم جبر فى مكتبه بجريدة المصرى عام ١٩٥٠ قدم لى فتاة حسناء قائلا:

ـ مجيدة عبد الرازق محررة الصفحة النسائية.

كانت فى الثلاثين من عمرها، رشيقة القوام، تطالعك من عينيها السوداوين نظرة

ذكية جذابة، ولها شخصية قوية تفرض نفسها لدى أول اتصال. والتقيت بها للمرة الثانية فى حفل انتخابى أقامه الدكتور زهير كامل للدعاية لنفسه فسألتها:

ـ إذن فأنت وفدية؟

فقالت باسمة:

ـ أنا تلميذة للدكتور زهير كامل.

ـ آداب؟

ـ قسم الصحافة.

ـ ووفدية؟

ـ أبعد من ذلك بكثير!

فتساءلت وأنا أنظر فى عينيها الجميلتين:

ـ ماذا تعنين؟

فابتسمت ولم تجب. والتقيت بها للمرة الثالثة فى بيت زهير كامل فشعرت بأننا ننتقل من مرحلة التعارف الودى إلى مرحلة الصداقة الحقيقية. وعقب ذهابها قال لى الدكتور زهير كامل:

ـ إنها مثقفة ثقافة تستحق التقدير وذات شخصية محترمة.

فقلت بحماس:

ـ أعتقد ذلك.

وهو يبتسم:

ـ وهى شيوعية أيضا!

ـ شيوعية؟!

ـ امرأة مصرية معذبة من ضحايا فترة الانتقال.

وجمعت بيننا صداقة وطيدة واحترام متبادل. وكنا نجتمع فى أوقات متفرقة بجروبى مع نفر من الأصدقاء، فتُجالسنا مجالسة الأنداد، وتتجاهل إيماءات الغزل التى توجه إليها أحيانا، باعتبارها عبثا صغيرا، إذ لم تكن تتبع الحيل النسائية البالية، ولا تحترم القيم البرجوازية، ولكنها كانت تنشد دائما العاطفة الصادقة الأصيلة. قالت لى يوما:

ـ حذار أن تظن بى البرود!

فتساءلت:

ـ ما الذى جعلك تفكرين فى ذلك؟

فقالت بحرارة:

ـ إنى أعبد الحب.

ثم كالمستدركة:

ـ أعبد الحب والأيديولوچية.

ولما استتب اطمئنانها إلىّ قصت علىّ قصة حياتها فى مقهى الفيشاوى، قالت:

ـ نشأت فى أسرة من البرجوازية الصغيرة، ربها موظف مغمور، وكنت البنت الوحيدة بين أربعة ذكور!

فقلت باسما:

ـ إذن كنت جوهرة مدللة.

ـ بالعكس، عانيت الاضطهاد من الجميع، وكان يزداد بتقدم العمر، ولكنى فرضت الاحترام عليهم بتفوقى فى المدرسة.

فأعلنت إعجابى بابتسامة فقالت:

ـ وتقدم لى عريس بعد نجاحى فى الثانوية العامة وبالرغم من ترحيب الجميع به إلا أننى اشترطت عليه أن يسمح لى بإتمام دراستى الجامعية، فسألنى عن الحكمة وراء ذلك. فصارحته برغبتى فى العمل، ولكنه لم يوافق، وانضم إليه فى الرأى أهلى ولكننى صممت، فذهب.

ـ وحققت مشروعك بالكامل!

ـ أجل ولكنى عرفت فى الكلية أستاذا كان له أكبر الأثر فى حياتى، طبعا سمعت عن الأستاذ محمد العارف؟

ـ أجل.

ـ علمنى العلم وما هو أخطر منه.

ـ الشيوعية؟

ـ نعم، ثم ألف بيننا حب عميق، وسرعان ما تزوجنا بعد تخرجى مباشرة.

فقلت بدهشة:

ـ حسبتك غير متزوجة!

ـ عشت أياما سعيدة وأنجبت توأمين ذكرا وأنثى.

ـ جميل حقا.

ـ وكانت أمه هى ربة بيتنا فلما توفيت اعترضتنا متاعب فتمزقت بين العمل فى الجريدة وبين واجبات البيت، وكان زوجى يحب النظام كما يحب أن يكون موضع الرعاية فاقترح على أن أتفرغ للبيت.

ـ رأى لا يخلو من وجاهة .

فقالت بحدة :

ـ كلا ، كانت لى آمالى الخاصة أيضا فرفضت ، ولم أجد منه عطفا ولا تقديرا .

فلم أنبس بكلمة فقالت :

ـ وتكشفت لى أنانيته وقلة أدبه ورغبته الدفينة فى السيادة ، واشتعل بيتنا بالعنف والخصام ، ثم انتهى الأمر بالطلاق .

ـ متى وقع ذلك؟

ـ أيام الكوليرا!

فسألت بإشفاق :

ـ وكيف حالك الآن؟

فقالت بمباهاة :

ـ أتقدم فى عملى كما ترى ، وتعاوننى فى تربية الطفلين امرأة طيبة ، وهو يمدنى بالنفقة الشرعية .

ولما قامت ثورة يوليو بذرت فى ساحة صداقتنا الهادئة بذور خلاف عنيد لأول مرة . فاتهمتها بأنها ثورة رجعية ، أو لون جديد من الفاشستية ، أو انقلاب برجوازى صغير يشبع تطلعات أمثالى من البرجوازيين الصغار! وأصرت على رأيها حتى اتجهت الثورة إلى الكتلة الشرقية فأخذ عنادها يلين ورأيها يتغير . وساءتنى وحدتها كثيرا . وشعرت بأنها تعانى منها مرارة حادة ، ولكنها رفضت دائما رغبات الزملاء الجامحة العابثة انتظارا للحب الحقيقى الذى تعبده كما قالت لى من قديم . وبصراحتها العذبة قالت لى مرة :

ـ خُدعت مرة واحدة!

ـ لا أصدق .

ـ طبيب أطفالى عليه اللعنة!

ـ ولكن كيف . . ؟

ـ وكان أيضا متزوجا!

ـ ولكن الرجل المتزوج . . ؟!

ـ خطأ حقيقة ولكنه الحب ، وأفهمنى أنه غير سعيد وأنه سيطلق لأسباب لا تتعلق بى!

ـ وصدقته؟

ـ ما أفظع الخداع ، إنه أنكر من القتل ، وسلمت بدون قيد ولا شرط .

ـ شىء فظيع حقا .

ـ عليه اللعنة، وكانت أيامه سوداء كخداعه فكنا نلتقى فى عيادته فى جو غارات الاعتداء الثلاثى.

ومنذ تلك التجربة المريرة استقر سوء الظن فى أعماقها فتضاعف شعورها بوحدتها وحنينها إلى الحب الحقيقى. ومضى يغزوها الزمن حتى بلغت اليوم الخمسين من عمرها، وقد تزوجت ابنتها، وسافر ابنها للعمل فى إذاعة الكويت، فغرقت فى الوحدة والكهولة حتى قمة الرأس. وما زالت حتى اليوم محافظة على رشاقة قدها، ومسحة من جمالها، وإذا دعيت إلى التلفزيون فهى تستأثر بالأنظار، والأسماع بقوة شخصيتها ومرونة منطقها وغزارة معلوماتها، وإذا خلوت إليها خيل إلى أنى أستمع إلى وحوحة تند من أعماقها.

ومازالت مواظبة على زيارة أستاذها القديم الدكتور زهير كامل، كما نشأت صداقة حميمة بينها وبين زوجته الجديدة الصغيرة نعمات عارف، ولا شك أنها علمت بعلاقتها بالدكتور صادق عبدالحميد، ولكنها تجاهلت ذلك تماما، وتمنت ألا تنكشف الحقيقة لأستاذها أبدا. وعلمتُ أخيرا ـ وسعدت بذلك جدا ـ أنها ستقوم برحلة صحفية لزيارة بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط فقلت لعلها تجد فيها تسلية عن وحدتها وتجديدا لحياتها ومادة طريفة لقلمها.

ناجى مرقص

لا أنسى هذا الاسم أبدا. لم يمح من ذاكرتى كأنه اسم علم من الأعلام، رغم أننى لم أزامله إلا ثلاثة أعوام من حياتى، ما بين ١٩٢٥ و١٩٢٨ فى المدرسة الثانوية. أمضى فترة الدراسة الابتدائية فى السودان حيث كان يعمل والده. ولما عاد الرجل إلى مصر أقام فى العباسية وألحق ابنه بمدرستنا. وقال ناجى لى يوما:

ـ كنا إخوة أربعة، مات ثلاثة، وبقيت أنا.

وقال لى مرة أخرى:

ـ أمى حزينة لا تضحك أبدا..

وكان رشيقا طويلا وسيم الوجه لطيفا مهذبا ورزينا لدرجة لا تناسب سنه ولعله كان الوحيد فى سنة أولى الذى يلبس بنطلونا طويلا. وربما كان أنبغ تلميذ صادفته فى حياتى. كان لكل تلميذ مجال فى تفوقه إن وجد، فتلميذ يتفوق فى اللغات وآخر يتفوق فى الرياضيات وهكذا أما ناجى مرقص فكان متفوقا ممتازا فى جميع المواد، فى العربية

والإنجليزية والفرنسية والحساب والجبر والهندسة والطبيعة والكيمياء والتاريخ والجغرافيا. وكان الأول دون نزاع وكان المدرسون على اختلاف جنسياتهم من مصريين وإنجليز وفرنسيين يحترمونه ويعاملونه كأنه رجل لا تلميذ. وكان بدر الزيادى يسميه عبدالحليم المصرى تشبيها لتفوقه بقوة المصارع الشهير. وسألته يوما:

ـ كيف تفوقت فى جميع المواد؟

فأجاب بأدبه الجم:

ـ أنتبه فى الفصل وأذاكر من أول يوم فى السنة الدراسية.

وسأله جعفر خليل:

ـ ألا تذهب إلى السينما كل خميس؟

ـ فى الأعياد والمواسم فقط.

فسأله عيد منصور:

ـ ألا تلعب الكرة؟

ـ كلا.

فسأله رضا حمادة:

ـ أليس لك هواية؟

فأجاب:

ـ أعزف على البيانو فى أوقات الفراغ.

فقال له رضا:

ـ إنك لا تشترك فى الاضرابات أفلا تهتم بالوطنية؟

ـ أهتم بها طبعا ولكن..

وتردد لحظات ثم قال:

ـ ولكن أخى الأكبر قتل فى مظاهرة!

ونجح فى امتحان الكفاءة بتفوق فجاء ترتيبه بين العشرة الأوائل فى القطر كله، وعندما عدنا إلى المدرسة فى بدء العام الدراسى الجديد لم نعثر لناجى مرقص على أثر لا فى القسم العلمى ولا القسم الأدبى.

وتساءلنا عن سر اختفائه دون أن نظفر بجواب. وكان يسكن بعيدا عن حينا فى أطراف العباسية المشرفة على منشية البكرى فذهبنا إلى مسكنه نستطلع فعلمنا هناك بأنه أصيب فى صدره وأنه أرسل إلى جدته بصعيد مصر ليعالج وأن علاجه سيستغرق عاما كاملا فى أقل تقدير. أحزننا الخبر كما أحزن جميع أقرانه ومدرسيه، وأرسلنا إليه رسالة

جماعية حملناها تحياتنا وتمنياتنا له بالشفاء العاجل. وحدث فى ذلك الوقت أن قدم مصطفى النحاس إلى المحاكمة فى قضية سيف الدين فبرأته المحكمة العليا، وذهبت وفود من الشعب إلى بيت الأمة تهنئه، وذهب فيمن ذهب والد صديقنا وهو موظف فى وزارة الحربية، وظهرت صورته لسوء الحظ ضمن صور المهنئين فقررت الوزارة فصله. وشق على الرجل الرفت وكان فقيرا كما كان مريضا بالقلب فأصيب بالفالج وقضى نحبه. وشفى ناجى من مرضه ولكنه عجز عن مواصلة التعليم فانتهز أهل الخير فرصة عودة الوفد إلى الحكم وسعوا إلى تعيين الشاب الصغير فى وزارة الحربية فتعين فى وظيفة صغيرة خارج الهيئة، كذلك قضت الظروف على أنبغ تلميذ فى جيلنا. وكثيرا ما كنت أتذكره وأتحسر على نهايته، وكلما صادفنى شىء من التوفيق فى حياتى الدراسية أو العملية تذكرته فداخلنى الأسى وتخيلت الأمجاد التى وئدت بضربة عمياء من ضربات العبث. ومضت أعوام فأعوام دون أن تقع عليه عيناى أو أسمع عنه ذكرا حتى التقيت به مصادفة فى كازينو حديقة الأزبكية عام ١٩٦٠. مررت به أول الأمر دون أن أفطن إلى هويته إذ جذبت عينى لحيته البيضاء فحسبته فنانا، ثم سمعت صوته ينادينى فالتفت إلى وجهه وعرفته فى الحال. وتصافحنا بحرارة ثم جلسنا حول مائدة متواجهين. لم يكد يتغير وجهه لولا لحيته وشيبة رأسه، وانبعثت من جملة منظره شفافية كالعبير الحلو أو الطمأنينة الشاملة وتذاكرنا الماضى والزملاء، من رحلوا مثل بدر الزيادى وجعفر خليل، ومن نبغوا فى الحياة مثل رضا حمادة وسرور عبدالباقى وغيرهما، ثم جاء دوره فقال:

ـ ما زلت موظفا بوزارة الدفاع ووصلت إلى الدرجة الثالثة، متزوج وأب لفتاة فى العشرين طالبة بكلية العلوم..

وسكت قليلا ثم استطرد:

ـ اتجهت من قديم إلى دراسة الروحانيات، عن طريق الكتب والمراسلة..

فقلت له:

ـ قرأت بعض الكتب عنها.

فابتسم قائلا:

ـ إنى أدرسها وأمارسها!

ـ حقـا؟!

فقال بوجد وحماس:

ـ عالم الروح عالم عجيب، أعجب من عالم المادة..

فتابعته باهتمام واحترام فاستطرد:

ـ وهو أمل الإنسان فى الخلاص الحقيقى.

فقلت مجاملا وصادقا فى آن :

ـ الإنسان فى حاجة إلى الخلاص .

فقال بحرارة متشجعا بإقبالى :

ـ حضارتنا مادية ، وهى تحقق بالعلم ـ كل يوم ـ انتصارات مذهلة وتمهد لسيطرة الإنسان على دنياه ولكن ما جدوى أن تملك الدنيا وتفقد نفسك؟

فقلت بحذر :

ـ على الإنسان أن يملك الاثنين!

فابتسم بعذوبة وقال :

ـ لعلك لا تؤمن بقولى ، أو لعلك لا تؤمن به كل الإيمان ، ولكن ثق من أن عالم الروح حافل بالمجاهل كعالم المادة ، وأن التنقيب فيه يَعدُ الإنسان بانتصارات مذهلة لا تقل عن انتصاراته فى غزو الفضاء . وأنه لا ينقصنا إلا أن نؤمن بمنهج روحى كما نؤمن بالمنهج العلمى ، وأن نؤمن أيضا بأن الحقيقة الكاملة هى ملتقى طريقين لا غاية طريق واحد . .

ـ حكمة معقولة . .

فرنا إلىّ بنظرة حنون من عينيه السوداوين ـ أدركت لونهما لأول مرة ـ وقال برثاء وشفافية :

ـ ما أضعف صوت الحق وسط هدير الآلات ، ولكن ما أحوج الإنسانية اليوم إلى منقذ . .

فسألته بحب استطلاع :

ـ كيف تتصور المنقذ؟

ـ أتصوره رجلا أو فكرة أو درسا باهظ الثمن!

ـ كحرب ذرية؟

ـ ربما ، على أى حال أشعر بأن ثمة حجابا يفصل بينى وبينك ولكنه حجاب شفاف ضعيف الجذور ، وأن استعدادك لحب الحقيقة كبير ، وإنى أمارس تحضير الأرواح فى بيتى فلعلك تزورنى يوما . .

وأعطانى بطاقته التى لم يطبع عليها إلا الاسم والوظيفة والعنوان بشارع دير الملاك . ومع أننى تلقيت كلماته بحب لا باقتناع إلا أنه خطر فى جحيم حياتى كعبير زهر اللارنج . وفى مساء اليوم نفسه قابلت الأستاذ سالم جبر فى مكتبه بالجريدة ، وحدثته عن ناجى مرقص ودعوته ، وبإغراء وتحد معا عرضت عليه أن نزوره معا ، ولكنه استسخف

الفكرة، وذكرنى بأنه لم يعد يوجد فاصل بين عالمى المادة والروح. وأن التوغل فى حقيقة المادة هو توغل فى حقيقة الروح، وأن صديقك يدعوك إلى طقوس سحرية فى عصر الفضاء! ولم أر ناجى مرقص بعد ذلك ولكنه يهفو على قلبى أحيانا كذكريات الصبا فأدرك أنه يعيش فى ركن من نفسى.

نـــادر برهـــان

كان بطلا من الأبطال فى حياتنا الصغيرة بالمدرسة الابتدائية ما بين عامى ١٩٢١ و١٩٢٥. كان يكبرنا بأعوام، وكان قويا طويل القامة، ومنذ أول يوم لنا فى المدرسة قيل لنا إنه زعيم التلاميذ بالمدرسة. وكنا نلتف حوله فى فناء المدرسة ونتابع كلامه باهتمام. وكان يقول:

ـ لا تستصغروا أنفسكم فأنتم جنود سعد، أى جنود الوطن..

وكان يقول أيضا:

ـ علينا أن نوطن أنفسنا على قبول الضرب أو السجن أو حتى المشنقة، فلا قيمة للحياة بلا حرية، ولا حرية بلا تضحية، وقد أرسل الله لنا سعد زغلول زعيما وعلينا أن نكون جديرين بزعامته..

وكنت أجله وأعجب به وكان رضا حمادة يعبده ولم يجرؤ سيد شعير أو خليل زكى على السخرية منه، أما إذا حدّث عن زياراته لبيت الأمة ومحاوراته مع الزعيم فكان يبهرنا لحد الجنون، ونفد منى الصبر فاقتربت منه ذات يوم وقلت:

ـ أريد رؤية سعد بالعين فهلا أخذتنا إلى بيت الأمة؟

فنظر إلى بعطف وقال:

ـ ما زلت صغيرا تسير فى بنطلون قصير، وزيارة بيت الأمة مغامرة خطيرة لا رحلة آمنة..

وكان إذا تقرر إضراب ومظاهرة انتظر نادر برهان حتى تنتظمنا طوابير الصباح، ثم يتقدم خطوات إلى الأمام ويأخذ فى التصفيق بقوة، وسرعان ما تدوى الطوابير بالتصفيق. وعند ذاك يبادر ضباط المدرسة إلى طوابير التلاميذ الصغار فيمضون بهم إلى الفصول بسماح من التلاميذ المصريين فنمضى ونحن نهتف بحياة سعد، ويذهب الباقون فى مظاهرة على رأسها نادر برهان إلى الطريق فيلتقون بتلاميذ المدارس الأخرى، وفى إحدى المظاهرات أصيب برصاصة فى ساقه فقضى فى المستشفى شهرين ثم لزمه عرج

خفيف بقية عمره. وتحت زعامته اشتركت فى أول مظاهرة فى حياتى عام ١٩٢٤. دعانا إلى الإضراب وخطب فينا قائلا إن الملك فؤاد يريد التلاعب بالدستور وإن سعد زغلول رئيس الوزراء - تلك المرة - يقف فى صلابة للدفاع عن حقوق الشعب، وإن علينا أن نذهب إلى ميدان عابدين لتأييد الزعيم. ولما كانت الحكومة شعبية لأول مرة، ولما كان رئيسها هو وزير الداخلية، فقد سمح لنا بالاشتراك فى المظاهرة باعتبارها مظاهرة سلمية، وسرنا فى حشود هائلة من التلاميذ والطلاب وأهل البلد حتى اكتظ بنا ميدان عابدين، ورحنا ندق باب القصر بأيدينا ونهتف «سعد أو الثورة». .

وترامى من بعيد هدير هتاف شامل إيذانا بمقدم الزعيم لمقابلة الملك، واشتد الضغط حول ممر ضيق شقه رجال الشرطة بصفين منهم لتسير فيه سيارة الزعيم، وقلت لرضا حمادة بسرور غامر:

- سترى أعيننا سعد زغلول.

فقال بحماس:

- نعم ولو لبضع ثوان. .

وتسللنا بخفة وعناد حتى بلغنا حافة الممر، ورأينا السيارة قادمة ببطء شديد والخلق يحيطون بها ويتعلقون بأركانها ويقفون فوق غطائها، وتطلعنا بأعين ملهوفة نهمة ولكننا لم نر إلا أجساد البشر ولم يتجل من الزعيم ملمح واحد. وبؤنا بحسرة لازمتنا طويلا.

ولما انتقلت إلى المدرسة الثانوية انقطعت عنى أخبار نادر برهان. لم أره ولم أسمع عنه. افترقت عنه عام ١٩٢٥ وانقضت أربعون عاما حتى صادفته فى مقهى استرا شتاء عام ١٩٦٥. كنت عائدا من لقاء نهارى مع أمانى محمد فملت إلى مقهى أسترا لأشرب فنجان قهوة فرأيته جالسا وحده، بدينا عملاقا، ومعطفه مثنى على ظهر كرسى إلى جانبه. عرفته من أول نظرة، وخيل إلى أنه لم يتغير كثيرا رغم أنه كان فى الستين، حتى شعر رأسه ظل أسود عدا سوالفه. وأقبلت عليه باسما فنظر إلىّ بإنكار ولكنه صافحنى، فلما ذكرته بالمدرسة الابتدائية والزعامة تهلل وجهه ودعانى للجلوس فجلست. قلت له:

- عينى عليك باردة، لم تتغير.

فقال ضاحكا:

- أنا من أسرة معمرين لا يموتون إلا فى الحوادث.

وذكرته بالزملاء وأخبرته عن المصائر فاتضح أنه لا يعرف إلا رضا حمادة معرفة غير شخصية. ولما سألته عن حاله رحب بالحديث جدا كأنما كان يبحث عن متنفس له. قال:

- بعد الابتدائية التحقت بالمدرسة الثانوية فى أسيوط لانتقال أبى إليها، ولكنى رفت

فى عهد محمد محمود، ورجعت فى عهد النحاس، ثم رفت مرة أخرى فى حكم صدقى، ثم اتهمت فى قضية الشروع فى اغتياله وسجنت، حكم علىّ بعشرة أعوام ولكنى خرجت بعفو فى حكومة النحاس التى عقدت المعاهدة، ووجدت أنه من العبث أن أحاول إتمام دراستى الثانوية فعيننى الوفد وكيلا لجريدة الجهاد فى الإسكندرية . .

وسكت قليلا متجهم الوجه لذكريات لا أدرى بها ثم قال :

ـ لم أحزن فى حياتى مثلما حزنت للخلاف بين مصطفى النحاس والنقراشى، كان النحاس زعيمى، وكان النقراشى أبى الروحى، ولم أتصور الدنيا صالحة للحياة مع وجود عداوة بين الرجلين، وسارت الأحداث فى المجرى الذى تذكره. فبلغ بى التقزز مداه. ولما كانت المعاهدة قد ختمت ثورة ١٩١٩ وتحقق لنا الاستقلال ولو بعد حين، فقد قررت اعتزال السياسة، وصادف ذلك وفاة أبى ووراثتى لقدر لا بأس به من المال ففتحت مطعم سمك فى سيدى جابر وفتح الله علىّ.

ـ إذن اعتزلت السياسة؟

ـ منذ عام ١٩٣٧ .

ثم وهو يعتدل فى اهتمام :

ـ ولكنى لم أنقطع عن متابعة الأحداث، لعلى السماك الوحيد الذى يفلّى الجريدة قبل أن يقول يا فتاح يا عليم . .

ثم وهو يهز رأسه فى أسى :

ـ وكنت أتابع تدهور الأحوال بحزن، وكلما تسلل إلى الوفد ضعف أو انصرف عنه جيل من الشباب تقطع قلبى، ولكن ما باليد حيلة . .

فقلت :

ـ لكل شيء شباب وشيخوخة، تلك سنة الحياة.

ـ ولكن الوفد فى حياتنا يمثل عصر الفتوة والبعث، دلنى على أى فترة تاريخية منذ عهد ما قبل الأسر حتى اليوم ساد فيها الشعب وتعملق كما ساد وتعملق أيام الوفد؟

ثم وهو يضحك :

ـ ولما قامت ثورة يوليو حمدت الله على القرار الذى اتخذته بملء حريتى قبل أن أرغم عليه أو على ما هو أسوأ منه . .

ـ ولكنك قدرت للثورة أعمالها المجيدة بلا شك؟

ـ الاعتراف بالحق فضيلة، ولكنى لا أغتفر لها محاولة النيل من زعامة سعد زغلول.

فقلت :

ـ للسياسة مقتضياتها ، وأظنك لا تنسى موقف مصطفى كامل من أحمد عرابى .

فسألنى باهتمام :

ـ هل شاهدت جنازة مصطفى النحاس؟ كانت رد اعتبار شعبى لسعد وللوفد ولأكبر ثورة شعبية فى حياتنا . .

وأخبرنى أنه يزور القاهرة من حين لآخر منذ عامين لانتقال كريمته إليها بحكم الزواج ، ثم حدثنى عن أسرته فقال :

ـ ابنى الأكبر سماك مثلى ، الأوسط مهندس ، الأصغر ضابط طيار . .

ومنذ ذلك التاريخ واظبت لدى كل تصييفة فى الإسكندرية على تناول العشاء ولو مرة فى مطعم زعيمى القديم . وفى صيف عام ١٩٦٩ وجدته حزينا على غير عادته . وقال لى :

ـ فى أواخر العام الماضى هاجر ابنى المهندس إلى كندا!

ثم بنبرة متهدجة :

ـ وفى شتاء هذا العام استشهد ابنى الطيار فى سبيل الوطن!

هجــار المنيــاوى

كان الشيخ هجار المنياوى مدرس اللغة العربية فى مدرستنا الابتدائية ، ولحق بنا فى المدرسة الثانوية ، وكان من أهل الصعيد ، ينطق بلهجتهم ، قوى البنيان طويل القامة غامق السمرة . قليل العناية بمظهره ، فعمته أصغر مما ينبغى ولا ذوق له فى اختيار ألوان الجبة والقفطان . ولكنه كان يفرض الاحترام بقوة شخصيته والتمكن من مادته وشجاعته الفائقة ، ولم يكن متزمتا ، كان يحب النكتة ، ويروى لنا جميل الأشعار ، ومرة تبارى فى فناء المدرسة مع مدرس الرياضة البدنية فى التحطيب ، فلعب بعصاه برشاقة أذهلتنا وانتصر على خصمه وسط تصفيق حاد . ومرة دخل جعفر خليل الفصل متأخرا بعد أن انتظمنا فى مجالسنا ، وكعادته فى حب المزاح ، قلد أستاذنا فقال له :

ـ عم صباحا .

وضحك الفصل وانبسط جعفر ، وتركه الشيخ هجار حتى جلس ، ثم ناداه :

ـ جعفر خليل .

فوقف فقال له بهدوء:

ـ أعرب «عم صباحا».

وعجز جعفر عن إعرابها ففتح الشيخ دفتر يومية التلاميذ وأعطاه صفرا، فاحتج جعفر قائلا:

ـ إنها صعبة!

فقال الشيخ بهدوء:

ـ ولمَ تستعمل ما لا تفهمه؟

أما جانبه الجاد فكان فذا لا يتكرر. كان فى المدرسة الابتدائية ـ عصر الثورة ـ مدرسا للغة العربية والوطنية. فلدى أى مناسبة يفتح باب الحديث الوطنى، يستعيد الذكريات المجيدة، ويشيد بالأبطال، ونحن نتابعه والدموع فى أعيننا. وكان يحدث عن سعد زغلول وكأنه ولى من أولياء الله أو صاحب معجزات، معتبرا زعامته رسالة سماوية ومعجزة تاريخية، ومنه عرفنا ما لم نكن نعرف عن نشأة سعد، ومهارته فى المحاماة، ومواقفه فى نظارة المعارف ونظارة الحقانية، وزعامته، وتحديه لقوة الإنجليز، وسحره وبلاغته، وما ينتظر البلاد على يديه، وكان يقول:

ـ ببلاغته عبأ الشعور، وباسمه قامت الثورة.

وكان يعرّف التلميذ الكامل فيقول:

ـ هو من يحصل العلم ويثور على الطغاة.

وكنا نحبه بقدر ما نجله، ونتلقى عنه الوطنية والأصالة، وبفضله أحببنا اللغة العربية وعشقنا أشعارها.

وفى المدرسة الثانوية تغير مذاق الجهاد، فتوارت عنا وجوه الإنجليز وبرزت فى الصورة وجوه المصريين الموالين لهم، واحتلت الحزبية المكان الأول فى الصراع، وخاض الشيخ المعركة الجديدة بنفس القوة والصلابة، وكان يقول:

ـ المعركة هى المعركة ولكن الأعداء إزدادوا عددا فوجب علينا مضاعفة الجهاد.

ويوم أضربنا على عهد محمد محمود، اليوم الذى استشهد فيه بدر الزيادى، أخرجه ناظر المدرسة فطالبه بأن يخطب التلاميذ حاثا إياهم على الانتظام فى الدراسة، وكان فى طبعه حدة تثور على التحدى وتنفجر غضبا أعمى، فاعتلى المنصة أمام حجرة الناظر وصاح بصوت رهيب:

ـ العلم يطالبكم بالنظام والوطن يطالبكم بالجهاد وليس لكم إلا ضمائركم فارجعوا إليها.

وكتب الناظر تقريرا عنه فرفعه إلى وزير المعارف وسرعان ما تقرر فصله. ويوم غاب عن المدرسة وانتشر الخبر هاجم الطلبة حجرة الناظر حتى اضطر إلى الفرار من المدرسة، واضطرت الوزارة إلى نقله حماية لحياته. وقد عاد الشيخ إلى المدرسة فى عهد الوفد ولكنه فصل مرة أخرى فى عهد صدقى، فعمل فى مدرسة بين الجناين الأهلية التى كان يملكها رجل وفدى معروف. وفى حكومة المعاهدة تعين مفتشا بالوزارة وسويت حالته تسوية عادلة. وفى انتخابات ١٩٤٢ رشح نفسه على مبادئ الوفد فنجح، كما نجح مرة أخرى عام ١٩٥٠. وقد التقيت به مرات فى بيت رضا حمادة كما عرفت بعض أبنائه. ولما صدر قرار حل الأحزاب - بعد ثورة يوليو - رجع إلى قريته فى الصعيد فلم يبرحها، ولا أدرى إن كان ما زال على قيد الحياة أم انتقل إلى جوار ربه. ومما يذكر أنه فى سبتمبر عام ١٩٥٢ أو ١٩٥٣، وكنت مارا أمام نادى الجيش القديم بالشاطبى، رأيت بعض أعضاء الوفد واقفين فى فناء النادى يحيط بهم جند. وسمعت من بعض المارة بأنهم اعتقلوا وسيرحلون إلى القاهرة، ورأيت بين الضباط الذين يشرفون على الإجراءات الضابط محمد هجار ابن شيخنا القديم هجار المنياوى. تأملت الموقف، نظرت طويلا إلى الابن، تذكرت الأب، ثم خيل إلى أنى أسمع هدير الزمن وهو يتدفق حاملا متناقضاته المتلاطمة.

وداد رشدى

رأيت وداد رشدى لأول مرة عندما جاءت لزيارة كاميليا زهران بإدارة السكرتارية يوما من أيام ١٩٦٥، وكانت عملاقة، تمتد طولا وعرضا، ولكنها رشيقة بالنسبة لحجمها، وقسماتها كانت كبيرة فى ذاتها، ولكنها مقبولة وجميلة فى موضعها من الجسم المترامى، وبصفة عامة يوحى منظرها بالقوة والجمال والطلاقة كتمثال، وتؤثر نظرة عينيها العسليتين بجرأتها غير العادية. هذا إلى جاذبية جنسية نفاذة كالعطر الفواح. وكلما اختلست منها نظرة وجدتها تنظر إلىَّ حتى ثارت تساؤلاتى. قدرتُ عمرها بالثلاثين، ومن ملاحظة يسراها عرفت أنها متزوجة، وجعلت أتساءل عما يدعوها إلى ملاحقتى بنظراتها، وكانت علاقتى بأمانى محمد مازالت فى عنفوانها. وخيل إلىّ أنى عرفت السبب عندما أقبلت هى وكاميليا نحو مكتبى، جلسنا على كرسيين متقابلين أمام المكتب، وقالت كاميليا:

- لا مؤاخذة يا أستاذ نريد استطلاع رأيك فى مسألة؟

فسلمت وأنا أقول:

ـ تحت أمركما.

فقالت كاميليا:

ـ صديقتى وداد رشدى، ستحدثك بنفسها.

وقالت وداد بصوت ناعم واضح ذى درجة عالية تناسب حجمها:

ـ المسألة بكل بساطة أنى حصلت على ليسانس الحقوق منذ خمسة أعوام، لكنى تزوجت ولم أتوظف، وزوجى الآن معار فى الكويت لمدة عام، وأفكر فى التوظف فهل يمكن إتمام ذلك عن طريق إدارة القوى العاملة؟

فقلت:

ـ كلا، ولكن جربى حظك بطلب خاص أو بالاشتراك فى أى مسابقة يعلن عنها.

ـ واضح أن الأمل فى تلك الحالة ضعيف.

ـ لا أقول إنه قوى، ولكن عليك أن تجربى.

وقالت كاميليا زهران:

ـ إنها أم لطفلتين ومع ذلك تريد أن تتوظف.

فقالت وداد:

ـ جميع زميلاتى متزوجات وموظفات!

فسألتها:

ـ وماذا عن الطفلتين؟

ـ لن ألقى متاعب من هذه الناحية.

ـ وماذا عن زوجك؟

ـ موافق..

وقالت كاميليا:

ـ ساعدها بما تستطيعه..

وزكت وداد نفسها قائلة:

ـ نحن جيران من الزمن القديم!

فتساءلت بدهشة:

ـ حقـــا؟!

ـ لا تذكر لأنى كنت صغيرة، ذلك تاريخ يرجع إلى عشرين عاما وكنت فى العاشرة، ثم غادرنا حيكم منذ خمسة عشر عاما وأنا فى الخامسة عشرة.

ـ ذلك تاريخ قديم ولكن ليس جدا فكيف لا أذكرك؟

ـ أما أنا فأذكرك كما أذكر رضا حمادة وسرور عبد الباقى وجعفر خليل الله يرحمه، وسرور عبد الباقى اليوم هو دكتورنا المفضل، ومازلت أذكر وفاة جعفر خليل الغريبة.

فقلت بحنان:

ـ يا لها من ذكريات!

وتساءلت كاميليا بمكر:

ـ أرأيت؟!

وبعد مرور أسبوع على المقابلة تلفنت إلى بخصوص الوظيفة أيضا ولكنى شعرت أنها لم تكن إلا مماحكة للمحاورة. وعجبت ماذا تريد العملاقة الجميلة المتزوجة؟ وجعلت أقارن بينها وبين أمانى محمد، بل بينها وبين درية، واستثار الوجد فدعا من غيابات الماضى حنان مصطفى وصفاء الكاتب. وسألتها:

ـ ألن تزورى كاميليا مرة أخرى؟

فسألتنى بصراحة:

ـ أتريد أن ترانى؟

فلم أجد مفرا من أن أقول:

ـ يسعدنى ذلك.

فسألتنى بتحد:

ـ ولماذا يسعدك؟

فانزلقت إلى القول:

ـ مرآك يسعد الأنفس.

فضحكت وقالت:

ـ الإدارة عندكم مزدحمة وتفوح برائحة الأوراق.

فارتضيت الهاوية دون تقدير للعواقب وقلت:

ـ إذن ليكن فى مكان هادئ.

ـ أتحب الأماكن الهادئة؟

ـ جدا.

ـ بشرط!

ـ أفندم؟

ـ أن تجيء بنية طيبة .

ـ طبعا .

ـ تذكر ذلك .

ـ وعد .

ـ فما أهدأ مكان فى نظرك؟

ـ حديقة الأسماك .

ووجدتها تنتظر بلا ارتباك ولا حياء ، كأنما تنتظر زوجها أو أخاها . وسرنا معا فى شبه خلاء ، حتى اخترنا مجلسا تحت سفح الهضبة ، وقالت :

ـ لعلك تسائل نفسك عن سر المرأة الجريئة التى رمت بنفسها فى طريقك بلا سياسة ولا لباقة؟

فقلت بسرور والرغبات تراقصنى :

ـ ما دمت سعيدا فلا معنى للتساؤل .

فقالت ضاحكة :

ـ لا تنس شرطى!

ـ أنا متذكرة .

فقالت بجدية :

ـ يجب أن تعرف أننى امرأة محترمة وزوجة مخلصة .

فقلت وأنا أستشعر شيئا من القلق :

ـ لا جدال فى ذلك فعينى بصيرة ، وسن الطيش ودعتها من قبل أن تفارقى حينا!

ـ تكلم عن ذلك العهد باحترام وعاطفة من فضلك .

ـ له الاحترام والحب إلى الأبد .

فابتسمت بجرأة لم أعرفها من قبل وقالت :

ـ لم أقابلك مصادفة .

ـ حقـــا؟

ـ كاميليا حدثتنى عن زملائها . وعندما سمعت اسمك . . ماذا أقول؟ قررت أن أقابلك .

ـ ولكنك ترغبين فى التوظف .

ـ لا أهمية لذلك .

ـ لا تتركينى فريسة للحيرة .

وهى تضحك فى سعادة ناطقة :

ـ أنا أعرفك منذ عشرين سنة !

ـ أجـــل .

ـ كنت من سكان العمارة الخضراء ، تذكرها؟

ـ أمام السبيل بالشارع العمومى !

فقالت بعتاب :

ـ ولكنى كنت فى العاشرة فلم تنتبه إلىّ .

ـ كنا نمر تحت العمارة ولا موقف لنا تحتها وسن العاشرة .

ـ وسن العاشرة لا يستلفت النظر ، ولكنى بلغت الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة ولم تنتبه .

ـ سوء الحظ إذا استحكم .

ـ كنت وقتذاك أعتبر سوء الحظ من نصيبى أنا .

نظرت إليها فى حرج فطالعتنى بنظرة صريحة جريئة ضاحكة ، وقالت :

ـ فعلت المستحيل لألفت نظرك ولكنى لم أفلح .

ـ يا لها من ذكريات كالأساطير !

ـ ولكنها حقيقية ، وهى تعيش فى أعماقى كخيبة لا دواء لها .

فقلت بارتباك :

ـ لعلك تبالغين .

ـ أبدا ، كل كلام الدنيا لا شىء بالقياس إلى حقيقة ذلك الماضى .

وكنت أصغى بارتياح وافتتان وبلا عاطفة ، وبصراحتها العملاقة سألتنى :

ـ أحق ما يقال عن الحب الأول من أنه لا يفنى أبدا؟

وتذكرت فى الحال حنان ، وصفاء ، ورجعت إلى قلبى الخامد ، ثم قلت :

ـ لا يخلو قول مأثور من حقيقة خالدة!

فقالت بحرارة :

ـ إنه عاطفة ساحرة لا تتكرر ولذلك لا يمكن أن ينسى .

ـ وما فائدة ذلك؟

ـ لا فائدة .

ـ ولكنك زوجة سعيدة .

فقالت بأسى :

ـ أجل ، لا أحب أن أكون جاحدة ، ولكن العين تثبت على ما ينقصها .

ـ لذلك فالسعادة حكمة عسيرة .

ـ زوجى رجل كامل ، إنه مثال تتمناه أى امرأة ، ولكنه لا يشاركنى ميولى الخيالية ، أشعر أحيانا بالوحدة ، وتعضنى أحيانا خيبتى القديمة !

وضحكت ثم استدركت :

ـ عندى تخمة من السعادة ولكن روحى ظمأى !

فسألتها :

ـ ما عمر زوجك؟

ـ أربعون عاما !

ـ أنت فى جنة ولا يجوز لك أن تحلمى !

فقطبت قليلا ثم قالت :

ـ أنت كبرت ، وأراهن أنك لم تعرف الحب !

ترى أين صفاء؟ أما زالت على قيد الحياة؟ وهل يمكن ـ لو صادفتها ـ أن يجرى بيننا مثل هذا الحديث؟ ! وتراجعت قائلة :

ـ لا مؤاخذة ، صراحتى تخرجنى أحيانا عن حدود اللياقة ، ولكنى توقعت أن تحترم عواطفى .

فقلت بحرارة :

ـ إنى احترمها من أعماق قلبى .

فقالت بتأثر وامتنان :

ـ أشكرك .

ثم واصلت :

ـ أرجو ألا ينقطع الاتصال بيننا ، أيضايقك ذلك؟

ـ سأسعد به فوق ما تتصورين !

ـ اتصال روحى لن يمس احترامنا لأنفسنا .

ـ اقتراح عذب أقبله على العين والرأس .

ـ وليكن التليفون وسيلتنا حتى لا نتعرض لظلم لا نستحقه .
ـ كما تشائين .
ـ إلا إذا غلبنى شوق فسنتقابل خطفا .
ـ ما أجمل أن نتقابل ولو خطفا .

ومنذ ذلك اللقاء فتحت لى حياة جديدة أبوابها فدخلتها مدفوعا بالحنان والتعلق بالذكريات وحب الاستطلاع ، وعايشت روابطها العائلية ومشكلاتها اليومية وما تزخر به من أبوة وأمومة وبنوة ، وارتباطات عاطفية بل وجنسية ، وخلافات ومسرات وأمراض وأحلام وأهواء من كل شكل ولون .

وداد بُعد من أبعاد حياتى لا يدرى به أحد ولكنه جزء من كينونتى لا يتجزأ .

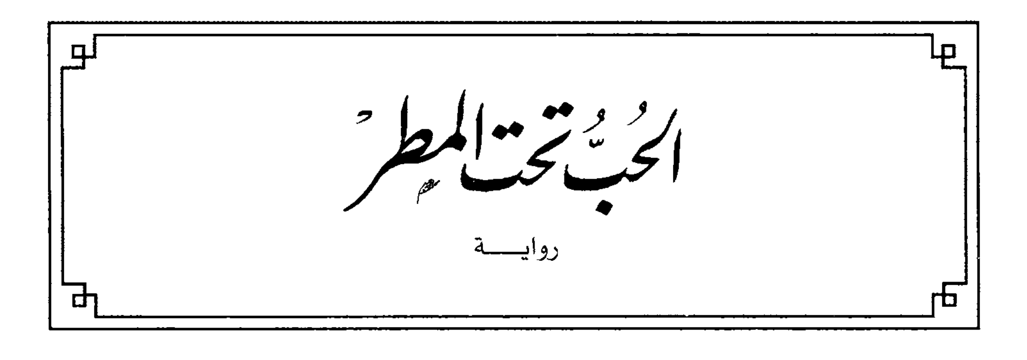
يسرية بشير

يرجعنى الاسم إلى مهد الطفولة ، ميدان بيت القاضى وأشجار البلخ المثقلة بأعشاش العصافير ، ومن نافذة جانبية كنت أطل وأنا طفل على حارة قرمز ، وهى حارة مبلطة تنحدر فى هبوط ، وعند منعطف منها يقوم بيت آل بشير . كنت فى السابعة أو الثامنة ، وكان يعجبنى منظر الشيخ بشير وهو يجلس أمام مدخل بيته فى العصارى يسبّح ، يضىء المكان ببشرته البيضاء ولحيته الشهباء والألوان الزاهية التى تعرضها عمامته وجبته وقفطانه . وعندما يمضى إلى ميدان بيت القاضى فى طريقه إلى الكلوب المصرى تظهر فى النافذة يسرية . لعلها كانت فى السادسة عشرة أو نحو ذلك ، يتجلى منها وجه كالقمر ، أبيض بهيج مريح مضىء يتوّجه شعر فاحم ، وتناديني بصوت ناعم وتمازحنى وأنا أتطلع إليها سعيدا راضيا وعاشقا إن جاز لابن سبع أن يعشق . والحق لا يمكن تفسير تعلقى بها إلا بالعشق ، فما كانت قريبة ولا من سنى ، ولا أهدتنى يوما لعبة أو قطعة من الحلوى ، ولا تحدثت بجمال وجهها . وكانت تغرينى أحيانا بالذهاب إليها فأتسلل من البيت إلى الحارة ولكن الخادمة كانت تدركنى فى اللحظة المناسبة وتحملنى إلى البيت وأنا أبكى وأرفس دون جدوى . ويوما أمطرت السماء ، ووقفت فى النافذة أراقب المطر وهو ينهمر فوق أديم الحارة ويجرى نهرا ليصب فى القبو القديم . وما لبث أن ارتفع مستوى الماء حتى غطى وجه الأرض وانقلبت قرمز جدولا راكدا يستحيل عبوره إلا بالحمالين أو بالكارو . ومن خلال الأمطار المنهمرة رأيت يسرية واقفة أيضا فى النافذة وهى تشير إلىّ فخطرت لى فكرة قررت فى الحال تنفيذها . فصعدت سرا إلى السطح وحملت طست غسيل

نحاسى ومقشة ذات يد خشبية طويلة ومضيت بها إلى الطريق، ثم أرسيت الطست فوق سطح الماء ووثبت إليه وجعلت أدفعه بالمقشة فيسبح نحو بيت بشير، وانتبهت الخادمة ولكن بعد فوات الأوان، لم تستطع تلك المرة أن تخوض الماء إلىّ فوقفت عند ناصية الحارة تنادى ولا مجيب. وغادرت الطست عند باب آل بشير المثبت فوقه تمساح محنط، ومرقت إلى الداخل حافيا متشبّع الجلباب بالماء، وقابلتنى يسرية عند رأس السلم فقادتنى إلى الحجرة، وأجلستنى قبالتها على كنبة تركية، وراحت تداعب شعرى برقة وأنا غارس عينى فى وجهها المضىء، ولا شك أننى رغم الجهد والبلل شعرت بالظفر والسعادة بين يديها، وأرادت أن تسلينى فتناولت راحتى وبسطتها وهى تقول:

ـ سأقرأ لك الطالع!

وراحت تتابع خطوط كفى وتقرأ الغيب ولكننى استغرقت بكل وعيى فى وجهها الجميل.



١

تيار من الخلق لا ينقطع . يتلاطم فى جميع الاتجاهات . تند عنه أصوات من شتى الطبقات . ويشكل فى جملته خليطا من ألوان الطيف . سارا جنبا إلى جنب صامتين . هى فى فستان بنى قصير وشعرها الأسود يتهدل حول الرأس وفوق الجبين . وهو بقميصه الأزرق وبنطلونه الرمادى وشعره المرسل إلى اليمين . فى عينيها نظرة عسلية مستطلعة . وفى عينيه جحوظ خفيف ، ولكنه يوائم تماما أنفه الحاد المستقيم . وبقدر ما استسلمت للمشى كان هو يتحين الفرص . قال :

ـ الزحام لا يطاق .

فتمتمت باسمة :

ـ ولكنه مسل للغاية .

واعتبر ردها مناورة لطيفة ليس إلا . بل استجابة لرغبته القلبية . وأشار بذراعه المفتولة إلى كافتيريا هارون فمالت معه إليها بلا تردد . ومضيا إلى الحديقة الخلفية فاختارا مجلسا شبه خال تحت تكعيبة اللبلاب . وتفحصا المكان ، وتبادلا نظرات . استشعر دون شكاية حرارة الجو المشبعة بالرطوبة . وطلب قدحين من شراب الليمون . وكان يتوثب للكلام فيما يهمه ولكنه قال لنفسه فليأت الكلام فى وقته وبطريقة عفوية فهذا أفضل . قال :

ـ مضى عهد الجامعة كحلم .

فقالت تكمل جملته :

ـ بمتاعبه ومسراته .

ـ وما هى إلا أشهر حتى يتسلم كل منا وظيفته .

فأحنت رأسها بالإيجاب ، ثم تساءلت :

ـ ولكن إلى أين تمضى الدنيا؟

هذا السؤال الذى يرتطم به فى كل مكان وزمان. إلى أين؟ حرب أم سلام؟ وطوفان الشائعات؟

ـ لتمض إلى حيث تشاء.

وشربا الليمون حتى دمعت عيناهما، ثم سألها:

ـ وما أخبار أخيك إبراهيم؟

ـ بخير، رسائله قليلة، ولكنه يجىء من الجبهة مرة كل شهر..

وكأنما أرادت أن تعتذر عنه فقالت:

ـ مرزوق.. لو لم تكن وحيد أبويك لاستدعيت مثله إلى الجندية..

فلم يعلق بحرف.. واستسلما معا للصمت. وعاوده التوثب للكلام فى موضوعه، فقال ضاحكا:

ـ لا يجوز أن نضفى البراءة على اجتماعنا أكثر من ذلك..

فلعبت فى عينيها نظرة مرحة وقالت:

ـ إذن فاجتماعنا برىء!

فقال بجدية:

ـ أعنى الموضوع الذى حدثتك عنه أختى سنية..

فقالت بحذر:

ـ لا تنقصك الصديقات فيما أعلم؟

فقال بجدية أكثر:

ـ نحن نتحرك بدافع اللهو كثيرا، ثم يجىء وقت فلا يقنعنا إلا الحب الحقيقى..

ـ الحقيقى؟

ـ هذا ما أعنيه تماما يا عليات..

فترددت قليلا ثم تساءلت:

ـ ألا يعد الزواج فى حالتك سابقا لأوانه؟

فقال بازدراء:

ـ ذلك من كلام السلف، ولكن لا أهمية للوقت ما دمنا نسيطر على مصيرنا..

فسألته باهتمام:

ـ وهل أنت واثق من مشاعرك؟

فرمقها بحنان وهو يقول:

ـ من عيوبى الجوهرية أننى لا أحسن التعبير عن مشاعرى، كم مرة التقينا؟ ومع ذلك فلم أنوه بجمالك أو ثقافتك مرة واحدة.

ولما لم تنبس سألها بحرارة:

ـ لمَ لا تتكلمين؟

فقالت وهى تتنهد:

ـ لا أدرى، كأننى خائفة..

فقال برقة:

ـ الحق أنى أحبك كأعز شىء فى الدنيا.

فغمغمت باسمة:

ـ هذا أفضل..

فضحك بسرور وقال:

ـ عندى ما هو أجمل..

واعترفت قائلة:

ـ والحق أنى لم أكن سلبية فى المعركة وأنت تعلم ذلك..

فاستخفه الطرب وقال:

ـ اعتبرينى مجنونا بك!

فخفضت بصرها وهمست:

ـ وأنا سعيدة كما يجدر بإنسان يبادلك مشاعرك..

فاجتاحه السرور والإلهام وقال:

ـ ما كان أحب إلىّ أن أتلقى هذه السعادة فى مكان لا يشاركنا فيه أحد.

وضحكا معا. وصمتا وهما يتبادلان النظرات. واقترح عليها الذهاب إلى حديقة ما. وقاما وهى تقول:

ـ لا تنس أنه توجد فى الطريق متاعب!

فهز منكبيه قائلا:

ـ أعتقد أنها متاعب لا تذكر بالقياس إلى متاعب العالم!

٢

انتصف الليل فخلت مقهى الانشراح بشارع الشيخ قمر من زبائنها . لم يبق من عمالها إلا عم عبده بدران النادل وعشماوى ماسح الأحذية . ومضى عشماوى بهيكله الضخم الخاوى إلى الخارج فجلس القرفصاء جنب مدخل المقهى ينظر إلى لا شىء بعينيه العمشاوين . أما عم عبده فاقتعد كرسيا وسط المدخل وأشعل سيجارة . وبعد ربع ساعة مرقت سيارة مرسيدس بيضاء أمام المقهى ثم وقفت على مبعدة يسيرة لصق الطوار فرفع عشماوى رأسه نحوها وهو يقول :

ـ الأستاذ حسنى حجازى .

وقام عم عبده بدران ليستقبل القادم الذى أقبل بجسمه الطويل النحيل ورأسه الضخم رافلا فى بدلة بيضاء آية فى الأناقة . حيا الرجلين باسميهما واتخذ مجلسه على حين مضى عم عبده ليجيئه بالنارجيلة وزحف عشماوى ناحيته ليمسح حذاءه . ولأن حسنى حجازى هو زبون ما بعد منتصف الليل الوحيد ـ كلما سمح له الوقت ـ فقد نشأت بينه وبين الرجلين علاقة حميمة وحوار متبادل . والحق أنه يأنس إلى وقار عم عبده ـ فى الستين من عمره ـ ويعجب ببدلة عمله العتيقة وصلعته المستديرة الضاربة للاحمرار ، ونظرة عينيه الثقيلة الطيبة . وأيضا فهو يعجب كثيرا بعشماوى الذى لا يعرف له سن وإن قدره بما بين السبعين والثمانين ، ويثيره منظر هيكله الضخم الخاوى كحفرة متبقية من زمن الفتونة . ويحيى بكل إجلال صموده فى معترك الحياة رغم هوان الصحة والسمع والنظر وزوال المجد . وكان عم عبده يعنى بنارجيلة الأستاذ عناية خاصة . لا من أجل البقشيش فحسب ، ولكن لعلمه بأنها السر وراء زيارات الأستاذ للانشراح بالإضافة إلى حنينه إلى مسقط رأسه بشارع الشيخ قمر . والأستاذ حسنى فى الخمسين ولكنه يفيض بحيوية عجيبة ولم تشب له شعرة واحدة ، ويبدو أنه يسعد حقيقة بوجوده فى المقهى المتواضع بين صاحبيه وفى مناجاته الطويلة مع النارجيلة . وكالعادة بدأ الحديث بتبادل النيران فى الجبهة ، وتساؤلات عن الغد القريب والبعيد ، وكلمات رقيقة بقصد الاطمئنان على إبراهيم ابن عم عبده وغيره من المجندين من أهل درب الحلة موطن عشماوى . وكان يعتبر عشماوى نموذجا لجماهير غفيرة لا يتاح له الاتصال بها هى المتحمسة حقا للقتال بلا قيد ولا شرط ، وبلا خوف ، وبلا اكتراث للعواقب . وقال لنفسه : علام يخافون وهم لا يملكون إلا الكرامة والأسطورة؟ وقال لنفسه أيضا : إن المعذبين حقا هم

الوطنيون الصادقون. ولما فرغ عشماوى من مسح الحذاء اقترب عم عبده بدران من مجلس الأستاذ ومال نحوه قليلا وهو يقول:

ـ عليات ابنتى طلب يدها شاب من زملائها.

فانبعث فى صدر الأستاذ اهتمام حقيقى وقال:

ـ مبارك يا عم عبده.

فقال برضا وفى غير حماس:

ـ الستر مطلوب ولكن العريس ـ مثلها ـ لم يتوظف بعد!

ـ هكذا تجرى الأمور فى هذه الأيام.

ـ ولكنى رجل مثقل بالأعباء والابن الوحيد الذى أتم دراسته مجند فى الجبهة كما تعلم.

فقال حسنى حجازى بثقة:

ـ ابنتك متعلمة وهى تدرك ذلك كله، وماذا يقال عن العريس؟

فقال الرجل بامتعاض:

ـ على الحديدة. حال أبيه كحالى، وهو كاتب فى محل تجارى..

ـ جُنّد؟

ـ معفى لأنه وحيد أبويه.

ثم مستدركا:

ـ بقية ذريته بنات وإحداهن زميلة وصديقة حميمة لعليات.

وهنئ الأستاذ مليًا بتدخين النارجيلة ومضى يقول لنفسه إن النادل الطيب يعيش أيضا فى أسطورة، وإن الحقيقة خليقة بأن تصعقه، وإن أخلاقنا غير حقيقية وهى تقوم على الربح.

وقال لعم عبده:

ـ توجد فتيات ذكيات، يفضلن الاقتران بالكهول الأغنياء طلبا للاستقرار فى الحياة..

فهز الرجل رأسه فى حيرة وقال:

ـ لا أدرى.

ـ على أى حال فإن كريمتك ليست واحدة منهن.

ـ ربنا معها.

ـ فقال الأستاذ حسنى وهو يدارى بسمة ساخرة :

ـ آمين .

ـ فقال عم عبده بدران بحماس طارئ :

ـ عليات فتاة عالية الهمة ، سعت إلى الرزق حتى وهى طالبة ، واكتسبت نقودا لا بأس بها من الترجمة فاستطاعت أن تظهر فى الجامعة بالمظهر اللائق الذى لم يكن فى مقدورى توفيره لها . .

ـ فتاة عالية الهمة حقا . .

ـ ولكن هل ادخرت من النقود ما يكفى لتجهيز ولو حجرة واحدة؟

ـ هذه هى المسألة . .

ـ أما هى فلا يهمها ذلك على الإطلاق . .

فضحك حسنى حجازى وقال :

ـ جيل يستحق التحية والإكبار .

وسرحت خواطره إلى شقته الأنيقة بشارع شريف فقال لنفسه بأن الصراع الحقيقى فى هذه الحياة هو ما يقوم بين الحقائق والأساطير . وقال له عم عبده :

ـ سعادتك لم تفكر فى الزواج أبدا . . ؟

ـ أبدا .

ثم أشار إليه بسبابته محذرا ، وقال :

ـ ولم أندم على ذلك قط .

وتذكر كيف سأله صحفى فى ريبورتاج عابر بالاستديو ـ ضمن مجموعة من العاملين فى فيلم ـ سأله عن فلسفته فى الحياة ، وكيف بهت ولم يحر جوابا .

ـ ولكن أهو حقا بلا فلسفة؟!

٣

ثمينة جدا الساعات القلائل التى يقضيها إبراهيم عبده فى القاهرة . تأبطت شقيقته عليات ذراعه وهو فى بدلته العسكرية ومضيا يشقان الطريق وسط خضم هائل من البشر تحت فيض متدفق من الأضواء . وكان يشبهها لدرجة محسوسة ، بعينيه العسليتين خاصة ، ورغم ما بأنفه من فطس خفيف وما فى شفتيه من دسامة ، وما فى بنيانه من

متانة. وكان يلتهم كل شىء بحواسه، ويتلقى سيلا متواصلا من المشاعر، ويدخل أحيانا فى وجود غريب عابر بين الواقع والحلم، أو يتردد مع خواطره بين الواقع والحلم. وسألته أخته:

- كيف تجد الليلة صدمة الانتقال من باطن الأرض المزلزلة بالانفجارات إلى دنيا القاهرة الثملة بالصخب؟

وكانت تستعيد كلماته القديمة بالحرف، ولكنه أجاب بلا اكتراث:

- أصبحت عادة.

- وامتعاضك العتيد؟

فأجاب بنفس اللهجة:

- أصبح عادة أيضا.

ثم وهو يبتسم:

- الموت نفسه أصبح عادة يومية.

فسألته برقة وهى تتفادى من شاب ينطلق كالصاروخ:

- كيف تريد لنا أن نعيش؟

- لا أريد تغيير نظام الكون، أريد فقط أن أشعر بأننى أستقبل بين أصدقائى استقبال العائد من جبهة مشتعلة فى سبيل الدفاع عن الوطن.

فلاذت بالصمت فمضى وهو يقول:

- لا أعنى تكريما أو هتافًا. أطمع فقط فى شىء من الاهتمام والجدية.

- ولكن لا حديث للناس إلا الحرب!

- . . دون المستوى المطلوب. .

فقال بعد تردد:

- لهم بعض العذر!

- اللعنة . . مهما كان، مهما يكن، فالموت شىء حقيقى. . فضغطت على ذراعه وقالت:

- لا تسمح لشىء بأن يفسد عليك ساعة طيبة. .

- نتناول بعض الشطائر ثم نذهب إلى السينما.

فلم يعارض ولكنه قال:

- غريب أننى لم أعرف خطيبك مرزوق من قبل. .

ـ ألا يعجبك؟

ـ شكله لطيف ولكن أخته ألطف!

فنظرت إليه باهتمام وهما يقفان فى ظل عند مشرب قهوة على الناصية وتساءلت:

ـ سنية؟

ـ أجل، أظنها صديقتك؟

ـ جدا، سبقتنى بعام، وهى موظفة بالإصلاح الزراعى. الظاهر أنها أعجبتك؟

فقال بيقين:

ـ جدا..

فضحكت عليات وتساءلت:

ـ حب من أول نظرة؟

فقال ضاحكًا:

ـ أعتقد أنى نلت منها مائة نظرة..

ـ كل ذلك من وراء ظهورنا؟

ـ المهم..

ولما سكت تساءلت:

ـ المهم؟

ـ أهى لائقة كزوجة؟

ـ ما شروط اللياقة فى نظرك؟

ـ نحن كما تعلمين أسرة محافظة!

ـ أعترف بأنك متشبع جدا بأبى.

ـ تهمنى الأخلاق.

فلفتته إلى إعلان سينمائى فاضح يوشك أن يكون مضاجعة، وقالت محذرة:

ـ اخفض صوتك..

ـ أنت نفسك محافظة فى الناحية الأخلاقية على الأقل..

ـ أشكر لك حسن ظنك..

ـ والآن خبرينى؟

فقالت بضيق:

ـ ما أعرفه عنها يشهد بأنها ممتازة.

ـ لا أحب أن أقلق .

فضحكت ، ولكنها قالت بعطف :

ـ لا يجوز أن يقلق جندى لأسباب تجيئه من المدينة !

وانطفأت الأنوار بغتة كأنما ماتت بسكتة فغرق الطريق فى ظلام دامس . وهللت هتافات شابة مهرجة فى عبث ومجون ، وصرصرت آلات التنبيه بالسيارات . توترت أعصاب إبراهيم ، واجتاح رأسه أصداء أوامر خاطفة بالاستعداد والقبوع فى المواقع ، ولكن جاءه صوت عليات ناعما وهى تقول :

ـ تنطفئ الأنوار كثيرا لأسباب مجهولة .

فاسترد راحته ، وقبض على يدها فتراجع بها حتى لامس ظهراهما جدار المشرب ، وسألها :

ـ أيطول ذلك؟

ـ من دقيقة لساعة . وأنت وحظك !

وسرعان ما ألفت عيناه الظلام فرجع يسألها :

ـ بم تنصحيننى؟

ـ ننتظر حتى يعود النور .

ـ أعنى سنية !

فضحكت قائلة :

ـ سنية ! . . تزوجها إن كنت تحبها . .

ـ الحب ليس المشكلة !

فسألته ساخرة :

ـ بم نحكم عليك لو أخذنا بماضيك؟

ـ ليس الرجل كالمرأة !

فضربت الأرض بقدمها غيظا ولكنها لم تنبس ، فعاد يقول :

ـ لا تريدين أن تعطينى رأيا قاطعا . .

فقالت بحدة :

ـ قلت إنها ممتازة فتزوجها إن كنت تحبها .

ـ سأقابلها صباح الغد .

فضحكت عليات وتساءلت :

ـ لماذا يطفئون الأنوار إذا كانت أمهر المؤامرات تدبر فى رابعة النهار؟ !

٤

لم يكن الجو شديد الحرارة، ولكن أشعة الشمس تدفقت حامية لاسعة، وترامت تحت دفقاتها حديقة الأسماك عارية أو شبه عارية. وكانا أول قادمين. تمشيا بلا هدف وإبراهيم يقول لنفسه: مثل آدم وحواء، مثل آدم وحواء قبل الخطيئة، وابتسم لخواطره وهو لا يدرى فضبطت سنية ابتسامته وسألته بحياء:

ـ ترى ماذا يضحكك؟

فارتبك ثانيا، ولكنه قال:

ـ لأنى سعيد!

وبسط راحتيه لأشعة الشمس وقال:

ـ يوجد مجلس تحت الجبلاية.

وذهبا صوب الجبلاية تفعم أنفيهما رائحة نباتية تزفرها الأعشاب المخضلة برشاش الماء. وكانت متوسطة القامة أو دون ذلك بقليل فلم تجاوز قمة رأسها الكستنائى منكبه، ولكنها كانت متناسقة التكوين وذات عينين خضراوين صافيتين. وجلسا متجاورين فوق أريكة من جذع النخيل. قال:

ـ حضورك منة عظيمة.

فقالت ببساطة:

ـ لسنا غرباء فنحن أسرة واحدة.

وأضفى القبو على الجو قتامة، وجرت فى ثناياه نسمة رطيبة كحال الأماكن التى لا تزورها الشمس. وكانت أعينهما تكلمت كثيرا أمس فلم يشعرا فى جلستهما بغربة مطلقة. ولاحظ أنها تنظر إلى بدلته العسكرية بحب استطلاع فسألها:

ـ ليس لك أهل مجندون؟

فهزت رأسها بالنفى، فقال:

ـ إنها لا تمنع من التفكير فى المستقبل كأننا نعيش أبدا!

فقالت بعذوبة وحرارة:

ـ الأعمار بيد الله وحده.

فابتسم فى تسليم وارتياح. وقال لنفسه: لا يمكن اقتحام الموضوع بلا تمهيد،

ولا يجوز ـ فى ذات الوقت ـ أن يطول التمهيد ما دامت فرصة اللقاء لن تتجدد قبل شهر كامل إن وجدت أصلا! ولعلها حامت حول الأفكار نفسها، ولكنها وجدت مخرجا فقالت:

ـ الحياة هناك شاقة بلا شك.

وامتن لسماع ملاحظتها التى لا يسمعها عادة بعيدا عن نطاق أسرته فقال:

ـ فوق ما تتصورين!

ـ وكيف تتحملونها؟

فقال بصدق:

ـ أصبحت أومن بأن الإنسان يستطيع أن يعيش فى الجحيم نفسها وأن يألفها فى النهاية.

ثم نظر إليها باهتمام وقال:

ـ ولا يمنعه ذلك من التطلع إلى النعيم والسعادة.

فابتسمت، وتورد وجهها القمحى، وتبدت سعيدة، فقال لنفسه: إنها ليست طفلة ولا ممثلة، ولكنها قوية الشخصية والأخلاق، وسألته:

ـ ترى هل تقوم الحرب من جديد؟

فقال وكأنه لم يسمع سؤالها:

ـ علمت أنك غير مخطوبة!

ـ إذن فأنت تجرى عنى تحريات!

ـ لنا صديق مشترك، عليات..

ـ ولم تشغل بالك بما لا يهمك؟

ـ وهنأتنى على إعجابى بك.

ـ حقا؟

فقال بلهجة ذات مغزى:

ـ وتمت لى السعادة والتوفيق..

ومرت فترة صمت مفعمة بالرضا. واعتقد أنه اجتاز خطا هاما، وأنه اجتازه بنجاح، وأنه لم يضع دقيقة من وقته الغالى سدى. وقررت هى التهرب من نظراته فسألته:

ـ لم تجبنى عن سؤال هل تقوم الحرب من جديد؟

فقال وهو نشوان بعواطفه:

ـ تحدثت عن أشياء يقينية مثل إعجابى بك.

ـ ولكنك لا تعرف عنى شيئا . .

ـ القلب يعرف أكثر مما يتصور العقل!

فغمغمت ولكنه لم يسمع فسألها :

ـ ماذا تقولين؟ أنت لم تتكلمى بعد!

فقالت ببساطة وصراحة وبنبرة غير ملعثمة :

ـ أنا سعيدة!

فتجلت فى عينيه نظرة ممتنة، وتناول يدها بين يديه بحرارة وقال :

ـ فى المرة القادمة سنخطو خطوة حاسمة، وحتى يجىء ذلك الوقت سأحيا حياة غنية وجديدة رغم كل شىء . .

ـ حفظك الله من كل شىء . .

فقال بسرور :

ـ كسبت قلبا جديدا سيشعر بنا على نحو ما .

وتفكرت فيما يعنيه، وفطن هو إلى ما تفكر فيه فقال :

ـ يخيل إلىّ أن أحدا لا يشعر بنا سوى أهلنا!

فارتبكت، ثم قالت كالمعتذرة :

ـ إنها تجربة جديدة علينا، هذا هو الواقع، ولكن ماذا عما يجب أن يكون؟ ومن رأى الأستاذ حسنى أنها سياسة مرسومة . .

ـ من الأستاذ حسنى؟

ـ موظف كبير فى قسمنا بالمصلحة . .

ـ وماذا يعنى؟

ـ يعنى أنهم لا يريدون تعبئة الشعب للحرب إلا قبيل دخول المعركة .

ـ الحق أنى لا أفهم!

ـ ولا أنا، ولا يدعى أحد بأنه يفهم، هل ستقوم الحرب من جديد؟!

ـ فى الجبهة نؤمن بذلك .

ـ هنا لا نكاد نصدق!

ـ كيف ترون الأمر؟

ـ ممكن أن تسمع كافة المتناقضات . .

فضحك إبراهيم وقال :

ـ إنكم تودون أن تجدوا النصر يوما ضمن أخبار الصحف . .

وضحكت . وبالضحك أفلتا من حصار القلق فعادا إلى موعدهما تحت الجبلاية . وتبادلا نظرة اعتذار طويلة وحنونة .

٥

قام حسنى حجازى من مجلسه فوق الكنبة الاستديو . انطلقت قامته الطويلة وسط حجرة الجلوس كالمارد . فى شقته يجد راحة شاملة وإحساسا بالسيطرة على كل شىء . الدواوين والمقاعد تصلح للاضطجاع كما تصلح للجلوس . وأجهزة التسلية قائمة بالأركان وسط تهاويل الديكور . والتحف مصفوفة فوق الأرفف عارضة ألوانا من فنون اليابان وخان الخليلى . من أعماقه يشعر بأنها توثق علاقته بالدنيا وتدفع عنه غوائل الفناء . مضى إلى البار فملأ كأسين من الكوكتيل الذى يعده بيده بخبرة وأناة ثم رجع إلى وسط الحجرة فوضع كأسا فوق ذراع فوتيل على بعد قيراط من يد سنية . ولبث واقفا ثم حرك كأسه قائلا :

ـ فى صحتك . .

وأفرغ كأسه ثم قال :

ـ لم يعد غريبا على هذه الحجرة أن تشهد وداع الأحبة . .

فقالت سنية :

ـ أنت رجل كريم ، فى الحياة والحب . .

فقال متظاهرا بالاهتمام :

ـ من حسن الحظ أنى حصلت أخيرا على فيلم ممتاز لا تقل مدة عرضه عن ربع ساعة . .

فابتسمت سنية ولكن بلا حماس . وتذكرت كيف صرخت عند رؤية المشهد الأول من أول فيلم . كان ذلك منذ سنوات وكانت طالبة بالجامعة أو تلميذة بالثانوية . وكانت المفاجأة بالغة الإثارة والرعب . وقال بأسف :

ـ عليات انتهت ، خسارة فادحة . .

ـ إنها مخطوبة وتستعد للحياة الزوجية ، ماذا تتوقع؟

فقال فى دعابة :

ـ لا بأس من إباحة اللهو حتى الزفاف . .

فرمقته بعينيها الخضراوين وقالت بلهجة ذات معنى :

ـ فكرة الزواج تخنق المرأة من جديد . .

ـ كم من متزوجات ! . . .

فقاطعته :

ـ هذا موضوع آخر .

ثم وهى تضحك :

ـ ألا تريد للحب أن يحترم يوما أو بعض يوم؟ !

ـ حاولت إقناعها . .

ـ أهى مهمة حقا عندك؟

ـ العشرة عندى غالية دائما . .

فضحكت ساخرة هذه المرة وقالت :

ـ يخيل إلىّ كثيرا أن جميع النساء اللاتى يمررن من شارع شريف أنهن ذاهبات إلى شقتك أو راجعات منها . .

فقهقه حسنى حجازى وقال :

ـ جاحدة من تحدثها نفسها بالسخرية من هذه الشقة .

ـ أنت ترى أننى جئت بكل احترام لأودعها .

فهتف باسما :

ـ حتى أنت يا سنية!

فقالت بسرور :

ـ جاء دورى يا قيصر .

ـ حدثنى عنه أبوه ، إنه جندى ، أليس كذلك؟

ـ بلى .

ـ أقرأ فى وجهك الرضا .

ـ شاب لطيف وجذاب .

ـ وهكذا قررت هجر العش كصديقتك عليات!

ـ إنى أحب من يرغب فى الزواج منى !

وقال لنفسه : إن المرأة مثال الحكمة وإنها المخلوق الوحيد الذى يستحق أن يعبد ، ولكنه قال لها مداعبا :

ـ إذن فهى المصلحة . .

فقالت بعجلة واهتمام :

ـ لقد أحببته ، صدقنى . .

ـ أنت مصدقة ، ولكنى سآسف كثيرا لغيابك .

ـ لن تذوق فى هذه الشقة الوحدة أبدا . .

ـ ولكنها مكان عبور ليس إلا . .

ـ إنه شعار يصلح لأى مكان . .

فتراجع إلى الكنبة الاستديو ثم جلس . أغمض عينيه قليلا ، ثم قال :

ـ زرت الجبهة أخيرا ضمن وفد المصورين السينمائيين ، والتقطت صورا لبورسعيد شبه الخالية . هل سبق لك أن شاهدت مدينة خالية؟

ـ كلا .

ـ كالحلم المرعب!

ـ زرت بورسعيد يوم واحدا قبل الحرب .

ـ أما أنا فعشت فيها ثلاثة أسابيع ونحن نصور فيلم «فتاة فلسطين» منذ أعوام ، وهى تعيش وتنام كالمدن ، ولكنها تصحو فى أى ساعة من الليل لدى وصول أى سفينة ، وسرعان ما تخلق فيها الحياة بقوة وسرعة فتدب الحركة وتشع الأنوار وترتفع الحرارة ، وفى الأماسى تترامى من جنبات الميناء أغان شعبية غاية فى الفتنة . .

ـ ووجدتها شبه خالية؟

ـ ولم تمس بسوء بخلاف المدن الأخرى .

وصمتت قليلا ثم ساءلت نفسها :

ـ ترى هل تقوم الحرب من جديد؟

فهز رأسه قائلا :

ـ لن يتهيأ ذلك فى القريب ، ولن يشجعنا أحد عليه ، ولكن الصمود يوفر لنا أطيب شروط عقب هزيمة يونيو . .

ـ الجنود يريدون الحرب . .

ـ هذا طبيعى ، وكذلك الجماهير ، أما نحن فلا ندرى ماذا نريد . .

وتأوه قائلا :

ـ آه يا وطنى العزيز!

فقالت بمرارة:

ـ أما نحن فكفرنا بكل شيء . .

ـ أنتم أبناء الثورة وعليكم أن تحلوا مشاكلكم معها . .

ثم سألها مغيرا نبرته:

ـ كأس أخرى؟

فهزت رأسها نفيا فقال:

ـ قلت إني حصلت على فيلم ممتاز!

فتساءلت ضاحكة:

ـ أتذكر فيلم القسيس وبائعة الخبز؟

ـ هذا عن المرأتين ورجل، ثم ينقض عليهم رجل غريب جديد!

فسألته:

ـ لم لا تتزوج قبل أن يفوتك القطار؟

ـ ولكنه فاتني يا عزيزتي.

ـ توجد زوجة مناسبة دائما . .

ـ تكلمي بخير وإلا فاسكتي . .

فسألته بجرأة:

ـ هل تحترم حياتك؟

ـ لم أفكر في تقييمها بعد!

فقالت بامتعاض:

ـ ما يؤلمني أحيانا أنني سلمت ابتغاء شراء أشياء، وإن تكن ضرورية . .

فقال لها بعطف:

ـ المجتمع يقوم على الأخذ والعطاء فلا تتألمي . .

فضربت الأرض بقدمها الصغيرة وتساءلت:

ـ متى نرى الفيلم الجديد؟!

٦

وخيم الهدوء الشامل على مقهى الانشراح فلم يند عنه إلا قرقرة النارجيلة المتقطعة. وكان عشماوى يتناول عشاءه ـ رغيفا وطعمية ـ عند الباب، أما عبده بدران فجلس على مبعدة يسيرة من حسنى حجازى متحفزا للحديث أو لتقديم أى خدمة. وتساءل حسنى حجازى فى نفسه: كيف يواجه رجل مثل عبده بدران أعباء الحياة الفاحشة الغلاء بأسرته الكبيرة؟ كيف تتوازن ميزانيته المحدودة ولو اقتصر الطعام على الخبز، والكساء على مخلفات سوق الكانتو، والمسكن على بدروم؟ وأولاده مع ذلك تلاميذ فى المدارس، واثنان منهم ـ إبراهيم وعليات ـ أتما تعليمهما الجامعى، فأى معجزة تمارس فى غفلة من المؤمنين؟! وقال: إن ما ينفقه فى ليلة يكفى لإعالة أسرة بضعة شهور، ومع ذلك فهو لا يخلو من تذمر، وإذا مر شهران دون عمل فى فيلم طويل أو قصير تولاه القلق فماذا يكمن وراء نظرة عم بدران الثقيلة الهادئة؟! وأقنعته عليات بأنها تحافظ على المظهر اللائق بفتاة جامعية بفضل النقود التى تربحها من الترجمة فصدق الرجل الطيب، ولم يخطر بباله أن نقوده هو ضمن النقود التى تسهم فى تربية كريمته، آه! يوم عرف عليات عرف أنها كريمة عم عبده بدران، وداخله قلق، وشىء من مناقشة الضمير، ولكنه قتل وساوسه بعقله البارد. وقال: إنه لا يؤمن بذلك كله. ولم يتزعزع احترامه لعليات وقال عليهم اللعنة فهم يقبلون الضيم والظلم والاستعباد وينقلبون أسودا فاتكة فى وجه الحب واللهو.

وهمّ أن يسأل عم عبده كيف يواجه الحياة، ولكنه سرعان ما أقلع عن فكرته خشية أن يفسد عليه هدوء جلسة نصف الليل أو أن يشجعه سؤاله على استجداء مساعدة أو طلب سلفة. ولما طال صمت الأستاذ قال عم عبده بدران:

ـ تمت خطبة إبراهيم وسنية أخت مرزوق.

علم بذلك فى حينه فأتحف العروس بهبة مالية كما أتحف عليات من قبل. ولكنه قال:

ـ ليحفظ الله العريس ويسعد العروس.

ـ ناس طيبون وعلى قد حالهم مثلنا وهى موظفة بالإصلاح الزراعى!

فجاء صوت عشماوى من عند الباب قائلا:

ـ لا تعجبنى المرأة الموظفة!

فقال له عم عبده بدران:

ـ جميع بنات درب الحلة تلميذات والكبار منهن موظفات . .

فقال العجوز بسخرية :

ـ ولو !

ـ لو كانت لك بنت لتغير رأيك . .

فقال بفخار :

ـ أنجبت أربعة كلهم ذكور . .

ولكن حسنى حجازى يسمع لأول مرة عن أبناء عشماوى فسأله :

ـ ماذا يعملون يا عشماوى؟

ـ اثنان بين الخمسين والستين فى المذبح . .

ثم بفتور :

ـ الثالث قُتل تحت الترام ، والرابع فى السجن!

وصمتوا دقيقة إعرابا عن التأثر والتأمل ، ثم سأل الأستاذ حسنى عم عبده .

ـ وهل يتزوج إبراهيم فى أول فرصة أو يؤجل ذلك لوقت السلم؟

ـ هذا شأنه ، أنا أتمنى أن يتزوج اليوم قبل الغد ، ولكن متى تنتهى الحرب؟

ـ من يدرى يا عم عبده . .

ـ حقا من يدرى ، إنهم يعانون معاناة الأبطال . .

ـ هذا حق .

ـ ومع ذلك فلا يهتم بهم أحد . .

ـ كلا ، ليس هذا صحيحا ، المسألة أن الناس لم يتخلصوا بعد من مرارة الهزيمة . .

وجذب حديث الحرب عشماوى من الخارج إلى الداخل فجاء بهيكله الضخم وهو يقول :

ـ ولكن الله سينصرنا فى النهاية . .

فقال حسنى حجازى :

ـ قل إن شاء الله .

فقال عشماوى :

ـ كل شىء بمشيئته ، لابد أن نهزمهم وإلا فقل على الدنيا السلام .

فسأله حسنى :

ـ وإذا انتهى الموقف بحل سلمى؟

فهتف العجوز الأعمش :

ـ أعوذ بالله .

وأراد أن يدلل على قدرة الله فقال :

ـ ربك كبير ، أتصدق أننى ضاجعت الولية ليلة أمس مرتين؟

فذهل الأستاذ حسنى وهتف :

ـ مرتين؟ !

ـ وحق كتاب الله!

ـ عوفيت . . عوفيت يا عشماوى . .

ـ فلا تيأسوا من رحمة الله . .

وضحك حسنى عاليا ، ونظر صوب عبده بدران فأحنى رأسه مصدقا! وعاد عشماوى يقول :

ـ لم حصل ما حصل؟ . . لأننا خسرنا الدين والأخلاق!

وقال حسنى لنفسه : ولكن ما الأخلاق؟ . . أزمتكم الحقيقية أنكم فى حاجة إلى أخلاق جديدة!

٧

اكتظت ناصية الأمريكين فلا موضع لقدم . تلاصق الشبان تحت الأضواء وانحصر المارة بين الأجسام الحارة الفتية . وقل الكلام أو انعدم وحملقت الأعين وتحركت بعض السيقان بالرقص الخفيف . وثار سالك بحريمه فى عباب الزحام غضبا لكرامته الشخصية فيما بدا وصاح :

ـ اخجلوا من أنفسكم ، واذهبوا إلى الجبهة إن كنتم رجالا . .

ولم يخجل أحد فيما بدا أيضا . وتساءل صوت :

ـ لم يريد أن يرسلنا إلى الجبهة قبل الأوان؟

وقال صوت آخر ساخرا :

ـ لعله يظن أنهم يرسلون النساء والكهول!

وشبعت شلة من وقفتها فانسحبت من معسكرها ومضت إلى «جنيفا» فتجمعوا حول بضع زجاجات من البيرة . وجعلوا يشربون ويتكلمون كما يحلو لهم ، وغالبا بلا ضابط ولا نظام ، غير أن مرزوق أنور تولى مهمة ملء الأقداح وتوزيعها .

ـ مشكلة الجنس فى . . .

قاطعه :

ـ فى الجبهة مشكلة أهم .

ـ إنما أتكلم عن المشكلات الداخلية .

ـ دعه يتكلم ، المقاطعة ممنوعة .

ـ حدثنى أحد الكبار فقال إنه كان يوجد على أيامهم بغاء رسمى .

ـ زماننا أفضل فالجنس فيه كالهواء والماء !

ـ الماء لا يصل إلى الأدوار العليا .

ـ ولكنه يصل إلى الأدوار السفلى !

ـ ليس كالهواء والماء فالبنات تعلمن الاستغلال .

ـ إنها ضرورات العصر .

ـ البراءة تنهزم أمام السيارة مثلا .

ـ توجد دائما فرص طيبة .

ـ كما توجد الباصات .

ـ وحفلات الساعة الثالثة فى السينما .

ـ لا أهمية لذلك ، المهم هل الله موجود؟ !

ـ ولم تريد أن تعرف؟

ـ كان شغلنا الشاغل الوحدة العربية والوحدة الإفريقية .

ـ وما دخل ذلك فى وجود الله؟

ـ أصبح شغلنا الشاغل متى؟ وكيف نزيل آثار العدوان؟

ـ معى دقيقة واحدة ، أهو موجود؟

ـ كانت أياما مجيدة .

ـ كانت حلما .

ـ بل كانت وهما .

ـ ويضيقون بوقوفنا دقائق فى الناصية !

ـ الكلاب !

ـ إذا قدر لليهود أن يخرجوا فمن سيخرجهم غيرنا؟

ـ من يقتل كل يوم غيرنا؟

ـ ومن قتل عام ١٩٥٦؟ من قتل فى اليمن؟ من قتل عام ١٩٦٧؟
ـ يظن العجوز أن المحافظة على بنت نصف عارية هى كل شىء . .
ـ علينا أن نبدأ من الصفر . .
ـ أن تزاح عن صدورنا الكوابيس .
ـ لا أحد يريد أن يجيبنى ، أهو موجود؟
ـ طيب يا أخى ، إذا حكمنا بالفوضى الضاربة فى كل مكان فلا يجوز أن يوجد!
ـ أليس من الجائز أنه يملك ولا يحكم؟
ـ يكفى أن يكون المصريون من عباده لكى يملك ويحكم!
ـ أأنت شارع فى الزواج حقا؟
ـ نعم . خذ قدحك . .
ـ لماذا؟
ـ لأنى أحب .
ـ وما العلاقة بين هذا وذاك؟
ـ يجب أن نفعل شيئا على أى حال .
ـ بماذا نفسر تفشى الزواج المبكر بين الشبان؟
ـ بالفقر!
ـ بالموت!
ـ بنظام الحكم!
ـ سنضطر إلى الوقوف غدا من شدة الزحام .
ـ أليس من الأفضل أن نهاجر بدلا من أن نتزوج؟
ـ الزواج هجرة داخلية .
ـ الحق أنه يلزمنا شىء من انتهازية الأجيال السابقة .
ـ لا غنى عنها فى الزحام .
ـ إذن فلماذا يخشى العالم الحرب؟
ـ ليست الحرب بأفظع ما يتهدد العالم .
ـ أيوجد ما هو أفظع؟
ـ الفرد غير آمن تماما بين أهله ، والأسرة تخشى الجيران ، والوطن مهدد من أوطان شتى ، والعالم يحيط به عالم خفى من الكائنات الضارة ، والأرض قد يخربها

خلل بالمجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية قد تنفجر وتختفى فى ثوان.

ـ أنت مجنون!

ـ ولكن علينا أن نضحك وألا نسمح لشىء بأن يفسد علينا حياتنا الغالية . .

ـ آمين.

ـ آمين.

ـ آمين.

٨

ارتسمت فى وجه عشماوى صورة غير عادية. انغرست فى أساريره غضبة كالحة فولاذية انداحت فوق جفاف الشيخوخة وبروز الفكين وتهدل اللحيين. وعندما استقبل الأستاذ حسنى حجازى لم ينجل شعاع واحد للبشاشة فى وجهه حتى توجس الأستاذ خيفة مجهولة فقال ـ وهو يتخذ مجلسه ـ لعم عبده بدران:

ـ خير إن شاء الله؟!

وسمعه عشماوى فأقبل نحوه حتى وقف أمامه وتدفق قائلا:

ـ إنى ألعن كل شىء، وألعن فوق كل شىء نفسى، إنى ثائر على ضعفى وعجزى واندحارى فى صندوق القمامة بلا حول، ومن أنا؟! أنا عشماوى الخشن، صاحب القبضة الحديدية والنبوت المخضب بالدماء، أنا من يرتجف عند ذكر اسمه الرجال وتتوارى النساء ويستعيذ بالله منه رجال الشرطة، أنا المجرم الجبار الفتاك الطاغية السفاك النمرود الشيطان . .

واختنق بأنفاسه فقال حسنى حجازى بلين ودعابة:

ـ وكيف تشكو الضعف وأنت ذلك كله؟!

ـ إنى أحكى عن الماضى، عن الماضى أحكى لا الحاضر، افهمنى يا أستاذ، كنت رجل درب الحلة وحاميها، وكان الويل نصيب من يتعرض لأحد من أهلها بسوء، بفضلى نعموا بالسلام والأمان. بفضلى بغوا على الخلق وهم فى أمن من العواقب، كان اسمى قانونا وسيفا ونعمة وغنى وفقرا، ماذا جرى يوم اعتدى نذل من القبيسى على رجل من حارتنا؟ هجمت على الحى كالقضاء والقدر، لم أفرق بين متهم وبرىء، تهاوت الضربات على رءوس المارة، حطمت الدكاكين، احترقت عربات اليد، انهمرت الأحجار على النوافذ والأبواب، واسأل عنى

أيام سعد، ولا تسأل عن عدد ضحاياى، وقد عرفت بشارب الدماء منذ ذبحت إنجليزيا وشربت دمه المسفوح، هذا هو عشماوى الخشن!

فقال حسنى حجازى وهو يلعنه فى سره:

ـ تاريخك معروف يا عشماوى ولكن لم أنت غاضب؟!

ولكن العجوز لم يجب. ورجع إلى مجلسه عند الباب وغرق مرة أخرى فى الحزن والصمت. ونظر حسنى حجازى إلى عم عبده بدران فى فضول، فقال عم عبده بدران بإشفاق بلغ حد الخوف:

ـ أصيب شابان من أهل درب الحلة.

فقال حسنى باستنكار:

ـ ظننت أن أيام الفتونة والمعارك قد انتهت إلى غير رجعة.

فقال عبده بدران بوجه شاحب:

ـ أصيبا فى الجبهة!

فوجم حسنى حجازى، ثم تفكر فى كلمة مناسبة يقولها، ولكن عشماوى سبقه صائحا:

ـ قصدتنى جدة أحدهما مستغيثة بى كالأيام الخالية، ظنت الولية أن عشماوى ما زال كعهده القديم يستغاث به فيغيث!

فقال حسنى حجازى:

ـ إنهما بطلان يا عشماوى..

فقال الرجل بحنق.

ـ أنت لم ترهما ولم تر العنبر..

ـ زرتهما فى المستشفى؟

ـ زرتهما، رأيت وسمعت وشعرت بعجزى فلعنت كل شىء كما لعنت نفسى.

فقال حسنى بروح عالية وهو يقصد أولا عم عبده بدران:

ـ هما بطلان، وهكذا الحرب فى كل زمان ومكان.

فصاح عشماوى:

ـ إنى ألعن العجز..

ـ سليمة سليمة بإذن الله.

وقال عم عبده بدران ليبدد مخاوفه الشخصية بدعابة:

ـ وأنت يا عشماوى ألا تطالب دائما بالحرب والنصر؟

فتحول غضبه إلى حزن وهو يردد :

ـ الحرب والنصر ولكنى عجوز لا خير فيه!

ـ حسبك أنك شربت من دم الإنجليز فى شبابك!

ثم نظر عبده بدران إلى الأستاذ حسنى وقال :

ـ فى الثورة الأولى كنت دون السن اللازم للجهاد واليوم أنا فوق السن المناسبة للحرب فلم أفعل شيئا يذكر للوطن . .

ـ ولكن ابنك فى الجبهة ، خبرنى هل يؤلمك تصورك أنك لم تفعل شيئا؟

ـ أحيانا ولكن أعباء الحياة تغرقنى حتى القمة!

وتذكر حسنى أنه ذو موقف مماثل ، وأنه كان يحاسب نفسه فى أزمات تلم به ، وأنه كان يطفىء سعارها ببرودة العقل الخالدة ، وأنه أوشك أن يقنع نفسه بأنه يفتح شقته للأفراح البريئة والخير! وسأله عبده بدران :

ـ على أى وجه سينتهى الموقف يا أستاذ؟

فضحك حسنى عاليا وقال :

ـ السؤال الخالد! ماذا يمكن أن يقال؟ فلننتظر . .

ـ ولكن الموت لا ينتظر .

ـ إنه سباق ونحن لا نموت وحدنا!

وعند ذلك تساءل عشماوى :

ـ وهل أولاد الأغنياء يقتلون أيضا؟

فلم يتمالك حسنى نفسه من الضحك وقال :

ـ ولكن التجنيد لا يفرق بين غنى وفقير يا عشماوى . .

فهز رأسه فى ارتياب وعاد يسأل :

ـ وهل يرسلونهم حقا إلى الجبهة؟ قلبى يحدثنى بغير ذلك!

ـ لا تصدق قلبك يا عشماوى .

وعكف على النارجيلة . وقال لنفسه : إن جلسة الليلة خسرت هدوءها العتيد ، وإن الحزن فيها امتزج بالضحك ، وإن الهزيمة مرة وعواقبها تنتقل من مركز إلى مركز فى المخ ولكنها لن تمحى ، وإن جبلا شامخا انهار ، وتبدد حلم عجيب ، وإن خير ما يريح به نفسه أن يترك الأمانة لحامليها . وساءل نفسه وهو ينفث الدخان من فيه وأنفه : أين يجد مكانا لا يتردد فيه ذكر الحرب؟!

٩

جمعت الشرفة المطلة على النيل الصديقات الثلاث : عليات عبده وسنية أنور ومنى زهران . وكان الخريف يبث فى الجو برودة لطيفة ويزين سماء الأصيل بسحب ناصعة البياض . وقد لبت عليات وسنية دعوة عاجلة إلى مسكن منى بالمنيل فتوقعا أخبارا جديدة وسعيدة . وهن صديقات حميمات منذ الدراسة الثانوية ، وتمتاز منى بجمال رائق يتمثل فى بشرتها الضاربة للبياض وعينيها السوداوين الجذابتين وقامتها الرشيقة المائلة للطول ، كما تمتاز بأسرتها المتوسطة ذات الدخل الموفور ـ الأب مدير إدارة قانونية والأم ناظرة مدرسة متقاعدة باختيارها ـ فضلا عن أنها موظفة بالسياحة منذ عام . وكان لها شقيقان أحدهما مهندس فى بعثة بالاتحاد السوفيتى والآخر طبيب بالمنوفية ويتوقع اختياره فى بعثة قريبة ، ولذلك كانت طموحه تداعبها الأحلام ولا تستقر . وكان مسكن منى يذكر عليات وسنية بمسكن الأستاذ حسنى حجازى رغم الفارق المحسوس بينهما ، ولكن الحسد لم يتسلل إلى نفسيهما بفضل العلاقة الحميمة الحارة . وقد توقعتا أخبارا جديدة وسعيدة ، ولكن منى قالت باقتضاب مثير :

ـ فسخت خطوبتى قبل أن تعلن !

انزعجت الفتاتان حقا ، وقالت عليات :

ـ غير معقول !

وقالت سنية :

ـ أى خبر !

وكانت منى قد قدمت لهما ـ منذ شهر ـ فى دار الشاى الهندى شابا يدعى سالم على ، قاض بمجلس الدولة ، باعتباره الصديق والخطيب المنتظر . ولذلك توقعتا من وراء الدعوة العاجلة أخبارا جديدة سعيدة لا هذا الخبر الأسيف . وقالت سنية وهى تهز رأسها هزة ذات معنى :

ـ وطبعا كنت أنت البادئة ؟ !

فقالت منى بتحد :

ـ ظنك صادق دائما معى !

ـ ولكنه شاب جذاب وذو مركز يا منى ؟

وقالت عليات :

ـ وكان واضحا أنه يحبك وأنك تبادلينه الحب؟

عند ذلك تململت من الضيق وربما من عاطفة لم تستطع بعد أن تقتلعها من أعماقها، فثبت لهما أنها دعتهما لحاجتها إلى الأنس والعزاء، ولكنها قالت بنبرة لم تخل من حدة:

ـ عرفت عن يقين أنه يقوم بتحريات عنى!

وساد الصمت حتى قالت سنية:

ـ أهذا ما أخذته عليه؟

ـ وهو كاف وفوق الكفاية.

فقالت عليات:

ـ أراهن على أنه فعل ما فعل بحسن نية!

ـ أنا لا أتهمه بسوء النية ولكن بسوء العقلية أتهمه..

ثم مستدركة بانفعال شديد:

ـ ولم أتردد فواجهته بالتهمة، تلعثم وحاول أن يفسر سلوكه بغير بواعثه الحقيقية، ولكنى رفضت تفسيره وطالبته باحترام نفسه فاعترف واعتذر بسخافات لا أذكرها ولا أحب أن أذكرها فلم أقبل عذره، وقلت له: ولم لا تسعى إلى الزواج عن طريق خاطبة؟ وسألته عما يريد معرفته عنى أكثر مما يعرف أو مما يمكن أن يعرف بالاتصال المباشر وبالحب المزعوم قال: إنه برىء وإنه يحبنى، وإن سمعتى نقية مثل الورد فضحكت ساخرة وقلت له: إنى أحتقر تحرياته وأحتقر النتائج التى وصل إليها وإنه خدع أو إنه لم يحسن التحرى. وقلت له: ماضىّ ملكى وحدى كما أن ماضيه ملكه وحده وإننى أرفض كافة أنواع العبودية فى أى زى تزيت وبأى اسم تحلت، وأنه لا يصلح لى كما لا أصلح له..

وسكتت وهى تلهث والغضب يرتعش فى شفتيها ويدلهم فى عينيها. وبدا أن صديقتيها لا تؤيدانها فى موقفها وإن شاركتاها فى الإحساس والرؤية. تساءلت عليات:

ـ ألم تبالغى يا منى؟

وقالت سنية:

ـ هى تقاليد بلادنا!

فهزت منى رأسها بعناد وقالت:

ـ إنى أرفض ذلك كله..

فقالت سنية:

ـ إنهم معقدون ويحتاجون إلى ترويض طويل.

وقالت عليات وكأنما تتم الكلام :

ـ لا إلى التحدى . .

فقالت منى بعجرفة :

ـ أفضل أن أبقى بلا زواج إذا كان الثمن كذبة سخيفة وجراحة دنيئة!

فقالت عليات :

ـ ولكن ظروفنا حرجة كما تعلمين . .

ـ لا يمكن أن أتهاون فى مبادئى وأخلاقى .

أجل فهى معروفة بأخلاقياتها . وهى لم تمارس الجنس إلا بدافع من الحب ، ولم تضطر ـ مثلهما ـ إلى ممارسته فى أحيان كثيرة لاقتناء ما يحتاجان إليه من ملابس وأدوات زينة وكتب . ولعلها كانت تحتقر سلوكهما وإن عطفت عليه من أعماق قلبها المحب . وقد تابعت خطوات خطوبتهما وما اقتضته من شهادات الزور والأكاذيب وغير ذلك ، ولم ترتح لشىء منه وإن تعزت بأن جميع تلك السخافات إنما ارتكبت باسم حب حقيقى . وكانت محاولة إثنائها عن موقفها ميئوس منها لما تعرفان من عنادها وكبريائها ومثالياتها ، فسلمتا بالواقع فى حزن وكآبة . وقالت لها عليات :

ـ أنت يا منى جميلة وممتازة وجديرة حقا بزواج سعيد!

فسألتها منى :

ـ ترى هل تطمئنان إلى مستقبلكما القائم على كذبة كبيرة؟

فقالت سنية :

ـ إنه يقوم على الحب .

أما عليات فقالت بقلق :

ـ إن رجلا مثل حسنى حجازى خليق بصون سرنا .

فقالت منى :

ـ حسنى حجازى لا نتوقع منه الخيانة .

فعادت عليات تقول :

ـ أحيانا أتذكر المصادفات المرعبة التى تقلب الأمور فى السينما!

فقالت سنية بقوة متحدية :

ـ لم يكن فى وسعنا أن نفعل خلاف ما فعلنا وعلينا أن نواجه مصيرنا .

وفجرت الزيارة فى نفس عليات وسنية دوامات من القلق ، ولكن استقر فى أعماقهما فى النهاية قول سنية : «علينا أن نواجه مصيرنا» .

١٠

لم تسعد منى بانتصار كبريائها . أو لم تسعد كما قدرت . وفى أوقات انفرادها بنفسها غزتها الكآبة كالغبار . خافت أن ترتكب حماقات بلا نهاية . اعترفت لنفسها المتمردة بأنها ما زالت تحب سالم رغم حماقته وسخافاته . أدركت أنها تقف حيال مشكلة وأن المشكلة تتطلب على أى حال حلا . وجاء شقيقها الدكتور على زهران إلى القاهرة فى إجازة فسرت بحضوره وقصت عليه تجربتها الفاشلة . وأسف الرجل ولكنه كان مستغرقا بهموم طارئة فقال لها :

ـ إنى أفكر فى الهجرة!

فدهشت منى وتمتمت :

ـ الهجرة؟!

ـ الحق أنى جاوزت مرحلة التفكير فاستقر رأيى على الهجرة .

ـ ولكنك تنتظر فيما أعلم بعثة علمية؟

ـ لم ألق إلا المماطلة ، ففكرت فى الهجرة ثم استقر رأيى عليها .

ـ وكيف يتم لك ذلك يا أخى؟

ـ إنى على وشك الانتهاء من بحثى عن الطفيليات وسوف أرسله إلى زميل مهاجر بالولايات المتحدة ليعرضه على الجامعات وبعض المراكز الطبية ومن ثم أنتظر أن أدعى للعمل فى إحداها ، وهو ما حصل معه بالضبط . .

فشهقت بقوة من شدة الانفعال وقالت :

ـ أهاجر معك!

ثم بثقة :

ـ إنى متخصصة فى الإحصاء وأتقن الإنجليزية .

فابتسم الدكتور وقال :

ـ لئن نهاجر اثنين خير من أن أهاجر وحدى . .

وعارض الوالدان الفكرة ، ولم يدركا لها حكمة ما دام للشقيقين مستقبل مرموق فى مصر ، فقال الدكتور لوالديه :

ـ البلد بات مقرفا .

وقالت منى :

ـ وهو لا يطاق .

وأراد الأب أن يستثير عاطفتهما الوطنية ، ولكن الدكتور على قال بجرأة عدها الأب قاسية :

ـ لم يعد الوطن أرضا وحدودا جغرافية ، ولكنه وطن الفكر والروح !

وتألم الأب الذى ينتسب إلى جيل ١٩١٩ ، جيل الوطنية المصرية الخالصة ، واستمع إلى ابنه بانزعاج فخيل إليه أنه يطالع ظاهرة غريبة تستعصى على الإدراك والتفسير . وكان يسلم بأنه لا يستطيع أن يثنيهما عن عزم إن اعتزماه فتساءل فى جزع : كيف يمكن أن يحتمل الحياة بدون وجودهما معه فى وطن واحد على الأقل؟ وكانت منى تحب أباها كثيرا ، ولكنها لا تكاد تتفق معه فى رأى ، وعجبت كيف أن هزيمة ٥ يونيو فجرت وطنيته من جديد فعادت سيرتها الأولى على حين أنها منيت بخيبة شاملة تدفعها باستمرار إلى تغيير جلدها خلية خلية . وهو ما حصل لعليات وسنية وغيرهما وما حصل لشقيقها . وقالت مخاطبة الدكتور :

ـ إننا نحيا بلا هدف !

فقال لها بامتعاض :

ـ وأنا أحيا بلا حياة . .

ـ يجب أن نهاجر .

ـ سنهاجر عند أول فرصة .

واعتبرت منى نفسها سائحة عابرة فشعرت براحة نفسية لم تشعر بها منذ قطعت علاقتها بسالم على . وسرعان ما ذاع الخبر بين صديقاتها وزميلاتها وفى الأوساط التى تنتقل فيها . وراحت تحلم بحياة جديدة نقية توفر للفرد سبل التقدم والازدهار والأمن . وكانت عائدة من مكتبها عصرا عندما وجدت أمامها سالم على فى ميدان طلعت حرب . لم تكن مصادفة ، ولم يحاول ادعاء ذلك ، ولكنه مد لها يده وهو يقول :

ـ علمت أنك ستهاجرين إلى الولايات المتحدة فعز علىّ ألا أودعك . .

فصافحته ببرود أخفت به انفعالها وقالت :

ـ أشكرك .

ومضت فى سيرها فسار إلى جانبها فرمقته باحتجاج ، ولكنه تجاهلها فعادت تقول :

ـ قلت أشكرك !

فقال بهدوء :

ـ ولكنى لن أتركك .

فسألته بالبرود نفسه :

ـ لماذا؟

فقال وكأنه يعترف :

ـ وضح لى أنى أحبك وأننى لم أستطع الإقلاع عن الحب .

ووجدت أنها سعيدة لدرجة فاضحة فغضت بصرها وهى تقول :

ـ ولكننى وفقت فى ذلك . .

ـ إذن فلنذهب إلى دار الشاى الهندى .

وسارا جنبا لجنب وقد انقلبت أحلامها رأسا على عقب ، فقال وهو يتنهد فى ارتياح :

ـ الحب أهم شىء فى الدنيا!

ثم بارتياح أعمق وشى بما عاناه من عذاب :

ـ أى والله ، الحب أهم شىء فى الدنيا ، وكل ما عداه باطل . .

ونظر إليها متسائلا :

ـ هل ستهاجرون حقا؟

فأجابت بفتور :

ـ نعم . .

ـ ليتنى أستطيع الهجرة أيضا .

فسألته باسمة :

ـ وماذا يمنعك؟

ـ تخصصى لا يؤهلنى لها .

ثم وهو يضحك :

ـ لامفر من البقاء فى مصحة الأمراض العقلية .

١١

فى قرار واحد أصبح مرزوق أنور وخطيبته عليات عبده موظفين فى الحكومة . تعينت هى فى وزارة الشئون الاجتماعية . أما هو فتعين فى المنطقة التعليمية ببنى سويف .

تكدرت فرحة التعيين وأطل شبح الفراق على الحبيبين وتساءلا : كيف يجتمع شمل عروسين واحدة فى القاهرة والآخر فى بنى سويف؟ وذهب مرزوق إلى محطة مصر فصحبه أبوه وعليات، وجلسوا حول مائدة فى البوفيه حتى يأزف ميعاد قيام قطار الصعيد. كان الأب فى الستين ولكنه بدا أكبر من عمره بعشرة أعوام على الأقل، وكان ممن يأخذون الأمور بتسليم وبساطة، كما كان يعتبر ابنه من «المفقودين» على أى حال سواء أبقى فى القاهرة أم رحل إلى أسوان. لذلك شجعه طيلة الوقت، وضرب له مثلا بحياته هو فى الثلاثينيات ـ سنوات الأزمة الاقتصادية ـ عندما تقاذفته بلدان القطر والإفلاس يطارد التجار ويصفى المحال التجارية واحدا بعد آخر. ومالت عليات نحوه وسألته همسا :

ـ أتعرف ذلك الرجل الذى يجلس أمامنا؟

فنظر نحو الأمام فرأى رجلا جالسا، يدخن غليونا، ويتفحصه بنظر ثاقب غير هياب فقال على الفور :

ـ كلا.

لم يكن يعرفه ولكن خيل إليه أنه لا يراه لأول مرة، فمتى رأى هذا الوجه شبه المربع الريان، وهاتين العينين البراقتين، وهذين الحاجبين الكثيفين، وهذا الرأس القوى الأصلع؟

وهمست عليات مرة أخرى :

ـ إنه لم يحول عنك عينيه طوال الوقت.

ولابد أنه يريد أن يحولهما عنه بعد أن تنبه إلى نظراته. ولم يقنع بذلك فقام بهدوء وتقدم خطوات ثم وقف أمامهم، وأحنى رأسه تحية وقال يقدم نفسه :

ـ محمد رشوان. . . مخرج سينمائى.

فقام مرزوق أنور بدوره، أحنى رأسه وقال :

ـ مرزوق أنور. . موظف. تشرفنا يا فندم.

فسأله وهو يواصل فحصه :

ـ أليس لك تجربة سابقة فى فن التمثيل؟

فأجاب مرزوق بدهشة :

ـ كلا!

ـ ألا تحب أن تجرب نفسك؟

فضحك مرزوق رغم توتر أعصابه وقال :

ـ لم يخطر لى ذلك ببال .

فقال وهو يهز رأسه هزة خبير :

ـ عندى لك دور بطولة . .

فهتف مرزوق فى ذهول :

ـ بطولة !

ـ كنت مشغول البال بحثا عمن يلعبه فلما وقعت عليك عيناى وجدت ضالتى ماثلة أمامى ، فما رأيك ؟

فقال مرزوق بصوت متهدج :

ـ أمهلنى قليلا .

وقال الأب :

ـ إنه فى طريقه لتسلم وظيفته الجديدة !

وسألته عليات :

ـ هل يضمن بهذا الدور عملا ثابتا ؟

فقال محمد رشوان :

ـ عندى له أكثر من دوربطولة وأنا أتنبأ له بالنجاح . .

فقالت عليات :

ـ ولكنه لم يسبق له أن مارس التمثيل . .

ـ هذا أفضل ، سيخرج من تحت يدى كالجنيه الذهبى !

وكان رأس مرزوق قد دار وثمل فقال متخذا قراره :

ـ موافق . .

فقال له أبوه :

ـ فكر قليلا يا بنى .

ولكنه قال بإصرار :

ـ موافق وسأجرب حظى . .

وأعطاه محمد رشوان بطاقته وهو يقول :

ـ تقابلنى غدا فى هذا العنوان فى العاشرة صباحا ، عندك تليفون ؟

فهز مرزوق رأسه نفيا فقال :

ـ ودورك جديد فى الواقع ، دور شاب جامعى مجند ، يزور القاهرة فى إجازة قصيرة فتقع له أحداث هامة ، وتحبه سيدة مجهولة الجنسية وتدعوه للهرب معها .

فتساءل مرزوق :

ـ وهل يهرب معها؟

ـ هذا ما سيجيب عنه الفيلم ، والمهم أن تبقى الحال على ما هى عليه حتى يعرض الفيلم . .

ـ أى حال تقصد؟

ـ أقصد الموقف فى الجبهة . .

فسأله الأب :

ـ وهل تتوقع أن يتغير الموقف قبل ذلك؟

ـ المنتج يؤكد أن الموقف سيبقى على ما هو عليه أعواما . . ، أما . .

فتساءل مرزوق :

ـ أما؟

فضحك محمد رشوان وقال :

ـ أما إذا انهزمنا مرة أخرى أو حتى إذا انتصرنا فستكون العواقب وخيمة على الفيلم وصاحبه!

١٢

التقى مرزوق بالسيدة المجهولة الجنسية . كانت تطارده وهو لا يدرى ولكنها تظاهرت بالبرود وسألته سؤالا عابرا . . وأجابها بأدب وبلا اهتمام أولا ، ثم جذبه بغتة جمالها المضىء فصعق تماما . وكان يرتدى بدلته العسكرية وتتجلى البراءة فى عينيه .

ووقف وراء الكاميرا ضمن نفر من المراقبين عليات عبده وسنية أنور ومنى زهران وإبراهيم عبده وسالم على . حتى التنفس مارسوه بحذر فساد الصمت وشمل كل شىء . ولم تدب الحياة إلا تحت الأضواء الباهرة داخل البلاتو . ولما أعلن محمد رشوان انتهاء اللقطة خرج الممثلان من دورهما وردت الروح إلى الواقفين وراء الكاميرا فقالت منى زهران :

ـ إنه ممثل أصيل .

وقال إبراهيم عبده :

ـ شىء لا يصدق!

وعبثا حاولت عليات إخفاء توتر أعصابها والفرحة التى انطلقت فى حنايا قلبها . وأقبل مرزوق نحوهم فصافحهم وعانق إبراهيم . ووقف أمام إبراهيم فى زى عسكرى واحد يتبادلان النظر والابتسام . وقالت عليات مخاطبة أخاها إبراهيم :

ـ إنه يلعب دورك فى الفيلم!

وتفحصه إبراهيم بعناية وقال :

ـ ولكنك أنيق كضابط .

فقالت سنية ضاحكة :

ـ لأنه يمارس الحب لا القتال .

فسأله إبراهيم :

ـ وهل يمتد دورك إلى الجبهة؟

فأجاب مرزوق :

ـ أجل ، قرأته فى السيناريو ، وهو يصور بطولة خارقة . .

فضحك إبراهيم ولم يعلق بحرف . وجاء المخرج محمد رشوان فصافح الجميع . وكان قد عرف عليات وسنية من قبل فتعرف بمنى زهران وخطيبها سالم على . وكان يتفحص الوجوه كما يتفحص الصائغ الحلى . واقترب من إبراهيم وقال له :

ـ سنحتاج إليك فى بعض المعلومات الضرورية . .

فتساءل إبراهيم ضاحكا :

ـ تقصد بعض الأسرار؟ !

ـ كلا . . إنما ما يسمح بتصويره . .

ـ ليس كل ما يسمح بتصويره مما يحسن تصويره!

فقال محمد رشوان :

ـ إنما هدفنا أن نحيى بطولتكم!

ثم التفت إلى منى زهران وسألها :

ـ ألا توافقين على ذلك؟

فهزت رأسها بالإيجاب . ثم عاد إلى إبراهيم وقال :

ـ كلنا جنود ولكن تختلف الميادين!

فضحك إبراهيم بفتور وقال :

ـ ولكننا نقاتل وأنتم تمثلون!

وضحك الجميع . وأزف وقت تصوير لقطة جديدة فذهب مرزوق ومحمد رشوان . وعند ذاك قالت منى زهران :

ـ هذا المخرج لا يوحى بالثقة !

فقالت عليات :

ـ ولكنه ذو فراسة مذهلة ومقدرة خارقة .

فلوت منى شفتيها وقالت :

ـ إنى على خلاف الكثيرين أحترم الأفلام الهزلية . .

فسألها سالم على :

ـ لماذا يا عزيزتى؟

ـ هى على الأقل صادقة !

فضحك إبراهيم فى مرح صاف لأول مرة وقال :

ـ صدقت .

ثم همس فى أذن سنية خطيبته :

ـ كدت أفقد حياتى أمس مرتين !

فقبضت على كفه بحنان وهمست :

ـ لا سمح الله !

وعكست عيناها الخضراوان نظرة ساهمة . وسألت عليات منى بمرح عابث :

ـ متى تهاجرين؟

فأشارت منى إلى سالم وقالت :

ـ هذا الرجل هو المسئول عن فشل المشروع .

فقالت له عليات :

ـ نحن مدينون لك بالشكر .

فقالت منى :

ـ الهجرة على أى حال سنة !

فسألها إبراهيم :

ـ ولو كانت إلى الولايات المتحدة؟

فأجابت بتحد :

ـ ولو كانت إلى الجحيم !

١٣

فى زيارة طارئة تلاقت عليات وسنية مع منى زهران فى مسكنها بالمنيل. لم تكن زيارة عادية، أو هذا ما قرأته منى فى عينى صديقتها. وقالت عليات:

- لدينا رسالة مهمة..

فأثار ذلك حب استطلاعها إلى أقصى حد وتساءلت:

- أى رسالة؟.. وممن؟

- من مرزوق أنور!

- الفنان الكبير؟!

فقالت سنية:

- محمد رشوان المخرج يرغب فى مقابلة خاصة..

فذهلت منى واتسعت عيناها ولم تدر ماذا تقول، فقالت عليات:

- إنه يفتح لك دنيا الكواكب والنجوم..

وقالت سنية:

- وإن أردت الحق فكأنك خلقت لذلك..

وتفكرت منى وهى فى غاية الانفعال، وتمتمت:

- لم يجر لى ذلك فى خاطر.

فقالت عليات:

- ولا كان جرى فى خاطر مرزوق.

- أود أن أستأنس برأيكما..

فقالت عليات:

- جربى حظك بلا تردد.

وقالت سنية بتوكيد:

- بلا تردد.

- ولكننى لم أجرب هذا الفن من قبل.

فقالت سنية:

- الحب قد يسبق الفن وقد يلحق به، لا أهمية لذلك..

وفى الساعات القلائل التى تلت المقابلة جعلت تفكر فى الأمر فاجتاحتها فكرته ووقعت أسيرة لسحره. وتلفنت لسالم على أن يقابلها فى دار الشاى الهندى ولما أخبرته بما اعتزمته ذهل الشاب وصعق وقال:

ـ لا شك أنها دعابة!

فقالت بتوكيد:

ـ بل إننى أعنى ما أقول تمامًا.

فهتف بيأس:

ـ ممثلة سينمائية!

فقطبت متسائلة:

ـ ولم لا؟!

فقال بغضب:

ـ لا!

ـ ولم تعجبها لهجته وأشعل غضبه كبرياءها فقالت:

ـ لا أقبل هذه اللهجة..

ـ وأنا أرفض الفضيحة!

ـ فضيحة؟! أنت.. أنت...

فقاطعها بحدة:

ـ لقد قبلت من أجلك ما لا أستطيع تجاوزه بخطوة أخرى واحدة..

فصاحت:

ـ أنت تمن علىّ بذلك!

ـ إنى أعنى تماما ما قلت..

فاصفر وجهها وقالت بانفعال شديد:

ـ كفى.. كفى.. أرجوك.. لا ترنى وجهك بعد الآن!

فقام وهو يقول:

ـ أنت معقدة ومجنونة!

وفسخت الخطوبة للمرة الثانية.

واستجابة لانفعالها الشديد، فضلا عن رغبتها الأصلية، سعت إلى مقابلة محمد رشوان. زارته بصحبة مرزوق أنور، فى مكتبه بشارع عرابى. ورحب بها بحرارة وجلس إلى مكتبه وهو يقول:

ـ إنهم يسموننى يا آنسة منى كولمبس لكثرة ما اكتشفت من نجوم وكواكب، ولم تخب نظرتى مرة واحدة فأبشرى مقدما بالنجاح . .

فأشار مرزوق إليه وقال لها :

ـ إنى أومن بهذا الرجل!

وعاد محمد رشوان يقول :

ـ إنى أرشحك لبطولة فيلم أعتز به جدا، هل تغنين؟

فأجابت بحياء :

ـ كلا .

ـ لا يهم، ممكن الاستغناء عن الغناء ولكننى لن أفرغ للفيلم الجديد قبل ستة أشهر . .

فقال مرزوق :

ـ وهى فرصة لإجراء الاختبارات الضرورية والدعاية اللازمة .

ـ برافو مرزوق، وإذن فقد تم الاتفاق على كل شىء . .

وعقب مرور يومين على المقابلة استدعاها المخرج تليفونيا إلى مكتبه . وفى ذلك الاجتماع الذى اقتصر عليهما التقط لها بعض الصور الفوتوغرافية، وأجرى لها بعض الاختبارات الصوتية كما دعاها إلى تمثيل موقف درامى من أحد أفلامه . وطيلة الوقت شجعها بابتسامة لطيفة فآنست إليه وخفق قلبها بالامتنان . غير أنها لم ترتح إلى نتائج الاختبارات رغم تشجيعه الودود . ومالت إلى الاعتقاد بأنها لم تخلق لهذا الفن وأن أى اجتهاد تبذله فيه مصيره الضياع . ولم تخف عنه مخاوفها فقالت :

ـ إنى غير راضية عن نفسى . .

ـ هذا بالحرف ما قالته فتنة ناضر عن نفسها فى أول اختبار .

فعاودها شىء من الأمل فى صورة ابتسامة حلوة، فقال :

ـ وفتنة ناضر فى الأصل جامعية مثلك وهى اليوم جوهرة غالية فى دنيا الفن!

وتعددت اللقاءات وتكررت الاختبارات . ومضى أكثر الوقت فى أحاديث عامة عن الفن والحياة . ولاحظت منى أن الأمية تغلب على تفكيره رغم شهرته ونجاحه وأنه كان يمكن استساغته بشىء من التساهل لولا غروره الهرمى الذى لايحتمل . ولاحظت أيضا أنه يعجب بها أكثر مما يعجب بفنها . بل باتت تؤمن بأنه لا يكترث لفنها على الإطلاق وأن المسألة من أولها لآخرها مجرد شرك . وعند ذاك تجمعت فى صدرها أبخرة الغيظ والغضب وخيبة الأمل . ولما قال لها وهو يظن أنه آن له أن يمد يده لجنى الثمرة :

ـ جو المكتب غير مناسب لهذه الأحاديث الطلية فأنا أدعوك للعشاء!

لما قال لها ذلك أدركت ما يعنيه وهى تشعر بالغثيان. أما هو فاستمر يقول:

ـ يجب أن ترى عشى الخلوى بالعامرية!

وأحست بأنفاسه المشبعة بالتبغ وهى تتردد على خدها فثار غضبها ولطمته على وجهه!

تراجع فى وقفته حتى استقام عوده، وتحجرت نظرته وانتفخ خداه بالغضب، وبسرعة هوى على خدها بكفه الغليظة فترنحت وتهاوت على الأرض. وصاح بها:

ـ تظنين أنك امرأة لا يجوز مسها فى عرف اللياقة العصرية، يا خنزيرة يا بنت الخنزيرة!

قامت مشعثة الشعر ورأسها يدور وهى لا تصدق فصاح بها مرة أخرى:

ـ اخرجى يا عاهرة وقصى هذه القصة على أمك..

ما زال رأسها يدور وتناولت حقيبتها، وسوت شعرها، ومضت نحو الباب، وصوته يتبعها قائلا:

ـ دعوتى للعشاء ما زالت قائمة، وتحياتى لأمك!

١٤

ثار سالم على ثورة جامحة تخطت جميع الحدود. صمم على نبذ منى واحتقارها، واعتبرها فتاة مجنونة، وأن من حسن حظه حقا أنه عرفها على حقيقتها قبل أن يتورط فى الزواج منها. ولم يقتنع شقيقه الأصغر حامد بثورته فقال له:

ـ مازلت تحبها يا أخى.

فصاح بغضب:

ـ أبدا، وسوف تعرف ذلك بنفسك.

وكان حامد يحب شقيقه ويؤمن بأنه يفهمه، فقال:

ـ أنت يا أخى برجوازى ويناسبك الزواج البرجوازى!

فتضاعف غضب سالم وقال:

ـ عيبكم الأساسى هو تعلقكم بالمصطلحات، انتظر وسوف ترى..

فقال له بإشفاق:

ـ إن مركزك القضائى...

ولكنه قاطعه :

ـ انتظر وسوف ترى . .

وعاد إلى بؤرة قديمة كان هجرها مذ عرف منى زهران . ذهب إلى ملهى «مركب الشمس» بالهرم وهو نصف ثمل . وانزوى فى الحديقة رغم برودة الجو وطلب من النادل أن يدعو سميرة لمشاربته . وسميرة كانت صديقته ، وهى راقصة من الدرجة الرابعة ترقص ضمن مجموعة فى خلفية المسرح عندما يغنى مطرب بالملهى . وهى فى الخامسة والثلاثين ، وبها مسحة جمال ، وجسمها أجمل من وجهها ، ورخيصة الثمن نسبيا ، وقد دهشت لعودته عقب غياب استمر أكثر من نصف عام ، فتظاهرت بغضب لا أساس له ، وقالت له :

ـ رجعت يا خائن . .

وراحا يشربان . ولاحظت أنه ـ بخلاف عادته ـ يشرب بإفراط . وكانت ترتاح إليه ؛ لأنه مهذب ، ولأنه يملك سيارة صغيرة ، وأخيرا لأنه كريم . وقالت له ضاحكة :

ـ أنت تشرب كالوحش .

فقال لها :

ـ سأنتظرك آخر الليل .

ومع أنها رحبت بذلك فى أعماقها إلا أنها قالت متسائلة مع رغبة فى تأديبه :

ـ كلا . .

وتبادلا نظرة طويلة ، ثم قالت :

ـ مرتبطة الليلة . .

فهتف بضجر :

ـ كلا . .

ـ كلا !

ـ كيف حال بنتك الصغيرة ؟

ـ مع أمى كما تعلم .

فأفرغ كأسه وقال :

ـ عندى فكرة لا بأس بها . .

ـ فكرة ؟ !

فتريث قليلا لأنه شعر رغم سكره بأنه مقدم على أخطر خطوة يتخذها فى حياته . وغضب لتريثه فقال :

ـ أرغب يا سميرة فى أن نعيش معا!

فتفكرت قليلا ثم تمتمت :

ـ فيها قولان!

ـ ولكنك لم تدركى مقصدى!

ـ أعتقد أنه واضح .

فقال وهو يركز عينيه فى كأسه :

ـ أريد أن أتزوج منك!

فطالعته بإنكار، ثم قالت بحدة :

ـ أنت سكران!

ـ بل رجعت إليك لتحقيق ذلك .

فجعلت تنظر إليه فى ريبة فقال :

ـ ما قولك؟

ـ أفق!

ـ الليلة إن أمكن!

ثم وهو يتناول يدها :

ـ ستبقى الصغيرة عند والدتك، ولكنى سأرتب لها مصروفا معقولا، لست غنيا ولست فقيرا . .

فتساءلت بدهشة :

ـ أنت جاد حقا؟!

ـ هيا بنا فى الحال إن شئت . .

فضحكت وسألته :

ـ ماذا جعلك تقرر ذلك؟

ـ أريد أن أستقر، أستقر مع امرأة معقولة بلا خداع، فهل أنت على استعداد لنسيان الماضى وبدء حياة جديدة؟

فضحكت ضحكة عصبية وقالت :

ـ لا يوجد مأذون مستيقظا فى هذه الساعة . .

فقام وهو يقول :

ـ لا أهمية لذلك ما دام سيستيقظ فى الصباح الباكر . .

١٥

كان الدكتور على زهران يرنو إلى شقيقته منى بحزن . كان باطنه يغلى ولكن لم يبد فى وجهه إلا الحزن. قال لها :

ـ أنت يا منى فتاة ممتازة وأنا لا أتصور ذلك .

فقالت بأسى :

ـ لننس ذلك .

ـ ولكنى أشعر باللطمة فوق وجهى !

ـ خير من ذلك أن تحدثنى عن مشروع الهجرة . .

ـ الهجرة !

ثم بفتور :

ـ الإجراءات طويلة ولكنى أنتظر .

ـ لا أريد أن أبقى فى هذا البلد يوما آخر .

فقال وباطنه ما زال يغلى :

ـ عيبك أنك شديدة الحساسية ، ما كان يجب أن تقطعى رجلا مثل سالم على فى لحظة غضب . .

فقالت بنبرة تشى بالدمع النابع من جذورها :

ـ لا أريد أن أبقى فى هذا البلد يوما آخر . .

ـ رجل ممتاز ويحبك .

ـ دعنا من تلك السيرة . .

ـ إننى أتساءل أحيانا : لماذا نعتبر أنفسنا على حق دائما؟

فقالت باسمة :

ـ لأننا على حق . .

ـ الهزيمة زلزلتنا . .

ـ ونورتنا . .

ـ أتسمحين لى بالاتصال بسالم على؟

فانتترت قائمة فى فزع وقالت :

ـ كلا .

ـ فكرى قليلا .

ـ كلا .

ـ ألا تريدين أن . . .

فقاطعته بحدة :

ـ أريد أن أهاجر .

وهز منكبيه ثم ودعها وغادر البيت . مضى إلى صيدلية واتصل تليفونيا بمكتب المخرج محمد رشوان سائلا عنه فكان الجواب أنه يعمل فى ستديو مصر . وحاول الاتصال بالاستديو ولكن الرقم ظل مشغولا فاستقل سيارته وانطلق بها بسرعة إلى الاستديو . وهناك ـ وكانت الساعة العاشرة مساء ـ علم بأنه غادر الاستديو وأخبره موظف أنه ذهب إلى «جاميكا» لتناول العشاء . ووجه سيارته إلى جاميكا بالطريق الصحراوى . ومضى يجوب حديقتها ويتفقد البهو ولكنه لم يعثر له على أثر . وقال له المدير : إن الأستاذ لم يحضر بعد فمضى يتمشى أمام المطعم . وحوالى الحادية عشرة وقفت سيارة فى الموقف أمام المطعم وتركها رجلان فأشار البواب إلى أحدهما وقال للدكتور على :

ـ ها هو الأستاذ محمد رشوان . .

كان يتقدم مرزوق أنور بخطوات ، ويسير على مهل وهدوء وفى خيلاء بجاكتته الجلدية الطحينية وبنطلونه الكحلى . اتجه الدكتور على زهران نحوه فى هدوء أيضا على ضوء المصباحين المغروسين فى أعلى المدخل فالتفت الرجل إليه فى غير اهتمام ، ولعله توقع أن يسمع كلمة إعجاب أو اقتراح من نوع ما يتصل بعمله . ودون أن يتفوه الدكتور بكلمة ركله فى بطنه بكل قوة عضلاته وأعصابه . انطلق من فم محمد رشوان خوار . حملقت عيناه . ثم تهاوى ساقطا على وجهه . حدث ذلك بسرعة خاطفة حتى ذهل مرزوق أنور فتجمد كتمثال . وخرج من ذهوله صائحا :

ـ أنت مجنون؟وأقبل البواب مهرولا ، وتجمع بعض سائقى السيارات . أحاط بعضهم بالدكتور على وانحنى الآخرون على الأستاذ الملقى وصاح الدكتور على زهران يخاطب الرجل الملقى أمامه :

ـ أنا شقيق منى زهران يا وغد . .

فانقض عليه مرزوق أنور حتى قبض على عنقه وهو يهتف :

ـ أنت مجنون . . لن تفلت من يدى . .

فنزع يديه بغضب وهو يصيح :

ـ إنه وغد يستحق التأديب . .

وارتفع صوت من بين العاكفين على الرجل الملقى وهو يقول :

ـ مات الرجل . . اقبضوا على القاتل !

١٦

ذهبت منى برفقة أبيها إلى مكتب الأستاذ حسن حمودة المحامى بشارع صبرى أبو علم . وقد تذكره الأستاذ زهران فى محنته لا لزمالة قديمة فحسب ، ولكن لاعتقاده بأنه أحد ثلاثة يعتبرون قمما كمحامين جنائيين . وكانت حجرة مكتبه واسعة وفخيمة . فاستقبلهما بقامته المديدة ووجهه الأسمر الغامق وعينيه المشعتين ، ثم رحب بالأستاذ زهران ، ووقفت عيناه ـ ثوانى ـ شبه مبهورتين عند منى قبل أن يدعوهما للجلوس ثم جلس .

وشرع الأستاذ زهران فى قص قصته وسرعان ما قاطعه الأستاذ حسن :

ـ أهو ابنك؟ . . لم يخطر لى ذلك على بال؟

ومضى الرجل فى قصته التى أصبحت قضية حتى فرغ منها وهو يتنهد ، فقال الأستاذ حسن :

ـ البقية منشورة فى الصحف !

ثم وهو ينظر إلى منى مجاملا :

ـ من المؤسف أن قتل من يستحق القتل من غير جهة اختصاص يعتبر جريمة !

فقالت بصوت ضعيف مقهور :

ـ لم أتصور أن ينتهى الأمر بمأساة طاحنة . .

ـ ثمة مأساة معقولة ومأساة لا معقولة .

ـ وأخى لم يعرف عنه يوما أى ميل للعدوان .

ـ لو كان خبيرا فى العدوان لما تورط فى جريمة غير مقصودة . .

وطلب منها أن تقص القصة التى بدأت بها المأساة فقصتها عليه بتفاصيلها . سألها :

ـ هل يوجد شهود؟

ـ كنا وحدنا فى حجرة مكتبه .

وتساءل الأستاذ زهران :

ـ وهل من مبرر لادعاء الباطل عليه؟

فقال الأستاذ حسن حمودة باسما :

ـ أنت أدرى بدقة القانون . .

فقالت منى :

ـ واضح أنه لم يقصد قتله .

ـ يجب أن أطلع على ملف القضية أولا ، غير أن المنشور فى الصحف يدل على أن الدكتور كان يسعى للقاء القتيل ، وأنه بحث عنه فى ستديو مصر كما بحث عنه فى مطعم جاميكا ، ثم انتظره ، ثم كان ما كان . .

ـ ولكن هل يكفى هذا لإثبات أنه قتله عن تعمد وإصرار؟

ـ كلا ، ولكن ترى هل أصابه فى مقتل؟

ـ حتى لو كان ذلك صحيحا فلا شك أنه وقع مصادفة . .

ـ ولكننا مطالبون بإثبات أى رأى نرتئيه ، ولا تنسى أنه دكتور ، وأنه ـ فى نظر المحكمة ـ خبير بالمقاتل!

وغشى الظلام عينى الفتاة فعاد يقول ملاطفا :

ـ ولكن حول ذلك سيتركز نضالنا ، وعلينا أن نثبت أنه ضرب أفضى إلى القتل . .

فتساءلت وهى تنهار تماما :

ـ والأمل؟ . . ألا يوجد أمل؟

فقال الأستاذ بصوت رنان :

ـ طبعا! . . وهو أمل كبير . . والله المستعان!

وعاشت منى الأيام التالية فى الجحيم . ولم تكد تفارقها عليات وسنية . وكانت تقول :

ـ حتى لو برئ من القتل المتعمد فقد قضى على مستقبله . .

ولم توجد كلمة صالحة للعزاء فمضت تصرخ :

ـ علىّ اللعنة! . . أنا المسئولة عن كل شىء .

وسعت إلى لقاء شقيقها فى السجن . وبكت بحرارة وجنون . ومن عجب أنها وجدته هادئا مستسلما . وقال لها :

ـ كفى عن البكاء يا منى فلا جدوى منه .

فقالت وهى تنتحب :

ـ ولكنى السبب اللعين . .

فقال بهدوء :

ـ أنت معتدى عليك ، وكان طبيعيا أن تفضى إلىّ بحزنك ، كما كان طبيعيا أن أغضب . .

وغمغم بكلام لم تدركه ، ثم قال :

ـ ثمة خطأ أعمى لا أدرى عنه شيئا ، قتل الرجل وقضى علىّ . .

ـ أنا الخطأ الأعمى يا أخى . .

ـ هو أقوى منك ومنى ، كفى عن البكاء . .

ـ ليتك لم تغضب يا أخى !

فقال بضجر :

ـ ولكنى غضبت ، وعلىّ أن أواجه المصير . .

١٧

عهد بالفيلم إلى المخرج أحمد رضوان فأتم المراحل الباقية منه محافظا ما أمكن على أسلوب محمد رشوان . وحظى مرزوق أنور بإعجاب المخرج الجديد لدرجة لم يتوقعها فبعثت فيه روح الأمل من جديد . وكان أحمد رضوان مخرجا ناجحا غزير العقود ، عرف فى ميدانه بسرعة الإنجاز مع الإتقان وحسن التوفيق لدى الجماهير فانفتحت أمام مرزوق أبواب العمل . وقال له أحمد رضوان :

ـ أنت فنان موهوب ، وسأجعل منك الخليفة الحق لأنور وجدى . .

فاهتز مرزوق طربا وحلم بالمجد فعاد يقول له :

ـ ولكن لا تجمد نفسك فى نمط ، النمطية مفيدة ولكن المرونة خير وأبقى ، المرونة التى أعنيها أن تمثل الشيء ونقيضه ، الطيب والشرير ، ولك البطولة فى الحالين . .

وتنهد فى حزن وقال :

ـ لم يكن كذلك رأى المرحوم محمد رشوان .

ثم وهو يهز رأسه فى أسى :

ـ كان لطيفا وراح هدرا ! أنت تقول إنك تعرف منى شقيقة القاتل ؟

ـ معرفة سطحية جدا، ولكنها صديقة شقيقتى وخطيبتى.

ـ أتصدق ما ادعته فى التحقيق؟

فهز منكبيه وقال:

ـ سمعت همسا يقول إنه كانت علاقة جنسية توجد بين القاتل والقتيل.

فذهل مرزوق وقال:

ـ ولكن المرحوم.. أعنى أننى لم أسمع عنه...

فقاطعه:

ـ ما علينا، سيكشف التحقيق عن الحقيقة، الله يرحمه، لا يجوز أن يذكر بسوء وهو بين يدى الله!

وكانا يجلسان بمطعم الاستديو فانضمت إلى مجلسهما فتاة بلا استئذان فقدمه إليها ثم قدمها قائلا:

ـ فتنة ناصر، نجمة جديدة مثلك، ولكنها لمعت فى سماء الفن منذ عام..

وكان مرزوق يعرفها من صورها، كما علم بعلاقتها الخاصة بأحمد رضوان عن طريق المرحوم محمد رشوان. وكانت ذات جمال خاص لا يدرك من أول وهلة ولكنه نافذ الأثر. خيل إليه أنه يوجد قدر من عدم التناسب بين قسماتها ولكن جاذبيتها طاغية. وجسمها يميل للصغر فى جملته ولكنه فى حدوده ملىء ورشيق وجنسى إلى أبعد الحدود. وكان أحمد رضوان فى الخامسة والخمسين، والدا لفتاة متزوجة من موظف فى السلك الدبلوماسى وشاب مهندس فى بعثة فى الاتحاد السوفيتى. واتسم غرامه بجنون الكهولة. وفتنة فى الأصل جامعية، ومعروف فى الوسط أنها عشيقة لثرى عربى يدعى الشيخ يزيد، فرش لها شقة فى الدور العشرين بعمارة النيل، ولم يكن يزور القاهرة إلا فى مواسم أو عابرا، وقال له أحمد:

ـ فتنة موهبة سخية وستعمل معها فى الفيلم القادم..

وربت يدها بحنان وقال مخاطبا مرزوق:

ـ ومن مزاياها أنها شقيقة ضابط شهيد فقد فى حرب يونيو..

وعرض فيلم مرزوق فحقق نجاحا ملحوظا. أما هو شخصيا فاعترف به كفنان موهوب وتنبأ له أكثر من ناقد بمستقبل باهر.

وتعاقد معه أحمد رضوان على ثلاثة أفلام فاستقرت الأرض تحت قدميه وعزم على الزواج من عليات فى أقرب فرصة. وعندما اشترك مع فتنة ناصر فى تمثيل أول الأفلام المتعاقد عليها شعر بأنها توليه عناية خاصة، فتلقى ذلك بحذر شديد حرصا على علاقته

الطيبة بأحمد رضوان. وكانا ـ مرزوق وفتنة ـ يستريحان فى حديقة الاستديو بين فترات التصوير حين سألته:

ـ أحق ما يقال عن زواجك؟

فأجابها بطيبة:

ـ فى أقرب فرصة.

ـ مبارك مقدما.

ثم مستدركة:

ـ ستكون أول وجه جديد متزوج.

ـ أجل..

ـ ولكن ألا تحتاج إلى حرية مطلقة وخاصة فى البداية؟!

ـ طالت مدة الخطوبة وليس ثمة ما يبرر التأجيل.

فسكتت قليلا مستسلمة لبرودة الليل، ثم سألت:

ـ وهل خطيبتك من الوسط الفنى؟

ـ كانت زميلة جامعية وهى الآن موظفة بالشئون الاجتماعية.

ـ أعتقد أنها مطالبة بحكمة سقراط لكى تسعد معك.

ـ يا لها من مبالغة!

ومشيت قليلا حتى غابت فى الظلام تماما ثم عادت إلى منطقة النور وهى تقول:

ـ توجد فرصة لإنشاء شركة بيننا!

فدهش مرزوق وتساءل:

ـ شركة؟!

ـ ليس بالمعنى التجارى، أعنى ثنائية ناجحة..

ـ سمعت ذلك من الأستاذ أحمد وسعدت به..

ـ فعلينا أن نتحمس لثنائيتنا!

ـ بكل سعادة من ناحيتى..

ـ لى الثقة كل الثقة فى رأى أستاذى أحمد..

ورمته بزهرة بنفسج كانت تفرها بين أصبعيها وذهبت. اضطرب مرزوق. اجتاحته عاطفة سعيدة وآثمة. تذكر عليات فيما يشبه الاعتذار والندم.

١٨

بدا حسنى حجازى جادا أكثر من المألوف. وقف فى حجرة الجلوس ينظر باهتمام وإشفاق إلى منى زهران. ولم تكن تبادله النظر، عيناها السوداوان شبه مغمضتين مستسلمة إلى مسند الفوتيل الكبير كالنائمة، تعلوها الكآبة، وقال لنفسه: إنها الصديقة الوحيدة التى لم تستسلم لنزواته. والتى لا تستسلم إلا للحب. وهو يذكر كيف زارته أول مرة وهى طالبة بصحبة عليات وسنية مسوقة بحب الاستطلاع، وكيف شاهدت أفلامه الجنسية المثيرة ولكنها لم تنزلق رغم الإثارة، فلم تهبه أكثر من الصداقة وكف هو منذ زمن بعيد عن مطالبتها بمزيد. قال:

ـ دعوتك لأنى شعرت بأنك فى حاجة إلى صديق فى محنتك..

فجرت على شفتيها ابتسامة خفيفة إعرابا عن شكرها فعاد يقول:

ـ دعوتك من قبل ولكنك لم تلبى!

ـ كنت فى غاية الحزن.

فمال نحوها قليلا، وقال بحنان:

ـ على أى حال احمدى ربنا، حسن حمودة محام قادر وقد أنقذ عنقه من المشنقة!

فقالت بأسى:

ـ ولكنه سيقضى فى السجن عشر سنوات، وخسر مستقبله إلى الأبد!

ـ قضاء أخف من قضاء.

فقالت بعصبية:

ـ وأنا المذنبة الحقيقية!

ـ ماذا كان بوسعك أن تفعلى؟ ما فعلت إلا أن شكوت همك لشقيقك..

ـ لن يهون قولك من شعورى بالإثم..

ورفع الرجل كأسا بيده إلى فيه، ثم نظر إلى كأس موضوعة على ذراع الفوتيل على كثب من يدها كأنما يدعوها إلى الشراب، وتراجع خطوات حتى استند إلى حافة البار، ثم قال:

ـ فكرى فى الهموم من حولنا تهن عليك همومك.

ـ لا أظن.

فابتسم متسائلا :

ـ مصممة على الحزن؟

ـ لست حزينة ، إنى أعيش حياتى ولكن بلا طعم!

فهز رأسه الضخم وقال :

ـ قد يعرض لى عارض حزن ، أتدرين كيف أعالجه؟ أتذكر آلاف القتلى وما يخبئه الغد من احتمالات ، وسرعان ما يهون علىّ حزنى . .

فرفعت منكبيها فى وجوم ولم تنبس ، فقال :

ـ وهزتنى ثورة الطلبة من الأعماق ، ثم تذكرت أننا قد ندفن تحت الأنقاض فى أى لحظة . .

فهتفت بحدة مباغتة :

ـ هناك ما هو أدهى وأمر وهو أننا نعيش فى الحقيقة على التسول . .

فضحك حسنى عاليا وقال :

ـ يا له من تعبير صادق ومثير!

ـ لم ضحكت عاليا؟

ـ صدقينى أننى لم أضحك ضحكة واحدة من قلبى منذ ٥ يونيو!

ثم مستطردا :

ـ هى مجرد أصوات يا عزيزتى منى .

ـ كيف يهنأ بعض الناس بالنوم؟

ـ إنهم يضعون على أعينهم نظارات التاريخ السحرية فتتجلى لهم رؤية أخرى . .

ـ ألا ترى تلك النظارات عشرات الألوف من الضحايا؟

ـ كلا ، ولكنها ترى ما هو أخطر!

ـ أأنت جاد فيما تقول؟

ـ كل الجد .

ـ إذن فأنت راض؟

ـ لست من صانعى التاريخ فنظرتى رهن بضعف بصرى وهى مليئة بالشجن والعبث .

وولاها ظهره ليملأ الكأس من جديد فتناولت كأسها وشربت حتى النصف ، ثم تحول نحوها قائلا :

ـ اشربى ، يلزمك ثلاث كئوس على الأقل .

فابتسمت لأول مرة وقالت :

ـ بك حنين ملحوظ إلى الوطنية فهل قمت بواجبك؟

فصب الشراب فى جوفه دفعة واحدة، ثم قال :

ـ فى مثل سنى يكفى أن أحمل الكاميرا وأزور الجبهة لأقوم بواجبى!

ـ ثم ترجع إلى بيتك السحرى!

ـ هنا أنتهب لذات عابرة بدافع الذعر والحزن.

ـ سعداء هم الكهول!

ـ ما أتعس البلد الذى يحسد فيه الكهول على كهولتهم!

وتبادلا نظرة طويلة لا تخلو من عذوبة، ثم قال :

ـ دعوتك لأسليك فانظرى . . .

فقاطعته بهدوء :

ـ الأستاذ حسن حمودة يرغب فى الزواج منى!

فذهل حسنى حجازى ، صمت مليا ، ثم هتف :

ـ إنه يماثلنى فى السن!

فهزت رأسها نفيا وقالت :

ـ إنه فى الأربعين!

ـ أراهن على أنك ستوافقين!

ـ لم تتوهم ذلك؟

ـ ربما احتجاجا على الحب الذى أعطيته أعز ما تملكين ثم لم تجنى منه إلا التعب . .

فقالت بنبرة ساخرة :

ـ سالم على تزوج من مومس!

ـ لم يعد لهذه الكلمة من معنى!

فتساءلت وهى تتنهد :

ـ أليس من المضحك أن يفعل اثنان بنفسيهما ما فعلنا وهما يتبادلان الحب؟

ـ اشربى كأسك وتزوجى من حسن حمودة فلا خير فى أن تبقى وحيدة لتجترى أحزانك حتى تقتلك . .

وحدثها حديثا مطولا عن حسن حمودة وأسرته الصعيدية العريقة وأرضه التى صفيت فى الإصلاح الزراعى ونبوغه فى المحاماة، ثم سألها :

ـ هل شاهدت آخر أفلامى؟

فضحكت على حين اتجه هو نحو غرفة العرض.

١٩

كانت جلسة واجمة لا تبشر بخير.. ها هى قهوة الانشراح عقب منتصف الليل ولكنها لا تعد بمسرة واحدة. دخن حسنى حجازى نارجيلته فى صمت شامل. اختلس من عبده بدران نظرة فرآه غارقا فى الأفكار. وفى الركن تحت النصبة قرفص عشماوى وهو يرسم على البلاط خطوطا وهمية بإصبعه. وقال لنفسه: ليلة ثقيلة وسيكون لليالى المقبلة طعم العلقم.. والتقط عبده بدران نظرة من نظراته فقال:

ـ وهكذا ألغيت الأفراح!

فقال حسنى حجازى مواسيا:

ـ تأجلت لا ألغيت!

ـ ربنا يسمع منك!

ـ ربنا كبير يا معلم عبده.

فقال عبده بدران بأسى:

ـ لما لم يحضر فى ميعاده دق قلبى بعنف، وقبل ذلك رأت أمه حلما فظيعا..

ـ بسيط بإذن الله!

ـ من أدرانى؟ لم يسمح لى فى زيارته بأكثر من دقيقة، لم أر منه شيئا، اختفى الوجه والرأس والعنق تحت الشاش تماما!

ـ إجراء طبى ليس إلا!

فتنهد الرجل وقال:

ـ وكنا نستعد للاحتفال بزواجه هو وأخته عليات.

ـ سيتم الاحتفال بعد أسبوع أو بعد شهر!

وساءل حسنى نفسه: ترى أهذا هو حال الآباء والأمهات فى جميع الأمم أم أنه توجد شعوب أخرى مشبعة بروح القتال والجهاد؟ وهل زيف التاريخ حكاية البطولات فلم تصلنا على حقيقتها؟ أهو عيب فينا أم هى الطبيعة البشرية فى كل زمان ومكان؟ وإذا كان ذلك كذلك فكيف أمكن سوق الجماعات البشرية إلى حرب فى أثر حرب؟! ما أعظم

الفارق بين صورة التضحية فى جريدة يومية أو كتاب تاريخ أو ديوان شعر وبينها فى مقهى أو بيت أو حارة! ومع ذلك لم يقبل البشر على امتهان مهنة وهى كره لهم مثل الحرب!

ورفع عشماوى رأسه من فوق ركبتيه وقال:

ـ نحن مساكين يا أستاذ.

فصدق عبده بدران على قوله قائلا:

ـ أجل، نحن مساكين.

فقال حسنى:

ـ ماذا أقول لو كنت شابا لوجب أن أتحمس للحرب؟!

فقال عشماوى:

ـ بتر ساقا ابن جارتنا!

ـ هى الحرب يا عشماوى، ووطنك محتل!

فقال العجوز بغضب:

ـ أود عندما أرى شخصا ضاحكا أن أبصق على وجهه!

ـ ماذا تظن؟ الحرب تشدناخطوة فخطوة، وإذا استعر لهيبها فلن ينجو من نارها مخلوق، فى الجبهة كان أم فى داره.

وساءل نفسه مرة أخرى: ماذا يقول الرجل لو علم بما يدور فى مسكنه الخيالى؟ اللعنة. ماذا تريدون؟ لم يبق على النهاية إلا القليل. والحياة عزيزة وحبها معقول. وأنت يا مصر عزيزة وحبك لا معقول! لا شك أنه توجد نقطة فى العلو تذوب فيها الفوارق وتنمحى الانفعالات المهلكة، وتنغص عليه صفوه تماما. وحكم على نفسه بالغباء والحماقة. وقال إنه ما زال ينقصه قدر مخيف من الغباء والحماقة ليكون من عظماء التاريخ. شعلة الحياة والجنون والغموض الخلاق.

وقال عشماوى:

ـ من العدل أن تتوزع المصائب بالمساواة الحقة.

ـ صدقت.

وقال عبده بدران:

ـ أنا لا أفهم!

فرمقه حسنى بنظرة استفهام فقال:

ـ أيام الكروب تتتابع كالمطر..

ـ نحن قلب العالم فماذا تتوقع؟

ـ الاحتلال، الاستقلال، ١٩٥٦، اليمن، ١٩٦٧، الاحتلال!

فقال وهو يدارى ضجرا بدأ يزحف :

ـ غدا يخلق وطن جديد!

ـ قلبى غير مطمئن!

ـ لأنك راجع من المستشفى بعد التأهب للاحتفال بفرح!

ـ آه يا بلدى!

فقال عشماوى :

ـ بلد الأولياء والصالحين!

ثم بعنف استرد به بعضا من وحشيته القديمة :

ـ يا عرب!

وقال حسنى لنفسه للمرة الثالثة : ما أشق ما تطالبنا به الحياة، الضعف والقوة، الحماقة والحكمة، النعومة والخشونة، الجهل والعلم، القبح والجمال، الظلم والعدل، العبودية والحرية، وأين أنا من هذا كله؟! لا همة ولا موقع يصلح للعمل ولا بقية من عمر، ولكنى أحبك يا مصر فمعذرة إذا وجدتنى مع حبك أحب الحياة فى ساعات وداعها الحمقاء!

٢٠

وقفت السيارة أمام عش سقارة. غادرها فى وقت واحد الأستاذ حسن حمودة ومنى زهران. مضيا إلى خميلة فى الناحية الجنوبية من الحديقة فجلسا تحت مصباح خافت يرسل نورا أزرق من خلال أوراق اللبلاب. جميلة كعادتها ولكن ثبتت فى أعماق عينيها نظرة حزينة. وكان يعتبر أنه تخطى العقبات الأساسية فتبدى مرحا بقامته الطويلة وبشرته العميقة السمرة وثقته بنفسه التى تلازم حركاته وسكناته. ونظر إليها طويلا. وجعل يبتسم وكأنما يدعوها إلى الابتسام أيضا. وقال وهو يتنفس بعمق هواء الليل المعبق بروائح نباتية :

ـ المكان هادئ، بعيد عن الدنيا، ينتمى إلى عالم آخر.

فهمست :

ـ نعم.

وشعرت بأنها جاوزت الحد فى الاعتراف بالسعادة فاستدركت:

ـ ولكنا نحمل فى قلوبنا هموم العالم الأول.

ـ لك نصيب موفور من الهموم، ولكنك لست أتعس من على سطح الأرض، هل تدركين معنى خسارة ألف فدان فى ثانية واحدة؟ ومصرع أب مهيب بأزمة قلبية، وتلويث سمعة أسرة كبيرة كريمة شاركت فى حياتنا الوطنية منذ الثورة العرابية؟

وترددت وقتا قبل أن تتساءل:

ـ ترى ألا تعلم بأننى لا أعد صديقة للإقطاع؟

فابتسم بسماحة وقال:

ـ لا يدهشنى ذلك بطبيعة الحال فأنت من جيل الثورة، ولكن لعلك لا تعدين نفسك عدوة لثورة الطلبة؟

ـ هذا أمر مختلف!

ـ ليكن، ولنعد إلى همومك الحقيقية، فأقول لك ألا ذنب عليك مطلقا!

ـ ولكننا كما ترى، أما هو . . .

فقاطعها بقوة:

ـ أكرر ألا ذنب عليك . .

وأدنى وجهه حتى انعكس الضوء الخافت على جناحى أنفه وقال:

ـ ستظل القبور مكتظة وكذلك المستشفيات ولن يمنعنا ذلك من أن نأكل ونشرب ونتزوج!

وتنهدت بصوت مسموع وتمتمت:

ـ كنا على وشك الهجرة!

فقال ضاحكا:

ـ شد ما تمنيتها ولكن بلا أمل، وعلى أى حال فخير لنا أن نختار موضوعا آخر للحديث!

فواصلت حديثها بإصرار:

ـ وقيل لنا تفكران فى الهرب وسفينة الوطن تواجه الشدائد؟

ـ آه . . أعترف لك بأننى نشأت وطنيًا ولكننى لم أعد أبالى شيئا، ساعدينى من فضلك على تغيير الموضوع.

ـ ألا يهمك أن ينتصر الوطن؟

فضحك يائسا وقال:

ـ يهمنى أن نعيش فى سلام وسعادة، فإن تحقق ذلك عن طريق النصر فأهلا به وسهلا، وإن تحقق عن طريق الهزيمة فأهلا بها وسهلا!

فنظرت إليه بذهول وقالت:

ـ لا أفهم!

ـ لك العذر، ولكنى جئت بك إلى هنا لأنى أحبك..

الواقع أنه كان يريد أن يقول أكثر من ذلك، وفى الموضوع الذى يتهرب منه. وقال لنفسه: لا مهرب من السياسة فهى كالهواء. وقال:

ـ لو أنهم انتصروا فى حرب يونيو فماذا كان يفعل أمثالنا؟ فالهزيمة رغم شرها لا تخلو من بركة للمغلوبين على أمرهم!

صمتت منى. خيل إليه أنها لا تستطيع هضم قوله، وأراد أن يؤكد رأيه بنغمة جديدة، رقيقة نوعا، فقال:

ـ الوطن هو الأرض التى يسعد فيها الإنسان ويكرم.

ـ وهل نسعد ونكرم إذا هزمتنا إسرائيل؟

فلم يستطع أن ينبس بكلمة. فنفخت فى ضيق وقالت:

ـ على أى حال فلن أرميك بحجر ما دمت قد عزمت يوما على الهجرة.

وجاء النادل متمهلا فأمر ـ بعد مشاورة ـ بزجاجة بيرة وحمام مشوى، ثم قال بعد اختفاء الرجل فى ظلام الحديقة:

ـ لقد رميت بألف حجر!

ثم قال بنبرة وعظ وإرشاد:

ـ كلما اشتد البلاء حق للإنسان أن يتفانى فى البحث عن السعادة.

ـ رأى غريب!

ـ ولكنه طبيعى وحقيقى، ولا شىء كالهم يمتص من السعادة رحيقها الشهى!

فقالت منى بأسف:

ـ لى صديقتان عزيزتان، توقفت مشروعات سعادتهما بسبب الحرب..

وساءل نفسه: كيف نتملص من هذه اللعنة؟ وروت له مأساة عليات وسنية وهو يتظاهر بالانتباه والاهتمام. وقال لنفسه: إنها شديدة المراس، ولكنها ستكون زوجة ممتازة. ولكن ماذا أبغى من ورائها؟ لا حنين إلى الأبوة ولا إلى الاستقرار ولا إلى الخلود ولكنى أريد الحب! ورفع قدحه وهو يقول:

ـ فى صحة زواجنا القريب!

٢١

فى زيارة الفنانين للجبهة لم تسمح فتنة ناضر لمرزوق أنور بمفارقتها دقيقة واحدة. بدأت الرحلة مع الصباح الباكر. وتقرر السفر إلى بورسعيد لهدوئها النسبى بالقياس إلى بقية المناطق المتفجرة المشتعلة. واختار منظمو الرحلة طريق رأس البر ـ رغم طوله ـ لموقعه البعيد عن مرمى مدفعية العدو. واطمأن الجميع إلى أنهم سيتمتعون بسفر آمن وصحبة هنية. وسخرت فتنة فى نفسها من أستاذها أحمد رضوان الذى تخلف عن الرحلة، معتذرا بمرضه، متأثرا فى الواقع بجبنه وإيثاره السلامة بأى ثمن. ووصلوا إلى بورسعيد فى الظهيرة فدعوا من فورهم للاجتماع بالمحافظ. وتبودلت كلمات الترحيب من جهة والحماس من الجهة الأخرى، ثم تقضت ساعات فى زيارة بعض الثكنات فى المدينة وبعض المواقع فى الجبهة. تلاقت الأيادى فى مصافحات حارة. وتبودلت النظرات فى إعجاب ومحبة. وأحاط الضباط والجنود بفناناتهم وفنانيهم المفضلين. وتذكرت فتنة شقيقها الفقيد فدمعت عيناها، كما تذكر مرزوق صاحبه إبراهيم عبده الذى يرقد فى المستشفى بين الحياة والموت. ورجعوا إلى بورسعيد عند الأصيل فتجمعوا فى استراحة المحافظة. أما فتنة فاقترحت على مرزوق أن يتجولا قليلا فى النواحى القريبة من المدينة. سارا فى شارع طويل عريض يبدأ من الميدان أمام مبنى المحافظة. وعقب دقائق معدودات انفصلا تماما عن الحياة التى يضج بها الميدان بما فوق سطحه من سيارات وجنود وموظفين. غاصا فى خلاء شامل وغرقا فى صمت مروع. لا حركة ولا نأمة ولا ظل لإنسان أو حيوان. العمارات والبيوت تقوم على الجانبين مغلقة النوافذ والأبواب كأن لم يطرقها حى، نائمة أو ميتة أو هى هياكل ومشروعات لم تنفخ فيها الحياة بعد. وتاقت الأعين لرؤية أى شىء، وتلهفت الآذان على سماع أى صوت، نافذة مفتوحة أو باب موارب أو غسيل يرفرف فى شرفة أو طفل يصرخ أو قطة تموء أو كلب ينبح، كلا ولا ورقة يدفعها الهواء أو عقب سيجارة ملقى أو قمامة مكومة تحت الطوار، أى شىء، أى شىء، أى أثر لإنسان. وهمست فتنة:

ـ إنه كابوس.

فردد مرزوق:

ـ نهاية العالم.

ـ قلبى.. لا أدرى كيف أصف مشاعرى.

ـ تجربة جديدة، ومشاعر جديدة.

ـ يخيل إلىّ أنى تعيسة أو سعيدة جدا وأحلم بالرجوع إلى بطن أمى.

ـ أشعر بأنى حر، حرية كاملة، من الحضارة والتاريخ.

ـ هل يمكن أن نجن فجأة؟

ـ ويمكن أن نحادث الأرواح!

ووجدا نفسيهما أمام مدخل كازينو. مفتح الأبواب وبلا جليس، ووقف صاحبه ـ فيما يبدو ـ فى مقدم التراس مرتديا بلوفر وبنطلونا ومشمر الساعدين. منظر مفاجئ مذهل ولا يصدق.

ـ لعله مفتوح بأمر المحافظ.

ـ لعله.

ونظرت فتنة إلى الرجل فحياها بابتسامة عرفان فسألته:

ـ يمكن نشرب فنجال قهوة؟

ـ أو أى شراب..

جلسا فى أقصى عمق التراس بعيدا عن مرأى الطريق الخالى. وجاءت القهوة فراحا يحتسيانها بارتياح، قالت:

ـ بقدر ما سعدت بين الجنود بقدر ما جننت هنا..

ـ حديثهم مؤثر ولهفتهم على القتال واضحة.

ـ أجل. لا أتصور كيف يواجه الناس الموت!

ـ إنه جو وعادة وعقيدة، وهذه هى المشكلة.

ـ وراء ذلك هزيمة خاطفة لم تهضم بعد.

ـ ولعلهم أفاقوا ـ مثلنا ـ كالمجانين!

ـ ليجدوا كل شىء مثل هذا المقهى الخالى.

وكانت شاحبة الوجه. وذهبت إلى دورة المياه. ورجعت باسمة. وجدته يدخن سيجارة بعمق فقال لها:

ـ قرأت اليوم أن أخذ النفس بعمق سبب رئيسى فى إصابة الشخص بسرطان الرئة!

ـ أتصدق ذلك؟

ـ لم تعد لى ثقة بما ينشر فى الصحف.

فسألته مداعبة:

ـ صف شعورك عندما تعطل مشروع زواجك؟

فسألها متظاهرا بالاستياء :

ـ أتسخرين من المصائب؟

فقالت بجرأة :

ـ أعترف بأنى سعدت بذلك .

فتورد وجهه وقال وهو يقوم :

ـ أنا ذاهب إلى دورة المياه .

وذهب مسرعا ، وعاد وقد غسل وجهه ومشط شعره فسألته ضاحكة :

ـ ماذا فعلت؟

ـ لعنت زماننا!

ـ ولكنك نجم!

ـ الفن مهرب كالهجرة التى أصبحت موضة هذه الأيام .

ـ لا أحب الفلسفة .

فقال بمرارة :

ـ أنا معفى من التجنيد ، ولكن لم لا أتطوع مع الفدائيين؟

فقالت بسخرية :

ـ الفنان جندى أيضا .

فقال بنفس المرارة :

ـ الحق أنى كفرت بكل شىء .

ـ ولكنك ترغب فى الزواج!

ـ ماذا تتوقعين عندما يتمخض الجبل عن فأر؟

فصفرت برشاقة ، ثم سألته :

ـ متى نرجع إلى القاهرة فى تقديرك؟

ـ حوالى الفجر .

فقالت ضاحكة :

ـ إنى أدعوك إلى السحور .

فتورد وجهه وقال :

ـ لك رجلان ، ألا يقنعك ذلك؟

ـ أحدهما يقوم بالرعاية، والآخر بالأستاذية فمن لقلبى الخالى مثل هذه المدينة؟

وقاما ليغادرا المكان فقال :

ـ أنا رجل فى حكم المتزوج .

فقالت بتحد :

ـ لا تكابر ، أنت ملكى أنا ، ألم تدرك ذلك بعد؟

٢٢

كان مرزوق أنور واقفا فى حديقة الاستديو فى فترة الاستراحة عندما وجد أمامه ـ على غير ميعاد أو توقع ـ سنية شقيقته وعليات خطيبته . ارتبك وشعر بأنه وقع فى مأزق . وكان عليه أن يتمالك نفسه فتمالكها ومد يده للمصافحة وهو يغمغم بكلمات ترحيب مخنوقة لم تسمع . وأخرسهم الصمت وقتا ، وكادوا يستسلمون له إلى ما لا نهاية حتى خرقته سنية فقالت وهى متوترة الأعصاب :

ـ ليس العثور عليك بالميسور فى هذه الأيام .

انقطع عن بيته تماما منذ عشرة أيام فلم يدر ماذا يقول . ودست سنية يدها فى حقيبة عليات فتناولت خطابا وسألته :

ـ أهذا خطابك؟

فأحنى رأسه، لم ينبس ولم يعترض ، فقالت سنية :

ـ مخجل مؤسف بلا حدود .

فخرج من صمته متمتما :

ـ أشاركك عواطفك .

ـ أنت تقول ذلك!

ـ أجل ، تعذبت طويلا ، ولكن لا يمكن أن تقوم حياة كريمة على أكذوبة . .

فتساءلت عليات بصوت متهدج :

ـ تعتبر الآن ما كان بيننا أكذوبة!

فقال برقة وحزن :

ـ تقديرى لك بلا نهاية ، كذلك خجلى منك ، ولكنه قضاء لا حيلة فيه . .

فسألته سنية بامتعاض :

ـ أيموت حب كبير فى دقيقة ليحل محله حب جديد؟

وهتفت عليات:

ـ شىء حقير جعلنى أعتقد بأننى كنت بلهاء.

فقال:

ـ إنى آسف، لا حيلة لى، وأنت شابة جميلة وسيبتسم لك كل شىء.

فقالت سنية:

ـ قل إنها نزوة أو مصلحة . .

فهز رأسه بأسف وقال:

ـ هى ليست كذلك.

فقالت عليات بعصبية شديدة:

ـ يجب أن أذهب.

فقال لها بتوسل:

ـ اغفرى لى ذنبى.

فصاحت رغم غربة المكان:

ـ يحق لى أن أشكر الحظ الذى كشف لى عن حقيقتك . .

وتهدج صوتها منذرا بالبكاء فابتعدت عن المكان حتى اختفت فى الظلام. عند ذاك قالت سنية بلهجة قاسية:

ـ يا للعار!

فرفع منكبيه مستسلما، ثم قال مغيرا وجهة الحديث:

ـ أبعدنى العمل المتواصل عن البيت، ولكنى سأزوركم فى أول فرصة.

فقالت ساخرة:

ـ تكاليف الفن باهظة فيما يبدو!

فتجاهل سخريتها قائلا:

ـ زرت إبراهيم فى المستشفى، ولكن تعذر علىّ محادثته . .

فقالت وهى تحنى رأسها وفى تأثر بالغ:

ـ لعلك لم تعلم بأنه فقد بصره!

فصعق لحظات فى انزعاج حقيقى على حين صدرت عن الفتاة زفرات بكاء.

ـ فقد بصره؟!

ـ أجل . .

ـ نهائيا؟

ـ طبعا .

ـ وهل عرف الحقيقة؟

ـ أجل . .

وساد الصمت فوضح صوت النسيم فى غصون الأشجار، ثم تمتم :

ـ آسف على حظك يا سنية . .

ـ هو على أى حال خير من حظ عليات!

ـ وماذا قررت؟

ـ يا له من سؤال! سأتمسك به إلى ما لا نهاية . .

فتساءل بدهشة :

ـ أتعنين ما تقولين؟!

ـ بكل توكيد .

ـ لن يهملوه من الناحية المالية ولكن . . .

فقاطعته :

ـ قدرت كل شىء ثم اتخذت قرارى .

فتردد قليلا ثم قال :

ـ أرجو أن يكون قرارك نتيجة لتفكير سليم لا لفورة عاطفية زائلة!

ـ إنى أعرف نفسى أكثر مما تتصور!

ـ إذن فتقبلى صادق تمنياتى!

فتساءلت مغيرة الحديث بدورها ومرجعة إياه إلى مجراه الأصلى :

ـ ألا يمكن أن تعدل عن قرارك فيما يتعلق بعليات؟

فقال بهدوء وتصميم :

ـ كلا للأسف!

ـ إنك تفرط فى حب حقيقى .

ـ سنتزوج فى أقرب فرصة .

وفصل الصمت بينهما مرة أخرى حتى قال :

ـ إنى معجب بك!

فقالت وهى تهم بالذهاب :

ـ ليتنى أستطيع أن أقول ذلك لك .

٢٣

جلس حسنى حجازى على الديوان الأوسط تحت النجفة فى شبه استلقاء وهو يراقب المخرج أحمد رضوان فى ذهابه وإيابه أو وقوفه القلق مستندا بكوعه إلى حافة البار . وقال له :

ـ اجلس واشرب واهدأ . .

فهتف المخرج بحنق :

ـ لن أجد مشاركة وجدانية عند أحد!

فابتسم حسنى حجازى ، وقال لنفسه : إن الجنون هو الطابع المميز لهذه الأعوام . وتذكر أنه أحب مرة واحدة فى حياته ثم نسى الحب تماما . هل يقضى عليه بأن يحب من جديد وأن يتوله ويجن وهو يتعثر فى الحلقة السادسة؟

وقال أحمد رضوان بغضب :

ـ طالما لاحظت أشياء وتغاضيت عنها ، ثم ظننتها عابرة!

فقال حسنى حجازى برقة :

ـ ياعزيزى أحمد دعنى أفكرك بذلك الرفيق الرهيب الذى نسميه الزمن!

ـ إنى أقوى من بغل .

ـ اجلس واشرب كأسا .

ـ إنى أفكر تفكيرا جديا فى قتلها . .

ـ اسمعوا ماذا يقول الزوج القديم والأب الوقور؟!

فقال بتقزز :

ـ الزواج والأبوة لا يمنعان من الحب ولا من القتل . .

ـ آه لو جلست وشربت!

فضرب الأرض بقدمه وقال :

ـ واتفقنا على الزواج ، الزواج مرة واحدة ، أتعرف ماذا يعنى هذا؟ أن تخسرنى أنا والشيخ يزيد فى آن ، الشيخ يزيد الذى نقلها من بيت قديم بشارع الصقلبى إلى عمارة النيل ، وأنا الذى خلقتها!

فقال حسنى حجازى ملاطفا :

ـ ربما أتيح لنا أن نخلق ولكن لن يتيسر لنا التحكيم فى مخلوقاتنا إلى الأبد . .

ـ المجنونة بنت المجنونة ، ألا تدرى بأن نورها سينطفىء وأنه لن يجد من يتعاقد معه على عمل ؟

ـ قم برحلة فى ربوع أوروبا . .

ـ على الرحلة وعلى أوروبا اللعنة !

ـ إنى حزين عليك أيها الزميل القديم . .

ـ أليس عندك دواء خير من ذلك ؟

ـ عندى مأساة مماثلة ، فأنا أعرف خطيبة مرزوق الأولى . وهى تتألم مثلك تماما . .

فقال بمرارة :

ـ ستشفى من دائها فى ساعة أو ساعة ونصف .

فضحك حسنى على رغمه وقال :

ـ إذن فأنت العاشق الوحيد فى هذا الوطن !

فتنهد أحمد وقال :

ـ الله يحرقها كما تحرقنى ، الحق أنى لا أتصور الحياة بدونها .

ـ صبرك ، إنها متقلبة الأهواء ، وأراهن على أن هذا الزواج لن يعيش أكثر من شهر !

ـ وما علىّ إلا الصبر والتألم !

ـ اجلس واشرب . .

ـ ليس لديك إلا النصائح المحفوظة . .

ـ ماذا بوسعى أن أفعل ؟

ـ بوسعى أنا أن أقتل . .

ـ كلا ، لست من فصيلة سفاكى الدماء . .

فقال بحنق من تطارده ذكريات مذلة :

ـ حتى الزواج اقترحته عليها . .

ـ الله معك !

ـ وماذا كان جواب العاهرة ؟ إنها قررت الزواج أيضا ولكن من الآخر !

وكور قبضته مهددا واستطرد :

ـ إنهم يقيمون الاستعدادات للوقاية من الغارات الجوية ، ويتوقعون حربا شاملة ، عظيم ، إنى أتنبأ بكارثة ستحيق بهذه الأرض اللعينة . .

وتذكر حسنى اللون الأزرق الذى يطلون به النوافذ والمصابيح، وقوائم الطوب الأحمر أمام الأبواب، فانقبض صدره وقال لنفسه: إن عزاءه الوحيد فى الحياة يتركز فى مسكنه الجميل الحافل، فكيف تمضى الحياة إذا تهدم؟ كيف تمضى الحياة إذا وجد نفسه بين المهجرين فى معسكر من الخيام؟ وقال للرجل:

ـ أنصحك بالقيام برحلة إلى الخارج عقب الانتهاء من فيلمك. .

فتأوه أحمد وهو يستدير نحو البار ليملأ كأسا وقال بمرارة:

ـ إنى بحاجة إلى رحلة طويلة جدا.

٢٤

دق جرس التليفون على مكتب منى زهران فكان المتكلم سالم على. رجاها بكل جدية واحترام أن تقابله «دقائق» فى دار الشاى الهندى أو فى أى مكان تفضله. واعتذرت من ناحية المبدأ فألح عليها إلحاحا شديدا. سألت عن السبب فقال: إنه لا يستطيع أن يفصح بما لديه فى التليفون ولكن لديه ما يقوله وهو هام وخطير. وذهبت إلى الموعد وهى فى غاية من الضيق والقلق. وتقابلا وتصافحا وجلسا معا. ولاحظت من النظرة الأولى أنه ليس على ما يرام، وارتاحت لذلك ولكنها لم ترتح لارتياحها. فقد من وزنه قدرا ملموسا، وخبا نور عينيه، وشحب لونه. وقرأت فى عينيه انعكاس صورتها فخيل إليها أنه لاحظ أيضا تغيرا استوقفه، فهل صبغتها الأحزان بلونها القاتم وهى لا تدرى؟ وشكر لها «تفضلها» بالحضور فصارحته بأنها لا تريد أن تبقى أكثر مما يجب. أحرجته الإجابة قليلا، ولكنه كان على أى حال يتوقعها، فقال:

ـ منذ آخر لقاء تلقى كلانا تجارب قاسية، وكم وددت أن ألازمك فى محنتك!

فلم تعلق بحرف فقال:

ـ واتسمت تصرفاتى طيلة تلك الفترة بحماقات لا وصف لها!

فلم تنبس أيضا، فواصل حديثه:

ـ أقدمت على زواج كأنه أسلوب من أساليب الانتحار.

فقالت ولو أنها سرعان ما ندمت على قولها:

ـ فاتنى أن أهنئك فى وقتها!

فازدردها متجاهلا وقال:

ـ وعلمت أنك ستتزوجين قريبا؟
ـ جدا!
وكان جياشا بانفعالات يخشى ألا يسيطر عليها فصمت قليلا لينظم تشتته، ثم قال:
ـ معذرة، أود أن أسألك هل تتزوجين عن حب حقيقى؟
فتساءلت باحتجاج:
ـ بأى حق؟
ـ لا حق لى مطلقا، ولكنى تعلمت عن تجربة أن أى تصرف مستهتر يمس حياتنا فهو يتمخض عادة عن كارثة.
ـ ثوب الواعظ لا يناسبك بتاتا!
فتنهد بعمق واعترف قائلا:
ـ منى، أحبك، ما زلت أحبك كأول يوم، لا حياة لى بدونك..
فرمقته بنظرة ازدراء وغضب، فقال:
ـ ماذا فعلت بنفسى؟ تزوجت من راقصة تعيسة، لماذا؟ بصراحة أعتبرك المسئولة!
ـ مسئولة؟!
ـ لم ترعى حبنا بما يستحقه من احترام، تجنيت عليه أنا بعنادى السقيم وطعنته أنت بكبرياء جاوز الحد، هكذا يستهين بعض الناس أحيانا بسعادتهم الحقيقية!
فقالت وهى تقطب لتضفى على وجهها قسوة تدارى بها انفعالاتها:
ـ ما الداعى إلى نبش أشياء قد ماتت وشبعت موتا؟
ـ لا ينبغى لها أن تموت.
ـ ولكنها ماتت بالفعل!
ـ لا أصدق أن الموت يجوز عليها.
ـ هذا وهمك أنت وحدك!
ـ أما أنا فلم ألق إلا العذاب حتى حررت نفسى بالطلاق..
نظرت بعيدا كأن شيئا استرعى بصرها ولم تعلق، فقال:
ـ انكشف زواجى عن لعبة سخيفة، أدركت أننى لا يمكن أن أواصل الحياة مع المرأة المسكينة، فلا حب يجمعنا، ولا شىء مشترك ألبتة، ماذا أقول؟ إنها امرأة سيئة الحظ، أفسدتها حياة الليل وجففت ينابيع الإنسانية فى قلبها، سلسلة متصلة من العادات الجهنمية، وإدمان قاتل للأفيون!

ـ لا أدرى لم تحدثنى عن ذلك؟

ـ لأنى أحبك!

وانتظر دقيقة حتى تستقر الكلمة فى وعيها ثم استطرد:

ـ إن يكن للحب عندك قيمة فيجب أن تصغى إلىّ، وأنا أعلم أنك تقدسين الحب، إن كنت تحبين الرجل فمعذرة عن تبديد وقتك. وأما إذا أردت أن تملئى بالزواج فراغا فلا شىء يملأ فراغ الحب إلا الحب نفسه..

فسألته بحدة:

ـ ماذا تريد؟

ـ أن نرجع إلى حبنا..

فضحكت ضحكة فاترة وقالت:

ـ يا له من مطلب مضحك!

ـ هو مطلبى الوحيد فى الحياة..

فرفعت منكبيها استهانة ولم تنبس لتطمئن إلى سيطرتها على انفعالاتها، فقال:

ـ إن الأمل يضىء قلبى كالإلهام..

فقامت قائلة:

ـ آن لى أن أذهب.

فتبعها وهو يقول:

ـ لن أسلم بخيبة مسعاى، مع السلامة، ومعك قلبى إلى الأبد..

٢٥

لم يبق فى الحجرة إلا إبراهيم بمجلسه فوق الكنبة بين سنية خطيبته وعليات شقيقته. ارتدى جلبابا فضفاضا، برز من طوقه رأسه الحليق ووجهه النحيل الشاحب والنظارة السوداء التى أخفت عينيه. ذاك أول يوم رجع فيه إلى بيته، حيث تلقى سيلا من كلمات العزاء والتشجيع، ثم أخليت الحجرة إلا من ثلاثتهم، فأسند رأسه إلى الجدار البارد وأخذ يستحوذ على إرادته. بالنسبة إليه انتهى القتال وانطوى تاريخ واختفى النور إلى الأبد. عندما انقضت عليه الحقيقة قال: «ليتنى مت»، لم يعد يرددها، وسرى إلى قلبه دفء عجيب فى بيته، ولم يعد يشك أن الحى خير من الميت، ولم تكف سنية عن الكلام، قالت ضاحكة:

ـ لا يأس مع الحياة، كم من مرة كتبتها أو رددتها، ونسيت للأسف قائلها، ولكنى لم أدرك معناها إلا اليوم . .

ابتسم لصوتها المحبوب فعادت تقول:

ـ سأقرأ لك، وستتعلم القراءة على طريقة بريل، وستشق لنفسك طريقا جديدا!

فتمتم:

ـ سنية، أنا ممتن جدا، أنت ملاك . .

وتردد قليلا ثم استطرد:

ـ ولكنى أعفيك من أى تعهد سابق!

وضعت سبابتها على شفتيه بحنان وقالت:

ـ لم أسمع شيئا . .

ـ بل فكرى طويلا، إن أبعد قراراتنا عن الصواب هى ما نتخذها ونحن منفعلون . .

فقالت بقوة وثقة:

ـ فكرت . . وتبين لى أننى لم أكن بحاجة إلى تفكير ألبتة . .

ـ أما أنا فلا أحب أن أكون أنانيا . .

ـ إنه قرارى أنا، وكيف تقرن الأنانية بشخصك بعد أن ضحيت بالعزيز الغالى . .

فأسند رأسه إلى يده وقال:

ـ ولكنى خجلان.

ـ أما أنا فسعيدة جدا.

وقالت عليات:

ـ صدقها، إنى مطلعة على مكنون قلبها . .

وكانت فى الخارج تعصف رياح مزمجرة ثم هطلت الأمطار خمس دقائق صفا بعدها الجو وتفشى الدفء والنقاء وشذا السماء . . وآوى إبراهيم إلى فراشه وسرعان ما نام نوما عميقا. وبقيت عليات وسنية فى حجرة الجلوس وحدهما، وبين أيديهما إبريق شاى وطبق مملوء بالفول الأخضر. وتبدت سنية سعيدة، وجياشة الصدر بعواطف لم تفصح عنها بعد. وانبعث فى صدرها ينبوع إلهام فأشعرها بشجاعة متحدية وفدائية. قالت:

ـ إنى أفكر . .

فرمقتها عليات مستطلعة، فقالت:

ـ لا أريد أن أخدعه!

ففزعت عليات قائلة :

ـ كلا . .

ـ لا أريد . . .

فقاطعتها بخوف :

ـ أخى رغم شبابه متشبع بآراء أبى وأمى فى هذه المسألة بالذات فلن يفهمك أبدا . .

ـ أعتقد العكس . .

ـ كلا ، حسبك أنك مخلصة له حقا .

فتساءلت سنية فى ارتياب :

ـ أليس من حقه أن يعلم؟

ـ كلا ، لا أعترف بحق لا يجلب إلا الشقاء ، وهو لن يفهمك!

ـ وإذا تراءى له أن يسأل؟

ـ حسبك أنك مخلصة له ، والإخلاص يحجب ما كان قبله . .

وتفكرا معا فى صمت وقلق حتى قالت عليات :

ـ لم نشقَ باللهو فلا يجوز أن نشقى بالحب الحقيقى . .

ولمست فى نبرتها حسرة على تعاستها فقالت متأثرة :

ـ ستجدين الحب مرة أخرى ، إنه مع الحياة دائما!

ـ كوارث السلام لا تقل عن كوارث الحرب . .

ـ أعتقد أن كارثة حلت بأخى مرزوق وهو لا يدرى . .

فهزت عليات رأسها فى أسى ثم قالت مستسلمة لذكرى هفت على قلبها فجأة :

ـ والدكتور على زهران ضحية من ضحايا العبث . .

وتذكرت سنية منى زهران فجرت على شفتيها ابتسامة فسألتها عليات عما جعلها تبتسم فقالت :

ـ قرارات منى زهران!

فضحكت عليات وقالت :

ـ عليها أن تعلن نشرة يومية عن تذبذبات إرادتها . .

ـ هل تظنينها قطعت الأستاذ حسن حمودة نهائيا؟

ـ أعتقد أنها ستتزوج من سالم على فى أقرب فرصة .

ـ رغم جنونها فهو قرار حكيم . .

- كلاهما مجنون.

وساد السكوت قليلا حتى سألت عليات:

- متى يتزوجان؟

- منى وسالم؟

- مرزوق وفتنة!

فأجابت سنية فى وجوم:

- لا أدرى.. يقال إنهما سيتزوجان عقب الانتهاء من تصوير الفيلم!

وشعرت سنية بأسى سرعان ما جفف ينابيع إلهامها..

٢٦

دعى الأستاذ حسن حمودة لتناول العشاء بفيللا الصحفى صفوت مرجان بشارع أحمد شوقى. انعقدت الجلسة فى الفراندة المطلة على الحديقة، فجلس حسن حمودة بين صديقيه صفوت وحرمه نهاد الرحمانى. تناول طعامه بشراهة وشرب كثيرا وصمم طيلة الوقت على التظاهر بالاستهانة وتجاوز الأزمة.

وقال له صفوت مرجان:

- خشيت أن أجدك تعيسا.

فقال ببساطة توحى بالصراحة:

- لا وجه للتعاسة!

ثم مستدركا:

- مسألة كرامة ليس إلا!

الحق أنه لم يتصور أن يجد نفسه فى الموقف الذى خلقته له منى. كان بصدد تحديد يوم الزواج، وقرر الاحتفال به فى الأوبرج، وعلم بذلك الأهل والأصدقاء والزملاء. وعندما جابهته بجرأتها المعهودة معتذرة صعق تماما. صعق وذهل. توسل إليها أن تراجع نفسها. وكان أحبها وامتلأ إعجابا بها وحلم بحياة سعيدة معها. أى لعنة! أكتب عليه أن يعانى فى الحب ما عاناه فى السياسة؟!

وسألته السيدة نهاد الرحمانى:

- وماذا تنوى بعد ذلك يا عزيزى؟

فأجاب برزانة :

ـ سألوذ بالجبل كمجرمى وطنى الصعيد ثم أقطع الطريق على الرائح والغادى .

فضحك الأستاذ صفوت مرجان وقال يداعبه :

ـ مالك أنت وبنات اليوم؟ احمد ربنا على تلك النهاية!

وقالت له نهاد :

ـ خير ما تفعله الآن أن تتزوج زيجة معقولة قبل أن يفوتك القطار .

فتساءل بامتعاض :

ـ معقولة؟!

ـ أعنى أن تناسبك فى السن والأسرة .

فقال لها صفوت :

ـ يبدو أن عندك عروسا!

ـ العروس الصالحة توجد دائما ، ماذا تظن؟

فقال حسن حمودة :

ـ أمهلينى حتى تمضى فترة الانتقال .

وقال لنفسه ساخرا : إن قانون الأشياء يقضى بأن يتزوج صفوت الاشتراكى من امرأة مثل نهاد من أسرة . أما هو فعليه أن يتزوج من إحدى بنات الشعب! وإذا بصفوت يقول :

ـ حكاية منى معك تعيد حكاية قديمة حدثت منذ عشرين سنة . .

فبهت حسن حمودة ثوانى ثم ضحك . أما نهاد فتساءلت :

ـ أى حكاية؟

فأجاب صفوت :

ـ حكاية قديمة كان حسن بطلها!

فقال حسن ساخرا :

ـ كنت الوغد لا البطل . .

فسأله صفوت :

ـ ماذا كان اسمها؟ لقد نسيته تماما . .

فقال حسن :

ـ سمراء وجدى .

فقالت نهاد :

ـ لم أسمع باسمها ولا بقصتها .

فقال صفوت مرجان :

ـ كنا طلبة بالحقوق ، وعشقها صاحبنا ، وكانت من أسرة كبيرة وإن كان فرعها الخاص لا يملك شيئا . .

فتساءلت نهاد :

ـ وخطبها؟

ـ عشقها فقط ، وكان عشيقا جريئا ، يتسلل إليها ليلا فى قصر عمها على النيل والناس نيام . .

ـ ألف ليلة وليلة . . الله . . الله . .

وذات ليلة شعر به الخفير ، طارده ، أطلق النار ، أصابت الرصاصة خد الفتاة ولاذ صاحبنا بالفرار ، وعند التحقيق قالت إنها شعرت بخطوات غريبة ، وإنها خرجت لتنادى الخفير فأصابتها الرصاصة !

ـ رائع !

ـ ولكن وجهها تشوه ، أو خدها على الأقل . .

ـ مسكينة !

ـ وكما هرب الأستاذ من القصر هرب من حياتها . .

ـ من حياتها؟ !

ـ وإلى الأبد .

وهمت بالتعليق ولكنها أمسكت ، ولحظ حسن ذلك فقال ضاحكا :

ـ انطقى بالحكم ، سمعت كل ما يمكن أن يقال .

فقالت :

ـ كان عليك أن تتمسك بها !

ـ كان لهوا لا حبا وكنت مجنونا بالشباب ، وها أنا أعامل بالمثل !

فسأله صفوت مرجان :

ـ ترى ماذا كان مصيرها؟

فقال حسن :

ـ إنها تملك اليوم محلا لبيع لوازم السيدات بشارع شريف .

ـ ألم تجمع بينكما مصادفة؟

ـ مرة منذ سنوات فى مشرب بيجال وتجاهلتنى تماما . .

فقالت نهاد :

ـ لست قاسيا فيما أعلم .

ـ الحق أنى لم أخل من ألم وتنغيص ، حتى تراكمت علىّ المصائب بقدوم الثورة المباركة فطهرتنى من الألم بما هو أشد وأفظع . .

فقالت نهاد :

ـ أمامك فرصة نادرة فتزوج منها .

فضحك عاليا وقال :

ـ نهاية ممتازة لميلودراما ، أما الواقع فإنها اليوم قوادة يشار لها بالبنان !

ـ قوادة ؟ !

ـ قوادة هاوية .

فسأله صفوت :

ـ ماذا تعنى ؟

ـ بيتها خلية للبنات ، لها عليهن سيطرة أسطورية ، وتسهر معهن فى بيوت الأصدقاء ، بدافع اللهو والعبث لا المال !

ـ يا لها من نهاية !

ـ وسمعت بأنها تقول ساخرة إن عصر البراءة قد زال مع الرجعية والإقطاع والاستعمار !

وسألته نهاد :

ـ ألا تعتبر نفسك مسئولا عن تلك النهاية ؟

ـ كلا يا عزيزتى ، كان يمكن أن تكون زوجة أو مجرد صاحبة محل مستهترة ، أو قديسة . .

فيم يثيرون هذا الحساب العاطفى من أجل ماض ميت وينسون ما أعانيه فى قلبى وكرامتى ! أليست سمراء وجدى بأسعد منى ألف مرة ؟ ألم تفقد أسرتنا ابن أخت فى غارات الأعماق ؟ كما مات أبى وكما لوثت سمعتنا ظلما وبهتانا . غير أن أخطر شىء أن يستسلم المرء لعاطفة حب خائب وهو فى الأربعين . والتفت نحو صفوت فسأله :

ـ ماذا عن الأخبار ؟

فأجاب الرجل الذى لرأيه وزنه دائما :

ـ لا جديد ، ولكن الأمور تتحسن فيما أعتقد .

فقال حسن حمودة بضيق :

ـ الله يسامحك .

فضحك صفوت من أعماقه وقال :

ـ نسيت أننى أخاطب رجلا هواه مع جيش إسرائيل ضد جيش مصر .

فتساءل وهو لا يخلو من شعور بالاستياء :

ـ أهذا هو تصويرك لموقفى؟

ـ المسألة مسألة موقف وطنى قبل كل شىء .

ـ أى موقف وطنى ! أما الديمقراطية أو الاشتراكية ، أمريكا أو روسيا ، وإذا كان من حقكم أن تحبوا روسيا فلم لا يكون من حقنا أن نحب أمريكا؟ !

فقال صفوت بجدية :

ـ المهم ما يريده الشعب .

ـ أى شعب؟

ـ الشعب ، الشعب التحتانى الذى لا تعرفه .

وفاض قلبه بالتهكم والمرارة ، والكراهية والسخط ، وفى تلك اللحظة كره كل شىء ، حتى الحديقة التى تضوع بشذا زهر البرتقال ، والليل الرطيب ، وصفوت مرجان ، وحتى نهاد الرحمانى ، وقال لنفسه صبرا ، ففى غمضة عين قد تقع كارثة لا تخطر على بال . .

٢٧

شهدت عليات حفلى زواج فى أسبوع واحد : حفل متواضع جمع بين أخيها الضرير وسنية ، وحفل أقيم فى بهو عمر الخيام جمع بين منى زهران وسالم على . وقالت : إنه مهما يكن من شأن الصداقة التى تربطها بسنية ومنى فلن تبقى هى هى بعد الزواج ، هكذا تعلمت من تجارب سابقة ، فشعرت بفراغ مروع لم تشعر بمثله من قبل . وكرهت فكرة العودة إلى اللهو والعبث فالحق أنها كانت تتوق إلى الحب . وزارت الأستاذ حسنى حجازى مساء بناء على دعوة تلقتها منه تليفونيا وهى فى الوزارة . تلقاها بحنان قبل وجنتيها ، وهو يقول :

ـ توقعت أن تزورينى من زمن . .

لما لم تجب سألها :

ـ ماذا تفعلين؟

فقالت بفتور :

ـ آكل وأشرب وأنام .

ـ يجب أن نتعلم من مرارة الأيام التى نتجرعها ألا نحزن أكثر مما ينبغى مهما يكن المصاب!

فقالت بالفتور نفسه :

ـ إنى أتعلم ، ولكن التعليم كما تعلم يحتاج إلى زمن .

ـ أنت شجاعة وأنا مطمئن إلى مستقبلك . .

وضحكت على رغمها فنظر إليها مستطلعا :

ـ ماذا أضحكك؟

ـ ما أجملك فى ثوب الواعظ!

فتساءل وهو يمضى إلى البار ليملأ قدحين من كوكتيله المشهور :

ـ ترى هل سمعت هذا القول من قبل؟

ـ لم دعوتنى؟ . . هل وراءك فيلم جديد؟

فقدم لها القدح قائلا :

ـ إنى أفكر فى مستقبل بناتى ولا أنساهن كما ينسيننى ، لذلك حدثت المخرج أحمد رضوان فى شأنك!

فاشتعلت عيناها فى اهتمام ودهشة وتمتمت :

ـ شأنى؟

ـ قلت إنك فتاة ممتازة وجميلة وتصلحين للشاشة!

فهتفت فى ذهول :

ـ أنا!

ـ أنت طبعا . .

فضحكت بعصبية وقالت :

ـ لا أتصور ، لا أستطيع . .

ـ هل كان مرزوق يتصور أو يستطيع؟

ـ لست ممثلة . . ثم أنسيت أبى؟

ـ سيثور طبعا ، ويرفض ، وسأحدثه طويلا ، وسوف يذعن فى النهاية!

ـ إنه أصلب مما تتصور، ولكنه ليس العائق الحقيقى، العائق هنا . .

وأشارت إلى نفسها فقال:

ـ لندع الأمر للتجربة . .

ـ إذن فأنت جاد؟

ـ وهو على استعداد لاختبارك!

ـ وما الذى جعلك تفكر فى ذلك؟

وهو يضحك:

ـ حتى لا تقتصر حياتك على الأكل والشرب والنوم!

ودارت قلقها بالضحك فقال:

ـ توقعت أن تتحمسى أكثر من ذلك فالحياة تطالبنا بالحماس حتى فى أسوأ الظروف.

وشربا معا. وأغمضت عينيها لتفكر وراح هو يتمشى بين البار والتلفزيون. فتحت عينيها فالتقت بعينيه فسألها:

ـ ماذا قلت؟

ـ ليكن، ليس فى الإمكان أسوأ مما كان.

فضحك وقال:

ـ الغم يخلق حكما جديدة.

فقالت:

ـ الشوارع فى شبه ظلمة!

ـ لا يمكن أن تفهمى شيئا أو تستنتجى شيئا . .

ـ المستقبل مليء بكافة الاحتمالات.

ـ فى مثل هذه الظروف يحسن العناية بكل دقيقة خالية من كارثة . .

ـ الأقاويل كثيرة جدا.

ـ لو ضربت القاهرة فستقوم القيامة.

ـ مسكين أخى، ربنا يأخذ بيده . .

فقال حسنى حجازى بجدية:

ـ استدعى ابن أخى الأكبر أمس للتجنيد. أما أختى وهى أرملة غنية فقد فعلت المستحيل لتجنب بكريها التجنيد وذلك بإرساله إلى كندا كمهاجر.

ـ كيف أمكنها ذلك؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال :

ـ تخيلى الأمر بنفسك! المهم أنه قتل فى الأسبوع الماضى فى حادث تصادم!

فندت عنها آهة تعجب، فقال حسنى :

ـ اضحكى إن شئت!

فتساءلت :

ـ هل تنقصنا روح القتال؟

ـ زوار الجبهة يلمسون روحا عالية، ولكن الأهالى يعيشون فى بلبلة!

ثم استدرك بنبرة يقين :

ـ ولا تنسى الفدائيين فهم معجزة هذه المرحلة!

ودق جرس الباب الخارجى فمضى إليه باهتمام وهو يقول :

ـ أظنه أحمد رضوان، كونى شجاعة من فضلك!

٢٨

شهدت فتنة ناضر اليوم الأخير للتصوير وحدها إذ لم يكن لمرزوق دور فى ذلك المشهد. وانتهى العمل حوالى منتصف التاسعة مساء فتبودلت التهانى، وشربت أكواب الشربات، ووزع أحمد رضوان نقودا على العمال. ودعا فتنة إلى فنجان شاى فى البوفيه فغيرت ملابسها ولحقت به، وجلسا معًا يحتسيان الشاى ويتناولان البسكوت. وساءلت نفسها : أهى جلسة الوداع؟ وكانت ثمة أنباء نمت إليها عن أنه يعد مفاجأة فى الوجوه الجديدة بقصد القضاء عليها فلم تكترث كثيرا، مطمئنة إلى ما أحرزته من نجاح بين الجماهير. وفى الوقت نفسه تمنت لو تتفادى من تطاحن سخيف لا معنى له، تمنت أن يثوب إلى رشده أن يكن ذلك فى الإمكان. وكان يلاحظها طيلة الوقت فسألها :

ـ ترى فيم تفكرين؟

فأجابت بصراحة :

ـ كيف يمكن أن نظل أصدقاء؟

فقال بامتعاض :

ـ الصداقة لا تصلح بديلا عن الحب.

ـ يجب أن تحاكمنى بعدالة.

ـ أهذا يعنى أنك ستتزوجين حقا؟

ـ صارحتك بذلك فى حينه .

فقال محتجا :

ـ ولكننى لم أكن فى حياتك شيئا على الهامش !

فاعترفت قائلة :

ـ لا جدال فى ذلك ، نور نجاحى مستمد من روحك !

فقال برجاء :

ـ أشكرك ، ولكن لم الزواج يا فتنة؟ لا داعى للزواج يا فتنة !

ـ يخيل إلى أنك لم تصدقنى بعد .

ـ يعز علىّ تصديقك .

ـ لا تصدق أن الجنون ممكن؟

فقال باستسلام :

ـ بما أننى مجنون فأنا أومن بالجنون ولكن . .

وتوقف فتساءلت :

ـ ولكن؟

ـ ولكن هل يبلغ الجنون حد الاستهانة بالمستقبل؟

ها هو يعود للتهديد ! . . هو هو لا يتغير . وقالت :

ـ المستقبل بيد الله وحده . .

فقال ساخرا :

ـ يعجبنى إيمانك !

فلم تضحك ، فأدنى رأسه إليها وقال :

ـ إذن فلتبق علاقتنا كما كانت !

فقالت باستياء :

ـ ولكنى جادة يا أستاذ !

فقال بحنق :

ـ إذن لم تكونى جادة فيما مضى؟

فتنهدت ولم تنبس فتمتم مغيظا محنقا :

ـ اللعنة . .

ثم منذرا :

ـ أخشى أن تنطفئ الشعلة فى صدرينا معا !

ـ إن صدقت نيتنا على النجاح فلن نلقى ما نخشاه .

ـ أعتقد أنك لا تفهمين نفسك ، أنت لا تحبين إلا الفن !

فتوسلت إليه قائلة :

ـ دعنى لمصيرى .

فهتف بوجه متقلص :

ـ أنت تدفعيننى إلى هاوية . .

ـ أملى فى حكمتك لا حدود له . .

ـ عار أن تعترفى بزيف عواطفك القديمة . .

فقطبت فى ضيق وقالت :

ـ دعنا مما كان .

ووضعت يدها على يده وقالت :

ـ افتح قلبك لصداقة جديدة .

فقال بغضب :

ـ لا تتحدثى عن الحب كأنك تجهلينه . .

فغمغمت فى يأس مسدود :

ـ لا فائدة !

فقال بوحشية :

ـ لا فائدة !

وصمتا . وساءلت نفسها : كيف تنتهى هذه الجلسة التى لا تحتمل؟ واستدعيت للتليفون فقامت وهى تتنهد فى ارتياح . وجعل يراقبها من بعيد وهى تتكلم .

ورآها تعيد السماعة فى عجلة ولهوجة . شىء وقع . شىء ذو خطورة . أخطر مما يتصور . بصرها زائغ ونظراتها جنونية . إنها تبتعد ناسية تماما حقيبتها . وتناول الحقيبة وهرول نحوها وما كاد ينطق باسمها حتى صرخت فى وجهه :

ـ أنت . . أنت . . أنت المجرم !

وجرت نحو سيارتها كالمجنونة .

٢٩

استسلمت فتنة للكرسى المعدنى محمرة العينين. رقد مرزوق فوق سريره بالمستشفى غارق الرأس والوجه فى الأربطة. وكانت قد أجريت له جراحة معقدة فى الفك الأسفل والذقن والجبهة عقب الحادث مباشرة. وجلس فى الاستراحة المتصلة بالغرفة إبراهيم وسنية وعليات. حتى أحمد رضوان زاره، ولما وجد الجو معاديا غادر المكان بسرعة.

ولما سئل مرزوق بعد مضى وقت مناسب قال فى التحقيق: إنه كان يسير فى شارع ابن أيوب فى مطلع المساء، فى ظلام شامل، وفى طريق خال، حين هاجمه شخص أو أكثر، وانهالت على وجهه اللكمات حتى غاب عن وعيه تماماً، ثم لم يسترده إلا فى المستشفى. وتلقى السؤال التقليدى إن كان له أعداء أو كان يتهم أحدا، فأجاب بالنفى، ولكن التحقيق جره إلى ذكر قصة حبه بملابساتها، مما استدعى سؤال أحمد رضوان بل وعليات عبده. ولم يكن الشيخ يزيد بمصر، وأنكر أحمد رضوان أى علاقة بالحادث، وكذلك عليات، واستمرت المباحث فى البحث خلال جو كثيف الغموض.

وتركز القلق حول مسألة هامة شغلت عقول أهله وأحبابه، فتساءلت سنية:

ـ ترى إلى أى حد سيتغير وجهه؟

فقال إبراهيم عبده:

ـ على ذلك يتوقف مستقبله.

فعادت تقول:

ـ فتنة بكت بحرارة.

ـ إنها تبكى عليه وعلى نفسها.

ومرت فترة الانتظار ثقيلة على القلوب المحبة. وغادر مرزوق المستشفى بوجه جديد! رغم ما قدم الطب من معجزات فقد خرج بوجه جديد. لم يكن القبح طابعه، ولكنه فقد شخصيته ومذاقه وروحه. كان ثمة تجويف صغير فى جانب الجبهة واعوجاج فى الفك أضفى عليه قسوة من غير معدنه وانحدار فى الذقن إلى الخلف. وعندما رأى صورته فى المرآة نظر إليها طويلا فى ذهول حتى امتلأت عيناه بالضباب، ثم تهاوى جذعه فتقوس من اليأس وهتف:

ـ انتهيت!

وتحول إلى فتنة بوجه ملؤه الخذلان وكرر:

ـ انتهيت يا فتنة!

فأحاطت عنقه بذراعيها وقالت بحرارة:

ـ كلا!

ـ انتهيت وأنت تدركين ذلك!

ـ كلا!

ـ كلا؟!

ـ ربما.. ربما...

فقاطعها متسائلا:

ـ ربما؟

فقالت وهى تخفض عينيها:

ـ يوجد أكثر من دور ناجح للممثل القادر مثلك.

فهتف يائسا:

ـ أنت توافقيننى على رأيى بأسلوب آخر.

فضمته إلى صدرها وهى تقول:

ـ لنؤجل التفكير فى ذلك!

ـ وهل يوجد ما هو أهم؟

فقرصته فى خده معابثة وقالت:

ـ نحن نستعد للزفاف!

فرنا إليها بذهول، وعينه اليسرى ترتعش وتضيق، وتساءل:

ـ ماذا؟

ـ الزفاف يا عزيزى الجاحد!

ـ أهو مجرد عناد؟

فصاحت بغضب:

ـ كلا..

وساءل نفسه: ترى هل تعنى ما تقول؟ هل تتحقق تلك المعجزات فوق الأرض؟ وكان صدرها يجيش بالحب والعطف والتحدى. وكانت مصممة على تحطيم درع الدناءة الصلب والبصق على وجه الشماتة الكالح. وضمته إلى صدرها بقوة وهى تقول:

ـ فلنمض فى استعدادنا للزفاف!

٣٠

تلقاها حسنى حجازى بين ذراعيه. أنامت رأسها فوق صدره فى استسلام فشعر بشدة توقها إلى الحنان. وقال وهو يربت ظهرها:

ـ قلق الدنيا والآخرة مطبوع فوق وجهك العذب يا عليات.

فتملصت من ذراعيه وانحطت فوق الفوتيل وهى تسأله:

ـ أين كنت فى الفترة الماضية؟

ـ سافرت إلى يوغسلافيا للاشتراك فى مهرجان للأفلام القصيرة.

ـ ألم تسمع عما حدث لمرزوق أنور؟

ـ إنه حديث الوسط الفنى، وكثيرون يتهمون أحمد رضوان، وهو مجرد ظن لم يقم عليه دليل، ما رأيك؟

ـ لا أدرى، أنا نفسى سئلت فى التحقيق!

ـ فداك نفسى يا عزيزة.

ـ وتم زواج فتنة ومرزوق.

ـ إنه حديث الوسط أيضا، ولكن لا يستطيع أحد أن يتنبأ بالنتيجة!

فقالت بفتور:

ـ سنية وإبراهيم سعيدان، وهى تجربة مماثلة!

ـ كلا.. ثمة اختلاف جوهرى، ولكنك لم تحدثينى عن تجربتك!

ـ أى تجربة تقصد؟

ـ مع المتهم أحمد رضوان؟

فقالت باستهانة:

ـ فشلت تماما. لا ذرة من استعداد عندى للتمثيل..

فنظر إليها بإشفاق وقال:

ـ أهذا ما يحزنك؟

ـ كلا..

ـ ولكنك افتقدتنى فى غيابى فلماذا؟

ـ كنت أقرع جرسك كل مساء!

فتساءل باسما فى سخرية :

ـ هل اكتشفت أخيرا أننى معشوقك الحقيقى ؟

فصمتت . أشارت إلى بطنها . ثم قالت :

ـ يوجد هنا شىء غير مرغوب فيه !

فهتف بدهشة :

ـ كلا !

ـ هى الحقيقة !

ـ ولكنك حريصة دائما . .

فقالت بمرارة :

ـ تعبت من الحرص كما تعبت من الحياة .

فجعل ينظر إليها وهو يتذكر منظر جزر الإدرياتيك كما تلوح لعينى المشاهد فى دوبروفنيك فى ليالى القمر ، ثم سألها :

ـ من ؟

ـ لن يخطر لك على بال !

ـ يوثانت ؟

ـ سائح مجهول ذو لحية شقراء وشعر مضفور دعانى للعشاء فلبيت !

فضحك حسنى طويلا ، ثم قال :

ـ احتفظى به فسيكون درة !

ـ كدت أجن فى غيابك . .

فقال بعطف :

ـ غلبك الحزن أكثر مما يجوز .

فقالت بتأثر شديد منذر بالدمع :

ـ كان التحقيق ، ثم الزواج ، وشعرت بأن الدنيا ماتت ولن تبعث .

وراح يملأ قدحين وهو حزين ، وقدم لها قدحها قائلا :

ـ صحتك !

وأفرغا القدحين معا . وقال ـ لا عن صدق ـ ولكن عن عطف حقيقى :

ـ تذكرتك وأنا جالس فى حديقة تحت الأرض فى دوبروفنيك فتاقت نفسى إليك بحنان عجيب !

ـ لعلى كنت أفكر فيك وأنا أقرع جرسك فلا يرد .

ـ قلبى معك ، لا تخافى يا عزيزتى . .

فتنهدت بصوت مسموع تردد كالنغمة فى جو الحجرة السحرى . وكان يروض رغبة طفرت إلى أعصابه ، رغبة طارئة وناعمة فى أن يلعب الحب معها . ولم يعلنها ، وذهب إلى التليفون وأدار القرص :

ـ ألو ! . . سمراء ؟ . . كيف أنت ؟ ! جميل أن تعرفى صوتى من أول كلمة . . أريدك على عجل . . الآن إن أمكن . . إلى اللقاء . .

ورجع إليها وهو يسأل :

ـ أتعرفين سمراء وجدى ؟

فهزت رأسها نفيا فقال :

ـ آن لك أن تعرفيها .

٣١

ظل حسن حمودة أربعين عاما لا يفكر فى الزواج ولا يهتم به حتى عرف منى زهران . وبعد أن فشل مشروع زواجه منها لم يعد له من شاغل إلا الزواج . وأثير الموضوع من جديد . أثارته نهاد هانم عقب عشاء دعيت إليه هى وزوجها صفوت مرجان فى قصر الأستاذ حسن حمودة بشارع الفضل بالعجوزة . وهو قصر ضخم ذو حديقة كبيرة ورثه عن أمه ، ويقيم فيه وحده مع الخدم . وهو يمتاز بحيازته لطاه فاخر خليق بأن يعتز به مطعم عام من مطاعم الدرجة الأولى . وهو أكول وذواقة للطعام الجيد ، وتماثله نهاد فى ذلك ، بخلاف صفوت الذى يقنع بكأسين من الويسكى ومختارات من الشواء والخضر والفاكهة . ودار الحديث عن الزواج وكان هو الذى فتحه على رغم ما عرف عنه من ولع خاص بحديث السياسة الذى لا ينتهى . قال لها :

ـ أود أن أسمع آخر أنباء عن عروسك !

فقال صفوت :

ـ أراهن على أنك ستتزوج قبل نهاية هذا العام .

وقالت نهاد هانم :

ـ هى أرملة وأم لبنت وحيدة فى الجامعة ومن أسرة كبيرة مثل سعادتك .

فغلبه الفتور وقال :

ـ لن يقل سنها عن الأربعين .

ـ هى فى الأربعين !

فقال محتجا :

ـ ولكننى فى الأربعين وتلزمنى عروس شابة .

فقالت نهاد ضاحكة :

ـ لست خاطبة .

وقال صفوت :

ـ عليك أن تجدها بنفسك فى سينما أو فى مرقص أو فى الطريق !

فقال يائسا :

ـ لا وقت عندى للبحث ، ولولا جناية دعيت للدفاع فيها ما عرفت منى زهران . .

فقالت نهاد :

ـ ما عليك إلا أن تنتظر جناية أخرى .

وسأله صفوت :

ـ ولكن هل تناسبك فتاة من هذا الجيل ؟ !

ـ لم لا ؟

ـ لهن رؤية جديدة فى الحياة والحب .

فقال بلا تردد :

ـ أنا فى هذا المجال تقدمى أكثر مما تتصور !

فضحك صفوت مرجان وقال :

ـ لست أول شخص يجمع فى ذاته بين الرجعية فى السياسة والتقدمية فى الحب !

اكفهر وجهه الأسمر الغامق ، وازداد إشعاع عينيه حدة . أثارته ـ كما تثيره عادة ـ تهمة الرجعية . إنه يعتبر الديمقراطية غاية التقدم ، وما عداها نوعا من النازية أو الفاشستية . وهو يفهم الديمقراطية على أنها أسلوب من التعامل بين الصفوة فى المجتمع . الصفوة من أصحاب المصالح الحقيقة وأهل الفكر والثقافة . أما عامة الشعب فلا يعترف بهم ولا يعمل لهم حسابا فى قائمته الإنسانية . لذلك لم يحن هامته أمام الموجة الشعبية الهائلة التى أطلقتها الثورة . وكان يسخر من بعض أهل طبقته الذين تأثروا بها فراحوا يهزون شجرة الأسرة بعنف لعلهم يعثرون على غصن فقير . . «شعبى» يلوذون به فى الإعصار العاصف الذى يقتلعهم من جذورهم . كان يعتز دائما بأصله الرفيع ، والعمالقة من

أعمامه وأجداده، وينظر إلى الأشياء والناس نظرة أرستقراطية متعصبة. وقد انتشلته ملاحظة صفوت مرجان العابرة من حديث الزواج فردته إلى موضوعه الأبدى وهو السياسة فقال:

- الديمقراطية الأمريكية رجعية؟! أمريكا أمة علمية، وقد تجاوزت بالعلم خزعبلات الشيوعية ونبوءاتها الكاذبة..

فقالت نهاد:

- نحن لا نكف عن الكلام، لا أحد يتكلم مثلنا، والغارات تمتد إلى أعماق بلادنا..

فقال حسن حمودة بحنق:

- المسألة أننا أمة مهزومة ولكنها تأبى الاعتراف بهزيمتها!

ثم نظر إلى صفوت وسأله:

- متى نعترف بالواقع فى تقديرك؟

فأجاب صفوت وهو يشعل سيجارة:

- سيخطو الروس خطوة جديدة وهامة فى تقوية دفاعنا. الروس أيضا! إنه يكره الروس أكثر من الكوليرا. ولولاهم لكان ٥ يونيو يوم السعادة الحقيقية والفردوس المفقود. وسأله:

- هل نصمد حتى تصل المعونة الروسية الجديدة؟

فقال صفوت بثقة:

- لن يسمحوا بهزيمتنا مرة أخرى!

- مبارك عليكم هذا الأمان!

فضحك صفوت وقال:

- الروس لا يستغلون..

وقهقه حسن حمودة عاليا. اعتدها نكتة فروح بالضحك عن حقده المشتعل. روح بالضحك عن أحلامه الدموية المكبوتة. وكانت نهاد تمل حديث السياسة بسرعة فسألته بنبرة مرحة:

- لم لا تعلن عن رغبتك فى الزواج فى إحدى المجلات؟

فضحك حسن، وضحك صفوت ثم قال تأييدا للفكرة:

- أقترح الإعلان الآتى:

ح. ح. محام ناجح، غنى، من أصل أرستقراطى، فى الأربعين من عمره، أمريكى الهوى إسرائيلى الرؤية، يرغب فى الزواج من فتاة فى العشرين، مثقفة عصرية، جميلة.

فواصل حسن ضحكه وقال :

ـ سيجيئنى الرد من وزير الداخلية !

٣٢

أمضى مرزوق وفتنة شهر العسل فى أسوان ، ولما رجعا إلى القاهرة أقاما فى شقة بشارع فنى وتأهبا لمواجهة الغيب . وكان مرزوق قد استرد كثيرا من الثقة المفقودة وتألقت فى خياله أحلام غير شاحبة . ودعيت فتنة للقيام ببطولة فيلم فاقترحت أن يلعب مرزوق الدور الأول أمامها ، ولكن اقتراحها رفض بأسلوب اعتدته غير مقبول فرفضت الفيلم بصلف . وتكرر ذلك مرة أخرى فى نفس الأسبوع ! عند ذاك رأى مرزوق أن الأمر يستحق المناقشة . تزعزعت ثقته وتبخرت أحلامه فأقبل على المناقشة بقلب جاف وتصميم يائس . قال لها :

ـ لا يجوز أن ترفضى فيلماً بعد الآن وإلا . . .

فقاطعته :

ـ إنى مؤمنة بأنك ستكون عنصر نجاح .

ـ المهم أن يؤمن الآخرون ، فاقترحى إذا شئت ولكن لا ترفضى . .

وشعر بأن النجاح الذى أحرزه إنما يخص شخصا آخر لا علاقة له به . وبحسرة قال لها :

ـ يحسن بى أن أفكر جديا فى وظيفتى التى لم أشغلها . .

فقالت بارتياع :

ـ تعمل ست ساعات بسبعة عشر جنيها !

ـ علىّ أن أتوافق مع الواقع مهما يكن مرا !

ورفض من بادئ الأمر أى مغامرة سخيفة أو تفكيرا جنونيا . قال :

ـ واضح أننى لم أعد صالحا للبطولة .

فقالت برقة :

ـ توجد أكثر من بطولة فى الفيلم ، ولكن حذار من الأدوار الثانوية فهى شرك لا فكاك منه . .

أجل هى شرك . وهذا المسكن الأنيق شرك أيضا . وحبه الذى ضحى فى سبيله بإنسانيته شرك ثالث . وتجهمته الحياة لحد التقزز . .

ودق جرس التليفون. كان المتكلم أحمد رضوان!! وكان يستأذن فى زيارة. ونظرت نحو مرزوق مستطلعة فقال رغم انفعاله الشديد:

ـ إذا كان لعمل فليحضر..

وجاء فى الميعاد. وانحنى باحترام تحية متجنبا ـ فى الوقت نفسه ـ مغامرة المصافحة. وجلس فى أدب لا منتفخا ولا مزهوا. وقال:

ـ توجد غشاوة من سوء الظن.

ونقل بصره بينهما، ثم قال:

ـ علينا أن نبددها، لأنه لا مبرر لها، ولأنه لا غنى لنا عن العمل المشترك!

لم يسمع تعليقا. شعر بجمرات النظرات تلسع وجهه فقال:

ـ كان استدعائى للتحقيق سخفا، آلمنى جدا، كما يجدر بإنسان برىء بكل معنى الكلمة..

ولما لم يسمع كلمة التفت نحو مرزوق وقال:

ـ لست مجرما، أنا فنان مثلك، وحبى لزملائى مضرب الأمثال..

تنبهت فتنة إلى أنها لم ترحب به ولم تقدم له شيئا فأشارت إلى البار وقالت:

ـ معذرة، اشرب شيئا..

وقام إلى البار فتناول زجاجة الكورفوازييه شرابه المفضل فملأ كأسا، ثم عاد فواصل حديثه الموجه إلى مرزوق:

ـ يوجد أكثر من شخص يمكن أن تحوم حوله الشبهات، البراءة لم تسعدنى، ما يهمنى حقا هو أن تقتنع أنت ببراءتى..

لم يسمع إلا أنفاسا تتردد فانطبع الأسف فى أساريره وقال:

ـ افتح لى قلبك وصارحنى بما فيه.

وثبت عليه عينيه حتى قال مرزوق:

ـ لم أعد أفكر فى الأمر تاركا غوامضه للشرطة!

ـ عظيم، لننتظر، أنا مطمئن تماما، ولنتكلم الآن فى العمل!

وشرب كأسه دفعة واحدة ونظر إلى فتنة وقال:

ـ كانت بيننا مشروعات مشتركة!

فهزت رأسها بالإيجاب فقال:

ـ ماذا يمنعنا من التنفيذ؟

فقالت بهدوء :

ـ الجواب عندك .

فأشارت إلى زوجها وقالت :

ـ كان أيضا ضمن المشروعات .

فقالت بثقة :

ـ سيكون له دور محترم !

ـ أحب أولا أن أدرس دوره فى السيناريو !

ـ عظيم ، ولكن أوصيك بالمرونة والحكمة ، إنتاج فيلم فى هذه الظروف الكئيبة مغامرة يستحق القائمون بها كل تقدير ، فى أى لحظة ، ونتيجة لهجوم أو غارة قد يتوقف العمل فى الفيلم ، وربما فى عالم السينما كله ، والعاقل من يدرك ذلك .

فقالت بهدوء وتصميم :

ـ قلت رأيى يا أستاذ أحمد .

ـ تذكرى أن همومنا صغيرة إذا قيست بالويلات التى تنصب على الوطن !

فقالت ضاحكة على رغمها :

ـ لا أذكر أنك اهتممت بالويلات من قبل !

فتساءل محتجا :

ـ أهذا كلام يوجه لرجل أخوه يعمل فى الجبهة؟

وقام فانحنى مرة أخرى محييا ثم غادر المكان .

٣٢

تعرفت عليات على حامد فى بيت منى زهران بالزمالك . كانت دعوة للعشاء حضرتها سنية وعليات . وشهدها حامد باعتباره شقيق سالم زوج منى . ومن بادئ الأمر اهتم حامد بعليات اهتمام إعجاب . وأوصل الفتاتين إلى محطة الباص ، وفى أثناء الطريق أعلن عن رغبته فى مقابلة عليات لمزيد من التعارف . وهو ما شجعت عليه سنية ـ فتم الاتفاق على ذلك . وتقابلا عند الأصيل فى ميدان طلعت حرب ، وسألها : أين تفضل أن يجلسا؟ فاقترحت دار الشاى الهندى ، ربما لتفاؤلها بها بعد أن جمعت بين منى وسالم . وكانت معلوماته عنها لا بأس بها ، مثل درجتها العلمية ووظيفتها بالشئون

الاجتماعية وغير ذلك من المعلومات التى اعتقدت أن منى بلغتها إياه. ودهشت وهو يحدثها عن وظيفته البسيطة بسكرتارية مؤسسة التى لم تتناسب مع حديثه الذكى المثقف. سألته:

ـ من أى كلية؟

فقال بلا ارتياح:

ـ الثانوية العامة فقط!

فارتبكت قليلا وقالت:

ـ الحق أنك مثقف جدا.

ـ ذاك شىء آخر.

وقرأ فى عينيها تساؤلات تداريها بأدبها، فقال:

ـ عقب حصولى على الثانوية العامة اعتقلت!

فتساءلت باهتمام:

ـ لم؟

فقال ضاحكا:

ـ بتهمة الشيوعية!

فنظرت إليه بحب استطلاع وإشفاق، فقال:

ـ لم أكن شيوعيا عندما اعتقلت بتهمة الشيوعية.

ـ ذلك مؤسف بقدر ما هو غريب.

فقال باسما:

ـ بقدر ما أنت جميلة..

وساءلت نفسها: كم مرة سمعت هذه الجملة. ولكن كم مرة قيلت لوجه الجمال وحده؟ قالت:

ـ لا تبالغ.

ـ من أول نظرة شعرت بأنه سيكون لك معى شأن.

فقالت ببساطة:

ـ شكرا..

ثم مستدركة فى تساؤل:

ـ ولكن كيف سقطت عليك تهمة الشيوعية؟

ـ لا أدرى .

ـ لم أكن أتصور أن الأخطاء تقع بتلك السهولة .

فقال متهكما :

ـ كل شىء ممكن .

فتجلت فى عينيها العسليتين نظرة تشع سخرية ومرارة معا .

قال :

ـ كنت فى الثامنة عندما قامت الثورة فأنا أحد أبنائها . .

وتبادلا نظرة طويلة قال بعدها :

ـ منى زوجة أخى معجبة بك ، وحدثتنى أيضا عن أخيك البطل .

ـ إنه يشق طريقه فى الظلام بإرادة قوية .

ـ وأثارت إعجابى أيضا بزوجته . .

ـ أحيانا يرتفع الحب بالإنسان إلى ذروة عالية .

ـ أظنه كذلك دائما . .

ـ كلا ليس دائما . .

فقال باسما :

ـ لا داعى للتشاؤم فإنى أكرهه .

ـ حسن .

واحتسيا الشاى وتناولا أربع قطع من الجاتوه ، وتبادلا فى أثناء ذلك نظرات موحية .

ثم سألته :

ـ هل جندت؟

فأجاب باقتضاب :

ـ كلا .

ثم مستدركا :

ـ عينى اليسرى لا تكاد تبصر . .

فسألته بإشفاق :

ـ مرضت بها؟

ـ فقدتها أو كدت فى المعتقل !

فارتسم الذعر فى وجهها ، فقال باسما :

ـ أستطيع أن أعجب بك بعين واحدة فضلا عن عين وربع !

ـ ومع ذلك فأنت برىء من الشيوعية !

فضحك وقال :

ـ عندما أفرجوا عنى كنت قد انقلبت شيوعيا فى نظرهم .

وضحكت فضحك . وبدت لهما الأمور فى غاية من الفكاهة ، وعند ذاك سألها :

ـ ماذا تفضلين ، السينما أم الرقص؟

فقالت بعذوبة :

ـ ليس الليلة من فضلك . .

٣٤

نظر حسنى حجازى الى القادمة بدهشة ، ثم فتح ذراعيه فتعانقا بحرارة ، ثم تملصت من ذراعيه فسبقته إلى حجرة الجلوس وهو يقول فى أثرها :

ـ عزيزتى سمراء وجدى ، أى سعادة . .

وأسكتت الراديو وهى تسأله :

ـ كنت تسمع آخر أنباء الغارات؟ بى شوق نهم إلى كوكتيلك .

فاتجه إلى البار وهو يقول :

ـ أول مرة تحضرين فيها وحدك !

فقالت بنعومة وهى تتناول كأسها :

ـ إنما أجىء هذه المرة من أجل نفسى لا من أجلك .

متوسطة القامة ، رشيقة كلاعبة فى سيرك ، بيضاء موردة ، من الأمام ومن الناحية اليسرى تتبدى جمالا أنيقا نبيلا ، أما عارضتها اليمنى فمشدودة فى تقلص ، مدبوغة باحمرار ضارب للسواد ، وبها بقع منفرة ونتوءات كالدرن . جلست واضعة رجلا على رجل وهى ترنو إليه بغموض وتحفز حتى أثارت حب استطلاعه الى أقصى حد . قال وهو واقف أمامها :

ـ ما أسعدنى بك يا سمراء !

ـ لا تكذب ، أنت تسعد بالعصافير التى أجىء بها . .

ـ ولكنك تعلمين كم أحبك وأحترمك .

فقالت ساخرة :

ـ لا يهمنى الاحترام!

ـ لا شىء يرفع من شأن الإنسان كالمأساة .

ـ لا تذكرنى بأشياء لم أعد أتذكرها .

فقال بلهجة صادقة :

ـ نحن فى زمن خسيس معبوده المال ، وبوسعك أن تربحى منه الآلاف ، ولكنك تجودين بكل جميل من أجل اللهو والحب لا المال ، أنت من كوكب آخر . .

فقالت ضاحكة فى سرور :

ـ أنا صاحبة محل وغنية . .

ـ لا تبخسى حقك من الثناء ، لو أردت لبلغت درجات أخرى من الغنى لا يقاس بها غناك!

فقامت بنفسها إلى البار لتملأ كأسها من جديد ثم عادت إلى مجلسها وهى تقول :

ـ اسمع يا عزيزى الكهل الفاسق ، إنما قصدتك لمسألة تهمنى شخصيا!

ـ فى خدمتك ، لعلك تريدين مشاهدة آخر الأفلام .

فقالت بهدوء ، وهى تنفذ إلى روحه بنظرة عينيها :

ـ أريد عليات!

لاح لأول وهلة كأنما يحاول تذكر صاحبة الاسم فقالت بتحد :

ـ الفتاة التى دعوتنى لإجهاضها!

ـ آه ، ولكنى لا أدرى عنها شيئا تقريبا إلا إذا جاءتنى بنفسها ، هل لى أن أتطفل فأسأل عن السبب؟

فقالت ببساطة :

ـ الظاهر أنى عشقتها .

فضحك حسنى ثم تساءل :

ـ ترى هل تحب هى ذلك؟

ـ عندى أمل!

ـ أليس لديك من البنات ما . . .

فقاطعته بحدة :

ـ ما هذا الكلام الفارغ الذى لا يتوقع من كهل فاسق مجرب مثلك!

ـ معذرة، ولكنها كانت بين يديك؟

ـ زارتنى مرة فى المحل للشكر ثم اختفت . .

ـ لعلها اختفت متعمدة . .

ـ كيف أتصل بها؟

ـ أعدك بأن أبلغها رغبتك فى زيارتها إذا زارتنى يوما .

فقالت بغضب :

ـ لا جدوى منك . أنانى تأخذ ولا تريد أن تعطى ، وتنسى أيادى البيضاء عليك!

ـ سعيت يوما إلى تزويجك من رجل ممتاز .

ـ أنت تعلم أننى لا أحب الرجال فلا تمن علىّ!

فتفكر قليلا ثم قال :

ـ أعرف مثلا أنها موظفة بالشئون الاجتماعية ولكننى لا أدرى فى أى فرع هى ولا ما هو عنوانها ، وتتناهى إلى بعض أخبارها أحيانا عن طريق والدها نادل مقهى الانشراح بشارع الشيخ قمر .

فقالت باهتمام :

ـ سأنتظر مكالمة تليفونية منك .

وتبادلا نظرة طويلة ثم قال لها باسما :

ـ اشربى كأسك يا عزيزتى!

٣٥

الحياة تظلها سحب دكناء من القلق والمخاوف الصامتة . بذلك شعر مرزوق أنور . وفتنة تشاركه مشاعره وإن تظاهرت بغير ذلك . والاستمتاع بمظاهر الحياة البراقة المحفوف بالضحكات الرنانة وقرع الأنخاب لا يغير من الحقيقة شيئا . وكلما زادت المجاملات الناعمة زاد الحذر والتوجس ، وتلوث فى مكامنها كالديدان . وقال لها مرزوق يوما :

ـ ها هو موسم التعاقدات انتهى ولم نظفر بعقد واحد!

فقالت باستهانة :

ـ ليكن عام إجازة .

وكان يقرأ قلبها ويسمع ما يقال فى الوسط فقال :

ـ لا يمكن أن تسير الأمور هكذا .

فقالت بإصرار :

ـ فلتسر كما تشاء .

هذا عناد المعركة لا الحب . ومن يدرينى إن كان للحب وجود إلا كقشرة لنواة المعركة الصلبة . الشخص الذى أحبته لم يعد له وجود . قال :

ـ لا يجوز أن ننتظر حتى نفلس معا .

ـ أنت كثير المخاوف ، والدنيا أفضل بكثير مما تتصور .

ـ أرجو ألا ترفضى عملا بسببى مستقبلا . .

ـ حتى لو كان مع أحمد رضوان ؟

ـ ولو كان مع أحمد رضوان .

ـ ولكننى مصممة !

فهتف بيأس :

ـ إنى أرفض . .

ـ أتقبل أى دور ثانوى ؟

ـ لن يكون أفضل من الالتحاق بوظيفة عادية .

فانزعجت وقالت :

ـ صارحنى بما فى قلبك .

ـ أو أن تعملى فى حقلك وأن أعمل فى حقلى الأول .

فأحاطت عنقه بذراعيها وقبلت خده وقالت :

ـ أنت ضحية حبى !

فقال وهو يدارى استياءه :

ـ لا مكان للعطف هنا !

فقالت بعتاب :

ـ ولكننى أحبك أولا وأخيرا .

فقبل خدها أيضا وقال :

ـ أصغى إلىّ ، لقد لفظت نفسى الفن . .

فحولت وجهها عنه فى تأثر بالغ فقال :

ـ لم يعد يهمنى فى شىء .

وصمتت قليلا ثم قالت :

ـ ما يهم حقا هو حبنا !

ـ من الجنون أن نزحف إذا كان بوسعنا أن نحلق !

ـ ماذا تعنى؟

فلم ينبس . أطبق فكيه فتجلت قسوته الكاذبة . قالت :

ـ ما أكثر وساوسك !

فابتسم وقال :

ـ حذار من العطف !

فهتفت بحدة :

ـ لا تردد هذه الكلمة !

ـ سمعا وطاعة . .

وهى تتنهد :

ـ ما أتعس المواقف التى ليس لها حل !

ـ ولكن لكل موقف مهما تعقد حلا .

ـ على حساب الكرامة أو السعادة أو الاثنين معا .

ـ هو خير من الجمود الذى يشل الإرادة .

ـ لا أوافقك .

فقال بضجر :

ـ علينا أن نسلم بأن السعادة التى حلمنا بها لم تتحقق كما حلمنا بها !

فصاحت بنبرة منذرة بالبكاء :

ـ أنت تهيننى !

ـ كلامى لا يتضمن أى إهانة .

ـ هذا ظنك !

فقال بأسف :

ـ أردنا أن نركب فى جسمنا المشترك جناحا فانقلب عكازا !

فقالت بحدة :

ـ ما أردت إلا أن أتزوج من الرجل الذى أحبه .

فقبلها بطريقة آلية وقال :

ـ تقبلى اعتذارى .

ثم قام وهو يقول :

ـ سأتمشى فى الخارج قليلا .

ـ فى هذه الساعة من الليل؟

فقال وهو يمضى :

ـ فى هذه الساعة يعتبر المشى دواء .

٣٦

كانوا يدخنون فى سكون الليل يظلهم صمت مريح . حسنى حجازى يناجى الدخان الذى ينفثه بتمهل وانسجام، وعبده بدران يدخن سيجارة . كذلك عشماوى وهو قابع على كثب من دفء النصبة، وفى الخارج ترامت أصوات المنشدين فى مولد سيدى البيومى . وجاء بياع الفلافل يحمل رغيفا محشوا تتدلى من أطرافه بعض عيدان البقدونس فأعطاه لعشماوى، ووقف ينتظر النقود والآخر يلتقطها من علبة صفيح ببصره الأعمش . وفى فترة الانتظار قال له بياع الفلافل :

ـ تسلل رجالنا أمس إلى خطوطهم فدمروها . .

فهز عشماوى رأسه باعتزاز فعاد الرجل يقول :

ـ وسيعقب ذلك زحف الجيش !

فقال عشماوى وهو يعطيه القروش :

ـ ولا تنس هجمات طياراتنا، جاء دورنا . .

ذهب الرجل راضيا . ومضى عشماوى يتناول طعامه ويتمطق بصوت مسموع تخللته قرقرة النارجيلة . والتفت عشماوى نحو حسنى حجازى وقال :

ـ جاءوا له بعربة ذات ثلاث عجلات يقتعدها ويسيرها بيديه، ولكنه لا يخرج بمفرده بعيدا . .

لم يدرك حسنى حجازى عمن يتحدث بادئ الأمر، ثم تذكر حكاية جاره البطل الذى بترت ساقاه فقال :

ـ عظيم . . عظيم . .

وسأله عبده بدران :

ـ هل يمكن أن يتزوج يا عشماوى؟

ـ يمكن، علمت ذلك من جدته!

فقال حسنى حجازى:

ـ زوجة تكسب ثوابا، الإنسان يعتاد أى شىء ولكنه لا يطيق الوحدة..

فقال عم عبده:

ـ إبراهيم يواجه الحياة بعزيمة ونجاح.

فقال عشماوى:

ـ إنك متعلم وذلك ميزة كبيرة.

وبصراحته الخشنة راح يقارن بين العمى وفقد الساقين ثم تأوه قائلا:

ـ فى شبابى كنت إذا اخترقت طريقا يختفى اليهود من جوانبه..

ولم يتمالك حسنى نفسه فضحك حتى سعل. وعادوا إلى الصمت فترامى إليهم مرة أخرى صوت المنشدين. وهز عشماوى رأسه طربا وقال:

ـ كنت يوما من مريدى البيومى..

فقال له عبده بدران:

ـ طول عمرك مجرم ولا شأن لك بالطريقة..

فقهقه العجوز ولم يعلق. وأقبل عم عبده نحو حسنى حجازى كمن ضاق بسره، وكان الأستاذ يحسن قراءة أفكاره فسأله عما وراءه فقال:

ـ عليات جاءها ابن الحلال..

فأبدى الرجل سروره متمتمًا:

ـ حقا!

ـ شاب موظف، أخوه قاض كبير.

ـ على بركة الله.

وسكت الرجل متفكرا ومترددا، ثم قال:

ـ قيل لى إنه كان مسجونا!

فتساءل عشماوى:

ـ هل يوظفون المساجين فى هذه الأيام؟!

فاستدرك عم عبده قائلا:

ـ لأسباب سياسية..

فقال حسنى مخاطبا عشماوى :

ـ إنها لا تمس الشرف يا عشماوى .

وقال عم عبده :

ـ وإبراهيم موافق ، ولو كانت تمس الشرف لما وافق أبدا . .

فقال عشماوى :

ـ وأنا كنت مسجونا سياسيا مرة .

فقال عبده :

ـ مرة ! . . ثم عشرات المرات لا علاقة لها بالسياسة !

ـ إن أردت الحق فالمخدرات كالسياسة لا تمس الشرف !

ـ فلنسلم بذلك ، والضرب والاعتداء ؟

فقال بفخار :

ـ فتونة ومجدعة !

فهتف ضاحكا :

ـ عليك اللعنة !

فقال عشماوى وهو يضرب كفا على كف :

ـ ماذا جرى للدنيا ؟ ! نسوان عرايا فى الشوارع ، مساجين موظفون ، ويهود غزاة !

ورجعوا إلى الصمت وسماع الأناشيد . .

٣٧

كانت عليات تعمل بالوزارة عندما زارتها ـ بلا سابق معرفة ـ إحدى العاملات فى محل سمراء وجدى . أخبرتها أنها تعبت كثيرا قبل أن تعثر على مكانها ودعتها إلى مقابلة سمراء فى محلها بشارع شريف . انقبض قلب عليات . إنها لا تنسى فضل سمراء . وسبق أن زارتها فى المحل للشكر . ولاحظت أنها راغبة فى توثيق علاقتها بها بحرارة غير عادية وبأسلوب أثار فى نفسها الريب . لذلك لم تفكر فى زيارتها مرة أخرى . وانقبض قلبها إزاء دعوتها الجديدة ـ إنها حزمة من المتناقضات ، فهى نبيلة المظهر مترفعة عن المال ، ولكنها ذات خبرة فاجرة وعلاقة حميمة بذلك الدكتور التى تشبه عيادته مشرحة الجثث .

ومضت ذاك المساء إلى حسنى حجازى وقصت عليه قصة الدعوة وجملة وساوسها. وارتبك الرجل بادئ الأمر، ثم قال ببساطته المخيفة أحيانا:

ـ سمراء مغرمة بك!

ليس من الممكن أن تحمل قوله على محمل آخر رغم قابليته لأكثر من معنى فارتاعت حقا، ولكنها تغابت وسألته:

ـ ماذا تعنى؟

ـ أنت تفهمين تماما ما أعنيه.

فقطبت وزمت شفتيها فسألها برقة:

ـ ألم تكن لك تجربة فى ذلك؟

فقالت بتقزز:

ـ كلا.

ـ إذن ستنشأ متاعب!

فتمتمت بخوف:

ـ متاعب؟!

حدثها بإيجاز عن تاريخ سمراء وجدى وحاضرها، ثم قال:

ـ إنها عالم من التعاسة والمغامرة والمتعة..

فقالت بقلق:

ـ لن أذهب.

ثم بتوسل:

ـ أنت قادر على تجنيبى أى شر.

فقال لها بعطف:

ـ سأحاول ولكننى لست واثقا من النتيجة..

ولم يتخل عن مسئوليته فدعا سمراء. قدم لها الشراب ممزوجا بمزاجه العذب وهى تراقبه طيلة الوقت بنظرة ثاقبة من خلال أهدابها الطويلة، ثم قالت له بذكاء:

ـ ادخل فى الموضوع بلا لف!

فضحك عاليا وقال:

ـ صاحبتك ليست من أهل ذلك.

ـ لم تلبى دعوتى.

ـ جاءتنى أنا .

ـ صارحتها؟

فقال برقة متوددة :

ـ ليست من أهل ذلك وهى شارعة فى الزواج فاصرفى عنها النظر !

فاجتاحها موجة عاتية من الهياج وهتفت :

ـ الخنزيرة !

ـ سمراء ! !

ـ إنى إذا غضبت .

ـ لا داعى للغضب .

ـ دع تقدير ذلك لى أنا .

فداعب ذقنها بأصابعه وهو يسأل :

ـ وهل بالقوة يمارس الإنسان ما لا يحب؟

ـ الخنزيرة ، هل نسيت؟

ـ سمراء . عليات كانت تجربة مريرة مثلك ، وهى شارعة الآن فى الزواج .

ـ لن تتزوج !

فهاله القرار وقال :

ـ لست قاسية ولا شريرة .

ـ إذن فأنت لم تعرفنى بعد .

ـ ولكن ماذا تنوين يا عزيزتى؟

ـ سأطلع خطيبها على حقيقتها .

فهتف :

ـ لا .

ـ بلى .

ـ لا أصدق .

ـ سوف ترى .

فأسكتته الهزيمة مليا ثم قال :

ـ لقد تركت معذبك الأول يمرح بلا عقاب !

ـ كنت غرة .

وتحول حسنى عنها فى يأس ومضى نحو البار .

٣٨

اختفى مرزوق أنور فلم يعثر له أحد على أثر. فعل فعلته واختفى. قضى على نفسه بحبس شبه انفرادى فى بنسيون بحلوان. ومن محبسه تابع أخباره فى المجلات الفنية. أخبار طريفة حقا. مرزوق يهرب من بيت الزوجية ويرسل إلى فتنة ناضر وثيقة الطلاق ورسالة مؤثرة، فتنة تنهار عصبيا ويعودها الأطباء، فتنة تبحث عن مطلقها فى مظانه فلا تقف له على أثر. وتمضى فترة تخفت بعدها الأصوات وتنداح الحادثة فى خضم الحادثات. وتمضى فترة أخرى ثم ينشر خبر عن قبول فتنة العمل فى فيلم جديد من إخراج أحمد رضوان. وقال مرزوق لنفسه: إنه كالميت، ولكن أتيح له ما لم يتح لميت من قبل وهو أن يشهد ما خلفه وراءه من وجود وعدم. وقال أيضا بأنه لم يكن أمامه إلا إحدى اثنتين، فإما حياة كلب أمين أو قواد. ولما استقر كل شىء فى موضعه رجع إلى أهله وقرر السعى إلى الالتحاق بوظيفة.

وما تدرى عليات يوما ـ وهى فى مكتبها ـ إلا وهو يفاجئها بزيارة. تطلعت إلى وجهه نصف دقيقة كأنما هى فى شك من هويته. جرحه ذلك حتى أدماه. وقال لها:

ـ لم يكن مفر من حضورى.

ولم تفهم مراده، ووضح له أنها برمة بزيارته، ولكنه قال:

ـ أود أن أعتذر لأستطيع مواصلة الحياة.

فتمالكت مشاعرها وقالت:

ـ لا أهمية لذلك.

جلس بدلا من أن يذهب وقال:

ـ فلنتناول غداءنا معا لأقول كلمتين.

فقالت ببرود:

ـ لا معنى لذلك البتة.

ـ إنى مُصرّ.

ولمست فيه حالة مخلخلة تقتضى الملاينة فوافقت. ذهبا إلى الكورسال القديم فتناولا غداء بلا استطعام ثم طلب قهوة، وأشار إلى وجهه وهو يقول:

ـ هذا ما آل إليه حالى.

فمسحت بإرادتها أى ظل للتعبير وتمتمت :

ـ سوء حظ حقا ولكن يمكن قهره والانتصار عليه .

ـ شكرا .

ـ لا داعى لليأس مطلقا ، تذكر مثال أخى إبراهيم .

فكرر شكرها . وشعر بمناعة تطوق روحها كالحصن فجعل يفكر صامتا ثم قال :

ـ لا شك أنك غاضبة علىّ .

فقالت ببساطة صلبة :

ـ مضى ذلك وانقضى .

فقال باسما بسمة لا معنى لها :

ـ ذلك أدهى وأمر .

فلاذت بالصمت ، فقال :

ـ نرتكب أحيانا جرائم تحت سيطرة جنون لا معنى له .

فقالت معترضة :

ـ بل له معنى .

فقال بلهجة تعلمها من التمثيل ، رغم صدقه :

ـ قلت لنفسى لعل ما نالنى من عقاب يشفع لى فى الغفران .

ـ لا أدرى عم تتكلم .

فتردد مليا ، ثم تساءل :

ـ هل أطمع فى غفرانك؟

ـ لا أدرى عم تسأل .

ـ لكنه واضح .

ـ لم يعد لذلك أهمية .

ـ ولكنه بالنسبة إلىّ هو كل شىء .

ـ أكرر بأنه لم يعد لذلك أهمية .

فالتمعت عيناه ببريق أمل وقال :

ـ لعله يفتح لنا صفحة جديدة؟

فقالت بحزم :

ـ أى صفحة جديدة؟

ـ لكنك تفهمين قصدى تماما .

فقالت بنبرة قاطعة :

ـ لا تضيع وقتك سدى .

ـ أصغى إلىّ . .

ـ أرفض مجرد التفكير فى ذلك .

ـ لننتظر حتى يهدأ غضبك .

ـ لست غاضبة . صدقنى ، ولكنى أستعد لصفحة جديدة أخرى .

وأرته دبلة خطوبتها . فتمتم :

ـ حقا؟

ـ سأتزوج فى وقت قريب .

وساد الصمت حتى تساءل :

ـ أهو رأى نهائى؟

ـ طبعًا .

وقامت وهى تقول :

ـ آن لى أن أذهب .

ومضت وحدها . وجدت فى قلبها ارتياحا شاملا وشعورا بالتحرر والنصر . ومن أمارات التوفيق أنها لم تضمر نحوه كراهية ولا حنقا ولا شماتة ، فقالت لنفسها : مات تماما فما أعجب ذلك .

٣٩

كانت عليات تجالس حامد فى دار الشاى الهندى وإذا بسمراء وجدى تظهر فجأة فتقف عند طرف المنضدة بينهما . بهتت عليات واختفى الدم من وجهها . ودهش حامد وجعل يردد عينيه بينهما وهو لا يفهم شيئا . وهمّ بالكلام ولكنها سبقته فقالت مخاطبة عليات ورائحة خمر تتردد مع أنفاسها :

ـ أنا عنيدة كما ترين . .

فتساءل حامد :

ـ ما الخبر؟

فقالت له سمراء:

ـ ادعنى أولا للجلوس كما يقضى الذوق.

ورأى فى موقف المرأة خطرا خفيا يهدد سلامتهما فقال:

ـ ولكنى لم أتشرف بمعرفتك.

فجلست وهى تقول متحدية:

ـ ها أنا أجلس بلا استئذان.

وضحكت ضحكة تعتبر مزعجة فى وقار السكون فقال حامد:

ـ تصرف حضرتك غير لائق..

فقالت ساخرة:

ـ ولكن خطيبتك تعرفنى وقد جئت لأشكوها إليك.

فقال متأثرا بتضعضع عليات:

ـ ما زلت أعتبر تصرفك غير لائق.

فتجاهلت احتجاجه وقالت:

ـ أشكو إليك فتاتك فقد قدمت لها خدمة لا تقدر بمال فلم أنل منها إلا الجحود..

همت عليات بصفعها، ولكنها خافت من تفجر مضاعفات مجهولة، جبنت فعجزت حتى عن الكلام وتساءل حامد بغضب:

ـ ماذا تريدين؟

فقالت سمراء بتحد فاجر:

ـ نتكلم أولا عن الخدمة وسأترك لك تقدير الثمن.

تمتمت عليات:

ـ مجرمة، أنت مجرمة..

فضحكت سمراء بقسوة وقالت:

ـ الله يسامحك.

فقال حامد بحنق:

ـ من فضلك، أنا لا أسمح...

فقاطعته بقحة:

ـ تصور فتاة من أسرة شعبية، اضطربت أحشاؤها بجنين سهوا وهى...

فقاطعها بغضب:

ـ اذهبى من فضلك .

فواصلت حديثها :

ـ كيف تتصور بؤسها؟! وكيف تقدر صنيع من يخلصها من الجنين ويرد إليها شرفها؟

وجعل حامد يشير إليها بأصبعه مهددا وقد أعجزته انفعالاته عن النطق، ثم قال :

ـ من الأفضل لك أن تذهبى . .

ـ تهددنى؟

ـ نعم .

فسألت عليات متهكمة :

ـ ما رأيك يا عليات؟

لم تنبس عليات . وغلب الغضب والانفعال حامد فخرس . واربد وجهه بألوان قاتمة .

وضح أن عاصفة عاتية اجتاحته . وآمنت سمراء بأنها أصابت الهدف وأنها أنهت مهمتها على خير وجه . وهمت بالقيام تحت تأثير خوف طارئ . ولكن حامد اجتاز أزمته . كبح انفعالاته . مرق منها باردا صلبا عنيدا . سأل المرأة :

ـ أأنت التى قمت بتلك الخدمة؟

فهزت رأسها بالإيجاب فسألها متحديا :

ـ لعليات؟

فهزت رأسها مرة أخرى . فقال وقد سيطر على أعصابه تماما :

ـ أنا مدين لك بالشكر، أى ثمن تطلبين؟

فتفحصته باهتمام لترى لأى درجة هو جاد أو غاضب، فعاد يسألها بهدوء :

ـ ماذا تطلبين؟

فداخلها اضطراب وحيرة فقال :

ـ يبدو أنك لا تريدين شيئا، وعلى ذلك فأرجو أن تخلى لنا الجو لنواصل حديثنا!

وقامت متعثرة بالحيرة ثم مضت فى عصبية .

أسندت عليات رأسها إلى يدها وأغمضت عينيها فى إعياء موشكة على الانهيار الكامل .

ونظر إليها فى صمت وحزن . وشعر بالعاصفة فى قلبها فمال نحوها بعطف وقال :

ـ أقترح أن نسير فى الهواء الطلق .

رفعت رأسها وقالت باستسلام يائس :

ـ حامد . . .

فقاطعها بلطف :

ـ لا داعى للكلام ، نحن فى حاجة إلى الهواء الطلق .

٤٠

كان حسنى حجازى يعانى قلقا فى باطنه بخلاف عادته فى مجلس الليل الهادئ بالانشراح . أطلق كامن قلقه فى النارجيلة فمضى يأخذ أنفاسا متتابعة حتى اشتعلت الجمرات واحترق التبغ نافثا رائحة فظة . وتوقع طيلة الوقت أن يروح عم عبده بدران عن حزنه فيعلنه بفسخ خطوبة عليات . وها هو يقف مستندا إلى غطاء الجدار الخشبى ، يدخن سيجارة ، ونظرته الثقيلة المعتمة ثابتة كأنه موشك على النعاس . لعله يتحين الفرصة ليبوح بهمه ، وعند ذاك سيجد هو نفسه فى صميم مأساة لأول مرة . وكان عشماوى مقرفصا قرب النصبة . لا يثرثر كعادته ، لوعكة برد ألمت به ، فبدا كعجوز يحتضر . وتجنب النظر ناحية عم عبده . وشم الرجل رائحة التبغ المحترق فاقترب قائلا :

ـ هل أبلل لك التبغ ؟

فانتبه حسنى لمعاملته العصبية للنارجيلة وقال له :

ـ غيره . .

ومضى الرجل بالنارجيلة فجدد التبغ ثم رجع بها بتبغ جديد كسبيكة ذهبية . وقال :

ـ زارنا مرزوق أنور مع سنية وإبراهيم !

فأنس حسنى خيرا وقال بحماس مفاجئ :

ـ يا له من جرىء !

ـ واعتذر ، وهنأنى على خطوبة عليات الجديدة .

ـ المسامح كريم .

ـ وجد وظيفة فى مؤسسة النقل وسيكمل تعليمه للحصول على شهادة بعد الليسانس .

فقال حسنى وهو يوغل فى الارتياح :

ـ جميل أن يجدد الإنسان حياته . .

ـ وأصبح أمله الأول والأخير أن تتاح له الهجرة يوما ما .

ـ الهجرة موضة هذه الأيام الغريبة .

وقال لنفسه إن عليات بخير . وإن سهم سمراء قد طاش . وشعر بامتنان نحو العقليات التى تتجدد وتتجاوز الزمن . وتشجع فسأله :

ـ وما أخبار عروستنا؟

فقال عم عبده :

ـ الخطيب يرغب فى الزواج فى أقرب فرصة .

ـ على خيرة الله!

فقال الرجل بأسف :

ـ لا أستطيع أن أقدم لها شيئا ذا بال .

ـ لا أهمية لذلك .

وترامت إليه حركة عند الباب . التفت فرأى سمراء وجدى واقفة كتمثال . نظر إليها عم عبده أيضا بدهشة . ورفع عشماوى رأسه وضيق عينيه ثم فغر فاه . ارتج قلب حسنى ووقف شعره . وتمتم وهو لا يدرى :

ـ غير معقول!

ألقت عليه نظرة باردة مهددة ، ثم حولت عنه رأسها بتحد . نظرت إلى عم عبده بدران وتساءلت :

ـ عم عبده بدران؟

ذهل الرجل . أقبل نحوها ملبيا فى أدب ، ومتأثرا غاية التأثر بمظهرها الأنيق الفاخر ، ثم قال :

ـ أفندم؟

مضت إلى ركن المقهى الأقصى فتبعها على الفور . شدت إليها الأبصار . خمن حسنى حجازى ما وراء مجيئها بفزع . وتذكر وهو يختنق أنها استدلت على المكان بإرشاداته التى وردت ضمن حديثه بلا قصد . إنه محور الرحى التى تطحن مجموعة من البشر لم يكن لها طيلة حياته إلا المودة . وثمة شر يوشك أن يحيق بالجميع ولكن بأى حكمة يمكن دفعه؟ التدخل من ناحيته يعنى افتضاح أمره ، وسيؤدى فى النهاية إلى هتك الستر عن البيت السحرى . ولكن ينتفى الخطر إذا التزم بموقف المشاهد؟! وتملص من الشلل أو هكذا خيل إليه . فتح فاه وقال محذرا :

ـ إنها امرأة مجنونة ومخمورة!

ولكن أحدا لم يسمعه. لم يخرج الصوت من فيه. خذلته قواه فاحتواه العجز. لم تتحول عيناه عنهما. أرهف السمع ولكنه لم يسمع حرفا مما يقال. المرأة تهمس والرجل يصغى باهتمام شديد. وعشماوى ينظر ويصغى ولكن دون جدوى. وتأرجح المجلس بحسنى حجازى وغاص فى باطن الأرض. وطار عشه السحرى فى الهواء على أجنحة الزبانية. ركز بصره على وجه عم عبده بدران. ها هو يصغى وتتحرك شفتاه أحيانا. وها هى نظرته الثقيلة تزداد قتامة. ها هو يقطب ويجتاح وجهه موجة سوداء. تراجع رأسه الى الوراء كأنما تلقى لكمة ثقيلة. سقطت السيجارة من يده. قدحت عيناه شررا. ندت عنه آهة ذبيحة محشرجة. ترنح كالثمل. وفجأة انقض على المرأة يقبض على عنقها بكلتا يديه وشد عليها بكل قوته. وفزع حسنى فصاح:

ـ لا..

قام كالمجنون فارتطمت ركبته بالنارجيلة فألقت بها على الأرض وقام عشماوى وهو يتساءل:

ـ ماذا جرى؟!

هرعا نحو الرجل وحسنى يتوسل إليه:

ـ انتبه لنفسك يا عم عبده..

ولكن الرجل لم يفك قبضتيه الفولاذيتين حتى كانت المرأة جثة هامدة..

٤١

هل خنقت هذه المرأة؟

ـ نعم.

ـ لماذا خنقتها؟

ـ ....

ـ لماذا خنقتها؟

ـ ....

ـ ما علاقتك بها؟

ـ لا أعرفها.

ـ أتقول إنك لا تعرفها؟

ـ لم أرها قبل هذه الساعة المشئومة .

ـ فلماذا خنقتها؟

ـ . . . .

ـ خنقتها بلا سبب؟

ـ . . . .

ـ ماذا قالت لك؟

ـ . . . .

ـ الصمت معناه أنك تجود بعنقك لحبل المشنقة .

ـ . . . .

وأصر عم عبده بدران على الصمت .

ومن خلال شهادة عشماوى تجسدت صورة لظهور سمراء المفاجئ . وتطلعها إلى عم عبده بدران وهى تتساءل : «عم عبده بدران؟» وقول الأستاذ حسنى حجازى «غير معقول» ، ثم ذهاب المرأة وعم عبده إلى الركن الأقصى ، وحديثهما الذى لم يسمع منه حرف ، ثم الجريمة التى لم يستطع منعها أحد .

ـ أنادت عم عبده أم تساءلت عنه؟

ـ نظرت إليه وتساءلت : «عم عبده بدران»؟

ـ إذن فلم تكن تعرفه؟

ـ هو ذلك والله أعلم .

ـ أليس لديك فكرة عن كيفية مجيئها إليه؟

ـ كلا .

ـ ولا عما دار بينهما من حديث؟

ـ لم أسمع حرفا .

ـ ما مدى علمك عن علاقات صاحبك بالنساء؟

ـ أستغفر الله ، إنه رجل طيب محمود السيرة ومسكين . .

ـ كيف تفسر ارتكابه للجريمة؟

ـ لا أدرى ، إنه لم يقتل دجاجة فى حياته ، والعلم عند الله .

ـ لم قال الأستاذ حسنى حجازى «غير معقول»؟

ـ لا أدرى، ولكن مجىء امرأة جميلة إلى الانشراح بعد منتصف الليل أمر غير معقول.

ـ لعله كان يعرفها من قبل؟

ـ لم يتبادلا كلمة واحدة والعلم عند ربك.

ولم تأت شهادة الأستاذ حسنى حجازى بجديد عن مضمون الحادثة. وقد سأله المحقق:

ـ لم قلت «غير معقول»؟

ـ كان مجيئها إلى الانشراح فى تلك الساعة غير معقول.

ـ ألم ترها من قبل؟

ـ بلى، أعرفها معرفة عامة فهى صاحبة محل تجارى فى الشارع الذى أسكن فيه.

ـ هل لك أن تحدد لى نوع معرفتك بها؟

ـ معرفة عابرة ليس إلا.

ـ ولكنكما لم تتبادلا ولا تحية عابرة؟

ـ توقعت ذلك ولكنها تجاهلتنى تماما.

ـ ما تفسير ذلك فى نظرك؟

ـ لعلها كانت مستغرقة بالمهمة التى ساقتها إلى المقهى.

ـ وماذا تعرف عما كان بينها وبين عم عبده؟

ـ لا شىء ألبتة.

ـ وماذا دار بينهما؟

ـ لم أسمع حرفا.

ـ ما تفسيرك للجريمة؟

ـ إنها مذهلة ولا تفسير لها عندى.

ـ ما هى معلوماتك عن القتيل؟

ـ لا علم لى بدخائلها.

ـ ما تفسيرك لصمت المتهم؟

ـ إنه لغز ولا تفسير له عندى.

٤٢

رجال الشرطة شياطين. وهم يملكون جحيم الأرض وينفثون النيران فى الوجوه الشاحبة. يطرقون الأبواب بأيد أليفة كالأحباب ثم يفتحون البيوت كالأعاصير. ويقف الكهل بين أيديهم مجردا من الكرامة فيفترس الخوف قلبه ويوقن بأن الحياة وهم وضياع. وينقبون الجدران والحشيات والجيوب والخزائن فتتلاشى المسرات والأخيلة. عند ذاك يسير بينهم بلا أرجل، بلا أعين، بلا غد، تطن فى أذنيه همهمة مغلفة باللعنات، وإن يتبقى له رمق فسيردد بصوت محشرج: لقد انتهيت.

ـ اسمك؟

ـ حسنى حجازى.

ـ عمرك؟

ـ خمسون عاما.

ـ مهنتك؟

ـ مصور سينمائى.

ـ أتعترف بأنك مالك هذه الأشرطة السينمائية؟

ـ أجل.

ـ وأنك عرضتها على عشرات من البنات القاصرات؟

ـ أجل.

ـ وأنك مارست معهن الجنس؟

ـ أجل.

ـ ألا زلت عند قولك عن علاقتك العابرة بسمراء وجدى؟

ـ كلا، أعترف بأنها كانت صديقة قديمة.

ـ أكانت تجيئك بالبنات لمشاهدة أفلامك الجنسية؟

ـ أجل.

ـ وما علاقتك بعليات ابنة المتهم عبده بدران؟

ـ كانت صديقة.

ـ ألم تكن يوما عشيقتك أيضا؟

ـ بلى .
ـ أتعترف بأنك يسرت لها الإجهاض؟
ـ بلى .
ـ كيف؟
ـ استعنت بسمراء وجدى .
ـ وهل اعترفت لك سمراء بأنها عشقت عليات؟
ـ نعم .
ـ هل استعانت بك لتحقيق رغبتها الآثمة؟
ـ نعم، ولكنى حاولت صرفها عنها .
ـ أأرشدتها إلى مكان عم عبده بدران؟
ـ سألتنى عن مكان عملها فقلت لها إنى أجهله بالتحديد وإن كنت أعرف أنها موظفة بالشئون، وقلت لها أيضا إن علاقتها بى منقطعة تقريبا وإننى لا أعرف أخبارها إلا عرضا وفى مقهى الانشراح حيث يعمل والدها نادلا به، ولم أكن أتصور أنها ستقوم بزيارتها الغريبة التى انتهت بمصرعها .
ـ ولم قامت بزيارتها الغريبة؟
ـ كانت مصممة على الانتقام من عليات لعدم إذعانها لرغبتها الآثمة، فانقضت عليها وهى جالسة مع خطيبها وأخبرته على مسمع منها بحكاية الإجهاض، ولما خاب المسعى ولم يصب الهدف، أعادت التجربة مع الأب فقتلها .
ـ أتعتقد أن ذلك هو الباعث الحقيقى وراء جريمة عم عبده؟
ـ ولا باعث غيره فى رأيى .
ـ ألديك أقوال أخرى؟
ـ كلا .

كان حسنى حجازى ينطلق بسيارته فى أطراف المدينة عند الفجر . توقدت أعصابه فقضت على أى أمل فى النوم . وطاردته أشباح التخيلات طيلة الوقت . ستجرى التحريات حول سمراء وجدى وستكشف عاجلا عن عالم حافل بالجنون والغرائب . إنه خبير بهذه الأمور . سرعان ما يعرف كل شىء . وسيجر التحقيق العشرات من البنات والفتيات . وقريبا تجتاح العاصفة العاتية عشه السحرى السعيد ويكبله القيد الحديدى . ماذا يوجد فى بيت سمراء وجدى من صور وأرقام تليفونات وأسماء، ترى هل تدون مغامراتها فى مذكرات؟ هل يدعى إلى التحقيق؟ هل يزج به فى السجن؟ هل ينتحر؟ هل من مَخرج؟

٤٣

اجتمعت عليات وحامد فى دار الشاى الهندى. كانت منهوكة الأعصاب دامية العينين. واستعان هو بقواه الكامنة ليواجه الموقف ولكنه كان يعيش بوجدانه فى جو ملىء بالمخاوف المجهولة. وجعلت تردد:

ـ أبى . . أبى . . يجب إنقاذه.

ـ هذا هو المأمول حقا ولكن كيف؟

قالت مصممة:

ـ بأى ثمن.

ـ سنبذل ما نستطيع وفوق ما نستطيع.

ـ نحن نعرف كل شىء.

ـ أجل . . وهو مصر على الصمت صونا لسمعتك.

فقالت وهى تكتم انتحابها:

ـ لن أتخلى عنه.

ـ لن نتركه لينال عقوبة رهيبة لا يستحقها . .

فرنت إليه بنظرة دامعة وقالت:

ـ ذاك يعنى أن نشهد بما نعلم.

ـ لا مفر من ذلك.

ـ ولكن هل يصدقوننا؟

ـ من رأيى أن نعهد بالقضية إلى الأستاذ حسن حمودة وأن نشاوره فى الأمر قبل أن ندلى بشهادتنا.

ـ طيب.

ـ فالطريق واضح.

فعضت على شفتيها وتمتمت:

ـ سيعلن السر على الملأ.

ـ أجل.

ـ وستنشأ مصاعب ومتاعب .

فقال بإشفاق :

ـ ربما .

ـ إنى أضحى لإنقاذ أبى ، ولكنى سأجرك معى . .

فقال محتجا :

ـ لا أوافق على طريقتك فى التفكير .

ـ الحق أنى لا أريد أن أحملك فوق ما تستطيع .

وكان قلبه ينقبض حيال العواقب المتوقعة ، ولكنه قال :

ـ هذا شأنى أنا .

فقالت وهى تخفض رأسها :

ـ أنت فى حل من . . .

فقاطعها بحزم :

ـ عليات ! ما هذا الهراء ؟ !

استجمع إرادته ليسحق تردده . غاص قلبه فى هاوية . سخر من مخاوفه واحتقرها . قذف بنفسه فى تصميم صلب . قال :

ـ لن أتخلى عنك .

٤٤

لأول مرة تغرق الحجرة فى كآبة شاملة . وكان حسنى حجازى وعليات يجلسان متقابلين ومتقاربين يتبادلان نظرات جافة باردة كنظرات أصنام الآلهة والحيوانات فوق الأرفف . ولأول مرة تتخلى عن الرجل روح الدعابة والشمول فتطحنه أشياء مجهولة تطبق على الحجرة من عالم مجهول . قال لها :

ـ سألت عنك فى كل مكان .

فقالت بنبرات ميتة :

ـ كنت قادمة بنفسى على أى حال .

نفذت إجابتها إلى أعماق روحه فقال بقلق :

ـ دائما فى خدمتك .

ـ نصحت أن أوكل الأستاذ حسن حمودة المحامى .

فضغط حسنى على جناحى أنفه بأصبعيه متأملا ولكنه قال :

ـ إنه حجة فى الجنايات!

فانخفض صوتها قليلا وهى تقول :

ـ يقال إن أتعابه باهظة!

فتنهد بارتياح وقال :

ـ ستجدين تحت أمرك كل ما يلزمك .

ـ لا أدرى كيف أشكرك .

فتناول يدها بين يديه وتساءل :

ـ عليات ، ألم أكن دائما نعم الصديق؟

فأحنت رأسها بالإيجاب . انحدرت من عينيها دمعة فاستقرت فوق ركبتها . قال :

ـ لى عندك رجاء .

ـ ما هو؟

فسكت دقيقة كاملة ، ثم قال :

ـ ألا تذكرى اسمى سواء عند المحامى أو فى التحقيق؟

فقالت وهى تجفف عينيها :

ـ لا أهمية لذلك فيما أظن؟

فقال وبهجة من الأمل تشيع فى نفسه :

ـ عين الصواب ، فهو لن يقدم فائدة ولكنه سيضرنى كما تعلمين .

ـ لن أفعل ما يضرك .

ـ شكرا ، ممكن أن تقولى إنك عرفت سمراء فى محلها التجارى . وإنها حاولت أن تنشىء معك علاقة شاذة فرفضت ، ومن ثم أرادت أن تنتقم منك إلخ . . إلخ .

ـ هى الحقيقة فى جوهرها .

فقبّل يدها وقال :

ـ توكلى على الله ولا تحملى للنقود هما .

ولمدة دقائق ـ عقب ذهابها ـ شعر بأن الهم قد انجاب عن قلبه وبأن تيار الحياة يتدفق من قلبه نشيطا مهللا . أنجوت حقا؟ إن أكن نجوت فلن يمسسنى الضر مدى الحياة . ولكن لم تدم تلك الحال طويلا . وئدت بلا إنذار . عاد عقله يعمل ويفرز سمومه المنطقية . ما أهمية وعد عليات؟ وما قدرتها على الإفلات من حصار الاستجوابات؟ وهل تجدى شهادتها

إن لم تدعم بشاهد عيان مثله كان محور الأحداث ومحركها؟ وهناك أيضا التحريات التى تنشط فى كل مكان الآن مثل الذئاب الجائعة . . لا . . لا . . لا أمان . عليه أن يهرب . فى أول فرصة . ثمة وعد سابق بتصوير فيلم لبنانى فليطلب السفر فورا وقبيل أن يذكر اسمه فى التحقيق . سيستقر فى لبنان إلى الأبد . لا حياة له فى هذا البلد .

الوداع يا مصر . .

٤٥

يا لها من مفاجأة! أحق تقع هذه الأمور فى الحياة؟ وأن يدعى ـ هو للدفاع عن قاتل سمراء وجدى؟ نقل بصره بين عليات وحامد مخفيا انفعالاته وراء قناع بارد من التجرد . وقال :

ـ قرأت ما نشر عن الجريمة فى الصحف ففكرت طويلا فى سر صمت المتهم .

فقال حامد :

ـ نحن نعرف الأسرار كلها .

فقال الأستاذ بعجلة :

ـ معذرة ، احتفظ بها ، فإننى لم أقبل القضية بعد .

فقالت عليات :

ـ ولكنك ستقبلها طبعا؟

آه . سمراء وجدى . ترى لم قتلها الرجل؟ لفضيحة ما ولا شك . وسوف يقتضى الدفاع عنه النبش فى ماضى الفتاة والكشف عن فضائحها والتشهير بها فهل يقوم هو بذلك؟ وهل يستبعد فى تلك الحال أن ينبرى شخص مجهول لهتك سره المنطوى وتعرية الدور الفاضح الذى لعبه فى حياة الفتاة؟

ولم يتردد فأجاب :

ـ آسف يا آنسة ، لا وقت عندى ألبتة . .

فهتفت عليات :

ـ ولكنك لن تتخلى عنا؟

ـ الأمانة تقتضى أن أتخلى ، ولكنى سأعهد بها إلى زميل معروف لا يختلف فى تقديره اثنان!

ـ ولكننا قصدناك أنت!

فقال بلهجة مؤدبة ولكن نهائية :

ـ الأمانة وحدها التى تمنعنى .

وهمت عليات بالكلام فمال حامد نحوها قائلا :

ـ علينا أن نصدقه ونشكره، إن هى إلا عثرات فى الطريق ولكنه بات ممهدا لما نأمله . .

ولدى انفراد حسن حمودة بنفسه تمزق قناع الهدوء الذى تخفى خلفه . غاص فى مقعده وراح ينظر إلى السقف الأبيض بعينين ذاهلتين . لاحت له مخاوف غريبة كأشباح راقصة . وركبه إحساس لا معقول بأنه مطارد . ووثب من مجلسه كأنما هو المسئول عن ضعفه وراح يتمشى فى الغرفة ويقول بصوت مرتفع ليطرد الأشباح :

ـ محض أوهام، تاريخ ميت، الميت لا يبعث!

وكره الوحدة فغادر المكتب . استقل سيارته وجرى بها على غير هدى ساعة ثم هفا قلبه إلى لقاء صفوت مرجان فوجهها إلى شارع أحمد شوقى بلا ميعاد سابق . وجد الأستاذ منفردا فى الفراندا بشخص غريب لم يره من قبل . همّ بالانصراف، ولكن صفوت دعاه إلى الجلوس فجلس وهو يسائل نفسه : متى يستطيع أن يروح عن صدره ويفضى بانفعالاته إلى صديقه . وقام صفوت بالتعارف بين الرجلين . وقدم الغريب قائلا :

ـ أبو النصر الكبير من رجال المقاومة الفلسطينية .

فانفجر فى صدر حسن حمودة بركان من اللعنات . لم يكن من الذوق أن ينصرف فبقى على رغمه وهو يتلظى . وقال له صفوت :

ـ طبعا سمعت بقبولنا المبادرة الأمريكية؟

فأجاب بفتور :

ـ أجل .

ـ كنا نناقشها .

فقال بلا مبالاة :

ـ معذرة، سأشرب كأسا لأنى مرهق .

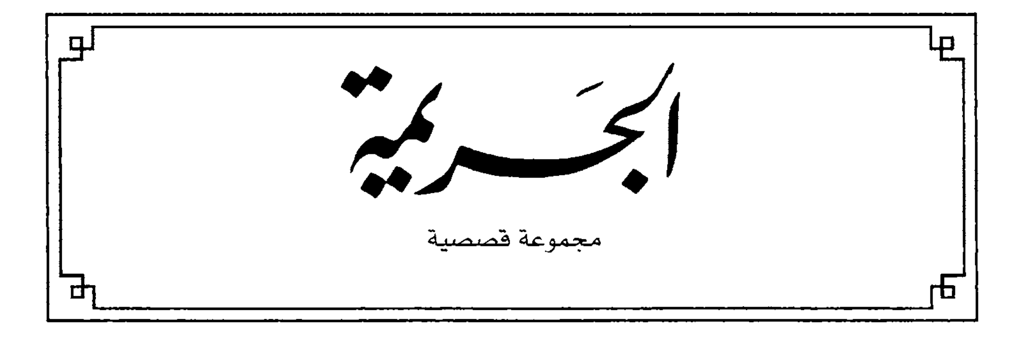
أما أبو النصر الكبير فقال يواصل حديثه الذى قطعه مقدم حسن حمودة :

ـ ولكن للمسألة وجها آخر، فالقضية ممتدة فى الزمن وليست بقضية هذا الجيل وحده، ولا بأس أن يتقرر فى لحظة زمانية ولضرورة أقوى منا مؤقتا التضحية بمجموعة باسلة من العرب فى سبيل صالح العرب ككل، ولكن الكلمة النهائية

ستظل سرا مقدسا فى طوايا الغيب، كما سيظل ميلادها رهنا بالإرادة، فإما نموت موتا غير مأسوف علينا، وإما نحيا حياة كريمة كما ينبغى لنا . .

تدفق الكلام من فيه هادرا كالموج .

وتابعه حسن حمودة بأعصاب متوترة، عيناه مغمضتان وكأسه فى قبضته لم يبق بها إلا ثمالة .



المحتويات

تحقيق

دق جرس الباب. انفصل جسداهما فى حركة متشنجة بالفزع. وثبا إلى ملابسهما وهو يهمس:

ـ قلت إنك لا تتوقعين قدوم أحد..

فقالت هامسة أيضا:

ـ لعله الكواء..

وكان يرتدى ملابسه بيديه وقدميه ويقول:

ـ يجب أن أستعد للاختفاء ولكن أين؟

ـ لا أظن أنك ستضطر إلى ذلك، وإذا وقع المستحيل فادخل تحت السرير..

وغادرت الحجرة وهى تحبك الروب حولها ثم ردت الباب. نظر إلى أسفل السرير ولكنه مضى بخفة إلى ما وراء الباب يتنصّت. سمع صوت الباب وهو يفتح، ثم وهو يغلق، ووقع قدمين ثقيلتين. فى لحظات خاطفة توارى تحت السرير. من القادم؟. ليس الزوج وإلا لجاء إلى حجرة النوم ليخلع ملابسه. ليس الزوج على وجه اليقين فقد اتصلت به تليفونيا فى الإسكندرية منذ ساعة واحدة. إنه فيما يبدو من المترددين على

البيت، بل هو من أهل البيت على نحو ما وإلا ما اقتحمه فى هذه الساعة من الليل. لبد فى مكمنه يمزقه القلق والإحساس بالنكد بعد أن ثمل بدفء اللذة. وليصبر فسيذهب عاجلا، لا يمكن أن تطول الزيارة إلى ما لا نهاية، وسينتهى بالتالى عذابه. انقضت عليه فكرة كحشرة طائرة، ألا يحتمل أن يدخل القادم حجرة النوم فيرى زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاتة؟. هل يزحف إلى الخارج ليعود بالزجاجة والعلبة؟. لكنه لم يتحرك، لم يجد الجرأة الكافية، وأطبقت عليه التعاسة أكثر فأكثر. ومضى الوقت وطال وثقل. تلهى بالنظر فى نقوش السجادة وألوانها وقد اختلطت وغامت تحت نور الأباجورة الأحمر الخافت، وإلى أرجل المقاعد والشيفونيرة المغروزة فى وبر السجادة. وارتعد لسماع صوت طارئ، ثم رأى باب الحجرة وهو يفتح فى هدوء. دخل شخص بلا ريب، ها هو حذاؤه الأبيض ذو السطح البنى وطرف بنطلونه. واتجه يسارا نحو الصوان ففتحه. وقف أمامه دقيقة أو دقيقتين ولكن أين لطيفة؟. وأغلق الصوان ثم مضى نحو الباب فى هدوء كما جاء. ترى ما معنى ذلك؟. ومتى يخرج من زنزانته؟. واشتد به التوتر والإرهاق واليأس. خيل إليه أنه وقع فى شرك وأن يدا حديدية تمتد للقبض عليه وأن قدميه تندسان فى حذاء أبيض ذى سطح بنى، وأن عليه أن يرسم خطة كاملة للتملص من مأزقه فى زنزانته. وقال له صوت باطنى يضطرم بالرعب والإلهام أن نجاته رهن بقوة خياله، وأنها وحدها القادرة على تحويل الكابوس إلى حلم. وهو لن يبقى تحت السرير إلى الأبد فى هذا الصمت العميق العجيب. إنه يمد ذراعه لينظر فى الساعة، ويخرج رأسه فى حذر كالسلحفاة ليتنفس هواء نقيا بعض الشىء. ويرهف السمع فيجد هدوءا مخيفا ولكنه يشجع على مغادرة الزنزانة. كأن الموت يربض فى الظلام مجمدا كل حركة مسكتا كل صوت. وأرهقه التعب لحد التهور. وتجمعت كل قواه المضمحلة فى وثبة جنونية للدفاع عن النفس فى مغامرة مرتجلة يائسة..

* * *

طلع الصبح دون أن يغمض له جفن. سمع دقات رقيقة على باب حجرته. وجاءه صوت محشرج هاتفا:

ـ سى عمرو، اصح..

ما أجدر أن يتغيب اليوم بعذر ما ولكنه نبذ الفكرة بلا تردد قائلا لنفسه «هو الجنون بعينه»، وصاح:

ـ صحيت يا أم سمعة!

ولما جلس إلى المائدة الصغيرة فى الصالة رأى طبق المدمس وقدح الشاى باللبن والرغيف المجمر فمد يده إلى القدح وهو يقول:

ـ سأكتفى بالشاى..

فلم يفصح وجه العجوز عن تعبير . وجه ذو سحنة واحدة . ولكنها قالت :

ـ كل لقمة تسند قلبك . .

المنظر المرعب لا يبرح مخيلته . يعذبه ويطارده . فر بقوة تركبه وتدفعه بلا حذر . نسى زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاتة فلم يذكرهما إلا فى ظلام حجرته . ارتدى ملابسه وغادر الشقة . حمل الأرض فوق رأسه . ابتاع جريدة الصباح وهو يخترق شارع القبة بالجيزة ولكنه قال لنفسه «لم يكتشف شىء بعد» . وأخيرا وجد نفسه جالسا إلى مكتبه بالإدارة . ونظر إلى المكتب الخالى بعين متلصصة ، وهو يقع فيما أمامه على الجانب الآخر للحجرة . وشرع فى العمل وهو يختلس إليه بالنظر . إذا تمت له النجاة فسيحزن عليها طويلا أما الآن فلا وقت لديه للحزن . وتساءل الرئيس :

ـ ست لطفية لم تحضر ، ألم تعتذر؟

ولما لم يسمع جوابا عاد يقول :

ـ الموظفات أعذارهن لا تنتهى . .

وأثار قوله ضحكات على سبيل التشفى أو الملق . لم يشترك فى الضحك . تساءل فيما بينه وبين نفسه ترى ألم يلاحظ أحد شيئا مما كان يتبادل فى صمت بينه وبين المكتب الخالى؟ ربما أدلى شاهد بملاحظة عابرة تقلب دنياه رأسا على عقب . أو يكون آخر رآهما فى أحد منعطفات شارع الهرم . ثم إنه نسى هناك زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاتة . أى أسرار يمكن أن تبوح بها الزجاجة والعلبة؟ . إن كل شىء ينطق أمام شياطين المحققين ويخلق الأساطير . وغير بعيد أن يكون قد نسى أشياء أخرى . وبصماته انطبعت بلا حساب ولا حذر . وربما وقع المحققون فى الشرك وأغمضوا العين عن القاتل الحقيقى .

وجاءه صوت الرئيس وهو يقول بصوت آمر رنّان :

ـ يا سيد عمرو ، سأحول إليك الأوراق العاجلة الداخلة فى اختصاص ست لطفية . .

لماذا اختاره هو بالذات؟ . ربما لأنه أحدث الموظفين عهدا بالوظيفة . أم تراه يعنى شيئا وراء ذلك ؟ . إنه قصير ماكر ذو نظرة تحتانية فهل يعنى شيئاً آخر حقا؟ ! . واسترق نظرة من الوجوه ليرى أثر الأمر الإدارى ولكنه لم يقرأ شيئا . كل شىء هادئ وعادى . والقاتل مجهول فما معنى الخوف؟ . وكان يصارع التشتت والتمزق عندما سمع صوتا غريبا يسأل بأدب :

ـ هل الست لطفية موظفة فى هذه الإدارة؟

فأجابه موظف :

ـ أجل ولكنها لم تحضر اليوم .

نظر إلى القادم باهتمام فرأى شابا طويلا نحيلا غامق السمرة يرتدى قميصا أزرق

وبنطلونا رماديا، سرعان ما غادر الحجرة على أثر الإجابة التى تلقاها. لم يسأله أحد عن هويته ولم يعلن هو عنها، ونسى تماما مجرد اختفائه. فكر فيه طويلا وساورته مخاوف شتى. وتجسدت لمخيلته الجثة ربما للمرة الألف. وتذكر كيف انهزم لدى رؤيتها ففر كالمجنون. غرق فى أفكاره ثم صحا بعد وقت لا يمكن تحديده على حديث يدور حول حذاء أبيض. ارتعد قلبه. ماذا يقولون؟. أحدهم يقول إن الأحذية البيضاء باتت نادرة الاستعمال، فقال آخر إن الحذاء يعجبه، فعاد الأول يقول إنه يتسخ لأوهى الأسباب ويصعب تنظيفه وتلميعه بسبب سطحه البنى. اشتدت به الرعدة فتساءل:

ـ ما حكاية الحذاء ؟

فأجابه الموظف الأول:

ـ حذاء أبيض ذو سطح بنى من النوع الكلاسيكى، رأيناه فى قدمى الشاب الذى جاء يسأل عن لطفية.

ـ لا!

ندت عنه بعصبية ملفتة للانتباه وهو يتهاوى فى انهيار كامل. ولما شعر بالأعين المحدقة فيه قال:

ـ آسف، الظاهر أنى أصبت بالأنفلونزا!

وضحك ضحكة عالية لا تناسب المقام. ولم يستطع صبرا فسأل الموظف الآخر:

ـ أكان الشاب ينتعل حذاء أبيض ذا سطح بنى ؟

ـ أجل، وهو يعجبنى، هذه هى المسألة.

واستأذن فى الذهاب إلى دورة المياه ولكنه اندفع فى الطرقة الموصلة إلى الباب الخارجى. ودار دورة عشوائية حول مبنى الوزارة ولكنه لم يعثر للشاب على أثر. ولبث مذهولا وهو يقول لنفسه: هكذا تقع الأحداث التى نسمع عنها من بعيد دون مبالاة.

* * *

احتلت الحادثة مكانها فى صفحة الحوادث. قرأ بعناية وانتباه كامل. بدأت بملاحظة عابرة من البواب لباب شقة المقاول حسنين جوده الذى لم يكن مغلقا كعادته وانتهت باكتشاف جثة زوجة المقاول الموظفة. اتصل بشرطة النجدة. تبين أن المرأة خنقت بينما كان زوجها فى رحلة تجارية بالإسكندرية. لم تكتشف سرقة. عثر على زجاجة كونياك وعلبة شيكولاطة. وطبعا التحقيق ماض فى طريقه إلى الكشف عن أسرار الجريمة والقبض على القاتل. ووجد الموظفين واجمين والجو مشحونا بأخبار الجريمة وتأويلاتها. ثمة حسرة ورثاء، وتساؤل عن بواعث الجريمة، وعن معنى وجود الكونياك والشيكولاطة فى غياب الزوج. وقال أحدهم:

ـ كل شىء مفهوم ولكن لم قتلها؟ .

أجل لِم قتلها؟ . وقعت الواقعة فى مجال نفسه وهو لا يفقه لها معنى . ليس الواقع كما يتصورون وسوف يندفعون جميعا كالسكارى فى طريق الضلال ليرتكبوا جريمة أخرى . وقد جاءهم صاحب الحذاء بقدميه لكنهم يتساءلون عن صاحب الخمر والشيكولاطة . هو وحده يتشوق لمعرفته وكشف سره المغلق فلعله يعثر عليه فى الجنازة . بل يجب أن يعثر عليه فى الجنازة كما يقضى به المنطق . وذهب ممتلئا بالتصميم بقدر ما هو ممتلئ بالشجن . وتفحص بعين ثاقبة أهل الفقيدة من المستقبلين . رأى الزوج الذى يوشك أن يصرعه المرض ، ورأى آخرين ، ولكنه لم يعثر لضالته الماكرة على أثر . وسار وراء النعش وهو يختلس إليه النظر بقلب منقبض . وكاد إلى حين ينسى مخاوفه تحت موجة الحزن التى غمرته . وتذكر قصة حبه القصيرة العميقة التى مضت فى عناء ولم تخلف إلا التعاسة والرعب .

* * *

من هو صاحب الحذاء الأبيض؟ . هل رآه البواب ليلة الجريمة وهل يعرفه؟ . أما هو فقد رآه البواب ، ولما سأله عن مقصده أخبره أنه ذاهب إلى طبيب الأسنان بالدور الثالث ، وإلى العيادة ذهب فعلا للكشف والتنظيف تنفيذا لتدبير حكيم اتفق عليه مع الفقيدة ، فمن تلك الناحية لا خوف عليه .

وقال موظف بالإدارة بعد أن فرغ من قراءة الجريدة :

ـ الأمور تتضح ، فالزوج مريض جدا ، وله مطلقة أنجب منها شابا وشابة جامعيين ، والعلاقة بينه وبين أسرته الأولى سيئة جدا . .

فقال ثان :

ـ وإذن فيهم أسرته الأصلية التخلص من الزوجة الجديدة قبل أن تستولى على أموال أبيهم .

وتساءل ثالث :

ـ هل من علاقة بين ابن المقاول وبين الخمر والشيكولاتة ؟

فقال الأول :

ـ لن يفوت المحقق شىء من ذلك .

فقال رابع :

ـ سيصلون إليه عن طريق الزجاجة والعلبة . .

فقال عمرو وهو يدارى حنقه :

ـ توجد آلاف الزجاجات وآلاف العلب!

ـ ولكن العلبة تدل على الدكان والدكان تدل على الشارى، وقد يعثرون على لفافة الزجاجة فيعرف المخزن أو المحل . .

ـ ثم يعرض الشاب أو المتهم على عمال المحل والمخزن.

جميع الأدلة متوفرة إذا تركزت الشبهات فى الزجاجة والعلبة. فكر فى ذلك طويلا وقلبه يغوص فى أعماق من الكآبة. وعاد الموظف الأول يقول:

ـ الأمر واضح، ابن المقاول أنشأ علاقة مع المرحومة ثم قتلها . .

لعل ذلك كذلك، أو لعل القاتل هو صاحب الحذاء الأبيض، أو لعل ابن المقاول هو صاحب الحذاء الأبيض. إن صح احتمال من تلك الاحتمالات فقد نجا هو من كل سوء كما ينبغى له، أما إذا أصر المحقق على تتبع أثر صاحب الخمر والشيكولاطة فلن يعجز عن الوصول إلى مصدريهما، وهو ـ عمرو ـ معروف بشخصه دون هويته لدى صاحب محل «الزهرة» كما هو معروف عند فتاة حلوانى «ألف ليلة»، وغير بعيد أن أوصافه تتردد فى هذه اللحظة على الشفاه بين جدران حجرة التحقيق.

* * *

ونُشرت صور لطفية وحسنين زوجها ومحمد ابنه لأول مرة فى الجريدة، وتبين لعمرو أن ابن المقاول شخص آخر غير الشاب صاحب الحذاء الأبيض. وتابع تعليقات الموظفين بالإدارة باهتمام وتركيز:

ـ تقول الجريدة إن الشرطة عثرت على خيوط يمكن أن تؤدى إلى القاتل . .

ـ لعلها تقصد الشاب ابن المقاول؟

ـ أو الزجاجة والعلبة ؟

ـ سر الجريمة كامن فى الزجاجة . .

ورفع الرئيس رأسه عن رسالة كان يقرؤها بإمعان ثم قال:

ـ يا جماعة، نحن مطلوبون جميعا لسماع أقوالنا . .

* * *

شهد كل موظف بما يعلمه ولم يكن ذا بال، مثل تاريخ التحاق لطفية بالعمل منذ عشرة أعوام، وزواجها منذ عامين. وشهد لها الرئيس بحسن السير والسلوك والمعاملة، وبأنها كانت موظفة ممتازة. ولكن الفراش ـ عم سليمان ـ أدلى بواقعة مهمة فقال إنه رآها مرة بصحبة شاب قبيل زواجها هو نفس الشاب الذى جاء الإدارة صباح الجريمة سائلا عنها. وأكد الجميع واقعة الزيارة الصباحية وأعطوا أوصافا تقريبية للشخص. واهتم

المحقق بالواقعة بطبيعة الحال. ولما دعى عمرو لأخذ أقواله عن الشخص المجهول وصفه بدقة ملحوظة، طوله وحجمه ولونه وملابسه حتى الحذاء، فقال له المحقق:

ـ يبدو أنك تفحصته بعناية!

فتضايق عمرو من الملاحظة ولكنه قال بثبات:

ـ كان يقف أمامي مباشرة..

وكان يشعر طيلة الوقت بضيق وتوتر فزادته الملاحظة ضيقا وتوترا. وضاعف من همه ما ذاع فى حجرة المحقق من أنه ثبت أن ابن المقاول كان فى رحلة جماعية ليلة الجريمة، وأن الشبهات تبددت ـ بالتالى ـ من حوله..

* * *

تقمص دماغ المحقق فطارد نفسه بنفسه. من الشاب الذى رآه عم سليمان مع الفقيدة ولم زار مكتبها صباح ارتكاب الجريمة؟. محتمل أن يكون صاحب الخمر والشيكولاتة أو يكَون شخصا آخر لا علاقة له بالجريمة. السر قابع وراء الزجاجة والعلبة. فلنتخيل القصة من بدايتها عندما بدأت بغرام. انتهز العاشقان فرصة سفر الزوج فتواعدا فى بيت الزوجية. وفى الموعد المضروب تسلل الشاب إلى العمارة. يسير التسلل إلى عمارة ضخمة بها أكثر من عيادة طبية. وها هو يجالسها كما يفعل العشاق. كيف ومتى سيطرت فكرة القتل؟ إنها لا تخلق بغتة وبلا مقدمات. ربما جاء بها جاهزة معه وغير بعيد أن تنشأ عقب خلاف طارئ أو أثر ميل من المرأة نحو إنهاء العلاقة. لعله شاب غر ومحب حتى الجنون وقع فى هوى امرأة طموح لا حد لطموحها فتزوجت من المقاول وأبقت على علاقة الشاب بها لتستحوذ على المال الجاه والحب فكرهها بقدر ما أحبها ولما قالت له بدلال وهى تلاطفه «اخنقنى» طوق عنقها بقبضتيه وشد بكل عنف فلم يتركها إلا جثة هامدة. ارتكب جريمته ثم هرب ولكنه نسى وراءه الزجاجة والعلبة. سيظل مهددا بأن تراه فتاة حلوانى دمشق أو صاحب محل «الزهرة» أو يساق إليهما فى ظرف ما فيتعرفان عليه. ويتضح أنه زميل للفقيدة فى إدارة واحدة فتقوى الشبهة وتتوطد. وإذا اعترف بأنه صاحب الزجاجة والعلبة، وبأنه كان عشيق المرأة، فأى قوة يمكن أن تدفع عنه التهمة أو تنقذه من حبل المشنقة مهما أنكر وأصر على الإنكار؟!

* * *

من الحكمة أن يكمل علاجه عند طبيب الأسنان. ها هو الطريق مرة أخرى وها هى العمارة. ترى أما زال حسنين جودة يشغل العمارة؟ وجد البواب فوق الأريكة وراء الباب مباشرة. إنه صعيدى فيما يبدو، ويلف سيجارة. ومضى إلى الداخل فقام الرجل وتبعه. دخل المصعد وراءه فقال باقتضاب:

ـ الدكتور نصر طبيب الأسنان .

وهو يغادر المصعد فى الدور الثالث حانت منه نظرة إلى الأرض فرأى حذاء البواب فارتعدت مفاصله . حذاء أبيض ذو سطح بنى ! مضى إلى العيادة بذهن مشتت . أيكون البواب هو القاتل؟ ولكنه يذكر تماما أنه رأى الحذاء تحت طرفى بنطلون لا جلباب . أم يكون البصر قد خدعه ؟! وغرق فى ذهوله حتى دعى إلى حجرة الكشف . جلس وهو يتساءل :

ـ هل ينتهى التنظيف فى هذه الجلسة ؟

فقال الطبيب :

ـ أراك نافد الصبر .

فسأله :

ـ ما أخبار الجريمة ؟

ـ آه . . تلك المرأة! كنت أعرفها جيدا فقد حضرت مع زوجها عند تركيب ضرسين له!

ـ حقا ؟!

وندم على ثرثرته أما الطبيب فقال :

ـ عم خليل التمرجى أعتقد أنه رأى القاتل .

ـ حقا ؟

ـ إنه يسكن فى حجرة فوق السطح وكان يمر أمام شقة القتيلة عندما رأى رجلا يغادرها .

ـ أرآه جيدا ؟

ـ لا أدرى .

ـ كان يجب أن يدلى بشهادته .

ـ وقد فعل .

من الذى رآه التمرجى؟ . ولأى درجة تمكن من رؤيته؟ . هل ساوره شك من ناحيته؟!

* * *

وكان يغادر باب الوزارة عندما شعر بشخص يلاحقه فالتفت وراءه فرأى عم سليمان الفراش . نظر إليه متسائلا فقال الرجل :

ـ عمرو بك ، الحق أنى لم أشهد فى التحقيق بكل ما أعرف!

فرمقه فى دهشة فقال الرجل :

ـ كتمت شهادة لو سمعها المحقق لأتعب الأبرياء بلا موجب .

ـ ماذا تعنى ؟

فقال الرجل وهو يبالغ فى الأدب :

ـ رأيت حضرتك يوما وأنت تقبل المرحومة فى المصعد !

فهتف :

ـ ماذا تقول ؟

ـ رأيتك وأنت تقبلها .

خذلته أعضاؤه فى الواقع ولكنه تماسك بقوة فوق طاقة البشر . وقال :

ـ أنت أعمى بلا شك .

ـ كتمتها خشية أن تدفع بك إلى موطن الشبهات !

فهتف :

ـ أنت أعمى !

فتراجع الرجل قائلا :

ـ لا مؤاخذة يا بك ، ما قصدت سوءا قط .

فتراجع بدوره قائلا :

ـ إنك على أى حال تستحق الشكر .

فقال الرجل وهو يمضى :

ـ الشكر لله .

إنه يتمزق إربا . لا أمان ولا سلام ولا قدرة على تحمل مزيد من العذاب .

* * *

قال عمرو :

ـ لا خبر عن الجريمة فى الجرائد .

فقال موظف :

ـ أكبر الأحداث يشغل الصحف أياما ثم يختفى كأن لم يكن .

وقال آخر :

ـ فى رأيى أن النيابة هى التى منعت النشر .

فسأل عمرو :

ـ لماذا ؟

ـ هكذا يتصرفون إذا اكتشفوا حقائق يجب إخفاؤها عن القاتل .

وشعر بنظرات تلسع وجهه فالتفت بالغريزة ناحيتها فالتقت عيناه بعينى عم سليمان وهو يحمل القهوة للرئيس . جن بالقهر دقيقة ثم تساءل متى وكيف يشرع فى ابتزاز أمواله؟! . ثلاثة تمنى أن يتخلص منهم ، فتاة الحلوانى وصاحب محل الزهرة وعم سليمان ، تمنى أن يتخلص منهم ليتغلب على الأرق الذى احتل لياليه المضنية . وتتابعت المعجزات فصدمت سيارة نقل الفتاة الجميلة ، وقتل صاحب محل الزهرة فى معركة غادرة مع أحد العمال ، أما عم سليمان فقد مات فجأة وهو يعمل فى المقصف .

ولم يكد يتذوق قطرة من الراحة حتى دهمه صوت الرئيس وهو يقول :

ـ متى تبدأ العمل يا سيد عمرو ؟!

* * *

وهبطت عليه فكرة من السماء . أوحت إليه بأن البواب ليس بالمالك المناسب للحذاء الأبيض . الحذاء لا يناسبه لا من الناحية الذوقية ولا من الناحية الاقتصادية . الأرجح أن يكون قد تلقاه هدية . فمن هو المهدى ومتى أهداه إليه؟ . لعلها فكرة لا تقوم على واقع ولكنها جديرة بالاختبار . ومضى لتوه قاصدا عيادة الأسنان . وفى المصعد قال للبواب :

ـ حذاؤك جميل !

نظر إليه الرجل نظرة جامدة ولم يعلق فعاد يسأله :

ـ جاهز أم تفصيل ؟

أجاب الرجل :

ـ ممكن تفصل حذاء مثله عند أمين على بممر الديلمى .

هى إجابة وتخلص من الإجابة معا . قوى سوء الظن به . وكان ممر الديلمى قريبا ، ودكان الإسكافى فى مطلعه على اليمين . حيا الرجل وقال :

ـ أريد تفصيل حذاء أبيض ذى سطح بنى .

فأجلسه الرجل على كرسى من القش المجدول وراح يسجل مقاسات قدميه . وفى أثناء ذلك قال له :

ـ رأيت حذاء مثله فى قدمى بواب العمارة رقم ١١ بشارع ٢٦ يوليو فأعجبنى ، وهو الذى دلنى عليك .

فقال الرجل بهدوء :

ـ ليس بين زبائنى بواب !

فخفق قلب عمرو سرورا بسلامة تفكيره وقال :

ـ لعله أخذه هبة من أحد زبائنك .

ـ يمكن .

ـ هل الطلب كثير على هذا النوع ؟

ـ من النادر أن يطلبه أحد ، وطلبك هذا هو الثالث من نوعه فى العامين الأخيرين .

فسأله باهتمام متصاعد :

ـ والآخران من أى طبقة ؟

ـ أحدهما قارئ والآخر . . .

وتردد تردد من خانته الذاكرة فانحنى فوق دفتر متهرئ وفرّ صفحاته بسرعة وعمرو ينظر من فوق كتفه . وقال الإسكافى :

ـ حسام فيظى . . غالبا موظف . . لا يوجد فى الدفتر إلا العنوان .

وغادر الدكان وهو يحفظ العنوان عن ظهر قلب!

* * *

انبعث إلهام فى صدره بأنه سيرى القاتل وأنه سيجد فيه نفس الشخص الذى اقتحم الإدارة صباح ليلة الجريمة . وما عليه بعد ذلك إلا أن يقابل المحقق ليعترف بين يديه بكل شىء ، أو الأفضل أن يحرر رسالة متضمنة لكافة التفاصيل . وكان البيت يقع فى شارع المتولى بمنشية البكرى ، وهو شارع سكنى نصف مساكنه عمارات حديثة والنصف الآخر بيوت قديمة من دور ودورين ، وليس به من محال عامة سوى فرن وكواء ، فهو شارع يشعر الغريب الطارئ بغربته . مر أمام البيت عصرا فرأى فى شرفته فتاة فوق العشرين ودون الخامسة والعشرين ، أخذ منظرها بلبه فحلم بسعادة الحياة الزوجية واستقرارها الهانئ . قديما أسرته لطفية بحيويتها وعذوبتها الجنسية وتعلقها الجنونى به لدوافع قدرية مجهولة ، أما هذه الفتاة فمثال كامل للرزانة والحياء والصبر والخلق المتين . وهى زوجة القاتل ولعلها أخته . ولاحظ أن فى دكان الكواء امرأة قميئة عوراء تتابعه باهتمام ، واستنتج من سلوكها أنها صاحبة الدكان فأقبل نحوها ـ اكتسابا للوقت ـ وسألها عن بيت حسام فيظى فأشارت إلى البيت وهى تتفحصه بخبث بعينها اليسرى ، وقالت :

ـ وتلك أخته التى تجلس فى الشرفة .

لعلها ظنت أنه يحوم حول الفتاة فشكرها وهمّ بالذهاب فقالت المرأة :

ـ أسرة طيبة .

فوافق بانحناءة من رأسه فسألته :

ـ هل تعرفهم ؟

فأجاب بالنفى، واقتنع فى ذات الوقت بأن المرأة تقوم بدور الخاطبة.

وحدثته عن حسام ودولت، وأبدت استعدادا طيبا لتقديم أى خدمة شريفة. وقالت له بغتة وهى تغمز بعينها:

ـ ها هو حسام ذاهبا إلى المقهى.

التفت عمرو وقلبه يدق بعنف.

ولكنه رأى رجلا لم تسبق له رؤيته. مضى بدينا أنيقا فاقع البياض غزير الشاب لا يمت بصلة للرجل الذى يبحث عنه. انهارت تقديراته وخاب مسعاه. وأدرك أن البواب ما دله على عم أمين إلا باعتباره أقرب إسكافى، أما سر حذائه هو فما زال سرا، وما زال احتمال أن يكون هدية قائما، وغير مستحيل فى النهاية أن يكون صاحبه.

ورجع إلى النقطة التى منها بدأ.

* * *

لو تنكشف تلك الغمة فيملأ رئتيه بالهواء النقى بعمق وتوبة، ويعزم جادا على إكمال نصف دينه بالاقتران من دولت فيظى! لقد تجنب الاقتراب من شوارع برمتها كما يتجنب عينى عم سليمان. وثمة نسيان جاحد يسدل أهدابه على لطيفة ومأساتها، وهو الوحيد الذى يحترق فى خفاء بذكرياتها. وفكر ثم فكر، وكتب رسالة مطولة للمحقق استهلها بقوله: «أنا صاحب الخمر والشيكولاتة، وإليك الشهادة الوحيدة التى تنفعك». كتبها بعناية وحشدها بالتفاصيل ولكنه لم يوقع عليها بإمضائه. ولم يرسلها، أجلّ ذلك حتى يستوفى التفكير فى كافة وجوهها واحتمالاتها. وقال لنفسه إنه لن يذوق للراحة طعما حتى يلقى القبض على القاتل. وتساءل أى بواعث يا ترى دفعته إلى قتلها بعدما ثبت من التحقيق أنه لم تكتشف سرقة وراء الجريمة؟ أما كان الأجدر أن يقتلها هو ـ عمرو ـ وقد توفرت لديه لذلك أسباب وأسباب؟ كان يمقتها بقدر ما كان يحبها، ولم يغفر لها نهمها الجنونى للمال والسلطان وتضحيتها به فى سبيل ذلك. وكان يشد عليها بقوة وهى بين ذراعيه رغبة وحنقا. على أى حال فلا يجوز له أن يمنى النفس بحياة زوجية سعيدة مع دولت فيظى حتى تنكشف الغمة تماما وتهدأ أعاصير الوجود. وذهب من فوره إلى العمارة المشئومة ليكمل علاج أسنانه. وانتهز فرصة هبوط المصعد فصعد إلى الدور الرابع بقوة لا تقاوم. وجد المصباح فوق باب شقة المقاول مضاء. فتح الباب فظهر المقاول وهو يوسع لضيف فتوارى عمرو فى نهاية الطرقة. وسمع حوارا بينهما فقال المقاول:

ـ لا تنس عيد الأضحى.

فأجاب الرجل:

ـ كل عام وحضرتكم بخير.

فقال المقاول :

ـ سنذبح هذا العام بقرة .

فقال الرجل :

ـ ونصنع من جلدها حذاء كلاسيكيا .

فخفق قلب عمرو وشعر بأنه قريب من النصر أكثر مما يتصور . وخرج الضيف فأفلتت من عمرو صيحة فوز . رأى أمامه غريمه دون سواه . القتل المجهول المحوط بالأسرار . وانقض عليه كالوحش وقبض على ذراعيه وهو يصيح :

ـ أنت القاتل !

وذعر الرجل واختفى المقاول مغلقا الباب فضاعف ذلك من وحدة الرجل الغريب وهتف :

ـ أى قاتل !

فلطمه بقوة هدامة وصاح به :

ـ اعترف !

فتمتم الآخر بصوت كالأنين :

ـ رحماك !

ـ أنت الذى قتلت دولت فيظى !

وفطن إلى هفوة لسانه أما الآخر فلم يفطن ، وانهار تماما فقال :

ـ أعترف . . ولكن لا تضربنى .

فدفعه أمامه وهو قابض على ذراعيه بوحشية .

* * *

وفكر طويلا فى موضوع الرسالة دون حسم . وهداه تفكيره إلى وجوب كتابتها على آلة كاتبة ما دام مصرا على إخفاء إمضائه ـ وبالتالى ـ إذ ليس من حسن الفطن أن يرسل خطه إلى المحقق . واقتنع بذلك لحد أنه عزم على شراء آلة كاتبة صونا للسرية اللازمة . وكان يتخبط فى فراغ مخيف بين صمت الصحف وعينى سليمان حتى اعتقد أن بقاءه فى المدينة حمق ما بعده حمق ولكن أين المفر ؟ ! . وقال له عم سليمان مرة وهو يقدم له القهوة :

ـ لست على ما يرام يا أستاذ عمرو .

فغلى دمه لظنه أنه يطبق عليه الحصار ولكنه قال ببرود وهو يكبح انفعالاته المتطايرة :

ـ بخير والحمد لله .

واشترى فى ذات اليوم الآلة الكاتبة ـ وهو آسف ـ لارتفاع ثمنها . ما أجدره بالتوفير . لا بالتبذير ما دامت فكرة الزواج من دولت تغزو خياله بسحرها . ونظر إلى حذائه الأبيض ذى السطح البنى وابتسم فهو لا ينسى أنه كان المناسبة التى هيأت له التعرف بحسام فيظى وبالتالى بمنية القلب دولت . فما كاد الرجل يغادر دكان عم أمين علىّ حتى قال له عمرو :

ـ فصل لى حذاء مثل حذائه .

فابتسم الرجل وقال :

ـ ندر فى أيامنا الإقبال على هذا الصنف رغم فخامته .

فتردد عمرو قليلا ثم سأله :

ـ من الرجل ؟

ـ حسام فيظى ، موظف ، لا أدرى فى أى وزارة رغم أنه زبون قديم مثل حضرتك !

ـ ومن الفتاة ؟

ـ أخته ، اسمها دولت .

ـ لعلك تعرف عنوانه ؟

فضحك وقال :

ـ ١٤ شارع المتولى بمنشية البكرى .

فحق له أن يأسف لشراء آلة كاتبة ، ولكنها اشتراها على أى حال . وكتب عليها رسالته المثيرة ، ثم عنونها ، ثم أودعها صندوق البريد .

عند ذلك شعر بشيء من الراحة لأول مرة .

* * *

وكان عاكفا على عمله بالإدارة عندما طرق أذنيه صوت وهو يسأل قائلا :

ـ أين الست لطفية؟

رفع رأسه بقوة وفزع فرأى أمامه الشاب المجهول الذى اقتحم الإدارة غداة ليلة الجريمة . وأحدث ظهوره المفاجئ دهشة عامة أما سؤاله فأذهلهم . وتكهرب عمرو من الرأس إلى القدم . ها هو الشيطان الخفى ، حتى الحذاء لم يغيره . أين كان ، ولماذا جاء ، وماذا يعنى بسؤاله؟ وفى لحظات أغلق عم سليمان باب الحجرة ووقف وراءه متحفزا أما الرئيس فسأل القادم :

ـ من أنت ؟

فتجاهل سؤاله وعاد يسأل :

ـ أين الست لطفية ؟

ـ ولم تسأل عنها ؟

ـ ذاكَ أمر يعنيها وحدها .

ـ ولكن من أنت ؟

فأجاب بحياء :

ـ لا أهمية لذلك .

ـ ألم تسمع بما وقع للست لطفية ؟

ـ خير إن شاء الله !

ـ لم لم تزرها فى بيتها ؟

ـ لَا علم لى بمكانه !

ـ ألم تعرف بأنها قتلت منذ عشرة أيام ؟

فارتسم الذهول فى وجهه وتمتم :

ـ قتلت ؟ !

ـ ألم تقرأ الصحف ؟

ـ أنا لا أقرأ الصحف !

ـ على أى حال فالمحقق يرغب فى مقابلتك .

ـ أنا ؟ لماذا ؟

ـ طبيعى أن يرغب فى استجواب جميع من كانت لهم علاقة بالفقيدة .

صمت الرجل مليا حتى أفاق بعض الشىء من وقع الخبر ثم قال بهدوء :

ـ إنى على تمام الاستعداد للقائه .

* * *

ها هو ذا الشبح . ها هو الحلم . جاء يسعى على حذائه الأبيض . أى قتل ، وأى مناورة يلعب بها ! . وقد استدعى عم سليمان للمواجهة ، وعن عم سليمان علمت الإدارة بأنباء الرجل . علمت بأنه يدعى محمود الغر وأنه سواق تاكس . وقد تعاقدت الفقيدة معه ـ قبل زواجها بعام ـ لاستغلال تاكس تملكه . وحرصت من بادئ الأمر على سرية الموضوع لكونها موظفة من ناحية ولأنها أخفت صفقة التاكس عن أهلها حتى لا تسأل عن مصدر المال الذى ابتاعته به ، فكانت تلقى السائق فى الجراج . وظل الرجل على جهله بمسكنها ولكنها دلته على مكان عملها ليهتدى إليها فى الطوارئ . ولما وقع الطارئ ذهب للقائها فى الإدارة صباح ليلة الجريمة ، فلما لم يجدها اضطر للتصرف بمفرده فسافر بأسرة

عربيـة إلى الإسكندرية ولبث فى خدمتها هناك حوالى الأسبوع أو أكثر. وانتظـرها فى ميعاد اللقاء المعتاد ولكنها لم تحضر فذهب إلى الإدارة مرة أخرى لمقابلتها. وتم التحقق من أقواله واختبرت بصماته ثم أفرج عنه!

دار رأس عمـرو. ها هى الأمور تتعقد كما لم تدر له فى حسبان. وها هو ينحدر فى تيه. وشد ما ندم على كتابة رسالته المذهلة. ولكن واقعة التاكس حقيقة لا شك فيها. «إنى أحتقر تصرفاتك؟» وكيف استجابت؟ . . قالت برزانة مرعبة:

ـ ليكن رأيك ما يكون ولكنك تحبنى!

فقال بحنق:

ـ تبيعين نفسك لوحش بسيارة!

ـ ولكنك تحبنى ؟

فصمت صمتا ذا مغزى لا يخفى فضحكت وقالت:

ـ لا تغتم بتصرفاتى ولا بزواجى نفسه ما دام قلبى لك وحدك.

وقال لنفسه بأنه قضى على قلبه بأنه ينقسم إلى قسمين، تلك العذابات الجهنمية، التى لم تقتلع من وجدانه تماما حتى وهما يذوبان فى ضوء الأباجورة الأحمر. واستقر حذاء أبيض ذو سطح بنى على السجادة بين الصـوان والخوان الحامل للزجـاجة والعلبة، وتموجت تهاويل غشـاء الجدران الورقى، وتفشت فى الجو هينمـات منسالة من كـون مجهـول، وتخطت الذروة عندما راحت تغازل يديه بنشـوة جنونيـة وتقـول له بدلال «اخنقنى».

* * *

ودخلت أم سمعة الشرفة وهو وحيد يستجدى نسمة من ليل الصيف وقالت له:

ـ ضيوف على الباب.

فسألها:

ـ تعرفينهم؟

ـ كلا، قالوا افتحى فجئت لأخبرك.

فتح شراعة الباب فرأى وجها لم يره من قبل فغاص قلبه. فتح الباب مستسلما فدخل الرجل وتبعه ثلاثة.

اندفع الثلاثة يفتشون وقال له الرجل:

ـ معذرة، تفتيش لابد منه، هاك أمر النيابة!

فسأله بصوت ضعيف:

ـ عم تفتشون؟

ـ آلة كاتبة .

وجىء بالآلة فتفحصها الضابط وقال :

ـ هى التى كتبت عليها الرسالة .

وبسط أمام عينيه الرسالة التى تطوع بإرسالها وسأله :

ـ رسالتك؟

فقال يائسا :

ـ لا علم لى بشىء مما تتحدث عنه .

ـ متى اشتريت هذه الآلة؟

ـ اشتريتها ولم أسرقها ولست مطالبا بتفسير سلوكى !

ـ ستعرض أنت على عمال المحلين اللذين اشتريت منهما زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاطة ، فهل أنت مصر على الإنكار؟ ولم تصر على الإنكار ما دمت بريئا؟

وفى سيارة الشرطة سأل الضابط عما جعله يشكَ فى أمره فيفتش مسكنه ولكن الرجل ابتسم ولم يجب . وفطن عمرو إلى الخطأ الذى ارتكبه بإرسال الرسالة ، فإن كتابتها على الآلة الكاتبة تشى بخوف كاتبها من الاهتداء إليه بمعرفة خطه ، مما يرجح معه أن خطه غير بعيد عن متناول التحقيق ، وما يثير ـ بالتالى ـ الشبهات حول المتصلين بالفقيدة ومن بينهم زملاؤها فى الإدارة . هكذا استوجب خطؤه تفتيش مسكنه ـ ضمن مساكن الآخرين ـ وهكذا تم العثور على الآلة الكاتبة ، وعرف صاحب الرسالة والزجاجة والعلبة .

وقال :

ـ ولكنى برىء وكل كلمة فى الرسالة صادقة .

فقال الضابط ببرود :

ـ علمنا من بادئ الأمر بعلاقتك بالقتيلة !

فاعترضت مخيلته الممزقة صورة عم سليمان ولكنه قال :

ـ اعترفت بذلك فى الرسالة ولكنى برىء .

فقال الضابط بغموض :

ـ وأعجبنى خيالك !

فقال دون أن يتمعن معنى قوله :

ـ وأطلقتم المجرم الحقيقى !

ـ جميع من اشتبهت بهم أبرياء .

فتساءل بإنكار :

ـ فمن القاتل إذن؟

فأجاب الرجل بهدوء وثقة :

ـ لم يبق إلا أنت!

الحجرة رقم ١٢

يتذكر مدير الفندق بصورة لا تنسى أنه جاءته ذات يوم امرأة لاستئجار غرفة لمدة أربع وعشرين ساعة، وكان الوقت وقتذاك العاشرة صباحا. وحدجها الرجل بنظرة خاصة لندرة من يقصده من الجنس الآخر منفردا، وأنه ليتذكر بصورة لا تنسى أيضاً أنها تبدت لعينيه امرأة شديدة التأثير بقوة بنيانها ووضوح قسماتها وحدة نظرتها وهى تقف أمام الطاولة منتصبة القامة فى معطفها الأحمر وقلنسوتها البيضاء. ولم تكن تحمل بطاقة شخصية، غير عاملة ولا متزوجة، ولكنها على الأرجح مطلقة أو أرملة، اسمها بهيجة الذهبى، قادمة من المنصورة. سجل الرجل ما يلزمه من معلومات ثم عهد بها إلى فراش تقدمها حاملا حقيبتها، حقيبة كبيرة الحجم فوق المألوف، فقادها إلى الحجرة رقم ١٢ بالفندق الصغير.

رجع الفراش بعد نصف ساعة بوجه متعجب فسأله المدير عما وراءه فأجاب بأن المرأة غريبة الأطوار.

ـ ماذا تعنى ؟

أجاب بأنها طالبته بأن يطبق حشية الفراش والغطاء والملاءة وأن يودعها ركن الغرفة حتى يجيء الليل أما السرير نفسه فأمرت بإخراجه من الحجرة معتذرة بأنها لا يغمض لها جفن طالما أنه يوجد تحتها فراغ يتسع لشخص قد يختبئ فيه. فقال لها إن مخاوفها لا تقوم على أساس وإن الفندق لم يقع به حادث واحد منذ نشأته ولكنها أصرت فأذعن لمشيئتها. .

ـ كان عليك أن ترجع إلىّ أولا .

فاعتذر بأنه لم يجد فى طلبها ـ رغم غرابته ـ خروجا على التعليمات الواجب الالتزام بها فى الفندق، ثم واصل حديثه فقال إنها أمرته بأن يفتح صوان الملابس على مصراعيه

وأن يبقيه كذلك فأدرك من توه أنها تخاف أن يغلق فى غيبة منها على غريب يتربص فصدع بأمرها فى تسليم باسم .

ـ العجيب أنها تبدو قوية وجريئة . .

وتفكر الرجل مليا ثم سأله :

ـ هل وهبتك بقشيشا؟

ـ نصف جنيه بالتمام والكمال . .

ـ واضح أنها غير طبيعية ولكن لا أهمية لذلك . .

فقال الفراش :

ـ وكنت مارا أمام حجرتها المغلقة فى طريقى إلى المغسل فسمعت وراء الباب صوتا يتكلم بحدة وحرارة . .

ـ ولكنها بمفردها . . ؟

ـ رغم ذلك كانت تتكلم بحدة ويرتفع صوتها تدريجيا .

ـ كثيرون يفعلون ذلك ، ليس بالضرورة أن يكون مجنونا من يخاطب نفسه . .

فهز الرجل رأسه ولم ينبس فعاد المدير يسأله :

ـ هل وضح لسمعك شىء مما كانت تقوله ؟

ـ كلا ، عدا عبارة واحدة وهى «لا يهم» . .

وأشار المدير إشارة حاسمة إعرابا عن رغبته فى إنهاء الموضوع ثم قال للفراش وهو يمضى :

ـ مزيدا من الانتباه فهذا واجب على أى حال .

وقصف الرعد فنظر المدير إلى السماء من نافذة زجاجية فرآها ملبدة بالغيوم ، وكان الجو شديد البرودة والمطر متوقعا بين آونة وأخرى . وعند تمام الواحدة بعض الظهر تلفنت له الحجرة ١٢ :

ـ ممكن أطلب غداء ؟

ـ لا يوجد مطعم بالفندق ولكن يوجد مطعم بالشارع ، طلباتك يا فندم؟

ـ تورلى ، أرز بالخلطة ، مع كيلو كباب مشكل ، تشكيلة سلطات ، رغيف بلدى مجمر ، عيش سراى ، برتقالتان . .

أمر المدير بإحضار المطلوب ولكنه دهش لكمية الطعام المطلوبة ، خاصة اللحوم ، وهى تكفى وحدها لستة أشخاص .

وقال لنفسه إنها مصابة بجنون الخوف والنهم .

ـ محتمل أن تغادر الفندق عصرا وسأجد فرصة لإلقاء نظرة داخل الحجرة.

وجاء الطعام، وبعد ساعة رجع خادم المطعم ليأخذ الصينية والأطباق. ولم يستطع المدير مقاومة رغبة ملحة فى النظر إلى الأطباق، وجدها فارغة تماما إلا من بقايا عظام وصلصة متجلطة. وقرر أن يتناسى الموضوع كله ولكنه وجد المرأة ـ صورتها ونوادرها ـ تطارده وتلح عليه. لا يمكن القول بأنها جميلة ولكنها ذات سطوة كالجاذبية، وبها شىء يخيف وأشياء تثير حب الاستطلاع والإذعان، ومع أنه رآها اليوم لأول مرة إلا أنها تترك انطباعا بالألفة التى لا تكون إلا للوجوه المستقرة فى أعماق الذاكرة من قديم.

ورأى رجلا وامرأة قادمين نحوه، وسأله الرجل:

ـ هل السيدة بهيجة الذهبى تقيم هنا؟

فأجاب بالإيجاب، واتصل بالمرأة، فطلبت السماح للقادمين بالصعود إلى حجرتها، وكان واضحا أن القادمين من الصفوة، من الناحية المادية على الأقل. واندفع الهواء فى الخارج بقوة رقصت لها القناديل المعلقة فى مدخل البهو الصغير. وسرعان ما قدم ثمانية أشخاص ـ أربعة رجال وأربع نساء ـ فتكرر السؤال:

ـ هل السيدة بهيجة الذهبى تقيم هنا؟

وتم الاتصال وجاءت الموافقة فصعدوا بجلال ـ كانوا على مستوى السابقين ـ إلى الحجرة رقم ١٢ أصبح الزوار عشرة. أقارب من أسرة واحدة، أو أصدقاء، أو أقارب وأصدقاء، ولكن لا شك أن بهيجة سيدة غير عادية.

ـ ترى لِم اختارت فندقنا الصغير؟

ودب النشاط فى كافتيريا الاستراحة وحملت إلى فوق أقداح الشاى، وشغلته بعض الوجوه فى المجموعة الأخيرة فظن أنه سبق له رؤيتها، ولكنه قال لنفسه إن خير ما يفعله أن يغسل مخه من شئون بهيجة هانم، وأنها غدا ستكون ذكرى من مئات الذكريات الضائعة التى يجيش بها صدر الفندق.

ورأى أمامه سيدة فى الخمسين غاية فى الرزانة والوقار، سألت:

ـ هل السيدة بهيجة الذهبى هنا؟

ولما أجاب بالإيجاب قالت:

ـ بلغها من فضلك أن الدكتورة موجودة.

واتصل بالمرأة فسمحت لها بالصعود، وأذعن لرغبة ملحة طارئة فسأل الدكتورة قبل أن تغادره:

ـ ما تخصص حضرتك؟

فأجابت وهى تذهب :

ـ طبيبة مولدة .

لاحظ أنها قدمت نفسها بصفتها المهنية وبلا ذكر الاسم ، فهل هى تزور المرأة بهذه الصفة؟ . . هل المرأة تعانى من مرض نسائى؟ . . أهى حبلى؟ . . ولم يستطع الاسترسال فى أفكاره إذ جاءه رجل بدين قصير متجهم الوجه فقدم نفسه بصفته المقاول يوسف قابيل وطرح السؤال الذى يتكرر :

ـ هل بهيجة هانم الذهبى هنا ؟

وعقب الاتصال التليفونى المعتاد سمح للرجل بالصعود ، والمدير يودعه بابتسامة ساخرة حائرة . ورجع أحد فراشى الفندق من مشوار وهو يرتعد من البرد داخل جلبابه البلدى السميك فقال إن الظلام يتراكم فى أركان السماء وأن النهار سينقلب ليلا عما قليل ، فألقى المدير نظرة من النافذة الزجاجية ولكنه كان يفكر بامرأة الحجرة ١٢ ، المرأة الغامضة جلابة الضيوف ، وخيل إليه أن روحا نفاثة للإثارة والقلق تتسلل فى أنحاء الفندق مذ قدمت ، وأنه يشعر بها تتسلل إلى زوايا نفسه موقظة بها أحلام المراهقة وأبهة الآمال الدنيوية الدسمة . وانتبه من استغراقه على صوت يسأل :

ـ بهيجة هانم الذهبى هنا ؟

رأى رجلا ضخما يرفل فى جبة وقفطان ، طربوشه جانح إلى الوراء ، وبيده مظلة رمادية ، قدم نفسه قائلا :

ـ بلغها أن سيد الأعمى الحانوتى قد جاء .

انقبض صدر المدير ، انكمشت أعضاؤه ، لعن الرجل والمرأة معا ، ولكنه قام بواجبه فاتصل بها ، ولأول مرة يتلقى جوابا مخالفا ، فقال للرجل :

ـ انتظر حضرتك فى الاستراحة .

ماذا جاء يفعل؟ ولم لا ينتظر فى الخارج؟ لقد عمل فى الفندق زهاء نصف قرن فلم يشهد مثيلا لما يحدث اليَوم ، وأخوف ما يخاف أن يهطل المطر فيضطر الفندق إلى إيوائهم وقتا مجهول المدى ، وبخاصة رجل الموت ذاك ؟!

وجاء زوار جدد ، جاءوا متفرقين ولكن تباعا ، صاحب معرض أثاث وبقال وقصاب وصاحب محل عطور وأدوات زينة وموظف كبير بمصلحة الضرائب ورئيس مؤسسة وصحفى معروف وتاجر جملة للأسماك وسمسار شقق مفروشة ووكيل شخصية عربية من أصحاب الملايين ، وظن المدير أن المرأة ستنقل الاجتماع إلى الاستراحة ولكنها أشارت بالسماح لهم بالصعود فصعدوا واحدا فى أثر واحد . وحملت كراسى جديدة ومضى الفراشون بالشاى ، وتساءل المدير ترى كيف يجلس الزائرون ، هل يربطهم

تعارف سابق: وماذا جمعهم على وجه التحديد؟. واستدعى شيخ الفراشين وسأله عن ذلك فأجاب الرجل:

ـ لا علم لى بالداخل، الأيدى تتسلم الكراسى والشاى من زاوية الباب ثم تغلقه فورا..

فهز الرجل منكبيه وقال لنفسه إنهم ما داموا لا يشتكون فلا مسئولية علىّ.

وإذا بسيد الأعمى الحانوتى يقبل نحوه فيقول:

ـ أرجو أن تذكر الهانم بأنى فى الانتظار!

فقال المدير بجفاء:

ـ وعدت بأن تستدعيك فى الوقت المناسب.

ولم يتحرك الرجل فتلفن للمرأة ليتخلص منه ثم ناوله التليفون بناء على رغبتها فيما بدا، فقال سيد الأعمى:

ـ يا ست هانم العصر فات ونهار الشتاء قصير..

وأصغى إلى السماعة مليا ثم أعادها ورجع إلى الاستراحة غير مرتاح، والمدير يلعنه من صميم قلبه، ويحمِّل المرأة مسئولية استدعائه إلى الفندق، ويرمق باب الاستراحة بنفور وتقزز. ونزل بعض النزلاء فى طريقهم إلى الخارج، فأبدوا للمدير ملاحظات عن الحجرة ١٢ المقلقة للراحة فقال الرجل معتذرا:

ـ يوجد بها زوار وسيذهبون عاجلا أو آجلا، لن يبقى أحد منهم فى الليل..

بات يخشى أن تدفعه مسئوليته إلى الصدام معهم وهم من الصفوة القوية، وضاعف من كآبته صفير الرياح فى الخارج وروح الأسى التى تغشى الطريق. ورغم ذلك تراءى عند مدخل الفندق جماعة من الرجال والنساء، أقبلوا نحوه فى معاطفهم فغاص قلبه فى صدره، وبادرهم وهو لا يدرى:

ـ بهيجة هانم الذهبى؟

فضحك أحدهم وقال:

ـ أبلغها من فضلك أن مندوبى جمعية إحياء التراث قد جاءوا.

واتصل المدير بالمرأة فلما طلبت السماح لهم قال لها:

ـ عددهم عشرة يا هانم وتحت أمرك فى الدور الأرضى استراحة تتسع لأى عدد!

ـ ولكن فى الحجرة متسعا!

وصعد المندوبون والمندوبات والرجل يهز رأسه فى حيرة. سيقع الصدام عاجلا أو آجلا، سيتفجر غضب السماء فى الخارج، سيتمخض ذلك التكتل الشاذ فى الحجرة ١٢

عن شيء غير سار. وحانت منه التفاتة نحو الاستراحة فرأى سيد الأعمى يزحف نحوه فنقر بأصابعه على سطح الطاولة بعصبية، أوصله بالمرأة قبل أن يفتح فاه، سمع شكواه ثم سمع إذعانه، وتركه يعيد السماعة بنفسه، ولكن الرجل قال له وهو يهم بالذهاب:

ـ الانتظار بلا عمل ممل جدا..

فغضب المدير، وكاد يوبخه لولا أن المرأة اتصلت به طالبة إيصالهم بالمطعم، واستمرت المكالمة دقائق قبل أن تنقطع، وتساءل هل يبقون حتى العشاء؟ وأين يتناولون عشاءهم، كم يود أن يعاين الحجرة بحالتها الراهنة، إنه منظر يفوق الخيال، منظر جنونى بلا أدنى ريب.

ولم يقف الطوفان عند حد فجاء نفر من أساتذة الجامعة ورجال الدين، أمست المناقشة عقيمة، تركهم يصعدون، بدا الأمر مزاحا كابوسيا، وجاء رجل غامض فصعد دون أن يمر به وقد ناداه فلم يلتفت إليه، وتبعه فراش ولكنه توقف عندما رآه يدخل الحجرة ١٢. وشعر المدير بأنه وحيد وبأنه يفقد سيطرته القانونية على المكان، وبأن شيطان الأحلام البهيمية يطرق بابه بعنف. وفكر بأن يشاور شيخ الفراشين ولكن ظهر له رجل ما إن رآه حتى تشهد فى ارتياح، تصافحا وهو يقول للقادم:

ـ جئت فى وقتك يا حضرة المخبر.

فقال المخبر بهدوء:

ـ أطلعنى على السجل..

ـ تحدث أمور غريبة هنا.

راح الرجل يراجع بعناية الأسماء ويدون بعض الملاحظات فقال المدير:

ـ أراهن على أنك جئت من أجل الحجرة ١٢.

ـ هه؟

ـ الأمور تجرى فى شذوذ جنونى.

ـ كل ما يقع ضمن الطبيعة فهو طبيعى!

ثم غادره وهو يقول:

ـ إذا طلبنى التليفون فإنى فى الحجرة ١٢!

ذهل المدير، ولكنه اطمأن نوعا ما فى الوقت نفسه، فما يحدث إنما يحدث بعلم الحكومة وتحت سمعها وبصرها، وتذكر أنه فكر بمشاورة شيخ الفراشين، وهمّ بالضغط على الجرس عندما رأى سيد الأعمى زاحفا نحوه ففقد أعصابه وصاح به:

ـ قالت لك أن تنتظر حتى تستدعيك.

فابتسم الرجل بخنوع المعتاد للانتهار وقال:

ـ ولكن الانتظار قد طال..

ـ انتظر بلا مناقشة وتذكر أنك فى فندق لا قرافة!

فرجع الرجل متصبرا، وتذكر المدير شيخ الفراشين فاستدعاه وسأله:

ـ كيف تجرى الأمور فى الحجرة ١٢؟

ـ لا أدرى يا سيدى ولكنها تضج بالأصوات..

ـ كيف يتواجدون معا وهى لا تتسع لهم ولو جلس بعضهم فوق بعض؟

ـ علمى علمك ولكن على أى حال فإن الضابط بالداخل أيضا..

وذهب الرجل فنظر المدير من النافذة فرأى الليل جاثما فى الفضاء، وقد أضاءت المصابيح فشعت أنوارها وانية خلال الجو المشحون بالرطوبة العاصف بالرياح المزمجرة، وجاء طابور من خدم المطعم يحملون الصوانى المكتظة بالأطعمة، فازداد عجبه، وقال لنفسه إنه لا يوجد بالحجرة إلا خوان واحد، فأين تصف الأطباق، وكيف يتناولون الطعام؟ وأخبره أحد الفراشين أن باب الحجرة لم يعد يفتح، وأن الأطعمة أدخلت من شراعة الباب، وأن الضحكات الصاخبة تجتاح الدور كله، وأصبح المشهد كله يعز على التصديق.

ورجع الفراش بعد نصف ساعة ليؤكد له أن القوم يسكرون، فقال له:

ـ لم أر زجاجة واحدة!

ـ لعلها هُرِّبت فى الجيوب، إنهم يغنون ويصرخون ويصفقون، تلك حال سكر وعربدة، وفسق أيضا فالنساء هناك لا يقلون عن الرجال عدا..

ـ والمخبر؟

ـ سمعت صوته يغنى «الدنيا سيجارة وكاس»..

وقصف الرعد فى الخارج فقال المدير لنفسه «جائز جدا أنى أحلم وجائز أنى جننت». وإذا بجماعة من عامة الشعب ـ تنطق وجوههم وملابسهم بشعبيتهم ـ قدموا، وسأل سائلهم:

ـ هل السيدة بهيجة الذهبى تقيم هنا؟

فابتسم المدير يائسا، واتصل بالمرأة، فرجته أن يجعلهم ينتظرون فى الاستراحة وأن يقدم لهم المشروبات، فأشار الرجل لهم نحو الاستراحة فأمر بتقديم الشاى لهم، فامتلأت الاستراحة وازداد سيد الأعمى قلقا. وجعل المدير يبتسم يائسا ويغمغم:

ـ لم يعد الفندق فندقا، ولم أعد مديرا، لم يعد اليوم من الزمان، فليرقص الجنون ما شاءت له اللحوم والخمور..

وبدأ تساقط المطر، وأرعدت السماء، ولمع الأسفلت عند مدخل الفندق بأضواء المصابيح ودغدغة المطر، وتتابع دبيب الأقدام، وارتفعت صيحات غلمان مهللة، ولجأ عابرون إلى عنق المدخل، وتوالت الضربات المرجفة فوق زجاج النافذة. غادر مكانه إلى مقدم المدخل فقلب وجهه فى السماء المظلمة ثم نظر إلى الأرض فرأى السيل المنهمر ينصب عليها كالحصا ويجرف منحدراتها كالطوفان. لقد تلبد واحتدم ثم انفجر.

ـ إنه مطر لم يسقط نظيره منذ جيل على الأقل.

وتذكر سيلا شبيها بهذا حفر ذكراه فى رأسه منذ صباه. تذكر كيف انقطعت المواصلات وسدت الحوارى وغرقت الحجرات تحت الأسقف المتهرئة. ورجع إلى مكانه فالتزمه حرصا على السجلات والخزانة ولكنه أصدر أوامره بتشديد المراقبة فى الحجرات وفوق السطح. واستدعى شيخ الفراشين وسأله:

ـ ما أخبار الحجرة ١٢ ؟

فلوى الرجل شفتيه وقال:

ـ تواصل الغناء والضحك، إنهم مجانين . .

ولمح على باب الاستراحة سيد الأعمى فصاح به بأعلى صوته:

ـ ارجع إلى مكانك.

استأذنه الرجل بإشارة من يده فصاح به مرة أخرى:

ـ ولا كلمة . .

وجعجع الرعد كانفجار القنابل وانهل المطر فى سرعة وغزارة جنونيتين فقال لنفسه بقلق إن الفندق قديم لم يشيد بالخراسانة المسلحة، وأن الليل ينذر بالمتاعب.

وجاءه فراش وقال:

ـ تصاعدت الشكوى من الحجرة ١٢ من رشح السقف والبلل!

فقال بحنق:

ـ سكت الغناء والضحك ؟ . . فليغادروا الحجرة!

ـ ولكنهم لا يستطيعون!

فصرفه واستدعى رئيس الفراشين وسأله فيما قال الرجل فقال:

ـ الحجرات كلها ترشح، سأجند الفراشين لسد الثغرات فوق السطح بالرمال . .

ـ والحجرة ١٢ ؟

ـ لقد انحشروا، انزنقوا، امتلأت بطونهم فانتفخت، تعذر فتح الباب، تعذرت الحركة . .

اجتاح الهياج الكونى الفضاء فى الخارج، أما فى الداخل فقد دبت حركة نشاط شاملة وانطلق الفراشون بأكياس الرمال. وحدثت مفاجأة غير متوقعة، إذ هبَّ المنتظرون فى الاستراحة متطوعين للاشتراك فى العمل. راقب المدير ذلك بارتياح، وارتاح بصفة خاصة لتخلف سيد الأعمى.

وبعد نصف ساعة رجع شيخ الفراشين ليطلعه على سير العمل، قال:

ـ إنهم يعملون بهمة عالية..

ثم بعد تردد:

ـ أما أصحابنا فى الحجرة ١٢ فحالهم سيئة، وهى تزداد بتقدم الوقت سوءًا على سوء..

وغضب المدير. عصف به الغضب وكأنما عصف به فجأة. عصف بل بعد توتر عنيف حصره طيلة اليوم. تملكه الغضب أعصابا ولحما ودما. جن واندفع ينشد المزيد من الجنون. صاح بشيخ الفراشين:

ـ اسمع، احفظ ما أقول..

فحملق الرجل فى وجهه بخوف طارئ فصاح بتصميم:

ـ أهملوا الحجرة ١٢ بجميع من فيها!

ـ سيدى، الرجال يصرخون والنساء يبكين..

فزمجر كالوحش:

ـ ركزوا على السطح فوق حجرات النزلاء أما الحجرة ١٢ فأهملوها بجميع من فيها..

تردد الرجل مقدار ثانية فصاح وهو يزداد توحشا:

ـ نفذ تعليماتى حرفيا، وبلا تردد..

والتفت نحو النافذة الزجاجية ينظر إلى الخارج فرأى الزوبعة تتلاطم فى قلب الليل وتزداد عنفا ولكنه كان قد تخفف من عبء ثقيل واسترد الثقة وصفاء الذهن..

الطُّبـول

دق جرس المنبه فى رنين متصل فدبت فى الأسرّة حركة شاملة. ثمة تثاؤب هنا وهناك يند وسط همهمات كطنين النحل وضحكات طافحة بالبشر وتأوهات مرحة. وفتحت

النوافذ فتدفق الفجر الغامض متسربلا بنسيم ندى مفعم بشتى الطيوب وأنفاس الطبيعة النقية. وارتفع صوت القائد دسما واضح النبرات يقطع بأنه سبقنا إلى الاستيقاظ منذ أمد وتأهب لاستقبال اليوم الخطير، قال:

ـ السرعة والنظام والجد، لديكم ثلث ساعة حتى تجتمعوا حول مائدة الإفطار.

وانتشرت الحركة فى نشاط بهيج. أقيدت الأنوار فى المغاسل، طرقعت الشباشب فوق البلاط، سالت المياه من الصنابير، وهدرت السيفونات، وأزت الحلاقات الكهربائية.

ـ الفجر يبشر بجو طيب.

ـ يجب أن نقطع شوطا ملحوظا قبل أن ترتفع الشمس.

ـ لكن الظهيرة آتية والصيف لا قلب له.

سرعان ما امتلأت الكراسى الخشبية حول المائدة المستطيلة ببهو الطعام. استقرت الجاكتات الكاكية والبنطلونات القصيرة فوق الأجساد الرشيقة. عقد كل حمالة صفارته حول عنقه وأرسى عصاه إلى طرف المائدة جنب زمزميته وحقيبته. وصب الشاى فى الأقداح وتخاطفت الأيدى الفطائر والجبن والعسل الأسود. وتتابع التمطق فى سرعة تنذر بتوقعات متربصة. والحق أن القائد لم يمهلنا طويلا، كأنما أراد أن يمتحن مرونتنا أو أن يذكرنا بسلطاته منذ البدء، فنفخ فى صفارته مقدراً ربع دقيقة. نهضنا عجلين، ركبنا الحقائب فوق الظهور، وعقدنا الزمزميات بالأكتاف، وتناولنا العصى، وهرعنا إلى الفناء. انتظمنا طابوراً طويلاً فى ظلام شامل عدا شفافية لا تكاد تُرى فى الأفق الشرقى.

ومثل شبحه أمامنا بقامته الطويلة ومضى يقول:

ـ لتكن كل رحلة جديدة خيرا من سابقاتها.

فقلنا فى نفس واحد:

ـ آمين.

فعاد يقول:

ـ لنكن مثالا طيبا للآخرين.

فكررنا فى صوت واحد:

ـ آمين.

ـ ولنستفد من كل خطوة وكل تجربة.

ـ آمين.

ـ سيروا على بركة الله.

ـ آمين .

ونفخ فى الصفارة والديكة تصيح فتكونا فى أربعات ، واتخذنا خطوات «محلك سر» حتى احتل مكانه على رأس الطابور ، ثم بدأ السير فسرنا وراءه على دقات الطبول ، وتبعتنا على الأثر عربة يجرها جواد تحمل المطبخ والمستشفى . سلمنا الفناء إلى ممر طويل ضيق محصور بين جدارين مرتفعين تفوح منه رائحة الكلس وعطن البول وتظلل نهايته سعف نخلات مغروسة فى الجانبين . شاب مشيتنا الرياضية حذر شديد لما توقعناه من وجود روث دواب أو قاذورات آدمية إذ أنه رغم الحيطة والتفتيش يتسلل إلى الممر فى هدأة الليل أناس لممارسة حرياتهم بلا حياء . سرنا فى حذر حتى خرجنا إلى الخلاء فلفحتنا نسمات نقية مطلولة . ولم نكد نقطع خطوات حتى ترامى إلينا صوت السواق وهو يحث الجواد على السير ويفرقع بسوطه فى الهواء . وتنبه قائدنا إلى ذلك فصاح بصوته الدسم :

ـ قف . .

فضربنا الأرض متوقفين فقال بنبرة آمرة :

ـ ١ و٢ يذهبان للاستطلاع وتقديم ما يلزم .

انفصل الزميلان من الطابور فرجعا إلى موقف العربة . أدركنا من حوارهما أن حجرا اعترض العجلة اليمنى وأنهما يتعاونان على زحزحته . وتساءل قائدنا محنقا :

ـ متى يبلغ معسكرنا كماله المنشود ؟!

وعاد الزميلان إلى الطابور فنفخ القائد فى صفارته واستأنف الطابور سيره . سرنا أشباحا ذائبة فى ظلام ، وفى السماء نجم واحد . وكنا نحب ظلمة الفجر ، لأنها سريعة الزوال ، ولأننا نطمئن إلى الاختفاء فى غلالتها فنخرق تقاليد الطابور الصارمة بالمداعبات والملاعبات الخفية ، سعداء بشقاوتنا وعبثنا كاتمين ضحكاتنا فترتعش فوق الشفاه بلا صوت . فى ظلمة الفجر يتلقى سيئ الحظ ضربة عصا فى ساقه أو قرصة فى ذراعه أو نواة نبقة فى قفاه ، ولما كان الفاعل مجهولا فإنه ينتقم من أى كان وبأى وسيلة تتفق له . لم تكن تلك الشقاوة مريحة ولكنها كانت متعة محبوبة ، ولا تتم الرحلة إلا بها ، ولذلك كنا حريصين على احترام سريتها لنضمن استمرارها . ونهنأ ـ رغم انزعاجنا ـ بها ، فالجدية المثالية الواجبة شعار نردده ونلتزم به ولكن يبدو ألا مفر من التمرد عليه بين الحين والحين . وما يدرى تكوين من تكوينات الطابور الرباعية إلا ورشاش سائل يبلله فى مواضع متفرقة من أجسام أصحابه . وتبين لهم من رائحته أنه بول ! . كاد النظام يختل . وضاعت الضحكات المكتومة فى هدير غاضب لم يتوقعه أحد . تجاوزت الدعابة حدود الاحتمال وانفجر صوت خشن بلا مبالاة :

ـ عليكم اللعنة . .

فصاح القائد غاضبا :

ـ قف .

توقفنا عن السير . انقلبت الدعابة علينا هذه المرة وأنذرت بالنكد وتساءل القائد :

ـ من الوقح ؟!

فصاح الآخر متحديا :

ـ كلب بال علينا .

فصرخ القائد :

ـ الويل لكم .

ولكن سبقته الأحداث فندت صرخات واختلطت أشباح ونشبت معركة عمياء . تبودلت اللكمات والركلات واللعنات ومضى القائد يهدد وينذر فى الهواء . اشترك كل واحد منا فى المعركة ، هاجما أو مدافعا ، بلا حساب ولا حذر وكأننا نقاتل المجهول فى الأركان الأربعة . اندثر لحظتئذ الود الجامع بيننا وتلاشت روح الزمالة العتيدة ، وحلت محلهما وحشية كاسرة تنفث حقدا وشهوة طاغية للأذى ، كأنها قوة مدمرة تفجرت فى قلب الظلام . تواصل الضرب بلا رحمة وصمت قائدنا كأنما قد ترك لأيدينا وأرجلنا مهمة إنزال العقاب الشامل بنا . وما ندرى إلا والظلمة تخف وتتهافت ، ومعالم الدنيا تطل علينا من حولنا ، ورقعة الأفق الشرقى تبتسم ببهجة الضياء . عند ذاك تراءى المتعاركون ، رأى كل وجه زميل أو صديق فعقد الحياء أيدينا وتطايرت انفعالاتنا السوداء وتراجعنا بوجوه أسيفة وقلوب منكسرة ، وجعلنا نجفف عرقنا ونضمد جراحنا ونتبادل نظرات حسيرة ، متجنبين النظر نحو قائدنا الواقف كتمثال للغضب والازدراء . وساد صمت ثقيل مشحون بالندم . وتلقينا أول شعاع للشمس بوجوه كالحة .

وراح القائد ينقل عينيه من شخص لآخر ، ثم قال :

ـ بداية على أى حال جديرة بكم .

لم ينبس أحد بكلمة . ولا انبرى أحد للدفاع يستوى فى ذلك الظالم والمظلوم . وعاد القائد يقول :

ـ إن زيكم الرفيع ليخجل منكم .

وهز رأسه فى أسى ثم تساءل :

ـ هل لدى المذنب منكم الشجاعة للاعتراف ؟

ولما لم يسمع صوتا قال :

ـ ليس من مبادئنا إلغاء رحلة بدأناها ولكن لن يمر ذنب بلا عقوبة تناسبه .

مضى إلى موقفه، نفخ فى الصفارة، هوت المطارق على الطبول، تحرك الطابور فى ضوء الصباح الباكر. انتقلنا من الصحراء إلى المدينة فقابلتنا طلائع العمال والباعة. وتبعا لتقاليدنا رحنا ننشد الأناشيد متناسين المعركة وآلامها. ولم يكن شىء يؤثر فينا مثل أناشيدنا الجميلة المتغنية أبدا بالبطولة والمجد والأخوة، فسحرها يخاطب من القلوب والسرائر. ومر بنا السابلة بلا اهتمام، وقليلون من تابعونا بنظرات محايدة، أما الغلمان الذين يهرعون وراءنا فلم يكن قد استيقظ منهم أحد بعد. وزالت آثار المرارة تماما، وانتصر الشباب بقوته الخارقة، وأنعشتنا الأناشيد، فعدنا أهلا للرحلة الطويلة الشاقة أمامنا. وسيطر علينا الإيمان بما نفعل وبما نقول، بالمثل التى نستظل بها، والمجد الذى نمضى إليه، والقوة التى سنحقق بها المعجزات. وكنا سعداء، رغم الجهد المتوقع والنظام الصارم والعقوبة المتربصة كنا سعداء. وسرنا وسرنا، وأنشدنا وأنشدنا، على دقات طبول لا تتوقف، حتى نفخ القائد فى الصفارة فتوقفنا وسط الضحى. وهتف القائد بوجه لم يزايله الغضب:

ـ استراحة.

غسلنا وجوهنا فى مقهى قريب ثم قصدنا العربة فتناولنا شراب الليمون وبعضا من البسكوت. وكان الطريق غاصا بالمارة والسيارات والعربات، وحرارة الشمس تحرق الرءوس وتستدر العرق. وتبادلنا الأحاديث فى صفاء كأن لم تكن بيننا معركة، وتذكرنا ملابساتها بقلوب ضاحكة، ولكننا لم نخل من قلق من ناحية عواقبها.

ـ هل تمر بسلام ؟

ـ بعيد ذلك كل البعد.

ـ حبس انفرادى أو صيام نهار كامل.

وطوينا الموضوع بقرفه لنواجه ما هو أهم فى حاضرنا، فهدف الرحلة يظل مجهولا لا ينبئ عنه قائدنا حتى نستدل عليه من خط السير. وكنا معسكرين عند مشارف الميدان، ولكن الميدان مفترق طرق ملىء بالاحتمالات.

ـ أنتجه جنوبا أم نمضى شمالا ؟

ـ الجنوب يعنى الأهرام.

ـ أهرام الجيزة أم سقارة أم دهشور ؟

ـ ولا تنس الفيوم.

ـ والشمال يعنى هليوبوليس أو عين شمس.

ـ وهناك الصحراء فى الجنوب والشمال معا.

ـ وهى أسوأ الاحتمالات.

ونفخ القائد فى الصفارة فتوالت دقات الطبول كالنداء الملح فهرعنا إلى الطابور. وما كدنا نتوسط الميدان حتى أدركنا أننا نتجه نحو الجنوب، فعرفنا الهدف بلا تحديد، ولن يتحدد حتى نبلغ هضبة الأهرام. مضينا بأقدام نشيطة وحيوية رائعة، تستغرقنا الأناشيد فلم نشعر بمرور الوقت. لذلك دهشنا عندما دعينا للتوقف لتناول وجبة الغداء وتبين لنا أن الساعة تمت الثانية بعد الظهر. عسكرنا على حافة حقل مزروع بالجرجير. نزعنا الأحذية وغسلنا أقدامنا فى جدول ماء. فرشنا الحصر وجلسنا لتناول الغداء بعد أن جاء كل منا بتموينه من العربة وهو عبارة عن طبق يحوى بامية وقطعة من الضأن ومغرفة من الأرز وموزة. أنسانا تناول الطعام همومنا الصغيرة كما أنسانا الوقت فأثملتنا لذته الموشاة بأطايب الأحاديث والنوادر. ولما فرغنا من الطعام استلقينا على ظهورنا لنستمتع بالراحة فى الفترة القصيرة المخصصة للقيلولة. وداعبنا النعاس ونحن مستسلمون لأحلام اليقظة، وكدنا نستسلم للنوم لولا أن همس هامس:

ـ انظروا..

تحولت الأنظار إلى الحقل الذى يغوص تحت مستوى الطريق بمتر فرأينا زميلا يتوارى وراء عربة مقلوبة وهو يحتضن كائنا لم نره ولكنا رأينا جانبا من فستانه هفا به الهواء فتحرك كالعلم.

ـ أى جرأة!

ـ سيجلب لنا متاعب جديدة.

وتطوع زميل للذهاب إليه لتحذيره. وسرت شهامة التطوع إلى آخرين فمضوا فى أثره. وتطلعت الرءوس إلى العربة المقلوبة باهتمام وإشفاق وتوتر، وبحثت أعين عن القائد حتى عثرت عليه نائما على سريره السفرى وراء عربة التموين. ورأينا الزملاء وهم يتحاورون عند العربة المقلوبة ولكننا لم نسمع كلمة مما يدور فقال أحدنا:

ـ إنهم يقنعونه بالعودة.

فقال آخر ضاحكا:

ـ أو بالاشتراك معه!

وجرت الفتاة إلى مبنى من البوص غير بعيد فاختفت داخله دقيقة ثم ظهرت مرة أخرى فى مدخله وهى تتوسط عددا من الفتيات! وهرع الزملاء إلى مبنى البوص فدب نشاط محموم فينا جميعا، وثبنا قائمين، وزحفنا نحو المبنى كجيش من المجانين. وكانت الشمس تصب على المبنى دفقات حامية من أشعتها فيكاد أن يشتعل ولم يبال أحد بالحر ولا بالجو الخانق، وفاح المكان برائحة عرق آدمى حريف، واضطربت أركانه بالصحة

والعافية وأنفاس الشباب الملتهبة. وشحنت بالعربدة المكتومة والزفرات الضاحكة والأطوار المستهترة. وفى حمأة الطرب المشبوب تردد صوت ماجن بغناء، رقص مستهتر متهتك، واشتبك اثنان فى معركة مازحة. وعدنا واحدا فى أثر واحد، وارتمينا فوق الحصر مستسلمين لراحة عميقة. وما لبثت أن دوت الصفارة وتتابعت دقات الطبول. قمنا ننفض عن أنفسنا الكسل. انتظمنا فى الطابور. ولمحنا القائد متجهم الوجه فلم ندر إن كان تجهمه بسبب ذنبنا الأول أو أنه فطن أيضا لذنبنا الثانى ولكننا كنا أبعد ما يكون عن الندم. وهمس صوت:

ـ نجونا بمعجزة.

فقال آخر:

ـ أو علينا أنا نتوقع عقوبة مضاعفة.

وأخذنا فى السير. بعزائم قوية مضينا. أسعفتنا روح التحدى والصبر. وقلنا لأنفسنا إنه مهما كان ومهما يكن ومهما سيكون فليس أخلد من البهجة والمسرة والمرح. ولبثنا على تلك الحال ساعة ونصفا أو ساعتين. ورغما عن إرادتنا سلمنا بأن الشمس عنيفة، بل أعنف مما تصورنا، بل هى فى الواقع لا تحتمل. وتصبب العرق حتى بلل ملابسنا، وضاعف من تذمرنا إحساسنا بعدم طهارته. الحق أن التعب بدأ يزحف على عضلاتنا وأعصابنا مبكرا بالقياس إلى الرحلات السابقة. وكلما تقدمنا اشتدت وطأته وعنفت ضرباته أما الحر فأصبح خانقا قاتلا. كلا لم نذق هذا الجحيم من قبل، ولم تخر قوانا كما خارت اليوم. وتراخت أوتار أصواتنا وهى تنشد الأناشيد، ولأول مرة نشعر بوزن الوقت وهو يتمطى فوق مناكبنا. تغير كل شىء، حال لونه وفسد طعمه، ففتر حماسنا ثم خمد. حتى الأناشيد تبدت لنا رتيبة مكررة فاقدة المعنى والروح فخجلنا من ترديدها. وخيل لنا أننا موضع سخرية المارة والمنتظرين تحت مظلات الباص. ولم تقف مشاعرنا المدمرة عند حد فأوشكت أن تلتهم الرحلة نفسها التى بدت طويلة بلا نهاية. معذبة بلا رحمة، خالية من أى معنى أو عزاء، غير جديرة بالطقوس التى تحكمها والنظام الذى يضبطها والآمال المعقودة عليها. وقائدنا نفسه لاح قائدا بلا قيادة ولا جيش، مضحكا فى غضبه، هزيلا فى عنفه. ألحت علينا تلك الأفكار، وكلما اشتد إرهاقنا اشتدت إلحاحا وعنفا، ونفد صبر البعض فتوقف عن الإنشاد أو جعل يحرك شفتيه بلا صوت، وجن البعض الآخر فجازف بالخروج من الطابور مع علمه بما يعنيه ذلك من فصله من الفريق مجللاً بالعار منبوذًا من الروح الرياضية. وهى فضيحة لم تغب عنا عواقبها، وآثارها البعيدة فى نفس القائد والمشرفين هناك فى المدرسة، ولكنها فى الوقت نفسه ميزتنا بشيمة الصبر وأملتنا فى تخفيف العقوبة، وإن لم تغير شيئًا من فتورنا وإرهاقنا وحال الخذلان

التى ركبتنا، وتتابع السير والغناء، ولم يعد شىء يحتفظ بعنفوانه إلا دقات الطبول وصلابة قائدنا غير المبالية، وأقران يعدون على أصابع اليد مضوا بهامات مرفوعة وعضلات مشدودة يرددون الأناشيد بحماس وإيمان حتى أثاروا الحنق والازدراء. وعندما لاحت لأعيننا الأهرام الشامخة كانت الشمس قد مالت نحو الغرب، فوهنت حدتها، ودبت فى الجو نسمة جعلت تلاطفنا فى استحياء. وأخذ الطريق فى الارتفاع فتضاعف إرهاقنا واشتدت آلامنا وتداعت أصواتنا. وبلغنا سطح الهضبة وقد اختفت الشمس وتدثر الكون بغلالة داكنة هادئة رددت أنفاسا ضعيفة كأنها أنفاس شيخوخة فانية. ودوى صوت الصفارة فتساقطنا من الإعياء ونحن نتأوه بأصوات غير مبالية. خَمّنا أننا سنمكث تحت الهرم ساعة أو أكثر قبل أن نستأنف السير إلى معسكرنا الموغل فى الصحراء ولكن قائدنا المنتقم قال بصوت سمعه الجميع:

ـ لديكم ربع ساعة كاملة!

ذهلنا! تبادلنا النظر فى صمت ونحن نعلم أن الأوامر لا تناقش ولم نضيع الوقت فى التحسر العظيم. ولم يكن بد من التضحية بالراحة فقمنا لابتياع ما يلزمنا فى مقامنا الأخير فى حدود ما تسمح به اللوائح. ومدة الإقامة مجهولة لا يعلم بها إلا القائد ولكنا آثرنا الأخذ بالأحوط. اشترينا ما نحتاجه من سجائر وصابون وفاكهة وقوارير المياه الغازية. ضاع وقت الراحة فى الشراء والمساومة وتنظيم السلع. وما فرغنا من ذلك حتى عادت الصفارة تدوى ودقات الطبول تدق بلا نهاية فانتظمنا فى الطابور الرهيب، يحمل كل منا سلة موز على يد وبطيخة على اليد الأخرى حاشيا جيوبه بالعلب والقوارير فضلا عن أدواته الأصلية كالعصا والزمزمية والحقيبة. وواصلنا الرحلة من غير أن ننال قسطا من الراحة، بعضلات منهكة وأعصاب متوترة وأنفس غاضبة. وضاعف من متاعبنا مقاومة الرمال الغزيرة لأقدامنا واختفاء معالم الدنيا فى جوف الظلام الهابط. استحالت أصواتنا عواء محشرجا، وتقلصت عضلاتنا من حدة الآلام، فنسينا نسيانا تاما مسرات الرحلة كأنها لم تكن وتمنينا الموت. وداعبنا أمل أن يعدل القائد عن خطته وأن يقنع بما أنزل بنا من عقاب صارم، فتسترد الرحلة بهجتها المأمولة وأحلامها الضائعة ولكنه واصل سيره بلا مبالاة، ولم يكتف بذلك فصاح بصوت كالرعد:

ـ حركة سريعة، ابتدئ!

لم نصدق بادئ الأمر آذاننا، ثم بهتنا من شدة المباغتة. الحركة السريعة ندعى إليها عادة فى مطلع الرحلة وفى ضوء النهار، أما أن تفرض علينا قبيل النهاية فشىء خارق وغير إنسانى يراد به القضاء علينا. وإلى ذلك فهى نوع من الوثبات المتلاحقة فى صورة جرى متقارب الخطو يقتضى استخراج البطاريات من جيوبنا الخلفية لتنير لنا الطريق

خشية أن نتعثر فى نقرة أو نرتطم بحجر ، فكيف يتاح لنا ذلك مع حملنا الثقيل . وتعبنا الأليم ؟! ولا فرصة للتمرد فليس أمام الهارب من الطابور فى ذلك المكان إلا الضياع فى الصحراء والظلام ، فلا مفر من الانصياع والإذعان . ومضى القائد يثب ، فاندفعت دقات الطبول فى تلاحق سريع . وشرعنا فى الحركة السريعة . جربنا أن نمارسها مع الاحتفاظ بأحمالنا ومع استغناء عن البطاريات ولكن بدا ذلك ضربا من المحال . لا مفر من التخلص من أحمالنا العزيزة ، ولا مفر . حتى لو تعرضنا للكآبة والقرف والحرمان ، لا مفر . وتخلصنا من البطيخ والسلال ، تركناها لقى فى الصحراء للحشرات والهوام . وأخذنا نثب بسيقان متهافتة وعزائم خائرة وقلوب باكية . مضينا يلفنا الظلام على ضوء البطاريات المتحركة فى أيدينا كأننا نجوم متداعية تبعث بإشعاعها الأخير قبل اندثارها النهائى . وتذكرنا بحسرة ساخرة فرحة الاستيقاظ وبهجة الأناشيد ودعابة الطريق ونشوة الحقل ومتعة الشراء ، تذكرنا ذلك كله بذهول ، ونحن نتقدم شبه عرايا منهوكى القوى إلى معسكرنا الرابض فى أعماق الخلاء . وتقدمنا كما قدر علينا ؛ وحتى الأسف لم يعد يجدى ، ولم نهتم كذلك بما إذا كان ينتظرنا عقاب جديد أم سيكتفى بما حل بنا . وتاقت أنفسنا للنوم باعتباره الشفاء الأخير لجميع الآلام . وأخذت دقات الطبول تبطئ رويدا رويدا إيذانا بتغيير الحركة وتقارب المعسكر . وعدنا تدريجيا إلى سيرنا العادى ، ومن شدة الجهد لم نجد حاجة لتبادل همسة واحدة فغاص كل فى وحدته . وما ندرى إلا ونحن ندخل فى الممر الطويل الضيق فتفعم أنوفنا روائح الكلس وعطن البول . . وفى الفناء امتدت تكويناتنا الرباعية لتصنع طابورا واحدا ، فوقفنا متصبرين لنتقى التقوض والانهيار . وصمت قائدنا مليا ، ربما ليتم تعذيبه لنا ، ثم قال بصوت هادئ ملىء بالنذر :

ـ انتهت رحلتنا ، وغدا يجمعنا الحساب ، أما الآن فتناولوا عشاءكم ثم أخلدوا للنوم . .

ولم يهمنا إلا النوم . .

أجل ، ليكن الآن نوم ، وليكن فى الغد حساب .

العريـــــــس

عند تلك النقطة من الحديث مال نحوى حتى شعرت بأنفاسه تنداح فوق صدغى وقال :

ـ اعزم وتزوج .

استجبت لاقتراحه، كنت فى الواقع أتلهف عليه، بت مؤمنا بأن الزواج هو المغامرة الوحيدة القيمة الباقية لى فى الحياة.

قلت:

ـ فكرة طيبة.

ـ وماذا تنتظر؟

ـ أنتظر العروس بنت الحلال.

ـ هل بحثت عنها بجد؟

ـ لا وقت عندى للبحث.

فقال واهتمامه بالموضوع يزداد بقوة:

ـ يوجد حل لكل موقف معقد، ما هى شروطك؟

ـ عروس مناسبة، هذا ما أريد.

ـ ست بيت أم عاملة؟

ـ ست البيت مفيدة والعاملة لها مزاياها غير المنكورة.

ـ العاملة تملك إيرادا؟

ـ الفقيرة مقبولة عندى وذات الإيراد مقبولة أيضا.

ـ لك مواصفات خاصة فى الجمال؟

ـ حسبى أن تكون مقبولة.

ـ شروطك يسيرة، أنت تريد امرأة حسنة المعاشرة.

ـ بلا زيادة.

فقال بثقة:

ـ طلبك موجود، هل تعرف أسرة ميرى؟ عابد ميرى؟ كريمته هى من أرشحها لك.

وقادنى ذات يوم إلى أسرة عابد ميرى فقدمنى لهم ـ الأب والأم والفتاة. والحق أنى غادرت بيتهم عاشقا أو قريبا من ذلك، تبدت لى الفتاة مثالا للرزانة والأنوثة والكمال البيتى، أحببت وقار الأب وأبهة الأم. وفى ذلك اللقاء تم الاتفاق الأولى وهو ما يقابل الترشيح للوظيفة فى اصطلاحاتنا الحكومية، وبقى الأهم وهو مسوغات التعيين وتقرير مكتب الأمن. ومن ناحيتى تحريت عنهم فجاءتنى تقارير متناقضة كالمتوقع، قيل لى:

ـ نعم التوفيق، أسرة ولا كل الأسر، ضمنت الطمأنينة والسلام فى الحياة والموت.

وحذرنى آخر قائلا:

ـ لا تغرنك المظاهر، ستخنقك أغلال العبودية.

وسمعت حكايات عن جنون بعض افراد الأسرة وانتحار آخرين ولكن لم يوهن ذلك من عزمى، تحصنت بخبرتى الطويلة بالحياة والبشر، وأسكرتنى نشوة متحفزة للمغامرة ودق أبواب المجهول، وقلت لنفسى إن الحياة نفسها شبيهة بهذا الذى يقال، تلقيناها وهى مثال للأمان حتى بعد الموت ثم تكشفت لنا عن مجهول جليل واحتمالات مبهمة وما زلنا نعشقها ونتعلق بأذيالها حتى الموت.

وفى الوقت نفسه تعقبتنى التحريات تغوص فى أعماق ذاتى وتاريخى، فساورنى قلق غير قليل، ورجوت أن يسود التسامح وينتصر فى النهاية. وجاءنى صديقى الوسيط وقال لى:

ـ لم أعرف أسرار صحتك إلا هذه الأيام.

فدهشت وتساءلت:

ـ حتى عن الصحة يتحرون؟

ـ طبعا، كثيرون لا تزكيهم فى الختام إلا صحتهم القوية!

ـ إنى بحمد الله أتمتع بصحة جيدة.

ـ ولكن توجد رصاصة مستقرة من قديم فى صدرك تحت الترقوة!

فضحكت منتشيا بالذكريات وقلت:

ـ ذلك تاريخ قديم.

ـ ولكن كيف نفذت إلى صدرك؟

فقلت بعد تردد:

ـ فى مظاهرة وطنية.

ـ تلك حجة كل مصاب برصاصة قديمة.

ـ أيمكن أن يشكوا فى ذلك؟

ـ العجوز أصبح يشك فى الثورة نفسها مع أنه كان من معاصريها، هو اليوم يقول إنه لم تندلع ثورة ولم يطلق رصاص ولم يستشهد أحد.

ـ هذا جنون رسمى!

فابتسم الصديق قائلا:

ـ على أى حال فمن حسن الحظ أنه قيل له ـ عابد ميرى ـ إنك أصبت بها فى ملهى للغناء والرقص!

ـ أتعد ذلك من حسن الحظ؟

ـ نسبيا، يمكن الدفاع عن عبث الشباب وطيشه أما التورط فى شئون السياسة فيعرض الإنسان لأخطار مجهولة وبالتالى تتعرض لها أسرته، على أننى دافعت عنك فى هذا الشأن.

ـ ماذا قلت؟

ـ قلت إنك لم تنتم لحزب، ولا تنتمى لرأى، وأنك مخلص للدولة، لم تكن من الليبراليين ولا الشيوعيين ولا الإخوان وذلك بلا شك يزكيك كزوج مأمون المستقبل!

فقلت بانقباض:

ـ ولكن من الظلم أن يقال إننى تعرضت للقتل فى ملهى للرقص!

ـ ما علينا، وما حكاية خوفك من الصراصير؟

فضحكت عاليا وقلت:

ـ حتى هذا؟

ـ قيل إنك تهدر وقتا ثمينا فى رش المطبخ والحمام والحجرات، وأن منظر صرصور خليق بأن يفزعك لدرجة الصراخ، حتى ولو كان من النوع الألمانى الصغير الرشيق!

ـ أهكذا تصفه؟

ـ الأمر تافه، يبدو تافها، ولكن ماذا يعنيه؟ هذه هى المسألة، ويقال أكثر من ذلك إنك تتوهم أن البلد ستتحسن أحواله كثيرا إذا نجحت فى إبادة الصراصير.

غضبت ولا شك وأنا أتابعه ثم سألته بازدراء:

ـ أيهتمون حقا فى بيت عابد ميرى بتلك السخافات؟

ـ يا عزيزى إنهم يحترمون بعض الذكريات المتعلقة بالصراصير.

ـ كلا!!

ـ هو الحق، كانت لهم جدة تؤمن بأن الصراصير تحمل بعض أسرار الوجود.

فقلت ساخرا:

ـ إذن نحاول احترام الصراصير حبا فى آل ميرى.

ورحت أفكر ـ عقب انفرادى بنفسى ـ فى طريق الزواج المعقد وهوس التحريات التى تسبقه، كأن الناس يطمحون إلى الظفر بالتوافق المنشود بين الزوجين كاملا غير منقوص، جاهزا بلا عناء التجربة، قبل خوض الحياة الزوجية، متناسين قدرة الإنسان الخارقة على التكيف من تحديات الواقع، فالإنسان الذى عاشر عصور الصيد والرعى والزراعة والقحط والجليد فتغلب على عناء المواجهة وحل التناقضات القاسية وحقق ذاته على الوجه المقبول الذى قر له البقاء فى الحياة، ذلك الإنسان قادر بلا شك على التكيف مع

عروسه الجديدة مهما يكن من تنافر ماضيه وماضيها. وفكرت أيضاً فيما كان يؤخذ على فى الماضى من عدم الانتماء لحزب من الأحزاب، وما رميت به بسبب ذلك من تهم البلادة وقلة التربية الوطنية وغلبة العبث والتفاهة والأنانية وكيف انقلب ذلك إلى نقطة قوة تزكينى فى غمار التحريات التى تنهال علىّ منقبة عن المستور من خطاياى!

* * *

وجاءنى صديقى الوسيط بعد ذلك بأسبوعين فتفحصته بقلق وقلت:

ـ طبعا ما زالت التحريات جارية؟

فضحك باقتضاب وقال:

ـ الحديث كان عن السلوك الشخصى.

ـ هو على أى حال من ذيول الماضى الذى قررت تغييره من جذوره.

ـ أنا نفسى قلت ذلك، ولكن الماضى يتمثل لبعض الناس وكأنه الحقيقة الوحيدة الراسخة.

ـ يا له من موقف سخيف حقا.

فقال برقة ليخفف من وقع حمولته:

ـ كلام قيل عن القمار.

فهتفت من فورى:

ـ كلا، لست بطبعى مقامراً، لعبت مرات معدودات ثم لم أعد إليه.

ـ والخمر؟

ـ اسمع، صدقنى، دائما كنت وما زلت معتدلا، لم أفقد الوعى إلا مرة واحدة.

ـ آل ميرى لا يخافون الشراب بقدر ما يخافون عواقبه.

ـ لم تكن ثمة عواقب وخيمة.

ـ عابد ميرى نفسه يشرب، وهو يغنى إذا شرب، ولكن قيل له إنك طولت لسانك مرة على الاستبداد وأنت فاقد الوعى!

ـ قلت لك إننى لم أفقد الوعى إلا مرة واحدة.

ـ ربما وقع ذلك فى تلك المرة، وعابد ميرى يخاف أن يتكرر ذلك بعد أن تكون قد صرت زوجا وأبا؟

فقلت بحدة:

ـ لا أساس لخوفه صدقنى، ثم لماذا تذكر تلك الزلة وتنسى مجاملاتى الطويلة للاستبداد وأنا فى تمام الوعى؟!

ـ الموضوع قابل للمناقشة فلنتركه إلى حين، ولكن ما الرأى فى ولعك بنسوان شارع محمد على؟

فقلت وكل شىء يتجهمنى:

ـ ماضى أى رجل لا يخلو من عبث مثل ذلك.

ـ عابد ميرى يسلم بالمبدأ ولكنه يحتج على الذوق، وقال إن يكن ذا ولع خاص بأولئك النسوة فكيف أتصور أنه يمكن أن ينسجم مع فتاة كريمة مثل ابنتى!

ـ وهل يوجد فارق حقيقى بين كريمته وبين نساء محمد على؟

فضحك صديقى وقال:

ـ آه لو سمعك تقول ذلك.

وساد صمت يغلفه الأسى، وارتسم الإشفاق على وجه صديقى، ولكنى أشرت إليه أن يواصل، فقال:

ـ يتحدثون عن شقة مفروشة تملكها بناء وأثاثا!

ـ وفى نيتى أن أقيم فيها بعد الزواج، ماذا فى ذلك؟

ـ الشقة لا تهم ولكن من دأبت على استقبالهم فيها!

ـ ماذا يقصد الأوغاد؟

ـ ها أنت تغضب فيحسن بى أن أسكت.

ـ هات ما عندك، وإن أردت جوابا فإنى كنت أستضيف بها نخبة من الأصدقاء.

ـ أصدقاء من نوع خاص، من إخواننا العرب الأثرياء.

ـ استضفتهم بصفتهم أصدقاء لا أثرياء وقد توطدت علاقتى بهم مذ أيام إعارتى للعمل فى بلادهم.

ـ أما أنا فأصدقك ولكنك تعلم كيف تترجم تلك العلاقات البريئة على ألسنة السوء!

فاستشطت غضبا وهتفت:

ـ للصبر حدود.

ـ لا تغضب فذاك امتحان يتعرض له كل طالب زواج.

وعجبت ـ وحق لى أن أعجب ـ من تشدد الناس فى تحرياتهم. وعجبت أكثر بالنظر إلى أننا نعايش فترة من الانحلال والفساد بات يضرب بها المثل. فلم يتشدد الناس فى تحرياتهم كل ذلك التشدد، وهل يعتقد الآباء أنه يمكن أن ينتقوا أزواجا لبناتهم من منطقة مجهولة تقع خارج الزمن والتاريخ؟. وهل عش الزوجية أهم فى حياتنا العامة من

الوظيفة؟ . وألا يضج الناس بالشكوى ليل نهار من الخدمات المبتورة ـ وضمنا ـ من المسئولين عنها؟ فكيف تزوج أولئك القادة وكيف تفادوا من مطاردة التحريات؟ ! .

ومضى حماسى للزواج يفتر ، وندمت على تعريض نفسى لألسنة لا تعرف الرحمة ولا الحياء .

* * *

وبعد مضى ثلاثة أسابيع رجع إلىّ صديقى فبادرته من فورى :

ـ لن أستمر .

فقال بحدة :

ـ إنى أحتقر الضعف ، اصمد حتى النهاية ، ولا تهز ثقتك الكاملة بنفسك .

ـ سأخفق فى الزواج وأبوء بسوء السمعة .

ـ اعتبرنى لم أسمع شيئا ، واسمع أنت ما قيل عن عملك !

وأثار حب استطلاعى بقوة فلم يسعنى تجاهله ، قال :

ـ شهد لك كثيرون بالتفانى فى العمل .

فلم أعلّق وانتظرت متوقعا ما لا يسر .

ـ ولكن قيل إنك تحب السلطة وتركيز كل نشاطك فى يديك ثم تنطلق شاكيا من عدم تعاون الموظفين معك !

ـ لن أناقش ، ولكن ما علاقة ذلك بلياقتى للحياة الزوجية؟

ـ كل سلوك مهما بدا عرضيا فله دلالته .

ـ استمر .

ـ وقيل كلام عن تحقيق أجرى معك بخصوص بناء مجمع !

ـ وماذا كانت نتيجته؟ التحقيق مجرد إجراء فلا هو خير ولا هو شر ، وها هم يروننى مستمرا فى عملى ، بل ترقيت مرتين بعد التحقيق ، فما حكمة التنديد بى بسببه؟

ـ لك حق .

ـ إذن فلنعتبر تلك النقطة منتهية .

ـ ولكن قيل أيضا إنك هددت بجر آخرين أكبر منك معك فحفظ التحقيق !

ـ عليهم اللعنة !

ـ إنهم يستحقونها .

ـ أتحداهم أن يثبتوا ذلك !

- عليهم اللعنة، ولم يقفوا عند ذلك، بل جعلوا يتساءلون، كيف يعيش حياته المرفهة؟ كيف ملك الشقة المفروشة؟ والسيارة؟ من أين له ذلك؟

فكورت قبضتى غضبا وقلت :

- يتجاهلون ما ورثته عن والدى، كما يتجاهلون حقيقة أخرى وهى أن بعض مؤلفاتى المدرسية مقررة فى مدارس البلاد العربية . . فكل مصدر لإيراد عندى واضح وشريف .

توقعت أن يتكلم عن الذين قرروا كتبى وعن علاقتهم بالأصدقاء الذين أستقبلهم فى الشقة المفروشة ولكنه لم يفعل، كأنما نكص حيال درجة الحرارة التى ارتفع إليها حنقى، بيد أنه حدجنى بنظرة قصيرة قرأت فيها ما تورع عن ترديده . وجعل يضحك ويقول :

- الرجل المخرف عابد ميرى يميل إلى تصديق الأكاذيب، وفى آخر لقاء قال لى إن سوء الظن من الفطنة وأنى بت أعتقد أن ذلك العريس هو المسئول عن ٥ يونيه!

فصحت فى ذهول :

- إذن فإنى المسئول عن ٥ يونيه!

وغادرت المكان مسرعا لا أكاد أرى طريقى من الغضب . ماذا يعرف المخرف عن ٥ يونيه؟ . إنى مع التسليم بكافة جرائمى الخلقية أعد أو يجب أن أعد من أشرف الرجال . وهل أغرانى بالخطايا إلا الاقتداء بالآخرين؟! . وكنت فى الوقت نفسه ضحية، أجل ضحية لرؤسائى الذين ضربوا لى أسوأ مثل، وها أنا أحرم من جنة الاستقرار العائلى كأننى المجرم الوحيد!

وقررت العدول عن فكرة الزواج نهائيا .

وقلت لنفسى إنه ليس بالمرأة وحدها يحيا الإنسان .

وندمت أشد الندم على تعريض نفسى للزوبعة التى عصفت بها .

* * *

وكنت جالسا بمكانى المختار عندما لمحت صديقى قادما من بعيد . رددت فى نفسى الكلام الفظ الحاسم الذى سأجابهه به . وقررت أن أعلن تمردى على الزواج إلى الأبد .

وبادرنى الصديق، قبل التحية، قائلا :

- عابد ميرى يحييك، ويرجو أن تحدد موعدا لإعلان الخطوبة فى أقرب وقت ممكن!

العرى والغضب

ناعمة مستكينة، مهذبة غارقة فى الطمأنينة، ملهمة لأحلام البيت السعيد، تنتشر كالشذى فى أعماقه فتشكل بضعفها المنساب طاقة مسيطرة بعون الإغراء والرغبات الدفينة. وكانت بمجلسها أمامه فى الترام صورة مجسدة لأمنية عذبة غامضة، منعشة للروح، مبدعة للألفة الحميمة، فقال لنفسه إن هذا هو ما أبحث عنه. والتقت عيناها فى حركة عفوية بعينيه المركزتين فانتبهت من أحلامها واعتدلت فى جلستها ونحت وجهها مدارية ابتسامة خفيفة جدا لإدراكها بأنها كانت موضع نهم والتهام. ودفعته الابتسامة إلى اتخاذ قرار جرىء بتأجيل زيارته للمحامى ـ رغم دقة المرحلة التى تمر بها القضية ـ إذا دعت إلى ذلك فرصة طيبة. ولم يغادر مجلسه فى محطة «المحامى»، لبث ينتظر حظه المجهول، ولكنه تذكر على رغمه المحن التى عاناها ـ هو وأسرته من قبل ـ ما يقارب ربع القرن والتى احتوتها فى النهاية القضية، فلم يمض قراره بلا قلق، ولكن هل تقوم القيامة إذا تأجلت الزيارة أسبوعا؟. وانقبض قلبه وهو يتخيل محاميه فى غضبه لتخلفه عن الميعاد دون اعتذار، فإنه محام صارم، يحتقر المزاج ولا يحنو على الضعف البشرى.

ولما رجع بوعيه إلى الجالسة قبالته ضبطها تنظر إليه فى دهشة فأدرك من توه أن انفعالاته قد ترجمت إلى تشنجات فى قسمات الوجه وعضلاته وربما تعدت ذلك إلى اليدين، أجل فإن ذلك مما يلاحظ عليه أحيانا، ولكنه ابتسم إليها بجرأة لا تعوزه فى أمثال هذه المواقف فأحنت رأسها باسمة، عند ذلك حل الرضى بصدره واطمأن إلى أن تضحيته لن تضيع فى الهواء. وقامت فقام وراءها بتلقائية وبلا أدنى ارتباك وبعد ثوان كانا يترامقان مواجهة على الطوار على حين امتد وراءهما ميدان الضاحية شبه خال وقد احمر قرص الشمس إيذانا بالمغيب. تمتم:

ـ فرصة سعيدة.

فمضت إلى الطريق الوسطى دون أن تجيبه ولكنها دعته بأسلوبها المشجع الصامت للحاق بها. ومشى إلى جانبها فتقبلت ذلك دون اعتراض فعاد يقول:

ـ فرصة سعيدة.

كان الطريق سكنيا بلا دكاكين، به قلة من المارة، وكثرة من السكان تتواجد فى الحدائق، ولما لم يتبين لها هدفا قريبا فقد قال:

ـ يوجد قريبا من هنا فرع للفردوس.

ولكنها واصلت السير فسار إلى جانبها وهو ينظر فيما أمامه متسائلا. ووجدها تتجه نحو بيت صغير من دور واحد فاقتحمته دهشة وتلقى رد فعل حاد وأليم. صدق ما يرى بصعوبة واحتجاج وتبرم وقال لنفسه: «حقا إنه لزمان زالت فيه الفوارق بين الأنواع». وبتبدد الحلم لم تبق إلا الحقيقة القاسية المبتذلة، فشعر بتأنيب لتفويته ميعاده الهام بشأن القضية، وتبعها إلى الداخل بلا حماس يذكر. ووجد البيت صغيرا حقا، يتكون من صالة طويلة وحجرة وحيدة فى النهاية. حجرة نوم آية فى البساطة أو فى الفقر، بها فراش ومشجب ومقعد وحيد، وحتى الفراش اقتصر تجهيزه على حشية ووسادة بلا غطاء ولا ملاءة، وانبسطت أرض الحجرة الخشبية بلا سجادة ولا كليم ولا حصيرة. ابتسم بفتور وهو يتذكر أحلامه المنتشية وقال إنه لم يبق ما يستحق الاهتمام إلا المرأة نفسها، الجميلة ذات المظهر الخداع. ورجع المحامى يلح على وجدانه فسألها وهو يعلم بالجواب مسبقا.

ـ يوجد تليفون؟

فهزت رأسها بالنفى وهى شارعة فى خلع ثيابها فقال مداعبا يأسه:

ـ صحتك..

فنظرت نحوه باهتمام فرفع كأسا متخيلة فى الهواء ثم رشف رشفة فابتسمت وواصلت خلع ثيابها فى رسوخ المحترفات حتى تبدى جسدها عاريا جميلا محايدا، ونظرت نحوه كأنما تحثه على الاقتداء بها، فأذعن لدهائها الصامت وهو ينادى بإصرار حماسه الهارب.

* * *

وغادرت الحجرة فأشعل سيجارة. تابع الدخان بفتور وأسى. عاد يفكر بالقضية، وبالنقاط التى عنَّ له أن يناقشها مع المحامى. لو وجد تليفونا لانتحل عذرا للرجل واتفق معه على موعد آخر. ولا فائدة ترجى من الذهاب الآن لأنه سيجده منشغلا بموعد آخر. أو يجده قد غادر المكتب. وقد عاش زهرة عمره ولا أمل له إلا كسب القضية ولكن الله وحده يعلم بما عانت أعصابه طيلة تلك الفترة الغالية من العمر.

ـ لا تلجأ إلى المحاكم. المحاكم حبالها طويلة. وهيهات أن تظفر فى ساحتها بحاجتك.

ـ وما عسى أن أفعل؟

ـ كما كان يفعل أجدادك، بل كما يفعل خصومك..

ـ ولكن الزمن تغير.

ـ الزمن لا يتغير، أنت الذى تغيرت..

ـ إنى رجل متعلم .

ـ عليه العوض !

اليوم لا يدرى إن كان أصاب أم أخطأ، ولكنه وقع فى أسر القضية، فوكل المحامى، وتبارى المحامون، وتكلم الشهود، ولم يعد فى الإمكان تغيير الخطة . وها هو عار ملقى على فراش عار على حين ينتظر المحامى ويتعجب! . ولكن ألم تغب الفتاة فى الحمام أكثر مما يجب؟ . أى مظهر خداع . وأى آمال قد تبددت . يبدو أن الدنيا تتغير بأسرع مما يدرك . وقد ينزلق فى هاوية مخيفة بسبب رغبته الملحة فى الزواج والاستقرار . وفضلا عن ذلك فعليه أن يؤجل مشروع الزواج حتى يتم الفصل فى القضية، وإلا فما جدوى أن يتزوج اليوم ثم يشهر إفلاسه غدا؟! .

ـ هل تلجأ للقضاء لأنك متعلم حقا أو لأنك ضعيف؟

ـ إنك تتكلم يا عمى بلغة هيروغليفية .

ـ ابصق على ذقنى إن نجحت فى ذلك السبيل مقاصدك .

ـ نحن نتفاهم بلغة حية جديدة .

لا بد للحق أن ينتصر ولو طال الزمن، ولكن ما بال المرأة قد تأخرت؟ ماذا تفعل فى الحمام؟ وبرم بالانتظار فغادر الفراش، فتح الباب نصف فتحة، أخرج رأسه فرأى الصالة غارقة فى الظلام إلا شعاعا يترامى من منعطف جانبى خمن أنه الحمام . تنحنح فلم يرد أحد . صفق فلم يرد أحد . سار على أطراف أصابعه نحو الضوء حتى وجد نفسه فى الحمام ولكنه وجده خاليا . أدرك أنها اغتسلت ثم ذهبت إلى مكان ما ـ لعله المطبخ ـ فقرر أن يأخذ دشا . وتحت سيال الماء المتدفق انتعشت روحه وخف شعوره بالذنب حيال المحامى . أجل سيرميه بالإهمال فهذا دأبه كلما قعد به عن الاتصال به عذر، ومع ذلك فعندما واظب على ملاحقته فى الشهر الماضى ضاق به وقال له :

ـ يلزمك أعصاب من حديد لكى تواجه حياة العصر . .

وقال له أيضا مازحا :

ـ إنى أتوقع أن تجيئنى المرة القادمة حافى القدمين مرسل شعر اللحية والرأس مسطولا كما يفعل شباب العالم الحر!

والمسألة فى حقيقتها أن القضية هى حياته أما بالنسبة للمحامى فهى النشاط رقم كذا فى جدول أعماله الحافل بأمور لا نهائية، وهو ـ المحامى ـ رغم رسوخه فى العلم وقدرته الفائقة على الإنجاز، ورغم عطفه الشديد عليه، فإنه لا يكن له احتراما كافيا . وفى ساعة صفاء وهما يتناولان الغداء معا قال له :

ـ لولا اندفاعك الجنونى لما كان للقضية وجود أصلا . .

فقال له بإصرار:

ـ إنها مسألة كرامة . .

ـ ولكن حتى الاندفاع الجنونى يجب أن يقوم على أساس من العقل!

ـ الحقيقة أنك لا تفهمنى . .

ـ حقا! أأنت لغز؟

ـ إنى أحترم أمورا تعتبرها أنت بكل بساطة خرافات وأباطيل . .

ـ لقد تأخرت يوما عن موعد هام لتشهد صلاة العيد فما معنى ذلك؟

ـ قصصت عليك عشرات القصص ولكنك لا تصدق.

ـ حقا؟ . فماذا يعنى جريك وراء النسوان وتقلبك فى الحانات؟

عند ذاك قال بانفعال:

ـ أأنت محام أم مرب؟!

وغادر الحمام عائدا إلى الحجرة وهو يضمر لها ـ المرأة ـ عتابا على طول اختفائها ولكنها لم تكن قد رجعت بعد. وذرع الحجرة ذهابا وجيئة ثم قرر أن يرتدى ملابسه. اتجه نحو المشجب ولكنه لم يجد لملابسه أثرا. ذهل، أجال بصره فى أنحاء الغرفة ولكنه لم يعثر على شىء. أية مداعبة سخيفة.

ـ رباه!

ندت عنه فى ذهول أشد عندما تبين له أيضا أن ملابس المرأة غير موجودة. تفحص أنحاء الحجرة بغضب، نظر أسفل السرير، مضى نحو الباب وصفق بشدة. ولم يكن عرف لها اسما فصاح:

ـ يا ست!

وبنبرة أشد:

ـ يا هوه.

واندفع يفتش الشقة الصغيرة، الحمام مرة أخرى والمطبخ ولكنه لم يجد أثرا لإنسان. ومضى نحو باب الشقة فوجده مغلقا بإحكام فرجع إلى الحجرة وهو يتميز غيظا وحنقا. واضح أن المرأة قد ذهبت. من السهل تصور أنها كانت مختفية فى ظلام الصالة عندما دخل الحمام، ثم ارتدت ملابسها بسرعة وأخذت ملابسه وذهبت. ما معنى ذلك؟. هل أرادت سرقته مع منعه من اللحاق بها؟. افتراض غير مطمئن، وثمة سؤال آخر، بيت من هذا؟. . وأى علاقة للمرأة به؟ وكيف تتركه عاريا فى هذه الشقة الجرداء؟!.

وشعر بالعجز والقهر والضياع اللانهائى. لن يرجع إلى ما كان عليه، ذلك الرجل

المحترم. إنه يودع حياة يعرفها ليستقبل حياة مجهولة مدمرة. ولكنه لا يريد أن يصدق، لعله مزاح ثقيل سخيف ليس إلا . .

ولكن الوقت يمر بلا مبالاة. وفجأة ضرب بيده على جبينه وهتف:

ـ مكيدة، إنها لمكيدة مجرمة!

لا تقع هذه الأمور مصادفة. إن أيدى خصومه تتراءى له وهى تدبر بخبث وإحكام رامية فى النهاية إلى إفشال القضية. يتذكر الآن أنه لمح المرأة فى مشرب الشاى قبل أن يغادره ليستقل الترام. وأنها جاءت فى أعقابه لتجلس أمامه. وسألته عن الساعة لتضبط ساعتها وفى الحقيقة لتلفت نظره إليها. وأنها لم تكن ملاكا كما تصور ـ كيف تصور ذلك ـ فقد فرجت بين ساقيها العاريتين لحظة ثم ضمتهما بسرعة وحياء مصطنع فظنها حركة بريئة طاهرة، ثم استسلمت لأحلام مجهولة فى استرخاء ناعم، فكان بوسعه أن يدرك حقيقتها، ولكنه ثمل بخياله الجامح ورغباته الدفينة فرأى ما لا وجود له وبنى عليه العلالى واندلق كغر أبله، لقد أحاط خصومه بتحركاته وأهوائه فرسموا خطة محكمة وأوقعوه بسهولة مخجلة ثم تركوه عاريا فى مسكن مجهول ليتوقع قدرا مجهولا. وبمقتضى ذلك المنطق السليم القاسى فعليه أن ينتظر ضربة قاضية فى المصيدة.

ـ ما العمل؟

كيف يفر قبل أن يدهمه الخطر؟. وجال فى المسكن مرة ومرة بلا جدوى على الإطلاق. ليس إغلاق الباب بمشكلة فبوسعه أن يقفز من النافذة ولكن كيف يواجه الطريق عاريا، هذه هى المشكلة. وأدرك أن خلو السرير من الغطاء والملاءة لم يكن عن فقر أو مصادفة ولكنه ضمن الخطة التى رسمت لحرمانه من أى شىء يستر به جسده. وقف وراء النافذة ينظر من خصاصها إلى الطريق المضىء الذى لا يخلو لحظة من عابر، كيف يمكنه أن يمضى فيه عاريا؟ وماذا يفعل عندما يبلغ الشوارع المزدحمة بفرض أن أمكن عبور هذا الشارع دون حادث؟! وسواء أبقى أم انطلق متخطيا حدود العقل فسوف يقع تحت طائلة إحدى تهمتين خطيرتين، السطو أو الجنون، وكلتاهما خليقتان بزلزلة أركان القضية، فما العمل؟ ولم يشعر فى وقت مضى بما يشعر به الآن بالحاجة الماسة إلى مشاورة محاميه لعله يهديه إلى منفذ فى عالم القوانين المتشعب الذى يجهله كل الجهل. قال له ذات مرة:

ـ احرص على الجدية والاستقامة فإن أى هفوة ماسة بسمعتك ستبدد مجهودى هباء.

فسأله ضاحكا:

ـ أتطالبنى بالتقشف حتى يصدر الحكم؟

ـ ولم لا؟

ـ ومتى تراه يصدر فى تقديرك؟

ـ آسف على أنك لا تحترم التقشف وبخاصة فى ظروفك الراهنة التعيسة!

واشتعل غضبا فهمّ بتعنيف الرجل. أكثر من مرة همّ بتعنيفه ولكنه كان يتذكر أنه لم يدفع له مليما واحدا سوى رسوم التوكيل، وأن الأتعاب مؤجلة ومنوطة بكسب القضية، فيرجع إلى عقله ويكظم غيظه ويسكت. والحق أنه لا يحب التقشف، بل أنه يضيق بمحاميه لتقشفه المعروف عنه، وأى قيمة للحياة بلا طعم لذيذ وشراب هنيء وعناق حار ومقام وثير؟! ذلك جميل حقا ولكن تحت شرط ألا يجد نفسه عاريا فى بيت غريب متوقعا بين لحظة وأخرى أن تدهمه ضربة قاضية.

وتساءل عما يراد به. هل يتركونه حتى يضطره الجوع إلى الخروج؟ هل يجيئون ليخيروه بين التنازل عن القضية وبين استدعاء الشرطة لضبطه بالحال التى هو عليها؟

هذا أو ذاك أو غيرهما من الاحتمالات، كلها طريق واحدة تفضى إلى الضياع.

وغلى دمه.

كل شيء محتمل إلا تخيل ابتسامة الشماتة فوق شواربهم الغليظة.

وسمع صوتا فهرع إلى النافذة فرأى سيارة تقف أمام البيت.

ـ كما توقعت قد جاءوا..

واندفع دمه فى الغليان.. ومن شدة القهر جن غضبه. واكتسح الغضب الخوف فلم تبق فى صدره إلا ألسنته المشتعلة. كان لعبة بأيديهم طيلة الوقت ولكنه رفض أن يستمر لعبة وأضاء المصباح فتبدى عاريا، متجردا من الخجل والخوف. ها هى الحركة تدب خارج الحجرة. ستطالعه نظرات باردة وبسمات ساخرة فليبتسم وليسخر مثلهم. سيقول مقدمهم وهو يصطنع دهشة مقيتة:

ـ ماذا نرى؟

فيقول بهدوء تام:

ـ طال انتظارى لكم!

ـ هكذا عاريا!

ـ كما ترون!

وليكن ما يكون ولكن اللعبة لن تستمر.

واقتربت الأقدام ثقيلة وتطايرت الضحكات.

وانتظر ينظر فى هدوء وتصميم وعناد.

غير مبال بالعواقب.

الجريمــــــة

تلاشى الهدوء فى رحاب التاريخ، تغيرت أشياء كثيرة، برزت معالم جديدة، ولكن بقى الحى الشرقى يزخر بالأزقة والحوارى والبيوت البالية، يقابله الحى الغربى بفيلاته الكلاسيكية وعمائره الأنيقة الحديثة، هكذا وجدت الضاحية التى ولدت فيها بعد غيبة دامت ربع قرن. بهرنى ميدان المحطة باتساعه ومبانيه الحديثة وتمثال الفلاحة الناهضة، والشارع العريض الطويل الغائص فى أعماق الضاحية حتى المسلة القائمة فى الحديقة الكبرى، كما بهرتنى المصانع الجديدة بضخامتها ومداخنها النفاثة وضجيج آلاتها.

ورغبة منى فى الاختلاط بالناس وتوثيق علاقتى بهم قررت الإقامة فى الضاحية فذهبت إلى مكتب سمسار للشقق وجلست فى الانتظار بين جمع من الرجال والنساء. جلست بوجه بسام مشحوذ الهمة للاستجابة لأى بادرة ودودة ولكنهم كانوا منهمكين فى الحديث:

ـ ألم يستدل على شخصية صاحبة الجثة؟

ـ كلا، وجدت مدفونة من سنين ومحترقة تماما. . .

ـ كم سنة؟

ـ أربع أو خمس سنوات، هذا ما كتب فى الخبر.

ـ والقاتل؟

ـ لم يعرف بعد، والأرجح أنهم عصابة. فالقتل والإحراق والدفن تحتاج إلى أكثر من مجرم واحد. .

وتداخلت فى الحديث سائلا:

ـ ألم يعلن فى الضاحية وقت ارتكاب الجريمة عن اختفاء امرأة؟

فساد صمت انقطع به الحديث مليا ثم قال شخص:

ـ لا يمكن تذكر ذلك.

فقلت:

ـ ولكنه لا يمكن أن يغيب عن تفكير المحقق. .

لم تحز ملحوظتى قبولا فيما بدا لى، فأكدت غربتى بدلا من أن تفتح لى مدخلا إلى علاقة حميمة. وخفت أن أكثر من الأسئلة فيساء بى الظن وخاصة لشدة حساسيتى من

ناحية المهمة التى أحمل أمانتها، وليقينى المستند إلى خبرة مهنتى بأن الأعين يجب أن تكون منتبهة تماما نحو أى دخيل قد يهدد أمن الضاحية وسرها العجيب. وجاء دورى للمثول أمام السمسار فوجدت فى حجرته نفرا من المتعاملين، ووجدت أن حديث الجريمة يطوف بهم رغم انهماكهم فى إنجاز أعمالهم، وحتى السمسار نفسه يشارك فيه:

ـ لا حديث للضاحية إلا الجريمة، يتردد فى السوق والمكاتب والمصانع والأكواخ والفيللات. . .

ـ ذلك طبيعى جدا.

ـ وما الفائدة؟

فقال السمسار:

ـ ثرثرة، معالجة عقيمة للخوف والعجز، ثرثرة لا جدوى منها.

ـ ثرثرة وأمان فارغة.

ـ ولم الخوف بالله كأنما كل فرد من الضاحية يخشى نفس المصير.

غادرت المكتب بعد أن أجَّرت حجرة مفروشة فى مبنى بالحى الشرقى، وسط الجمهور الذى أعتمد عليه فى استخلاص الحقيقة المنشودة. وتذكرت مقابلتى لرئيسى التى كلفت فى ختامها بالمهمة.

قال:

ـ ستذهب إلى الضاحية لجمع التحريات والمعلومات.

وقال أيضا:

ـ من حسن الحظ أن أحدًا من رجال الأمن هناك لا يعرفك. .

فسألت باهتمام وأدب:

ـ ولكن لم سوء الظن يا سيدى؟

ـ حسن، طمست معالم جرائم قبل ذلك وقيدت ضد مجهول، لم تكن بفظاعة جريمة اليوم، ولكن ليس ما يمنع من أن يكون مصيرها كمصير سابقاتها. . .

ـ ورجال الأمن هناك ماذا يفعلون؟

ـ أتريد رأيى؟ إنهم متواطئون، لعلهم يقومون بالدور الرئيسى فى طمس معالم الجريمة. .

ـ ولكن لماذا؟

ـ ذلك ما أود أن توافينى بأسبابه. .

ـ وأهل الضاحية ما موقفهم؟

ـ هذه هى المسألة . .

ـ أليست القتيلة منهم وكذلك القاتل؟

ـ إنى أؤمن بذلك كل الإيمان . .

ـ إذن لم لا تكتشف الحقائق ويقبض على المجرمين كما يحدث فى كل مكان؟

ـ هذه هى المسألة .

كذلك دار الحديث قبيل تكليفى بالمهمة . لم تكن مهمتى إجراء أى تحقيق بصفة سرية لمعرفة شخصية القتيلة أو القبض على القاتل، وما كان ذلك بوسعى، لأنه لا يقع فى اختصاصى من ناحية، ولأنه أمسى متعذرا ما دام قد مضى على تاريخ الجريمة حوالى الخمس السنوات . مهمتى كشف السر عن الأسباب الخفية لطمس معالم الجرائم فى الضاحية، عن المصلحة المشتركة التى تشد الناس الى ذلك الفقراء والأغنياء ورجال الأمن .

غادرت حجرتى لأمارس العمل الذى اخترته عندما قابلنى رسول جاء يستدعينى الى مكتب الأمن . ذهبت من فورى قلقا متشائما . ما معنى الاستدعاء؟ . . هل رابهم شىء فى سلوكى؟ هل أواجه التحدى وأنا لم أكد أشرع فى العمل؟

ومثلت أمام الضابط الذى سألنى عن اسمى وعملى، ذكرت الاسم وقلت :

ـ سواق تاكسى .

وقدمت بطاقة الشخصية والرخصة فراح يتفحصهما بعناية وأنا مطمئن إلى أنه لن يجد ما يريبه فيهما، ثم تفحصنى بنظرة ثاقبة وسألنى :

ـ لم اخترت هذه الضاحية للعمل؟

فقلت بعد تفكر :

ـ إنه حق مشروع لكل مواطن ولا يستدعى فى اعتقادى استجوابا .

فأعاد سؤاله ببرود :

ـ لم اخترت هذه الضاحية للعمل؟

فآثرت السلام حرصا على نجاح مهمتى وقلت :

ـ عملها المحدود مناسب لرزقى وصحتى واتجه اختيارى إلى هنا لأنى أصلا من مواليد الضاحية .

ـ ألك بها أهل أو أقارب؟

ـ كلا . . هجروها منذ حوالى ربع قرن . .

ـ الجريمة خلقت نفوراً عاما من الغرباء .

كدت أسأله هل عرفوا هوية المجرمين ولكنى أمسكت عن حكمة وتساءلت :

ـ هل تقرر إبعادى من أجل ذلك؟

فرد إلى البطاقة والرخصة وقال ببرود :

ـ اذهب .

ذهبت وأنا أفكر بمدى ارتياب الرجل بى ولكننى لم أجد فى سلوكى ما يسوغ ذلك على الإطلاق فنحيته عن شعورى لأمضى فى طريقى بلا ظنون وهمية قد تربكنى وتكشف سرى . وكنت أوصل رجلين فى التاكسى إلى المحطة عندما سمعتهما يتحاوران عن الجريمة :

ـ فظيعة فظيعة ، أى قسوة!

ـ كانت بارعة الجمال!

ـ ولكن النار لم تبق منها على شىء؟

ـ أعنى لو لم تكن جميلة لما تعرضت للقتل ، أنت تفهمنى طبعا . .

ـ طبعا ، انقضاء خمس سنوات على دفنها يجعل العثور على دليل أمرا مستحيلا . .

فتدخلت فى الحديث قائلا :

ـ قرأت فى الجرائد أنه يمكن بفحص الموميات علميًا معرفة أسباب الوفاة ، فإذا كان السبب جريمة أمكن بمناقشة الملابسات التاريخية تحديد القاتل فى شخص أو طائفة . . فضحك الرجلان وقال أحدهما :

ـ على عهد الفراعنة كان الناس يموتوت أو يقتلون لأسباب مقنعة . .

وضحك الرجلان مرة أخرى .

قلت لنفسى إن أحاديث الناس لا تدل على أنهم متواطئون ، وتقطع بأنهم غير راضين حتى ولو كانوا متواطئين ، فلماذا يشتركون فى إخفاء معالم الجريمة والتستر على القاتل أو القتلة رغم إرادتهم أو رغم نفورهم؟ !

ومرة كنت أوصل أسرة إلى عيون المياه فدار الحديث أيضا حول الجريمة .

ـ ممّا يقال بخلاف ذلك فهو مجرد إشاعة .

ـ أنت تعلم كما نعلم أنها الحقيقة . .

وتوثبت لإرهاف السمع ولكنى لمحت فى المرآة امرأة تحذر المتكلمين مشيرة بذقنها نحوى! وجعلت أتقلب فى شتى الأماكن كما أتابع الأحاديث فى التاكسى ، أسجل الكلمات فى ذاكرتى ، أناقشها ، أفكر بأبعادها ، أستنتج متعاملا مع الاستقراء والقياس ، مستفيدا من كل ملاحظة .

وقد سألت رئيسى وكنت أزوره كلما أوصلت راكبا إلى العاصمة :
ـ ألا يوجد احتمال أن يكون مرتكب تلك الجريمة من خارج الضاحية؟
ـ ليس ذلك بالمستحيل ، وفى تلك الحال تكون الجريمة عادية وتأخذ العدالة مجراها . .

ـ ما الذى يحمل فقراء الحى الشرقى على الاشتراك مع سادة الحى الغربى فى إخفاء جريمة رغم حدة التناقضات بين الجانبين؟
ـ تساؤل يقطع بأنك بدأت تضع قدمكم فى الطريق الصحيحة .
ـ أرجح أن يكون القاتل من السادة!
ـ تفكير سليم جدا!
ـ هل يعنى ذلك أن القتيلة من الجانب الآخر؟
ـ قد وقد . .
ـ السر إذن يكمن فى المصلحة المشتركة بين الجميع حتى رجال الأمن أنفسهم؟
ـ هذه هى المسألة . .

وعلمت مما يقال فى الضاحية أن الجثة اكتشفت وهم يحفرون الأساس لبناء مصحة الأمراض العقلية ، وعرفت أول من عثر عليها من البنائين ، وهو صعيدى من هواة الجلوس فى مقهى الشمس بالحى الشرقى . وعملت على التعرف به ومجالسته فشربنا الشاى معا . وسألته :
ـ كيف كان شعورك عندما عثرت على الجثة المطمورة؟
فقال بفخار :
ـ ناديت أصحابى ثم جاءت الشرطة . .

تبادلنا حديثًا سطحيا مؤجلا الأسئلة الهامة للقاء آخر ، ولكنى لم أعثر عليه بعد ذلك ، وقيل إن ظروفا اضطرته للسفر فورا إلى الصعيد . ترى هل وقع ذلك بمحض الصدفة؟ . ساورنى القلق فخفت أن أكون مراقبا على غير ما أتصور ، وشحذت انتباهى ما وسعنى ذلك ، ولكنى لم أكف دقيقة عن نشاطى المرسوم . فتحت صدرى لكل علاقة ، استكثرت من الأصدقاء ، قدمت الخدمات بلا حساب ، وظل حديث الجريمة يجرى على كل لسان ، فى البيت والمقهى والسوق والتاكسى ، يتردد بغيظ وحنق ، وأحيانا بسخرية ، ولكنه لا يشق حجاب الغموض أبدا ، ثمة شىء فى الأعماق يعوزه التعبير ، يكبته أنه فى اللاوعى ، أو الخوف أو الخجل أو الرغبة المحمومة فى الهرب . ولاحظت ذات يوم ـ وأنا فى السوق ـ أن امرأة فقيرة دمعت عيناها وهى تصغى إلى حديث الجريمة الذى لا ينقطع .

جذب وجهها عينى بفقره وجماله الذابل المتوارى وراء غلاف من الإهمال والتعاسة. ترى هل تبكى بدافع عاطفة إنسانية عامة أو لأسباب أشد خصوصية؟ وقررت فى الحال تعقبها من بعيد لعل وعسى. ولما وصلت إلى آخر منطقة فى السوق اعترضنى صوت قائلا:

ـ ها أنت تهيم على وجهك مهملا عملك!

التفت فرأيت الضابط واقفا يرمقنى بنظرته الباردة، فقلت:

ـ جئت أتسوق.

ـ وأين التاكسى؟

ـ فى الميدان الجديد.

ومضى إلى سبيله تاركا إياى فى حيرة. فتشت بعينى عن المرأة ولكنها كانت قد ذابت فى الزحام. ورجح لدى أننى أواجه تدبيراً محكما لا صدفة عمياء، وأن على أن أضاعف من الحذر.

وتفرغت لعملى كسواق تاكسى أياما متتابعة، وكلفت خاطبة أن تبحث لى عن عروس مناسبة، ثم تسللت ذات ليلة، عند منتصف الليل، إلى الحانة الموجودة عند مشارف السوق. وجدتها مكتظة بالشاربين، تضج بالنكات والأغانى، حارة بالأنفاس والدخان والهواء الفاسد. شربت قليلا ولكنى تظاهرت بالنشوة والمرح، وأرهفت حواسى لتصيد الفلتات والشوارد. وكالعادة تطعم كل حديث، كل مزاح، بحديث الجريمة. قلت لنفسى متعجبا:

ـ كأنهم جميعا مجرمون أو ضحايا أو الاثنان معا.

وسمعت ضمن الأحاديث حوارا ذا دلالة فيما أعتقد. قال الرجل محتجا:

ـ نحن ضعفاء.

فأجابه بحدة:

ـ بل جبناء.

ـ ماذا تفعل إذا اعترض سبيلك سياج من النيران؟

ـ أرمى بنفسى فيها!

ـ ارم بنفسك وأرنا شجاعتك.

وعربدوا ضاحكين. وانثال على نثار من الكلمات صالح لدى ربطه وإعادة تكوينه لإعطاء اعترافات خطيرة أو ما يشبه ذلك. تابعت ذلك وأنا ألهث من شدة الانفعال. وشىء جذب رأسى نحو مدخل الحانة كما يقع لدى توارد الخواطر فرأيت الضابط يتسلل

خارجا! أفقت من نشوتى وانفعالى، وتنبهت فى غريزة المهنة فأدركت فداحة الخطر الذى يحدق بى. امتلاك سر خطير من هذا النوع يعنى الهلاك، وأنا خبير بأساليب مهنتى، ولذلك فعلى أن أفكر بصفاء ذهن. يجب مغادرة الحانة قبل أن تفتعل معركة من أجل القضاء على قضاء وقدرا، يجب تجنب السير فى الشوارع الخالية، لا تستقل التاكسى حذرا من انفجاره لأسباب مجهولة، لا ترجع إلى حجرتك حتى لا يغتالك كائن جاثم فى ركن منها. إلى المحطة رأسا عن طريق شارع المسلة، وهناك تتعدد الوسائل للوصول إلى العاصمة.

وفى صحن المحطة شعرت بيد توضع على كتفى فالتفت متوثبا فرأيت الضابط. وقفنا نترامق مليا حتى ابتسم قائلا:

ـ جئت لأودعك بما تقضى به أصول الزمالة.

عدلت عن المكابرة وتمتمت ساخرا:

ـ شكرا.

وهو يضحك:

ـ ولم تترك التاكسى وراءك بلا سائق؟

فقلت ساخرا أيضا:

ـ اتركه فى أيد أمينة!

وهو يعاود الضحك:

ـ ترى ما الملاحظات التى تمضى بها؟

ففكرت غير قليل ثم قلت:

ـ إنكم لا تؤدون واجبكم!

ـ الناس لا يتكلمون.

ـ أعلم أن أرزاق البعض بيد البعض الآخر ولكن الغضب يتجمع فى الأعماق وللصبر حدود.

فهز رأسه باستهانة وتساءل:

ـ ما واجبنا فى رأيك؟

ـ أن تحققوا العدالة.

ـ كلا.

ـ كلا؟!

ـ واجبنا هو المحافظة على الأمن.

ـ وهل يحفظ الأمن بإهدار العدالة؟

ـ وربما بإهدار جميع القيم!

ـ تفكيرك هو اللعنة.

ـ هل تخيلت ما يمكن أن يقع لو حققنا العدالة؟

ـ سيقع عاجلا أو آجلا.

ـ فكر طويلا، بلا مثالية كاذبة، قبل أن تكتب تقريرك، ماذا ستكتب؟

فقلت بامتعاض:

ـ سأكتب أن جميع القيم مهدرة ولكن الأمن مستتب!

المقابلة السامية

قمت بجولة فى العمارة الجديدة الخالية. هى جديدة بكل معنى الكلمة، فواحة برائحة الطلاء ما زالت، تحتل مربعا صقعا، وعما قليل تعلق فى أعلى مدخلها لافتة كبيرة تحمل اسم مصلحتنا العتيدة. وكنت وراء الملابسات السعيدة التى أدت إلى اختيارها وتأجيرها للمصلحة.

كنت كاتبا منسيا بالأرشيف ولكنى اخترت كاتبا للجنة التى شكلت للبحث عن مقام جديد للمصلحة يضم أشتاتها المتناثرة فى أحياء متباعدة بالمدينة الكبيرة. وكنت أعبر الطريق كل صباح أمام موقعها فى مسيرتى اليومية إلى المصلحة القديمة فدعوت اللجنة لمشاهدتها، وسرعان ما اتخذت الإجراءات الإدارية ثم توقع العقد مع مالكها.

قمت بجولة فى العمارة الجديدة الخالية. لم تكن إجراءات النقل قد بدأت بعد، وكنت مارا كالعادة فى الصباح فأغرانى الزهو، وشعور وهمى بالملكية، بالقيام بجولة بيروقراطية وكان البواب قد عرفنى فى الزيارات الرسمية السابقة؛ فاستقبلنى باحترام جاهلا ـ لطيبة قلبه ـ مدى البؤس الذى أعانيه كموظف منسى حقير، ذلك البؤس الذى أكده كونى رب أسرة مكتظة لا تذوق اللحوم إلا فى المواسم.

وفى فناء العمارة صادفت رجلا لا أدرى من أين جاء. غاظنى منه بصفة خاصة أنه كان يسير بأقدام ثابتة شديدة الرسوخ والثقة. ظننته جاء يبحث عن شقة يستأجرها فتوقعت منه تحية متوددة ولكنه تجاهلنى بادئ الأمر تماما، ومضى يلقى على ما حوله نظرات متعالية خليقة بأن تثير حنق موظف ـ مهما قيل عن تعاسته ـ فهو مكتشف

العمارة، فضلا عن أنه ممثل السلطة التى ستحتلها بعد أيام قلائل. وتحفزت للتحرش به ولكن فى حدود المعقول إذ كان ربعة متين البنيان مهيب الطلعة، وإذا به يبادرنى ـ بلا تحية ـ قائلا:

ـ أنت من طرف أصحاب العمارة؟

فقلت باعتزاز:

ـ أنا عضو لجنة المصلحة التى استأجرت العمارة.

فقال بهدوء:

ـ عظيم، أريد أن ألقى نظرة عامة على الداخل.

ـ ولكن من حضرتك؟

فقال بتلقائية وبساطة:

ـ أنا مدير المصلحة!

صعقنى قوله فتشنجت أطرافى وسرعان ما انحنيت بطريقة آلية كرد فعل سريع للشحنة الكهربائية التى بعثها شخصه فى كيانى المتهالك، وقلت بخشوع:

ـ لا مؤاخذة يا صاحب السعادة.

فقال بعدم اكتراث:

ـ تقدمنى..

اعتبرت أن السماء فتحت أبوابها فى وجهى وأغدقت على بركة ورحمة باختيارى مرشدا لسعادته. وتقدمته فى رشاقة، من مكان لمكان، واصفا الموقع، معددا المزايا، مستجديا نظراته الكريمة إلى الحجرات والأبهاء والردهات، مشيرا بمنتهى الذوق واللباقة إلى المرافق. وتطوعت قائلا:

ـ أعتقد يا صاحب السعادة أن الدور الثالث هو أليق الأدوار بمقامكم، فهو مرتفع لدرجة لا بأس بها تعتبر مانعا حاسما لضوضاء الطريق وفى الوقت نفسه لا تعد مشكلة فى الصعود أو النزول فى حال تعطل المصعد.

وفى فرصة تالية قلت:

ـ الركن البحرى ذو مزايا جغرافية لا يستهان بها فالطريق يحده من جهتين أما الجهة الثالثة فتقع بها محطة بنزين منخفضة، فهو ممر دائم للهواء وضوء الشمس.

وفى فرصة ثالثة قلت مشيرا إلى أضخم حجرة:

ـ هذه حجرتكم، وممكن وصلها بالحجرة التالية بهدم الجدار لتتسع للاجتماعات، وشق باب فى الجدار القبلى ليفتح على السكرتارية الخصوصية.

وقرأت أثر ذلك كله فى وجهه السمح رضى وارتياحا، ورجعنا إلى الفناء بعد جولة سعيدة موفقة وأنا ثمل بإلهام سماوى من عنف الفرح.

وتفضل سعادته فسألنى:

ـ وأنت فى أى إدارة؟

فقلت متلقيا طاقة النجاة ببراعة:

ـ كاتب بالأرشيف يا صاحب السعادة، كاتب منسى، ولى شكوى قديمة..

ولكنه قاطعنى قائلا:

ـ فيما بعد.. فيما بعد.

فاعتذرت عن تسرعى قائلا:

ـ لا مؤاخذة يا صاحب السعادة، سأرفع مظلمتى فيما بعد!

ومضى إلى الخارج وأنا أهرول فى أثره فصادفه بياع جرائد فأخذ مجلة وكتابا بلغ ثمنهما خمسة وعشرين قرشا، وتبين لى أن المدير لا يجد نقودا صغيرة تفى بالثمن وأن البياع لا يملك فكة لورقة كبيرة، حتى هم المدير بإرجاع المجلة والكتاب، ولكننى بادرت ـ مدفوعا بأريحية ملهمة ـ بدفع المبلغ المطلوب. وتردد المدير قليلا ثم سلم بالواقع قائلا:

ـ تعال من فورك إلى مكتبى لأخذ نقودك.

وذهب يتمتم:

ـ شكرا..

تركنى فى دوامة من انفعالات السعادة والأشواق إلى المجهول بحيث كان من أيسر الأمور أن تصدمنى سيارة وأنا غارق فى بحر الوجد والأمل.

وثبت فى يقينى أن صفحة جديدة من الإشراق تفتح فى تاريخى المليء بالمتاعب والمحن، فقد تعرفت بالمدير العام، وعملت له مرشدا، وأطلعته على سوء حالى، ووعد بالنظر فى مظلمتى، وفى لحظة مباركة محفوفة بأنفاس الملائكة أصبحت له دائنا بخمسة وعشرين قرشا. ومعاذ الله أن أطالبه بالدين أو أن أذكر أحدا به، فهو القربان الذى يهبنى عطفه ويفتح لى عند الضرورة بابه. أجل إنه مبلغ جسيم يقتضى اتخاذ إجراءات تقشف جديدة حتى يتحقق نوع من التوازن يكفل لى أدنى مراتب الحياة حتى ينقضى الشهر ولكن كل شيء يهون إلا أن أقطع بيدى أسباب القربى التى تشدنى إلى رحمته.

وتم النقل إلى العمارة الجديدة، وكالعادة استقر بنا المقام ـ نحن موظفى الأرشيف ـ فى البدروم. ولم أكف عن التفكير فى العلاقة الخفية السعيدة التى تربطنى بصاحب السعادة. ولم أذهب إلى مكتبه للمطالبة بالمبلغ كما أمر ولم يرسله إلى مع أحد موظفى

مكتبه والحمد لله. ومرت الأيام تباعا حتى ساورنى خوف أن يكون قد نسينى فى غمار شواغله الكثيرة اللامحدودة. وأن تفلت من يدى فرصة العمر. واستخرت الله، وتحوطت عليه ثم قررت أن أطلب مقابلة المدير العام. وقصدت حجرة السكرتير الخاص ولكن الساعى اعترض سبيلى، وأفهمنى أن السكرتير مشغول جدا، وأبدى استعدادى لإبلاغه عن حاجتى، فقلت له:

ـ أرجو تحديد موعد للتشرف بمقابلة المدير العام.

فخطف الساعى نظرة جانبية من بدلتى المهلهلة ولكنه غاب عنى دقيقة وراء الباب المغلق ثم رجع وهو يقول:

ـ اكتب حاجتك على عرضحال تمغة وأرسلها بالطريق الإدارى المتبع.

ولم تجد معه أية محاورة فقد وجدته مغلقا صامدا مثل الباب الذى يجلس أمامه. ورجعت إلى مكتبى فريسة لقهر معذب ولكن بإرادة مصممة على الوصول مهما كلف الأمر. ومن توى لجأت إلى رئيسنا فى الأرشيف وهو كهل يشاطرنا البؤس والهوان ولا يتقدمنا إلا فى العمر فطمعت أن أجد عنده تجاوبا ورحمة. كاشفته برغبتى فى مقابلة المدير العام وسألته الرأى والنصيحة فسألنى:

ـ ولم تسعى إلى هذه المقابلة العسيرة؟

ـ أريد أن أعرض عليه شكواى.

ـ ألسنا كلنا فى البلوى سواء؟

ـ ولكنه شجعنى على ذلك!

ـ حقا؟!.. متى وكيف؟

فقصصت عليه الجانب الذى يهمه من لقاء العمارة فتفكر قليلا ثم قال:

ـ تلك كلمة طائرة عابرة لا يعول عليها.

ـ لن أضيع على نفسى وأولادى فرصة قل أن تجود بمثلها السماء..

ـ نصيحتى أن تقلع عن تصميمك.

فهتفت بحماس:

ـ إنه أمل حياتى الوحيد.

فجعل يهز رأسه مفكرا فلم أر مفرا من إطلاق الرصاصة الأخيرة فهمست فى أذنه:

ـ سأودع لديك سرا فى ضميرك النقى، لقد اقترض سعادته منى خمسة وعشرين قرشا!

نظر الكهل فى وجهى بذهول متجسم فقلت بحرارة:

ـ صدقنى فأنا أحادثك وأنا فى كامل قواى العقلية .

وقصصت عليه قصة النقود التى أدينه بها فسألنى بارتياب :

ـ هل سبق لك أن رأيت مديرنا العام؟

ـ كلا .

ـ من أدراك أن ذلك الرجل هو المدير؟

ـ لا شك فى ذلك ألبتة .

ـ ولم لا يكون رجلا عابثا استغل طيبة قلبك؟

ـ مستحيل . . دعنى أصفه لك . .

ولكنه قاطعنى قائلا :

ـ لا جدوى من ذلك فأنا لم أره إلا لمحا منذ سنوات ومن بعيد . .

ـ على أى حال أنا واثق من أنه المدير العام .

ـ حكايتك حكاية . .

فقلت متجاوزا الجدل :

ـ خذنى على قد عقلى ، ودلنى على كيفية رفع شكوى للمدير العام .

ـ عظيم ، تكتب الشكوى على عرضحال تمغة وتقدمها إلى بصفتى رئيسك المباشر فأعتمدها ثم ترفع إلى مدير الإدارة ليعتمدها بدوره ثم ترفع إلى المراقب العام ليعتمدها بدوره ثم ترسل إلى مكتب المدير العام ، وثمة نصيحة لوجه الله وهى ألا تذكر أمام أحد حكاية الخمسة والعشرين قرشا !

وكتبت الشكوى بعناية ، قدمتها لرئيسى المباشر ، وقع عليها برجاء العطف ، ومضيت بها إلى سكرتير مدير الإدارة ، دسها تحت تل من الشكاوى ثم انصرف إلى عمله ، سألته :

ـ متى تتفضل بعرضها على مدير الإدارة؟

فأجاب دون أن يرفع بصره عن أوراقه :

ـ لا شأن لك بذلك .

ـ ولكنها شكوى من نوع خاص ، أعنى أننى ما كتبتها إلا بإيعاز من سعادة المدير العام نفسه !

فرمقنى بنظرة غريبة وتساءل ساخرا :

ـ سعادتك قريبه؟

ـ تلك هى الحقيقة بلا سخرية .

ـ ستعرض فى حينها أو خذها واذهب .

ـ لا تزعل ، متى أرجع لآخذها؟

ـ بعد أن يتم عرضها .

ـ ومتى يتم عرضها إن شاء الله؟

ـ ستعرض فى حينها .

وانصرف عنى بحركة حاسمة طاردة فرجعت إلى مكتبى وأنا أسب الكادر وشاغليه ما عدا سعادة المدير العام طبعا . ورجوت رئيسى أن يتشفع لى عند سكرتير مدير الإدارة ولكنه رفض بغرور الشاب وقلة أدبه . ومرت الأيام وأنا أنتظر وأتصبر .

وذات صباح وزميل لى يراجع معى ميزان الوارد مال نحوى وسألنى هامسا :

ـ هل حقا أقرضت المدير العام خمسة وعشرين قرشا؟

فانزعجت جدا وتولانى الذعر وسألته عمن أخبره بذلك فقال إنه سمع همسا يدور حول الموضوع فى الأرشيف . يا دافع البلاء ارحمنا . واتهمت رئيسى ولكنه أقسم لى بأولاده أنه لم ينبس بكلمة واحدة ، فاتهمت زوجتى ـ ولها صديقات بين زوجات الموظفين ـ ولكنها أنكرت إما عن صدق أو عن خوف . انسكب سم القلق فى نفسى ، وتوهمت أن الأنظار تلاحقنى بدهشة وسخرية ، وأن أصحابها عما قليل سيرموننى بالعته أو الجنون ، ولذلك كان على أن أسرع فى مسيرتى قبل أن يقع ما ليس فى الحسبان . وذهبت إلى سكرتير مدير الإدارة ، فلم يرد تحيتى ولكنه أشار بامتعاض إلى شكواى فتناولتها شاكرا وهرعت من فورى إلى سكرتير المراقب العام . قدمت الشكوى . أردت أن أشرح له أهمية الموضوع ولكنه بادرنى قائلا :

ـ اتركها واذهب .

ولكى أرضيه تحركت نحو الباب غير أننى سألته :

ـ متى أرجع لتسلمها؟

ـ لا ترجع .

فمن اليأس تجرأت على أن أسأل :

ـ والشكوى؟

فرفع عينيه إلى السقف كأنما يشهد الله على قحتى ، وعند ذاك تطوع أكثر من شخص من المحتشدين فى الحجرة ينصحوننى بالامتثال وتنفيذ الأمر ، حتى بهت واجتاحنى الخوف ، وتطوع الساعى لأخذى من ذراعى بلطف يوحى بالعطف ، وأفهمنى فى الردهة بأن مكتب المراقب العام يرسل بريده مباشرة إلى مكتب المدير العام .

ـ وكيف أعرف أنها أرسلت؟

ـ تعال بعد أسبوع أو عشرة أيام وقابل كاتب الصادر بمكتب المراقب العام فيعطيك الرقم والتاريخ وبهما تستدل على مصير شكواك فى مكتب المدير العام . .

فقلت مداريا عجزى :

ـ تصور أننى سألقى من الاحترام فى مكتب سعادة المدير العام ما لم ألق واحدا على مائة منه فى مكتبكم!

فدعا لى الساعى قائلا :

ـ ربنا يرفع قدرك أكثر وأكثر .

رجعت إلى مكتبى ، قلت لنفسى اشتدى أزمة تنفرجى ، وقلت أيضا إن عذاب تلك الأيام سيكفل لى دخول الجنة بغير حساب ، وقلت أيضا إنه ليس بعد الظلام إلا النور ، وإنه إن عاجلا أو آجلا فسوف تدركنى رحمة مفرج الكروب . أما الأعين الساخرة فلم تعتقنى ، لم ترحمنى ، ولم تقنع باستراق النظر ، فهذا زميل يتساءل :

ـ كيف؟ متى؟ فى أى ظروف غريبة أقرضت المدير العام خمسة وعشرين قرشا؟!

وهذا آخر يسأل :

ـ ألم يرد المدير العام دينه؟

ومرة لاحقنى صوت يقول :

ـ هذا هو الشحاذ الذى أقرض المدير العام . .

فدعوت الله أن يمدنى بصبر نبيه أيوب ، وظل أملى فى رحمته قويا لا يتزعزع ، وتذكرت سخرية آل نوح منه وكيف كانت العاقبة للمتقين . ولم أذهب إلى كاتب الصادر بمكتب المراقب العام إلا بعد مرور أسبوعين كاملين فأعطانى رقم وتاريخ الكتاب الذى أرسلت معه الشكوى إلى مكتب المدير العام ، وسألته بأدب :

ـ متى يمكن أن أعرف النتيجة فى مكتب المدير العام؟

فأجابنى بامتعاض وحنق لا مبرر لهما على الإطلاق :

ـ علم ذلك عند علام الغيوب!

على أى حال قد وصلت الشكوى إلى مكتب المدير العام ، وسوف يتذكرنى من فوره ، ولعله يستدعينى إلى مقابلته ، أو يجبر فى الأقل خاطرى ، وانهارت علىّ الأحلام السعيدة ، ومنيت نفسى بترقية أو علاوة تدعم رزق الأولاد . وكنت راجعا إلى الأرشيف حاملا البريد وأنا أتلو آية الكرسى عندما اعترضنى موظف ومضى يسألنى :

ـ هل حقا . .

وكنت قد ضقت بتحرش الساخرين فقاطعته قبل أن يتم كلامه :

ـ اخرس يا قليل الأدب .

فتراجع الرجل ذاهلا وهو يقول :

ـ أنت مجنون بلا شك .

فصحت به :

ـ اذهب وإلا خلعت الحذاء ومزقته على رأسك .

وسرعان ما حال بيننا أهل الخير والشر . وبعد يوم استدعيت إلى إدارة التحقيقات . قال لى المحقق :

ـ أنت متهم بالاعتداء بالقول على مراجع الحسابات وبالشروع فى ضربه .

فقلت بذل :

ـ أنا رجل مسكين ، لقد أراد أن يسخر منى فزجرته ، هذا كل ما حصل .

وقال مراجع الحسابات إنه أراد أن يسألنى عن ورود مكاتبته من الخزانة ، وشهد على صدق قوله زملاء له وزميلان من الأرشيف . وصح صدقه حتى لى أنا ، وأدركت أننى أسأت الفهم والتصرف ، ودافعت عن نفسى قائلا :

ـ كثيرون يسخرون منى وقد حسبته واحدا منهم .

وسألنى المحقق :

ـ لم يسخرون منك؟

فلذت بالصمت ولكن كثرة من الشهود فضحت حكاية القرض حتى هتفت :

ـ ذاك محض افتراء ، واقعة لا أساس لها ، ألصقت بى ظلما . .

وكادت المناقشة بينى وبين الشهود تجاوز حدود الأدب إلى العنف . .

وغادرت إدارة التحقيقات مغلوبا على أمرى تماما . وبعد أيام استدعانى رئيسى الكهل وقال لى بحزن :

ـ تقرر خصم خمسة أيام من مرتبك .

فصرخت :

ـ ذلك ظلم بين ، أنا لا أكاد أجد قوت الأولاد .

ـ ليتك تمالكت أعصابك .

ـ أخطأت ، ولكن لى عذرى ، ترى هل تبلغ حكاية القرض مسامع سعادة المدير العام؟

فقال الكهل بثقة :

ـ لا يجرؤ أحد فى المصلحة على إبلاغها له .

رغم أحزانى جميعا فإن ثقتى بالله لم تتزعزع ، وقلت لنفسى إنه ـ جل جلاله ـ سيخرجنى من أحزانى كما أخرج يوسف من سجنه . وبقدر ما حل بى من سوء تماديت فى تخيل السعادة الموعودة وآمنت بإقبالها القريب . وانتظرت طويلا ثم ذهبت إلى كاتب الوارد بمكتب صاحب السعادة لأسأله عما تم فى شكواى فقال لى بجفاء مجهول الأسباب :

ـ إنى أخصص يوم الخميس للاستفسارات .

وكان اليوم الأحد ولكنى كنت قد لقنت الحكمة فى إدارة التحقيقات فرجعت بلا تعقيب . وشكوت حالى إلى رئيسى فمضى بى إلى وكيل المخازن ، وهو صديق رئيسى وقريب لكاتب الوارد ، فقبل الرجل أنا يتلفن إلى قريبه مستفسرا عن شكواى ، ولبث يصغى إلى كلامه غير المسموع لنا ، ثم أعاد السماعة وقال :

ـ آسف ، لقد حفظ الطلب !

اغتالنى الخبر فسقطت آمالى جثة هامدة ، وقلت وأنا مطمور تحت الأنقاض :

ـ هل عرض الطلب على سعادة المدير العام؟

ـ طبعاً ، هو الذى أمر بالحفظ .

ـ مستحيل !

فابتسم الرجل بلا تعليق فقلت :

ـ كنت أتوقع أن يدعونى لمقابلته !

فحدجنى الرجل بنظرة غريبة دون أن ينبس . وعدت مع رئيسى وأنا أقول :

ـ لا أصدق .

فقال الكهل بنبرة مواسية :

ـ ولكنه المصير المحتوم لجميع الشكاوى .

ـ ولكنه أوعز إلى بكتابتها .

ـ ما زلت أعتقد أنك كنت ضحية رجل مهذار .

ـ كلا . . كلا .

ـ إذن فلعله نسى ، وشواغل المدير تنسى .

ـ والعمل؟

ـ سلم لله أمرك . .

ولكن الإصرار كان قد ملك عليّ أمرى. وبكل همة رحت أتحرى مواعيد المدير وحركاته وسكناته. وقررت ألا أذعن للقوة الباغية ولا للأوامر المكتبية العمياء.

* * *

وتحركت سيارة المدير لتنتظره أمام العمارة. وقف البواب والسعاة صفين بالإضافة إلى شرطى الحراسة. وكنت متواريا وراء لافتة كبيرة فى المدخل سجل عليها دعوة لمزايدة. وترامت من ناحية الفناء ضجة وتراءى موكب المدير قادما. وعندما حاذانى فى سيره بسملت ثم وثبت نحوه لأجثو بين يديه مستعطفا.

وصاح رجل:

ـ المجنون.. حذار يا صاحب السعادة..

ووقع اضطراب شامل وضوضاء عالية.

لم أدرك بوضوح ما حدث. مادت بى الأرض. حوصرت تحت ضغط عشرات من الأيدى القوية.

ماذا أقول بعد ذلك؟. لقد جرى معى تحقيق خطير باعتبارى مجرما سياسيا، ولما تبين لهم خطأ الرأى وجهوا لى تهمة الشروع فى الاعتداء على المدير انتقاما لحفظ شكواى.

وقد تعلمت فى السجن حرفة النجارة، وفى ميدانها أكدح اليوم لتربية الأولاد..

أهـــــلا

دقة أيقظته من شروده، دقة ماسح الأحذية التقليدية، رفع عينيه عن النارجيلة فرآه واقفا يرمقه بعين صياد. مضت لحظة وهما يترامقان ثم تهلل وجه الرجل. هو أيضا ابتسم.

ـ حمدا لله على السلامة يا بيك.

ـ أهلا.. كيف حالك؟

وأشار إليه فقرفص عند قدميه فأعطاه حذاءه. ولم يره منذ عشرين عاما، منذ انقطع عن المقهى القديم. كان فتى يافعا متين البنيان متدفق الحيوية، يطوف بأرجاء الحى فى رشاقة النحلة، يمسح الأحذية، ويروى النوادر والملح.. ها هو قد جف عوده وتغضن وجهه وأدركته شيخوخة مبكرة.

ـ لم أرك منذ عمر طويل يا بيك؟

ـ الدنيا!

ـ سافرت؟

ـ كلا .

ـ وكيف هان عليك مكانك المفضل؟

ـ ها أنا أرجع إليه عند أول فرصة فراغ .

ـ هل مرت الأعوام فى عمل متواصل؟

ـ نعم .

ـ ربنا معك .

منذ عشرين عاما كانا يكافحان عدوا مشتركا هو الفقر على اختلاف موقعهما منه .

ـ لم تتغير يا بيك والحمد لله .

ـ أنت أيضا لم تتغير!

ـ أنا؟!

وضحك فى سخرية ورثاء .

ـ ربنا يقويك!

ـ كنت فقيرا حقا ولكن الدنيا كانت رحيمة ويسيرة .

هكذا كانت، ترى هل يخطر بباله أنه يملك عمارة وفيلا وسيارة؟ هل يتصور أنه يخاطب لصا أريبا فى ثوب موظف كبير؟!

ـ الحياة أصبحت شاقة .

ـ جدا جدا جدا يا بيك .

ـ ولكنك مؤمن والإيمان كنز لا يقدر بمال .

ـ الحمد لله .

ـ قديما كان العيش يتيسر لك ببضعة قروش حقا ولكن كان يتسلط على البلد إقطاعيون يبذرون الملايين على ملاذهم . .

ـ انتهى أمرهم يا بيك ولكن حالى ازداد سوءا . . .

ـ بسبب عملك فقط أما ملايين الفلاحين والعمال فقد تحسنت أحوالهم . .

ـ إنى لا ألقى إلا شاكيا مثلى . .

ـ أنت محصور فى بيئة معينة، هذه هى المسألة .

ـ ومتى نتحسن بدورنا؟

ـ كل آت قريب .

ـ ولكن مرت عشرون سنة!
ـ ما هى إلا لحظات فى عمر الزمان .
ـ علينا أن ننتظر عشرين سنة أخرى؟
ـ لا أدرى ، قد يضحى بجيل فى سبيل الأجيال القادمة .
ـ ولكنى أرى يا بيك كثيرين من المحظوظين السعداء؟
ـ مظاهر خادعة ، لكل شكواه ومتاعبه .
ـ أراهم فى السيارات الفاخرة كأيام زمان .
ـ هل تصورت أعباءهم القاتلة؟ هل تصورت ما يؤدون للدولة من خدمات؟ ثم أمن يعمل كمن يرث؟

ابتسم مستسلما وهو مكب على عمله فى تكاسل ليطيل فرصة الحوار ، وجعل ينظر إليه بمودة صافية ، وفى نظرته تتجلى أشواق للذكريات المشتركة الماضية .

ـ هل أضايقك يا بيك؟
ـ أبدا . . هات كل ما فى قلبك .
ـ الله يكرمك ، كنا نضحك ملء قلوبنا من الماضى .
ـ وممكن نضحك الآن أيضا .
ـ ولكن . .
ـ ولكن داءنا أننا ننظر دائمًا إلى الوراء ، دائمًا نتوهم أن وراءنا فردوسا مفقودا . .
ـ ألم نكن نضحك من أعماق قلوبنا؟
ـ تذكر ، لقد رقصت يوم قامت الثورة .
ـ طبعا ، سكرت بالآمال ، سكرنا جميعا بالآمال . .
ـ ولقد تحققت الآمال ، ولولا سوء الحظ ، ولولا الأعداء . . ماذا كنت تتوقع؟
ـ زوال الظلم والفقر ، لقمة متوفرة ، مستقبل للأولاد . .
ـ حصل ذلك كله .
ـ دائما نسمع ولكن الأولاد ضاعوا جميعا . .
ـ واضح أنك تشكو كثرة العيال؟
ـ إنى أحمد الله . .
ـ المدارس مفتوحة لاستقبال الجميع .
ـ دخلوها وخرجوا كما دخلوا ، ولم ينجح أحد .
ـ وما ذنب الثورة؟

ـ لا ذنب لها ، ولكننا نسكن جميعا فى حجرة واحدة! ، وفى المدرسة لا يفهمون شيئا . .

ـ إنكم تنشدون معجزة لا ثورة .

ـ إنه حال أبناء الفقراء جميعا .

ـ كلا .

ـ الاستثناء لا يعول عليه .

ـ كان اليأس القديم أنسب لكم!

ـ ما زال المال يملك الحظ كله .

ـ المسألة أن الأمور معقدة، أمور الدنيا كلها معقدة .

ـ خلنا فى أنفسنا .

ـ ولكننا جزء من الدنيا .

ـ هل أنتظر حتى تحل مشاكل الدنيا؟

ـ ليس كذلك بالضبط ولكنه تساؤل لا يخلو من حقيقة .

وضحك ليخفف من وقع قوله ثم استطرد :

ـ ولا تنس أننا فى حال حرب .

أرجع فردة الحذاء وتناول الأخرى ثم قال :

ـ وسبق ذلك الهزيمة .

ـ لا داعى لتذكيرى بما لا يمكن أنا ينسى .

ـ بعد أن نفختنا الآمال حتى طرنا فى الجو .

ـ قيل كل ما يمكن أن يقال . .

ـ متى نحارب يا بيك؟

ـ هل تنتظر من وراء الحرب حلا لمشاكلك؟

ـ الحركة بركة .

ـ ربما اللقمة نفسها لن تجدها .

فهز منكبيه استهانة .

ـ سنحارب عندما نضمن النصر .

ـ لم ينبس ولكن وضح أنه لم يقتنع .

ـ هل تعرف معنى الحرب؟ . . هل تتصور حالنا إذا خربت المصانع والسدود والمواصلات؟

ـ نفعل بهم مثلما يفعلون بنا .

ـ ستتوقف الحياة هنا .

ـ ليكن ، المهم أن نحرر أرضنا .

ـ هل تهمك الأرض حقا أم أنك تريد الخراب؟

ـ أريد أن أحيا فى ظل العدل .

ـ يبدو أنك تريد أن تهدمها على رءوس من فيها .

ـ لا والله يا بيك .

خيل إليه أنه يقصده بشىء ما .

ـ المهم النصر لا الانتقام .

ـ أنا لا أفهم .

ـ الأمور واضحة .

ـ يا بيك أنا أريد النصر والحياة المعقولة ، خبرنى كيف ومتى يتم ذلك؟

ـ لا أدرى متى ولكنه يتم بالصبر والعمل والإخلاص . .

كأنه أصم ، يرفض التصديق والاقتناع ، وقد أنجز عمله ، أعطاه خمسة قروش بدلا من قرشين ، تهلل وجهه ودعا له بالستر ، واعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه فى حاجة ماسة لذاك الدعاء ، وبأنه يشاركه حيرته فضلا عن المخاوف التى ينفرد بها وحده ، ورآه يهم بالذهاب فسأله :

ـ ما رأيك فيما قلت؟

ابتسم مداريا شكوكه وتمتم :

ـ كلام جميل .

ـ وحقيقى أليس كذلك؟

ـ مثل كلام الراديو .

شعر بأنه يذكره بكلام الراديو طيلة عشرين عاما ، شعر بأنه يوبخه فأوشك على الانفعال .

ـ ولكن بروح جديدة تماما .

ـ نرجو ذلك .

ـ ألا تريد أن تصدق؟

فرفع درجة صوته ليقنعه بإيمانه قائلا :

ـ ما دمت تصدق فأنا أصدق .

ضحك ضحكة فاترة مقتضبة، وسأله الرجل:

ـ هل ترجع إلى المقهى كالأيام الخالية؟

ـ إن شاء الله كلما سنحت فرصة..

ـ عندما رأيتك فرحت ورجعت فجأة إلى الشباب.

ثم حياه وانصرف.

وصفق يطلب وقودا للنارجيلة الخابية.

الكرنك

رواية

المحتويات

قرنفلة

اهتديت إلى مقهى الكرنك مصادفة. ذهبت يوما إلى شارع المهدى لإصلاح ساعتى. تطلب الإصلاح بضع ساعات كان علىّ أن أنتظرها. قررت مهادنة الوقت فى مشاهدة الساعات والحلى والتحف التى تعرضها الدكاكين على الصفين. عثرت على المقهى فى تنقلى فقصدته. ومنذ تلك الساعة صار مجلسى المفضل. رغم صغره وانزوائه فى شارع جانبى صار مجلسى المفضل. الحق أنى ترددت قليلا بادئ الأمر أمام مدخله، حتى لمحت فوق كرسى الإدارة امرأة دانية الشيخوخة ولكنها محافظة على أثر جمال مندثر. حركت قسماتها الدقيقة الواضحة جذور ذاكرتى فتفجرت ينابيع الذكريات. سمعت عزفا وطبلا، شممت بخورا، رأيت جسدا يتموج. راقصة، نجمة عماد الدين، الراقصة قرنفلة، حلم الأربعينات الوردى، قرنفلة. هكذا مرقت إلى الكرنك بقوة سحر مبهمة وفؤاد طروب، من أجل شخص لم أمر بباله يوما. لم تقم بيننا علاقة من أى نوع كان، لعاطفة أو مصلحة أو حتى مجاملة، كانت نجمة وكنت أحد المعاصرين. لم تترك نظراتى المعجبة على جسدها العبقرى أثرًا أى أثر، ولا كان لى حق التحية العابرة. من مجلسى أجلت البصر فأحاط بالمكان. كأنه حجرة كبيرة ليس إلا ولكنه أنيق رشيق، مورق الجدران، جديد الكراسى والموائد، متعدد المرايا، ملون المصابيح، نظيف الأوانى، يا له من مجلس ذى جاذبية لا تقاوم. ونظرت إلى قرنفلة طويلا، كلما وجدت فرصة. انطفأ سحر الأنوثة وجف رونق الشباب ولكن حلت محلها روعة غامضة وأسى مؤثر، ما زالت نحيلة رشيقة يوحى عودها بالنشاط والحيوية. وثمة قوة مهذبة مكتسبة من التجربة

والعمل. أما خفة الروح فآسرة نفاذة. تحرك نظرتها الشاملة الساقى والجرسون وعامل النظافة وترعى الرواد المعدودين ـ كأنهم لصغر المكان أسرة واحدة ـ بمودة وألفة. يوجد ثلاثة شيوخ لعلهم من أصحاب المعاشات، وكهل، ومجموعة من الشبان بينهم فتاة حسناء، لذلك شعرت بالغربة وبأننى دخيل، رغم نشوتى. وقلت اللهم أنى أحب هذا المكان، القهوة فاخرة والماء نقى عذب والفنجان والكوب آيتان فى النظافة.. عذوبة قرنفلة، وقار الشيوخ، حيوية الشباب، جمال الفتاة، وموقع المقهى فى وسط المدينة الكبيرة يصلح استراحة لجوّال مثلى، وثمة عناق حار بين الماضى والحاضر، الماضى العذب والحاضر المجيد، ثم سحر المصادفة المجهولة. فما أن تعطلت ساعتى حتى وقعت فى غرام متعدد الأبعاد، وإذن فليكن الكرنك مستقرى كلما سمح الزمان.

وحدث ما اعتبرته مفاجأة سارة. بدا أن قرنفلة أرادت مجاملتى بصفتى زبونا جديدا فقامت من مجلسها وجاءتنى تخطر فى بنطلون كحلى وبلوزة بيضاء، وقفت أمامى وقالت:

ـ شرفت.

تصافحنا وأنا أشكر لها مجاملتها فسألتنى:

ـ هل أعجبتك القهوة؟

فقلت بصدق:

ـ جدا، بن ممتاز حقا..

فابتسمت بسرور، ورنت إلى مليا ثم قالت:

ـ يخيل إلى أنك تذكرتنى؟

ـ فعلا، من ينسى قرنفلة؟

ـ ولكن هل تذكرت دورى الحقيقى فى الفن؟

ـ أجل، كنت أول من جدد فى الرقص الشرقى.

ـ هل سمعت أو قرأت أحداً ينوه بذلك؟

فقلت بارتياب:

ـ تصاب الأمم أحيانا بفقدان الذاكرة ولكن ذلك لا يدوم إلى الأبد.

ـ كلام جميل ولا شىء وراء ذلك..

ـ ولكننى قررت حقيقة لا شك فيها..

ثم تهربت من الحرج قائلا:

ـ أتمنى لك حياة سعيدة وهو الأهم..

فقالت ضاحكة :

ـ حتى الآن فالنهاية تبدو سعيدة . .

ثم وهى تودعنى راجعة إلى كرسى الإدارة :

ـ والعلم عند علام الغيوب ! .

هكذا وفى يسر تم التعارف بيننا ، وتمخضت عنه صداقة جديدة سعدت وما زلت أسعد بها . هى جديدة بمعنى من المعانى ولكن جذورها الخفية توغل فى الماضى على مدى ثلاثين عاما أو أكثر . وتتابعت اللقاءات وتراكمت الأحاديث وتوثقت المودة وتذكرت يوما كم كانت محترمة بقدر ما كانت فاتنة بارعة فقلت لها :

ـ كنت فنانة بارعة ومحترمة معا ، ألم يكن يعد ذلك معجزة؟ !

فأجابت بزهو :

ـ كان الرقص الشرقى هزا للبطن والصدر والعجز فجعلته تصويريا . .

ـ وكيف تيسر لك ذلك؟

ـ لم تكن تفوتنى حفلات الرقص الإفرنجى فى البرجولا .

ثم هزت رأسها فى دلال وقالت :

ـ أما الاحترام فقد قام سلوكى العام على ألا أقبل علاقة إلا عن حب ولا أمارسها إلا عن زواج .

فتساءلت بتهيب :

ـ دائما وأبدا؟

فضحكت هاتفة :

ـ ألا يكفى أن يكون الطابع العام هو الاحترام؟

فأحنيت رأسى بالإيجاب ، وغمغمت هى بما لم أتبينه ، ثم قالت :

ـ الحب الصادق يضفى على العلاقة شرعية غير منكورة .

ـ لذلك لم تتعرض لك مجلة بسوء .

ـ حتى المطرقة !

فقلت باسما :

ـ ولكن كثيرين انحرفوا بسببك !

فتنهدت قائلة :

ـ حياة الليل مترعة بالمآسى .

ـ مازلت أذكر موظف المالية .

فقاطعتنى هامسة :

ـ اسكت ، أتقصد عارف سليمان؟ . إنه على بعد أمتار منك ، هو الساقى الواقف وراء البار .

استرقت إليه النظر فى وقفته التقليدية . مترهل ، أبيض الرأس ، تعكس عيناه نظرة ثقيلة وديعة ، ولا شك أنها قرأت الدهشة فى عينى فقالت :

ـ لم يكن ضحية لى كما قد تظن ، كان ضحية ضعفه . .

وقصت على قصة عادية . فقد جن بها ولكنها لم تشجعه قط . ولم تكن موارده تسمح له بالتردد الدائم على الملهى فامتدت يده إلى اختلاس أموال الدولة . وظهر بين الرواد كالوارثين ولكنها لم تنل منه مليما واحدا ولم تنشأ بينهما إلا العلاقة الرسمية التى تنشأ بحكم تقاليد الملاهى الليلية ، ولم يتقدم خطوة حتى ضبط متلبسا فقدم للمحاكمة ودخل السجن .

ـ إنها مأساة ولكن لا ذنب لى فيها ، ولما غادر السجن بعد سنوات جاءنى فى الملهى نفسه وقال لى لقد ضعت إلى الأبد ، رثيت له وتوجست منه خيفة فتشفعت له عند صاحب الملهى فألحقه بوظيفة جرسون ، ولما اعتزلت العمل وفتحت هذا المقهى اخترته لعمل الساقى وهو يقوم به على ما يرام .

فمسحت على شاربى متسائلا :

ـ ألم يحن إلى غرامه القديم؟

ـ بلى ، وهو جرسون فى الملهى ، وضايقنى حتى تعرض لعلقة أليمة وكنت يومذاك زوجة للفيل بطل رفع الأثقال ، ثم تزوج بعد عام من راقصة من الكومبارس ما زالت زوجته ، وأما لسبع بنات من صلبه ، وأعتقد أنه اليوم موفق وسعيد . . .

ثم وهى تغرق فى الضحك :

ـ يحلو لنا أحيانا اليوم أن نتبادل الحب شفويا .

هكذا الماضى ينسى؟

ـ ولكن كان له زميل وثب على غير توقع إلى وظيفة وكيل المالية ، كان ينقم على الحياة من أجله حتى أحالته الثورة إلى المعاش فهدأ ثائره وعشق الثورة .

انضممت إلى أسرة الكرنك بصفة نهائية ونفذت الأسرة فى صميم حياتى . منحتنى قرنفلة صداقتها ومنحتها ، لعبت النرد مع الشيوخ محمد بهجت ورشاد مجدى وطه الغريب . عرفت الشباب وعرفونى خاصة زينب دياب وإسماعيل الشيخ وحلمى حمادة ، كما عرفت زين العابدين عبد الله مدير العلاقات العامة بإحدى المؤسسات ، حتى إمام الفوال الجرسون وجمعة مساح الأحذية وعامل النظافة صارا لى صديقين

وعرفت سر الكرنك الاقتصادى فهو لا يعتمد أساسا على زبائنه المحدودين ولكن على أصحاب الحوانيت بشارع المهدى وزبائنهم، وهو السر وراء جودة مشروباته وامتيازها. ومن أسراره أيضا أنه كان ـ وما زال ـ مجمع أصوات عظيمة الدلالة، تفصح نبراتها العالية والخافتة عن حقائق التاريخ الحى. لا يمكن أن تنسى أحاديث القوم على عهد انضمامى إليهم. لا يمكن أن ينسى امتنان قرنفلة وهى تقول عند أى مناسبة:

ـ لنحمد الله الذى أنعم علينا بالثورة.

وكان عارف سليمان الساقى وزين العابدين مدير العلاقات العامة يقدسان الثورة أيضا، كل بطريقته ونواياه، ولم يكن الشيوخ أقل حماسا وإن رددوا أحيانا وبحذر شديد:

ـ لم يكن الماضى شرا خالصا.

ومن ركن الشباب انبعث الحماس فوّارا كالهدير. عند أكثريتهم يبدأ التاريخ بالثورة مخلفا وراءه جاهلية مرذولة غامضة. إنهم أبناؤها الحقيقيون ولولاها لتشرد أكثرهم فى الأزقة والحوارى والضياع. قد تند عنهم أيضا أصوات معارضة توحى بيسارية متطرفة أو إخوانية حذرة هامسة ولكنها لا تلبث أن تضيع فى الهدير الشامل. ولفت نظرى بصفة خاصة إمام الفوال الجرسون وجمعة مساح الأحذية، يتغنيان بعنتر وفتوحاته، يعانيان مرارة العيش ولكنهما يتغنيان بعنتر وفتوحاته، كأن الفقر قد هان عليهما من أجل النصر والكرامة والأمل. على أن تلك النشوة لم يزهد فيها أحد حتى الحاسدون والحاقدون. لم يخل أحد من رواسب الذل والهزيمة والخذلان فألهبهم الظمأ نحو الكأس المترعة بتحديات العدو القديم، ، نهلوا منها حتى الثمالة وراحوا يرقصون من وجد الطرب، وأى جدوى ترجى من النقد عند السكارى؟. أتقول الرشوة.. الاختلاس.. الفساد.. القمع والإرهاب؟.. طظ، أو فليكن، أو أنه شر لا بد منه، أو ما أتفه ذلك، خذ رشفة من الكأس السحرية وارقص معنا.

* * *

عندما ترجع قرنفلة من عند الحلاق تسترد إلى حين قدرا من الجمال وتشتعل الحيوية فى عينيها العسليتين. وأغرانى ذلك مرة لأن أسالها:

ـ لا زوج الآن ولا ذرية؟

ولكنها لم تجب وندمت على ما فرط منى. ولما لامست ضيقى قالت لتخفف عنى وهى تشير إلى الزبائن:

ـ أحب هؤلاء ويحبوننى.

وتمتمت لغير ما سبب واضح :

ـ الحب . . الحب .

فقالت بأسى :

ـ طالما تمتعنا بحب من نحب ولكن لا يخلد من الحب إلا الخيبة . . .

ـ الخيبة؟

ـ هى الحب الذى ينجو من مخالب الواقع ويبقى أملا خلابا .

فبحذر سألت :

ـ هل خاب لك حب؟

ـ ليس ذلك تماما ولكن الحب يتدلل أحيانا .

ـ أحدث ذلك أيام المجد؟

ـ قد يحدث فى أى يوم .

تشوقت إلى سماع المزيد ولكنها تجاهلت رغبتى ولحظت بطرف عينيها زين العابدين عبد الله وقالت :

ـ انظر إليه . إنه يحبنى ، ماذا يريد؟ . يقترح مشاركتى فى المقهى وتحويله إلى مطعم ولكنه يطمع أولا فى فراشى!

ـ إنه مكتنز بالدهن .

ـ أحلام لن تتحقق .

ـ لعله غنى؟

ـ البركة فى أموال الدولة!

فاتجه رأسى بحركة تلقائية نحو عارف سليمان الساقى ولكنها قالت :

ـ ذاك اختلس من أجل الحب ، أما زين العابدين فينهب من أجل الطمع والطموح ، إنهم أنواع يا عزيزى ، منهم من يأخذ لضرورة العيش لتقصير الحكومة فى حقهم ، ومنهم الطامحون ، ومنهم من يأخذ اقتداء بالآخرين! وبين هؤلاء وأولئك يجن الشبان المساكين

فقلت بإصرار :

ـ نعود إلى موضوعنا الأصلى .

فقالت بتحد :

ـ أنت تعلم أننى أحب!

وكنت قد لاحظت أمورا فضبطتنى متلبسا بمراقبتها فقالت :

ـ لا تسألنى عنه فلست غبيا .

فقلت باسما :

ـ حلمى حمادة؟ !

فمضت دون استئذان إلى كرسى الإدارة ومن هناك رمتنى بابتسامة عذبة . خيل إلىّ فى وقت من الأوقات أنه إسماعيل الشيخ وسرعان ما اكتشفت علاقته الحميمة بزينب دياب . ثم وضح الأمر . وحلمى حمادة فتى رشيق ووسيم أيضا وذو مناقشات عصبية . وقد اعترفت لى قرنفلة بأنها هى التى بادأته بالغزل ، وأمام رفاقه أيضا . وتابعتْ مرة رأيًا سياسيا يدلى به ثم هتفت له وهى جالسة على مقربة منه :

ـ ليحيى كل من تريد له الحياة وليمت من تريد له الموت!

ولما لبى دعوتها لزيارة شقتها فى الدور الرابع من العمارة التى تقع الكرنك أسفلها استقبلته استقبالا فاخرا ، زينت حجرة الجلوس بالورود ومدت مائدة حافلة وتصاعدت أنغام راقصة من جهاز تسجيل . وقد قالت لى بثقة :

ـ وهو يحبنى أيضا ، ثق من ذلك .

ثم قالت بجدية :

ـ ولكنه لا يدرك مدى حبى العظيم . .

ثم بامتعاض :

ـ ولا يبعد أن يمضى يوما بلا رجعة . .

وهزت منكبيها وتمتمت :

حكاية قديمة لا جديد فيها .

ـ تعرفين كل شئ ثم تصرين على المضى فى طريقك .

قول سخيف يصلح شعارا للحياة .

فقلت باسما :

ـ أشكرك نيابة عن الأحياء . .

ـ ولكنه جاد وكريم ، وهو أول من تحمس لمشروعى .

ـ أى مشروع من فضلك؟

ـ كتابة مذكراتى ، إنى متحمسة لدرجة الهوس ، ولم يعفنى إلا عجزى عن الكتابة!

وبحماس أيضا :

ـ أيهتم حقا بالفن وتاريخه؟

ـ هذا جانب من الجوانب ، أما الجوانب الأخرى فتدور حول رجال مصر ونسائهم فى حياتهم الخفية!

ـ أناس العهد الماضى؟

ـ والحاضر!

ـ فضائح وما أشبه ذلك؟

ـ لا تخلو أحيانا من فضائح ولكن أهدافها أخطر من ذلك.

فقلت محذرا:

ـ إنه مشروع له خطورته.

فقالت باهتمام وفخار:

ـ وستقوم له القيامة عند نشره!

فقلت ضاحكا:

ـ هذا إذا قدر له النشر!

فتجهم وجهها وقالت:

ـ يمكن نشر الجزء الأول دون متاعب.

ـ عظيم، ودعى الجزء الثانى للزمن.

فتمتمت برجاء:

ـ لقد عاشت أمى تسعين عاما.

فقلت برجاء أيضا:

ـ ربنا يطول عمرك يا قرنفلة.

* * *

وجئت يوما فى ميعادى فوجدت مقاعد الشباب خالية. تبدى المقهى فى منظر غريب وخيم عليه هدوء ثقيل. وانشغل الشيوخ بألعابهم وأحاديثهم أما قرنفلة فجعلت تنظر نحو مدخل المقهى بترقب وقلق. وجاءت وجلست إلى جانبى وهى تقول:

ـ لم يجئ أحد منهم، ماذا جرى؟

ـ لعل موعدا شغلهم؟

ـ كلهم! ألم يكن بوسعه أن يخبرنى ولو بالتليفون؟

ـ أظن أنه لا داعى للقلق.

فقالت بحدة:

ـ ولكن توجد دواع للغضب.

ومضت الليلة دون ظهور أحد منهم، وحتى مساء اليوم التالى لم يظهر لأحد منهم أثر. وتغير طبع قرنفلة ومضت تنتقل بين الداخل والخارج فى عصبية.

وسألتنى:

ـ ما تفسير ذلك فى نظرك؟

فحركت رأسى فى حيرة، وقال زين العابدين عبد الله:

ـ إنهم شبان لا يثبتون على حال ولعلهم انتقلوا إلى مكان أنسب لهم..

فقالت له بغضب:

ـ يا لك من غبى! ولِمَ لم تنتقل أنت إلى مكان أنسب لك؟

فضحك ببلاده منيعة وقال:

ـ إنى فى أنسب مكان لى..

وقلت على سبيل المواساة:

ـ سنراهم فجأة مقبلين..

فقالت لى همسا:

ـ الحزن يقتلنى قتلا.

فسألتها برقة:

ـ ألا تعرفين أين مسكنه؟

ـ كلا، فى مكان ما بالحسينية، وهو طالب بكلية الطب ولكن الجامعة مغلقة لعطلة الصيف، لا أدرى شيئا كما ترى.

وكرت الأيام والأسابيع حتى أوشكت قرنفلة على الجنون، وحزنت لها حزنا بالغا حتى قلت لها:

ـ أنت تهلكين نفسك بلا رحمة.

ـ لست فى حاجة إلى الرحمة ولكنى بحاجة إليه.

وتجنب زين العابدين العاصفة بالصمت والانزواء وكان يدارى ارتياحه العميق بالتجهم والاستغراق فى النارجيلة. ويوما قال طه الغريب:

ـ سمعت عن أنباء اعتقالات واسعة.

فوجمنا جميعا، وقلت:

ـ ولكن أغلبيتهم تنتمى للثورة..

فقال رشاد مجدى:

ـ ولكن توجد أقلية مخالفة لا يستهان بها .

فقال محمد بهجت :

ـ وضح الحق ، قد أرادوا اعتقال المتهمين فساقوا أصدقاءهم معهم حتى يتم التحقيق .

وكانت قرنفلة تتابع الحديث بذهول كالبلاهة وترفض أن تفهم شيئا أو تقتنع بشىء .

وجرى الحديث بيننا تعليقا على الحدث :

ـ الاعتقال فعل مخيف حقا .

ـ وما يقال عما يقع للمعتقلين أفظع .

ـ شائعات يقشعر منها البدن .

ـ لا تحقيق ولا دفاع .

ـ لا يوجد قانون أصلا .

ـ يقولون إننا نعيش ثورة يستوجب مسارها تلك الاستثناءات .

ـ وأنه لا بد من التضحية بالحرية والقانون ولو إلى حين .

ـ ولكن مضى على الثورة ثلاثة عشر عاما أو يزيد فآن لها أن تستقر على نظام ثابت .

أما قرنفلة فقد أهملت عملها . كانت تغيب بعض النهار كله وأحيانا اليوم بأكمله، تاركة المقهى لعارف سليمان وإمام الفوال . وقالت لى :

ـ لم أدع أحدا من كبراء الماضى أو الحاضر إلا زرته وسألته ، ولا جواب عند أحد ولكنك تسمع كلاما غير متوقع مثل «من أدرانا؟» أو «حذار من السؤال وإلا ساءت العواقب» أو «لا ترحبى بالشاب فى مقهاك» . ماذا حصل للدنيا؟!

وإذا بفكرى يتقمص انطلاقة جديدة دافعها الأول الحزن العميق . قلت لنفسى حقا إن حياتنا تزخر بالآلام والسلبيات ولكنها فى جملتها ليست إلا النفايات الضرورية التى يلفظها البناء الضخم فى شموخه وإنها يجب ألا تعمينا عن العظمة فى تولدها وامتدادها . هل عرفنا ما كان يعانيه ساكن الحارة فى القاهرة عندما كان صلاح الدين يحقق انتصاره الحاسم على الصليبيين؟ هل تخيلنا آلام أهل القرى عندما كان محمد على يكوّن إمبراطورية مصرية؟ هل تصورنا عصر النبوة فى حياته اليومية والدعوة الجديدة تفرق بين الأب وابنه والأخ وأخيه والزوج وزوجته ، تمزق العلاقات الحميمة وتحل العذاب مكان التقاليد الراسخة؟ وبالمثل ألا يستحق انشاء دولتنا العلمية الاشتراكية الصناعية التى تملك أكبر قوة فى الشرق الأوسط ، ألا تستحق أن نتحمل فى سبيلها تلك الآلام؟! وكنت أشعر طيلة الوقت بأنه يمكن أن أقنع نفسى بضرورة الموت وفائدته بمثل هذا المنطق .

وما ندرى ذات أصيل إلا والوجوه الغائبة المفتقدة تهل علينا بفرحة مباغتة. زينب دياب وإسماعيل الشيخ وحلمى حمادة وبضعة نفر آخرين، أما البقية فلم نر لها أثرًا بعد ذ لك. هللنا مرحبين، حتى زين العابدين عبد الله اشترك معنا، أما قرنفلة فتراخت فى جلستها كأنما غفت أو أغمى عليها، لم تنطق بحرف ولم تتحرك، حتى مثل أمامها حلمى حمادة فقالت له بصوت متهدج:

ـ سأنتقم منك!

ثم أجهشت فى البكاء. وسأل سائل:

ـ أين كنتم يا جماعة؟

فأكثر من صوت أجاب:

ـ فى نزهة..

وضجوا بالضحك. وعاد المرح ولكن الوجوه تغيرت، فالرءوس الحليقة أضفت على السحن غرابة فضلا عن ذبول واضح فى النظرة والحيوية. وتساءل صوت ـ لعله زين العابدين ـ قائلا:

ـ ولكن كيف حدث ما حدث؟

فصاح إسماعيل الشيخ:

ـ دعونا من هذه السيرة..

وهتفت زينب فى غبطة:

ـ سلمى يا سلامة، رحنا وجينا بالسلامة.

وسمعت اسما يتردد، لا أدرى كيف تردد ولا من كان أول ناطق به، خالد صفوان.. خالد صفوان.. ولكن من هو خالد صفوان؟... محقق؟!.. مدير سجن؟!.. أكثر من صوت يردد: خالد صفوان.. وكنت أختلس من الوجوه النظرات وأكاد ألمس المعاناة والذهول وراء الأقنعة.. وممكن أن أقول إن الحياة فى الكرنك استعادت روتينها اليومى ولكنها فى الواقع فقدت قدرا لا يستهان به من صميم روحها. أسدل ستار كثيف عى فترة الغياب المجهولة فمضت كسر مثير تحوم حوله الأسئلة وترتد خائبة. ورغم المرح والأحاديث انتشر الحذر فى الجو مثل رائحة غريبة مجهولة المصدر. وتحملت كل نكتة بأكثر من معنى وكل إشارة بأكثر من مغزى وكل نظرة التبست فيها البراءة بالتوجس. وقالت لى قرنفلة:

ـ الأولاد عانوا كثيرا.

فسألتها بلهفة:

ـ هل قال لك شيئا؟

ـ إنه لا يتكلم وفى ذلك ما يكفى .

أجل، فى ذلك ما يكفى . نحن فى زمن القوى المجهولة وجواسيس الهواء وأشباح النهار . وجعلت أتخيل وأتذكر . تذكرت ملاعب الرومان ومحاكم التفتيش وجنون الأباطرة . تذكرت سير المجرمين وملاحم العذاب وبراكين القلوب السود ومعارك الغابات . وقلت لنفسى مستعيذا من ذكرياتى إن الدناصير استأثرت بالأرض ملايين السنين ثم هلكت فى ساعة من الزمان فى صراع الوجود والعدم فلم يبق منها اليوم إلا هيكل أو هيكلان . وعندما يلفنا الظلام أو تسكرنا القوة أو تطربنا نشوة تقليد الآلهة فإنه يستيقظ فى أعماقنا تراث وحشى ويبعث فينا العصور البائدة . وظلت معلوماتى ترتكز على الخيال حتى أتيح لى بعد ذلك بسنوات أن تفتح لى القلوب المغلقة فى ظروف جد مختلفة وتمدنى بالحقائق المرعبة وتفسر لى ما غمض علىّ فهمه من الأحداث فى إبان وقوعها .

ولم يكف زين العابدين عبد الله يوما عن التحلى بالصبر وترقب الفرصة المواتية، ولا شك أن رجوع حلمى حمادة قد أفسد خطته وحرك مخاوف اليأس فى أعماقه فدفعه ذلك إلى تجاوز حرصه المعهود فقال مرة باستهتار على مسمع من قرنفلة :

ـ إن وجودهم بالمقهى خليق بالإساءة إلى سمعته .

فسألته قرنفلة :

ـ متى تنوى الرحيل؟

فتجاهل قسوتها وقال بنبرة الوعاظ :

ـ لى مشروع جم الفوائد يستحق العناية والجدية . . .

وسألنى مستوهبا تأييدى :

ـ ما رأيك فى المشروع؟

فسألت بدورى قرنفلة :

ـ ألا ترغبين فى الإسهام بقوة أكبر فى الرأسمالية الوطنية؟

فقالت بسخرية :

ـ ولكنه يطمع فى المال وصاحبة المال .

فبادرها قائلا :

ـ اقتراحى يتعلق بالعمل وحده أما القلوب فشئونها بيد الله ذى الجلال !

فلم تعن بمناقشته أكثر، وبدا أن العشق يستأثر بلبها كله . وطالما شعرت بأنها تمثل دور

العاشقة العمياء فامتلأ قلبى نحوها بالعطف والإشفاق. ولم أشك فى أن الفتى يحبها حب مراهقة، هى تتقن كيف تفتنه وتسره وهو ينهل من منابع حنانها، ولكن حتى متى يدوم ذلك؟ وكانت إلى ذلك تساورنى بعض الشكوك من ناحية أطماعه ولكنها قالت لى بثقة لا حد لها:

إنه نظيف بقدر ما هو ذكى، ليس من النوع الذى يبيع نفسه. . أفلحت لو صدقت. ولا أملك ما يدعونى للشك فى صدقها، ثم إن منظر الشاب وحديثه يدعوان للثقة وان شابه الغموض أحيانا والعنف فى كثير من الأحايين، ولكن ما جدوى كل ذلك حيال الحقيقة المجسدة وهى أن قرنفلة قد جاوزت خريف العمر وأنه لم يبق لها من تراث الإغراء إلا المال والإخلاص؟! وقد قال لى زين العابدين مرة:

ـ لا يغرنك منظره. .

فعلمت أنه يتحدث عن حلمى حمادة وسألته:

ـ ماذا تعرف عنه؟

ـ إنه برمجى عصرى أو قناع خداع.

وصمت لحظة ثم واصل:

ـ وفى اعتقادى أنه يحب زينب دياب وسوف يخطفها يوما من إسماعيل الشيخ. .

وأثارت كلمته قلقى لا لأننى اعتبرتها افتراء ولكن لأنها أيدت مشاهداتى عن المجاملات المتبادلة بين حلمى وزينب. وطالما ساءلت نفسى أهى مودة حميمة أم أكثر من ذلك؟

ولما كانت صداقتى لقرنفلة قد أصبحت راسخة فقد واتتنى الشجاعة لأقول لها:

ـ إنك خبيرة بالحياة والحب.

فقالت بزهو:

ـ لا يجوز لأحد أن يشك فى ذلك.

فتمتمت:

ـ ومع ذلك. .؟

ـ ومع ذلك؟!

ـ هل تؤمنين بنهاية سعيدة لحبك؟

فقالت بإيمان:

ـ عندما تحب حقا فإنما تستغنى بالحب عن الحكمة والبصيرة والكرامة.

واقتنعت بأنه من العبث أن تناقش عاشقا فى عشقه. .

وللمرة الثانية اختفى الشبان .

وقع المقدر فجأة وبلا سابق إنذار كما حدث فى المرة الأولى .

ولم يقع أحد منا فى حيرة التساؤل وعذاب الشك ولكن اجتاحنا الانزعاج والذهول .

وترنحت قرنفلة تحت عنف الضربة وتأوهت قائلة :

ـ ما كنت أتصور أننى سأتعرض لمرارة التجربة مرة أخرى .

ومن شدة الأسى صعدت إلى شقتها .

وهيأ لنا غيابها حرية للمناقشة فقال طه الغريب :

ـ حتى أنا ورغم البراءة والسن بت أخشى على نفسى .

فقال رشاد مجدى متهكما بالرغم من شحوب وجهه :

ـ ممكن أن يشك فى أمرك رجال الثورة العرابية لا هذه الثورة!

وتساءل محمد بهجت :

ـ ترى ما وراء ذلك؟

فقال زين العابدين عبد الله :

ـ إنهم شبان ذوو خطورة فما وجه العجب فيما يقع لهم؟

ـ ولكنهم من أبناء هذه الثورة!

فضحك زين العابدين وقال :

ـ الانتماء إلى الثورة حجة شائعة بين أعدائها ، كنت فى شبابى إذا ضبطنى أحد فى الطريق إلى درب طياب تعللت بأننى ذاهب للصلاة فى الجامع الأحمر!

فقال طه الغريب :

ـ إنهم يبدعون فى نشر الرعب سامحهم الله .

وبعد مرور أيام جالستنى قرنفلة ، طالعتنى بوجه كئيب ثم سألتنى باهتمام :

ـ خبرنى عن معنى ذلك؟

قرأت خواطرها الخفية ولكننى تجاهلتها ، فقالت :

ـ توجد حولنا أسرار!

فتمتمت :

ـ ربما .

ـ بل هو مؤكد ، جميع الناس يتكلمون ولكن من الذى يبلغ الكلام؟

فقلت بعد تردد :

ـ أنت أدرى بالمكان . .

ـ لا شك لدى فى رجالى، عارف سليمان مدين لى بحياته . إمام الفوال من رجال الله، وكذلك جمعة .

فقلت :

ـ وشيوخ المعاش فى عزلة على شاطئ الحياة . .

وتبادلنا نظرة طويلة ولكنها قالت :

ـ زين العابدين وغد ولكن لا صلة له بالسلطة فضلا عن أنه يخشاها لانحرافه .

فقلت :

ـ يعبر بالمقهى كثيرون ونحن لا نلقى إليهم بالا .

فتنهدت وقالت بامتعاض شديد :

ـ لم يعد فى الدنيا أمان . .

ورجع الصمت المشحون بالأسى وقعدت قرنفلة على كرسى الإدارة كتمثال فاقد الحياة . أجل كانت أمثال تلك الحوادث تقع كل يوم ولكن تأثيرها يختلف إذا وقعت فيمن يعدهم الإنسان أسرته . وشككنا فى كل شىء حتى الجدران والموائد . وعجبت لحال وطنى . إنه رغم انحرافه يتضخم ويتعظم ويتعملق، يملك القوة والنفوذ، يصنع الأشياء من الإبرة حتى الصاروخ، يبشر باتجاه إنسانى عظيم، ولكن ما بال الإنسان فيه قد تضاءل وتهافت حتى صار فى تفاهة بعوضة، ما باله يمضى بلا حقوق ولا كرامة ولا حماية، ما باله ينهكه الجبن والنفاق والخواء . وفقد زين العابدين أعصابه فجأة وبلا سبب محدد وراح يقول :

ـ أنا حزين، أنا سيئ الحظ، أنا تعيس، اللعنة على يوم ولدت ويوم عرفت هذا المقهى . .

تجاهلته قرنفلة فمضى يقول متحديا :

ـ ما ذنبى؟ إنى أحبك فما ذنبى؟ لماذا تسيئين إلىّ كل يوم؟ ألا تعلمين أنه يقتلنى قتلا أن أراك وأنت تموتين حزنا؟ لماذا؟ لا تحتقرى حبى، الحب لا يحتقر، إنه أسمى من ذلك وأعظم، ، أسفى عليك تبعثرين الأيام الباقية من عمرك العزيز بلا رحمة، وترفضين أن تعترفى بأن قلبى هو القلب الوحيد الذى يعبدك . .

وخرجت قرنفلة من صمتها وقالت تخاطبنا نحن :

ـ هذا الرجل لا يريد أن يحترم حزنى!

فقال زين العابدين بمرارة :

ـ أنا! إنى أحترم أوباشا ومنافقين ومجرمين وقوادين ومرتشين فكيف لا أحترم حزن

من علمنى تقديس الحزن من حزنى عليه؟! معذرة، احزنى، استسلمى لقضائك، تمرغى فى وحل الأيام، ربنا معك . . .

فقالت بهدوء:

ـ لعله من الأفضل لك أن تذهب.

ـ لا مكان لى إلا هنا، وأين أذهب؟ على الأقل يوجد هنا وهم جنونى أخاله أحيانا أملا . .

وسرعان ما عاد إلى رشده وهدوئه وهو خجلان. ولكى يسدل ستارا على تهوره نهض بقوة ورشاقة جندى، فنظر نحو قرنفلة وقال:

ـ أعتذر.

وحنى رأسه تحية ثم جلس وراح يدخن نارجيلته.

وجاء الشتاء ببرده القارص ولياليه الطويلة فتذكرت أن الشبان كانوا يتلاقون فى المقهى حتى فى الشتاء ـ وقت الدراسة ـ ولو ساعة واحدة، وقلت لنفسى إن المقهى بدونهم لا يحتمل. لم يبق إلا الشيوخ وقد نسوا المعتقلين وتناسوا الرعب والسياسة فعكفوا على همومهم الشخصية، وكأنه لم يعد لهم من عمل إلا انتظار الأجل. وراحوا يبكون الأيام الماضية ويتبادلون وصفات بقصد خفى واحد هو تأجيل الموت.

ـ كُلْ واشرب ولا تهتم فهذا خير شعار فى الحياة.

ـ غيّر ريقك على كوب ماء ويا حبذا لو عصرت عليه نصف ليمونة.

ـ قال حكيم قديم إنى أعجب لآل مصر كيف يمرضون وعندهم الليمون.

ـ الطب الحديث يقرر أن صعود السلم مفيد للقلب.

ـ ومفيد له أيضا المشى.

ـ ويقولون إن الجماع مفيد أيضا للقلب.

ـ السياسة وأنباء الاعتقالات ومعاصرة العظماء.

ـ الزبادى مدهش والفاكهة أما العسل الممزوج بإفراز الملكة فحدث عنه ولا حرج.

ـ والضحك، لا تنسوا الضحك.

ـ وكأس واحدة بالثلج قبيل النوم.

ـ والهرمونات لا يجوز الاستهانة بها.

ـ ومنوم احتياطى للأخبار المزعجة . .

ـ وبعد كل شىء وقبل كل شىء قراءة القرآن . .

أجل. المقهى بلا شباب لا يحتمل، وحتى قرنفلة لا تدرى بأحزانى، ولا تدرى أن

الصداقة قوية وظمأى مثل الحب نفسه، وها أنا أتجرع الملل وأعانى الوحشة وأرمق الكراسى الجامدة الصامتة بقلب مشوق حزين يتلهف على مناجاة أصحابها لتنقدح فيه نشوة الحماس والإبداع والآلام المقدسة.

* * *

ولدى إقبالى على المقهى ذات مساء لمحت وجه قرنفلة مشرقا على غير عادته. دهشت حقا واجتاحنى فيض من الأمل فاندفعت نحو الداخل، وسرعان ما وجدتنى حيال الأصدقاء المحبوبين، زنيب وإسماعيل وحلمى واثنين أو ثلاثة آخرين. وتعانقنا بحرارة وضحكة قرنفلة تباركنا، وتبادلنا الأشواق متجنبين أين وكيف ولماذا، ولكن تردد فى همس اسم خالد صفوان الذى صار رمزا من رموز حياتنا لا تكمل إلا به وقالت لى قرنفلة:

ـ تصور أنه قد وقع سوء تفاهم فى مطلع الشتاء وأن البراءة ثبتت فى مطلع الصيف ولا تسأل عن مزيد، حسبك أن تتصور إن استطعت . .

ليكن. لا حيلة لنا فى ذلك. وقلت لها:

ـ ولنتصور أيضا أن المقهى أذن كبيرة!

وتجنبنا حديث السياسة ما وسعنا ذلك، وقلت لها:

ـ إذا دعت ضرورة إلى الخوض فى موضوع وطنى فلنتكلم متخيلين أن السيد خالد صفوان يجالسنا.

ولكن الخسارة تبدت ملموسة أكثر من المرة الماضية. هزلوا كأنهم خارجون من مجاعة، لاحت بأعينهم نظرة حزينة وساخرة، ورسب فى زوايا أفواههم امتعاض راسخ. إن حرارة الحديث تذيب الرواسب فإذا فرغوا منه وخلوا إلى أفكارهم اختفت الأقنعة وتجلى الفتور والعزلة. حتى العلاقة الحميمة بين زينب وإسماعيل تعانى داء خفيا لا يكاد يرى عند النظرة العابرة الأمر الذى أثار عواطفى وتساؤلاتى. يا ألطاف الله، إن الآلة الجهنمية تطحن أول ما تطحن أصحاب الرأى والإرادة، فماذا يعنى هذا؟

وجالستنى قرنفلة مرة فلاحظت أنها راضية ولكنها غير سعيدة. وكنت أعلم أنها لا تجالسنى إلا للبوح بشىء فقلت أفتتح الحديث:

ـ لندع الله ألا يتكرر المكروه . .

فقالت بأسى:

ـ ادع الله كثيرا جدا، قل له إننا فى حاجة شديدة إلى دليل حى على رحمته وعدله . . .

فسألتها بإشفاق:

ـ ماذاوراءك؟

ـ الذى رجع إلى حضنى خيال فأين إذن حلمى حمادة؟

ـ لعلك تقصدين الصحة، ولكنهم كلهم فى البلوى سواء، وسوف يستردون العافية خلال أيام. . .

ـ لعلك لا تدرى أنه شاب شجاع ذو كبرياء. وأن مثله يكون عرضة للشر أكثر من غيره. .

ثم قالت وهى تحدجنى فى عينى:

ـ لقد فقد القدرة على السعادة!

فلم أفهم تماما ما تعنيه فعادت تقول:

ـ لقد فقد القدرة على السعادة!

ـ لعلك تبالغين فى التشاؤم. .

ـ كلا، وأنا لا أحزن لغيرما ضرورة.

وتنهدت بعمق ثم استطردت:

ـ منذ ملكت هذا المقهى وأنا دائبة على العناية به، الأرض والجدران والأثاث تنال حظها كاملا من اهتمامى الكلى أما هم فينكلون بفلذات الأكباد، عليهم اللعنة. .

ثم قبضت على ذراعى وقالت:

ـ لنبصق على الحضارة. .

وترددت طويلا بين انبهارى بالعظمة ومقتى للفزع والإرهاب ولم أدر كيف يمكن أن يتطهر من الحشرات ذاك البناء الشامخ.

وكان زين العابدين عبد الله أول من قال لنا:

ـ فى الجو غيم!

إنه يستمع إلى الإذاعات الأجنبية ويعرف أخبارا نادرة، فحدثنا عن نشاط للمتسللين من أبناء فلسطين وما يتوعد به العدو من ردع. قال:

ـ ليس بعيدا أن تنشب حرب هذا العام أو العام المقبل.

ولكننا كنا واثقين من قوتنا، فقال طه الغريب:

ـ لا خوف علينا إلا من تدخل أمريكا. . .

وفى ذلك النطاق دار الحديث. ولم يفسد الصفو فى تلك الفترة إلا هبة عارضة من حلمى حمادة كادت تقوض أركان حبه الراسخ. فقد توهم أن قرنفلة تعامله بعطف لا

يليق بكرامته فرفض ذلك بإباء وقرر هجر المقهى لولا أن أمسك به أصحابه. وذهلت المرأة وراحت تعتذر إليه وهى لا تدرى بالدقة ما ذنبها. وراح يقول بعصبية:

ـ إنه لمقرف أن يضطر الإنسان إلى سماع نغمة واحدة..

واستطرد بحدة:

ـ وأنا أكره الأصوات الباكية..

وبحدة أعنف:

ـ ثم إننى ضقت بكل شىء..

واعتبرنا المسألة عرضا للحال العامة وتجنبنا إحداث أى مضاعفات حتى تمر بسلام، ولم يغن فرح زين العابدين الخفى عنه شيئا فإن حلمى حمادة لم يتماد فى غضبه، ولعله ندم على ما فرط منه، ونال التأثر من قرنفلة غايته ولكنها لم تنبس بكلمة واحدة. وقد همست لى:

ـ آخر ما كنت أتوقع.

فسألتها بقلق:

ـ أتراه فطن إلى حديثك معى عنه؟

فنفت ذلك بهزة من رأسها.

ـ أله سابقة فى ذلك؟

ـ هى الأولى، والأخيرة كما أرجو...

ـ يحسن بك أن تقللى من الشكوى والرثاء.

فتنهدت قائلة:

ـ إنك لا تدرى كم أنه تعيس!

* * *

وفى أواسط ربيع العام وقع الاختفاء الثالث!

لم يثر تلك المرة أى تساؤلات ولا عنفا فى ردود الأفعال. تبادلنا النظرات. هززنا رءوسنا، نطقنا بكلمات لا معنى لها:

ـ كالعادة.

ـ نفس النتائج.

ـ لا جدوى من التفكير.

أما قرنفلة فقد صمتت طويلا فوق كرسى الإدارة ثم استرسلت فى الضحك طويلا حتى دمعت عيناها وجعلنا ننظر إليها من مجلسنا صامتين.

ـ اضحكوا . . اضحكوا . . .

وجففت عينيها بمنديلها الصغير وواصلت :

ـ اضحكوا ، جفت الدموع ولكن لنا الضحك ، الضحك أقوى من البكاء وأسلم عاقبة ، اضحكوا من صميم القلوب . اضحكوا حتى يسمعنا أصحاب الحوانيت بشارعنا السعيد . .

وسكتت دقيقة ثم استأنفت :

ـ هل نحزن لأمور تقع بانتظام مثل الشروق والغرب؟ . . سوف يعودون ، وسيجلسون بيننا كالأشباح ، وعهد الله أن أسمى المقهى وقتذاك «مقهى الأشباح» .

ثم نظرت إلى عارف سليمان وقالت آمرة :

ـ قدم كأسا لكل زبون من زبائننا الكرام لنشرب نخب الغائبين !

وانطوت السهرة فى كآبة شاملة . . .

على أننا سرعان ما نسينا همومنا القريبة التى تعد شخصية بالقياس إلى الأحداث الكبيرة التى اجتاحت الوطن . فقد تطايرت الشائعات وما ندرى إلا والجيش المصرى ينطلق بكل ثقله إلى سيناء ، فاشتعلت المنطقة كلها بنذر الحرب . ولم يداخلنا شك فى قوتنا ولكن . . .

ـ أمريكا ، هى العدو الحقيقى .

ـ إذا هجم الجيش انهالت علينا الإنذارات .

ـ سيتحرك الأسطول السادس .

ـ ستنطلق الصواريخ نحو الدلتا .

ـ ألا يصبح استقلالنا نفسه فى خطر؟

الحق أننا لم نشك فى قوتنا . تداعت كثير من القيم أمام أعيننا ولو تلوثت أيدى لا حصر لها ولكننا لم نشك فى قوتنا . وإنه لتفكير لا يخلو من سذاجة ولكن عذرنا أننا كنا مسحورين ، ومصرين على الأمل ، وبدا أنه فوق طاقتنا أن نكفر بأول تجربة وطنية خالصة جاءت فى ختام سلسلة من عصور الذل والاستعباد . ولبثنا متلهفين حتى استيقظنا على أعنف مطرقة صكت رءوسنا الثملة بنشوات العظمة . ولن أنسى ما زفره طه الغريب ، وهو أطعننا سنا ، فقد تجلى الأسى فى عينيه وقال :

ـ ها أنا ذا على حافة القبر ، وسيجىء الأجل بعد أسبوع أو شهر ، فيا ربى لمَ لم تعجل به قبل أن يدركنى هذا اليوم الأسود؟ !

وأحرق الحزن قلوب الشعب البرىء ، ولم يعد له من أمل فى الحياة إلا أن يرد الضربة

ويسترد الأرض، ولكنى أنصت هنا وهناك إلى قلوب تخفق بالشماتة والفرح، وبدأت أدرك أن الصراع ليس صراعا وطنيا خالصا، وأن الوطن ينزوى حتى فى أشد أحوال المحن فى خضم صراع آخر يحتدم حول المصالح والعقائد، وجعلت أراقب هذه الفكرة فيما تلا ذلك من أيام وأعوام حتى وضحت جوانبها وتعرت جذورها، فإذا بيوم ٥ يونيو يستوى فى التاريخ هزيمة لقوم من العرب ونصر لقوم آخرين منهم أيضا، وأنه جاء ليهتك الستر عن حقائق ضارية، وليعلن حربا طويلة المدى بين العرب أنفسهم لا بينهم وبين إسرائيل فحسب.

* * *

وعقب وقوع الهزيمة بأسابيع عاد الغائبون أو بالأحرى عاد إسماعيل الشيخ وزينب دياب وآخران. وجدنا فى عودتهم فرحة عابرة وسط الأحزان وتعانقنا طويلا.

وهتف إسماعيل الشيخ بصوت مضطرب:

ـ ها نحن أولاء نعود.

ثم بنبرة أعلى:

ـ وقد قبض على خالد صفوان!

فقال محمد بهجت:

ـ كثيرون انتقلوا من مقاعد الحكم إلى أعماق السجون؟

ووقفت قرنفلة وراء الخوان وتساءلت:

ـ أين حلمى؟

ولكن أحدا منهم لم يجب فعادت تسأل بإلحاح وضيق:

ـ أين هو؟ . . ولمَ لم يحضر معكم؟

لم ينبس أحد بكلمة بل وتجنبوا النظر نحوها فهتفت:

ـ ألا تريدون أن تتكلموا؟

ولما لم تسمع صوتا صرخت:

ـ لا! . . . لا!

ثم مخاطبة إسماعيل:

ـ تكلم، قل أى شىء يا إسماعيل.

ثم تقوس ظهرها فوق الخوان كأنما تعانى تمزقا فى بطنها. لبثت كذلك مدة فى صمت شامل، ثم رفعت رأسها وهى تتمتم:

ـ الرحمة . . . الرحمة يا أرحم الراحمين!

وأوشكت أن تنهار لولا أن تلقاها بين يديه عارف سليمان، ثم مضى بها إلى الخارج.
عند ذاك قال إسماعيل الشيخ:
ـ قيل إنه مات فى أثناء التحقيق.
وقالت زينب:
ـ هذا يعنى أنه قتل.
كان الحزن ـ كالفرح ـ ينسى بسرعة فى تلك الأيام. وقد قدمت العزاء لقرنفلة ولكنها لم تفقه لكلامى معنى.

وانداحت تلك الموجة الطارئة فعدنا نتابع الأحداث ونمضغ الأحاديث ونعانى الأيام فنحملها فوق كواهلنا ثم نمضى بخطوات ثقيلة متعثرة. نستعيذ من حدتنا بالتلاقى وكأننا نتقى ضربات المجهول بالتلاصق، ومخاوف الاحتمالات بتبادل الآراء، وهجمات اليأس العاتية بالنكات الساخرة الأليمة. والخطايا الكبرى بزفرات الاعتراف الحارة، وفظاعة المسئولية بتعذيب النفس، وتجهم الجو الخانق بالأحلام المفتعلة. لم نكف لحظة عما كنا فيه والساعات تمضى فى إثر الساعات ونحن نحترق ونتهالك ونخوض ظلمات فوقها ظلمات تحتها ظلمات.

وكان أشدنا مناعة حيال الوباء إمام الفوال الجرسون وجمعة مساح الأحذية، فهما يرفضان الهزيمة ويصدقان الراديو ويحلمان بيوم النصر. ولكنهما بمرور الأيام مضى شعورهما بالكارثة يفتر، واهتمامهما بالحياة اليومية يتصاعد، ثم انحدرا فى طريق اللامبالاة إلا ما استقر فى أعماق النفس من حزن دائم خفى. وأما جماعة الشيوخ فقد ارتدت مع الأيام إلى الماضى.

ـ لم نصل إلى مثل هذه الحال فى أى عهد من العهود.
ـ حسبنا ما كنا نستظل به من حماية القانون.
ـ وحتى أعنف أيام الاستبداد لم تخل من صوت معارضة حر..
ـ وأيام الجهاد والنفى والفداء المجيدة كيف يمكن أن تنسى؟!

وما لبثوا أن رجعوا إلى الوراء أكثر وأكثر حتى استقروا فى عهد ابن الخطاب والرسول فتنافسوا فى نبش الماضى يستخرجون أمجاده يتسلون بها عن حاضرهم.

وكان زين العابدين عبد الله يتابعهم بين الاهتمام والاستهانة ثم أفصح عن رأيه قائلا:
ـ الحل تملكه واحدة هى أمريكا!
وصادف رأيه هوى فى نفس عارف سليمان الساقى فقال:
ـ صدقت.

ثم أشار إشارة شاملة وقال:

- سيتغير كل شيء من جذوره، وما هذه الصحوة إلا الانتفاضة الأخيرة قبل تسليم الروح.

وبقى الشبان وحدهم لا يسلمون أنفسهم للماضى ولا يأملون خيرا فى أمريكا، ورويدا رويدا، وفى أعقاب إفاقتهم من الصدمة، راحوا يتكلمون عن معركة بعيدة المدى، وصراع على مستوى العالم بين قوى التقدم والإمبريالية، وعن تغييرات أساسية جوهرية فى الداخل. وهكذا.. وهكذا.. وهكذا.

وبخلاف المسألة العامة لم يحركنى شىء سوى ما طرأ من تغيير ملموس على العلاقة بين زينب دياب وإسماعيل الشيخ. تسلل مرض مجهول إلى روحيهما فباتا غريبين أو كالغريبين حتى بت أعتقد أنهما واريا حبهما القديم التراب وأن كليهما قد استقل بحياته وأحزانه. وعند ذاك رجعت إلى ظنى الأول عن حبها لحلمى حمادة فملت إلى الأخذ به أكثر وأكثر.

وسرنى أن أرى قرنفلة وهى تستعيد نشاطها المألوف. واجمة متحفظة أغلب الوقت: تصغى إلينا بلا مشاركة ولا اندماج، وتبدت أكثر جدية وأوغل فى الكبر.

وبمرور الأيام غابت وجوه، وترددت وجوه بين الغياب والحضور، واستمر الحال لا يكاد يتغير. وفى تاريخ متأخر نسبيا تهيأت لى ظروف وثقت ما بينى وبين بعض أصدقاء الكرنك، وعند ذاك علمت منهم ما لم يكن لى به علم، فاطلعت على خبايا الأحداث والقلوب وشربت الكأس حتى الثمالة.

إسماعيل الشيخ

حقا علمت ما لم يكن لى به علم.

وقد أثار إسماعيل الشيخ اهتمامى من أول لقاء ببنيانه القوى وقسماته الكبيرة الواضحة. فلم أر عليه سوى بدلة واحدة، يرتديها صيفا وشتاء، يخلع جاكتتها صيفا ويعيدها شتاء بالإضافة إلى بلوفر. ورغم فقره الظاهر حظى بالاحترام، وقد نال أخيراً الليسانس رغم اعتقالاته المتقطعة.

- إنى ابن بيئة فقيرة جدا. هل سمعت عن حارة دعبس بالحسينية؟ أبى عمل فى مطعم كبدة، أمى بياعة سريحة وهى تبيع أيضا الخوص والريحان فى مواسم القرافة، إخوتى الكبار صبى جزار وسواق كارو وإسكافى، مسكننا مكون من حجرة وحيدة

فى فناء ربع، الربع كأنه أسرة كبيرة يجاوز أفرادها الخمسين عدا، وليس به حمام ولا ماء، وبه مرحاض واحد فى الفناء تحمل إليه المياه بالصفائح، وفى الفناء يجتمع النساء، والنساء والرجال أحيانا، يتبادلون الأحاديث والنكات وربما الشتائم واللكمات ويأكلون ويصلون.

وينظر إلى بتجهم ويقول:

ـ لم يتغير شىء جوهرى فى حارة دعبس حتى اليوم .

ولكنه يستدرك:

ـ غير أن المدارس فتحت أبوابها ، تلك نعمة لا يمكن إنكارها، دخلت مع الداخلين، ولعل أبى كان يتمنى لى الفشل حتى يتخلص منى بإلحاقى بحرفةمثل إخوتى ولكنى خيبت ظنه وواصلت النجاح حتى نلت الثانوية العامة، وأمكننى الالتحاق بكلية الحقوق، وعند ذاك غير الرجل رأيه وداخله زهو وعجب، أيمكن حقا أن يصير ابنه وكيل نيابة؟ وثمة وظيفتان معروفتان جيدا فى حارتنا: الشرطى ووكيل النيابة، وأهل حارتنا يتعاملون معهم كثيرا كما تعلم، وصممت أمى على أن أستمر «ولو بعت عينى» . . والله وحده يعلم كم كلفها أن تبتاع لى بذلة تليق بطالب فى الجامعة ولكنها اعتبرتها كعقار يجب المحافظة عليه، ويجوز إصلاحه أو ترميمه أو حتى تجديده ولكن لا يجوز الاستغناء عنه.

ثم بحدة:

ـ الحارة اليوم مكتظة بالتلاميذ والتلميذات ولكن مستقبلهم مشكلة متداولة بين الأمم!

وقد قامت الثورة وهو ابن ثلاثة أعوام، فهو ابن من أبناء الثورة بكل معنى الكلمة . . ولذلك لم أخف عنه دهشتى لما حل به من آلام وقلت له:

ـ لقد ظنك البعض شيوعيا أو من الإخوان.

فقال بيقين:

ـ لا هذا ولا ذاك، وانتمائى الوحيد كان إلى ثورة يوليو، أما الآن . . وجعل يهز رأسه صامتا كأنما لا يدرى ما يقول، ثم قال:

ـ وقد عشت دهرا وأنا أظن أن تاريخ مصر يبدأ بالثالث والعشرين من يوليو، ولم أتجه للبحث عما وراء ذلك إلا بعد النكسة.

واعترف لى بأنه آمن بالاشتراكية المصرية وأن إيمانه بالدين لذلك لم يتزعزع فسألته:

ـ خبرنى عن إيمانك بها الآن؟

فقطب قائلا:

ـ كثيرون يصبون غضبهم عليها باعتبارها سببا من أسباب الهزيمة، ولكن الحقيقة التى

يجب أن تعرف هى أنه لم تكن توجد فى حياتنا اشتراكية حقيقية، لذلك فإننى لم أتخل عنها وإن تمنيت أن أقطع الأيدى التى تطبقها، وذلك ما فطن إليه من بادئ الأمر حلمى حمادة الله يرحمه.

- لماذا؟

- كان شيوعيا!

- إذن كان يوجد بينكم غرباء؟

- أجل، ولكن ما ذنبنا نحن؟

وحدثنى عن زينب طويلا:

- عرفت زينب فى الحارة منذ الطفولة، هى تقيم فى نفس الربع أيضا، وكانت لنا ألعاب مشتركة تعرضنا بسببها لضرب بالعصا، ولما استوت صبية تجلت ملامحها، كانت تسير فتجذب الأنظار وتحرك الأشواق فأتصدى أنا للدفاع عنها مستمدا الشجاعة من ذكريات الفتونة فى حارتنا، وفى المرحلة الثانوية حال بيننا الرقباء والتقاليد ولكن حبنا كان قويا، يلهب المشاعر ويفرض ذاته على الجميع، وأخيرا وجدنا حريتنا فى الجامعة وأعلنا خطوبتنا وانتظرنا الزواج باعتباره ملاذنا الأخير، وها هى الأحلام تتبدد ويموت كل شىء.

وجدا فى الجامعة حرية لم يحلما بها من قبل، فوقت الطلبة لا يمكن أن يخضع لسيطرة حارة دعبس وتزمتها، وكل غيبة ستجد لها عذرا أو مبررا، لذلك أمضيا ساعات طويلة معا، وتعرفت بأصحابه، وأصبحت من أهل الكرنك، واعتقلت معه، ونضجت شخصيتها فوق ما كان يتصور.

وضحك عاليا وقال:

- طحنتنا أزمة الجنس، وتخبطنا حيارى طويلا، أحاطت بنا مغريات تجارب حرة تجرى من حولنا، وقلت لها يوما: «لا شك فى حبنا أو إخلاصنا وسوف نصبح زوجين، فما رأيك؟» وكنت أحتويها بين ذراعى فى عناق حار ولكنها قالت لى: لقد أقسمت لوالدى فقلت لها: «هذا سخيف ولا معنى له. ألا تسمعين ما يقال؟» فقالت فى ارتياب: «لست واثقة... ولا أنت!» وكنت أعانى آلاما عنيفة وكانت أيضا تعانى..

وساءلت نفسى إلى أى درجة تعتبر هذا الثورى ثوريا؟ إنه ثورى من نوع خاص وهو لا يخفى إيمانه بالدين. وددت أن أسأله عن موقفه من الحرية الجنسية ولكننى خشيت أن يظن بى رغبة فى التسلل إلى أسرار زينب، فأبيت أن أستدرجه إلى البوح بما لا يريد البوح به.

ـ ومع ذلك فالحب الحقيقى يهب مناعة بخلاف ما يتصور كثيرون. ولكننى مازلت أذكر قوله أيضا:

ـ فى السجن اجتاحنا الضياع فاهتز بناؤنا المتين من أساسه.

وتذكرت أن الهزات العنيفة فى حياة البشر تعقبها استغاثات جنسية تشارف حد الجنون، فماذا يعنى يا ترى؟ ولكنه عاف ـ فيما بدا ـ الرجوع إلى الموضوع.. وسألته:

ـ وحلمى حمادة؟

فهتف:

ـ كان يتخطى التقاليد بكل عنف.

ـ أكان من نفس البيئة؟

ـ كلا، كان أبوه مدرس لغة إنجليزية، أما جده فكان عاملا بالسكك الحديدية.

ـ أكان يحب قرنفلة حقا؟

ـ أجل، لا يداخلنى شك فى ذلك. لقد عرفنا المقهى مصادفة ولكنه أصر على العودة قائلا: «لنعد إلى مقهى المرأة» فعجبت لذلك ولكنه قال: «إنها جذابة. ألم تلاحظ ذلك؟» وكنا راغبين فى العودة كذلك، وقد أحببناها أيضًا كأصدقاء.

ولم تكن جاذبية قرنفلة موضع شك عندى فقد وقعت أنا نفسى فى إسارها ولكن هل يكفى ذلك لأعدل عن ظنى القوى فيما يتعلق بحب حلمى حمادة لزينب؟.. ألا يجوز أنه صرح بما صرح به مداراة لعاطفته الحقيقية؟!

ـ كان يحب قرنفلة، لعله لم يكن سويا فى عواطفه، لعله كان يروم عاطفة كالحب ولكنها ليست الحب نفسه، ولكنه على أى حال عاملها معاملة أمينة صادقة، لم يستجب قط لإغراء استغلالها رغم تيسره له، وهو لا يخلو من مثالية فى سلوكه، ومن ناحية أخرى كانت أحواله المادية حسنة، وحسبك أن تعلم أننا ندين فى ثقافتنا العامة للكتب المعارة من مكتبته.

ـ لعله عطف على تاريخها المجيد.

فضحك وقال:

ـ كان يصغى إليها متظاهرا بالتصديق ولكنه لم يؤمن بكلمة واحدة، وكان يحبها كما هى ولكنه طالما سخر من مزاعم التجديد فى الفن والتفرد بالسلوك المثالى.

فقلت له كشاهد محايد:

ـ لقد كنت مثالا طيبا فى الفن والأخلاق!

فقال بحزن:

ـ فاتت فرصة إقناعه!

ولكن لماذا قضى على إسماعيل الشيخ بالاعتقال؟ خفت أن يجيب عن سؤالى ـ كما فى الماضى ـ بالصمت غير أنه قال مستأنسا بتغير الظروف والأحوال:

ـ كانت ليلة، وكعادتى فى فصلى الربيع والصيف كنت أنام على أريكة فى الفناء تاركا حجرتنا الوحيدة لوالدى، مستغرقا فى النوم عندما شعرت بنهار ينهمر على روحى كحلم، واستيقظت على هزة شديدة، فتحت عينى فضاع بصرى فى ضوء باهر يتدفق فى عينى، جلست فزعا فإذا صوت يسأل:

ـ أين مسكن الشيخ؟

فقلت:

ـ هنا، ماذا تريد؟ أنا ابنه إسماعيل..

فقال بارتياح:

ـ عظيم.

وأطفأ الكشاف فساد الظلام؛ وبعد حين تبينت أشباحا:

ـ قم معنا.

ـ من أنتم؟

ـ لا تخف.. نحن من رجال الأمن.

ـ ماذا تريدون؟

ـ ستجيب على بعض أسئلة ثم تعود قبل طلوع النهار.

ـ دعونى أخبر والدى وأرتدى بدلتى.

ـ لا داعى لذلك ألبتة.

وقبضت يد على منكبى فاستسلمت، وسرت بينهم حافيا بجلباب النوم، ثم دفعوا بى داخل سيارة فجلست محاصرا باثنين، ومع أن الظلمة كانت كثيفة إلا أنهم عصبوا عينى وأوثقوا يدى، فسابت ركبتاى وتساءلت:

ـ لماذا تعاملوننى هذه المعاملة وأنا برئ؟

ـ اصمت.

ـ خذونى إلى مسئول وسترون!

ـ إنك فى الطريق إليه.

ركبنى رعب مميت. مميت بكل معنى الكلمة، ورحت أتساءل عن التهمة المأخوذ بها، لست شيوعيا ولا من الإخوان ولا إقطاعيا ولم يلفظ لسانى بكلمة تنال هيبة العهد الذى أعده عهدى منذ وعيت ما حولى.

توقفت السيارة فى مكان ما، أخرجت منها، ثم سرت معصوب العينين بين اثنين يقبضان على ذراعى، حتى دفع بى إلى مكان، انفكت القبضتان عن ذراعى. سمعت وقع الأقدام وهى تبتعد وصرير الباب وهو يغلق. كانت يداى قد تحررتا كما رفعت العصابة عن عينى ولكننى لم أر شيئا كأنما قد فقدت البصر. تنحنحت فلم يجبنى أحد. توقعت أن تخف الظلمة باعتياد النظر فيها ولكنها لم تخف، ولم يند عن المكان صوت، ترى أى نوع من المكان هو؟! مددت ذراعى أتحسس المجال، تحركت بحذر شديد، سرت برودة الأرض فى قدمى، لم أعثر بشىء إلا الجدران، لا يوجد فى الحجرة شىء، لا كرسى ولا حصيرة ولا أى قائم، الظلام والفراغ والحيرة والرعب، والزمان فى الظلام والصمت يتوقف تماماً وبخاصة وأننى لم أعرف متى ألقى القبض علىّ، ولا فكرة لى عن متى تنقشع الظلمة أو متى تبعث الحياة فى تلك الجثة الشاملة. ولكن أحب أن أخبرك أن الإنسان يتحايل على المعاناة إذا تخطت حدودها، وأنه فى أعماق العذاب يتوثب لطرح همه باستهتار يستوى أن تعده قوة أو يأسا فاستسلمت للمقادير وقلت ليأت الشيطان إن كان مقدورا له أن يأتى، وليأت الموت أيضا. وكففت عن طرح الأسئلة التى لا جواب لها، ولكن طاب لى أن أذكر سلوك فيروس الإنفلونزا الذى يواجه المضادات الحيوية بخلق جيل جديد ذى مناعة ضد المضادات.

وسألته:

ـ لبثت واقفا؟

ـ عندما أنهكنى الإرهاق قرفصت، ثم تربعت على الأسفلت، وبقدرة قادر نمت، هل تتصور ذلك؟ ولما استيقظت، وتذكرت، أدركت أننى فقدت موقعى من الزمن، أى وقت نمت؟ فى أى لحظة أنا من ليل أو نهار، وتحسست ذقنى، وقلت ستكون هى ساعتى الكسيحة. .

ـ تركت طويلا؟

ـ نعم. . .

ـ والطعام؟

ـ كان الباب يفتح ويدفع إلى بطبق به جبن أو مادة مملحة ورغيف. .

ـ والضرورة؟

ـ فى ساعة محددة يفتح الباب أيضا فيدعونى عملاق كمصارعى السيرك ويقودنى إلى مرحاض فى نهاية طرقة فأتبعه مغمض العينين تقريبا تفاديا من ألم الضوء، وما أن يغلق الباب ورائى حتى يصيح بصوت كالرعد «أسرع يا بن الكلب. . هل تبقى النهار بطوله يا بن العاهرة؟» ولك أن تتصور حالى فى الداخل. .

ـ ولا تدرى كم يوما لبثت؟

ـ الله وحده يعلم فلحيتى عند كثافة معينة لم تعد تسعفنى . .

ـ ولكنهم حققوا معك ولا شك؟

فقال متجهما :

ـ أجل . . وجدتنى يوما أمام خالد صفوان!

وسكت مضيقا عينيه فى تأثر حتى شدنى إلى مجال انفعاله .

ـ مثلت أمام مكتبه حافيا رث الجلباب مهدم الأعصاب ، وورائى شخص أو أكثر وغير مسموح لى بالتلفت يمنة أو يسرة فضلا عن النظر فيما ورائى فلم أر من المكان شيئا وتركز بصرى الكليل فى شخصه وتحللت البقية الباقية من آدميتى فى رهبة شاملة . .

وارتسم الامتعاض فى قسماته مليا ثم واصل :

ـ ورغم كل شىء انطبع منظره فى أعماقى بقامته الربعة ووجهه الضخم المستطيل وحاجبيه الغزيرين الناميين إلى أعلى وعينيه الواسعتين الغائرتين وجبهته العريضة البارزة وفكيه القويين وسحنته الخالية من أى تعبير ، ورغم كل شىء أيضا خلقت بقوة اليأس أسطورة أمل فى ذاته فقلت :

ـ أحمد الله على أننى أجد نفسى أخيرا أمام الرجل المسئول .

فأسكتتنى لكمة جاءتنى من وراء فتأهوت عاليا ، أما هو فقال :

ـ لا تتكلم إلا إذا طولبت بجواب .

وسألنى عن اسمى وسنى وعملى فأجبت وعند ذاك سأل :

ـ متى انضممت إلى الإخوان؟

فذهلت لغرابة السؤال وأدركت لأول مرة نوعية التهمة الموجهة لى وقلت بصدق :

ـ ما انضممت إلى الإخوان فى يوم من الأيام .

مامعنى هذه اللحية إذن؟

ـ لقد نبتت فى السجن .

ـ أيعنى هذا أنك عوملت معاملة غير طيبة؟

فأجبته فى شبه استغاثة :

ـ كانت معاملة مرعبة يا سيدى وبلا أدنى مبرر .

ـ ما شاء الله!

أدركت أننى أخطأت ولكن بعد فوات الفرصة أما الرجل فرجع يسأل :

ـ متى انضممت إلى الإخوان؟

فشرعت فى الإجابة قائلا :

ـ ما انضممت . .

ولكن الكلام انقطع . غصت فى الأرض بطريقة مذهلة ثم ارتفعت الأرض متحدية ضعفى بما يشبه السحر ، وسرعان ما ذاب خالد صفوان فى الظلام . أخبرنى حلمى حمادة فيما بعد أن ماردًا يقف ورائى صفعنى بقوة فأغمى على . إذن قد أغمى على ، ثم وجدتنى فى الظلام الذى أخذت منه على الأسفلت . .

قلت برثاء :

ـ يا له من عذاب!

ـ وقد انتهى فجأة وعلى غير انتظار ، فى حجرة خالد صفوان أيضا ، ساقونى إليه فبادرنى قائلا :

ـ ثبت أن اسمك دون فى السجل لأنك تبرعت بقرش لبناء جامع ودون أن تكون لك صلة بهم .

فقلت بانفعال وتهدج :

ـ ألم أقل لك ذلك يا سيدى؟

ـ الخطأ له عذر أما التهاون فلا عذر له .

ثم بقوة :

ـ نحن نحمى الدولة التى تحرركم من كافة أنواع العبودية .

ـ وإنى من أبنائها المؤمنين .

ـ اعتبر الأيام التى أمضيتها هنا ضيافة ، وتذكر دائما أنك عوملت معاملة طيبة ، أرجو أن تتذكر ذلك دائما ، وأن عشرات الرجال سهروا الليالى فى جهد متواصل حتى ثبتت لهم براءتك .

ـ الشكر لله ولكم يا سيدى . .

وضحك إسماعيل الشيخ بمرارة عند تلك الذكرى فسألته :

ـ وهل قبض على الآخرين لنفس السبب؟

ـ كان يوجد بيننا اثنان من الإخوان ، أما زينب فقد حققوا معها لعلاقتها بى وسرعان ما أفرج عنها ، وبسببى أيضا قبض على حلمى حمادة ، فلما ثبتت براءتى ثبتت بالتالى براءته .

كانت التجربة قاسية جدا ، وبسببها كفر بجهاز من أجهزة الدولة هو المخابرات أما

إيمانه بالدولة نفسها، بالثورة، فلم يتطرق إليه الشك أو الفساد وتصور أنها ـ المخابرات ـ تمارس أساليبها فى خفاء من المسئولين.

ـ فكرت عقب الإفراج عنى فى أن أرفع شكوى للمسئولين ولكن حلمى حمادة منعنى بقوة.

ـ واضح أنه لم يكن يؤمن بالدولة نفسها!

ـ بلى.

وفى أعقاب النكسة اتجه إسماعيل لأول مرة لدراسة تاريخ مصر الحديث:

ـ لا أخفى عنك أنى أعجبت بقوة المعارضة وحريتها وبالدور الذى لعبه القضاء المصرى، لم يكن العهد شرا خالصا وكان به عناصر فكرية جديرة بالاستمرار والنمو والازدهار، وكان التنكر لها من أسباب نكستنا...

* * *

وحدثنى بعد ذلك عن اعتقاله الثانى:

ـ كنت فى زيارة لحلمى حمادة فى منزله، غادرته عند منتصف الليل، ألقى القبض على فور خروجى من البيت، هكذا رجعت إلى حجرة الظلام والفراغ.

وتساءل فى حيرة عن التهمة التى ستوجه إليه، وطال انتظاره لذلك وهو يعانى عذابات الجحيم حتى مثل مرة أخرى أمام خالد صفوان.

ـ وقفت صامتا مستفيدا من تجربتى السابقة، متوقعا الشر ـ رغم ذلك ـ من جميع الجهات الأصلية، وتفرس خالد فى وجههى وقال:

ـ يا لك من داهية، حسبناك يوما من الإخوان!

فقلت بنبرة ذات مغزى:

ـ وظهرت براءتى!

ـ ولكن ما خفى كان أعظم.

فقلت بإخلاص:

ـ إنى مؤمن بالثورة، هذه هى الحقيقة الوحيدة.

فقال بسخرية:

ـ الجميع مؤمنون بالثورة، فى هذه الحجرة يجهر الإقطاعيون والوفديون والشيوعيون بإيمانهم بالثورة!

وحدجنى بنظرة قاسية ثم سأل:

ـ متى انضممت إلى الشيوعيين؟

ووثب الرفض إلى حلقي ولكنني كتمته وارتفع منكباى بحركة عكسية كأنما ليخفيا قفاى، ولم أنبس.

عاد يسأل:

ـ متى انضممت إلى الشيوعيين؟

وشعرت بالتأزم يلتف حول عنقى ولم أدر ماذا أقول فواصلت الصمت.

ـ ألا تريد أن تعترف؟

استسلمت للصمت كما تعودت أن أستسلم للبلاء فى الحجرة المظلمة فتمتم:

ـ طيب!

وندت عنه إشارة من يده. سمعت وقع أقدام تقترب فاقشعر بدنى. وإذا بشخص يقف إلى جانبى. بطرف عينى أدركت أنه أنثى. التفت نحوها فى دهشة وبدافع من شعور قهر خوفى، ورغما عنى هتفت «زينب!».

ـ ها أنت تعرفها ويهمك أمرها فيما يبدو.

ونقل عينيه الغائرتين بيننا ثم تساءل:

ـ ألا يهمك أمرها؟

تمزقت روحى دقيقة كاملة.

ـ أنت مثقف ولك خيال فهل تتصور ما يمكن أن يحل بهذه الفتاة البريئة فيما لو أصررت على الصمت؟

سألته بنبرة رثاء موجهة للدنيا جميعا:

ـ ماذا تريد يا سيدى؟

ـ إنى أسأل متى انضممت إلى الشيوعيين؟

فقلت دافنا آخر شعاع من أمل:

ـ لا أتذكر تاريخا معينا ولكننى أعترف بأننى شيوعى.

وسجلت اعترافى على ورقة ثم غادرت الحجرة بين حراسى.

أعيد إلى زنزانته فلم يلق تعذيبا إضافيا كما توقع بادئ الأمر ولكنه أيقن من الضياع.

ومضى عليه زمن لا يدريه حتى مضى به حارس يوما إلى باب مغلق وقال:

ـ لعلك اشتقت إلى رؤية صديقك حلمى حمادة!

وأزاح غطاء عن عين سحرية وأمره أن ينظر.

ـ نظرت فرأيت مشهدا غريبا تعذر عليّ احتواؤه لأول وهلة كمن يرى صورة سريالية، ثم تبين لى أن حلمى حمادة معلق من قدميه وهو صامت ساكن، مغمى عليه أو ميتا فتراجعت فزعا أترنح وغمغمت:

ـ هذا غير. .

وانحبس صوتى لدى التقائى بنظرته المصبوبة على، وتساءل:

ـ غير ماذا؟

شعرت بغثيان فعاد يسأل:

ـ هذا غير. . غير ماذا؟

ـ غير إنسانى أليس كذلك؟! والأحلام الدموية التى تحلمون بها أهى إنسانية؟

ومضى زمن أصيب فى أثنائه بإنفلونزا حادة عقب نزلة برد فى ذلك الشتاء. واستدعى للقاء خالد صفوان وهو فى دور النقاهة. وكانت أقصى أمانيه فى ذلك الوقت أن ينقل إلى أى سجن أو معتقل خارجى ولكن الرجل بادره قائلا ببرود:

ـ إنك سعيد الحظ يا إسماعيل.

فرفعت إليه عينى بذهول فقال:

ـ ثبتت براءتك أيضا هذه المرة!

خارت قواى وشعرت برغبة عميقة فى النوم.

ـ وكانت زيارتك لحلمى حمادة بريئة، أليس كذلك؟

فقلت بصوت لا يكاد يسمع:

ـ بلى يا سيدى. . .

ـ إنه شيوعى متحمس، أليس كذلك؟

لم أدر ماذا أقول وعاودنى الخوف.

ـ لقد اعترف، ومن حسن حظه أيضا أنه قد ثبت أنه لا ينتمى لتنظيم أو حزب ونحن نصيد اليوم العاملين لا الهواة!

فاستعدت الأمل فى النجاة فقال:

ـ واضح أنك تلتزم بالصمت احتراما لعهد الصداقة!

وسكت لحظة ثم استطرد:

ـ وذاك الإيمان بالصداقة يجعلنا نطمع فى صداقتك.

ترى متى يأمر بالانصراف؟

ـ كن صديقا لنا ، قلت إنك تنتمى للثورة وأنا أصدقك ، فلتكن صديقا لنا ، ألا يرضيك ذلك؟

ـ إنه ليسعدنى يا سيدى .

ـ كلنا أبناء ثورة واحدة وواجب علينا أن نصونها بقوة ، أليس كذلك؟

ـ طبعا .

ـ ولكن لا بد من موقف إيجابى ، نريد صداقة إيجابية !

ـ إنى اعتبر نفسى صديقا منذ البدء .

ـ أيرضيك أن تعلم بأن شرا يتهدد الثورة وتسكت عنه؟

ـ كلا !

ـ هذا ما نطالبك به ، وستذهب إلى زميل ليهديك سواء السبيل ، ولكننى أحب أن أذكرك بأننا قوة تملك كل شىء ولا تخفى عنها خافية ، تكافئ الصديق وتنكل بالخائن !

وعند تلك الذكرى اسود وجهه واشتد أساه فتساءلت لأخفف عنه :

ـ أكان بوسعك أن ترفض؟

فقال بحزن :

ـ ستجد دائما عذرا ما ، ولكن ذلك لا يجدى !

هكذا رجع من معتقله مرشدا ذا مرتب ثابت وضمير معذب . وحاول أن يسوغ عمله بانتمائه الثورى ولكن القلق لم يفارقه أبدا .

ـ لأول مره أجتمع بزينب وأنا غريب لدرجة ، لى حياتى السرية الخاصة المجهولة لها والتى يجب أن تظل مجهولة . .

ـ أخفيت عنها الأمر؟

ـ نفذت الأوامر والإرشادات . .

ـ لتلك الدرجة آمنت بقوة تسلطهم؟

ـ أجل ، وهو إيمان حقيقى ، يضاف إليه الخوف الذى استهلك روحى . . . وشعورى بالسقوط ، ولم أفلح فى إقناع نفسى بالشرف فكان على أن أستهتر بكل شىء ولم يكن ذلك باليسير علىّ نظرا لتركيبى الأخلاقى واستقامتى الروحية فوقعت فى التخبط والعذاب . . والأدهى من ذلك أننى وجدت زينب فى صورة جديدة تغشاها كآبة عميقة ولا أثر فيها للشعور بالنجاة فزدت إحساسا بالغربة . .

ـ ولكنها صورة متوقعة كما أنها قابلة للتغير .

ـ ولكنى لم أعثر على زينب الأصلية أبدا، وكانت ذات روح مرحة وثابة، وكان يخيل إلىّ أن روحها لا يمكن أن تقهر، ولكنها انتهت، وحاولت تشجيعها، ولكنها فاجأتنى مرة بقولها: «ما أحوجك أنت إلى من يشجعك!».

وحدث أمر خارق فى الأسبوع الأول عقب الإفراج عنه. كانا يسيران معا بعد الانصراف من الكلية فسألته:

ـ أين تذهب؟

ـ إلى الكرنك ساعة ثم إلى البيت.

فقالت وكأنما تخاطب نفسها:

ـ أود أن أخلو إليك بعض الوقت.

خيل إليه ثمة سرا يريد أن ينجلى فقال:

ـ نذهب إلى الحديقة.

ـ أريد مكانا آمنا!

وحل حلمى حمادة المشكلة بأن دعاهما إلى شقة قرنفلة ـ وهى شقته أيضا ـ وتركهما منفردين. وقال إسماعيل بقلق برىء:

ـ ستظن قرنفلة بنا الظنون.

فقالت باستهانة:

ـ لتقل ما تشاء!

وعبث به الشك، وأخذ يدها بين يديه فقبضت على يده ورفعتها إلى عنقها، وتلاقيا فى قبلة طويلة، وجدها بعدها مستسلمة بين يديه، قال:

ـ كان الأمر مفاجأة، غمرتنى سعادة ولكن شابها قلق، وانعقدت فوق رأسى تساؤلات مبهمة، وكدت أسألها عن سر استسلامها ولكننى لم أفعل..

وتبادلنا النظر حتى قال:

ـ لعلها الأحداث قد هزتها!

ـ لعلها..

ـ وساورنى ندم، واتهمت نفسى بأننى انتهزت فرصة ضعف وانهيار.

ـ هل تكرر ذلك؟

ـ كلا.

ـ بلا محاولة من جانبك أو جانبها؟

ـ بلا أى محاولة. وظلت روابطنا الخارجية وثيقة ولكن روحينا انفصلتا..

ـ موقف غريب .

ـ إنه الموت البطيء . وهو من ناحيتى له ما يفسره أما من ناحيتها فلغز من الألغاز .

ـ لا حظت تغيراً ما فى علاقتكما فى الكرنك ولكننى حسبته عارضا .

ـ سألتها عما عانت فى السجن فى المدة القصيرة التى قضتها فيه ولكنها أكدت لى أن معاناتها كانت قصيرة وتافهة . . وقد شاب إيماننا الثورى امتعاض راسخ أصبحنا أكثر استعدادا للإصغاء للنقد، انطفأ الحماس، تضاءلت الشعلة، أجل إن الإيمان الأساسى لم يقتلع، ولكننا قلنا إن الأسلوب يجب أن يتغير وأن الفساد يجب أن يستأصل وأن أعوان الساديين يجب أن يذهبوا، الثورة المجيدة أصبحت محاصرة . .

وذات مساء عادا إلى مناقشة الموضوع مع حلمى حمادة فى مسكنه، وقال حلمى حمادة :

ـ إنى أعجب كيف أنكما ما زلتما تؤمنان بالثورة!

فقال له إسماعيل :

ـ إن وجود الأمعاء بالجسم البشرى لا يقلل من جلال العقل . .

فقال حلمى ساخرا :

ـ إننا نلجأ عند العجز إلى التشبيه والاستعارة . . .

ثم قال لهما :

ـ علينا أن نعمل . .

وأطلعهما على منشور سرى سيقوم بتوزيعه مع بعض الرفاق . فقال لى إسماعيل :

ـ فوجئت بتصريحه، فزعت فزعا شديدا، تمنيت أننى لم أسمعه، وتذكرت عملى السرى الذى يطالبنى بالإبلاغ عنه فورا، تذكرته فتزلزل كيانى كله، وتراءت لعينى أعماق الهاوية التى سأتردى فيها . . .

ومضت ساعة بعد ذلك، حلمى يتكلم ونحن نصغى أو نعلق بكلمات مقتضبة، عقلى شارد تماما وحزنى ثقيل، وقلت له :

ـ اعدل عن النشاط ومزق المنشور .

فضحك هازئا وقال :

ـ يا لك من ماجن حقا! . . .

ثم مستدركا :

ـ إنه ليس الأول ولا الأخير!

وغادرنا بيته حوالى العاشرة . سرنا صامتين . أصبحت أشق أوقات علينا تلك التى

نخلو فيها إلى أنفسنا. وافترقنا، هى بحجة العودة إلى الربع وأنا بحجة الذهاب إلى الكرنك. وضربت فى الشوارع على غير هدى. عجزت عن اتخاذ قرار. وطيلة الوقت عذبنى الخوف على نفسى، على زينب، لم أتخذ قراراً. رجعت إلى الربع حوالى منتصف الليل. استلقيت فوق الأريكة بملابسى، قلت لنفسى «لأتخذن قرارا أو «أجن»، ولكننى لم أتخذ القرار، قررت تأجيل ذلك إلى الصباح ولكننى لم أنم، وكنت ما أزال مسهدا حين اقتحموا علىّ خلوتى . .

ـ تعنى رجال الأمن؟

ـ أجل.

ـ فى نفس الليلة؟

ـ فى نفس الليلة.

ـ ولكنه أمر مذهل وغير مفهوم.

ـ إنه السحر، ولا تفسير له إلا أنهم كانوا يراقبوننا معا ويتصنتون علينامن بعيد.

فقلت له مواسيا:

ـ على أى حال فإنك رفضت أن تبلغ عن صديقك.

ـ حتى ذلك لا أستطيع أن أدعيه بصدق لأننى لم أتخذ قرارا. . .

هكذا وقع الاعتقال الثالث. ومثل أمام خالد صفوان قبيل الفجر فاستقبله بوجهه البارد وقال:

ـ خنت الأمانة وسقطت فى أول امتحان.

فلم أنبس. فقال:

ـ حسن، نحن لا نقسر أحدا على صداقتنا.

وجُلد مائة جلدة ثم ألقى به فى الزنزانة، فى الظلام الأبدى.

وحدثنى عن مصرع حلمى حمادة فقال إنه مات فى حجرة التحقيق. كانت به عصبية وجرأة، استفزتهم إجاباته، تلقى صفعات فهاج غضبه وحاول أن يرد الاعتداء بمثله فانهال عليه حارس باللكمات حتى أغمى عليه، ثم تبين أنه فارق الحياة.

ـ وعشت فى الظلام زمنا لا أدريه حتى ذبت فى الظلام. . .

واستدعى ذات يوم فظن أنه ماض لمقابلة خالد صفوان ولكنه رأى وجها جديدا، فأبلغه بنبأ الإفراج عنه.

ـ وقبل أن أغادر المبنى علمت بكل شىء.

ولاذ بالصمت مليا ثم استطرد:

ـ بقصة الطوفان من أولها إلى آخرها .

ـ تعنى الحرب؟

ـ أجل، مايو، يونيو . حتى خبر القبض على خالد صفوان نفسه!

ـ يالها من ساعة! . .

ـ تخيل حالى إن استطعت!

ـ أجل . . أستطيع ذلك .

ـ وكانت الدنيا قد عبرت ذروة النكسة وأفاقت من الذهول الأول فوجدت الميدان مكتظا بالأشباح والأحاديث والحكايات والشائعات والنكات . . وانعقد الإجماع على أننا كنا نعيش أكبر أكذوبة فى حياتنا .

ـ وهل شاركت فى ذلك الإجماع؟

ـ بكل قوة العذاب الذى كان يفتت مفاصلى ، تبخر إيمانى وفقدت كل شىء .

ـ أظنك اليوم جاوزت ذلك الموقف؟

ـ درجات ولا شك ، على الأقل فإننى حريص على تراث الثورة . . .

ـ وكيف كان موقف زينب؟

ـ مثلى تماما ولكنها تكلمت قليلا ثم صمتت إلى الأبد ، أذكر أول لقاء لنا عقب الإفراج عنى . تعانقنا بميكانيكية ، قلت لها بمرارة : لنتعارف من جديد فنحن بإزاء دنيا جديدة . فقالت لى : إذن دعنى أقدم لك نفسى . أنا شخص بلا اسم ولا هوية . فقلت لها : إنى أعرف الآن تماما معنى قبض الريح . فقالت لى : الأفضل أن نعترف بحماقتنا وأن نحترمها فهى كل ما بقى لنا . فأخبرتها عن مصرع حلمى حمادة فانخطف لونها وشردت طويلا ثم قالت نحن الذين قتلناه كما قتلنا الألوف غيره . فقلت ـ غير مؤمن بما أقول ـ ولكننا ضحايا . ألا يمكن اعتبار الحمقى ضحايا . فقالت بامتعاض وسخرية إن ذلك يتوقف على درجة حماقتهم ، ثم وقعنا جميعا فى الدوامة كما تعلم ومضت تتقاذفنا خطط الحرب ومشاريع السلام ولا يلوح لنا شاطئ وثمة بارقة أمل وحيدة حيث يوجد الفدائيون .

ـ أذن فأنت تؤمن بالفدائيين؟

ـ وعلى اتصال بهم وأفكر جادا فى الانضمام إليهم ، ولا ترجع أهميتهم إلى أعمالهم الخارقة ولكن إلى مزاياهم الفريدة التى تمخضت عنها الأحداث ، إنهم يقولون لنا إن الإنسان العربى ليس كما يعتقد الكثيرون ولا كما يعتقد هو فى نفسه ولكنه يستطيع أن يكون معجزة فى الشجاعة إذا شاء .

ـ ولكن هل توافقك زينب على ذلك؟

فسكت طويلا ثم تساءل:

ـ ألم تدر بأنه لم يعد بينى وبين زينب إلا ذكريات زمالة قديمة؟! ودهشت لاعترافه بالرغم من أننى توقعته وأنه جاء مؤيدا لملاحظاتى واستنتاجاتى، وسألته:

ـ هل حدث ذلك فجأة؟

ـ كلا، ولكن ليس من اليسير اختفاء رائحة جثة إلا بدفنها، فى وقت ما وبخاصة عقب تخرجنا شعرنا بأنه آن لنا أن نشرع فى الزواج، وتحدثت معها فى ذلك رغم مشاعرى الأليمة الدفينة، فلم تعترض ولكنها لم توافق، أو قل إنها لم تتحمس، وتحيرت فى معرفة السر ولكننى ارتحت إلى الموقف بصفة عامة، ثم لم نعد نطرق الموضوع إلا فى فترات متباعدة، ولم نواظب على اللقاء كما كنا نفعل، وفى الكرنك كنا نتجالس كزميلين لا كحبيبين، ولم أنس أن بوادر تلك الحال بدأت فى أعقاب الاعتقال الثانى ولكنها استفحلت بعد الاعتقال الثالث، ومضت العلاقة الخاصة تهن وتتفتت حتى ماتت تماما..

ـ مات الحب أذن؟

ـ لا أظن...

ـ حقا؟

ـ نحن مرضى، أنا مريض على الأقل وأعرف أسباب مرضى، وهى مريضة أيضا، وقد ينتعش الحب يوما وقد يستسلم لموت أبدى، ونحن على أى حال ننتظر ولا يؤرقنا الانتظار...

إنهما ينتظران. ومنذا الذى لا ينتظر؟

زينب دياب

من أول نظرة جذبتنى زينب بحيويتها وملاحتها. بوجهها الخمرى الرائق وقسماتها النامية فى حرية وعذوبة وجسمها القوى الرشيق. ولعل استشفافها لإعجابى بها بغريزتها الفطنة هو ما مكن صداقتنا أن تتوطد وأن تتناهى إلى ذروة الثقة، وهى قد نشأت فى بيئة إسماعيل وفى ربعه. أبوها بياع لحمة رأس وأمها فى الأصل غسالة ثم صارت دلالة بعد كفاح طويل، ولها أخ سباك وأختان متزوجتان. وبفضل مهنة الأم الأخيرة وفرت للأسرة بعض ضرورات العيش وابتاعت لزينب الحد الأدنى مما يلزمها من ملابس. وكان نجاح زينب فى المدرسة أمر غير متوقع بقدر ما كان مثيراً للعجب والمتاعب. ولم يجدوا بأسا

من تركها تلهو بتلك اللعبة حتى يجىء ابن الحلال. ولذلك فإن الأم لم ترحب من بادئ الأمر بإسماعيل الشيخ وكانت تعتبر التلميذ متعطلا بلا نهاية وعقبة فى سبيل أى فتاة جميلة. وكانت أم زينب هى القوة الحقيقية فى الأسرة أما الأب فكان يكدح نهاره نظير قروش ما يلبث أن يبددها فى خمارة البوظة ويختم سعيه بمشاجرة عائلية عنيفة. ومن عجب أن الأب المتدهور كان وسيما، يمكن أن يتكشف وجهه الكالح النابت الشعر المغبر الأخاديد عن قسمات مليحة ورثتها زينب أما الأم القوية فكانت أشبه برجل خشن.

ونشبت الأزمة المتوقعة وزينب فى الثانوية العامة إذا تقدم لطلب يدها تاجر دجاج يعتبر فى الحى الفقير من الأغنياء. كان فى الأربعين، أرمل، أبا لثلاث إناث متزوجات، رحبت به الأم لينتشل بنتها من الربع والتعب الفارغ ويهيئ لها حياة سعيدة. وعندما رفضت زينب العرض غضبت الأم، ولفح غضبها إسماعيل وأسرته، ثم قالت لابنتها:

ـ ستندمين، ستبكين بالدموع الغالية..

ولم تمر الواقعة بسلام فقد أطلق التاجر لسانه فيما بين زينب وإسماعيل، ففجر بذلك عاصفة فى الربع ولكن إرادة زينب انتصرت. وكان للتجربة أثرها فى سلوكها، فتحديا للاتهامات الباغية قررت أن تحافظ على نفسها. ولم تبال أن تتهم بالرجعية فى نظر «البعض»، ولم تؤثر ثقافتها الواسعة فى موقفها.

ـ نحن نمثل المحافظة فى تقدميتها الوئيدة ولذلك وجدت فى صيغة ثورتنا ما ترتاح إليه نفسى وبه تستقر.

وكانت تفهم نفيسة إسماعيل بقدر ما تحبه، وتؤمن بتماشى موقفهما وبأنه لن يغفر لها تهاونها معه لو حدث مهما ادعى من أقوال لا يؤمن بها فى قرارة نفسه.

ـ وعم حسب الله تاجر الدجاج كان يريدنى بأى ثمن فى تلك الأيام، ولم ييأس من رفضى يده، وتشفع عندى بعجوز من المتعاملات معه ولكنى لقنته درسا!

ـ أرادك بغير زواج؟

ـ وبثمن غال.

وكانت تروى ذلك بفتور يتناقض مع الموقف فلم أفهم وقتذاك سر فتورها.

ـ وكذلك زين العابدين عبد الله فيما بعد.

ـ لا.

ـ ندت عنى فى دهشة فقالت بثقة:

ـ بلى.

ـ ولكنه مجنون بقرنفلة؟

فهزت منكبيها فتساءلت :
ـ أكان يدارى طمعه فى مالها بالتظاهر بالحب؟
ـ كلا ، كان يحبها وما زال ، ولكنه طمع فى مسرة يتسلى بها ، ولعل الوغد ظننى فتاة مستهترة .
ـ متى أعلن رغبته؟
ـ مرات ولكنى أقصد المرة الأولى عقب أول اعتقال .
ـ رغم عناده اعتقد أنه يائس من ناحية قرنفلة .
ـ ولماذا ييأس؟ إنه قابع ينتظر رزقه .
ثم ختمت قصصها العاطفية قائلة :
ـ وغيرها كثيرون!
وعند ذاك سألتها باهتمام خفى :
ـ ألم يكن المرحوم حلمى حمادة واحدا منهم؟ فأجابت بدهشة :
ـ كلا!
ـ أصارحك بأننى تخيلت بينكما حكاية!
قالت بأسى :
ـ كنا صديقين حميمين .
ثم بلهجة اعترافية :
ـ لم أحب فى حياتى إلا إسماعيل .
ـ أما زال هذا الحب قائمًا؟
ولكنها تجاهلت سؤالى .
وقصتها مع الثورة مكررة لقصة إسماعيل . وعن أول اعتقال قالت لى :
ـ قُبض علىّ لصلتى المعروفة بإسماعيل ، ولم تكن توجد شبهة ضدى ، كما أقسمت لهم بأنه لم يكن يوما من الإخوان ، ولم أحجز أكثر من يومين ولم توجه إلىّ إساءة .
وابتسمت فى أسى وقالت :
ـ المتاعب الحقيقية صادفتنى فى البيت وقالت لى أمى : هذا هو إسماعيل وهذه هى المصاعب التى تجىء من ناحيته .
وتجهم وجهها وهى تستطرد :
ـ وتصادف أن جاء اعتقالى بعد أسبوع واحد من القبض على أبى بتهمة العربدة والاعتداء على شرطى!

فقلت لها بإكبار:

ـ إن تقدمك خلال تلك الظروف نجاح باهر!

وقلت لخالد صفوان لمَ تشكون فينا؟ ألا ترى أننا أبناء الثورة وأننا مدينون لها بكل شيء؟ فكيف تتهموننا بالعَداوة؟!

فقال بسخريته الباردة:

ـ تلك حجة ٩٩٪ من أعدائنا!

وحدثنى عن إيمانها القديم بالثورة، كيف أن الاعتقال لم ينل شيئا من صميمه:

ـ غير أننا كنا نشعر بأننا أقوياء لا حد لقوتنا، أما بعد الاعتقال فقد اضطرب شعورنا بالقوة وفقدنا الكثير من شجاعتنا، وثقتنا فى أنفسنا وفى الأيام، واكتشفنا وجود قوة مخيفة تعمل فى استقلال كلى عن القانون والقيم الإنسانية، وبسبب ما نعانيه من عذاب فى فترة اختفاء إسماعيل قلت له:

ـ أليس من الحكمة أن ننطوى على أنفسنا حينا وأن نتجنب المجتمعات والأصحاب؟

ولكنه أجابنى ساخرا:

ـ لقد قبض عليهم بسببى وليس العكس.

فقلت لها معزيا:

ـ هكذا يعانى الإنسان عادة ثمنا للثورات الكبرى.

فتساءلت وهى تتنهد:

ـ متى يمكن أن تمضى الحياة عذبة بلا تعاسات مريرة؟!

ثم حدثتنى عن اعتقالها الثانى. شعرت منذ البدء أننى مقبل على سماع قصة عنيفة للذكريات.

ـ كانت التهمة تلك المرة هى الشيوعية!

ثم بتأثر عصبى:

ـ وكانت فترة لا يمكن أن تنسى.

ولما مثلت أمام خالد صفوان قال لى ساخرا:

ـ ها هى الصداقة بيننا تتوطد.

فقلت له:

ـ لا أدرى لم قبض علىّ!

ـ ولكننى أدرى.

ـ فما هو السبب يا سيدى؟

ـ السبب يرجع إلى مبادئ السيدين الجليلين ماركس ولينين!

وصمت وهو يتفرس فى وجهى بحدة ثم قال:

ـ أجيبى تحت شرط ألا ترجعى للحجة البالية، حجة كيف تشكون فينا ونحن أبناء الثورة إلخ . . . إلخ.

فقلت له وأنا يائسة تماما من إقناعه:

ـ لسنا شيوعيين وأقسم لك على ذلك.

فتمتم بغموض:

ـ يا للخسارة! . .

ورميت فى الزنزانة معرضة لعذاب مهين لا تقدر أذاه إلا امرأة فكان علىّ أن أحيا وأنام وآكل وأقضى الحاجة فى مكان واحد!

فغمغمت بأسى:

ـ لا.

ـ وكنت عرضة فى أى لحظة لأن ينظر إلى الحارس من خلال منفذ فى الباب ويتفرج على ساخرا، هل تدرك معنى ذلك؟

ـ نعم للأسف!

ـ وذات يوم استدعيت إلى مكتب خالد صفوان فى أثناء التحقيق مع إسماعيل، ولما رأيته فى ذله ويأسه طفرت الدموع إلى عينى ولعنت من صميم قلبى الدنيا، ولكننى لم أبق هناك إلا ريثما هددوه بتعذيبى ثم رجعت إلى زنزانتى القذرة لأبكى طويلا ولأتعذب يوما بعد يوم.

واستدعيت مرة أخرى إلى حجرة خالد صفوان فقال لى:

ـ أرجو أن تكونى راضية عن ضيافتنا.

فقلت بحرارة:

ـ كل الرضى يا سيدى، شكرا لكم.

ـ ها هو صديقك قد اعترف بشيوعيته!

فهتفت:

ـ تحت تأثير تهديدكم.

ـ ولكنه حقيقى بصرف النظر عن الوسيلة.

ـ قطعا لا يا سيدى، إنها لفظاعة!

فقال بغموض .

ـ إنها لروعة !

ـ روعة؟ !

فقال وهو يشير بيده إشارة خاصة :

ـ سنرى !

وسمعت أقداما تقترب حتى طوقتنى تماما ، ما عسى أن أقول؟ !

توقفت عن الكلام ، تصلبت عضلات وجهها ، وتوقعت سماع شر يفوق ما سبق ، قلت :

ـ فلننه الحديث إذا شئت؟

ـ كلا ، إنه مما يسر سماعه .

ثم وهى تنظر فى عينى بتحد :

ـ قرر أن يرى مشهدا مثيرا وممتعا وخارقا للمألوف .

فخفق قلبى بارتياع وتساءلت :

ـ ماذا تعنين يا زينب؟

ـ ما أدركته تماما !

ـ كلا !

ـ بالتمام والكمال .

ـ أمام عينيه؟

ـ أمام عينيه !

وساد صمت كأنه بكاء أخرس حتى تمتمت :

ـ أى رجل ذلك الرجل؟ !

أقصد خالد صفوان .

ـ لا غرابة فى منظره ، يصح أن يكون أستاذا فى الجامعة أو رجلا من رجال الدين .

فقلتُ بذهول :

ـ المسألة تحتاج لدراسة !

فهتفتْ بعنف :

ـ دراسة؟ ! هل ترد الدراسة إلىَّ عرضى؟

فاستحييت ولذت بالصمت .

وبعد مرور أسابيع استدعيت إلى حجرة خالد صفوان أيضا، وجدته كعادته هادئا أو أكثر هدوءا من المعتاد كأن لم يقع شىء. وباقتضاب قال:

ـ لقد ثبتت براءتكم!

نظرت إليه طويلا فجعل ينظر إلىّ بثبات ولا مبالاة، ثم صحت:

ـ أرأيت؟

فأجاب بهدوء:

ـ إنى أرى ما يمكن رؤيته!

فهتفت بحنق:

ـ ولكنى فقدت كل شىء.

ـ كلا، كل شىء يمكن إصلاحه ونحن قادرون على كل شىء.

فصرخت بجنون:

ـ لا يصدق أن ما يحدث هنا مما ترضى عنه الثورة!

ـ إنها حماية الثورة وهى أهم على أى حال من الأخطاء المحدودة، ونحن نبادر إلى إصلاح ما ينبغى إصلاحه منها، وسوف تذهبين وقد اكتسبت قيمة جديدة هى صداقتنا.

أفحمت فى بكاء عصبى طويل عجزت تماما عن مقاومته فتصبر هو هادئا حتى سكت ثم قال:

ـ ستذهبين الآن إلى أحد معاونى وسيعرض عليك مشروع صداقة لا يقدر بثمن.

وصمت لحظات ثم استطرد:

ـ نصيحتى لك ألا ترفضيه، إنه فرصة العمر!

* * *

أصبحت زينب مرشدة. عرضت عليها امتيازات. تقرر أن يكون إسماعيل رهينة حتى بعد الإفراج عنه، وطولبت بالسرية المطلقة، أفهموها أنها تعمل لحساب قوة قادرة على كل شىء.

ـ وعندما رجعت إلى بيتى وخلوت إلى نفسى هالنى ما خسرته، خسارة حقا لا تعوض بأى ثمن، ولأول مرة فى حياتى وجدتنى أحتقر نفسى حتى الموت.

قلت معزيا:

ـ ولكن..

فقاطعتنى!

ـ إياك وأن تدافع عنى ، إن الدفاع عن الهوان من ضمن الهوان .
ثم بحدة :
ـ وجعلت أردد بإصرار ، إنى جاسوسة وعاهرة! وعلى تلك الحال قابلت إسماعيل .
ـ طبعا أخفيت عنه أسرارك؟
ـ أجل .
ـ لقد أخطأت يا عزيزتى .
ـ كان عملى السرى أخطر من أن أفشيه لأى إنسان .
ـ أعنى المسألة الأخرى؟
ـ منعنى الخوف والخجل ، والأمل أيضا ، توهمت بعد أن أصلح الخطأ بالجراحة أننى يمكن أن أطمح إلى السعادة مرة أخرى .
ـ ولكن ذلك لم يحصل ، حتى الآن؟
فتمتمت بحزن عميق :
ـ هيهات!
فقلت برجاء :
ـ لعلى أستطيع أن أصنع جميلا .
فقالت بنبرة ساخرة :
ـ هيهات ، انتظر حتى أكمل قصتى ، ربما أكون قد أخطأت ولكننى اندفعت فى الطريق الوحيد المتاحة لى وهى تعذيب النفس ، وإنزال أقصى العقوبة بها . واعتمدت على منطق غير عادى ، قلت إننى ابنة للثورة ، ورغم كل ما حدث لم أكفر بجوهرها ، وإذن فإننى مسئولة عنها ومتحملة لمسئوليتها بالكامل ، وضمنا فإنى مسئولة عن كل ما حل بى . لذلك رفضت التظاهر بحياة الشرفاء وقررت أن أعيش كما ينبغى لامرأة بلا كرامة . . .
ـ شد ما ظلمت نفسك .
ـ وكنت أحتمل كل شىء إلا أن يحتقرنى إسماعيل ، وفى الوقت نفسه لم أرد أن أخونه ، ثم اضطرب تفكيرى فضل ضلالا كبيراً .
وهزت رأسها فى أسى وقالت :
ـ وحدثت أمور كثيرة تعذر معها إصلاح الحال أو الوجوع إلى نقطة الصواب . . ورآنى فى تلك الحال عم حسب الله تاجر الدجاج .
رمقتها بقلق شديد فقالت :

ـ وجد الطريق ممهدة تلك المرة .

ـ لا .

ـ لم لا؟ قلت هكذا ينبغى أن تمضى حياة الساقطة ، ولا يجوز السقوط بلا ثمن . .

ـ لا أصدق .

ـ وقبضت الثمن . .

شعرت بقرف الدنيا كلها وجعلت تحدجنى بنظرة ساخرة ثم قالت بتحد :

ـ وزين العابدين عبد الله أيضا !

فاعتصمت بالصمت فقالت :

ـ وسَّط لدى إمام الفوال الجرسون وجمعة مساح الأحذية .

ـ طالما اعتقدت فى شرفهما ووطنيتهما . . .

فقالت بدهشة :

ـ كانا كذلك ولكنهما تدهورا مثلى تماما ، ماذا حصل للناس؟ يخيل إلى أننا صرنا أمة من المنحرفين ، تكاليف الحياة والهزيمة والقلق تفتت القيم . إنهما يسمعان عن الانحراف فى كل مكان فماذا يمنعهما منه؟ أؤكد لك أنهما يحترفان القوادة الآن ، وبلا حياء . . .

فتنهدت متسائلا :

ـ هل نيأس يا زينب؟

ـ كلا ، إنها فترة كالوباء ثم تتجدد بعدها الحياة .

فواصلت تقول دون اكتراث بكلامى :

وقررت أن أعترف لإسماعيل !

فقلت دهشا :

ـ ولكنك قلت غير ذلك؟

ـ قررت أن أعترف له بطريقة مبتكرة فسلمته نفسى !

ـ الحق أنى عاجز عن فهم ما بينك وبين إسماعيل؟

ـ من العبث أن تحاول الوصول إلى منطق ثابت من خلال عاصفة . .

ـ هل تحبين إسماعيل؟

ـ لم أحب أحدا سواه .

ـ ماذا عن الآن؟

ـ إنى أشعر الآن بالموت لا الحب . .

ـ زينب، إنك مازلت شابة فى مطلع الحياة وسوف يتغير كل شىء.
ـ إلى أحسن أم إلى أسوأ؟
ـ لا يوجد أسوأ مما نحن فيه فلابد أن يكون التغيير إلى الأحسن..
ـ لنعد إلى قصتنا، كان لى عزاء فيما أفعل بنفسى هو الشعور بعذاب العقوبة حتى ارتكبت مالا يمكن التكفير عنه بأى عقوبة..
ـ حقا؟
ـ أجل، بدأت تفزع منى؟
ـ إنى أرثى لك يا زينب.
ـ ذهبت ذات مساء أنا وإسماعيل إلى بيت حلمى حمادةوجدناه ثائرا، واعترف لنا بأنه يوزع منشورات سرية..

وتوقفت عن الكلام تأثرا للذكرى فرحبت بالاستراحة باعتبارها هدنة فى معركة العذاب.

ـ بوغتّ باعترافه وتمنيت لو أننى تخلفت عن الاجتماع..
ـ إننى أفهمك جيدا.
ـ وتذكرت القوة القادرة على كل شىء، ركبنى الخوف، وخفت أول ما خفت على إسماعيل!

آه.. لقد اعتقد إسماعيل أنهم اكتشفوا تقاعسه عن الإبلاغ بوسائلهم الخاصة ولم يخطر بباله أن التى أوقعته هى زينب. وأنها أوقعته وهى تتوهم أنها تدفع عنه الأذى!

وتبادلنا النظرات فى صمت مثقل بالحزن حتى قالت:

ـ أنا التى قتلت حلمى حمادة!

فقلت بصدق:

ـ قتله من قضى عليك بالعذاب..
ـ أنا التى قتلته، ورغم كل شىء قبض على إسماعيل أيضا، لماذا، لا أدرى، وطال اعتقاله أكثر من المرتين السابقتين، ورجع أشد تهدما، لماذا؟ لا أدرى، لقد سجلت فى تقريرى أنه عارض صاحبه ونصحه بالعدول عن مشروعه. ولكن من العبث محاولة الاحتكام إلى المنطق..
ـ كنت أنت طليقة فى تلك الأثناء؟

فقالت بسخرية:

ـ كنت حرة، أستمتع بحريتى، وبالوحدة والعذاب، ثم جاءت مقدمات الحرب

ونذرها، ومثل الناس جميعا وثقت بقوتنا إلى غير حد وقلت لنفسى إن كل شىء بخيره وشره سيخلد إلى الأبد، فلما وقعت الواقعة . .

وصمتت فى ذهول فقلت:

ـ لا داعى للشرح فقد عانيناه بأنفسنا ولكن هل أيدت جماهير ٩، ١٠؟

ـ نعم، بكل قوة . .

ـ إذن ظل إيمانك لا يتزعزع؟

ـ بل لقد انهار من أساسه وآمنت بأنه كان قصرا من رمال.

ـ اسمحى لى بأن أصارحك بأننى لا أفهم موقفك . .

ـ الأمر بسيط جدا، لقد أشفقت من حمل المسئولية فجأة، خفت الحرية بعد أن استنمت طويلا إلى اللامبالاة. وأنت أكنت من الجماهير تلك اللحظة؟

ـ نعم كنت أتعلق بآخر رمق من الكبرياء الوطنى!

فقالت بحدة:

ـ عندما علمت بخبر الإفراج عن إسماعيل قلت لنفسى «سأراه مرة أخرى بفضل الهزيمة!».

وتفكرت فى قولها بحزن وألم بالغين.

وحدثتنى عن هذيان أول لقاء تم بينها وبين إسماعيل عقب الإفراج عنه:

ـ ولما تخرجنا وتوظفنا طغى حديث الزواج كضرورة يفرضها الحياء، كنا نردده بلا إيمان ونعبره إلى العزلة» وليس غريبا أن أتغير وأن أتخلى عن حلم الماضى ولكن ماذا غيَّره هو؟ . . . ماذا حدث له فى أعماق السجن؟

كل منهما مقتنع بتغيره هو ولكنه يتساءل عن تغير الطرف الآخر. وكل منهما مقتنع بأنه غير صالح للحياة الطبيعية. وأنا مقتنع معهما بذلك على الأقل فى هذه الفترة التعيسة، إذ يلزم وقت كاف لتضميد الجراح وتطهير النفس، بل يلزم عمل يكون من شأنه إعادة الثقة إلى النفس والاحترام إلى الشخصية. غير أن مناقشة تلك الأمور تعذرت علىّ بطبيعة الحال ولكننى قلت متسترا بالعموميات:

ـ الإنسان لا يتغير ـ أعنى إلى أحسن ـ لا بالاستسلام ولا بالانتظار . .

فقالت بامتعاض:

ـ ما أسهل التفلسف!

ـ ربما، ولكن إسماعيل يتوجه بقلبه هذه الأيام نحو الفدائيين.

ـ أعرف ذلك.

فتساءلت بعد تردد:

- وفيم تفكرين أنت؟

فصمتت فترة غير قصيرة ثم قالت:

- قبل أن أجيبك عليّ أن أصحح واقعة تخص إمام الفوال وجمعة، فالحق أن وساطتهما بين زين العابدين وبيني عقب الاعتقال الثانى تمت بجهل وبراءة..

- أتعنين أنهما بريئان مما رميتهما به؟

- كلا، ولكنهما سقطا فى الأعوام الأخيرة لا قبل ذلك، وقد التبس عليّ الأمر وأرجو أن تذكر أننى أروى قصتى من الذاكرة وأنى لا أضمن الدقة فى تفاصيلها..

فهززت رأسى وكررت سؤالى:

- فيم تفكرين الآن؟

- أيهمك حقا أن تعرف؟

- الحق أنى لا أتصور أنك مستمرة فى..

وتوقفت رغما عنى. فقالت تكمل كلامى:

- ممارسة البغاء؟

فلم أنكر ولم أوافق فقالت:

- أشكر لك حسن ظنك.

فلم أعلق بكلمة فقالت:

- إنى أمارس حياة متقشفة بكل معنى الكلمة.

فتساءلت بفرح:

- حقا؟

- أجل.

- وكيف حدث ذلك يا زينب؟

- سرعان ماحدث، بثورة مضادة، ونتيجة لقرف لا يزول...

ثم تساءلت بحنان:

- أين أيام البراءة والحماس أين؟!

خالد صفــوان

فى الكرنك يسيطر حديث واحد، يوما بعد يوم، أسبوعا بعد أسبوع، شهرا بعد شهر، عاما بعد عام، لا حديث لنا سواه. الجميع فى ذلك سواء. . . محمد بهجت، رشاد مجدى، طه الغريب، زين العابدين عبد الله، إسماعيل الشيخ، زينب دياب، عارف سليمان، إمام الفوال، جمعة وشبان جدد هم آخر عينة فى تعاقب الأجيال، أما قرنفلة فقد انزوت فى ثوب الحداد تراقب وتصغى أحيانا ولا تخرج من الصمت.

ويضنينا الملل كثيرا حتى يقول قائلنا:

ـ اختاروا موضوعا آخر قبل أن نجن.

فنتحمس لاقتراحه بالألسنة، نطرق موضوعا ما، نعالجه بفتور فسرعان ما يلفظ أنفاسه فنعود إلى موضوعنا الباقى، نقتله ويقتلنا بلا توقف، بلا نهاية.

ـ الحرب، لا سبيل إلا الحرب.

ـ بل العمل الفدائى ونركز على الدفاع.

ـ الحل السلمى ممكن أيضا.

ـ الحل الوحيد الممكن هو ما تفرضه الدول الكبرى مجتمعة.

ـ المفاوضة تعنى التسليم.

ـ المفاوضة ضرورة، كل الأمم تتفاوض، حتى أمريكا والصين وروسيا وباكستان والهند.

ـ الصلح معناه أن تسيطر إسرائيل على المنطقة وتزدردها لقمة سائغة.

ـ كيف نخشى الصلح؟ هل ازدردنا الإنجليز أو الفرنسيون؟

ـ إذا أثبت المستقبل أن إسرائيل دولة طيبة عايشناها، وإن ثبت العكس أزلناها كما أزلنا الدولة الصليبية من قبل. . .

ـ المستقبل لنا، انظر إلى عددنا وثرواتنا. . .

ـ المسألة علم وحضارة. .

ـ إذن فلنحارب، لا حل إلا الحرب. .

ـ روسيا لا تمدنا بالسلاح الضرورى.

ـ لم يبق إلا حالة اللاسلم واللاحرب. . .

ـ هذا يعنى الاستنزاف الدائم لنا . .

ـ معركتنا الحقيقية معركة حضارة، السلم أخطر علينا من الحرب .

ـ فلنسرح الجيش ولنبن أنفسنا من جديد .

ـ لنعلن الحياد ونطالب الدول الاعتراف به .

ـ والفدائيون؟ أنت تتجاهل القوة الفعالة فى الموقف . . .

ـ لقد انهزمنا وعلينا أن ندفع الثمن ونترك الباقى للمستقبل . . .

ـ عدو العرب الحقيقى هو العرب أنفسهم . . .

ـ قل الحكام .

ـ قل أنظمة الحكم .

ـ كل شىء يتوقف على اتحاد العرب فى العمل .

ـ لقد انتصر نصف العرب على الأقل فى ٥ يونيو!

ـ لنبدأ بالداخل، لامفر .

ـ عظيم، الدين، الدين هو كل شىء .

ـ بل الشيوعية!

ـ بل الديمقراطية .

ـ لترفع الوصاية عن العرب . . .

ـ الحرية . . . الحرية . .

ـ الاشتراكية . .

ـ لنقل الاشتراكية الديمقراطية . .

ـ لنبدأ بالحرب ثم نتفرغ للإصلاح .

ـ بل نبدأ بالإصلاح ثم تتقرر الحلول فى المستقبل .

ـ يجب أن يسير الاثنان معا .

وهكذا إلى ما لا نهاية . .

وذات مساء جاء المقهى رجل غريب يتأبط ذراع شاب، فجلس على كثب من المدخل، وقال للشاب بصوت آمر :

ـ سأنتظرك هنا حتى تشترى الأدوية ، أسرع .

وذهب الشاب ولبث الآخر جالسا . كان متوسط القامة، ذا وجه ضخم مستطيل وحاجبين غزيرين عريضين، وعينين واضحتين غائرتين، وجبهة بارزة، وكان شاحب اللون كأنه مريض أو فى دور النقاهة . وسرعان ما همس إسماعيل الشيخ فى أذنى :

ـ أرأيت الرجل الغريب عند المدخل؟ . . انظر إليه . .

وكان قد لفت نظرى كأى غريب يطرأ على المقهى ، فسألته :

ـ ما له؟

فأجاب بصوت متهدج :

ـ إنه خالد صفوان!

فاجتاحنى الذهول وغمغمت :

ـ خالد صفوان!

ـ دون غيره .

ـ هل أفرج عنه؟

ـ انقضت مدة سجنه وهى ثلاث سنوات ولكن أمواله مصادرة .

ورحت أسترق إليه النظر بحب استطلاع وتعجب ، أود أن أشرحه لأعثر على العضو الزائد أو الناقص فى كينونته . وانتقل الخبر من فرد إلى فرد حتى ساد الصمت وتناوبته الأبصار . وغفل عنا حينا ثم مضى يستشعر التطلعات المبهمة من حوله فتنبه إلينا كمن يستيقظ من نوم . تحركت عيناه الغائرتان ببطء وحذر ، رأى ولا شك وجوها يعرفها حق المعرفة مثل زينب وإسماعيل ، ونظر باهتمام إلى قرنفلة ، ثم مد ساقيه ، وتقلصت شفتاه ، لعله ابتسم ، أجل لقد ابتسم ، ولكنه لم يضطرب كما توقعت ، لم يخف وعنه ند صوت ضعيف يقول :

ـ هاللو!

ونظر إلى الوجوه التى يعرفها وقال :

ـ وقد يلتقى الشتيتان . . . !

وأغمض عينيه لحظة ثم قال وكأنما يخاطب نفسه :

ـ شد ما تغيرت يا دنيا ، إنى أعرف هذا المقهى ، ها نحن نجتمع فى مكان مع أسوأ الذكريات . .

فقالت قرنفلة ولم نكن سمعنا صوتها من زمن طويل :

ـ حقا أسوأ الذكريات!

فوجه إليها الخطاب قائلا :

ـ لست الحزينة وحدك اليوم .

ثم بصوت أقوى :

ـ كلنا مجرمون وكلنا ضحايا .

فقالت بحدة :

ـ المجرم شخص والضحية شخص آخر . .

ـ كلنا مجرمون وكلنا ضحايا، من لم يفهم ذلك فلن يفهم شيئا على الإطلاق . . .

وعند ذلك رجع الشاب فسلمه لفافة الأدوية وأشار إلى الروشتة وهو يقول :

ـ هذا الدواء غير موجود فى السوق .

فنهض خالد قائلا :

ـ عظيم، المرض موجود أما الدواء فغير متوافر . .

ونظر إلينا وهو يهم بالذهاب وقال :

ـ لعلكم تتساءلون ما قصته؟ ما قصة ذلك الرجل؟ تجدونها فى هذه الكلمات المنثورة :

براءة فى القرية .

وطنية فى المدينة .

ثورة فى الظلام .

كرسى يشع قوة غير محدودة .

عين سحرية تعرى الحقائق .

عضو حى يموت .

جرثومة كامنة تدب فيها الحياة .

ثم مضى يقول :

ـ إلى اللقاء .

وخلف وراءه ذهولا شاملا، قال قوم إنه يهذى، وقال آخرون إنه يهزأ بنا، وغير هؤلاء وأولئك قالوا إنه يحاول الدفاع عن نفسه، إنه يقول إنه بدأ من البراءة وأن قوى غشومة أفسدته، ولكن ما العين السحرية؟ ما العضو الحى الذى مات؟ ما الجرثومة الكامنة التى دبت فيها الحياة؟!

* * *

وبعد مرور شهر فاجأنا بحضوره كأول مرة، تساءلنا لماذا يعود؟ لمَ لم يختر مكانا آخر لينتظر فيه؟ . . أهو يتحدانا؟ . . أهو يستعطفنا؟ . . أثمة قوة خفية تدفعه نحونا؟

قال وهو يجلس :

ـ أسعد الله مساكم . .

ثم وهو يقلب عينيه فى وجوهنا :

ـ عندما يأمر الله بالشفاء سأنضم إلى مجلسكم . .

فسأله منير أحمد وهو آخر من انضم إلينا من أحدث الأجيال :

ـ هلا فسرت لنا كلمتك المنثورة؟

فقال بيقين :

ـ إنها واضحة بنفسها ولا تحتاج إلى تفسير، ثم إننى أكره الخوض فى ذلك!

فقالت له قرنفلة :

ـ يا خالد بك . . إنك تزعجنا!

فقال بهدوء :

ـ أبدا، لا شىء يقرب بين الناس مثل العذاب المشترك!

ثم بعد صمت قصير :

ـ أعدكم بالانضمام إليكم فى أول فرصة!

وضحك ضحكة خافتة وتساءل :

ـ فيم تتحدثون؟

وسكتنا فى حذر ، فقال :

ـ إنى أعرف ما يقال، إنه يقال فى كل مكان، اسمحوا لى أن أوضح لكم البواعث .

واعتدل فى جلسته ثم واصل حديثه :

ـ يوجد فى وطننا دينيون، وهؤلاء يهمهم قبل كل شىء أن يسيطر الدين على الحياة، فلسفة وسياسة وأخلاقا واقتصادا، وهم يرفضون التسليم للعدو ويأبون المفاوضة معه ولا يرضون عن الحل السلمى إلا أن يحقق لهم ما يحققه النصر نفسه، أو فإنهم ينادون بالجهاد، ولكن أى جهاد؟ تراهم يحلمون بخوارق الفدائيين أو بمعجزة تنزل من السماء. وقد يقبلون السلاح الروسى وهم يلعنون الروس وبشرط أن يجىء دون قيد أو شرط، ولعلهم يفضلون حلا سلميا مشرفا يتحقق بتدخل أمريكا وينهى علاقتنا بروسيا الشيوعية نهائيا .

وصمت لحظات ثم واصل :

ـ ويوجد يمينيون من نوع خاص، يتمنون التحالف مع أمريكا وقطع العلاقات مع روسيا، ويرضون بحل سلمى مع تنازلات لا مفر منها، ثم يحلمون بالتخلص من النظام الحالى، والعودة إلى الديمقراطية التقليدية والاقتصاد الحر .

ويوجد شيوعيون ـ والاشتراكية فصيلة منهم ـ يهمهم قبل كل شىء ـ الأيدولوجية وتوثيق العلاقات بروسيا، ويرون أن خير الوطن وتقدمه لن يتحققا إلا من خلال الأيدولوجية ولو طال الانتظار، ولذلك فهم يرحبون بالحل الذى يرسخ الاتجاه نحو الشيوعية وروسيا سلما كان أو حربا، أم الحالة التى يطلق عليها اللاسلم واللاحرب .

ومن عجب أنه أكتسب شعبية عقب انصرافه، ونوه كثيرون بقيمة عرضه، وبثراء مخزونه من الأسرار، بل وجد من يدافع عنه فيقول إنه لم يكن مسئولا عن جرائمه أو لم يكن يتحمل المسئولية الأولى، حتى قالت قرنفلة محتدة:

ـ زحزحوا المسئولية من شخص لشخص حتى تستقر فى النهاية فوق كاهل جمعة مساح الأحذية!

ولكن وجد استعدادا لقبوله إذا قرر حقا الانضمام إلى الكرنك.

* * *

ونسى أمره تماما خلال ثلاثة أشهر، ولما جاءنا مع تابعه فى نفس الميعاد من المساء استقبل استقبالا عاديا كأنه فرد عادى من الناس، ووجد نفسه فى عزلة. ولذلك فتح هو الحديث من ناحيته فتساءل مقتحما لا مبالاتنا:

ـ أما زلتم تتحدثون؟..

فقال له زين العابدين عبد الله:

ـ كالعادة!

فأصر على أقحام نفسه قائلا:

ـ لقد حدثتكم عن آراء الطوائف ولكننى لم أحدثكم عن رأيى.

فسأله منير أحمد:

ـ عن الحرب؟

فقال بعجلة:

ـ هذه النقطة بالذات تحير العقول ولكنى أراها بسيطة. فثمة هزيمة، وعدم استعداد للحرب، فيجب أن نحلها دون إبطاء ولو دفعنا الثمن، لننفق كل مليم على تقدمنا الحضارى، ولكنى فى الحق أريد أن أتكلم عن حياتنا بصفة عامة.

ونجح فى أن يلفت الأنظار إليه فقال:

ـ سأعترف لكم فى الدقائق الباقية لى هنا بخلاصة تجربتى، لقد خرجت من الهزيمة أو قل من حياتى الماضية مؤمنا بمبادئ لن أحيد عنها ما حييت، ما هى هذه المبادئ؟

أولا ـ الكفر بالاستبداد والدكتاتورية.

ثانيا ـ الكفر بالعنف الدموى.

ثالثا ـ يجب أن يطّرد التقدم معتمدا على قيم الحرية والرأى واحترام الإنسان وهى كفيلة بتحقيقه.

رابعا ـ العلم والمنهج العلمى هو ما يجب أن نتقبله من الحضارة الغربية دون مناقشة أما ما عداه فلا نسلم به إلا من خلال مناقشة الواقع متحررين من أى قيد قديم أو حديث .

ثم تثاءب وهو يقول :

ـ هذه هى فلسفة خالد صفوان التى تعلمها فى أعماق الجحيم ، والتى أعلنها فى الكرنك حيث يجمعنا النفى والجريمة .

* * *

ملت نحو منير أحمد وقلت :

ـ لعل أيامكم تكون أفضل .

فقال :

ـ أمامنا جبل شاهق علينا أن نزيحه .

فقلت بصدق :

ـ الحق أنكم ـ أنت وزملاؤك ـ ثمرة لم تكن متوقعة ، فمن ظلام شامل انبعث نور باهر كأنما تخلق بقوة السحر .

ـ إنك لا تدرى بآلامنا .

ـ ولكننا شركاء .

رمقنى بشدة فسألته :

ـ خبرنى ما أنت؟

ـ ماذا تعنى؟

ـ تحت أى صفة سياسية يمكن أن أصنفك؟

فقال بضجر :

ـ اللعنة على الصفات جميعا .

ـ من حديثك اقتنعت بأنك تحترم الدين؟

ـ ذلك حق .

ـ وفهمت أيضا أنك تحترم اليسارية؟

ـ ذلك حق .

ـ إذن فما أنت؟

ـ أريد أن أكون بلا زيادة ولا نقصان .

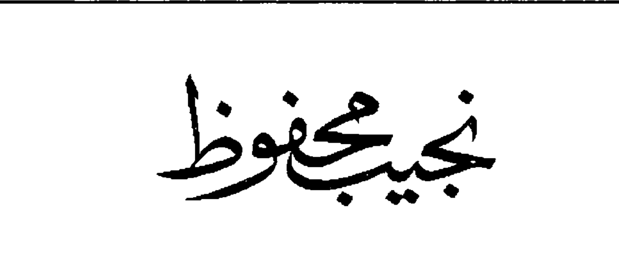
فتفكرت قليلا وقلت :

ـ أهو شوق للأصالة؟

ـ ربما .

- أيعنى إذن الاتجاه نحو الحضارة الغربية؟
- كلا .
- إذن فأين توجد الأصالة؟
فأشار إلى صدره وقال :
- هنا .
فتفكرت مرة أخرى ثم قلت :
- لعل الأمر يحتاج إلى مزيد من المناقشة .
فقال ببراءة :
- أعتقد أنه ينبغى أن نتناقش طويلا .
وأعلنت إعجابى بالشاب كثيرا حتى برم بى زين العابدين عبد الله فقال لى مرة هازئا :
- سيجد نفسه بعد عامين أو ثلاثة موظفا بمبلغ زهيد فيختار بين أمرين لا ثالث لهما ، الانحراف أو الهجرة؟
فغضبت قرنفلة وقالت له بحدة :
- متى تخطئ فتنطق بكلمة طيبة ولو مرة؟
فابتسم الرجل فى استسلام وقال :
- الحقيقة مرة يا صاحبة السعادة .
فقالت بعناد :
- يوجد سبيل ثالث .
فسألها بخضوع :
- ما هو يا مولاتى؟
- هو الذى سيختاره صاحبنا!
سررت جدا بانفعالها وعددته علامة طيبة على بدء العودة إلى الحياة مرة أخرى ، ولكن خطر لى خاطر مثير ، وتساءلت ترى هل شرعت قرنفلة تميل إلى الطالب؟ هل سيحل يوما محل حلمى حمادة؟ إنى لا أجهل حال بعض النساء فى تلك السن وولعهن بالمراهقين ، والتفانى فى ذلك لحد المغامرة والهوس ، ووجدتنى أتمنى - لو وقع شىء مما دار بخاطرى - أن يمضى على صراط متوازن بلا أنانية من جهة ولا استغلال من الجهة الأخرى ، ليتحقق للحب النقاء والبراءة .

ديسمبر : ١٩٧١



العنوان	النوع	السنة
١ ـ مصر القديمة	ترجمة	١٩٣٢
٢ ـ همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ ـ عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ ـ رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ ـ كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ ـ القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥
٧ ـ خان الخليلى	رواية	١٩٤٦
٨ ـ زقاق المدق	رواية	١٩٤٧
٩ ـ السراب	رواية	١٩٤٨
١٠ ـ بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩
١١ ـ بين القصرين	رواية	١٩٥٦
١٢ ـ قصر الشوق	رواية	١٩٥٧
١٣ ـ السكرية	رواية	١٩٥٧
١٤ ـ اللص والكلاب	رواية	١٩٦١
١٥ ـ السمان والخريف	رواية	١٩٦٢
١٦ ـ دنيا الله	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ ـ الطريق	رواية	١٩٦٤
١٨ ـ بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ ـ ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ ـ ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ ـ أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧

٢٣ ـ خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢
٤٠ ـ رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢
٤٢ ـ أمام العرش (حوار بين الحكام)	رواية	١٩٨٣
٤٣ ـ رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣
٤٤ ـ التنظيم السرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ العائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥
٤٦ ـ يوم قتل الزعيم	رواية	١٩٨٥
٤٧ ـ حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧
٤٨ ـ صباح الورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ قشتمر	رواية	١٩٨٨
٥٠ ـ الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨

٥١ ـ أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ القــرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ صــدى النسـيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ فتــوة العطــوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ أحـلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤

رقم الإيداع ١٧٥١٠ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولى 2 - 1784 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)


6 221102 018227